

سلسلة شروعات ومؤلفات معاني الشيخ صالح الفوزان (٤٥)

تعلقات على

اخْتِيارُ اللّهُفَاتِ

مِنْ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ

تأليف

الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد

شمس الدين ابن قيس الجوزية

(٦٩١ - ٥٧٥ هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

بقر الله ذلالته وعلو مسابغته

استوفى به وأمرن بحلق طبعه

د. سلمان جابر عثمان المعجله من السونيلة

بقر الله ذلالته وعلو مسابغته



مكتبة الإصدار الحديث

الرياض

الكتاب الحديث

الرياض

اخْتِيارُ اللّهُفَاتِ

تَعْلِيْقَاتُ عَلِيٍّ

إِغْثَا شَرَّ اللَّهْفَانِ

مِنْ مَصَايِدِ الشَّيْطَانِ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبدالله

تعليقات على إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، / صالح بن فوزان

بن عبدالله الفوزان؛ سلمان جابر المجلهم، - الرياض، ١٤٤٣ هـ

٤ مج، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٢-٠٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٤-٠٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- الوعظ والإرشاد أ. المجلهم، سلمان جابر (محقق) ب. العنوان

١٤٤٣/٦١٤

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٦١٤

ردمك: ٢-٠٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٤-٠٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى
(١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م)



مكتبة التراث الذهبي للنشر والتوزيع

* الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثني - مجمع البديري

ت: ٢٢٦١٢٠٠٤ فاكس: ٢٢٦٥٧٨٠٦

* فرع المصاحف: حولي - مجمع البديري ت ٢٢٦١٥٠٤٦

* فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

* فرع الجهراء: الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨

* فرع الرياض: المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٥٥٧٦٥١٣٨ - ٥٥٧٦٥١٣٨

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٥٥٥٩٠٥٤٤٠٩٦٥

E-mail: z.zahby74@yahoo.com

imamzahby

تَعْلِيْقَاتٌ عَلَى
اِخْتِصَارِ اللُّهُفَاتِ
مِنْ مَصَائِدِ الشَّيْطَانِ

تَأَلَّفَ
الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد
شمس الدين ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

الشَّرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صاحب الأثرين فوزان بن جبر الله الفوزان
عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَطَبِيعِ الْمَسَائِدِ

اعتنى به وأسرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجاهد السويلي
عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَوَلَدَيْهِ وَلِشَايِخِهِ



فصل

فإذا عُرف ذلك، فالمحبةُ هي التي تُحرِّكُ المحبَّ في طلب محبوبه الذي يكْمُلُ بحصوله له، فتُحرِّكُ مُحِبَّ الرحمن، ومُحِبَّ القرآن، ومُحِبَّ العلم والإيمان، ومحِبَّ المتاع والأثمان، ومحِبَّ الأوثان والصُّلْبَان، ومحِبَّ النسوان والمُردان، ومحِبَّ الأوطان، ومحِبَّ الإخوان، فتثير من كل قلبٍ حركةً إلى محبوبه من هذه الأشياء، فيتحرَّكُ عند ذكر محبوبه منها دون غيره.

ولهذا تجدُ مُحِبَّ النسوان والصبيان، ومحِبَّ قرآن الشيطان بالأصوات والألحان لا يتحرَّكُ عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتى إذا ذُكِرَ له محبوبه اهتزَّ له وربَّأ، وتحركَ باطنه وظاهره شوقاً إليه، وطرباً لذكره. فكل هذه المحابِّ باطلة مُضمحلَّة، سوى محبة الله وما والاها من محبة رسوله، وكتابه، ودينه، وأوليائه. فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام مَنْ تَعَلَّقت به، وفضلها على سائر المحابِّ كفضل مَنْ تَعَلَّقت به على ما سواه، وإذا انقطعت علائق المحيِّين، وأسبابُ نوادهم ومحابِّهم، لم تنقطع أسبابها.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَتُحرِّكُ مُحِبَّ الرحمن، ومُحِبَّ القرآن، ومُحِبَّ العلم والإيمان، ومحِبَّ المتاع والأثمان، ومحِبَّ الأوثان والصُّلْبَان، ومحِبَّ النسوان والمُردان، ومحِبَّ الأوطان، ومحِبَّ الإخوان)، المحبة تتنوع، من الناس من يحب الخير، ومن الناس من يحب الشر، ومن الناس من يحب رؤية النساء

والتطلع إليهن، ومن الناس من يتعفف ويغض بصره عن ذلك، فالله جَلَّ وَعَلَا هو الذي جعل في الناس هذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومحبُّ قرآن الشيطان بالأصوات والألحان)، ويقصد به الغناء، والغناء هو قرآن الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن)، أصحاب الأغاني إنما يتحركون ويتلذذون بسماع الأغاني، ولا يتحركون عند سماع القرآن ولا يتلذذون به؛ لأنهم لا يميلون إليه، فهم يميلون إلى الأغاني وصوت الشيطان، ولا يميلون إلى القرآن؛ ولهذا يقول ابن القيم^(١):

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

فالذي يحب الأغاني لا يحب القرآن، والذي يحب القرآن لا يحب الأغاني.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكل هذه المحاب باطلة مُضْمَحَلَّة، سوى محبة الله وما والاها من محبة رسوله، وكتابه، ودينه، وأوليائه)، كل المحاب تنقرض وتذهب إلا محبة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحبة كتابه وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبة الصالحين، فالمحبة في الله والله تبقى.

﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾: يعني يوم القيامة.

﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]: المتقون لا تنقطع محبتهم بينهم، بل

تبقى في الآخرة.

(١) انظر: النونية مع شرحها لأحمد بن عيسى (٢/ ٥٢١).

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

قال عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المودَّة^(١).

وقال مجاهد: توأصلهم في الدنيا^(٢).

وقال الضحاك: يعني: تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار^(٣).

وقال أبو صالح: الأعمال^(٤).

والكل حق، فإن الأسباب هي الوصل التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وأما أسباب الموحددين المخلصين لله فأتصلت بهم، ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم، فإن السبب تبع لغايته في البقاء والانقطاع.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦])، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٧/٣)، وابن أبي حاتم (٢٧٨/١)، والحاكم (٢٩٩/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصححه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٦/٣)، وابن أبي حاتم (٢٧٨/١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٧٨/١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٧٩/١).

حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿البقرة: ١٦٥، ١٦٦﴾.

قالوا: أسباب المحبة، تقطعت بهم، لا يبقى إلا من يحب الله ويحب من يحبه الله، هذه تبقى، أمّا المحابُّ الأخرى: الشهوات والملاذُّ والمحبة على معصية الله، فإنها تنقلب عداوةً يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المودَّة)، أي: أسباب المودَّة.



فصل

إذا تبين هذا، فأصلُ المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها، وخلق خلقه لأجلها: هي محبته وحده لا شريك له، المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه.

فإن العبادة تتضمّن غاية الحبّ بغاية الدُّلّ، ولا يصلح ذلك إلا لله عزَّوجلَّ وحده. ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواعٌ متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يُذكر فيها في حق الله تعالى: ما يختص به ويليق به، كالعبادة والإنابة والإخبار. ولهذا لا يُذكر فيها لفظ العشق، والغرام، والصَّباة، والشَّغف، والهوى، وقد يذكر لها لفظ المحبة، كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن العبادة تتضمّن غاية الحبّ بغاية الدُّلّ، ولا يصلح ذلك إلا لله عزَّوجلَّ وحده)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية^(١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ	مَعَ دُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلِكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ	مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ رَسُولِهِ	لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢٥٣/١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا لا يُذكر فيها لفظ العشق، والغرام، والصَّباة، والشَّغَف، والهوى)، إنما تذكر هذه في محبة العشاق ومحبة الشهوات، أما محبة الله؛ فلا يذكر فيها العشق ولا يذكر فيها الغرام.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد يذكر لها لفظ المحبة، كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤])، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْرِ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١])، الذي يدَّعي أنه يحب الله؛ يتبع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإن ادَّعى أنه يحب الله وهو لا يتَّبِعُ رسوله؛ فهو كذَّاب، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، فعلامه محبة الله اتِّباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



ومدارُ كُتُبِ الله تعالى المنزلة من أولها إلى آخرها: على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يصادها ويلازمها، وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين، وذِكْرِ قصصهم، ومآلهم، ومنازلهم، وثوابهم، وعقابهم. ولا يجد حلاوة الإيمان بل لا يذوق طعمه إلا مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ».

وفي لفظ: «لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلَاثٌ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١). وفي «الصحيحين» أيضًا عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢)؛ ولهذا اتَّفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - على عبادة الله وحده لا شريك له. وأصل العبادة وتمامها وكما لها هو المحبة، وإفراذ الربِّ سبحانه بها، فلا يشرك العبد به فيها غيره.

الشَّرْحُ

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (ولا يجد حلاوة الإيمان بل لا يذوق طعمه إلا مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما)، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجِدُ عِبْدٌ طَعْمَ

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وُلْدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»)، «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ» أي: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ وُلْدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». هذا الذي يجد الإيمان في قلبه؛ لا بد وأنه يحب الرسول أكثر مما يحب نفسه، وولده، ووالده، والناس أجمعين.



والكلمة المتضمنة لهذين الأصلين: هي الكلمة التي لا يدخل في الإسلام إلا بها، ولا يعصم دمه وماله إلا بالإتيان بها، ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان، وذكُرْها أفضلُ الذكر، كما في «صحيح ابن حبان» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»^(١).

والآية المتضمنة لها ولتفضيلها سيدة آي القرآن، والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن، وبها أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وشرع جميع شرائعه، قيامًا بحقها وتكميلًا لها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان، كما في «صحيح ابن حبان» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»)، أي لا معبود بحق سواه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن)، وهي: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وشرع جميع شرائعه، قيامًا بحقها وتكميلًا لها)، يقصد المحبة.



(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان (١٢٦/٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهي التي يدخل بها العبد على ربه، ويصير في جواره، وهي مَفْرَعُ أوليائه وأعدائه، فإن أعداءه إذا مسَّهم الضُّرُّ في البرِّ والبحرِ فزعوا إلى توحيده، وتبرأوا من شركهم، ودَعَوْهُ مخلصين له الدين.

وأما أوليائه فهي مفرعهم في شدائد الدنيا والآخرة؛ ولهذا كانت دعواتُ المكروب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فَرَّجَ اللهُ كربه: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»^(٢).

وقال ثوبانٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَاعَهُ أَمْرٌ قَالَ: «اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٣).

وفي لفظ قال: «هُوَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

الشَّرْحُ

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (ولهذا كانت دعواتُ المكروب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو بهذا الدعاء عند الكرب.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥، ٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أحمد (٦٦/٣)، والترمذي (٣٥٠٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء (٣١٤)، وفي مسند الشاميين (١/٢٣٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٢١٩).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ

الكَرِيمِ)، كلمة: لا إله إلا الله يلهج بها العبد عند الكرب؛ لِنَجِيَّةِ اللَّهِ.

ذو النُونِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما التَقَمَهُ الحوتُ، وصار في الظُّلُمَاتِ: ظُلْمَةَ البَحْرِ،

وظُلْمَةَ اللّيلِ، وظُلْمَةَ بطن الحوت؛ ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ يَلَ إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وفي لفظ قال: «هُوَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»)، وهذا معنى:

لا إله إلا الله.



وقالت أسماء بنت عميس: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقْوَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ: «اللَّهُ، اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١).

وفي «الترمذي» من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن جده، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعْوَةُ يُونُسَ إِذْ نَادَى فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»^(٢).

وفي «مسند الإمام أحمد» مرفوعاً: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٣).

فالتوحيد ملجأ الطالبين، ومفزع الهارين، ونجاة المكروبين، وغيث الملهوفين، وحقيقته أفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم، والذل والخضوع.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقالت أسماء بنت عميس: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقْوَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ: «اللَّهُ، اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»)، وهذا معنى: لا إله إلا الله.

(١) أخرجه أحمد (١٦/٤٥)، وأبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦/٣)، والترمذي (٣٥٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٧٥/٣٤)، وأبو داود (٥٠٩٠).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعْوَةُ يُونُسَ إِذْ نَادَى فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»)، يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيُّ من أنبياء الله في أرض الشام بأنطاكيا، وقد دعا قومه واجتهد في دعوتهم، فلم يستجيبوا له، أو لم يستجب له كثيرٌ منهم، وتوَعَّدَهُم بالعذاب.

ثم تأخَّر العذاب ولم يأت؛ ففرَّ منهم مغاضِبًا، وركب في السفينة في البحر فهاجت السفينة واضطربت، وقال الركاب: لا بد أن معكم أحدًا له ذنب، لكن ألقوا القرعة، فمَن خرجت عليه القرعة فهو نفسه المذنب.

وساهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرعة، ووقعت عليه، ووقعت على نبي الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فألقوه في البحر؛ ألقوه لأجل أن تحف السفينة، وتكفَّ عن الاضطراب، وفي حال إلقاءهم له في البحر التقمه الحوت، فوقع في الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

فنادى رَبَّهُ عَزَّجَلَّ وهو في هذه الظلمات الثلاث: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فلفظه الحوت، وإذا بجسمه قد صَعَفَ وَتَجَرَّحَ؛ فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، شجرة الدُّبَّاءِ من اليقطين؛ لأنها تمنع وقوع الذباب عليه؛ لأن الذباب لا يقع على هذه الشجرة رحمة من الله به؛ ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِطِينَ﴾ [الصافات: ١٤٦]، ثم أبرأه الله من المرض الذي فيه، وأرسله إلى قومه، وكانوا مئة ألفٍ أو يزيدون، فأمَّنوا، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) فأمَّنوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]. هذه قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: «دَعْوَةُ يُونُسَ إِذْ نَادَى فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»)، هذه الدعوة بقي المؤمنون يدعون بها، لا سيما إذا وقعوا في كربة فإن الله يجعل لهم فرجًا، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «مسند الإمام أحمد» مرفوعًا: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحِّمْتِكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»)، وكذلك هذا الدعاء الثابت في السنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ)، المكروب: الذي وقعت به كربة.
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: («دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحِّمْتِكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»)، هذه دعوة يدعو بها المكروب الذي أصابته كربة فيفرج الله عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله قريب مجيب لاسيما إذا دعاه بالتوحيد، «لا إله إلا أنت».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالتوحيد ملجأ الطالبين)، التوحيد ملجأ الطالبين، يدعون الله به فينجيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حتى المشركون في الجاهلية إذا ركبوا في الفلك واضطربت بهم دعوا الله مخلصين له الدين، يخلصون في الشدة فينجيهم الله، فإذا: ﴿يَجْتَنِّهِمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]: يعودون إلى حالتهم.

فالحاصل أن دعوة المضطر مستجابة؛ لأن الله سبحانه يستجيب له حتى ولو كان مشركًا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالتوحيد ملجأ الطالبين، ومفزع الهارين، ونجاة المكروبين، وغيث الملهوفين)، توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا دَعَا بِهِ الْمَكْرُوبُ بِحُضُورِ قَلْبٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْجِيهِ مِنْ كَرْبَتِهِ، وَيُفْرَجُ لَهُ غَمَّهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وحقيقته إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم، والذل والخضوع)، هذه حقيقة التوحيد.

التوحيد: هو إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بِالْعِبَادَةِ، وهو غاية الذل لله عَزَّجَلَّ مع غاية الحب، يجتمع الذل لله مع الحب لله عَزَّجَلَّ، هذا أصل التوحيد وأصل العبادة.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي النُّونِيَّةِ^(١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلِكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ رَسُولِهِ لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والذل والخضوع)، هذه هي العبادة: ذُلٌّ وَخُضُوعٌ لِلَّهِ

عَزَّجَلَّ.



(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/٢٥٣).

فصل

فإذا عُرف أن كل حركة أصلها الحب والإرادة، فلا بد من محبوب مراد لنفسه، لا يُطلب ويُحَبُّ لغيره، إذ لو كان كل محبوب يُحَبُّ لغيره لزم الدور أو التسلسل في العلل والغايات، وهو باطل باتفاق العقلاء.

والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه، وليس شيء يُحَبُّ لذاته من كل وجه إلا الله عَزَّوَجَلَّ وحده، الذي لا تصلح الألوهية إلا له، فلو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله فَسَدَتَا.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإذا عُرف أن كل حركة أصلها الحب والإرادة، فلا بد من محبوب مراد لنفسه، لا يُطلب ويُحَبُّ لغيره)، الحركات كلها في هذا الكون مبنية على الحب، الحب بين الناس، والحب بين الملائكة، والحب بين مسلمي الجن، فالحب في الله عَزَّوَجَلَّ له شأن عظيم في تفرير الكربات، وإجابة الدعوات.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه، وليس شيء يُحَبُّ لذاته من كل وجه إلا الله عَزَّوَجَلَّ وحده)، فلا يحب شيء ذات المحبة إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وأما المحبة بين الناس فلا بد لها من سبب؛ أحسن إليك، أعطاك شيئاً، أعانك على شيء، فأنت تحبه لأجل معروف أسداه لك.

أما محبة الله جَلَّ وَعَلَا فهي لا تبني على سبب بينه وبين العباد، فهو يُحَبُّ جَلَّ وَعَلَا لذاته ولأسماؤه وصفاته وجلاله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والشيء قد يُحِبُّ من وجه دون وجه)، المحبة تنقسم إلى قسمين:

محبة خالصة ليس معها كراهية: وهذه لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النوع الثاني: محبة معها كراهية من بعض النواحي: وهذه في الإنسان، يُحِبُّ من وجه ويكره من وجه، يُحِبُّ لما فيه من الخير ويكره لما فيه من الشر والاعتداء وغير ذلك، فيجتمع فيه محبة وكراهية، هذا في المخلوق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الذي لا تصلح الألوهية إلا له)، الألوهية والإله مأخوذ من الوله وهو المحبة، وهذا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو يُحِبُّ لذاته ولأسائه وصفاته، ويُحِبُّ لإنعامه وإحسانه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله فَسَدَتَا)؛ لأنه يحصل النزاع بين الآلهة والمغالبة فيفسد الكون.

ولما كان الكون متقناً، وصالحاً، ومستمرّاً؛ دَلَّ على أن الله هو المنفرد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة والمحبة؛ إذ لو كان معه آلهة لَتَنَارَعُوا، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].



والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها: هي العبادة والتأله. ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليهم به؛ فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها: هي العبادة والتأله)، الألوهية التي دعت إليها الرسل من أولهم إلى آخرهم هي الألوهية لله جَلَّ وَعَلَا، الألوهية لله وحده، هو الذي يجب جَلَّ وَعَلَا من كل وجه لنعمه، وإحسانه، ولذاته، ولأسمائه، وصفاته؛ فهو يجب جَلَّ وَعَلَا محبة خالصة. قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون)، التوحيد ثلاثة أنواع:

توحيد الربوبية: وهو توحيد الله بأفعاله سبحانه.

توحيد الألوهية: وهو توحيد الله جَلَّ وَعَلَا في أفعال العباد التي شرعها لهم كالصلاة، والصيام، والحج، وغير ذلك.

توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يثبت لله جَلَّ وَعَلَا من الأسماء والصفات ما أثبتته لنفسه، وينزهه عن النقائص والعيوب، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليهم به)، المشركون يقرون بتوحيد الربوبية، لا يحجده أحد،

ومن أنكره ظاهرًا فهو معترف به باطنًا؛ لأن هذا الكون لا يمكن أن يقوم بنفسه، لا بد أن له خالقًا أتقنه وأبدعه ودبره، وهذا لا يصلح إلا لله جَلَّ وَعَلَا، هو الذي خلق هذا الكون ودبره ونظمه على هذا النظام الدقيق العجيب الذي لا يختلف، في جميع الأمور: في أفلاكه، في كواكبه ونجومه، في بره وبحره لا يختلف أبدًا؛ لأن الله أتقنه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

هذا توحيد الربوبية وهو لا يجحده أحد، كل عاقل يُقرُّ به ولو كان كافرًا يقر بتوحيد الربوبية، لكنه لا يكفي؛ لا بد من توحيد الألوهية والعبادة، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الربوبية؛ ولذلك يحتاج الله جَلَّ وَعَلَا به على وجوب عبادته، يحتاج بخلق السموات والأرض، بتدبير الكون، بتصريف الأمور، يحتاج بذلك على إلهيته وعبوديته سبحانه.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، يدخل فيه توحيد الألوهية، هذه هي العلاقة بين أنواع التوحيد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية)، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وكذلك آيات كثيرة يحتاجُ الله بها على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية، فمن أقر بتوحيد الربوبية؛ لزمه أن يُقرَّ بتوحيد الألوهية.

فصل

وكل حيٌّ فله إرادة وعمل بحسبه، وكل متحرك فله غاية يتحرك إليها، ولا صلاح له إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه هو الله وحده.

كما لا وجود له إلا أن يكون الله وحده هو ربّه وخالقه، فوجوده بالله وحده، وكماله أن يكون لله وحده، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولم يقل: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد.

لكن لا يمكن أن تكونا صالحتين إلا بأن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له، فإن صلاح الأعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها، فكلُّ عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وإرادته.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما لا وجود له إلا أن يكون الله وحده هو ربّه وخالقه، فوجوده بالله وحده)، الله هو الذي أوجد هذا الإنسان وخلقه وأنعم عليه، ومع هذا أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وجعل له أندادًا، فسَوَّى هذه الأنداد بالله - تعالى الله عن ذلك -! مع أنه لا ند له، ولا شريك له.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢])،

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴾ (١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

يحصل النزاع بين الشركاء فيفسد هذا الكون، ولا بد أن يغلب قوتهم ضعيفهم، فيحصل النزاع؛ فيفسد الكون، لكن: الكون لم يفسد والله الحمد، فالكون مُتَقَنَّ، الكون منضبط؛ وهذا دليل على وحدانيّة الله الذي خلقه وأوجده، ونظّمه ودبّره، وأنه هو المستحقُّ للعبادة دون العاجز الفقير الذي لا يقدر على أن يُصلح نفسه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿ إِلَّا إِلَهًا ﴾ يعني: غير الله، أو مع الله، ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي: السموات والأرض.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكلُّ عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وإرادته)، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

فهذا الذي ليس له نية؛ مجنون أو مخبول، فلا يتحركن أحد إلا بنية، فالنية تديره وتوجهه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن صلاح الأعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها، فكلُّ عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وإرادته)؛ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

أمّا الأعمال التي ليس معها نياتٌ من العامل فهي حركات ضائعة، مثل حركات المجنون والمخبول.

(١) تقدم تخرجه (٤٥٢/٣).

وتقسيم الأعمال إلى صالح وفساد: هو باعتبارها في ذواتها تارة، وباعتبار مقاصدها ونياتها تارة.

وأما تقسيم المحبة والإرادة إلى نافعة وضارة، فهو باعتبار متعلقها ومحبوبها ومرادها، فإن كان المحبوب المراد هو الذي لا ينبغي أن يُحِبَّ لذاته ويراد لذاته إلا هو - وهو المحبوب الأعلى، الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون هو وحده محبوبه ومراده وغاية مطلوبه - كانت محبته نافعة له، وإن كان محبوبه ومراده ونهاية مطلوبه غيره، كانت محبته ضارة له وعذاباً وشقاءً.

فالمحبة النافعة: هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم. والمحبة الضارة: هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والألم والعناء.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتقسيم الأعمال إلى صالح وفساد: هو باعتبارها في ذواتها تارة، وباعتبار مقاصدها ونياتها تارة)، تكون صالحة بنية العامل إذا كانت خالصة، وتكون فاسدة بنية العامل إذا كانت نيته فاسده، فالعمل يدور على النية والقصد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون هو وحده محبوبه ومراده وغاية مطلوبه - كانت محبته نافعة له)، وهي محبة الله جَلَّ وَعَلَا، هذا لا يصلح إلا لله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإن كان محبوبه ومراده ونهاية مطلوبه غيره)، غير الله.
 قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كانت محبته ضارة له وعذاباً وشقاءً)، تنقلب عداوة
 يوم القيامة، ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾
 [الزخرف: ٦٧].

الذين تحابوا في الله والله؛ فإن محبتهم تبقى، وأما إذا كانت محبتهم لغير
 الله فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالمحبة النافعة: هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من
 السعادة والنعيم، والمحبة الضارة: هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من
 الشقاء والألم والعناء)، فالذي يجب العبادة والخير والمعروف؛ تُثمر محبته
 صلاحاً وفلاحاً.

والذي يجب الشرور والمعاصي والخمور والزنا والسرقه وغير ذلك،
 فمحبته فاسدة؛ لأنه يجب أشياء ضارة وغير نافعة.



فصل

إذا تبين هذا، فالحي العالم الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضرّه، ويشقى به، ويتألم به، ولا يقع في ذلك إلا من فساد تصوّره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته، فالأول جهل، والثاني ظلم.

والإنسان خُلِقَ في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفكّ عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشده.

فمتى أراد به الخير علّمه ما ينفعه، فخرج به من الجهل، ونفعه بما علّمه، فخرج من الظلم.

ومتى لم يُردْ به خيرًا أبقاه على أصل الخلقة، كما في «المسند» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»^(١).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إذا تبين هذا، فالحي العالم الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضرّه، ويشقى به)، الحي: يعني المخلوق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالحي العالم الناصح لنفسه لا يُؤثرُ محبة ما يضرّه، ويشقى به، ويتألم به)، أي: لا يجب، فالذي فيه عقل ودين وفيه بصيرة؛ لا يجب أن يضره شيء، لا يجب إلا شيئًا ينفعه، هذا هو العاقل المعتدل في محبته.

(١) أخرجه أحمد (١١/٤٤٢)، والترمذي (٢٦٤٢)، وقال: هذا حديث حسن.

أما أهل الشر يحبون المعاصي والشور وهي تضرهم، وإن كانوا يتلذذون بها لحظة فإنهم يتألمون منها دائماً وأبداً - والعياذ بالله - فتصبح محبتهم لهذه الأشياء عذاب عليهم، يتعذبون بها يوم القيامة، أيضاً في الدنيا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً)، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

هذا هو الأصل في الإنسان، وقد يهديه الله ويصلحه؛ فتزول عنه هذه الصفات: الظلم والجهل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشدَه)، لم يكل الله الناس إلى عقولهم؛ لأن عقولهم تفسدهم أحياناً وتضيعهم، ولهذا أرسل الله الرسل رحمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يدعون عباده إلى ما يصلحهم وينفعهم وينجيهم، ولم يكلهم إلى عقولهم ومحابهم وإراداتهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومتى لم يُردِّدْ به خيراً أبقاه على أصل الخلقة)، أصل الخلقة: أنه ظلوم جهول، وتتغير هذه الخلقة على يد الدعاة والمصلحين من الأنبياء، والمرسلين، والعلماء، والصالحين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما في «المسند» من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»)، خلق الله الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره سبحانه، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فيلقي عليهم النور، فمن أصابه هذا النور اهتدى وصلح واستقام، ومن أخْطَأَهُ بقي في الظلمة دائماً وأبداً.

فالنفس تهوى ما يضرُّها ولا ينفعها، لجهلها بمضرَّته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولمجموعهما تارة.

وقد ذمَّ الله تعالى في كتابه مَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]. فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالنفس تهوى ما يضرُّها ولا ينفعها، لجهلها بمضرَّته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولمجموعهما تارة)، النفس تحب ما يضرها وما يشقيها؛ لكن إذا هداها الله وبصرها فإنها تنجو من هذا المصير، وإلا فالنفس كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

فالأنفس على ثلاث درجات: نفس لَوَّامة، ونفس أَمَّارَةٌ بالسوء، ونفس مطمئنة.

النفس اللوَّامة: هي التي إذا وقعت في شيء مخالفٍ لتلوم صاحبها، وتوبُّخ صاحبها حتى يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ.

النفس الأَمَّارة بالسوء: هذه هي النفس الخبيثة.

والنفس المطمئنة: هذه أعلى الدرجات، نفس مطمئنة إلى صالحها ومصالحها وخيرها، وهذه أعلى الأنفس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد ذمَّ الله تعالى في كتابه مَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠])، قال الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

هواهم هو الذي أخرجهم من الخير إلى الشر، ومن الجنة إلى النار والعياذ بالله.

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠])، أما إذا كان الهوى تابِعاً لما جاءت به الرسل فإنه هوى نافع، وأما إذا كان مخالفاً لما جاء به الرسل؛ فهذا هو الهوى الضارُّ الذي حذَّر الله منه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣])، ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۗ﴾:
هذا هو الهوى.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: ظن النفوس، لم يبنوا اتِّبَاعَهُمْ على هُدَى وعلى
علم، وإنما بَنَوْهُ على ظَنٍّ، و«الظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣])، أي: جاءهم
من ربهم الذي يُحَذِّرُهُمْ من اتِّبَاعِ الظَّنِّ، واتباع هوى النفوس.



(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٥١٤٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وقد جعل الله سبحانه للعدلِ المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذمِّ والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه الذي خرج به عن العدل.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال فيمن ابتغى سوى زوجته أو ملك يمينه: ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. والمقصود أن محبة الظلم والعدوان سببها فساد العلم، أو فساد القصد، أو فسادهما جميعًا.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١])، ﴿ يَنْبَغِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١]، والزينة هنا المراد بها ستر العورات.

﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي: عند كل صلاة، ولهذا من شروط صحة الصلاة ستر العورة مع القدرة على ذلك.

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾: مما أباح الله.

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾: تتجاوزوا الحد في الأكل والشرب، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال فيمن ابتغى سوى زوجته أو ملك يمينه: ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧])، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَقِيقُونَ ﴾: حافظون لها عن الزنى.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾: فإن الله أباح لهم زوجاتهم.

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]: التَّسْرِي.

فالوطء الشرعي لا يكون إلا بأحد أمرين: إما لعقد الزواج، وإما ملك اليمين؛ أن يتسرى بمملوكته هذا جائز، فهو يملك منافعتها، ومن منافعتها أنه يتسرى بها ويتعفف بها عن الزنا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧]، ﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾: من ابتغى المتعة بغير عقد النكاح أو ملك اليمين.

﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾: المعتدون لحدود الله عَزَّجَلَّ، من الحلال إلى الحرام.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠])، ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾: هذا عامٌّ في جميع أنواع العدوان، ومنها عدوان المعاصي والمحرمات.



وقد قيل: إن فساد القصد من فساد العلم، وإلا فلو علم ما في الضار من المضرّة ولو ازمها حقيقة العلم لما آثره.

ولهذا من علم من طعام شهّي لذيذ أنه مسموم فإنه لا يُقدّم عليه، فضَعَفُ علمه بما في الضار من وجوه المضرّة، وضعف عزمه على اجتنابه يوقعه في ارتكابه.

ولهذا كان الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضرّه، فإذا لم يفعل هذا ولم يترك هذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك.

فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلاً عن أن يسعى فيها بجهد.

والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها.

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلّص منه من المضار.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا من علم من طعام شهّي لذيذ أنه مسموم فإنه لا يُقدّم عليه، فضَعَفُ علمه بما في الضار من وجوه المضرّة، وضعف عزمه على اجتنابه يوقعه في ارتكابه)، قد يكون الطعام لذيذاً وشهياً، لكنه مسموم يقتل صاحبه، فالعاقل؛ لا يقربه لأجل لذته أو لأجل طعمه، لا يقربه وهو يعلم أنه مسموم، إنما يقع فيه من لا يبالي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضرُّه)، فالإيمان بالله هو: الإيمان الحقيقي الصحيح الذي يمنع صاحبه عما يضره، ويقصره علي ما ينفعه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا لم يفعل هذا ولم يترك هذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك)، معه إيمان ناقص لا يمنعه من الرذائل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلاً عن أن يسعى فيها بجهد)، الذي يؤمن بوجود النار وأنها أمامه، وأنه على خطر منها دائماً ينجو للسلامة من النار ولا ينساها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها)، يقول بعضهم: كلنا قد أيقن بالنار ولكن؛ لا نجد منها هارباً، وكلنا قد أيقن بالجنة ولكن؛ لا نجد لها طالباً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلُّص منه من المضارِّ)، الشهوات والمحرمات والكفر والشرك كُلُّها طُرُقٌ توصل إلى النار -والعياذ بالله-، والبصير يعرف هذا، حتى غير البصير يعرف هذا، لكن قد يأخذه الهوى وغلبة الشهوة فيعدُّ عن طريق الجنة إلى طريق النار، فيقع فيها.



فصل

إذا تبيّن هذا، فالعبدُ أحوجُ شيءٍ إلى معرفة ما يضرّه ليجتنبهه، وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله، فيُحبّ النافع، ويُبغض الضارّ، فتكون محبته وكرهته موافقتين لمحبة الله تعالى وكرهته، وهذا من لوازم العبودية والمحبة. ومتى خرجَ عن ذلك أحبّ ما يُسخطُ ربّه، وكره ما يحبه، فنقصت عبوديته بحسب ذلك.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إذا تبيّن هذا، فالعبدُ أحوجُ شيءٍ إلى معرفة ما يضرّه ليجتنبهه، وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله، فيُحبّ النافع، ويُبغض الضارّ)، ولا يحصل هذا إلا بالعلم النافع الذي جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو الذي تعرف به ما يضرّك وتجتنبه، وتعرف ما ينفعك وتتبعه.

فالجنة ليس لها طريق إلا طريق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنار طريقها شياطين الجن والإنس، ومن تبعهم أوقعوه فيها.

والذي يتبع الرسل؛ يصل إلى الجنة وينجو من النار، ولكنه يصل بتوفيق الله سبحانه، وصلاح النية وقمع النفس عن إتباع الهوى والشهوات، فهو يحتاج إلى إيمانٍ قويّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فتكون محبته وكرهته موافقتين لمحبة الله تعالى وكرهته، وهذا من لوازم العبودية والمحبة)، فما يحبه الله يفعله، وما يكرهه الله يجتنبهه.

وهاهنا طريقان: العقل والشرع.

أما العقل: فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطْرَ استحسان الصدق، والعدل، والإحسان، والبر، والعفة، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخلق، والوفاء بالعهد، وحِفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نواب الحق، وقرى الضيف، وحمل الكَلِّ، ونحو ذلك، ووَضَعَ في العقول والفِطْرَ استقباح أصداد ذلك.

ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفِطْرَ كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظَّمِّ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع، ولُبْس ما يُدْفِئُه عند البَرْد، فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه، فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها واستقباح أصدادها.

ومن قال: إن ذلك لا يُعَلِّمُ بالعقل ولا بالفِطْرَةَ، وإنما عُرِفَ بمجرّد السمع، فقوله باطل، وقد بيّنا بطلانه في كتاب «المفتاح»^(١) من ستين وجهًا، وبيّنا هناك دلالة القرآن والسنة والعقول والفِطْرَ على فساد هذا القول.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَوَضَعَ في العقول والفِطْرَ استقباح أصداد ذلك)، العقول والفِطْرَ تدرك الشرع، فالعقول تدرك الحسن وتدرّك القبيح، تدرك النافع وتدرّك الضارّ، تدرك الخير وتدرّك الشر أيضًا وتعرفه.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/٢).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن قال: إن ذلك لا يُعَلِّمُ بالعقل ولا بالفطرة، وإنما عُرِفَ بمجرد السمع، فقولُهُ باطل)، الذي يقول: إن المنافع والمضارَّ لا تُعرف إلا بالشرع فقط، فقولُهُ باطل؛ لأن المنافع والمضارَّ تُعرف بالشرع، وبالعقل أيضاً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد بيَّنا بطلانه في كتاب «المفتاح» من ستينَ وجهًا)، «مفتاح دار السعادة» كتاب جيد للإمام ابن القيم.



والطريق الثاني لمعرفة الضار والنافع من الأعمال: السمع، وهو أوسع وأبين وأصدق من الطريق الأول، لخفاء صفات الأفعال وأحوالها ونتائجها، وأن العالم بذلك على التفصيل ليس هو إلا الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

فأعلمُ الناس وأصحهم عقلاً ورأياً واستحساناً: مَنْ كان عقله ورأيه واستحسانه وقياسه موافقاً للسنة.

كما قال مجاهد^(١): أفضل العبادة الرأي الحسن، وهو اتباع السنة.

قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦].

وكان السلف يُسمون أهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول في مسائل العلم الخبرية، ومسائل الأحكام العملية، يسمونهم أهل الشبهات والأهواء، لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم، وهوى لا دين، فصاحبه ممن أتبع هواه بغير هدى من الله، وأتبع هواه بغير علم، وغايته الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والطريق الثاني لمعرفة الضار والنافع من الأعمال: السمع)،
السمع: يعني الشرع.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٩٣).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو أَوْسَعُ وَأَبِينُ وَأَصْدَقُ مِنَ الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ)، أَصْدَقُ مِنَ الْعَقْلِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَعْلَمُ النَّاسَ وَأَصْحَهُمْ عَقْلاً وَرَأياً وَاسْتِحْسَاناً: مَنْ كَانَ عَقْلُهُ وَرَأْيُهُ وَاسْتِحْسَانُهُ وَقِيَاسُهُ مُوَافِقاً لِلسَّنةِ)، سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الميزان لمعرفة الضار والنافع.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [سبأ:٦٦])، لا يراه إلا أهل العلم، أما الجهال فلا يرون هذا الشيء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لأن الرأي المخالف للسنة جهلٌ لا علم، وهوى لا دين، فصاحبه ممن اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هُدًى من الله، واتبَعَ هَوَاهُ بغير علم، وغايته الضلالُ في الدنيا والشقاء في الآخرة)، إذا انفرد العقل عن الشرع؛ فإن صاحبه يهلك، ولا ينفعه عقله، أما إذا اقترن بالشرع واستعان به؛ فإنه يسلم وينجو بإذن الله.



وإنما ينتفي الضلال والشقاء عمّن اتبع هدى الله الذي أرسل به رُسله،
 وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
 عَدُوٌّ فَاِمَا يَأْنِيْنَكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإنما ينتفي الضلال والشقاء عمّن اتبع هدى الله الذي
 أرسل به رُسله، وأنزل به كتبه)، إنما ينتفي الضلال والشقاء عمّن اتبع سنّه
 الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ فَاِمَا يَأْنِيْنَكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ
 هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]. قد تكفل الله لمن اتبع هداه؛ أنه
 لا يضلُّ في الدنيا، بل يكون على طريق واضح، وسبيل مستقيم، ولا يشقى في
 الآخرة، وهذا ضمان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لا يخلف وعده.

فإن حصل خللٌ فهو من العبد؛ بأنه لم يتبع هدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل
 ذهب مع البدع والمحدثات والأقوال التي لا دليل عليها.

وأما من تحرّى الدليل وتمسك به وسار عليه؛ فإن الله تكفل له بهاتين
 المزيّتين العظيمتين؛ أنه: لا يضلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإنما ينتفي الضلال والشقاء عمّن اتبع هدى الله الذي
 أرسل به رُسله، وأنزل به كتبه)، وهدى الله: هو ما أنزل به كتبه، وأرسل

به رسله؛ جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وجميع الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، كل ما أنزله الله في وقته؛ لأن القرآن وما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَخَ ما قَبْلَهُ.

لكن قَبْلَ بَعْثَةِ الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل من اتبع نبياً من الأنبياء، وتمسك بسُنَّتِهِ؛ فإنه يحصل على هذا الضمان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما بَعْدَ بَعْثَةِ الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصر هذا الضمان على مَنْ اتَّبَعَ هذا الرسول؛ لأن دينه ناسخٌ لجميع الأديان، وكتابه ناسخٌ لجميع الكتب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿ طه: ١٢٣، ١٢٤﴾، ﴿ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾: هذا الهدى آتٍ عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ أي: ما جاءت به الأنبياء؛ ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ يعني: في الدنيا، ﴿ وَلَا يَشْقَى ﴾ في الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ الذي جاءت به الرسل.

﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قالوا: هذا عذاب القبر.

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾: لا يبصر، ويحشر على وجهه

-والعياذ بالله-، يمشي على وجهه بدل أن يمشي على رجليه، فيحشرون:

﴿ عَلَى وُجُوهِهِمْ عِمَاءٌ مِّنْ بَنَاتٍ مِّمَّنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ١١٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿ [طه: ١٢٤، ١٢٣]، قال الله جَلَّ وَعَلَا لآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، وإبليسَ وجنوده-: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا ﴾: يعني: من السماء إلى الأرض؛ لأنهم كانوا في السماء.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]؛ وهدى الله: هو ما بعث به رسوله عليهم الصلاة والسلام.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ﴾: يعني في الدنيا.

﴿ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]: في الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾: هذا العكس، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾: قالوا: هذا عذاب القبر، ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾: في قبره.

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]: يحشر الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.

فالذي لم يَسِرْ على هدى الله يكون أعمى؛ أعمى البصر والبصيرة، أعمى البصر فلا يرى شيئاً، والبصيرة يكون ضالاً، وهي القلب.

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ١١٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ ﴿: يعني في الدنيا ﴿ بَصِيرًا ﴾ ١١٥ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ ءَايَلُنَا فَنَسِينَهَا ﴿: يعني لم تعمل بها.

﴿وَكَذَلِكَ أَيُّومٌ نُنْسِي﴾: الجزاء من جنس العمل، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾

[التوبة: ٦٧]؛ تركوا هدى الله فتركهم الله عَزَّوَجَلَّ، فالله لا ينسى، ولكن هذا من باب المقابلة والجزاء.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]: لما نسوا الله يعني تركوا هدى الله،

نسيهم الله يعني تركهم من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَاتَّبَاعُ الْهُوَى يَكُونُ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ)، وِاتَّبَاعُ الْهُوَى

يَكُونُ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ؛ يَحِبُّ الْكُفْرَ وَالشَّرْكَ وَالْوَثْنِيَّةَ، وَيَبْغِضُ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَبْغِضُ التَّوْحِيدَ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، سِوَاءً فِي الْأَوْلِينَ أَوْ فِي الْآخِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾:

ما أنزله الله على رسله، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]: في قبره -والعياذ بالله-.

ويحشره الله يوم القيامة أعمى لا يبصر، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى

وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ أَيْنَمَا فَنَسِينَهَا﴾: يعني تركتها؛ ﴿وَكَذَلِكَ

أَيُّومٌ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦]: أي: تترك -والعياذ بالله-.



وَاتَّبَاعِ الْهَوَى يَكُونُ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاتَّبَاعِ الْهَوَى يَكُونُ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ)، فالذي يتبع هواه؛ يحب الباطل ويبغض الحق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾)، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾: هذه المذلة والمضلة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، إذا عرضتم عن الحق؛ فإن الله توعدهم أنه خبير بما يعملون، ولن يتركهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا﴾

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿النساء: ١٣٥﴾، ﴿تَلَوُوا﴾: يعني تنصروا عن كتاب الله ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا توعدهم ﴿وَإِنْ تَلَوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال): ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾: قوامين يعني مستقيمين، ﴿لِلَّهِ﴾: على سنة الله جَلَّ وَعَلَا وكتابه ووحيه.

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: يعني بالعدل، فلا تشهد على زور أو على كذب، فالشهادة أمرها عظيم، شهداء لله أيضًا على خلقه يوم القيامة.
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾: يعني بغضهم.
﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: فإذا أبغضت شخصًا فإنَّ بغضك له لا يملك على أن تجور على حقه أو أن تظلمه، بل تعدل معه ولو كنت تبغضه، أما إذا كنت لا تعدل إلا مع من تحب فهذا إتباعٌ للهوى.
فالْمُؤْمِنُ يكون عادلاً مع صديقه ومع عدوه ولا يجور على أحد؛ لأنه يبغضه، فهذا لا يجوز.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾: الشنآن: البغض.
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: يعني يحملنكم، ﴿شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾: يعني بغضهم.
﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: اعدلوا فيهم ولو كانوا أعداء لكم وأنتم تبغضونهم.

كما أنه لا يجوز أن تحيف مع صديقك ومع محبوبك، أقم العدلَ بينه وبين عدوك، هذا ما أمر الله جَلَّ وَعَلَا به.

فلا يجوز الجور على أحد وإن كنت تبغضه، وإن كان عدواً لك لا يجوز الجور، لا بد من العدل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، هو أقرب لتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: اتقوا غضبه وعذابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]: خبير لا يخفى عليه شيء من أعمالكم حتى ما في قلوبكم يعلمه الله سبحانه؛ ﴿وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فالله جَلَّ وَعَلَا يقيم العدل على عباده مؤمنهم وكافرهم، وكذلك المسلم يقيم العدل مع عباد الله إذا تولى عليهم أو تولى شيئاً من شؤونهم ولو كان يبغضهم، ولو كانوا أعداءً له فإنه يقيم العدل فيهم ولا يجوز عليهم.



والهوى المنهَى عن اتباعه كما يكون هو هوى الشخص في نفسه، فقد يكون أيضاً هوى غيره، فهو منهَى عن اتباع هذا وهذا؛ لمضادة كل منهما لهدى الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كُتبه.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والهوى المنهَى عن اتباعه كما يكون هو هوى الشخص في نفسه)، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]؛ الهوى: ما يهواه الإنسان، فلا تتخذ هواك إلهًا لك.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]: هذا من باب الإنكار عليه.

الإنسان لا يتخذ إلهه هواه، يتخذ العدل، سواء وافق هواه أو لم يوافقهُ؛ فإنه يتبع العدل، فهذا شأن المسلم المستقيم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والهوى المنهَى عن اتباعه كما يكون هو هوى الشخص في نفسه، فقد يكون أيضاً هوى غيره)، سواء كان هذا الهوى المخالف للحق هوى لك أو هوى لغيرك من الأمراء والسادة ورعيّتهم، وتتابع ما يهون وما يشتهون، وتجور على الناس، لا يجوز هذا، لك موعد مع الله يوم القيامة يحاسبك عليه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهو منهَى عن اتباع هذا وهذا)، ليس هناك أخطر من الهوى على الإنسان، ليس هناك شيء أخطر من الهوى على الإنسان، حتى إن

الله سماه إلهًا: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣]؛ فلا يجوز للإنسان أن يتبع هواه، وإنما يتبع الحق ولو خالف هواه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهو منهي عن اتباع هذا وهذا؛ لمضادة كل منهما هُدى الله الذي أُرسل به رسله، وأنزل به كُتبه)، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

هذا قاله الله لنبيه داود: ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

انظر: التعيين الذي جاء لداود من الله، الله هو الذي عينه خليفة، ونصَّبه إمامًا وقاضيًا وحاكمًا، أصدر الله تعيينه من عنده؛ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]. هذا شرف عظيم، وأوصاه أن يخالف هواه.



فصل

فمن المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل، فإنها مُعينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام، ويُعفِّها فلا تطمح نفسها إلى غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمَّ وأقوى؛ كان هذا المقصود أتمَّ وأكمل.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمن المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل)، المحبة على قسمين:

القسم الأول: محبة دينية وهي محبة العبادة، وهذه لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

القسم الثاني: ومحبة طبيعية: كما يجب الإنسان والديه ويجب أولاده ويجب زوجته ويجب أصدقاءه، هذه محبة طبيعية لا تحمل الإنسان على أن يحيف مع من يجب، بل يعدل، يقيم العدل مع من يجب ومن يبغض.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وما ملكت يمينُ الرجل)، ما ملكت يمين الرجل: المملوكة، فالمملوكة يتسرى بها سيدها وهذا أباحه الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

أباح الله للمالك الأمة أن يتسرى بها؛ لأنه مالك لها ولمنافعها، فيتسرى بها، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، والمملوكة بملك اليمين؛ لسيدها أن يستمتع بها، ولا يحتاج إلى عقد زواج، فملك اليمين أقوى من عقد الزواج.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنها مُعِينَةٌ عَلَى مَا شَرَعَ اللهُ سَبْحَانَهُ لَهُ مِنَ النِّكَاحِ وَمَلَكَ الِیْمِینِ، مِنْ إِعْفَافِ الرَّجُلِ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ)، فالرجل يعف زوجته عن الزنا، ويعف مملوكته أيضًا فله الأجر في ذلك.

فله الأجر إذا تزوج، له الأجر إذا تسرى في ملك اليمين؛ لأنه بهذا يعف المرأة عن الزنا وعن النظر إلى غيره وعن التطلع إلى غيره، يعفها ويصونها. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ» البُضْعُ هُوَ الْفَرْجُ «صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَرْزٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١). قالوا: هذا دليل على القياس، الرسول قاس عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، فهذا من أدلة القياس المستعمل في الفقه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام، ويُعِفُّهَا فلا تطمح نفسها إلى غيره)، هذا من فوائد النكاح والتسري: أنه يعف المتزوجة والمتسرى بها عن الحرام.

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: بالمحبة والاطمئنان، فأنت لو دخلت بيتاً ليس فيه زوجك تستوحش، لكن إن وجدتها تستأنس وتطمئن.

﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: فهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى، ومن فوائد الزوجية أن الزوجة سكن لزوجها، والزوج سكن لزوجته.



وفي «الصحیح» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ سُئِلَ: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: «عَائِشَةُ»^(١)، ولهذا كان مسروق رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ إِذَا حَدَّثَ عَنْهَا: حَدَّثْتَنِي الصَّدِيقَةَ بِنْتُ الصَّدِيقِ، حَبِيبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمُبْرَأَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ^(٢).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وفي «الصحیح» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ سُئِلَ: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: «عَائِشَةُ»)، من أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قال: عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أم المؤمنين. قال: ومن الرجال؟ قال: أبوها، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فالرجل يجب زوجه ويجب أصهاره، ويجب أقرابه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان مسروق رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ إِذَا حَدَّثَ عَنْهَا: حَدَّثْتَنِي الصَّدِيقَةَ بِنْتُ الصَّدِيقِ، حَبِيبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمُبْرَأَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ)، مسروق: من كبار التابعين رَحِمَهُ اللهُ، وكان يروي عن عائشة أم المؤمنين، الصَّدِيقَةَ بِنْتُ الصَّدِيقِ.

والصَّدِيقُ بعد الأنبياء، مرتبة الصَّدِيقِينَ بعد الأنبياء؛ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

فالصَّدِيقُ يأتي مرتبة بعد مرتبة النبي، ومن ذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابنته عائشة صِدِيقَةٌ أَيْضًا.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢، ٤٣٥٨)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩/٤٣).

ومريم صِدِّيقَةٌ؛ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾: يعني أم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي مريم، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَدَّثَنِي الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ، حَبِيبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمُبْرَأَةُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ)، الصِّدِّيقَةُ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ، الْمُبْرَأَةُ مِمَّا أَلْصَقَهَا بِهِ أَعْدَاءُ اللَّهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَهَا، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]؛ فَبَرَأَ اللَّهُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ.



وصحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وصحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»): النساء يستمتع بهن وهذا من الطيبات. والطيبُ: هو الرائحة الذكية الجيدة، فالإنسان ينشر صدره معه، وينبسط مع الريح الطيبة، وهذا ما يحبه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يجب النساء، يستمتع بهن، فيحصل بذلك الإعفاف، ويجب الطيبَ والرائحة الطيبة.

فالإنسان أيضًا يُشعر له أن يتطيب بأحسن ما يجد من الطيب، خصوصًا إذا ذهب إلى المساجد واجتماع الناس، فإنه يتطيب ويتخلى عن الرائحة الكريهة؛ ولهذا منع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكل البصل من الصلاة في المسجد؛ لخبث رائحته، وأمره بالاعتزال عن المسجد حتى تذهب رائحته^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٤٣٣/٢١)، والنسائي (٣٩٣٩)، والبيهقي في الكبرى (١٢٤/٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٨٥٥، ٥٤٥٢)، ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا، فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ». وَإِنَّهُ أَبِي يَقْدِرُ فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ ثُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا، فَسَأَلَ، فَأُخْبِرَ بِهَا فِيهَا مِنَ الثُّمُولِ، فَقَالَ: «قَرَّبُوهَا» إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَكَلَهَا، قَالَ: «كُلْ؛ فَإِنِّي أَنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي».

وحثَّ الرسول على الرائحة الطيبة وعلى الطيب، وعلى إزالة العرق، وإزالة رائحة الجسم بالاغتسال والتنظف، هكذا يكون المسلم نظيفاً طيب الرائحة دائماً، خصوصاً في الاجتماعات الدينية والدينية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)، «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ»: هذا من الدنيا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الصلاة، ويستريح فيها مع ربه، ويقول: «يَا بَلَاءُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»^(١). لم يقل: أرحنا منها، قال: «أَرِحْنَا بِهَا»، فيرتاح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا دخل في الصلاة، ووقف بين يدي ربه يناجيه ويدعوه، يرتاح في هذا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا كان يُطيل القيام ويُطيل الركوع ويُطيل السجود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الليل.

وأما في صلاة الجماعة فكان يخفف رفقا بالناس، وأوصى بالتخفيف: «مَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّضْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَإِنَّ فِيهِمُ ذَا الْحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَحَدَهُ، فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ»^(٢).



(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٨) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا عيب على الرجل في محبته لأهله وعشقه لها، إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحبَّ رسوله. فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة، وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلا عيب على الرجل في محبته لأهله وعشقه لها، إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله)، فلا يقدم على محبة الله ورسوله أي محبة في هذه الدنيا.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾: يعني انتظروا.
﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤]: هذا وعيد.

فلا يُقدِّم الإنسان على محبة الله ورسوله شيئاً أبداً؛ لا من الأهل، ولا من الأقارب، ولا من الأصدقاء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحبَّ رسوله)، فلا يُقدِّم على محبة الله ومحبة رسوله شيئاً؛ لا من الوالدين، ولا من الزوجة، ولا من الأولاد، ولا من الأصدقاء.

وكذلك كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الشراب البارد الحلو، ويجب الحلوى والعسل^(١)، ويجب الخيل، وكان أحب الثياب إليه القميص^(٢)، وكان يحب الدُّبَاءَ^(٣).

فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله، بل قد تجمع الهمم والقلب على التفرغ لمحبة الله، فهذه محبة طبيعية تتبع نيّة صاحبها وقصده بفعل ما يحبه. فإن نوى به القوة على أمر الله تعالى وطاعته كانت قُرْبَةً. وإن فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يُثَبِّ ولم يعاقب، وإن فاته درجةٌ مَنْ فعله متقرباً به إلى الله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الشراب البارد الحلو)، يجب الشراب: الماء، يجب الماء البارد الحلو، ويتلذذ به، هذه محبة طبيعية، ليست محبةً دينيةً.

(١) أخرج البخاري (٥٤٣١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْحُلُوءَ وَالْعَسَلَ».

(٢) أخرج أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢) عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَمِيصُ».

(٣) أخرج البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّ خَيْطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَلِكَ الطَعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُبْزًا مِنْ شَعِيرٍ وَمَرَقًا فِيهِ دُبَاءٌ وَقَدِيدٌ». قَالَ أَنَسٌ: «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّبِعُ الدُّبَاءَ مِنْ حَوَالِي الصَّخْفَةِ، فَلَمْ أَرَلْ أَحَبَّ الدُّبَاءَ مِنْذُ يَوْمِئِذٍ».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويحب الحلوى والعسل)، يحب الحلوى، كل شيء حلوى؛ تمر وغيره، الرسول يحبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويجب العسل؛ لأنه من الحلوى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويحب الخيل)، يحب الخيل؛ لأنها شريفة، ولأنها دوابُّ الجهاد في سبيل الله.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)؛ فالخيل لها مزية على سائر الدوابِّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان أحبَّ الثياب إليه القميص)، كان أحب الثياب إليه القميص، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبس الرداء، ويلبس الإزار والرداء، ويلبس أحياناً القميص وهو الثوب المخيط، وهذا أحب إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الإزار والرداء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان يحب الدُّبَّاءَ)، الدُّبَّاءُ وهو القرع كان الرسول يحبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذه محبة طبيعية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله، بل قد تجمع الهمم والقلب على التفرغ لمحبة الله)، بل قد تعين على محبة الله، محبة هذه الأشياء: محبة الحلوى، محبة الدُّبَّاءِ، محبة المآكل والمشرب تعين على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهذه محبة طبيعية)، محبة طبيعية لا دينية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإن نوى به القوة على أمر الله تعالى وطاعته كانت قربة، وإن فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يُثَبِّ ولم يعاقب)، المحبة الطبيعية لا يثاب عليها ولا يعاقب، إنما المحبة الدينية هي التي يثاب عليها، أو محبة الشر ومحبة المعاصي هذه يعاقب عليها.

(١) أخرجه مسلم (١٨٧٢) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محاب الخلق:

فمحبة الله عَزَّوَجَلَّ: أصل المحابِّ المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها.

والمحبة مع الله: أصل الشرك والمحابِّ المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته)، محبة الله، ومحبة ما يعينه على محبة الله، وهذا من الحب في الله، من أحب لله وأبغض لله ووالى الله وعادى الله؛ فإنها تنال ولاية الله بذلك.

«مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وَايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ». قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا راوي الحديث: «وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةً مَوْأخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجِدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا» (١).

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ١٢٠، ١٢١)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٠٦) موقوفاً على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضُ فِي اللَّهِ...» الحديث.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله)، المحبة مع الله: أن يحب الله ويحب معه غيره كالمشركين، المشركين يحبون الله، لكن يشركون معه غيره.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين لله مشتركة هم يحبونه ويحبون غيره، وهذا هو الذي ضرهم وأبعدهم عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يحبون الأصنام ويحبون الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فالمشركون يحبون الله لكن يحبون معه غيره.

أما المؤمنون فهم يحبون الله محبة خالصة وهذه محبة العبادة، أما المحبة الطبيعية فهذه لا يحاسب عليها الإنسان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومحبة ما يبغضه الله)، من المعاصي والآثام.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها)، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله؛ تشغله عن محبة الله فهذه مذمومة.



ومحبة الصَّوَرِ المحرَّمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلِّمَا كان العبد أقربَ إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبَّتُه بعشق الصور أشدَّ، وكلِّمَا كان أكثرَ إخلاصًا وأشدَّ توحيدًا كان أبعدَ من عشق الصور.

ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها، ونجا منه يوسف الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإخلاصه. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنى.

فالمخلص قد خلص حبه لله، فخلص من فتنة عشق الصور. والمشرك قلبه معلق بغير الله، لم يُخلص توحيدَه وحبه لله عزَّ وجلَّ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك)، محبة الصور: يعني محبة النساء ومحبة الأشياء التي تشغل عن الله عزَّ وجلَّ، هذه محبة ضارة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكلِّمَا كان أكثرَ إخلاصًا وأشدَّ توحيدًا كان أبعدَ من عشق الصور)، الصور يعني المخلوقات، النساء وملك اليمين وما أشبه ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها، ونجا منه يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ بإخلاصه)، امرأة العزيز أحبت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لما اشتراه ملك مصر، صار مملوكًا له، ورأته امرأة العزيز فانشغفت به وراودته، لكنه أبى.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف: ٢٣]: فاعتصم عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مِنْهَا بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ فَنَجَا؛ أَنْجَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

ولما رأت النساء يَلْمُنَهَا فِي حَبِّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَشَغَفَهَا بِهِ، جَمَعَتْهُنَّ وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا مَعَهَا، ثُمَّ قَالَتْ لِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ: ﴿ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١]: انذهلن عن أيديه.

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢]: عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، هَذَا مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ.

فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَصَمَ نَبِيَهُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ مِنْ كَيْدِ النِّسَاءِ، وَخَلَّصَهُ مِنْ ذَلِكَ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤])، لَمَّا أَخْلَصَ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْإِثْمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمُشْرِكُ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِغَيْرِ اللَّهِ، لَمْ يُخْلِصْ تَوْحِيدَهُ وَحَبَّهُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ)، لَيْسَ الْمُرَادُ بِالصُّورِ: الصُّورَ الَّتِي تُعَلَّقُ، لَا، الْمُرَادُ بِالصُّورِ: صُورَ النَّاسِ، صُورَ النِّسَاءِ، وَالصُّورَ الَّتِي يُعْجَبُ بِهَا الْإِنْسَانُ.

فصل

ومن أبلغ كيد الشيطان وسُخْرِيته بالمفتونين بالصور: أنه يُمَنِّي أحدهم أنه إنما يجب ذلك الأمرَد أو تلك المرأة الأجنبية لله تعالى، لا لفاحشة، ويأمره بمؤاخاته.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أبلغ كيد الشيطان وسُخْرِيته بالمفتونين بالصور: أنه يُمَنِّي أحدهم أنه إنما يجب ذلك الأمرَد أو تلك المرأة الأجنبية لله تعالى، لا لفاحشة، ويأمره بمؤاخاته)، الشيطان -لعنه الله- يفتن الناس بالنظر إلى الصور.

وليس المراد بالصور: الصور المعروفة الفوتوغرافية، بل المراد صور الناس؛ ﴿صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. الله هو المصور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فينظرون صور الناس لا سيما النساء والمردان -يعني الأطفال الصغار- يصبون النظر إليهم نظر شهوة، يزين لهم الشيطان ذلك نظراً محرماً.

وإذا هُوهوا عن ذلك قالوا: إنما نتفكر في خلق الله، هل التفكر في خلق الله يكون بالنظر إلى الصور الفاتنة؟!!

لماذا لا تنظرون إلى الجبال، إلى الأشجار، إلى المخلوقات، إلى الإبل، إلى الغنم، إلى الدواب التي خلقها الله على أشكال ونوعها!! فبدل أن تنظروا إلى الصور الفاتنة، انظروا لتلك المخلوقات!

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أبلغ كيد الشيطان وسُخْرِيته بالفتونين بالصور: أنه يُمَنِّي أحدهم أنه إنما يجب ذلك الأمرَد أو تلك المرأة الأجنبية لله تعالى، لا لفاحشة، ويأمره بمؤاخاته)، إذا نُهِوا عن ذلك، قالوا: إنما ننظر إليه نظر محبة في الله.

هم كذبوا في ذلك، لماذا خصوها؟! إنما ينظرون إلى هذه الصور للفتنة، حيث زين لهم الشيطان ذلك وأغراهم به.

ففي هذا وجوب غض البصر؛ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿ [النور: ٣٠، ٣١]. فالواجب غضُّ البصر عن هذه الأشياء الفاتنة.



وهذا من جنس المخادنة، بل هو مخادنة باطنة، كذوات الأخدان اللاتي قال الله تعالى فيهن: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقال - سبحانه - في حق الرجال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، فيُظهرون للناس أن محبتهم تلك الصورة لله تعالى، ويُبطنون اتخاذاها خِدْنًا! يتلذذون بها فعلاً، أو تقبيلًا، أو تمتعًا بمجرد النظر والمحادثة والمعاشرة.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا من جنس المخادنة، بل هو مخادنة باطنة)، مصاحبة؛ الذي ينظر إلى النساء نظر شهوة هذا نوع من المخادنة؛ لأنه نظر شهوة، فهو يتشهى بالنظر إلى تلك الأجسام، وهذا نظر شهوة، وهو محرّم. والنظر يجرُّ إلى الفاحشة، نظرةً فابتساماً فموعداً فلقاء، ثم يتدرج الشيطان بالإنسان.

لماذا يخص النساء والمردان بالنظر، لماذا لا ينظر إلى هذا الكون وما فيه من العجائب، وما فيه من الآيات ويتبصر بذلك؛ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. هذا محل نظر الاعتبار.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كذوات الأخدان اللاتي قال الله تعالى فيهن: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥])، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]؛ والحِدْنُ: أن يكون بين المرأة والرجل مصاحبة، كما

كانوا في الجاهلية يتخذون الأخدان من النساء، وكذلك هو الآن في دول الكفر، لا يتزوج الواحد منهم إلا إذا بلغ من السن مبلغاً كبيراً، وأنفق كل وقته -والعياذ بالله- في النظر والفواحش؛ يُمتّع نفسه بالحرام! فإذا ما أراد الذرية تزوج، وإلا فاستمتعته بالحرام -والعياذ بالله-، وأما زواجه فليس من أجل العفة، وإنما من أجل الذرية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال -سبحانه- في حق الرجال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥])، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ يعني: من النساء، يسمونها صاحبةً، ويسمونها بأسماءٍ فاتنة: صاحبة، وعشيقة... إلى آخره.

وهذا موجود في دول الكفر بكثرة، ويوجد في الدول الإسلامية أكثر؛ لأن الشيطان يتسلط على المسلمين أكثر فيغريهم بذلك، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ.



واعتقادهم أن هذا لله وأنه قربة وطاعة: هو من أعظم الضلال والغِيّ وتبديل الدين، حيث جعلوا ما كرهه الله سبحانه محبوبًا له، وذلك من نوع الشرك، والمحجوبُ المُتَّخِذُ من دون الله طاغوتٌ، فإن اعتقاد كون التمتع بالمحبة والنظر والمخادنة وبعض المباشرة لله وأنه حُبٌّ فيه: كفر وشرك، كاعتقاد مُحِبِّي الأوثان في أوثانهم.

وقد يبلغ الجهل بكثير من هؤلاء إلى أن يعتقد أن التعاون على الفاحشة تعاونٌ على الخير والبر، وأن الجالب محسن إلى العاشق، جدير بالثواب، وأنه ساع في دوائه وشفائه، وتفريج كرب العشق عنه، وأن «مَنْ نَفَسَ عَن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِّنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِّنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعتقادهم أن هذا لله وأنه قربة وطاعة: هو من أعظم الضلال والغِيّ وتبديل الدين)، هذا نظر شهوة، ليس نظر مصاحبة، وهو مرض قاتل يجر إلى شر.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ نَفَسَ عَن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِّنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِّنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَّتُهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

والذين يذهبون إلى تجمعات النساء، وإلى أسواق النساء ينظرون إليهن؛ فهم من هذا النوع الذي خدعهم الشيطان، تجدهم ليس لهم شغل إلا أن يذهب ويأتي الأسواق للنظر إلى النساء لا سيما إذا كن متبرجات. والمرأة تتبرج إذا خرجت -إلا من رحم الله-؛ لأنها تحب أن تفتن الناس، وأن ينظروا إليها، وأن يتعلقوا بها، لذا فهي لا تخرج محتشمة. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «وَلْيُخْرِجَنَّ تَفَلَاتٍ»^(١). تَفَلَاتٍ: يعني غير متزينات، وإنما يخرجن متسترات بلباس ليس بلباس زينة، وإنما هو لباس ستر، أما لباسُ الزينة فهو مما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ»^(٢). هؤلاء كاسيات عاريات.

إذا ابتليت المرأة لتخرج علي التلفزيون في مقابلة؛ فإنها تتجمل أكثر مما تتجمل لزوجها، تعرض نفسها في التلفزيون، وبدل أن يراها واحد أو عشرة يراها العالم كله، أمام العالم، والعياذ بالله، فلتتق الله هؤلاء النسوة اللاتي يعرضن أنفسهن للفتنة، ويعرضن غيرهن للفتنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حيث جعلوا ما كرهه الله سبحانه محبوباً له)، الله يبغض هذا، وهم يقولون: الله يحب هذا، وهذه عبادة ننظر في خلق الله، ننظر لأجل المحبة، لأجل كذا وكذا، ولا نكون مبتعدين عن الناس.

(١) أخرجه أبو داود (٥٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِجْحَهَا، وَإِنْ رِجْحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وذلك من نوع الشرك)، نوع شرك، وإن كان ليس شركاً في العبادة، وإنما هو شرك في المحبة؛ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهذا شرك.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والمحبوبُ المتَّخِذُ من دون الله طاغوتٌ)، لأنه يجرُّ إلى شرِّ، طاغوت؛ لأنه يدعو إلى الفتنة والشر، والطاغوت من الطغيان، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الطاغوت: كلُّ ما تَجَاوَزَ به العبدُ حدَّهُ؛ من معبودٍ، أو متَّبوعٍ، أو مُطاعٍ»^(١).

هذا هو الطاغوت، من الطغيان، وهو مجاوزة الحد^(٢).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأنه حُبٌّ فيه: كفر وشرك، كاعتقاد حُبِّي الأوثان في أوثانهم)، لم يعبدها المشركون إلا لأنهم يحبونها، يحبون الأحجار والأشجار محبة عبادة، لو كانوا لا يحبونها لما عبدوها، والذي جرهم على هذا هو المحبة، فالمحبة إذنٌ خطيرة جداً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد يبلغ الجهل بكثير من هؤلاء إلى أن يعتقد أن التعاون على الفاحشة تعاونٌ على الخير والبر)، يزين لهم الشيطان أن التعاون على الفاحشة أنه من التعاون على البر والخير، وهذا من قلب الحقائق، والعياذ بالله.

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/٤٠).

(٢) انظر: العين (٤/٤٣٥)، وتهذيب اللغة (٨/١٥٣)، ولسان العرب (٨/١٥)، وتفسير الطبري (٢٣/٢١٩).

فالتعاون على الطاعة هو المطلوب، والفاحشة محرمة والتعاون عليها عدوان ومعصية وظلم؛ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأن الجالب محسن إلى العاشق، جدير بالثواب، وأنه ساع في دوائه وشفائه، وتفريج كرب العشق عنه، وأن «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»)، هكذا يقول لهم الشيطان في إطلاق أبصارهم على النساء، والمردان، والفتنة... فإذا لم يَصُنَّهُ الإنسانُ ففيه خطورة عظيمة.



فصل

ثم هم بعد هذا الضلال والغي أربعة أقسام:

قوم يعتقدون أن هذا الله، وهذا كثير في طوائف العامة، والمنتسبين إلى الفقر والتصوف، وكثير من الأتراك.

وقوم يعلمون في الباطن أن هذا ليس الله، وإنما يظهرون أنه الله خداعًا ومكرًا وتسترًا.

وهؤلاء من وجه أقرب إلى المغفرة من أولئك، لما يُرجى لهم من التوبة، ومن وجه أخبث، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم.

وأولئك قد اشتبه الأمر على بعضهم، كما اشتبه على كثير من الناس أن استماع أصوات الملاهي قربة وطاعة، ووقع في ذلك من شاء الله من الزهاد والعباد.

وكذلك اشتبه على من هو أضعف علمًا وإيمانًا أن التمتع بعشق الصور ومشاهدتها ومعاشرتها عبادة وقربة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوم يعتقدون أن هذا الله، وهذا كثير في طوائف العامة، والمنتسبين إلى الفقر والتصوف، وكثير من الأتراك)، يعتقدون أن هذا العمل من التقرب إلى الله، ومن نشر المحبة بين الناس والألفة، هكذا يقول لهم الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقوم يعلمون في الباطن أن هذا ليس لله، وإنما يظهر أن الله خداعاً ومكرًا وتسترًا)، يعلمون أن هذا ليس لله، وإنما يقولون هو الله من باب الخداع للناس، وهؤلاء أشد من الذين قبلهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأولئك قد اشتبه الأمر على بعضهم، كما اشتبه على كثير من الناس أن استماع أصوات الملاهي قربة وطاعة، ووقع في ذلك مَنْ شاء الله من الزهاد والعُباد)، هناك من الناس يتخذون الغناء قربة إلى الله؛ لأنه من التذكير بزعمهم.

من يتخذ آلات اللهو من باب القربة إلى الله، وهكذا المعاصي - يقولون - هذه تُقَرِّب إلى الله؛ وهذا من الانتكاس، بل هذه تُبَعِّد عن الله وتُوَقِّعُ في الفاحشة.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. ثم توعدهم بأنه ﴿خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]. لا يخفى عليه شيء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك اشتبه على من هو أضعف علمًا وإيمانًا أن التمتع بعشق الصور ومشاهدتها ومعاشرتها عبادة وقربة)، يتدرج بهم الشيطان شيئًا فشيئًا حتى يوقعهم في الضلال؛ يزين لهم الفساد في صورة الصلاح.

ومن ذلك: النظر؛ يزين لهم أنه قربة إلى الله وصلاح، مع أن الله حذَّر منه؛ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [النور: ٣٠].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ»^(١).
فإذا أطلقه الإنسان فإنه يقتله، أين يذهب هذا السهم؟ يرجع إليه
فيقتله، ويوقعه في الشر والفساد.



(١) تقدم تخرجه (٣/٥٦٢).

القسم الثالث: مقصودهم الفاحشة الكبرى، فتارة يكونون من أولئك الضالِّين، الذين يعتقدون أن هذه المحبة التي لا وَطءَ فيها لله تعالى، وأن الفاحشة معصية، فيقولون: نفعنا شيئاً لله تعالى، ونفعل أمراً غير الله تعالى.

وتارة يكونون من أهل القسم الثاني الذين يظهرون أن هذه المحبة لله، وهم يعلمون أن الأمر بخلاف ذلك، فيجمعون بين الكذب والفاحشة.

وهم في هذه المخادنة والمؤاخاة مُضَاهِئُونَ لِلنِّكَاحِ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج والمخالطة نظير ما يحصل بين الزوجين، وقد يزيد عليه تارة في الكَمِّ والكيف، وقد ينقص عنه.

وقد يحصل بينهما من الاقتران ما يشبه اقتران المتأخيين المتحابين في الله، لكن الذين آمنوا أشدَّ حباً لله، فإن المتحابين في الله يعظم تحابُّها ويقوى ويثبت، بخلاف هذه المؤاخاة والمحبة الشيطانية.

ثم قد يشتدُّ بينهما الاتصال حتى يسمُّونه زواجاً، ويقولون: تزوج فلان بفلان، كما يفعله المستهزئون بآيات الله تعالى ودينه من مُجَّانِ الفسقة، ويُقرُّهما الحاضرون على ذلك، ويضحكون منه، ويُعجِّبهم مثل ذلك المزاح والنكاح.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (القسم الثالث: مقصودهم الفاحشة الكبرى، فتارة يكونون من أولئك الضالِّين، الذين يعتقدون أن هذه المحبة التي لا وَطءَ فيها لله تعالى، وأن الفاحشة معصية)، هم لو كانوا يأتون المعصية ويعرفون

أنها معصية لكان أهونَ من أن يأتوها ويظنوا أنها طاعة، يسمونها طاعة أو يسميها لهم الشيطان طاعة! وهذا كثير عند الصوفية وعند الضالِّين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهم في هذه المخادنة والمؤاخاة مُضَاهِيُونَ لِلنِّكَاحِ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج والمخالطة نظير ما يحصل بين الزوجين)، النظر المحرَّم فيه شهوة، زنى؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاعْنِينُ تَزْنِي وَزَنَاها اَنْظُرُ»^(١)؛ فالنظر المحرَّم نوع من الزنا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد يحصل بينهما من الاقتران ما يشبه اقتران المتأخين المتحابين في الله، لكن الذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله)، بعض النساء وكثير من النساء إذا أرادت الخروج من بيتها تتزين بأنواع الزينة وتطيب بأفخر الطيب من أجل أن تفتن الناس، ويزين لها الشيطان أن ذلك من الإحسان والتجمل وإزالة الأذى بأن تظهر بمظهر طيب، تكون به قدوة للنساء، فيُجَمِّلُنَ أنفسهن بدلاً من أن يخرجن إلى الأسواق بغير زينة، وغير ما يجلب لهن أنظار الناس، فلتحذر النساء من هذا، خصوصاً النساء اللاتي يخرجن للأسواق.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ، وَلِيُخْرِجَنَّ تَفَلَاتٍ»^(٢).

ففي حال ذهابها للمسجد لا تتزين، فكيف إذا كانت ذاهبة إلى الشارع، أو ذاهبة للسوق ذاهبة تتزين وتتجمل، أو أشد من ذلك في وقتنا الحاضر أنها تكون إعلامية تظهر أمام الناس وأمام التلفزيون.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) تقدم ترجمه (ص ٧١).

ألا تتقي الله في نفسها، وتعلم أنها مسئولة، وتعلم أنها واقفة بين يدي الله، لماذا تعرض نفسها حال العرض، بدلاً من أن ينظر إليها واحد ينظر إليها الملايين من المشرق والمغرب، فلتتق الله هذه المرأة التي تقف أمام التلفاز، أو أمام أي شيء يظهر صورتها أمام الناس، ولتحتشم.

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ﴾: أي الخمار لا يكون على الرأس، تدليه على وجهها.

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]: لا تجعل صدرها أيضاً

معروضاً للفتنة، فتستر الصدر، إذا كان الواجب أن تستر صدرها فكيف بوجهها؟! ووجهها أشد فتنة؛ فعلى المرأة المسلمة أن تتقي الله، ولا تفتن الناس وتفتن نفسها.



وربما يقول بعض زنادقة هؤلاء: الأمرد حبيب الله، والملتحي عدو الله، وربما اعتقد كثير من المردان أن هذا صحيح، وأنه مراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى: يَا جَبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا...» الحديث^(١). وأنه توضع له المحبة في الأرض، فيعجبه أن يُحِبَّ، ويفتخر بذلك بين الناس، ويعجبه أن يقال: هو معشوق، أو حُظوة البلد، وأن الناس يتغيرون على محبته ونحو ذلك.

وقد آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى ترجيح وطء المُردان على نكاح النسوان، وقالوا: هو أسلم من الحبل والولادة، ومؤونة النكاح، والشكوى إلى القاضي، وفرض النفقة، والحبس على الحقوق. وربما قال بعضهم: إن جماع النساء يأخذ من القوة أكثر مما يأخذ جماع الصبيان؛ لأن الفرج يجذب من القوة والماء أكثر مما يجذب المحل الآخر بحكم الطبيعة.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وربما يقول بعض زنادقة هؤلاء: الأمرد حبيب الله، والملتحي عدو الله)، نسأل الله العافية.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبَّهُ. قَالَ: فَيَجِبُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبُّوهُ، فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُهُ. قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ.»

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنه مراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَحْبَبْتُ فُلَانًا...» الحديث)، هذه محبة عبادة، ليست محبة شهوة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنه توضع له المحبة في الأرض، فيعجبه أن يُحِبَّ، ويفتخر بذلك بين الناس)، الله جَلَّ وَعَلَا لا يحب الفساد، وإنما يحب الطاعة وما يقرب إليها، ويحب أهل الطاعة، فمن كان يريد محبة الله فليُطِعْهُ، ويتجنب ما يسخط الله ويغضبه، يتجنب أسباب الفتن والشُرور.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويعجبه أن يقال: هو معشوق، أو حُظْوَةُ البلد، وأن الناس يتغايرون على محبته ونحو ذلك)، وهي محبة شهوة، ليست محبة عبادة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى ترجيح وطء المُردان على نكاح النسوان)، لأن الشيطان يتدرج ببني آدم حتى يوصلهم إلى هذه المرتبة: أن اللواط بالمردان أحسن من الزواج بالنساء، قبحهم الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: هو أسلم من الحَبَل والولادة، ومؤونة النكاح، والشكوى إلى القاضي، وفرض النفقة، والحبس على الحقوق)، كل هذا من تسويغ الشيطان، فالزواج الشرعي فيه مصالح، وفيه خيرٌ كثير؛ ففيه إعفاف، فيه ذرية، فيه قوامه الرجل على المرأة، وهي مصالحٌ عظيمةٌ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وربما قال بعضهم: إن جماع النساء يأخذ من القوة أكثر مما يأخذ جماع الصبيان، لأن الفرج يجذب من القوة والماء أكثر مما يجذب المحل الآخر بحكم الطبيعة)، هذا كله من الشيطان، قبحه الله.

فليحذر المسلمون من خطوات الشيطان؛ فالشيطان يأخذ الناس شيئاً

فشيئاً.

وقسّمت هذه الطائفةُ المفعولَ به إلى ثلاثة أقسام: مؤاجر، ومملوك، ومعشوق خاصّ.

فالأول: إزاء البغايا المؤجّرات أنفسهن.

والثاني: بإزاء الأمة والسُرّيّة.

والثالث: بإزاء الزوجة، أو الأجنبية المعشوقة.

وتعوض كلّ منهم بقسم عن نظيره من الإناث، وربما فضّل بعضهم اتخاذ المردان واستفراشهم على النساء من وجوه. وهذا مضادّة ومحادّة لله، ودينه، وكتبه، ورسله.

الشّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وربما فضّل بعضهم اتخاذ المردان واستفراشهم على النساء من وجوه، وهذا مضادّة ومحادّة لله، ودينه، وكتبه، ورسله)، الله جَلَّ وَعَلَا قال في قوم لوط: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] فهم قد أتوا الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد، حيث لم يسبق أحدٌ إلى إتيان الفاحشة بالذكور.

قال بعض الخلفاء من بني أمية: ما كنت أظن أن رجلاً سيأتي رجلاً لولا أني قرأته في القرآن؛ ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيما قاله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه. ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُؤُوسَكُمْ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]: من العدوان - والعياذ بالله - تعدي الحلال إلى الحرام، ومن الاعتداء على حرّمات الله عَزَّوَجَلَّ.

وصنّف بعضهم كتابًا في هذا الباب، وقال في أثنائه: «باب في المذهب المالكي»، وذكر فيه الجماع في الدُّبر من الذكور والإناث. وقد علّم أن مالكا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى من أشدّ الناس وأشدّهم مذهبًا في هذا الباب، حتى إنه يوجب قتل اللوطي حدًّا، بكرًا كان أو ثيبًا. وقوله في ذلك هو أصح المذاهب، كما دلت عليه النصوص، واتفق عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن اختلفت أقوالهم في كيفية قتله، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وصنّف بعضهم كتابًا في هذا الباب، وقال في أثنائه: «باب في المذهب المالكي»، وذكر فيه الجماع في الدُّبر من الذكور والإناث)، كذبوا على مالك، وعلى مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد علّم أن مالكا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى من أشدّ الناس وأشدّهم مذهبًا في هذا الباب، حتى إنه يوجب قتل اللوطي حدًّا، بكرًا كان أو ثيبًا)، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَرَّقَ اللوطية بالنار^(١)، وأقرّه ابن عباس على ذلك، إلا أنه - ابن عباس - يرى قتلهم بالسيف بدلًا من النار؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

(١) انظر: ذم الملاهي لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٠، ١٠١)، وذم اللواط للأجري (ص: ٢٧، ٥٨)، والسنن الكبرى للبيهقي (٨ / ٤٠٥)، وشعب الإيمان (٧ / ٢٨٢).

(٢) أخرج البخاري (٣٠١٧) عَنْ عِكْرِمَةَ، «أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَرَّقَ قَوْمًا، فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَعَذُّبُوا بِعَذَابِ اللهِ»، =

وعلى كل حال اللوطي يُقتل، لكن يقتل بماذا؟

بعضهم قالوا: يقتل بالسيف، وبعضهم قال: يحرق، وبعضهم قال: يرفع إلى أرفع مكان في البلد ثم يطلق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، فقد أجمعوا على أنه يقتل، لكن كيفية القتل بماذا؟ اختلفوا فيها، لكن لا بد أن يقتل. قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله في ذلك هو أصح المذاهب، كما دلت عليه النصوص، واتفق عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن اختلفت أقوالهم في كيفية قتله)، ولا يفرق بين بكر وثيب، يقتل؛ لأنه فساد، لو بقي لأفسد في الأرض وأفسد في البلد، كونه يُستأصل ويُقتل هذا هو الأحسن، وإزالة هذه الفاحشة عن الناس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (واتفق عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن اختلفت أقوالهم في كيفية قتله)، اتفقوا على أنه يقتل، لكن اختلفوا في كيفية قتله: يقتل بالسيف هذا قول، يرمم بالحجارة إن كان ثيباً، هذا قول، يحرق بالنار هذا قول، وإنما اتفقوا على أنه يقتل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وسبب غلط هذا وأمثاله: أنه قد نسب إلى مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى)، سبب غلط هذا الذي نسب إلى مالك جواز إتيان المملوك الذكر.

=وَلَقَاتَلْتُهُمْ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ». وأخرج البخاري (٢٩٥٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْثٍ، وَقَالَ لَنَا: «إِنْ لَقَيْتُمْ فُلَانًا وَفُلَانًا - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَاهُمَا - فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ». قَالَ: ثُمَّ أَتَيْنَاهُ نُوْدَعُهُ حِينَ أَرَدْنَا الْحُرُوجَ، فَقَالَ: «إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحَرِّقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا بِالنَّارِ، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَدَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا فَأَقْتُلُوهُمَا».

وسبب غلط هذا وأمثاله: أنه قد نُسب إلى مالك رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى القول بجواز وطء الرجل امرأته في دبرها. وهو كذبٌ على مالك وعلى أصحابه؛ فكتبهم كلُّها مصرحةً بتحريمه.

ثم لما استقر عند هؤلاء أن مالكا يبيح ذلك، نقلوا الإباحة من الإناث إلى الذكور، وجعلوا الباب باباً واحداً. وهذا كفر وزندقة من قائله بإجماع الأمة.

ونظير هذا: ما يتوهمه كثير من الفسقة وجُهال التُّرك وغيرهم: أن مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أن هذا ليس من الكبائر، وغايته أن تكون صغيرة من الصغائر.

وهذا من أعظم الكذب والبهت على الأئمة، فقد أعاذ الله أبا حنيفة وأصحابه من ذلك.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسبب غلط هذا وأمثاله: أنه قد نُسب إلى مالك رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى القول بجواز وطء الرجل امرأته في دبرها. وهو كذب على مالك وعلى أصحابه، فكتبهم كلها مصرحةً بتحريمه)، الدبر ليس محلاً للاستمتاع، بل هو محل للقاذورات، وأيضاً لا ينتج حملاً وولادة؛ فهو فساد، بخلاف الوطء في القُبُل من الزوجة؛ فإنه صلاح ينتج ذرية، ويعف الزوجين أحدهما بالآخر؛ ففيه مصالحٌ عظيمة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

لكن في القبل، يأتيها من وجهها، يأتيها من قفاها، لكن لا بد أن يكون الوطاء في القبل، لا يكون في الدبر أبدًا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم لما استقر عند هؤلاء أن مالكا يبيع ذلك، نقلوا الإباحة من الإناث إلى الذكور)، وإذا نُسِبَ إلى أحد من العلماء قولٌ من الأقوال فلا تصدق النقل، فترجع إلى كتب هذا العالم، ارجع إلى كتبه لتجد ما ثبت عنه. وأما قول فلان وعلان، فهذا لا يُعتمد عليه، فالكذب كثير، فلا يُعتمد على مجرد أنه قول فلان من غير رجوع إلى الكتب التي أُلْفها المنسوب إليه هذا الكلام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونظير هذا: ما يتوهمه كثير من الفسقة وجُهاال التُّرك وغيرهم: أن مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أن هذا ليس من الكبائر، وغايته أن تكون صغيرة من الصغائر)، كم نسبوا إلى الأئمة من الأقوال الفاسدة والكاذبة ما هو محض افتراء عليهم، ونحن إذا نسب إلى أحد من العلماء شيء نرجع إلى كتبهم، فكتبهم وثائق، ولو كان هذا صحيحًا لكان في كتبهم، أما مجرد قال فلان وقال فلان فهذا لا يعتمد عليه.

وكتب المذاهب الأربعة مدونةٌ ومدرسةٌ ومتناقلةٌ من جيل إلى جيل، فهي محفوظة والحمد لله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا من أعظم الكذب والبهت على الأئمة، فقد أعاذ الله أبا حنيفة وأصحابه من ذلك)، أبو حنيفة هو أقدم الأئمة الأربعة، من أتباع

التابعين، وقيل: إنه أدرك بعض الصحابة؛ فهو من التابعين، وله مكانة عظيمة في الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ، فلا ينسب إليه شيءٌ لا يليق به، وهذه كتبه موجودة، إذا نُسب إليه شيءٌ - فالحمد لله - كتبه موجودة، وكتب أصحابه الذين رَوَوْا عنه موجودة.



وشبهة هؤلاء الفسقة الجهلة: أنهم لَمَّا رَأَوْا أبا حنيفة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لم يوجب فيه الحدَّ، ركبوا على ذلك أنه ليس من كبائر الذنوب، بل من صغائرهما، وهذا ظن كاذب، فإن أبا حنيفة لم يُسقط فيه الحدَّ لخفة أمره، وإن جُرِّمه عنده وعند جميع أهل الإسلام أعظم من جرم الزنى، ولهذا عاقب الله سبحانه أهله بما لم يعاقب به أمة من الأمم، وجمع عليهم من أنواع العذاب ما لم يجمعه على غيرهم.

وشبهة من أسقط فيه الحد: أن فحش هذا مركز في طباع الأمم، فاكْتَفِيَ فيه بالوازع الطَّبْعِي، كما اكْتَفِيَ بذلك في أكل الرِّجِيع وشرب البول والدم، ورُتِب الحدُّ على شرب الخمر، لكونه مما تدعو إليه النفوس.

والجمهور يجيبون عن هذا: بأن في النفوس الخبيثة المتعدية حدودَ الله أقوى الداعي لذلك، فالحدُّ فيه أولى من الحدِّ في الزنى.

ولذلك وجب الحدُّ على من وطئ أمه وابنته وخالته وجدَّته، وإن كان في النفوس وازعٌ وزاجرٌ طَّبْعِي عن ذلك، بل حدُّ هذا: القتل بكل حال، بِكُرًّا كان أو مُحْصَنًا، في أصح الأقوال، وهو مذهب أحمد وغيره.

هذا، ونُفِرة النفوس عن ذلك أعظم بكثير من نُفرتها عن المُردان.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإن جُرِّمه عنده وعند جميع أهل الإسلام أعظم من جرم الزنى، ولهذا عاقب الله سبحانه أهله بما لم يعاقب به أمة من الأمم)، قوم لوط،

أهل اللواط عاقبهم الله بعقوبة لم يعاقب بها أحداً من الأمم؛ لأنهم أتوا فاحشة لم يسبقهم بها أحدٌ من العالمين، وهي إتيان الذكور.

قوله رَحْمَةً لِلَّهِ: (ولذلك وجب الحدُّ على من وطئ أمه وابنته وخالته وجدته، وإن كان في النفوس وازعٌ وزاجرٌ طَبْعِيٌّ عن ذلك، بل حَدُّ هذا: القتل بكل حال، بَكْرًا كان أو مُحْصَنًا، في أصح الأقوال)، من أتى مُحْرَمَةً من النساء فإنه يقتل، لا يقال: إن كان بَكْرًا يجلد، وإن كان ثيبًا يَرجم! لا، بل يقتل على كل حال.



ونظيرُ هذا الظنِّ الكاذب، والغلطِ الفاحش: ظنُّ كثيرٍ من الجهال أن الفاحشة بالمملوك كالمباحة أو مباحةً، أو أنها أيسرُ من ارتكابها من الحرِّ.

وتأولتُ هذه الفرقةُ القرآنَ على ذلك، وأدخلت المملوك في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

حتى إن بعض النساء لتُمكننُ عبدها من نفسها، وتتأولُ القرآنَ على ذلك، كما رُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ امرأةٌ تزوّجت عبدها، وتأولت هذه الآية، ففرق عمرُ بينهما، وأدبها، وقال: وَيَحِكُ! إنما هذا للرجال لا للنساء^(١).

ومن تأول هذه الآية على وَطءِ الذُّكران من المالك فهو كافر باتفاق الأمة.

الشَّحْ

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وتأولتُ هذه الفرقةُ القرآنَ على ذلك، وأدخلت المملوك في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٠])، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: يعني من النساء، ليس ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: من الرجال، والعياذ بالله، وقُبِحَ من قال هذا.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (حتى إن بعض النساء لتُمكننُ عبدها من نفسها، وتتأولُ القرآنَ على ذلك)؛ لأنه ملك يمين! فلا يجوز للمرأة أن تُمكنن مملوكها،

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنّف (٧/٢٠٩).

وتقول: هذا ملكٌ لي! لا، هذا لا يملك شيئاً، وأنتِ لا تملكين هذا الشيء، هذا فاحشة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما رُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ امرأةٌ تزوّجت عبدها، وتأوّلت هذه الآية، ففرق عمرُ بينهما، وأدبها، وقال: وَيْحِكِ! إنما هذا للرجال لا للنساء)، إنما هذا للرجال؛ أن الرجال يستمتعون بمملوكاتهم، يتسرون بهن وهو للرجال.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]: يعني الرجال، أما المرأة إذا ملكت عبداً فلا تتسرّى به، لا يجوز هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تأوّلت هذه الآية على وطء الذُّكران من المماليك فهو كافر باتفاق الأمة)، مَنْ فسر ملك اليمين بالذكر أن لملكه أن يفعل به الفاحشة فهو كافر باتفاق الأمة.



قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ: ومن هؤلاء من يتأول قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] على ذلك.

قال: سألتني مرّةً بعضُ الناس عن هذه الآية، وكان ممن يقرأ القرآن، فظن أن معناها في إباحة ذُكران العبيد المؤمنين.

قال: ومنهم من يجعل ذلك مسألة نزاع، يبيحه بعضُ العلماء ويُحرّمه بعضهم، ويقول: اختلافُهم شُبّهة، وهذا كذبٌ وجهلٌ، فإنه ليس في فرق الأمة من يبيح ذلك، بل ولا في دين من أديان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وإنما يبيحه زنادقةُ العالم، الذين لا يؤمنون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

قال: ومنهم من يقول: هو مباحٌ للضرورة، مثل أن يبقى الرجلُ أربعين يوماً لا يجامع، إلى أمثال هذه الأمور التي خاطبني فيها وسألني عنها طوائف من الجند والعامة والفقراء.

قال: ومنهم من قد بلغه خلافُ بعض العلماء في وجوب الحدِّ فيه، فظنَّ أن ذلك خلافٌ في التحريم، ولم يعلم أن الشيء قد يكون من أعظم المحرّمات كالميتة والدم ولحم الخنزير، وليس فيه حدٌّ مقدّرٌ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ:)، شيخ الإسلام ابن تيمية، هو شيخ ابن القيم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: سألني مرَّةً بعضُ الناس عن هذه الآية، وكان ممن يقرأ القرآن، فظن أن معناها في إباحة ذُكران العبيد المؤمنين)، الآية أولها: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَلَا تُنكِحُوا﴾: لا تزوجوا ﴿الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: ومنهم من يجعل ذلك مسألة نزاع، يبيحه بعض العلماء ويحرمه بعضهم، ويقول: اختلافهم شبهة، وهذا كذبٌ وجهلٌ، فإنه ليس في فِرْقِ الأمة من يبيح ذلك)، هذه كتبهم موجودة، كتب الأئمة وأتباعهم من أصحاب الأئمة الأربعة موجودة ومدونة، لا يوجد فيها شيءٌ من هذا البهت والكذب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: ومنهم من يقول: هو مباحٌ للضرورة، مثل أن يبقى الرجلُ أربعين يوماً لا يجامع، إلى أمثال هذه الأمور التي خاطبني فيها وسألني عنها طوائف من الجند والعامّة والفقراء)، هذا كلام شيخ الإسلام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولم يعلم أن الشيء قد يكون من أعظم المحرّمات كالميتة والدم ولحم الخنزير، وليس فيه حدٌّ مقدّرٌ)، لأن فحشه يكفي، فحشه ينفرُّ الناس عنه أكثر مما ينفرُّ الحدُّ والجلدُ والرجم.



ثم ذلك الخلافُ قد يكون قولاً ضعيفاً، فيتولد من ذلك القول الضعيف الذي هو من خطأ بعض المجتهدين، وهذا الظنُّ الفاسد الذي هو خطأ بعض الجاهلين: تبديل الدين، وطاعة بعض الشياطين، ومعصية ربِّ العالمين. فإذا انضافت الأقوال الباطلة إلى الظنون الكاذبة، وأعاتتها الأهوية الغالبة، فلا تسأل عن تبديل الدين بعد ذلك، والخروج عن جملة الشريعة بالكلية.

ولمَّا سَهَّلَ هذا الأمر في نفوس كثير من الناس صار كثير من المماليك يتمدَّح بأنه لا يعرف غير سيِّده، وأنه لم يطأه سواه، كما تتمدَّح المرأة والأمة بأنها لا تعرف غير سيدها وزوجها.

وكذلك كثيرٌ من المردان يتمدَّح بأنه لا يعرف غير خدينه وصديقه، أو مؤاخيه، أو معلِّمه، وكذلك كثيرٌ من الفاعلين يتمدح بأنه عفيفٌ عما سوى خِذنه الذي هو قرينه وعشيرته كالزوجة، أو عمًّا سوى مملوكه الذي هو كَسْرِيَّتُهُ.

ومنهم من يرى أن التحريم إنما هو إكراه الصبي على فعل الفاحشة، فإذا كان مختاراً راضياً لم يكن بذلك بأسٌ، فكأن المحرَّم عنده من ذلك إنما هو الظلم والعدوان بإكراه المفعول به.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم ذلك الخلافُ قد يكون قولاً ضعيفاً، فيتولد من ذلك القول الضعيف الذي هو من خطأ بعض المجتهدين، وهذا الظنُّ الفاسد الذي

هو خطأ بعض الجاهلين: تبديل الدين، وطاعة بعض الشياطين، ومعصية ربّ العالمين)، ولهذا يقولون: (مَنْ تَبَعَ الرَّحْصَ تَزْدَقَ)، الذي يتبع أقوال العلماء، ما دام قال به فلان، وما دام هذا موجوداً في المذهب الفلاني فيكون سهلاً الوقوع فيه!

الكلام على كتاب الله وسنة رسوله، ليس على الكتب، فالكتب يكون فيها الصحيحُ ويكون فيها الضعيف، ويكون فيها الحق ويكون فيها الباطل؛ لأنها من أقوال الرجال.

بخلاف الوحي المنزّل من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو المرجع، ليس المرجع الكتب، لكن ما وافق القرآن والسنة مما في الكتب فهو حق، وما خالف الكتاب والسنة مما فيها باطل.

ولكن -الحمد لله- كتب المذاهب الأربعة ليس فيها شيءٌ من هذا الإفك وهذا الكذب؛ لأنها مدرّوسة ومرّت على أجيال من العلماء، دوّنها ومحصّوها، وأنها؛ فهي إرثٌ طيّبٌ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك كثيرٌ من الفاعلين يتمدح بأنه عفيفٌ عما سوى خِذْنِهِ الذي هو قرينته وعشيرته كالزوجة، أو عمّا سوى مملوكه الذي هو كَسْرِيَّتُهُ)، نسأل الله العافية.



قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ: وَحَكَى لِي مَنْ أَثِقَ بِهِ أَنْ بَعْضَ هَؤُلَاءِ أَخَذَ عَلَي هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، فَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالْحَدِّ، فَقَالَ: وَاللَّهِ هُوَ ارْتَضَى بِذَلِكَ، وَمَا أَكْرَهْتَهُ وَلَا غَضَبْتَهُ، فَكَيْفَ أَعَاقِبُ؟ فَقَالَ نَصِيرُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ حَاضِرًا: هَذَا حُكْمُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ! وَلَيْسَ هَؤُلَاءِ ذَنْبٌ!

وَمِنْ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَشْقَ إِذَا بَلَغَ بِالْعَاشِقِ إِلَى حَدٍّ يَخَافُ مَعَهُ التَّلَفَ، أُبِيحَ لَهُ وَطْءُ مَعْشُوقِهِ لِلضَّرُورَةِ، وَحِفْظِ النَّفْسِ، كَمَا يُبَاحُ لَهُ الدَّمُ وَالْمَيْتَةُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ فِي الْمَخْمُصَةِ.

وَقَدْ يُبِيحُ هَؤُلَاءِ شَرْبَ الْخَمْرِ عَلَى وَجْهِ التَّدَاوِي وَحِفْظِ الصَّحَّةِ، إِذَا سَلِمَ مِنْ مَعْرَةِ السُّكْرِ.

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: (فَقَالَ نَصِيرُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ حَاضِرًا: هَذَا حُكْمُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ! وَلَيْسَ هَؤُلَاءِ ذَنْبٌ!)، نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي الْحَبِيثُ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَشْقَ إِذَا بَلَغَ بِالْعَاشِقِ إِلَى حَدٍّ يَخَافُ مَعَهُ التَّلَفَ، أُبِيحَ لَهُ وَطْءُ مَعْشُوقِهِ لِلضَّرُورَةِ، وَحِفْظِ النَّفْسِ)، أَعُوذُ بِاللَّهِ.

الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»^(١). هَذَا الَّذِي أُرْشِدُ إِلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الزَّوْجَ، أَوِ الصِّيَامَ لِمَنْ عِنْدَهُ شَهْوَةٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٠٥)، وَمُسْلِمٌ (١٤٠٠) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد يُبيح هؤلاء شربَ الخمرِ على وجه التداوي وحفظ الصحة، إذا سلم من مَعْرَةِ السكرِ)، الخمر ليس فيه دواءٌ، إنما هو داءٌ^(١)، وكذَّبَ مَنْ يقول: إنَّ فيه دواءً!



(١) أخرجه مسلم (١٩٨٤) عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَاثِلٍ، عَنْ أَبِيهِ وَاثِلِ بْنِ الْخَضْرَمِيِّ، «أَنَّ طَارِقَ بْنَ سُوَيْدٍ الْجُعْفِيَّ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَمْرِ؟ فَهَنَاهُ أَوْ كَرِهَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا، فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ».

وقال البخاري في صحيحه (٧/١١٠): «وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي السَّكْرِ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ».

ولا ريب أن الكفر والفسوق والمعاصي درجات، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات، كما قال تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، ونظائره في القرآن كثيرة.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧])، النسيء: هو تأخير الأشهر الحرم إلى وقت آخر، الأشهر الحرم التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ورجب يؤخرونها في الجاهلية، يؤخرونها على حسب أهواءهم.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ ﴾: هذا هو النسيء: تأخير الأشهر الحرم.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُطَاطَعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٣٧].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾)، هؤلاء هم المنافقون: إذا ما أنزلت سورة على

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرح المؤمنون بما أنزل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما المنافقون فلا يفرحون بذلك.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]:
هؤلاء هم المؤمنون.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ : أي: نفاق ﴿فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]. نسأل الله العافية.



وَمِنْ أَخْفَ هَوْلَاءِ جُرْمًا: مَنْ يَرْتَكِبُ ذَلِكَ مَعْتَقِدًا تَحْرِيمَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ!

فَكَأَنَّ مَا كَانَ لَمْ يَكُنْ! فَقَدْ تَلَاعَبَ الشَّيْطَانُ بِأَكْثَرِ هَذَا الْخَلْقِ، كَتَلَاعَبِ الصَّبِيَّانِ بِالْكُرَّةِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ أَنْوَاعَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ فِي كُلِّ قَالِبٍ. وَبِالْجَمَلَةِ فَمَرَاتِبُ الْفَاحِشَةِ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ مَفَاسِدِهَا: فَالْمُتَخَذِ خِدْنًا مِنَ النِّسَاءِ، وَالْمُتَخَذِ خِدْنًا مِنَ الرِّجَالِ: أَقَلُّ شَرًّا مِنَ الْمَسَافِحِ وَالْمَسَافِحَةِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ.

وَالْمُسْتَخْفِي بِمَا يَرْتَكِبُهُ أَقَلُّ إِثْمًا مِنَ الْمَجَاهِرِ الْمُسْتَعْلِنِ.

الشَّحْ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِنْ أَخْفَ هَوْلَاءِ جُرْمًا: مَنْ يَرْتَكِبُ ذَلِكَ مَعْتَقِدًا تَحْرِيمَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ!)، بَعْضُهُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ وَيُزِينُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ، وَيَقُولُ: تَتُوبُ بَعْدَهَا، مِثْلَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9]: يَعْنِي تَتُوبُونَ فِيهَا بَعْدَ وَتَصْلِحُونَ، زِينُ لِهْمِ الشَّيْطَانِ هَذَا.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَكَأَنَّ مَا كَانَ لَمْ يَكُنْ!)، يَقُولُ: أَتُوبُ، وَيَفْعَلُ الْمَعْصِيَةَ وَيَسْمَحُ لِنَفْسِهِ بِذَلِكَ! مَا الَّذِي يَدْرِيكَ أَنَّكَ تَتُوبُ؟! وَمَاذَا إِنَّ حَيْلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التُّوبَةِ؟! لَيْسَ الْأَمْرُ بِيَدِكَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقد تلاعب الشيطان بأكثر هذا الخلق، كتلاعب الصبيان بالكرة، وأخرج لهم أنواع الكفر والفسوق والعصيان في كل قالب)، الشيطان يزيِّنُ للناس، ويُملي لهم، فإن أطاعوه هلكوا، وإن أطاعوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجوا.



والكاتم له أقلّ إثماً من المخبر به، المحدث للناس به، فهذا بعيدٌ من عافية الله تعالى وعفوه، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنْ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ: أَنْ يَسْتُرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ، يَقُولُ: يَا فَلَانُ، فَعَلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا! فَيَبِيتُ رَبُّهُ يَسْتُرُهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْ نَفْسِهِ»^(١) أو كما قال.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والكاتم له أقلّ إثماً من المخبر به، المحدث للناس به، فهذا بعيدٌ من عافية الله تعالى وعفوه، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»)، لا يستحيون، يجاهرون بالمعصية، وقد يفتخرون بها أيضاً! فهذا لا يعاقب -والعياذ بالله-، ولا يوفق للتوبة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَإِنْ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ: أَنْ يَسْتُرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ، يَقُولُ: يَا فَلَانُ، فَعَلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا!)، الذي يشرح أفعاله القبيحة للناس من باب الافتخار بها؛ أنا فعلت كذا وكذا، ويتمدح بهذا، هذا لا يوفقه الله للتوبة، والعياذ بالله.

خلاف الذي يأتي المعصية وهو مستحٍ وخجل، ويستخفي بها ولا يظهرها؛ هذا حَرِيٌّ أَنْ يَتُوبَ.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَيَبِيْتُ رَبَّهُ يَسْتُرُهُ، وَيُضْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْ نَفْسِهِ)،
الذي يتحدث بأفعاله القبيحة هذا هتك ستر نفسه، فالإنسان إذا ابتلي ووقع
في معصية لا يظهرها للناس ويتمدح بها، بل يستحي من الله ويخاف منه، وقد
يتوب ويوفق للتوبة، «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»^(١)، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



(١) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي الحديث الآخر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ابْتَلِيَ مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ بِشَيْءٍ فَلَيْسَتْ تَزْبِسْتِرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمَ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ»^(١)، وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الْخَطِيئَةَ إِذَا أُخْفِيَتْ لَا تَضُرُّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَلَكِنْ إِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ»^(٢).

وكذلك الزنى بالمرأة التي لا زوج لها أيسر إثمًا من الزنى بذات الزوج، لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه، وإفساد فراشه عليه، وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنى أو دونه.

والزنى بحليلة الجار أعظم من الزنى ببيعة الدار، لما اقترن بذلك من أذى الجار، وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به.

وكذلك الزنى بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنى بغيرها؛ ولهذا يقام له يوم القيامة، ويقال له: «خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»^(٣).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الْخَطِيئَةَ إِذَا أُخْفِيَتْ لَا تَضُرُّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَلَكِنْ إِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ»)، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾

- (١) أخرجه مالك (٢/ ٨٢٥)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٥٦٥).
- (٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٢) من طريق الأوزاعي، عن بلال بن سعد قال: ... فذكره.
- (٣) أخرجه مسلم (١٤٠/ ١٨٩٧). وفي رواية عنده برقم (١٣٩) (١٨٩٧) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلَفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيُحُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟».

لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥]. فالمعصية إذا أظهرت ولم تنكر عمّت العقوبة الصالح والطالح.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والزنا بحليلة الجار أعظم من الزنى ببعيدة الدار، لما اقترن بذلك من أذى الجار)، هذا من أكبر الكبائر.

لما سُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكبر الكبائر؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». الزنى كله قبيح، لكن خيانة الجار الذي وثق منك، وصار جارًّا لك؛ هذه الزنا بها أشد: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»^(١).

أنزل الله جَلَّ وَعَلَا في ذلك قوله تعالى في آخر سورة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. هذه أكبر الكبائر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك الزنى بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنى بغيرها، ولهذا «يقام له يوم القيامة، ويقال له: خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»)، المظلوم يُقْتَصُّ له من حسنات الظالم يوم القيامة، ليس هناك دراهم يوم القيامة، ليس هناك إلا الحسنات.



(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما تختلف درجاته بحسب المزي بها، فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والأحوال، وبحسب الفاعل، فالزنى في رمضان ليلاً أو نهاراً أعظمُ إثماً منه في غيره، وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظمُ إثماً منه فيما سواها.

وأما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنى من الحرِّ أقبح منه من العبد؛ ولهذا كان حدّه على النصف من حدّه، ومن المحصن أقبح منه من البكر، ومن الشيخ أقبح منه من الشاب؛ ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكىهم وهم عذاب أليم: الشيخ الزاني^(١).

ومن العالم أقبح منه من الجاهل؛ لعلمه بقبحه وما يترتب عليه، وإقدامه على بصيرة، ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظمُ إثماً منه فيما سواها)، الزنا في مكة والمدينة (الحرمين) أشد من الزنا في غيرهما من البلدان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنى من الحرِّ أقبح منه من العبد، ولهذا كان حدّه على النصف من حدّه)، كان حد العبد المملوك

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: شَيْخُ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ».

على النصف من حد الحر؛ ﴿فَإِنْ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾: يعني الحرائر؛ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]: يعني من الحد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن المحصن أقبح منه من البكر)، لأن المحصن تعفّف بالزواج، وعرف حرمة الزنى؛ فهو أشد من العرب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن الشيخ أقبح منه من الشاب)، من الشيخ: يعني من كبير السن أقبح منه من الشاب؛ لأن الشاب قد يغويه شبابه وقوته، بخلاف الشيخ ليس فيه ما يدعوه إلى الفاحشة؛ لأنه كبير السن، لكن هذا دليل على أنه يجب الفاحشة -والعياذ بالله-! لم يحملها عليها شدة الشهوة، إنما حملها عليها أنه يجبها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يُكَلِّمهم الله يوم القيامة ولا يُزَكِّيهم وهم عذاب أليم: الشيخ الزاني)، «أَشْمِطُ زَانٍ»^(١)، وهو كبير.



(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٦/٦) من حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَشْمِطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهُ بِضَاعَةً؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ».

فصل

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه قد يقترن بالأيسر إثمًا ما يجعله أعظم إثمًا مما هو فوقه.

مثاله: أنه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق، وتألهه له وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره، فيقترن بمحبة خِذنه وتعظيمه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، ما قد يكون أعظم ضررًا على صاحبه من مجرد ركوب الفاحشة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (مثاله: أنه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق، وتألهه له وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره)، قد يتلى الذي ينظر إلى النساء نظر تلذذ ومحبة شهوانية، بأن يصرف لهذا المحبوب وهذا المعشوق شيئًا من الطاعة أكثر مما يكون لله عزَّجَلَّ.

فالعشق يفضي بصاحبه إلى ما لا تُحمد عُقباؤه، وعلاج ذلك غض البصر، والبعد عن تجمُّعات الفتنة، وفي زماننا هذا البعد عن القنوات الهابطة وما يُعرض في الشاشات؛ فإن الفتنة عظمت الآن بهذه الأمور، يُعرض في

الشاشات وفي المواقع أمورٌ فظيعة من أهل الفساد، يصطادون بها ضعاف المسلمين!

فعلى المسلم أن يتعد عن هذه الشبكات الهابطة غاية الابتعاد، وعن هذه المناظر الفظيعة، ولا يقول: أنا لا يمكن أن أنخدع بها! الإنسان ضعيف، يقول له الشيطان: لن تؤثر عليك؛ لأن عندك إيماناً، فانظر إليها! لا يجوز هذا، لا بد أن يتعد الإنسان؛ ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

فلا تُسرح بصرك فيما لا يجوز لك، وتزعم أنك محصن، وأنت لا تتأثر، فالإنسان مُعَرَّضٌ للفتنة مهما كان، وكلما قوي إيمان الإنسان عظم حذرُه من هذه الأشياء، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].



فإن المحبوبات لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ القَطِيفَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ، إِنْ أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ»^(١). رواه البخاري.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن المحبوبات لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ القَطِيفَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ، إِنْ أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ»)، الذي يتعلق قلبه بطمع الدنيا، إن أُعطي منها رضي وإن لم يعط سخط؛ هذا عبد لها، عبدٌ للدنيا والدينار؛ لهما يرضى ولهما يسخط.

«تَعَسَّ» يعني: خسر وسقط.

«تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ، عَبْدُ الدِّينَارِ»: سآه عبداً له.

«تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ»: تأكيد.

«وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ»: يُصَابُ بالعجز حتى عن أخذ الشوكة من رجله أو من قدمه، يُصَابُ بالعجز؛ عقوبةً له.

فعلى المسلم أن يحصن نفسه بغض البصر، ولا مثل غض البصر خصوصاً في هذا الزمان الذي تُعرض فيه الفتن والشهوات عرضاً مغرياً بواسطة هذه

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشاشات وهذه الأشياء الميسرة لهم؛ «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١)، فلما كان في قلوبهم هذا الانتكاس يُسر لهم الشر؛ صار يعرض ويدخل عليهم في بيوتهم، وفي مجالسهم، يأتي من المشرق والمغرب ويدخل عليهم بواسطة البث الآثم. فالإنسان يبعد هذه الأشياء عن بيته وعن أولاده وعن من تحت يده؛ لأنه راعٍ على أهل بيته ومسؤول عن رعيته، ولئن قال: أنا لا أنظر فيها وأنا أبغضها.

فنقول له: لماذا تدخلها في بيتك على نسائك وعلى أولادك وعلى السفهاء؟ أنت مسؤول عن هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ)، يعني يغضب ويسخط ويرضى للدنيا، «أُعْطِيَ رَضِيَ»؛ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]، فهم يغضبون ويرضون لطمع الدنيا، هذه صفة المنافقين، وهي خطر عظيم على الإنسان.



(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَسَمِيَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِنْ أُعْطُوا رَضُوا وَإِنْ مُنِعُوا سَخَطُوا عبيداً لهذه الأشياء؛ لانتهاه محبتهم ورضاهم ورجبتهم إليها.

فإذا شُغف الإنسان بمحبة صورة لغير الله، بحيث يرضيه وُصولُهُ إليها وظَفَرُهُ بها، وَيُسَخِطُهُ فَوَاتِ ذَلِكَ، كان فيه من التَعَبُّدِ لها بقدر ذلك.

ولهذا يجعلون الحب مراتب: أوله العلاقة، ثم الصِّبَابَةُ، ثم الغرام، ثم العشق، وآخر ذلك: التَّتِيْمُ، وهو التَعَبُّدُ للمعشوق، فيصير العاشق عبداً لمعشوقه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَسَمِيَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِنْ أُعْطُوا رَضُوا وَإِنْ مُنِعُوا سَخَطُوا عبيداً لهذه الأشياء، لانتهاه محبتهم ورضاهم ورجبتهم إليها)، والمؤمن يرضى لله ويسخط لله، لا يرضى للدنيا ويسخط للدنيا، إنما يرضى لله ويسخط لله عَزَّجَلَّ، هذا هو المؤمن.

المنافق، لا بالعكس، يرضى للدنيا ويسخط للدنيا؛ ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا شُغف الإنسان بمحبة صورة لغير الله، بحيث يرضيه وُصولُهُ إليها وظَفَرُهُ بها، وَيُسَخِطُهُ فَوَاتِ ذَلِكَ، كان فيه من التَعَبُّدِ لها بقدر ذلك)، صورة يعني امرأة، هذه الصورة صورة المرأة، يعني: اللواتي يعرضن أنفسهن في الهواتف، وفي المحطات الهابطة، تعرض نفسها لتفتن مَنْ في قلوبهم شهوةٌ لهذه الأمور، هذه فِتْنٌ عظيمة.

عليك أن تترفع عن هذه الأمور، ولا تدخلها في بيتك وعلى أولادك، ولا تقل: أنا لا أنظر إليها! ينظر إليها أولادك ونساؤك ومن في البيت وهم في ذمتك، فكيف لا ترضاها أنت وترضاها لأولادك؟! هذا إن سلمنا أنه يتعد عنها، مع أنه لا يتعد عنها!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كان فيه من التعبد لها بقدر ذلك)، عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميعة، صار عبداً لهذه الأمور؛ لأنه إن أُعطيَ رضى، وإن لم يُعطَ سَخِطَ؛ فهو يرضى ويسخط لطمع الدنيا، فهو عبداً للدنيا، عبداً للدينار، وعبداً للدرهم، عبداً للخميصة، عبداً للقليفة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا يجعلون الحب مراتب: أوله العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ثم العشق، وآخر ذلك: التَّيْمُ، وهو التعبد للمعشوق، فيصير العاشق عبداً لمعشوقه)، تَيْمُ اللهُ - مثلاً -: يعني عبد الله، فالتَّيْمُ هو العبد.

والتَّيْمُ نوع من المحبة؛ لأن المحبة درجاتٌ بعضها أشد من بعض، وآخرها التَّيْمُ: أن يكون عبداً لمعشوقه ومعبوده.



والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا حَكَى عَشَقَ الصُّورِ فِي الْقُرْآنِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: فَحَكَاهُ
عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَكَانَتْ مُشْرِكَةً عَلَى دِينِ زَوْجِهَا، وَكَانُوا مُشْرِكِينَ.
وَحَكَاهُ عَنِ اللُّوْطِيَّةِ، وَكَانُوا مُشْرِكِينَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِمْ: ﴿لَعَمْرُكَ
إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فحكاها عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها، وكانوا مشركين)، امرأة العزيز ملك مصر، ويوسف ألقاه إخوته في البئر ليتخلصوا منه؛ لأنه محبوب لأبيهم يعقوب، أرادوا أن يتخلصوا منه، فألقوه في البئر.

لطف الله به، وجاءت سَيَّارَةٌ - يعني: قافلة - واردة على هذا البئر، فأدلى الساقى دلوه؛ فتمسك به يوسف وجذبه الساقى، ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ﴾ [يوسف: ١٩].

فجاء إخوته قالوا: هذا عبد لنا أبى، وألقى نفسه في البئر هرباً منّا، فباعوه عليهم، ﴿وَشَرَّوهُ﴾ يعني: باعوه؛ ﴿بِمَنْ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ ليتخلصوا منه، لكن هل الله يسلمه لهم؟

الله جَلَّ وَعَلَا نَجَّاهُ وَفَضَحَهُمْ، هذا يوسف بيع على أنه مملوك، والذي اشتراه هو ملك مصر.

وكان لجمالها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشِقَتُهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، يعني: افعل ما تريد من الشهوة؛ ماذا

قال؟ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فتمنَّعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واشتد في تمنعه، فجمعت النساء؛ لأن نساء مصر أصبحن يتكلمن فيها، يَقْلُنَ: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَنَهَا﴾: يعني مملوكها، ﴿عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

فلما سمعت بما يقلن جمعتن على وليمة ودعوة، اجتمعن وأعطت كل واحدة منهن سكيناً بيدها، بزعمها أنها تقطع الخضار وتقطع ما يقدم لها.

وقالت ليوسف: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ ذهلن من منظره، ونسین السكاكين، وجعلن يقطن بأيديهن، يجرحن أيديهن، ﴿وَقَلْنَ حَسْبَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلْهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿[يوسف: ٣١، ٣٢]. وصلت إلى هذه الحال، تريد أن تسجنه وتذله؛ ﴿وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

نبي الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، الابتلاء والامتحان يجري على الأنبياء، «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمُّ الأمثلُ فالأمثلُ»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي في سننه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند (٣/ ٧٨)، وابن حبان في صحيحه (١٦٠/٧)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرک (١/ ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وترجم البخاري في صحيحه (٧/ ١١٥) فقال: (باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل).

قالت: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾

[يوسف: ٣٢].

ماذا قال؟ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾: على براءته، وعلى دينه، وعلى تمسكه بدينه، قالوا: لا بد أن نسجنه؛ لأجل ألا تفضح، ويصير كأنه هو المخطئ.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيُسْجَنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

[يوسف: ٣٥].

سجنوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نبي من أنبياء الله يُسجن! هذا امتحانٌ وابتلاءٌ، فصبر على السجن، وصار هذا السجن له خيراً؛ لأنه علّم الناس التوحيد في السجن، وصاروا يستفتونه فيما يَرَوْنَهُ من الرؤى، وصار داعية إلى الله في السجن.

فهكذا المؤمن أينما وُجد ينشر الخير، ينشر الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، حتى في السجن يدعو إلى الله، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فانتهى الأمر إلى أن الله فضحهم، وبرأ نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها)، عشقت يوسف.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وحكاه عن اللوطيَّة، وكانوا مشركين)، اللوطية الذين يأتون الرجال -والعياذ بالله- من قوم لوط نبي الله.

يقولون: يقال لَوَاطِيٍّ، ولا يقال لُوَطِيٍّ، لُوَطِيٍّ: نسبة إلى لوط، وهذا لا يجوز؛ فيقال: لَوَاطِيٍّ؛ نسبة إلى اللواط، وهو إتيان الرجال.

وهي فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، لم يسبقهم أن يعلو الرجل على الرجل -والعياذ بالله-، وهي فاحشة فظيعة؛ ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ماذا كانت النتيجة؟ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلَ جَبْرِيْلَ فَاقْتَلَعَ دِيَارَهُمْ، دِيَارَ سَدُومَ، سَبْعَ مَدَنٍ اقْتَلَعَهَا عَلَى طَرَفِ جَنَاحِهِ، وَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مِنَ الْبَلَدِ وَلَا يَلْتَفِتُوا، إِلَّا امْرَأَةَ لُوطَ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا، وَلَمَّا سَمِعَتْ الْوَجْبَةَ؛ التفتت فجاءها حجر فضر بها وقتلها، قتلها الحجر الذي أرسل إليها؛ لأنها على دين قومها، وكانت تدل الرجال على أضياف نبي الله لوط.

فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا اقْتَلَعَ دِيَارَهُمْ بِأَنْ أَرْسَلَ جَبْرِيْلَ فَاقْتَلَعَ دِيَارَهُمْ عَلَى طَرَفِ جَنَاحِهِ، وَرَفَعَهَا إِلَى أَنْ سَمِعَتْ الْمَلَائِكَةَ صِيْحَ دِيكْتِهِمْ وَسَمِعَتْ كَلَامَهُ، ثُمَّ نَكَسَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَتْبَعَهُمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيْلٍ، يَعْنِي: مِنَ النَّارِ؛ عِقُوبَةً لَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ النَّكَرَاءِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ إِلَيْهَا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال تعالى في قصتهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

[الحجر: ٧٢])، لما سمعوا بالملائكة أنهم أضياف عند لوط؛ أخبرتهم امرأته.

امرأة لوط رأت ناسًا لم ترهم من بني آدم من الجمال، فدعتهم، فجاؤوا يريدون أضياف لوط، ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ [٦٨] وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمَ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ [الحجر: ٦٨-٧٠].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

ما زالوا -والعياذ بالله- سكارى بالشهوة، وعند ذلك أحل الله بهم العقوبة النكراء -والعياذ بالله-، بأن اقتلع ديارهم ونكسها عليهم، وأتبعهم حجارة من سجيل من النار، ولا تزال أثر بلدتهم موجودة في منطقة في البحر، فيها أثر الخسف، وفيها أثر الشر؛ عبرة لمن يأتي.



وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال عن عدوه إبليس إنه قال: ﴿قَالَ فِعْرَنِكَ لَأُعَوِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، والغاوي ضد الراشد، والعشق المحرّم من أعظم الغيِّ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال): ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، يوسف، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال عن عدوه إبليس إنه قال): ﴿قَالَ فِعْرَنِكَ لَأُعَوِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢، ٨٣]، فإبليس استثنى المخلصين، فليس له عليهم سلطان، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. عصمهم الله عَزَّجَلَّ وحماهم من إبليس ودعاة الضلال ؛ لأنهم أخلصوا لله عَزَّجَلَّ في دينهم وعقيدتهم، وتزّهوا عن الفواحش.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢])، قال الله لإبليس: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
 عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]. هذا استثناء منقطع،
 يعني: من اتبعه من الغاوين؛ فإنه يهلك معه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والغاوي ضد الراشد)، ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾
 [البقرة: ٢٥٦]. فالغي ضد الرشد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والعشق المحرّم من أعظم الغيِّ)، العشق المحرم من
 أعظم الغي، النظر إلى النساء نظر شهوة ونظر فتنة هذا من الغي، وهو ضد
 الرشد.



ولهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع الشعريّ غاوين، كما ساهم تعالى بذلك في قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكون عن طلب وصالٍ، أو سؤال نوال.

كما قال أبو تمام لرجل: أما تعرفني؟ فقال: ومن أعرف بك مني؟

أَنْتَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ تَسْبِرُزُ لِنَا سِ وَكِلْتَاهُمَا بِوَجْهِ مُدَالِ
لَسْتَ تَنْفُكُ طَالِبًا لِوَصَالِ مِنْ حَبِيبٍ أَوْ رَاجِيًا لِنَوَالِ
أَيُّ مَاءٍ يَبْقَى لِوَجْهِكَ هَذَا بَيْنَ ذُلِّ الْهَوَى وَذُلِّ السُّؤَالِ^(١)

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع الشعريّ غاوين، كما ساهم تعالى بذلك في قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤])، ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فالذي يميل إلى الشعراء؛ يكون فيه غيٌّ، والذي يتبع أهل العلم وأهل الخير وأهل الطاعة؛ هذا من أهل الرشد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني)، ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٣٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ ﴿: يعني الشعراء؛ ﴿في كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾ (٢٣٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

(١) الأبيات لعبد الصمد بن المعدل، انظر وفيات الأعيان (١٣/٢).

ثم استثنى من الشعراء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

منهم حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سخر شعره للدعوة إلى الله، والدفاع عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلُّ من استعمل شعره للدعوة إلى الله ونصرة الحق فهو من أهل الخير، ويكون الشعر وسيلة خير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهؤلاء لا ينفكُّون عن طلب وصالٍ، أو سؤال نوالٍ)، يعني الشعر الفاسد يقودهم إلى الشهوات.



والزنى بالفرج وإن كان أعظم من الإمام بالصغيرة، كالنظرة والقبلة واللمس، لكنَّ إصرار العاشق على محبة الفعل وتوابعه ولوازمه، وتمنيه له، وحديث نفسه به أنه لا يتركه، واشتغال قلبه بالمعشوق: قد يكون أعظم ضرراً من فعل الفاحشة مرّةً بشيء كثير، فإن الإصرار على الصغيرة قد يساوي إثمهُ إثمَ الكبيرة، أو يُربي عليها.

وأيضاً، فإن تعبد القلب للمعشوق شُرْكٌ، وفعل الفاحشة معصيةٌ، ومفسدة الشرك أعظم من مفسدة المعصية.

وأيضاً، فإنه قد يتخلص من الكبيرة بالتوبة والاستغفار، وأما العشق إذا تمكّن من القلب فإنه يعزّ عليه التخلص منه، كما قال القائل:

تَاللّهِ مَا أَسْرَتَ نَوَاحِظُكَ امْرَأً إِلَّا وَعَزَّ عَلَى الْوَرَى اسْتِنْفَاذُهُ^(١)

بل يصير تعبدًا لازماً للقلب لا ينفك عنه، ومعلوم أن هذا أعظم ضرراً وفساداً من فاحشة يرتكبها مع كراهيته لها، وقلبه غير متعبد لمن ارتكبها منه. وقد أخبر الله سبحانه أن سلطان الشيطان إنما هو: ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وأن سلطانه إنما هو على من اتبعه من الغاوين، والغيّ اتباع الهوى والشهوات، كما أن الضلال اتباع الظنون والشبهات.

وأصل الغيّ من الحبّ لغير الله، فإنه يضعف الإخلاص به، ويقوى الشرك بقوّته.

(١) الأبيات لظافر الحداد، انظر وفيات الأعيان (٢/ ٥٤١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بل يصير تعبدًا لازمًا للقلب لا ينفك عنه، ومعلوم أن هذا أعظم ضررًا وفسادًا من فاحشة يرتكبها مع كراهيته لها، وقلبه غير متعبد لمن ارتكبها منه)، وهذا مما يحث المؤمن على أن لا يغمس في هذه القنوات الهابطة، وما يعرض فيها من النساء وما يعرض فيها من الفتن والشور؛ فإنها توصل إلى الفساد؛ فيبتعد المسلم عنها ويبعد أهل بيته وذريته منها ويخلي بيته منها.



فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تَوَلَّى الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله، ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد.

ولهذا ترى كثيراً منهم عبداً لذلك المعشوق، مُتَمِّمًا فيه، يصرخُ في حضوره ومغيبه: أنه عبده، فهو أعظم ذكراً له من ربه، وحُبّه في قلبه أعظم من حبّ الله فيه، وكفى به شاهداً بذلك على نفسه فالإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا ترى كثيراً منهم عبداً لذلك المعشوق، مُتَمِّمًا فيه، يصرخُ في حضوره ومغيبه: أنه عبده، فهو أعظم ذكراً له من ربه)، هذا - والله - يحذر من القنوات الهابطة، وما يُعرض فيها من الشرور والمناظر القبيحة من النساء والمردان وغير ذلك؛ لأنهم - أهل الشر - يحرصون على أن يُظهروا هذه القنوات بالمصائد التي يصطادون بها المغفلين من الناس الذين ينظرون إليها أول شيء من باب التسلي، ثم يعجبون بها، ثم تستولي على قلوبهم! فعلى المسلم أن يتعد عن هذه الأمور.

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]: يعضوا من

أبصارهم عن النساء، وعن المظاهر التي تجر إلى الشر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكفى به شاهداً بذلك على نفسه فالإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره)، الإنسان على نفسه بصيرة: يعني آيةً تبين ما عنده من المغيبيات في صدره.

فلو خَيْرَ بين رِضَاهُ ورضا الله لاختار رضا معشوقه على رضا رَبِّه،
ولقاء معشوقه أَحَبَّ إليه من لقاء رَبِّه، وتمنَّيه لقربه أعظم من تمنَّيه لقرب
رَبِّه، وهَرَبُهُ من سَخَطِهِ عليه أشدَّ من هربه من سَخَطِ رَبِّه عليه، يُسَخِطُ رَبَّهُ
بمرضاة معشوقه، ويُقدِّم مصالح معشوقه وحوائجَهُ على طاعةِ رَبِّه.

فإن فَضَلَ من وقته فضلةً وكان عنده قليل من الإيمان، صرف تلك
الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمانَ حوائج معشوقه ومصالحه صرفَ
زمانه كله فيها، وأهمل أمر الله تعالى.

يَجُودُ لمعشوقه بكلِّ نفيسة ونفيس، ويجعل لربِّه من ماله إن جعل له
كلَّ رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لُبُّه وقلبه، وهمُّه ووقته، وخالصُ ماله، وربِّه
على الفضلة، قد اتخذهُ وراءه ظهرِيًّا، وصار لذكره نَسِيًّا، إن قام في خدمته في
الصلاة، فلسانه يُناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجههُ بَدَنه إلى القبلة ووجههُ
قلبه إلى المعشوق.

ينقُرُ خدمة رَبِّه حتى كأنه واقفٌ في الصلاة على الجمر، من ثقلها عليه
وتكلفه لفعالها، فإن جاءت خِدْمَةُ المعشوق أقبل عليها بقلبه وبَدَنه فَرِحًا بها،
ناصرًا له فيها، خفيفة على قلبه، لا يَسْتثقلها ولا يَسْتَطيلها.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (يَجُودُ لمعشوقه بكلِّ نفيسة ونفيس، ويجعل لربِّه من ماله
إن جعل له كلَّ رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لُبُّه وقلبه، وهمُّه ووقته، وخالصُ

ماله)، الفتنة اليوم عظيمة جداً بواسطة وسائل الإعلام الهابطة، كان في الأول لا يتأثر بها إلا مَنْ يحضرها ويذهب إليها.

أما الآن فهي تأتي، تأتي هذه المشاهد الفاسدة والفاتنة إلى الناس في بيوتهم، وهم على فُرْشهم، إذا فتحوا هذه الإذاعات أو هذه المحطات.

وهذا من عظيم الفتنة، فعلى المسلم أن يحصن نفسه وبيته، ومن تحت يده من هذا الغزو الذي يقتحم البيوت، لا يمنع منه جدار، ولا يمنع منه أي شيء! يقتحم البيوت، يأتي مع الجو -والعياذ بالله-، فيدخل البيوت التي تستقبله إلا من عصم الله جَلَّوَعًا وطَهَّرَ بيته من هذه القنوات الهابطة.

فالفتنة اليوم أعظم مما سبق؛ ففيما سبق لا يتأثم بهذه إلا الذي يذهب إليها، لكن هي الآن تذهب إليكم، تدخل عليكم في بيوتكم إلا من رحم الله وحصن بيته، وأولاده، ومن تحت يده من هذه القنوات الهابطة الشريرة التي هي بأيدي أعدائكم من شياطين الإنس والجن؛ يسلطونها عليكم وعلى أولادكم وعلى بلادكم، ولا يمنع منها جدار، ولا يمنع منها أي مانع إلا من وفقه الله فأبعدها عن بيته.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إن قام في خدمته في الصلاة، فلسانه يُناجيه، وقلبه يناجي معشوقه)، انظر المفتون إن قام إلى الصلاة؛ لسانه يناجي ربه ويقرأ القرآن، وقلبه يناجي معشوقه، غير لسانه الذي يتحرك!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ينقر خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر، من ثقلها عليه)، يعني في الصلاة ينقرها نقرًا؛ ليذهب إلى مهماته القبيحة، ينقرها

نقراً ولا يطمئن فيها، ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً؛ من أجل أن يتخلص من الصلاة ويذهب لمجالسه ومفاته.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ينقرُ خدمة رَبِّه حتى كأنه واقفٌ في الصلاة على الجمر، من ثقلها عليه وتكلفه لفعالها)، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾: أي الصلاة، ﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

الذي ليس عنده خشوع في الصلاة كأنه محبوس على الجمر، يريد أن يتخلص منها، أما الخاشع فهو يطمئن فيها ويتلذذ فيها ويستريح فيها.

ولهذا يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»^(١)، أرحنا بالصلاة، يرتاح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٢)؛ ليرتاح فيها مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يناجيه ويكلمه ويدعوه، فهو يرتاح في الصلاة، ولم يقل: أرحنا منها، بل قال: «أَرِحْنَا بِهَا».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن جاءت خِدْمَةُ المعشوق أقبل عليها بقلبه وبِدَنه فَرِحًا بها، ناصحًا له فيها، خفيفة على قلبه، لا يَسْتَثْقِلُهَا ولا يَسْتَطِيلُهَا)، وهذا موجود في هذه القنوات التي تغزو بلاد المسلمين، كل ما ذكره ابن القيم موجود فيها الآن.

في الأول كانت لا تضر إلا من يذهب لها، الآن هي تأتي وتدخل على الناس في بيوتهم من شدة الفتنة -والعياذ بالله- إلا من رحم الله، وأبعدها عن بيته.

(١) تقدم تحريجه (ص ٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا، يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ.

وَعَشَقْتَهُمْ يَجْمَعُ الْمَحْرَمَاتِ الْأَرْبَعِ: مِنَ الْفَوَاحِشِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالْإِثْمِ وَالْبَغْيِ بغيرِ الْحَقِّ، وَالشَّرْكَ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَالْقَوْلَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الشَّرْكَ، فَكُلُّ مُشْرِكٍ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ. فَكَثِيرًا مَا يَوْجَدُ فِي هَذَا الْعَشْقِ مِنَ الشَّرْكَ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ، مِنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَغَايِرًا عَلَى الْمَعْشُوقِ، وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ لِيَصْرِفَهَا فِي رِضَا الْمَعْشُوقِ، وَمِنِ الْفَاحِشَةِ وَالْكَذْبِ وَالظُّلْمِ، مَا لَا خِفَاءَ بِهِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ خُلُوقِ الْقَلْبِ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالتَّشْرِيكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَمِنْ مَحَبَّةٍ مَا يَحِبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَيَقُومُ ذَلِكَ بِالْقَلْبِ، وَيَعْمَلُ بِمَوْجِبِهِ بِالْجَوَارِحِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ اتِّبَاعِ الْهَوَى.

وَفِي الْأَثَرِ: «مَا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ»^(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عَمْرٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِثْرَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجناتية: ٢٣].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا رَيْبَ أَنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا، يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)، لِأَنَّهُمْ يَحِبُّونَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ كَمَا يَحِبُّونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا شَرْكٌ فِي الْمَحَبَّةِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ (٦/١١٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والذين آمنوا أشد حبا لله)؛ لأنهم يحبون الله محبة خالصة، وهؤلاء يحبون الله محبة مشتركة، محبة شركية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وفي الأثر: «مَا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ»)، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالذي يتبع هواه في معصية الله وفيما حرم الله اتخذ إلهه هواه؛ يطيعه ويتبعه ويمثل ما يأمره به، هذا اتخذ إلهه هواه؛ ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣])، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ يعني: غير الله؟ لا يهديه إلا الله، الهداية بيد الله، هو الذي يهدي سبحانه.



وإذا تأملت حال عُشاق الصُّور المتيمين فيها وجدت هذه الآية مُنطبقةً عليهم، مخبرةً عن حالهم.

قال بعض العلماء: ليس شيءٌ من المحبوبات يستوعبُ محبته القلب إلا محبة الله أو محبة بشرٍ مثلك، أما محبةُ الله فهي التي خُلق لها العبادُ، وبها غايةُ سعادتهم، وكاملُ نعيمهم، وأما البشر المماثل من ذكر أو أنثى فإن فيه من المشاكلة والمناسبة بين العاشق وبينه، ما ليس مثله بينه وبين جنسٍ آخر من المخلوقات. ولهذا لا يُعرف في محبة شيء من المحبوبات المخالفة للمحبِّ في الجنس ما يزيل العقل، ويُفسد الإدراك، ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، وإنما يُعرفُ ذلك في محبته لجنسه، فتستوعبُ قلبه، وتسلبُ لُبَّهُ، وتُصيرُهُ لمعشوقه سامعًا مطيعًا، كما قال:

إِنَّ هَوَاكَ الَّذِي بِقَلْبِي صَيْرَنِي سَامِعًا مُطِيعًا^(١)

ويقوى هذا السمع والطاعة عند كثير من العُشاق، حتى يبذل نفسه، ويُسلمها للتلف في طاعة معشوقه، كما يبذل المجاهد نفسه لربه، حتى يُقتل في سبيله، وإذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: «شَارِبُ الْخَمْرِ - أَوْ قَالَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ - كَعَابِدٍ وَتَنٍ»^(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا تأملت حال عُشاق الصُّور المتيمين فيها وجدت هذه الآية مُنطبقةً عليهم، مخبرةً عن حالهم)، ليس قصده بالصورِ الصوَرِ

(١) أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٣٩٩)، وابن الجوزي في المدهش (٣٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٦٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

التي تعرفونها على الورق، لا، الصور: الأجسام، أجسام النساء والمردان
ومناظرهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال في الحديث الذي رواه
أحمد وغيره: «شَارِبُ الخَمْرِ - أو قال: مُدْمِنُ الخَمْرِ - كَعَابِدِ وَثْنٍ»، مدمن
الخمير الذي يداوم على شرب الخمر كعابد الوثن، يعني يتعلق بالخمر ويحبها،
مثلما يجب عابد الوثن وَثْنُهُ.



ومرّ علي بن طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] (١)؟

فما الظنُّ بالعاشق المتيمم الفاني في معشوقه!؟

ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب، وهي الأصنام التي تُعبدُ من دون الله، فقال: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومرّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢])، يعني: شبهها بالتماثيل؛ لأنهم منهمكون فيها، ومستغرقون فيها؛ فهي مثل التماثيل التي أنكرها إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على قومه، هي تماثيل معنويّة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب، وهي الأصنام التي تُعبدُ من دون الله)، الخمر معروفة، المسكر من أي مادة كان فهو خمر، وما خامر العقل يعني غطاه، سُمِّي الخمر لذلك؛ لأنه يخامر العقل ويغطيه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٧)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٧٧)، والبيهقي في الكبرى (٣٥٨/١٠).

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الميسر: هو المغالبات التي يؤخذ عليها مال.
 وَالْأَنْصَابُ}: الأصنام. ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
 الشَّيْطَانِ ﴾: رجس، والرجس هو النجس. ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩٠)
 إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ
 عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].



ومعلومٌ أنَّ شاربَ الخمر لا يدوم سكرُه بها، بل لا بدَّ أن يُفِيقَ، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سُكره.

وأما سكرة العِشْقِ فَقَلَّ أن يستفيق صاحبها، إلا إذا جاءت الرُّسل تطلبه للقدوم على الله تعالى.

ولهذا استمرت سَكْرَةُ اللوطية حتى فَجَّأهم عذابُ الله وعقوبته وهُم في سكرتهم يَعْمَهُونَ، فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق؟

كما أنشد محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب «اعتلال القلوب»، قال:
أنشدني الصيدلاني:

قَالَتْ: جُنِنْتُ عَلَى رَأْسِي فَقُلْتُ لَهَا العِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
العِشْقُ لَيْسَ يُفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ^(١)

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما سكرة العِشْقِ فَقَلَّ أن يستفيق صاحبها، إلا إذا جاءت الرُّسل تطلبه للقدوم على الله تعالى)، يعني: رسل الموت، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ملك الموت ومعه ملائكة هو رئيسهم، فيأتون إلى المحتضر ويقبضون رُوحه من جسده، يدخلون فيه ويحضرون الروح، ثم إذا جمعوها أخذها عزرائيل ملك الموت منهم.

(١) انظر اعتلال القلوب (٢/٣٧٧) للخرائطي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا استمرت سَكْرَةُ اللوطية حتى فَجَأَهُم عذابُ الله وعقوبته وهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)، مع أن نبي الله لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْذَرُهُمْ ويزجرهم عن اللواط وعن إتيان الرجال، لكن لم يستطيعوا أن يتخلصوا من هذه الفاحشة، داوموا عليها، ولم يطيعوا نبي الله حتى خسف الله بهم الأرض -والعياذ بالله-، وأتبعهم الحجارة من سجيل.

بل إنهم لما جاءت الملائكة إلى لوط بأمر الله لإهلاكهم، وكانت الملائكة في أجمل الصور؛ فجاءوا يطلبون الوقوع في الفاحشة بهم، يريدون أن يلوطوا بالملائكة! أعوذ بالله من الفتنة، ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]. أسر بهم آخر الليل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق؟)، ولذلك لما جاؤوا يريدون الوقوع في الملائكة يظنون أنهم بشر، لطمهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بطرف جناحه حتى خطف أبصارهم، فصاروا كلهم عُمِيًّا لا يبصرون، -والعياذ بالله-.



فصاحبه أحقُّ بأن يُشَبَّهَ بعباد الوثن، والعاكِف على التماثيل، فإن عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يُشبهه عكوف عابد الصنم على صنمه.

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر، ويصدِّهم بذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، فالعداوة والبغضاء والصدِّ الذي يُوقعه بالعشق أعظم بكثير.

وجميع المعاصي يجتمعُ فيها هذان الوصفان، وهما العداوة والبغضاء، والصدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فإن التَّحَابَّ والتألَّفَ إنما هو بالإيمان والعمل الصالح.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: يُلقِي بينهم المحبة، فيُحِبُّ بعضهم بعضاً، فيتراحمون، ويتعاطفون، بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس: «يُحِبُّهُمْ، وَيُحِبُّهُمْ إِلَى عِبَادِهِ»^(١).

قال هَرَمِ بن حَيَّان: «مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ»^(٢).

وأهل المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوعٌ مودَّةٍ وتحابٍّ، فإنها تنقلبُ عداوةً وبغضاً، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣٧/٧)، وابن أبي الدنيا في الأولياء والأولياء لابن أبي الدنيا (ص ١٩).

(٢) انظر تفسير الطبري (٦٤٣/١٥).

وأما في الآخرة ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

[الزخرف: ٦٧].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال هَرَم بن حَيَّان: مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا أَقْبَلَ اللهُ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ)، فَإِنَّ اللهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ أَمَرَ جَبْرِيْلَ أَنْ يَنَادِيَ: «إِنَّ اللهُ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ»^(١)؛ يُحِبُّهُ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ يَنْزِلُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ فَيَحِبُّهُ الْمُؤْمِنُونَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما في الآخرة ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧])، الْأَخِلَاءُ الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ وَعَلَى مَا حَرَّمَ اللهُ؛ تَنْقَلِبُ مَحَبَّتُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَدَاوَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِي اللهِ فَتَبْقَى مَحَبَّتُهُمْ وَمَوَدَّتُهُمْ بَيْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].



وقال إمام الحنفاء لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَلْوِينٍ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. فالمعاصي كلها توجب ذلك، وتصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة.

وذكر ذلك في الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات: تنبيه على ما في غيرهما من ذلك، مما حرّم قبلهما، وهو أشدّ تحريمًا منهما، فإن ما يوقعه قتل النفوس، وسرقة الأموال، وارتكاب الفواحش من ذلك، وما يصدّ به عن ذكر الله وعن الصلاة، أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهدٌ بذلك.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال إمام الحنفاء لقومه)، إمام الحنفاء من هو؟ هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال إمام الحنفاء لقومه): ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَلْوِينٍ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، هذه المحبة الكفرية تنقلب إلى عداوة يوم القيامة.



وكم وقع وهو واقع بين الناس بسبب عشق الصور: من العداوة
والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلابها عداوةً.

وأما صدُّه عن ذكر الله، فقلبُ العاشق ليس فيه موضعٌ لغير معشوقه.

كما قيل:

مَا فِي النُّفُودِ لِغَيْرِ حُبِّكَ مَوْضِعٌ كَلَّا وَلَا أَحَدٌ سِوَاكَ يَحِلُّهُ

وأما صدُّه عن الصلاة، فهو إن لم يصدَّ عن صورتها وأعمالها الظاهرة فإنه
يصدُّ عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما صدُّه عن الصلاة، فهو إن لم يصدَّ عن صورتها
وأعمالها الظاهرة فإنه يصدُّ عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة)، تصبح الصلاة
صورةً فقط، لا رُوح فيها ولا خشوع ولا تلذُّذ.

هو يصلي لكنه لا يجد لها راحة، بل يتخلص منها وينقرها نقرًا؛ لأنه
لا يجد فيها لذة مثلما يجدها أهلُ الإيَّان.



فصل

ومما يبيّن أن هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى، سواءً كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثر منها في المخلصين، ويوجد فيهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومما يبيّن أن هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى، سواءً كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثر منها في المخلصين، ويوجد فيهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين)، التعلق بالنساء وغيرهن مما يُنظر إليه نظر شهوة أكثر ما يكون هذا في المشركين الذين أشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم لا يغيضون أبصارهم.

خلاف أهل الإخلاص والإيمان فإنهم يغيضون أبصارهم؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ»، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وتصيب صاحبها، فهذا السهم إنما يصيب صاحبه، فإذا غض المسلم بصره سلّم من هذا السهم، وإذا أرسله فإنه يرجع إليه بالافتتان بالمنظور إليه؛ ولذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى

(١) تقدم تحريجه (٣/٥٦٢).

لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ ﴿٣١﴾

[النور: ٣٠، ٣١].

لم يقل: يغمضون أبصارهم، لا، ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾؛ ﴿مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾: يعني النظر الذي لا يحتاجه الإنسان فإنه يَغْضُضُهُ، وأما ما يحتاج النظر إليه فلا بأس بذلك.



قال تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبَنَا قُلْ إِنَّا لَأَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٧، ٢٨].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾). قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَادَمَ: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿٢٨﴾﴾: يعني من الجنة.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]: نهاهما عن شجرة واحدة من أشجار الجنة.

ثم جاء إبليس وزين لهما هذه الشجرة، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجْرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٠﴾﴾ وَقَاسَمَهُمَا ﴿١٠﴾ حلف لهما. ﴿إِنِّي لَكُمْ لَعْنٌ لِنِ التَّصْحِيحِ ﴿١١﴾﴾ فَدَلَّتُهُمَا بِغُرُورٍ ﴿١١﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٣]. والعياذ بالله.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

فجاء إبليس وقال لآدم وزوجه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١١٠﴾﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿١١٠﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١]. وكانت عورتها مستورة.

فلما أكلَا من الشجرة: ﴿فَدَتَّ لُهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [طه: ١٢١]: ظهرت سوآتهما، وحصلت الفتنة، كل هذا بسبب الشيطان، وبسبب ارتكاب ما نهى الله عنه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْنَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾)، لما أكلَا من الشجرة: ﴿فَدَتَّ لُهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [طه: ١٢١]: يعني احتاجا إلى قضاء الحاجة، ﴿فَدَتَّ لُهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾: يعني: عورتها، بسبب الشيطان.

الشيطان يحرص كل الحرص على تعري بني آدم، ولا يزال على هذا، اليوم - كما تعلمون - الشيطان ماذا يعمل مع النساء ومع المفتونين في إطلاق النظر إلى ما حرم الله، وإلى المناظر السيئة، والنساء تلبس اللباس الفاتن كاسيات عاريات، كل هذا بسبب الشيطان الذي حذرنا الله منه.

فعلى المسلمين أن يتنبهوا لذلك، لا سيما أن الوقت الآن فتنة - كما تعلمون - حفلات ومشاهد مخزية، ولو لم تحصل بالفعل؛ تحصل بنقل الشاشات وأدوات النقل تنقلها في صور فاتنة تدخل على الناس في بيوتهم. فالفتنة شديدة بهذه المشاهد الحسية والمنقولة، فعلى المسلمين أن يحدروا منها، ويمنعوا دخولها في بيوتهم؛ فإنها فتنة وشر، وتهدم الأخلاق، تجر إلى الشر وإلى مخالطة الأشرار.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، الشيطان وذريته من الجن يروننا ونحن لا نراهم. ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ يعني: ذريته وجنده. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾: فالشياطين يتسلطون على من عصي

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأُطْلِقُ بَصْرَهُ، وَذَهَبَ إِلَى الْحَفَلَاتِ الْمَاجِنَةِ، وَصَارَتْ الْحَفَلَاتُ الْمَاجِنَةُ تَأْتِي إِلَى النَّاسِ فِي بِيوتِهِمُ الْآنَ، لَكِنِ الْمُسْلِمُ يَمْنَعُهَا لَا يَسْمَحُ بِأَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ، وَإِلَّا إِذَا دَخَلَتْ بِالنَّقْلِ أَفْسَدَتْ مَنْ فِي الْبَيْتِ، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْذَرُوا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَهَذِهِ الْفِتَنِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَمَا الْمُؤْمِنُونَ فَالشَّيْطَانُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَفِظَهُمْ؛ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فَعِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلِصُونَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ وَحَمَاهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَإِلَى تَتَبُعِ الْمَنَاطِرِ السَّيِّئَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ، وَتَزْدَادُ فِيهِمُ الْفِتْنَةُ وَتَتَوَقَّدُ؛ لِأَنَّ الْوَضْعَ مُسْتَمِرًّا فِي هَذَا كَمَا تَعْلَمُونَ.

فَالْمُسْلِمُ يَغْضُ بَصْرَهُ، وَيَتَعَدَّ عَنْ مَوَاطِنِهَا: الْحَفَلَاتِ وَالْمَشَاهِدِ الْمَاجِنَةِ الَّتِي تُنْقَلُ بِوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، يَتَعَدَّ عَنْهَا وَيُبْعَدُ عَنْهَا أَهْلُ بَيْتِهِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: هَذِهِ مَصِيبَةُ: التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، يَقُولُونَ: هَذِهِ حَضَارَةٌ، وَهَؤُلَاءِ الْمُتَشَدِّدُونَ يَرِيدُونَ أَنْ يُضَيِّقُوا عَلَيْكُمْ، هَذَا شُغْلُ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ؛ فَهُوَ أَمْرٌ سَائِغٌ!

يَقُولُونَ هَكَذَا، يَسْمُونَ الْعُلَمَاءَ مُتَشَدِّدِينَ؛ تَقْلِيلًا مِنْ شَأْنِهِمْ! فَالْفِتْنَةُ شَدِيدَةٌ، وَلَكِنْ يَعْتَصِمُ الْمُسْلِمُ بِرَبِّهِ، وَيَتَعَدَّ عَنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ، وَيُبْعَدُ عَنْهَا أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَوْلَادِهِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آِبَاءَنَا﴾،
 تقليد، هذا التقليد الأعمى. ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وهذه أشد؛ ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا
 بِهَا﴾: كذبوا على الله جَلَّ وَعَلَا، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا أَنْ اللهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ؛
 ﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ اللهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
 الله لا يأمر بالفحشاء، أين النص الذي أمر الله فيه بهذا الشيء؟ أين هذا النص
 من الكتاب والسنة؟ ليس هناك إلا الكذب، ليس هناك نصٌّ في أن الله أمر
 بتتبع هذه الأشياء والذهاب إليها ونقلها للبيوت، الله نهى عن ذلك.



وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فأخبر سبحانه وتعالى أنه جعل الشياطين أولياء للذين
لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿ أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ
عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالى في الشيطان: ﴿ إِنَّمَا
سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣])، فالقول على الله بغير علم فوق الشرك،
فأشد من الشرك: القول على الله بغير علم، أن يقال: إن الله أباح هذا أو
حرَّم هذا بدون دليل، هذا أشد من الشرك، هذا كذب على الله سبحانه وتعالى،
والكذب على الله هو أشد الكذب؛ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾
[الأنعام: ٢١]؛ ليس هناك أظلم منه أحد، وهنا جعله فوق الشرك؛ ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].
فلا يجوز للمسلم أن يقول: إن الله أحلَّ كذا أو حرَّم كذا بدون دليل من
الكتاب والسنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأخبر سبحانه وتعالى أنه جعل الشياطين أولياء للذين
لا يؤمنون)، إنما سلطهم على الذين لا يؤمنون، أما المؤمنون فإن الله عصمهم
منهم؛ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠])، هذا العجيب: أنهم يتخذون الشياطين أولياء من دون الله عَزَّجَلَّ؛ يستبدلون ولاية الله جَلَّ وَعَلَا بولاية الشياطين! فَمَنْ خرج عن ولاية الله وقع في ولاية الشياطين، هذا شيء واضح.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠])، ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: يعني يحبونه ويحبون جنوده من شياطين الإنس والجن، الواجب أن يبغضوا أشد البغض.



وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يُغوي عباده أجمعين، واستثنى أهل الإخلاص منهم.

وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم إذا فعلوا فاحشةً احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يُغوي عباده أجمعين)، ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ ﴾ [ص: ٨٢]: أقسم بعزة الله؛ ﴿ قَالَ فِعْرَنُكَ لِأَعْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]: هؤلاء لا يستطيع أن يغويهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يُغوي عباده أجمعين، واستثنى أهل الإخلاص منهم)، الشيطان يؤمن بالله؛ ولذلك أقسم بعزة الله، فهو يؤمن بالله، يؤمن بتوحيد الربوبية، أن الله ربه.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر: ٣٩]: فعل الشرر ونسبه إلى الله، وهو الذي فعل هذا الشر! وهذا من الاحتجاج بالقدر على المعاصي وعلى الشرور، يقولون: الله أمرنا بها! الله لا يأمر بهذا أمر تشرع، وإنما يأمر به أمر تكوين قضاءً وقدرًا؛ عقوبة لمن حاد عن أمر الله سبحانه؛ يسلط الله عليه شياطين الإنس والجن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم إذا فعلوا فاحشةً احتجُّوا بتقليد أسلافهم)، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]: هذه واحدة، والثانية: قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل)، زعموا أن الله أمرهم بها! وهذا كذبٌ على الله، الله جَلَّ وَعَلَا لا يأمر بالفحشاء.



قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ: وفي هذا الوصف نصيبٌ كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة: من الصوفية، والعباد، والأمرء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامّة، وغيرهم، يستحلُّون من الفواحش ما حرَّمه الله ورسوله، ظانِّين أن الله أباحه، أو تقليدًا لأسلافهم.

وأصله العشق الذي يُبغضه الله، فكثيرٌ منهم يجعله دينًا، ويرى أنه يتقَرَّب به إلى الله، إما لزعمه أنه يُزَكِّي النفس ويهدِّبها، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدميٍّ، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومُشاهدُهُ، ويسميها مظاهر الجمال الأحديّ، وإما لاعتقاده حُلُولَ الربِّ فيها أو اتحاده بها.

ولهذا تجد بين نُسَّاك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقًا وتآلفًا على اتخاذ أُنْدَادٍ من دون الله، يحبُّونهم كحبِّ الله، إما تَدَيُّنًا، وإما شهوةً، وإما جمعًا بين الأمرين، ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطانيّ، الذي يبيِّح الحب المشترك، فيُهيِّج من كل قلب ما فيه من الحب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ)، شيخنا: يعني شيخ الإسلام ابن تيميَّة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (يستحلُّون من الفواحش ما حرَّمه الله ورسوله، ظانِّين أن الله أباحه، أو تقليدًا لأسلافهم)، إما أنهم يكذبون على الله أنه أباحه، أو

يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فجمعوا بين الكذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتقليد الأولين في الفساد وفي الشرور!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأصله العشق الذي يُبغضه الله، فكثيرٌ منهم يجعله ديناً، ويرى أنه يَتَقَرَّبُ به إلى الله)، غلاة الصوفية - ليس كل الصوفية -، يقولون: هذا طاعة لله عَزَّوَجَلَّ! ينظرون في وجوه المردان ويقولون: نحن نتفكر في خلق الله، والله أمرنا بالتفكر في مخلوقاته، فنحن نتفكر في خلق الله! نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهدته، ويسميتها مظاهر الجمال الأحدي، وإما لاعتقاده حُلُولَ الربِّ فيها أو اتحاده بها)، هؤلاء الحلولية الذين يقولون: أن الله حالٌّ في المخلوقات؛ لذا فهي جميلة! تعالى الله عما يقولون، وهذا أعظم الكفر - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا يتألفون ويجتمعون على السماع الشيطاني)، السماع يعني: الغناء، يجمعون على سماع الغناء والغزل وذكر هذه الأمور.



وسبب ذلك: خلُوُّ القلب مما خُلِقَ له من عبادة الله تعالى، التي تجمع محبته، وتعظيمه، والخضوع، والذلُّ له، والوقوف مع أمره ونهيه ومحابه ومساخطه.

فإذا كان في القلب وجد حلاوة الإيمان ودُّوق طعمه، فأغناه ذلك عن حبة الأنداد وتألهها، وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذة إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فِطْرَةِ الله التي فطر عليها عباده.

قال تعالى: ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، أي: نفس خلق الله لا تبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشَّقِّ والقطع، ولا تبديل لنفس هذا الخلق.

ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، وَيُنَصْرَانِهِ، وَيَمَجْسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»^(١). فالقلوب مفطورة على محبة إلهها وفاطرها وتألهه، فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فِطْرُ الناس بعث الله الرسل بصلاحها، وردّها إلى حالتها التي خُلقت عليها، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمرّ على تغيير الفطرة وفسادها.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فِطْرَةِ الله التي فطر عليها عباده)، ولهذا يقول شاعرهم:

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهُوَى فَصَادَفَ قَلْبًا حَآلِيًّا فَتَمَكَّنَا^(١)

إن خلا القلب من ذكر الله وطاعة الله تمكن منه الشيطان والعياذ بالله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠])، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾: يعني نيتك وقصدك. ﴿لِلدِّينِ﴾: دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿حَنِيفًا﴾: الحنيف هو المُقْبَلُ على الله جَلَّ وَعَلَا، المُعْرَضُ عَمَّا سِوَاهُ، هذا هو الحنيف.

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: فهذا الدين يوافق الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فهو دين الفطرة.

لكن الفطرة تُعَيَّرُ أحياناً، تغير بالتربية السيئة، بالأفكار الخبيثة؛ فتفسد الفطرة، أما لو أن الفطرة حميت وسلمت لدلت على الله جَلَّ وَعَلَا، وسلم صاحبها من الضلال، لكن الفطرة يؤثر عليها الأشرار، وتُعَيَّرُ الفطرة بالتربية السيئة، وبالعواديات القبيحة.

(١) ذكره الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (٢/ ٥٥) منسوباً لابن الطثرية. ويُنسب البيت أيضاً لمجنون ليلي قيس بن الملوح، يُنظر: ديوانه (ص ٢١٩).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا نَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠])، ﴿ لَا نَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾: فلا أحد يقدر على خلقِ فِطْرَةٍ منكسةً أبداً، الله يخلق الفطرة مستقيمةً إلى أن تُغَيَّرَ مِنْ قِبَلِ الأَشْرَارِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ لَا نَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، أي: نفسُ خلقِ الله لا تبديل له)، لكن المخلوق يُغَيَّرُ، أما الفطرة وخلق الله جَلَّوَعَلَا فلا يَغَيَّرُ أبداً. قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشَّقِّ والقطع، ولا تبديل لنفس هذا الخلق، ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه)، لا تغير لخلق الله، إنما التغيير يكون في المخلوق لا في الخلق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْثُودٍ يُؤْتَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، وَيُنَصْرَانِهِ، وَيُمَجَّسَانِهِ»)، فأبواه يُفْسِدَانِ فِطْرَتَهُ؛ إما باليهودية، وإما بالنصرانية، وإما بالمجوسية. ولم يقل: أو يسلمانه؛ لأنه في الأصل مسلم على الفطرة، لكن والداه غيَّرا هذه الفطرة بالتربية السيئة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ)، البهيمة أول ما تُنْتَجُ كاملة الخلقة في آذانها، وفي قرونها، وفي أعينها، لكن الإنسان يجني عليها؛ يقطع الأذن، ويكسر القرن، ويفقأ العين... الإنسان يجني عليها بذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: («هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا»)، تَجْدَعُونَهَا: يعني تقطعون العضو أو تفقؤون العين، فأصابتكم أنتم هي التي تُغَيِّرُ هذا الخلق المتكامل.

القتال شرع من أجل هذا، ليس من أجل سفك الدماء فقط، إنما شرع من أجل المحافظة على الفطرة السليمة وعلى الدين الصحيح، فهو لسعادة البشر، القتال لسعادة البشر، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال سبحانه: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾)، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾: يعني لا توجد، ﴿لَا تَكُونَ﴾: يعني لا توجد فتنة بصرف الناس عن دينهم وعن فطرتهم؛ فهذه هي الحكمة من الجهاد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩])، لا يكون الدين مقسمًا بين الله وبين خلقه من شرك المشركين الذين يشركون مع الله، هم يعبدون الله، لكنهم يشركون معه غيره.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال سبحانه: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩])، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾: يعني لا توجد، وهذا يسمونه كان التامة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله لله فكلٌّ منهما يناقض الآخر)، لا تجتمع الفتنة مع كون الدين لله، الفتنة تفسد الدين.



وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله: من أعظم الفتن. ومنه فتنة أصحاب العجل، كما قال تعالى لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله: من أعظم الفتن)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، دلَّ على أنهم يحبون الله، لكن أحبوا معه غيره، فأشركوا في المحبة؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ المؤمنون يحبونه محبة خالصة، والمشركون يحبونه محبة مشتركة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن فتنة أصحاب العجل، كما قال تعالى لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥])، السامري هذا رجل خبيث من بني إسرائيل في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لموعده الله له لتلقي ألواح التوراة؛ لأن التوراة أُعطيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مكتوبة كتبها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في الألواح؛ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فالله كتب التوراة بيده سبحانه في الألواح -ألواح التوراة- وأعطاهها لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه وقد استخلف عليهم أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجدهم قد عبدوا العجل، فما هو العجل؟

أخذ السامري الذهب الذي مع بني إسرائيل، مع نسائهم جئن به من حفل فيه ذهب وفيه زينة، فأخذ السامريُّ هذا الذهب فصاغه على صورة عجل، وهو مجوّف يدخله الهواء من جانب، ويخرج من الجانب الآخر؛ فيصير له صوت، ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ [طه:٨٨]: يعني مثل خوار الثور، وهو هواء يدخل فيه.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [طه:٨٨]: يعني مثل خوار الثور، وهو بسبب الهواء الذي يدخل فيه ويخرج.

﴿لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَسَيِّءٌ﴾ [طه:٨٨]: نسي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذهب يبحث عن إلهه، وهو موجود عندنا يعني هذا العجل، تعالى الله عن ذلك.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: هذا العجل لا يخاطبونه ولا يرد عليهم، هل هذا يصلح إلهًا؟

﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: ألا يعتبرون.

هذا العجل صورة ليس شيئًا، لا يرد عليهم إذا خاطبوه. ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]، وأيضًا هو لا يسمع ولا يبصر، كيف يكون إلهًا وهو لا يسمع ولا يبصر؟! فهذه فتنة والعياذ بالله، فُتِنُوا بِهَا.

لما رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجد القوم هكذا؛ ألقى الألواح من الغضب، تكسر بعضها، ألقى الألواح من الغضب لله عَزَّجَلَّ فتكسر بعضها، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه من الغضب.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِرَأْسِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ١٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْعَرِي ١٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿ [طه: ٩٤-٩٦].

الرسول هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء على فرس، فأخذ من أثر الفرس في التراب ووضعها في هذه الصورة التي صورها من الذهب، فصارت هذه الصورة لها صوت خوار مثل خوار الثور، فافتتنوا به، والعياذ بالله، هذا أصل العجل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].



وكذلك فتنه العشق من أعظم الفتن، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا نَفْتِيَّ ۗ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩]، نزلت في الجد بن قيس، لما غزا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبُوكَ قال له: «هل لك يا جدُّ في جِلاَدِ بني الأصفر، تتخذ منهم السَّراري والوُصفَاء؟»، فقال جدُّ: أَتَدْنٰ لِي فِي الْقَعُودِ عنك، فقد عرف قومي أَنِي مُعْرَمٌ بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أَلَا أَصْبِرَ عَنْهُنَّ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

قال ابن زيد: يريد: لا تفتني بصباحة وجوههن.

قال أبو العالية: لا تُعَرِّضْنِي لِلْفِتْنَةِ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ ﴾ [التوبة: ٤٩].

قال قتادة: ما سقط فيه من الفتنه بتخلفه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

والرغبة بنفسه عنه أعظم^(٣).

فالفتنة التي فرَّ منها بزعمه هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذي لم يفتن صاحبه، بل خلس من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان:

فمن الأول: قوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَفَنَّكَ فُنُونًا ﴾ [طه: ٤٠].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

[الأَنْفَالُ: ٣٩]، وقوله: ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٠٩/٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أورده الواحدي في التفسير البسيط (٤٧٩/١٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢١٣/٥) من طريق ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم... فذكره في سبب نزول الآية.

ويُطلق على ما يتناول الأمرين، كقوله تعالى: ﴿الْمَ ۙ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۗ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومنه قول موسى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: امتحانك وابتلاؤك، أُضِلَّ بها من وقع فيها، وهدِيَ من نجا منها.

وتُطلق الفتنة على أعمّ من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. قال مقاتل: أي: بلاء وشغل عن الآخرة.

قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى.
وقال الرَّجَّاجُ: أَعْلَمَهُمُ اللهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ مِمَّا يُفْتَنُونَ بِهِ.
وهذا عامٌّ في جميع الأولاد؛ فإنَّ الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عصمه الله تعالى. ويشهد لهذا ما رُوي أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين، وعليهما قميصان أحمران يَغُثْران، فنزل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهما، فأخذهما فوضعهما في حِجْرِهِ عَلَى الْمَنْبَرِ، وقال: «صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»، رَأَيْتُ هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ فَلَمْ أَصْبِرْ عَنْهُمَا» (١).

وقال ابن مسعود: لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:

(١) أخرجه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي (١٤١٣)، وابن ماجه (٣٦٠٠) من حديث بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، فَأَيُّكُمْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وهذا عامٌّ في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض: فامتحن الرُّسُلَ بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق، والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم.

وامتحن المرسل إليهم بالرُّسُل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم؟ أم يكفرون بهم، ويردّون عليهم، ويقاتلونهم؟ وامتحن العلماء بالجهال، يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم، ونصحهم، وإرشادهم، ولو ازم ذلك. وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك. وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء. وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء. والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة. وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به. وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به. وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال.

والمؤمنين بالكفار، والكفار بالمؤمنين. وامتحن الأمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم. ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل فتنّة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم

(١) أخرجه الطبري (١١/١١٥، ١٢٦)، وابن أبي حاتم (٥/١٦٨٥)، والطبراني في الكبير (١٨٩/٩).

بصدق الرُّسُل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] هؤلاء، وقالوا النوح: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإذا رأى الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسولِ حَمِيٍّ وَأَنْفَ أَنْ يُسَلَّمَ فِيكونَ مثله، وقال: أُسَلِّمُ فَأُكونُ أَنَا وهذا الوضيعُ على حدِّ سِوَاءِ!

قال الزَّجَّاجُ^(١): كان الرجلُ الشريفُ رَبِّها أراد الإسلامَ، فيمتنع منه لثلاثا يُقال: أُسَلِّمُ قبله مَنْ هُوَ دونه، فيقيمُ على كفره، لثلاثا يكون للمسلم السابقةُ عليه في الفضل.

وَمِنْ كَونِ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضِهِمْ فَتَنَةٌ أَنِ الْفَقِيرَ يَقُولُ: لِمَ لَمْ أَكُنْ مِثْلَ الْغَنِيِّ؟ وَيَقُولُ الضَّعِيفُ: هَلَّا كُنْتُ مِثْلَ الْقَوِيِّ؟ وَيَقُولُ الْمَبْتَلَى: هَلَّا كُنْتُ مِثْلَ الْمَعْفَى؟ وَقَالَ الْكُفَّارُ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. قال مُقاتِلُ^(٢): نزلت في افتتانِ المشركينَ بفقرائِ المهاجرين نحو بلالٍ، وَخَبَّابٍ، وَصُهَيْبٍ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَمَّارٍ؛ كان كُفَّارِ قَرِيشٍ يَقُولونَ: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً من موالينا وأرادلنا!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَفْغَرُ لَنَا وَأَرْحَمَنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ ١٠٩ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَازُونَ﴾ ١١٠

(١) انظر معاني القرآن (٤/٦٢).

(٢) انظر تفسير مقاتل (١/٥٦٢).

[المؤمنون: ١٠٩-١١١]. فأخبر سبحانه أنه جزأهم على صبرهم، كما قال تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال الزَّجَّاج: أي: أتصبرون على البلاء؟ فقد عرفتم ما وجد الصابرون^(١).

قلت: قرَنَ الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]. فليس لمن قد فُتِنَ بفتنةٍ دواءً مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة مُمَحَّصَةً له، ومُخَلَّصَةً من الذنوب، كما يُخَلَّص الكيرُ حَبَّتِ الذهب والفضة.

فالفتنةُ كيرُ القلوب، ومَحْكُ الإيِّمان، وبها يَتَبَيَّنُ الصادق من الكاذب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [المنكوت: ٣]. فالفتنةُ قَسَمَتِ الناسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومنافقٍ، وطيبٍ وخبيثٍ، فمن صبر عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبره من فتنةٍ أعظم منها، ومن لم يَصْبِرْ عليها وقع في فتنةٍ أشدَّ منها.

فالفتنة لا بدَّ منها في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ (١٣) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]، فالنار فتنةٌ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى فِتْنَةِ الدُّنْيَا، قال تعالى في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]. قال قتادة: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ

(١) انظر معاني القرآن (٤/٦٣).

الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرةٌ والنار تأكل الشجر؟
فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات: ٦٤]،
فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي: عُذِيَتْ بالنار^(١).

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرةُ الزقوم نبتاً من النار، ومن جَوْهَرٍ لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلاها وأنكالها، وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما نعلم لم تَبَقَّ على النار، وإنما دلَّنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماءُ مُتَّفَقَةٌ للدلالة، والمعاني مختلفةٌ، وما في الجنة من ثمرها وفُرُشها وشجرها وجميع آلائها على مثل ذلك^(٢).

والمقصود أن هذه الشجرة فتنةٌ لهم في الدنيا بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخباره سبحانه بأن عدَّة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر كان فتنةً للكفار، حيث قال. عدو الله أبو جهل^(٣) عليه لعنة الله: أَيَحْوُفُكُمْ مُحَمَّدٌ بِتِسْعَةِ عَشَرَ، وَأَنْتُمْ الدُّهْمُ؟ أفيعجز كل مئةٍ منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأشدِّين^(٤) لعنه الله: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة.

فكان ذكرُ هذا العدد فتنةً لهم في الدنيا، وفتنةً لهم يوم القيامة.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٩/٥٥٢).

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن (٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٢٣/٤٣٦) بنحوه.

(٤) أورده ابن أبي حاتم في التفسير (١٠/٣٣٨٤) عن السُّدِّي... فذكره.

والكافر مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا؛ كما قال الحنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿[المتحنة: ٤، ٥].

وقال أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

الشرح

قوله رَحْمَةً اللَّهِ: (والكافر مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به)، الكافر مفتون بالمؤمن يعني ممتحن بالمؤمن، والمؤمن ممتحن بالكافر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]. فالله يبتي بعض العباد ببعض ليظهر الصابر من غيره.

قوله رَحْمَةً اللَّهِ: (كما قال الحنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿[المتحنة: ٤، ٥]، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي لا تفتنا بهم؛ لأنهم يؤذون المؤمنين، فطلبوا من الله أن يكف أذى الكفار عنهم.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]: يعني

هل تصبرون على ذلك؟ تتمسكون بدينكم وإيمانكم أو لا تصبرون؟

تظهر الحكمة في ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥)

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿[يونس: ٨٥، ٨٦]. كما في سورة يونس وسورة الحشر كذلك.

قال مجاهد^(١): المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا.

وقال الزجاج^(٢): معناه: لا تُظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حقٍّ، فيفتنوا بذلك.

وقال الفراء^(٣): لا تُظهر علينا الكفار، فيروا أنهم على حقٍّ وأنا على باطل.

وقال مقاتل^(٤): لا تُقترِّ علينا الرزق وتبسطة عليهم، فيكون ذلك فتنةً لهم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال مجاهد: المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا)، هذا تفسير الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ [يونس: ٨٥، ٨٦]،

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال مجاهد المعنى: لا تعذبنا بأيديهم)، لا تسلطهم علينا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا بعذابٍ من عندك، فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق

ما أصابهم هذا)، ولا تنزل علينا عذاب من عندك، فيقول الكافرون: لو كان هؤلاء على حق؛ لما نزل عليهم العذاب.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٥٣/١٢) بنحوه.

(٢) انظر معاني القرآن (١٥٧/٥).

(٣) انظر معاني القرآن (١٥٠/٣) للفراء.

(٤) انظر تفسير مقاتل (٣٠١/٤).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال الزَّجَاج: معناه: لا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا، فَيُظْنُوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، فَيُفْتِنُوا بِذَلِكَ)، لا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا: يعني لا تُنصِرْهُمْ عَلَيْنَا، فَيُظْنُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَا عَلَى بَاطِلٍ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال الفراء: لا تُظْهِرْ عَلَيْنَا الْكُفَّارَ، فَيَرَوْا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنَا عَلَى بَاطِلٍ)، الأقوال كلها متقاربة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال مقاتل: لا تُقْتَرِ عَلَيْنَا الرِّزْقَ وَتَبْسِطْ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ)، والآية شاملة لكل هذه المعاني، لا تبسط الأرزاق على الكفار وتقترها علينا، فيظنون أنهم على حق وأنا على باطل، مع أن الله جَلَّ وَعَلَا قد يزوي الدنيا عن عبده المؤمن؛ لثلاث يفتن بها، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق، ومع هذا كان يربط على بطنه الحجر من الجوع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلاً من الفريقين بالفريق الآخر.
 فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا﴾)، ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]: فتن الله الكفار بالمؤمنين؛ ليقول الكفار: ﴿أَهْتُولَاءِ﴾: يعني المؤمنين، ﴿مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا﴾.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فالله جَلَّ وَعَلَا يعلم من هو المؤهل لفضله وإحسانه، ومن ليس كذلك، لا يخفى عليه شيء، ومع هذا ييسط الدنيا على الكفار ويزويها عن المؤمنين؛ لأن الكفار يستدرجون بالنعمة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. استدراج هذا.

يقول بعض الجهال من المسلمين: لماذا الكفار عندهم ثروات وعندهم زهرة دنيا، ونحن في صحارى وقفار؟

الله حكيم عليم سبحانه وتعالى، هؤلاء يستدرجون، أما أنتم فلاجل أن لا تشغلوا بالدنيا عن الآخرة، وليخف حسابكم يوم القيامة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣])، أليس الله بأعلم بالشاكرين من عباده وهم المؤمنون؟ فالله ممن عليهم؛ لأنهم يشكرون النعمة، وأما الكفار فإنهم يَبْطُرُونَ النعمة، ويحسدون فضل الله عليهم.

فالمؤمن إذا أُعْطِيَ شَكَرَ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).



(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم، فكلُّ من النوعين فتنَةٌ للآخر.

فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شرّ منها، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح، وإلا فبسييل مَنْ هلك.

ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ»^(١) أو كما قال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم، فكلُّ من النوعين فتنَةٌ للآخر)، الصور صور النساء، فتنهم فتنة شهوة، فتن الكفار بصور النساء، وفتن -أيضاً- ضعاف الإيمان من المسلمين بصور النساء فصاروا يتابعون النساء وينظرون إليهن في مجالسهن وفي تجمعاتهن.

وهذا فيه التحذير اليوم من النظر في المشاهد الفاتنة بالجوالوات والتلفزيون، وصور النساء وصور الفتنة تعرض في وسائل الإعلام، وفي الجوالوات، تعرض على الناس وهي ليست تأتي من قريب، بل تأتي من بعيد، من أقصى الدنيا، الذي يشاهدها يشاهد أشياء كثيرة من أقصى الدنيا وأدناها،

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فعلی المسلم أن یغض بصره عن هذه المشاهد وهذه المعروضات؛ لأنها تزرع الفتنة فی قلبه؛ ولهذا قال جلَّ وعَلَا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ یَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَیَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا یَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَیَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا یُبْدِينَ زینَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا یُضْرِبْنَ بِخُفْرِهِنَّ عَلَى جُوبِهِنَّ وَلَا یُبْدِينَ زینَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. إلى آخر الآیة.

أوصی الرجال والنساء بغض البصر، ولم یقل غطوا أعینکم، بل قال: ﴿یَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، و«مِنْ» للتبعیض، فیغض البصر عما حرم الله، وینظر بالبصر فیما فیه له فائدة ومنفعة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجمیلة)، وهذا توفر الآن فی وسائل الإعلام التي تنشر المشاهد الفاتنة والتجمعات الكریمة، تأتي من بعيد وتدخل فی البيوت إلا من رحم الله عَزَّجَلَّ. قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أصابته تلك الفتنة سقط فیما هو شرٌّ منها)، إذا تساهل الإنسان فی إطلاق بصره على الفتن والمناظر الفاتنة؛ فإنه تُسلط علیه هذه الفتنة وتأتيه من هنا وهناك، تتزاید فی حقه إلى أن یسقط -والعیاذ بالله- فی الفتنة، ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح، وإلا فیسبیل مَنْ هلك)، إن كان قد انتبه المؤمن من هذه الفتنة؛ لئلا تجره إلى ما هو أشد منها، وغض بصره؛ نجا.

أما إذا متّع بصره بهذه المناظر الفاتنة، فإنه لا يخرج من فتنة إلا إلى فتنة أشدّ منها، والله يبتيلى عباده، هذه بلوى، ابتلاء وامتحان.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولكن هذا ابتلاء وامتحان للعباد، فعلى المسلم أن يغض بصره إلا فيما له فيه فائدة، وليس فيه مضرة من المناظر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضْرُّ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الرَّجَالِ» أو كما قال)، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضْرُّ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الرَّجَالِ»؛ فهن أشد فتنة.

وكانت فتنة بني إسرائيل في النساء؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ فِتْنَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١).

فعلى النساء التستر والاحتشام، والابتعاد عن الاختلاط، وعن ما فيه شر وفتنة، وعليهن غض البصر عما يعرض في الشاشات وفي وسائل الإعلام لا ينظرن في ذلك؛ لأن هذا يجر إلى شر، وهم لهم مقصد في ذلك، يثونه ليصطادوا من يقدرون عليه من المسلمين، والحمد لله، الإنسان في عافية ما دام يبعد نفسه عن هذه الأمور.



فالعبدُ في هذه الدار مفتونٌ بشهواته، ونفسه الأُمارة، وشيطانه المُغوي المزيّن، وقُرْنائه، وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه.

ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، ودَوَقُ حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالعبدُ في هذه الدار مفتونٌ بشهواته، ونفسه الأُمارة، وشيطانه المُغوي المزيّن، وقُرْنائه)، يجتمع عليه هذه الأمور، يجتمع عليه نفسه الأُمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]. فالنفس تطلب منه أن يدخل في هذه الأمور، هذه النفس الأُمارة بالسوء.

الثانية: النفس اللوامة، وهي التي تقع في هذه الأمور ثم تلوم نفسها وتتوب إلى الله.

والثالثة: النفس المطمئنة، وهي التي لا تلتفت إلى هذه الأمور وتبتعد عنها. وهذه هي النفس التي يناديها الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ الْوَفَاةِ وَعِنْدَ الْبَعْثِ، فيقول: ﴿يَأْتِيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۗ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: أي: ارجعي إلى صاحبك الذي خرجت منه بالموت.

﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۗ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۗ ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. هذه النفس المطمئنة.

فانفوس ثلاثة: أمارة بالسوء - أي: ساقطة في السوء -، ونفس كَوَامَة، ونفس مطمئنة، فينظر المسلم من أيِّ النفوس نفسُه: هل هي من النفس المطمئنة؟ فيحمد الله على ذلك، هل هي من النفس الأمارة بالسوء؟ فعليه التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالعبدُ في هذه الدار مفتونٌ بشهوته، ونفسه الأمارَة، وشيطانه المغوي المرين)، ثلاثة أمور: النفس الأمارَة التي بداخله. والثاني: الشيطان المغوي الذي يغويه.

والثالث: جلساء السوء وقرناء السوء، كل هذه الأمور خطر على الإنسان، وعليه أن يتقيها، ويتعدَّ عنها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقرناؤه)، قرناء السوء، يقولون: الصاحب صاحب، صاحب يعني يسحب صاحبه إلى ما يريد، فعليه أن يقارن أهل الخير، ويتعد عن قرناء السوء؛ لئلا يسحبوه إلى الشر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، ودَوَقُ حلاوة العاجل)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ»^(١).

والسهام هو الذي يُرمى به، فأنت إذا نظرت إلى الفتن؛ فإن هذا السهم ينطلق إلى قلبك فيصيبك.

فعلى المسلم الابتعاد عن هذه المناظر السيئة، وما أكثرها اليوم! وكان في الأول لا يقع فيها إلا من يذهب إليها، الآن صارت تأتي إلينا، تدخل

علينا في بيوتنا؛ فالفتنة شديدة الآن، فعلى المسلم أن يبعد نفسه وأولاده وأهل بيته، يبعدهم عن هذه الأمور وهذه المعروضات وهذه القنوات الهابطة وهذه الدعايات المضلة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين)، إذا صادف هذا ضعف إيمان وضعف يقين فإنه يسقط في الفتنة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا)، كل هذه أسباب للفتنة، فمن تغلب عليها نجا، ومن استسلم لها هلك.

فالأمر عظيم وخطير، المسلم معرض للفتن ومعرض للشرور، وأهل الشر يتفننون في عرض الشر على الناس رجالاً ونساءً، فالفتنة اليوم شديدة جداً أشد مما كان في الزمان الماضي.



وكون العِوضِ مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي منها خلق،
وفيها نشأ، فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه
الإيمان به:

فَوَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ يُسْعِدُ عَبْدَهُ	بِتَوْفِيقِهِ وَاللَّهُ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ
لَمَا ثَبَتَ الْإِيمَانُ يَوْمًا بِقَلْبِهِ	عَلَى هَذِهِ الْعَلَاتِ وَالْأَمْرِ أَعْظَمُ
وَلَا طَاوَعَتْهُ النَّفْسُ فِي تَرْكِ شَهْوَةٍ	مَخَافَةَ نَارٍ جَمْرُهَا يَنْصَرِّمُ
وَلَا خَافَ يَوْمًا مِنْ مَقَامِ إِلَهِهِ	عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْقِسْطِ إِذْ لَيْسَ يَظْلِمُ

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكون العِوضِ مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي
منها خلق، وفيها نشأ، فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب
طلب منه الإيمان به)، وهذا من الابتلاء والامتحان أنه موعود يوم القيامة
بالجنة وبالفوز، وتعرض عليه الفتن في الدنيا، وربما أنه يستعجل ولا يصبر
إلى الآخرة فيقع في الفتنة.

المسلم يربط نفسه، ويبعد أهله، وأهل بيته، وأولاده عن هذه الفتن التي
صارت تغزو بيوت المسلمين في قعر بيوتهم، إلا من رحم الله، إلا من أغلق
هذه الوسائل وأبعدها عن بيته فإن الله يعينه على ذلك ولا يدري عنها.

فتنة تستعر، لكن بعض المسلمين ينجيه الله منها ولا يدري عنها، أما
بعض المسلمين أو كثير من المسلمين فإنهم يتابعونها ويفتنون بها حتى يقعوا
فيها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب
 طُلب منه الإيمان به)، فالذي يغض بصره في هذه الدنيا، ويحفظ فرجه فإن
 الله جَلَّ وَعَلَا في القيامة يعطيه أجرًا عظيمًا، وفي الجنة: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ
 سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].



(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فصل

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات.
وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحدهما:

فتنة الشبهات: من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن
بذلك فساد القصد، وحصول الهوى، فهناك الفتنة العظمى، والمصيبة
الكبرى.

فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع
ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى
فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة
الشهوات)، فتنة الشبهات، وفتنة شهوات، وفتنة الشبهات أعظم من فتنة
الشهوات.

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ﴾: يعني نصيبكم
من الدنيا.

﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضُّمٌ﴾: هذه
فتنة الشبهات، ﴿وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ ﴾: يعني نصيبهم من الدنيا، هذه فتنة الشهوات.
 ﴿ وَخُضِّمُوا كَالَّذِي خَاصُوا ﴾: هذه فتنة الشبهات، وهي أشد - والعياذ بالله -.

فإذا أردت أن تعرف هذا راجع كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم» للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣])، ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾: والأنفس الشريرة تهوى الباطل، تدفع صاحبها إلى الباطل وإلى الفتنة حتى يقع فيها.
 فالمسلم يستعيد بالله من شر نفسه، «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» هذا أشد شيء، «وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا».

هذا في خطبة الحاجة الواردة عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ»^(١).



(١) أخرجه الترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد أخبر الله سبحانه أن أتباع الهوى يُضِلُّ عن سبيل الله، فقال سبحانه: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أخبر الله سبحانه أن أتباع الهوى يُضِلُّ عن سبيل الله)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. هذا ما قاله الله لعبده ونبيه داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٦-٢٨].

لا يجعل الله ذلك أبداً، يأبى عدل الله جَلَّ وَعَلَا أن يسوي بين المفسدين في الأرض وبين أهل الإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يأبى الله وتأبى حكمته أن يجعل المتقين كالفجار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال سبحانه: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ

سَيِّلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿ [ص: ٢٦]، ﴿ خَلِيفَةً فِي
 الْأَرْضِ ﴾: يعني: تحكّم بين الناس، وخليفة يعني: خليفة لمن مضى قبله.

هذا التعيين من أين صدر لداود؟

من رب العالمين؟ ﴿ يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ [ص: ٢٦]: الله هو الذي
 عينه خليفة في الأرض.



وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدَعُوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم)، المنافقين الذين يظهرُونَ الإيمان ويبطنون الكفر، هذا -والعياذ بالله- النفاق الأكبر.

والنفاق الأصغر يظهر الخير ويبطن الشر، هذا نفاق أصغر وهو يجر إلى النفاق الأكبر؛ لأن النفاق على نوعين: نفاق أصغر، ونفاق أكبر -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم)، وفتنة أهل البدع، والبدع جمع بدعة، والبدعة: ما أحدث في الدين مما ليس منه.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدِّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدِّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(١).

البدعة شر، وهي ما أحدث في الدين مما ليس منه، الدين -ولله الحمد- كامل في القرآن والسنة فلا يحتاج إلى زيادة، ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(١) تقدم تخرجه (٢/٣٠٦).

لكن بعض الناس لا يرضيه هذا، يريد أن يحدث شيئاً من عنده، يجتهد فيه يريد الخير بزعمه، حتى لو أراد الخير هذا لا يجوز، فالخير كله فيما شرع الله ليس فيما استحسنته أنت، الخير كله في الكتاب والسنة؛ فتمسك بالكتاب والسنة، ولا تُحدث شيئاً من عندك تتقرب به إلى الله؛ فإن الله لا يقبله.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(١) أي:

مردود عليه، لا يقبل عند الله سبحانه.

الله لا يقبل إلا ما شرعه، ولا يقبل ما شرعه الناس كي يتقربوا به إلى الله، هذا يبعد عن الله، أصحاب البدع أخرجتهم بدعهم عن الإسلام -والعياذ بالله-.

فالمسلم يتمسك بالكتاب والسنة وفيهما الخير والبركة والنجاة، ولا يحدث شيء يقول: هذا أمر مستحسن وهذا أمر فيه خير، لا، ليس فيه خير، هذا فيه شر.

ولهذا جاء ثلاثة نفر إلى بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألون عن عبادة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليقتدوا به، فأخبرهم بعبادة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها يُسْرٌ وخير، لم يقنعهم ذلك، لكن قالوا: الرسول مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو بزعمهم ليس بحاجة إلى العمل؛ لأنه مغفور له.

فقال واحد منهم: أنا أصوم ولا أفطر، قال الثاني: أنا أقوم الليل ولا أنام، قال الثالث: أنا لا أتزوج النساء.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٨) (١٧١٨) واللفظ له من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فلما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فاستدعاهم، ثم قال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَنْزَوُجُ النِّسَاءِ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

هذه سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تقبل الزيادة، فهي كاملة؛ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. كاملة، أنت تظن أنها ناقصة وتأتي ببدعة، لا، الشريعة كاملة والله الحمد لا تحتاج، اليوم أنزل الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم عرفة في حجة الوداع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. هذا آخر ما نزل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الله أكمل الدين، فلا حاجة إلى البدع والمحدثات، وفيه الخير والبركة، والبدع فيها الشر والبعد عن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (على حسب مراتب بدعهم)، البدع تتفاوت؛ منها ما يقتضي الكفر، ومنها ما يقتضي الفسق، ومنها ما يقتضي المعصية، فهي تتفاوت، وسواء أحدث البدعة هو أو عمل بالبدعة التي أحدثها غيره كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا». أولاً قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا»، ثم قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(٢). فالبدعة لا يجوز إحداثها، ولا يجوز العمل بها وإن أحدثها غيره.



(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) تقدّم ترجمته (ص ١٨٥).

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد أتباع الرسول، وتحكيّمه في دقّ الدين وجلّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يُثبته الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه.

كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نُصَب الزكوات ومُسْتَحَقِّيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتلقى إلا عنه، ولا يُؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائرٌ على أقواله وأفعاله، وكلّ ما خرج عنها فهو ضلال.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيتلقى عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يُثبته الله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه)، شرع الله كامل فليس بحاجة إلى الإضافة، ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

فالذي يأتي ببدعة، ويظن أنه يتقرب بها إلى الله هذه مردودة ولا تقبل منه، والذي يريد الخير يتمسك بالكتاب والسنة وفيها الخير والبركة ورضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها)، الدين توقيفي، ليس الدين اصطلاحى كل يعمل على هواه، لا، الدين

أنزله الله كاملاً لا حاجة إلى أن تكمله أنت، أو تقول: هذا زيادة خير، ليس خيراً؛ هذا شر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما يتلقى عنه)، الدين بالتلقي عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس الدين بالإحداث والاستحسان وما أشبه ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين)، لا يجعل الرسول رسولاً في بعض الأمور، وبعض الأمور يقول: لا، هذه أنا عملها وأنا أختارها، لا يجوز هذا، لا تجعل نفسك مشرعاً مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل هو رسول في كل شيء)، هو رسول الله في كل شيء من أمور الدين والدنيا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي»^(١). هذا لمن يريد النجاة، والدين - والحمد لله - كامل لا يحتاج إلى مزيد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنه)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ... عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»^(٢). من هم الخلفاء الراشدون؟ أبو بكر وعمر وعثمان

(١) أخرجه الحاكم (١/١٧٢)، والدارقطني (٥/٤٤٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٩٥)

من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة (٤٢) من حديث

العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سنة الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هي من سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لا يُتَلَقَّى إلا عنه، ولا يُؤخذ إلا منه)، لا يؤخذ من المبتدعة وأصحاب الأهواء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالهدى كله دائرٌ على أقواله وأفعاله، وكلّ ما خرج عنها فهو ضلال)؛ «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّتِي»^(١)، أين تبحث غير الكتاب والسنة؟!



فإذا عقد قلبه على ذلك، وأعرض عمّا سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله من قاله، فهذا الذي يُنجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارةً من فهم فاسدٍ، وتارةً من نقل كاذب، وتارةً من حقٍّ فائت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارةً من غرضٍ فاسدٍ وهوىٍ مُتبع، فهي من عمى في البصيرة، وفسادٍ في الإرادة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله من قاله)، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»، «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وإن قاله من قاله.

لما كان أبو بكر وعمر ينهايان عن التمتع وهو الجمع بين العمرة والحج، كانا ينهايان عن ذلك؛ لئلا يهجر البيت، فيجعلون العمرة في غير موسم الحج، يقتصرون على الحج ويجعلون العمرة في غير موسم الحج؛ لأجل ألا يهجر البيت.

(١) تقدم تحريجه (٢/٣٠٥).

فماذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟

قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(١)؟!

أبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ليس لهما كلام مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»، وهما ليس لهما قصد إلا عمارة البيت رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لَا لِكُونِ ذَلِكَ الْقَائِلِ قَالَهُ، بَلْ لِمُوَافَقَتِهِ لِلرَّسَالَةِ، وَإِنْ خَالَفَهُ رَدَّهُ، وَلَوْ قَالَهُ مَنْ قَالَهُ، فَهَذَا الَّذِي يُنْجِيهِ)، فابن عباس ردَّ ما قاله أبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ أَصَابَهُ مِنْ فَتْنَتِهَا بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْهُ)، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(١١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^(١١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتِنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنْسِي ﴿[طه: ١٢٤-١٢٦].

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨/٥) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: تَمَّتْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتَعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرْيَةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: تَمَّتْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتَعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتُمْ سَيَهْلِكُونَ؟ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: تَمَّتْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!».

كم تراكم الآن من البدع التي لها دعاة ولها علماء؟ وهجرت سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أصحاب البدع، ذهبوا مع البدع، وتركوا سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذه الفتنة تنشأ تارةً من فهمٍ فاسدٍ، وتارةً من نقل كاذب، وتارةً من حقٍّ فائت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارةً من غرضٍ فاسد وهوىٍ مُتَّبِع، فهي من عمى في البصيرة، وفسادٍ في الإرادة)، لا خير إلا بالتمسك بالكتاب والسنة، وما عداهما فهو ضلال في ضلال، ما عدا ما جاء في الكتاب والسنة فهو ضلال وإن زعم أهله أنه خير.



فصل

وأما النوع الثاني: من الفتنة ففتنة الشهوات.

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق: هو النصيبُ المقدر.

ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما النوع الثاني: من الفتنة ففتنة الشهوات)، تقدم أن الفتنة على نوعين:

فتنة الشبهات: وهذه تكون في العقيدة، وهي أشد.

الثانية: فتنة الشهوات: وهذه تكون في الأعمال كشهوة الزنا والسرقه وسائر المعاصي، وهي محل الحديث الآن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا

بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ
 وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَاطَتْ أَعْنَاقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [التوبة: ٦٩]، أي: تمتعوا بنصيبتهم من الدنيا
 وشهواتها، هذه فتنة الشهوات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم قال: ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾)، فهذا الخوض
 بالباطل، وهو الشبهات)، هذه فتنة الشبهات، تكون في العقيدة، وهي أشد،
 والعياذ بالله.



فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح:

فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال.

فالأول: فساد من جهة الشبهات، والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه، وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعايد الجاهل؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ»^(١).

وأصل كل فتنه إنها هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل:

فالأول: أصل فتنه الشبهة، والثاني: أصل فتنه الشهوة

فتتنه الشبهات: تدفع باليقين، وفتنة الشهوات: تدفع بالصبر.

ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطةً بهذين الأمرين، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

[السجدة: ٢٤]. فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال)،

الأول: هو البدع وهذه تكون في العقيدة، والبدع: ما أحدث في الدين مما

ليس منه، هذه البدع.

(١) تقدم تحريجه (٣/٤٢).

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ» أي: احذروا مُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، وهذه هي البدع؛ «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هَوَى قد فتنه هواه)، يعني هذه فتنة الشبهات.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وصاحب دُنْيَا أَعَمَّتَهُ دُنْيَاهُ)، وهذه فتنة الشهوات.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل)، فتنة العالم الفاجر؛ لأنه يضل الناس، ويصدقونه على أنه عالم، وهو فاجر خارج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قد يكون من العلماء من هو فاجر خارج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أشد فتنة على الناس: العالم الفاجر الذي يفتح للناس أبواب الشرور ويفتيهم باستحلال المحرمات، يفتيهم بالباطل.

وما أكثرهم اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فيجب الحذر منهم من علماء الضلال، علماء الفتنة.

وفي الأثر الآخر: «احذروا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ»، هذا أشد على الناس، فالعالم الفاجر أشد على الناس.

(١) تقدم تخرجه (٢/٣٠٦).

والعابد الجاهل: هذا يعبد الله على جهل، وهو عابد ليس عنده شرك، لكن على جهل هذا يكون عنده البدع والمحدثات؛ لأنه يعبد الله على غير علم، فيستحسن البدع، وتقليد أهل الضلال.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكانوا يقولون: اخذُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ)، العابد الجاهل هو عابد، وليس عنده ضلال في عقيدته، لكنه يعبد الله بالبدع؛ لأنه ليس عنده علم.

والعبادة إذا لم تكن مبنية على الدليل من الكتاب والسنة فإنها بدعة، وكل بدعة ضلالة، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن العاصي يعلم أنه عاصٍ، فيتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أما المبتدع فيرى أنه على حق؛ فلا يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه يرى أنه على حق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع)، تقديم الرأي على الشرع، على الكتاب والسنة؛ يأخذ بالرأي ولا يأخذ بدليل الكتاب والسنة. وهذا كثير في أهل الضلال من المعتزلة ونحوهم ومن سار على نهجهم في أمور العقيدة، أنهم يبنون عقيدتهم لا على الكتاب والسنة، وإنما على علم الكلام والجدل، ولذلك ضلوا وأضلوا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ففتنة الشبهات: تُدْفَعُ باليقين)، فتنة الشبهات تدفع باليقين؛ لأن الشبهات شك، والشك يُدْفَعُ باليقين.

«دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ»^(١). «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١) من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»^(١). فهذا أمر عظيم تفتن له، واحرص عليه؛ لأنه هو سياج الدين المتين لمن عرفه، وتمسك به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفتنة الشهوات: تُدفع بالصبر)، الصبر عن الشهوات؛ لأن النفس تدفع إلى الشهوات وتريدها، لكن يصبر عنها، ويمسك نفسه عنها، هذا هو طريق النجاة من الشهوات: الصبر عنها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطةً بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤])، بهذين الأمرين: اليقين والصبر.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾: يعني عن الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]: تمسكوا بالكتاب والسنة، تركوا البدع والمحدثات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين)، هذا واضح من الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً﴾: بأي شيء؟ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: الكتاب والسنة.

﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾: لما صبروا عن الشهوات؛ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾: يدفعون الشبهات باليقين.

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فتواصوا بالحق الذي يَدْفَعُ الشبهات، وبالصبر الذي يكفّ عن الشهوات.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣])، هذه السورة المختصرة يقول الإمام الشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم^(١).

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾: أقسم بالعصر الذي هو الوقت، يدل على أن الوقت ثمين لا يفرط فيه؛ لأن الله لا يقسم إلا بشيء له شأن.

﴿وَالْعَصْرِ﴾؛ جواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾؛ كل إنسان من الملوك والعلماء والعوام والأغنياء والفقراء، كل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع.

هذه الصفات الأربع: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هذه واحدة؛ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: هذه الثانية؛ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: هذه الثالثة؛ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: هذه الرابعة، فمن تمسك بهذه الأربع نجا من الخسار.



(١) أوردته شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (٢/٢٥٩)، وابن كثير في التفسير (١/١١٢).

وجمع بينهما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص:٤٥]. فالأيدي: القُوَى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعباراتُ السلف تدور على ذلك.

قال ابن عباس^(١): أُولَى القُوَّة في طاعة الله، والمعرفة بالله.

وقال الكلبي: أُولَى القُوَّة في العبادة، والبصر فيها.

وقال مجاهد^(٢): الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق.

وقال سعيد بن جبير^(٣): الأيدي: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم.

وقد جاء في حديث مرسل: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ الْنافذَ عِنْدَ وُرُودِ الشَّبَهَاتِ، وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكاملَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ»^(٤).

فبكمال العقل والصبر تُدفعُ فتنَةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفعُ فتنَةُ الشبهة. والله المستعان.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وجمع بينهما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص:٤٥])، ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾: يعني القوة في دين الله،

- (١) أخرجه الطبري في التفسير (١١٤/٢٠).
- (٢) أخرجه الطبري في التفسير (١١٥/٢٠).
- (٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٣٢).
- (٤) أخرجه القضاعي في الشهاب (١٥٢/٢).

من الأيد: من القوة؛ ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ [البقرة: ٨٧]: يعني قويناه، ليست الأيدي التي هي الجوارح، الأيد بدون ياء.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]: هل المراد أن داود له يدان؟ كل الناس لهم يدان، وإنما المراد بالأيد: القوة في الإيمان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وجمع بينهما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥])، ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾: يعني القوة في دين الله. ﴿وَالْأَبْصَرِ﴾: يعني العلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والأبصار: البصائر في أمر الله)، وهو العلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم)، الأبصار من البصيرة، والبصيرة هي العلم، والأبصار هي العلم أيضًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يُحِبُّ البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويجب العقل الكامل عند حلول الشهوات»)، لأن العقل الكامل يمنع من الشهوات المحرمة، والبصيرة والبصر يمنع من الوقوع في الشبهات.



فصل

إذا سلم العبدُ من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظمُ غايتين مطلوبتين، بهما سعادته وفلاحه وكمالهما؛ وهما: الهدى والرحمة.

قال الله تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأٰتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فجمع له بين الرحمة والعلم.

وذلك نظيرُ قول أصحاب الكهف: ﴿ رَبَّنَا ءَاِنَا مِّنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِّنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠]، فإن الرشد: هو العلم بما ينفع والعمل به.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إذا سلم العبدُ من فتنة الشبهات والشهوات)، إذا سلم من فتنة الشبهات في العقيدة والشهوات في العمل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأٰتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فجمع له بين الرحمة والعلم)، هذا هو الخضر الذي ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلبه حتى وجده، وهو عبدُ أتاه الله علمًا لم يؤتته موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لَمَّا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إني أعلم بني إسرائيل، قال الله: هناك مَنْ هو أعلم منك، قال: من هو؟ فوصفه له، فذهب يبتغيه؛ ليستفيد منه، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ﴾ أي: خادمه؛ يُوشَعَ بن نُونٍ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ﴾ يعني: البحرين.

﴿ نَسِيًا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف: ٦٠، ٦١]: لأن معهما حوتًا في مِكْتَلٍ يحملونه ويأكلون منه، والله أعطاه علامة أنه إذا فقدَ الحوت فإنه قريب من الحِضْر.

فلما قربا من الحِضْر انسل الحوت من المِكتل ودخل في البحر، عند ذلك علموا أنهما وصلا إلى مبتغاهما، فوجدا الحِضْر عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ مَا عَلَّمْنَا ﴾ [الكهف: ٦٥])، هذا هو الحِضْر.



(١) انظر صحيح البخاري (١٢٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

والرشد والهدى إذا أُفْرِدَ كُلٌّ مِنْهَا تَضَمَّنَ الْآخَرَ، وَإِذَا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ فَالْهُدَى هُوَ الْعِلْمُ بِالْحَقِّ، وَالرُّشْدُ هُوَ الْعَمَلُ بِهِ، وَضَدُهُمَا: الْغَيِّ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى.

وقد يقابل الرشد بالضر والشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، وقال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فالرشد يقابل الغي تارةً، كما في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠])، مؤمنو الجن عند مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرست السماء بالشهب التي تحرق الشياطين؛ لئلا تستمع إلى الملائكة، وإلى الملأ الأعلى.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا﴾: يقول الجن بعضهم لبعض: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا﴾: يعني من السماء. ﴿مَقَعِدَ لِلسَّمْعِ﴾: يعني يتخطفون من الملائكة بعض الكلمات؛ ﴿مَقَعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]. ثم إنهم لما رأوا كثرة الشهب أشكل عليهم هذا، لا يدرون ما الذي يحدث؟ ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فكانت بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالرشد يقابل الغيَّ تارةً، كما في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُرُوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦])، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].
فالغي ضد الرشد.



ويقابل الضّرّ والشرّ، كما تقدم، وذلك لأن الغي سبب حصول الشرّ والضرّ، ووقوعهما بصاحبه.

فالضرّ والشرّ غاية الغي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته.

فلهذا يُقَابَلُ كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه، فيقابل الهدى بالضلال، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣].

وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدُنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وهو كثير.

ويقابل بالغضب والعذاب، كقوله: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، فيقابل الهدى بالضلال والشقاء.

وجمع سبحانه بين الهدى والفلاح، والهدى والرحمة، كما يجمع بين الضلال والشقاء، والضلال والعذاب، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، فالضلال ضد الهدى، والسُّعْرُ: العذاب، وهو ضد الرحمة.

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

والمقصود: أن من سلّم من فتنة الشبهات والشهوات فُجِّع له بين الهدى والرحمة، والفلاح والهدى.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وهو كثير)، فالهدى يقابله الضلال.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ [القمر: ٤٧])، ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: عن الحق، ﴿وَسُعْرٍ﴾: يعني النار، والعياذ بالله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤])، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾: يعني القرآن.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾: يعني في قبره، يكون في عذاب القبر.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: لا يبصر.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ

ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

لما أعرض عن دين الله وعن الوحي المنزل على رسوله؛ فإن الله جلَّ وعلا

نسيه بمعنى أنه تركه، الله لا ينسى، ولكنه يترك بعض عباده في الشقاوة.

النسيان يطلق ويراد به الترك أيضًا؛ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧]:

هذا من باب الجزاء؛ نسوا طاعة الله فنسيهم الله من رحمته يوم القيامة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا﴾)، قالوا: وقال سبحانه: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾: هي عذاب القبر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤])، أعمى

لا يبصر، فقد البصر.

قال تعالى عن أوليائه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿ هَذَا بَصِيرَتٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

الشرح

قوله رَحْمَةً اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى موعد الله له؛ ليعطيه ألواح التوراة، فالتوراة نزلت على موسى في ألواح مكتوبة؛ كتبها الله بيده في الألواح؛ ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، كتب الله التوراة في الألواح بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وواعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعطيه إياها، فذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الموعد واستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، ظهر السامري -قبحة الله- ففتن بني إسرائيل وعبدوا العجل في مغيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فلما جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ورأى الأمر غضب غضباً شديداً، وألقى الألواح من الغضب، ألواح التوراة، فتكسرت من الغضب، فلما أفاق أخذ الألواح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾﴾، في الأول ألقاها من الغضب، غضباً لله عَزَّوَجَلَّ، فلما ذهب عنه الغضب أخذ الألواح التي كتبها الله لهم في التوراة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وقال تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]، ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا﴾: يعني ما كُتِبَ فيها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَذَا﴾ يعني: القرآن

﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾: جمع بصيرة، وهي العلم؛ ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]: هذا القرآن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾﴾، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾: يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: لما قص الله قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ السورة كلها في قصة يوسف. قال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ يعني: الأنبياء، قصصهم، في سيرهم، في أعمالهم. ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يعني أصحاب العقول.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾: أحاديث الناس يدخلها الكذب والافتراء، لكن القرآن والوحي المنزل لا يدخله شيء من الكذب؛ لأنه محمي ومحروس من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يعني ما سبق من الأمور، فـ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يعني الشيء السابق، وما خلفه: يعني الشيء المستقبل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وأما الكفار فلا يتنفعون به.



وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ عامٌّ مطلق، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ خاصٌّ بأهل اليقين.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧])، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: بذكر ما جرى للأمم الكافرة من العذاب والنكال، هذه موعظة.

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾: يعني القلوب، شفاء لها من الضلال ومن الشبهات، يشفي الله القلوب بهذا القرآن وهذا الوحي المنزل، يشفي به القلوب ويطهرها من الشكوك والأوهام والأهواء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧])، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: هذا محل الشاهد: جمع بين الهدى والرحمة؛ والهدى ضد الضلال، والرحمة ضد العذاب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقوله: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ خاص بأهل اليقين)، قوله: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾: يعني المؤمنين والكفار بصائر لهم.

وأما الهداية به فإنها خاصة بالمؤمنين؛ ﴿ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.



ونظير ذلك قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

ونظيره أيضاً قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقد أخبر أنه هُدًى عامٌ لجميع المكلفين، فقال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَعَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدًى﴾ [النجم: ٢٣].

الشَّرح

قوله رَحْمَةٌ لِلَّهِ: (ونظير ذلك قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧])، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾: هذا خطاب للناس مؤمنهم وكافرهم.

قوله رَحْمَةٌ لِلَّهِ: (ونظير ذلك قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧])، خص المؤمنين بأنه يكون هدى لهم ورحمة، وأما عموم الناس فهو موعظة، تذكير.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]،) في أول سورة البقرة؛ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: يعني خاصة بالمتقين الذين عملوا به، وصدقوه.

وقال في أثناء السورة: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]: يعني جميع الناس: المؤمنين والكفار، هداية لمن يريد الهداية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]،) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]: خص من اتبع رضوان الله جَلَّ وَعَلَا بالهداية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]،) ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: يعني الطرق التي يسلم فيها من العذاب وتوصله إلى الجنة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونظيره أيضاً قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]،) لاحظ! ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: عموماً المؤمن والكافر، ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هذه خاصة بالمتقين: الهدى والموعظة بالمتقين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد أخبر أنه هُدًى عامٌ لجميع المكلفين، فقال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾)، ﴿إِنَّ هِيَ﴾:

يعني اللات والعزى ومناة، هذه الأصنام لا حقيقة لها، وإنما هي أسماء هم الذين سموها آلهة، وعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾: يعني من حُجَّة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾، ثم قال: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾: أي الكفار؛ ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾: بدل العلم؛ ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾: بدل الهداية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣]: لو أنهم أرادوا النجاة؛ فالله أنزل لهم الهدى، ولم يترك لهم حجة.

﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].



فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس.

والبصائر: جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة، أي: مُبصرة لمن يبصر.

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: مُبَيِّنَةً

مُوجِبَةً لِلتَّبْصُرِ.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنه: قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾

[الإسراء: ٥٩]، أي: مُبَيِّنَةً مُوجِبَةً لِلتَّبْصُرِ)، قوم صالح الذين هم ثمود، طلبوا

من صالح أن يأتيهم بآية؛ أن يخرج لهم من هذه الصخرة آية - ناقة-، وإذا

أخرجها يؤمنون بصالح.

أخرجها الله من الصخرة - ناقة- وجعلها تسقيهم اللبن وتشرب الماء؛

لها يوم؛ ﴿لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]؛ هي تشرب ماء

البئر وتعوضهم اللبن، وتترك لهم يوم يأخذون ماء البئر.

﴿لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) وَلَا تَسْوَاهَا بِسُوءٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]،

[١٥٦]؛ فخالفوا أمر الله، عصوا أمر ربهم وعقروا الناقة.

عقروها واحد منهم لكن لم ينكروا عليه ولم يمنعوها، فأضاف العقير إليهم

جميعاً؛ لأن المنكر إذا لم يُنكَرْ يَعْمُ الجميع^(١) - والعياذ بالله-.

(١) أخرج أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥) عَنْ أَبِي بَكْرٍ

الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ

أَنْفُسَكُمْ لَا يُضْرَكُمْ مِنْ ضَلِّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ =

عقرها رجل منهم يقال قدار بن سالف^(١)، لكنهم لم يمنعه من ذلك،
فنسب العقر ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود:٦٥]: نسب العقر إليهم جميعاً لما لم ينكروا
على هذا الرجل ولم يمنعه.



= صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ».

(١) أخرج البخاري (٤٩٤٢)، وصحيح مسلم (٢٨٥٥) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «﴿إِذْ أُنبِغَتْ أَشَقْنَهَا﴾: اُنْبِغَتْ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ».

وأخرج البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَبْقَطَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُلُّ لِلْعَرَبِ، مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ بِأَجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ مِثْلُ هَذِهِ» - وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشْرَةَ -، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ».

وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: أبصرتَه، بمعنى: رأيته، وأبصرتَه، بمعنى: أريته.

ف ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ في الآية، بمعنى: مُرِيَّةٌ، لا بمعنى: رائية، والذين ظنُّوها بمعنى: رائية غلطوا في الآية، وتحيرُوا في معناها.

فإنه يقال: بَصَّرَ به، وأبصره، فيُعَدَّى بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرتُه كذا، أي: أريته إياه، كما يقال: بَصَّرَته به، وبَصَّرَ هو به.

فهنا بَصِيرَةٌ، وتَبْصِرَةٌ، ومُبْصِرَةٌ، فالبَصِيرَةُ: المبينة التي تُبْصِرُ، والتبصِرَةُ: مصدرٌ مثلُ التذكرة، وسُمِّيَ بها ما يُوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تَبْصِرَةٌ، لكونها آلة التبصُّرِ ومُوجِبُهُ.

فالقرآن بصيرةٌ وتَبْصِرَةٌ، وهُدًى وشفاءٌ ورحمةٌ، بمعنى عام وبمعنى خاص، ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هُدًى للعالمين، وهُدًى للمتقين، وشفاءٌ للعالمين، وشفاءٌ للمؤمنين، وموعظةٌ للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، فهو في نفسه هُدًى ورحمةٌ، وشفاءٌ وموعظةٌ.

فمن اهتدى به واتَّعَظَ واشتفى كان بمنزلة مَنْ استعمل الدواء الذي يحصلُ به الشفاء، فهو دواءٌ بالفعل. وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة.

وكذلك الهدى، فالقرآن هُدًى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويُرْحَمُ وَيَتَّعِظُ المتقون الموقنون.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿فَ مَبْصِرَةٌ﴾ في الآية، بمعنى: مُرِيَّةٌ، لا بمعنى: رائية، والذين ظنوها بمعنى: رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها، ﴿مَبْصِرَةٌ﴾: يعني مبصرة للناس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالقرآن بصيرةٌ وتبصرة، وهُدَى وشفاءٌ ورحمةٌ، بمعنى عام وبمعنى خاص، ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هُدَى للعالمين، وهُدَى للمتقين)، هدى للعالمين: بمعنى أنهم لو أرادوا الهداية لوجدوها، وهدى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم انتفعوا به واهتدوا به.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وشفاءٌ للعالمين، وشفاءٌ للمؤمنين)، شفاءٌ للعالمين: لو أنهم أرادوا الشفاء به لوجدوه، وشفاءٌ للمؤمنين: لأنهم انتفعوا به واستشفوا به من مرض الشكوك والشبهات.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وموعظةٌ للعالمين، وموعظةٌ للمتقين)، موعظةٌ للعالمين: بمعنى أنه مذكر للعالمين كلهم، وموعظةٌ للمتقين؛ لأنهم انتفعوا به واتعظوا به.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواءٌ بالفعل. وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة)، يمكن أن يصير عندك في البيت عدة أدوية وكلها مفيدة، لكن لا تستعملها ويفتك بك المرض، ما الفائدة من وجودها في البيت وأنت لا تستعملها؟! كذلك القرآن، القرآن دواء وشفاء لو استعملناه واهتدينا به.

والهَدَى في الأصل: مصدرٌ هَدَى يَهْدِي هُدًى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مُهْتَدِيًا، كما في الأثر: «مَنْ أزدَادَ عِلْمًا، وَلمْ يَزِدْ هُدًى؛ لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بُعْدًا»^(١).

ولكن يسمَّى هُدًى؛ لأن مِنْ شأنه أن يهدي.

وهذا أحسنُ من قول من قال: إنه هُدًى، بمعنى هادٍ، فهو مَصْدَرٌ بمعنى الفاعل، كعدُلٍ بمعنى العادل، وزَوْرٍ بمعنى الزائر، ورجُلٍ صَوْمٌ أي: صائم!

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مُهْتَدِيًا، كما في الأثر: «مَنْ أزدَادَ عِلْمًا، وَلمْ يَزِدْ هُدًى؛ لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بُعْدًا»)، العلمُ وحده لا يكفي، لا بد من العمل به بالعلم، وإلا فكونك تعلم فتصير أعلم الناس وعلامة لا ينفعك هذا، يصير حُجَّةً عليك يوم القيامة؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولكن يسمَّى هُدًى؛ لأن مِنْ شأنه أن يهدي)، لكن كونه لم يهتد به لا ينزع الهداية من القرآن، فهو هدى، لو استعمله، كونه لم يستعمله فاللوم عليه هو، وأما القرآن فهو هدى ومفيد ومبصر.

(١) ذكره العراقي في المغني (٧٢)، وقال: أخرجه أبو منصور الدَيْلَمِيُّ في مسند الفردوس من حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القرآن - الحمد لله - كما تعلمون الآن كل بيت تقريباً به مصحف أو عدة مصاحف، هو في كل بيت، وفي كل مكان، فهذا حُجَّةٌ علينا إذا لم نعمل بالقرآن العظيم، ووضعناه فوق الرفوف، أو استعملناه فقط بالرقية والعلاج بالرقية، لكن العمل لا نعمل به! لا يفيد هذا شيئاً.



فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به، فالله الهادي، وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهاهنا ثلاثة أشياء: فاعلٌ، وقابلٌ، وآلةٌ.

فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلبُ العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزّل، والله سبحانه يهدي خلقه هدىً، كما يقال: دَلَّمْ دلالةً، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا.

والمقصود أن المحل القابل هو قلبُ العبد المتقي، المنيب إلى ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه.

فإذا هداه الله بكتابه فكأنه وصل أثرُ فعله إلى محلِّ قابل، فيتأثر به، فصار هدىً له وشفاءً ورحمةً وموعظةً، بالوجود والفعل والقبول.

وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محلٍّ غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئاً، بل ولا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد، كما قال تعالى في الآية التي نزلها: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةً اللَّهِ: (وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محلٍّ غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئاً، بل

ولا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فسادهِ، فالعبرة بالاستعمال؛ إذا لم تستعمل الشيء في محله لم تنتفع به ولو كان عندك، فالشأن في الاستعمال والبصيرة والانتفاع به. وإلا لو في بيتك مئة مصحف لا تستفيد شيئاً إلا إذا عملت بالقرآن، ولو لم يكن في بيتك مصحف؛ إذا عملت بالقرآن فكأن المصحف عندك؛ لأنك عملت به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما قال تعالى في الآية التي نزلها: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾)، هؤلاء المنافقون.

المنافقون إذا أنزلت سورة أنزلها الله على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٣٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: وهم المنافقون؛ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والعياذ بالله.

وهذا فيه دليل أن الإيمان يزيد وينقص؛ ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]. ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ أَهْتَدُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. فالإيمان يزيد بنص القرآن. وإذا كان يزيد فإنه ينقص أيضاً بدليل حديث: «مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِلِسَانِهِ، فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١). وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قد يضعف الإيمان ويكون في ميزان حبة خردل، ولكن ينفع الله به ولو كان قليلاً، إنها إذا فرغ القلب من الإيمان، ليس فيه شيء من الإيمان أبداً هذا قلب فاسد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، يعني النفاق، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: يعني نفاق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾: حيث لم يؤمنوا بهذا القرآن الذي نزل ولم يعملوا به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، ولم ينفعهم القرآن، ماتوا على الكفر والعياذ بالله.



وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلفُ الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماعُ قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما يتقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبتة، والحرص عليه، والفرح بالظفر به.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةٌ لِلَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ ﴾: هذا دليل على أن القرآن منزل من الله جَلَّ وَعَلَا ليس مخلوقاً كما تقول الجهمية.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]: وهو القرآن لا يزيد الظالمين إلا خساراً ولو كانوا يحفظونه، ولو كانوا يروونه بالقراءات العشر أو الخمس عشرة قراءة، لا ينفعهم هذا، إنما اتخذوه حرفة فقط ولم ينفعهم.

رب حامل للقرآن والقرآن يلعنه، لماذا؟ لأن القرآن فيه: لعنة الله على الكافرين وهو يكفر، لعنة الله على الظالمين؛ ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨]، وهو يظلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢])، ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾: يزيدهم خساراً؛ لأنهم وإن قرؤوه وإن حفظوه وإن تعلموه، إذا لم يعملوا به فهو خسار عليهم، وليس من يعلم كمن لا يعلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣])، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢١-٢٣].

لا ينفعهم أنهم سمعوا والقرآن، أو أنهم قرءوا القرآن، أو أنهم حضروا درس القرآن ما داموا لم يبتدوا به ولم يستفيدوا منه لا ينفعهم، وإنما يكون حجة عليهم، بلغهم القرآن، وقامت عليهم الحجة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾)، الله سبحانه يعلم ما في القلوب، ويعلم القلب الذي يصلح للهداية والقلب الذي لا يصلح لها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادّة الاهتداء، وهو إسماعُ قلوبهم وإفهامُها ما يَنفَعُها)، إسماعُ قلوبهم وليس سماع الأذان، هم يسمعون بأذانهم لكن قلوبهم لم تسمع.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإن الرجل إنما ينقادُ للحقِّ بالخير الذي فيه، والميل إليه)، فأنت -مثلاً- لو ألقيت البذور في أرض سبخة لم تنبت ولو كان فيها ماء لم تنبت.

بينما لو تلقيت البذور في أرض طيبة أنبتت؛ لأنها قابلة للإنبات، فإذا جاءها البذر والماء أنبتت ونفعت، كذلك القلوب مثل الأرض.



وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها، كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماءً، ولا تبت كلاً، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمةٌ وحياةٌ، ولكن ليس فيها قبولٌ له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: فيهم مع عدم القبول والفهم آفةٌ أخرى، وهي الكبرُ والإعراضُ وفسادُ القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به.

فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمةً، ولأولئك هدى بلا رحمة.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة)، ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ بمعنى: أننا دللناهم على الخير وبيننا لهم، لكنهم أعرضوا ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ﴾: وهو الضلال ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾.



والرحمة المقارنة للهدى في حَقِّ المؤمنين: عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبرِّ، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضلَّ عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، فهم يتقبلون في نور هُداة، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتَحَيِّرًا في الظلمات، فهم أشدَّ الناس فرحًا بما آتاهم رَبُّهم من الهدى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهم يتقبلون في نور هُداة، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتَحَيِّرًا في الظلمات، فهم أشدَّ الناس فرحًا بما آتاهم رَبُّهم من الهدى)، وأيضًا الهداية لها أسباب؛ الإنسان الذي يذهب إلى مجالس الذكر ويحضر الدروس ويحضر المحاضرات هذا فعل السبب، فالله لا يضيع عمله وتعبه، يرزقه الهداية؛ لأنه تسبَّب لها، وحضر أماكنها، وسعى إليها.

بعكس الذي لا يذهب إلى مجالس الذكر ولا يحضرها ويُعرض عنها، بينما يذهب إلى مجالس اللهو واللعب والقمار وما أشبه ذلك، ومجالس اللهو والغفلة والمحطات الماجنة كل هذه مراتعهم التي يرتعون فيها.

فالناس هم الذين يتسببون لأنفسهم بالهداية، أو يتسببون لها بالغواية، هم أنفسهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨])، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾: القرآن والإسلام، فضل الله ورحمته: القرآن والإسلام.

﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾: يجبون القرآن والإسلام ويتابعون مواقع الهداية يوفقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]: خيرٌ من الدنيا؛ لو ليس عندك لا فلس ولا ريال وأنت تتابع الخير فأنت على خير وعلى هدى.

ولو عندك ملايين وأرصدة ضخمة وأنت محروم من الهداية فما هي فائدتها؟ يكوى بها يوم القيامة، يكوى بها جنبه وظهره؛ ﴿ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨])، خيرٌ مما يجمعون من الدنيا.



وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم، والإيمان، والقرآن، واتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة. والخوف والهَمّ والغمّ والبلاء والألم والقلق: مع الضلال والحيرة.

ومثّل هذا بمسافرين، أحدهما: قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر: قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجّه؟

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلَّ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتمّ كان حظّه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبرّ والفاجر.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبرّ والفاجر)، فالرحمة على قسمين:

القسم الأول: رحمة عامّة للمؤمن والكافر.

القسم الثاني: رحمة خاصّة بالمؤمنين؛ ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٤٣]. الرحمن: رحمة عامّة بالمؤمنين والكفار وسائر الخلق، والرحيم: رحمة خاصة بالمؤمنين.

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]. قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «نِعْمَ الْعِدْلَانِ، وَنِعْمَتِ الْعِلَاوَةُ»^(١).

فبالهدى خَلَصُوا مِنَ الضَّلَالِ، وبالرحمة نَجَوْا مِنَ الشَّقَاءِ والعذابِ، وبالصلاة عليهم نَالُوا مَنْزِلَةَ الْقُرْبِ والكرامة.

والضالُّونَ حصل لهم ضِدُّ هذه الثلاثة: الضلالُ عن طريق السعادة، والوقوعُ في ضِدِّ الرحمة من الألم والعذاب، والذمُّ واللعنُ الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى، كان أكملُ المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة؛ كما قال تعالى في أصحاب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ»^(٢) رواه الترمذي. وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَعْلَمَنَا بِهِ» يعني: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة. وهكذا الرجل، كلما اتسع علمه اتسعت رحمته.

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠٨/٤)، وعلقه البخاري (٨٣/٢) بصيغة الجزم في كتاب الجنائز (باب الصبر عند الصدمة الأولى).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ =

وقد وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وَيَنْقُصُ حَظَّهَا مِنْ كِرَامَتِهِ وَثَوَابِهِ، وَيُبْعِدُهَا مِنْ قَرْبِهِ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْفَعُهَا وَيُكْرِمُهَا.



= صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «عَبْدُ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَيَبِينَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْتَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمَّنَ النَّاسَ عَلِيٌّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ، لَا تُبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةَ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ» هذا لفظ مسلم.

ولفظ البخاري: «خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَيَبِينَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجَبْنَا لِمُكَايِهِ: أَنْ يُخَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ! فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَمَّنَ النَّاسِ عَلِيٌّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يُبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدًّا إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ».

وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول، فكم من مُكرم لنفسه بزعمه وهو لها مُهين، ومُرْفَه لها وهو لها مُتعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوّه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بنخسها حظّها، وأضاع حقّها، وعطلّ مصالحها، وباع نعيمها الباقي ولذتها الدائمة الكاملة بلذّة فانية مَشُوبَة بالنغص، وإنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيفٍ زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة، فلو هُدِي ورُحِم لكان شأنه غير هذا الشأن.

ولكن الربّ تعالى أعلمُ بالمحلّ الذي يصلح للهدى والرحمة، فهو الذي يؤتيهما العبد، كما قال عن عبده الخضر: ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتيتُهُ رَحْمَةً مِن عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله: ﴿رَبَّنَا آئِنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

[الكهف: ١٠].



فصل

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد)، من صفات الله جَلَّ وَعَلَا: الرحمة، وهذا في آيات كثيرة: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، فمن صفاته: الرحمة، واسمه الرحمن. والرحمة: معناها إيصال المنافع والخيرات إلى العباد رحمةً بهم، فهناك رحمة عامة لجميع المخلوقات: المؤمنين والكفار والبهائم والعقلاء، رحمة عامة لجميع المخلوقات وهي في اسم: الرحمن.

وهناك رحمة خاصة للمؤمنين، ويتضمنها اسم: الرحيم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها)، ربما أن العبد يكره شيئاً ويكون فيه خير كثير، هذا الذي كرهه له فيه خير كثير، لكنه لا يدري.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَرْحَمُ النَّاسِ بِكَ مِنْ شَقِّ عَلَيْكَ فِي إِيْصَالِ مَصَالِحِكَ،
وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْكَ)، أَرْحَمُ النَّاسِ بِكَ مِنْ حِرْصِ عَلَى إِيْصَالِ الْمَنَافِعِ لَكَ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ عَنْكَ، هَذَا هُوَ أَرْحَمُ النَّاسِ بِكَ، خِلَافَ الْعَدُوِّ فَإِنَّهُ عَلَى الْعَكْسِ، يَجِبُ
لَكَ الضَّرْرُ وَيَكْرَهُ لَكَ الْخَيْرُ.



فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرِّهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره.

ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به، وإن ظنَّ أنه يرحمه ويُرفِّهه ويُريجه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرِّهه على التأدب بالعلم والعمل)، من رحمة الأب بولده: أن يكره ولده على التأدب، وقد يضربه على ذلك ويقسو عليه؛ لأجل أن ينقاد لما فيه نفعه؛ لأن الولد والشاب لا يدرك منافعه ولا يعلم أو يعرف ما يضره، فوالده يربيه على ما ينفعه وعلى ترك ما يضره، فالوالد هو الذي يربي ولده وهو أعلم بمصالحه.

ولذلك الأطفال الذين ينشئون بدون من يربيهم يحصل لهم من القصور ويحصل لهم من الأضرار الشيء الكثير؛ لأنهم لم يربوا على معرفة الخير ومعرفة الشر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره)، يكره الأب ولده الصغير على ما ينفعه -فمثلاً-: يوقظه لصلاة الفجر، يذهب به إلى المسجد والولد لا يدرك هذا، يريد الراحة ويريد النوم ويريد اللعب، لكن والده يقوم عليه بما ينفعه ويدفع عنه ما يضره.

قد يجب الولد الشر أو يجب الأمور التي تضره وهو لا يدري، فوالده يروضه على الخير ويروضه على ترك الشر، وهذا معنى التربية الصحيحة.

هذه أحسن من التربية البهيمية؛ أن الوالد يعطي ولده ما يشتهي وما يريد؛ وإن كان في ذلك ضرره، لا، هذه ليست تربية، هذه تربية سيئة.

التربية الحسنة: أن الوالد يربي ولده على ما ينفعه، وإن كان الولد يكره ذلك أو يشق عليه؛ لأنه يريد الانفلات وقد يكون له جلساء من أقرانه فيريد أن يجاريهم، فالوالد يأخذ بزمامه إلى ما ينفعه ويربيه على الخير ويجنبه الشر ويراقبه في تصرفاته.

ومن أهم ذلك: أن يعرف الوالد من يجالس ولده، أو ابنه من هم جلساؤه، لا يتركه يذهب إلى من شاء، بل يراقبه ويعرف جلساءه؛ حتى يوجهه التوجيه السليم.

ولكن كثير من الآباء اليوم انشغلوا بالدنيا، وبالوظائف وبالأعمال، والدوام الوظيفي وتركوا أولادهم ولا يدرون عنهم، وهذا ضياع يسألهم الله عنه يوم القيامة، يسألهم عن تضييع أولادهم؛ لأنهم رعاة يرعونهم، يراعيه ويرعاه ويتابعه، وإن كان في ذلك مشقة على الوالد، لكن العواقب وخيمة.

أما إذا ترك له الحبل على الغارب، وأعطاه ما يشتهي وملاً جيبه بالنقود وتركه فهذا فساد، وسيسأل الوالد عن ولده في تضييعه له وإهماله له، فالولد في كفالة الوالد، الوالد مسؤول عن أولاده.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ سَبْعَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا عَشْرَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥).

صار الوالد مسؤولاً عن أولاده حتى وهم في مضاجعهم، كيف ينامون؟ أين ينامون؟ يراقبهم، ليسوا أولاده فقط، بل هي مسؤولية على الوالد، مسؤولية عظيمة عليه نحو أولاده.

فالمسألة مهمة جداً، تربية الأولاد من والدهم ووالداتهم مهمة جداً، كونك أنت الذي تربيهم أحسن من أن يربيهم واحد مُرَبٍّ أو مربية، تسلمون أولادكم للمربين وللمدارس وتركونهم! لا، راقِبْهُمْ، حتى في المدارس راقِبْهُمْ، اسأل عنهم، تابِعْهُمْ، اعرف نشاطهم، واعرف توجهاتهم، تابع أولادك، لا تهملهم وتذهب لتعمل فقط، أو تذهب مع جلساتك ولا تعلم عن أولادك!

والبنات أشد من الذكور، فعلى الوالدين -وخصوصاً الأم- رعاية البناته، أين يذهبن؟ من يجالسهن؟ من يخالطهن؟ ما المدرسة التي يدرسن فيها؟ يتابعونهن، يعرفون سلوكهن، لا يسلموهن للمربية فقط، لا، أنت المسؤول عنهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويمنعه شهواته التي تعود بضرره)، الوالد يضربه، الضرب لا شك أنه مؤلم، ولكن عاقبته طيبة، «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِإِصْلَاحٍ نَسْبَعِ، وَاصْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا عَشْرًا»^(١). الله أعطاك الولاية عليهم وسيسألك يوم القيامة عن ذلك، وسيتعلق الأولاد براقب آبائهم يوم القيامة، لماذا أهملوهم وضيعوهم؟

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣٨).

المسؤولية عظيمة جدًا، فعلى الوالدين أن يتنبها لمسؤوليتهم نحو أولادهم. وهذا فيه مشقة عليهم بلا شك، ولكن العاقبة والنتيجة حميدة وطيبة خصوصًا في هذا الوقت الذي كثرت فيه الفتن وكثر فيه دعاة السوء، وكثر فيه الفساد وانتشر الفساد بوسائل سريعة ودقيقة وخفية، قد يكونون عندك في البيت على فرشهم، ولكن تصل إليهم الشرور بواسطة هذه الآلات التي بأيديهم أو عندهم، وهم على فرشهم.

ففتقد أولادك أبنائك وبناتك، ولا تقل: هم الآن عندي في بيتي، لا، هم الآن بأجسامهم لكن أين أفكارهم؟

فالمسؤولية عظيمة يا إخوان، خصوصًا في هذا الوقت الذي عجت فيه الفتن ودعاة السوء ودعاة الضلال يتخطفونهم. قد يتخطفون النساء على فرشها، قد تقوم المرأة وتخرج يجذبونها، تخرج إليها خصوصًا إذا تعلمت قيادة السيارة وسُلمت سيارة، فلا تسأل عن ضياعها، تدير سيارتها وتذهب على موعد مع فلانة أو فلان أو إعلان، مسألة خطيرة جدًا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به)، هو يظن أنه يرحمه إذا تركه وما يهوى وأعطاه هواه؛ يظن أن هذه رحمة، وهذه ليست رحمة!، هذا ضياع، الرحمة في تأديبه، في تعليمه، في ضبطه، هذه هي الرحمة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به)، متى أهمل الوالد هذه التربية لولده فسيندم عما قريب، وستكون النتائج سيئة، وسيتحسر ويتمنى موت ولده ليستريح منه ولا يُعير به، فهم مسؤولون ليسوا أولادًا فقط.

أنت لو كان عندك غنم تحفظها عن الذئب وتراقبها، تضعها بمكان مأمون، لكن الأولاد لا تهتم بهم ولا بحفظهم عن ذئاب البشر، هذا ضياع عظيم وخطر جسيم، وسينشأ جيل نتيجة هذا الإهمال جيل مضيع خصوصاً في هذا الزمان وهذا الوقت.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به)، والرحمة أنك تربيته وأنتك تحزمه ولو شق ذلك عليه؛ لأن العاقبة حميدة.

ولا تقل: هذه رحمة وهذه شفقة عليه، وأنا أرفق به، هذه ليست رحمة، هذا ضياع، الرحمة في تربيته وضبطه وإعطائه ما يحتاج إليه من النفقة ومن الكسوة، هذه الرحمة والشفقة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن ظن أنه يرحمه ويُرفِّهه ويُريجه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم)، رحمة الأم، الأم ترحم أولادها، لكن عندها جهل في تربيته، قد لا تهتم بضبطهم لا تريد أنها تضيق عليهم بزعمها، ولا تتصور العواقب الوخيمة من الإهمال ومن إعطائهم ما يريدون، لا يتصور الوالد ولا الوالدة هذا الشيء إلا بعد ما تقع، -كما يقولون- الفأس بالرأس، عند ذلك يعرف الوالد والوالدة تفريطها ولا يمكنها التدارك، فات الأوان.

ولذلك يقول الله جَلَّ وَعَلَا للولد: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. عَرَفَ الْفَائِدَةَ، ﴿أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ لأنه صغير لا يدرك ولا يعرف، لكن ربياه على الخير وعلى الانضباط، ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليطُ أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليطُ أنواع البلاء على العبد)، الله قد يسלט البلاء على العبد؛ رحمةً به لأجل أن يتربى ويتقوى ويعرف التحرز ويعرف كيف يضبط نفسه، يبتليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يكرهه وهو في النتيجة والعاقبة خير له؛ «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخُطُ»^(١).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه)، في الحديث القدسي أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ أَصَحَّحْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. إِنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بَعْلَمِي بِقُلُوبِهِمْ؛ إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٢).

الله حكيم عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يربي عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم بعد تربية الله لهم يربيهم الوالد أيضًا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢٢/٥) واللفظ له، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٨).

وقد جاء في أثر: «إِنَّ الْمُبْتَلَى إِذَا دُعِيَ لَهُ: اللَّهُمَّ ارْحَمَهُ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: كَيْفَ أَرْحَمُهُ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُهُ؟!»^(١).

وفي أثر آخر: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ حَمَاهُ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ»^(٢).

فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

كيف وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد جاء في أثر: «إِنَّ الْمُبْتَلَى إِذَا دُعِيَ لَهُ: اللَّهُمَّ ارْحَمَهُ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: كَيْفَ أَرْحَمُهُ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُهُ؟!»، يعني: ما أوقعت عليه وإن كان يكرهه فهو رحمة به.

الله حكيم عليم يبتلي بالخير والشر، والمؤمن يبتلى، هل يبتلى؛ لأن الله يبغضه؟ لا، الله يحب؛ «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»^(٣)، فهو يحب؛ لأن عاقبة الابتلاء حميدة، وأما الاستدراج عاقبته سيئة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي أثر آخر: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ حَمَاهُ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ»)، إذا صار عندك مريض تحميه من أن

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦)، والحاكم (٤/٢٣٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي.

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٤٢).

يتناول ما يضره من الأكل والشرب وإن كان هو يريد ذلك، لكن تمنعه من ذلك؛ لئلا يضره هذا الشيء، الله جَلَّ وَعَلَا أرحم بعباده قد يمنعههم وقد يصيبهم بأشياء وهي خير لهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كيف وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله)، الله جَلَّ وَعَلَا جواد ماجد، جواد: كثير الجود والعطاء والبذل، ماجد: من المجد، جَوَاد ماجد من المجد.

هناك من هو جَوَاد لكنه ليس ماجداً، وهناك من هو ماجد لكن ليس جَوَاداً، الله جمع بين أنه جواد ماجد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وجودُ جميع الخلائق في جنب جُودِهِ أَقْلٌ من ذَرَّةٍ في جبال الدنيا ورمالها)، الله يجود على جميع الخلائق، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]. تكفل الله برزق كل الدواب، كل من يدب على وجه الأرض، تكفل الله برزقه.

﴿وَكَايُنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ [العنكبوت:٦٠]، تبيت ليس عندها شيء، وإذا أصبحت طلبت الرزق فوجدته، يسر الله لها ورزقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«لَوْ أَنْكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقْنَاكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو^(١): يعني تذهب في الصباح «خِمَاصًا» يعني: جائعة، «وَتَعُودُ» في المساء «بِطَانًا» يعني: شباعاً. هي ليس عندها شيء في البيت ولا تحمل شيئاً، لكن إذا خرجت وزهبت هنا وهناك فالله يرزقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويسر لها.

(١) أخرجه أحمد (٤٣٨/١)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيح.

ولاحظ أنها تغدو وهي طير، تغدو لا تبقى في أوكارها وتقول: يأتيني الرزق وأنا في الوكر! لا، بل تذهب وتطلب الرزق، الله ألهمها ذلك، تعلم أن الرزق لا يأتي إلا بطلب؛ فهي تطلب الرزق، وهي بهائم وهي مخلوقات قد تكون مخلوقات ضعيفة جداً لا تقدر على حمل رزقها؛ كالذرة لا تقدر على حمل الحبة، من أين تأكل إذا؟ الله يرزقها سبحانه ويمدها، مثل الأرزاق للمخلوقات في الأرض كلُّ يأكل على مائدته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا لا يكلفه شيئاً؛ لأنه هو الغني سبحانه، لا يكلفه أن ينفق على هذه المخلوقات يوماً ويشبعها، لا يَغِيضُ ما عنده سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، خزائنه مملأى^(١).

فكل هذه المخلوقات تعيش على رزق الله جَلَّ وَعَلَا، وهي ليس عندها شيءٌ لكن الله يرزقها، ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].



(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ، وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةً سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ». وَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

فَمِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ: ابْتِلَاؤُهُمْ بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي رَحْمَةً وَحِمِيَّةً،
لَا حَاجَةَ مِنْهُ إِلَيْهِمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَلَا بُخْلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ بِمَا
نَهَاهُمْ عَنْهُ، فَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَمِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ: ابْتِلَاؤُهُمْ بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي
رَحْمَةً وَحِمِيَّةً)، بِالْأَوْامِرِ: اللَّهُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ، أَمَرَ
بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ -وإن كان فيها تعب وفيها مشقة-؛ لِأَنَّ عَاقِبَتَهَا حَمِيدَةٌ.

وَالْعِبَادَةُ نِعْمَةٌ أَوَّلُ مَا الْإِنْسَانُ يَمَارِسُ الْعِبَادَةَ قَدْ تَشَقَّقَ عَلَيْهِ، لَكِنْ إِذَا
دَاوَمَ عَلَيْهَا فَإِنَّهُ يَتَلَذَّذُ بِهَا وَيَرْتَاحُ بِالْعِبَادَةِ إِذَا رَوَّضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَا حَاجَةَ مِنْهُ إِلَيْهِمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)، اللَّهُ
لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى خَلْقِهِ؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦-٥٨].

فَهُوَ أَمَرَهُمْ لِمَصْلَحَتِهِمْ، أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَسْتَفِيدَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ شَيْئًا، فَهُوَ
غَنِيٌّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنْ هُمُ الْمُحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ.

فَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِهَا؛ لِأَنَّهَا مَصْلَحَتُهُمْ وَخَيْرُهُمْ، نَهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ؛
لِأَنَّهُ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُمْ تَشْتَهِيهِ لَكِنْ هُوَ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ، فَحَاهُمْ
اللَّهُ مِنْهُ.

وقد يحمي الله جَلَّ وَعَلَا أحب الناس إليه من الدنيا، يحميه منها ولا يكون معه من الدنيا إلا شيء يسير، يكون فقيراً، الله حماه من هذه الدنيا؛ رحمة به، وأعطاهم للكافر وهو يبغضه؛ لأن هذا تعذيب له في الدنيا.

فليس المنع والعطاء دليل على الرضا أو على البغض، وإنما ابتلاء وامتحان من الله وقد يكون هذا لمصلحة العباد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد)، ولهذا يقول سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. لا تزيد طاعتهم في ملكه شيئاً ولا ينتفع الله بها.

«يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَنْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً» (١).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم)، لكن لحكمته أنه يمنع عنهم بعض الأشياء، ويحميهم من بعض الأشياء مثلما يحمي المريض من بعض الأطعمة والأشربة؛ لأنها تضره وهو يشتهيها، لكن تضره.



(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيتهم، وأماتهم ليحييهم.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها)، نغص عليهم الدنيا وكدرها، الدنيا فيها منغصات، فيها كدر وهذا لمصلحتهم من أجل أن لا يطمئنوا إلى الدنيا ويركنوا إليها، ليتعلقوا بالآخرة وما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره)، قد يقول بعض الجهال أو بعض المغفلين: لماذا الكفار يظفرون بالنعمة وعندهم البيئة الطيبة وعندهم كل شيء موفر لهم، والمسلمون في حالة ضيقة؟

هذا من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله يستدرج الكفار، ويعطيهم؛ استدراجاً لهم، ويحمي المؤمنين ويمنع عنهم كثيراً مما يشتهون رحمة بهم.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾: يعني القرآن، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[القلم: ٤٤، ٤٥].

فالله يعطي الكافر ويوسع عليه، لا لمصلحة الكافر، بل لمضرته من أجل أن يتمادى في كفره.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]: يعني آيسون من رحمة الله، آيسون من العاقبة الحميدة.

فالله جَلَّوَعَلَا يستدرج الكفار ويعطيهم ويمكنهم من الصناعات ومن الأمور؛ لأجل أن يبطروا ويغترون بأنفسهم، فالعطاء والمنع لحكمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم)، العبرة بالعواقب لا بالواقع المعيش فيه، فما هي العاقبة؟ أنت تنظر إلى العاقبة، لا تنظر إلى الحاضر.



ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به، ويعاملوه بها لا تحسن معاملته به، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. قال غير واحد من السلف: مِنْ رَأْفَتِهِ بِالْعِبَادِ حَذْرُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ؛ لئَلَّا يَغْتَرُوا بِهِ^(١).

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به)،
﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠])، الله حذرهم نفسه؛ لرأفته بهم، ورحمته بهم، ليس لبغضه لهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال غير واحد من السلف: مِنْ رَأْفَتِهِ بِالْعِبَادِ حَذْرُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ؛ لئَلَّا يَغْتَرُوا بِهِ)، حذرهم نفسه: عقوبته، وبطشه، وأخذه سبحانه وتعالى.



فصل

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لها ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مراتٍ عديدةً: أن يهديننا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويُجَنِّبنا طريق المغضوب عليهم وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله، وأوجهه. وبالله التوفيق.

الشَّرح

قوله رَحْمَةً لِّلَّهِ: (فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مراتٍ عديدةً: أن يهديننا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة)، في سورة الفاتحة فرض الله علينا قراءتها في كل ركعة من الصلاة، وهي دعاء، كلها: أولها دعاء عبادة، وآخرها دعاء مسألة.

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾: هذا دعاء مسألة.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. من هم الذين أنعم الله عليهم؟ بيّنهم في الآية الأخرى: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم.

فصل

إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التمتع بالمراد المحبوب، فكل حيٍّ إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته.

فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض، وكل امتناع وكف.

ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بجنسين: بالدين الفاسد، والدنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده، ففاتهم النعيم من حيث طلبوه وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بجنسين: بالدين الفاسد، والدنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده، ففاتهم النعيم من حيث طلبوه وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه)، الله لم يكلنا إلى أفكارنا وإلى علمنا، وإنما بين لنا سبحانه ووضح لنا طريق الخير وطريق الشر.

وبين لنا من هم الذين يصلح العيش معهم ومرافقتهم، والذين لا يصلح العيش معهم ولا مرافقتهم، كل هذا في سورة الفاتحة، هذه السورة العظيمة.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها ديناً، أو لا يتخذوها ديناً. والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها ديناً حقاً، وإما أن يكون ديناً باطلاً.

فنقول: النعيم التام هو في الدين الحق علماً وعملاً، فأهلُهُ هم أصحاب النعيم الكامل، كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع.

كقوله: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كقوله: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧])، ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، سألت الله أن يهديك طريقهم وأن تكون معهم، ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

وأن يجنّبك طريق المغضوب عليهم والضالين، المغضوب عليهم: الذين يعلمون الحق ولا يعملون به.

والضالون: الذين يعملون من غير علم، ومن ذلك الصوفية وغيرهم؛ يعملون من غير علم، تركوا الكتاب والسنة وذهبوا مع المواجيد، ومع الفناء ومع اصطلاحات الصوفية، نسأل الله العافية.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣]: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾: هذا عذاب

القبر.

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]: أعمى لا يرى، لماذا؟

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴾ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ

أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه: ١٢٦، ١٢٧].



وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿فَأَمَّا يَا نِينَصَ كُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، والقرآن مملوء من هذا.

فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة، مما اتفقت عليه الرسل من أو لهم إلى آخرهم، ونصمته الكتب.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥])، في أول سورة البقرة. في أول سورة البقرة ذكر أن الناس على ثلاثة أقسام: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩]. هؤلاء هم المنافقون.

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]. هؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإيمان والإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣])، لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨])، في سورة البقرة: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]. وهدى الله: هو كتابه المنزل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤])، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾: هذا وصفهم.

﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣]، لأن وصفهم البر والعمل الصالح.

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٤]، الفُجَّار: من الفجور وهو الكفر

والمعاصي.



ولكن نذكر هاهنا نكتة نافعة: وهي: الإنسان قد يسمع ويرى ما يُصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين.

فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يُصدّق بالقرآن؛ حَمَلَ ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يُصدّق بالقرآن حَمَلَ ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط)، لاشك أن هذه الظاهرة موجودة، وهي أن الله قد يُضَيِّقُ على أهل الإيمان، ويزوي عنهم الدنيا، وقد يعطي الكفار من زهرة الدنيا ومتاعها ما يجعل ضعيف الإيمان يتحير أو يتشكك في أن الكفار صاروا أعز من المسلمين؛ لأن الله أعطاهم من زهرة الدنيا وحرّم منها المؤمنين.

ولا يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ، فَلَيْسَ عَطَاءُ الدُّنْيَا دَلِيلًا عَلَى رِضَا اللَّهِ عَنِ الْمَعْطَى، بَلْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ لِيَزِدَادَ مِنَ الْإِثْمِ.

الله حكيم عليم، فيعطي من الدنيا لأعدائه ما يغرهم فيما هم عليه ويزوي الدنيا عن أوليائه، فالله جَلَّ وَعَلَا حكيم عليم، وأيضًا هو عادل في أمره وقسمته وشرعه.

وفي الحديث: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مِمَّا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرِبَهُ مِنْ مَاءٍ»^(١). فالدنيا لا تساوي عند الله شيئًا، ولذلك يعطيها لأعدائه؛ ليستدرجهم من حيث لا يعلمون، يستدرجهم بالنعم حتى يزيد طغيانهم ويزيد إعجابهم بأنفسهم.

ويزوي الدنيا عن أحبابه؛ لأجل أن يوفر لهم الجزاء في الآخرة، ولأجل الامتحان - أيضًا - حتى يقول ضعيف الإيمان: هؤلاء الذين أعطاهم الله هم أعز على الله من هؤلاء، والله لم يعطهم إلا؛ لأنهم عزيزون عنده.

فالله جَلَّ وَعَلَا يَبَيِّنُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ، وَفِي السَّنَةِ وَفِي الْوَاقِعِ أَيْضًا، الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَكَانَ يَرْبِطُ الْحَجْرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ.

وجاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ، حَشُوهُهَا لَيْفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرْظًا مَضْبُورًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهْبَاءٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا، وَلَكَ الْآخِرَةُ؟»^(١).

فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُعْطِي الْكُفَّارَ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا؛ اسْتَدْرَجًا لَهُمْ، وَرَبِّمَا يَكُونُ لَهُمْ حَسَنَاتٍ فَيُعَجِّلُ اللَّهُ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، بَعْضُ الْكُفَّارِ لَهُمْ حَسَنَاتٍ فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، يَعَجِّلُ جَزَاءَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ جَزَاءَهُمْ لِلْآخِرَةِ.

قال تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾: يعني أشكالا منهم. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، بين الله حكمته في ذلك، والمؤمن يرضى بما أعطاه الله، وإن كان قليلا لإيمانه بأن ما عند الله خير وأبقى. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الفصص: ٦٠]. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، قد يكون خير لكنه لا يبقى، وإذا اجتمع أنه ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، فهذا هو غاية وأعلى درجات الفوز والإكرام عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قد يغتر بعض ضعاف الإيِّان أو المنافقون ويقولون: انظروا، الكفار الآن بلادهم بلاد حضارة، وبلادة زهرة، وبلاد المسلمين مقفرة! ولا ينتبه لحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن هذا لحكمة منه سبحانه، حكمة عظيمة.

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

فالمؤمن يزوي عنه الله الدنيا؛ ليدخر ثوابه في الآخرة، ولئلا تغره الدنيا لو بسطت عليه، هذه مسألة عظيمة، وينبغي أن نتفكر فيها.

فنقول: الكفار يُعجل لهم حسناتهم في هذه الدنيا أو يُستدرجون، إن لم يكن لهم حسنات، أما المؤمنون فإن الله يمنع عنهم ما أعطى الكفار رحمة بهم؛ من أجل أن تنكسر قلوبهم لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكون فيها إعجاب أو غرور بهذه الدنيا.

الدنيا هذه تسمى دار الغرور، تُغرُّ فهي دار الغُرُورِ، والشيطان هو الغُرُورُ؛ فالدنيا تغر أصحابها والمعجبين بها والمتعلقين بها.

فلا يكون عند أحد شك في حكمة الله وعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما يُجْرِيهِ في هذه الحياة أنه لحكمة عظيمة؛ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

﴿مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَا رِبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، العبرة بالذي يبقى وإن كان قليلاً، ولا يُعتبر أو يعتر بما يفنى ويزول؛ ولو كان كثيراً.



وقال: أما الدنيا فإننا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون، ويكون لهم النَّصر والظَّفَرُ، والقرآن لا يَرُدُّ بخلاف الحسِّ، ويعتمد على هذا الظن إذا أُدِيلَ عليه عدوٌّ من جنس الكفار والمنافقين أو الفجرة الظالمين. وهو عند نفسه من أهل الإيِّمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوبٌ، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوبٌ مقهورٌ، والدَّولة فيها للباطل.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوبٌ مقهورٌ، والدَّولة فيها للباطل)، هذه شبهة وكلام باطل لا حقيقة له؛ فإن ما يعيشه المسلمون من العز ورفعة النفس وقوة الإيِّمان واليقين؛ خير مما يعيشه الكفار من زهرة الدنيا مع خراب القلوب، وفسادها.

فلا مقارنة أبداً بين ما يعيشه المسلمون وما يعيشه الكفار، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فالؤمن عزيز بنفسه، عزيز بتفكيره، عزيز بنظره، والكافر مهينٌ، مخذول، ولا مساواة بين الفريقين. فالذي يعيش بالإيِّمان يكفيه إيِّمانه؛ فنفسه وقلبه في نعيم، ولو ليس عنده شيء فهو في نعيم، وقرّة عين وقناعة وثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وما حُبِسَ عنه من الدنيا خيراً له؛ لأنه لو أُعطي هذا الشيء لغره ولأنساه آخرته، فلله الحكمة في ذلك.

فالمؤمنون أعز وأكرم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأكرم في نفوسهم وفي عقيدتهم، هم في نعيم وفي سرور، ولو لم يكن معهم من الدنيا شيء كثير.

فإذا ذُكِّرَ بما وَعَدَهُ اللهُ تعالى من حُسْنِ العاقبة للمتقين والمؤمنين قال: هذا في الآخرة فقط! وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟ فإن كان ممن لا يُعَلَّلُ أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في مُلكه ما يشاء، ويحكم ما يريد: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وإن كان ممن يُعَلَّلُ الأفعال قال: فعل بهم هذا ليعرّضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا ذُكِّرَ بما وَعَدَهُ اللهُ تعالى من حُسْنِ العاقبة للمتقين والمؤمنين قال: هذا في الآخرة فقط!)، لا ليس في الآخرة فقط؛ بل في الدنيا أيضًا، فالمؤمنون يعيشون في نعيم وسرور وطمأنينة، والكفار يعيشون في قلق وفي وحشة وفي هموم وأحزان وإن كان معهم من الثروات.

العبرة بنعيم القلب وسروره، ليس بنعيم اليد، وهذا لا يحصل إلا لأهل الإيمان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: يفعل الله في مُلكه ما يشاء، ويحكم ما يريد: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣])، هناك المعتزلة والماتريديّة ومن سار على دربهم ينكرون الحكمة، يقولون: إنما يفعل الله لمشيئة لا لحكمة. وهذا كلام باطل، الله حكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الحكمة فيما يفعل وفيما يدبر، وإن خَفِيَ عَلَيْنَا، لكن نعتقد ونجزم ونؤمن أن الله لا يفعل إلا للحكمة؛ وإن نفوا هم الحكمة عن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ، فقد نفوا صفة من صفاته العظيمة.

ولكل أحدٍ مع نفسه في هذا المقام مُباحثاتٌ وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته والجهل بذلك، فالقلوب تَعْلِي بما فيها، كالقدور إذا استجمعتْ غَلِيَانًا.

فلقد بلغنا وشاهدنا من كثير من هؤلاء من التظلم للربِّ تعالى، واتهامه ما لا يصدُرُ إلا من عدوٍّ.

فكان الجَهْمُ يخرج بأصحابه، فيقفهم على الجذمي وأهل البلاء، ويقول: انظروا، أَرَحِمُ الراحمين يفعلُ مثل هذا؟ إنكارًا لرحمته، كما أنكر حكمته. فليس الله عند جهمٍ وأتباعه حَكِيمًا ولا رَحِيمًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكان الجَهْمُ يخرج بأصحابه، فيقفهم على الجذمي وأهل البلاء، ويقول: انظروا، أَرَحِمُ الراحمين يفعلُ مثل هذا؟)، على الجذمي: يعني المصابين بالجذام، وهو مرض تتساقط منه الأعضاء - والعياذ بالله -.

ويقول: انظروا، فعل الله في هؤلاء مع أنهم مؤمنون وهم أحبابه! يريد بذلك الاعتراض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويقول: انظروا، أَرَحِمُ الراحمين يفعلُ مثل هذا؟ إنكارًا لرحمته، كما أنكر حكمته)، الجهم بن صفوان إمام الجهمية، وهو أخذ التجهم عن شيخه من أهل الضلال، أخذه عن الجعد بن درهم، وأخذه الجعد عن طالوت اليهودي، هذه سلسلة روايتهم وأفكارهم؛ منحدره عن اليهود.

أما أهل الإيمان فيأخذون عقيدتهم عن كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي كثير منها وصف الله بالحكمة والعلم، وهؤلاء ينفون الحكمة عن أفعال الله، تعالى الله عن ذلك، فهذا من معرض ضلالهم، والإمام ابن القيم يقول في الجهم، يقول في النونية:

وَأَتَى عَلَى الْكُفْرِ الْفَضِيحَ فَصَاغَهُ عَجَلًا لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثَّيْرَانِ (١)

فصاغه عجلًا ليفتن أمة الثيران: شبهه بالسامري لما صنع جسم العجل الذي له خوازٌ وفتن به بني إسرائيل، الجهم بن صفوان (٢) هو على شكل هذا الكافر، وعلى دربه ومسيره.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فليس الله عند جهم وأتباعه حكيماً ولا رحيماً)، ينفون عنه الصفات، بل غلاتهم ينفون عنه الأسماء والصفات عن الله جَلَّ وَعَلَا التي أثبتها لنفسه في كتابه وسنة نبيه، والتي يدل عليها هذا الكون في إتقانه وإحسانه وانتظامه، يدل على حكمة وعلى علم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]، فالله حكيم عليم؛

وإن أنكرت الجهمية حكمة الله هذا لعمى بصائرهم.

هل هذا الكون المتناسق البديع الصنع الذي لا يختلف على طول

الأزمان عن نظامه، هل خلقه غير حكيم وغير عليم؟ تعالى الله عن ذلك.

(١) انظر نونية ابن القيم (ص: ١٥)، وتوضيح المقاصد (١/١١٩).

(٢) الجهم بن صفوان أبي محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتل سنة ١٢٨هـ، قتله سلم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦)، والفرق بين الفرق (ص: ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص: ١٠٨)، وفتح الباري (١٣/٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (٥٣٩).

وقال آخرٌ من كبار القوم: ما على الخلق أضرُّ من الخالق^(١).

وكان بعضهم يتمثل:

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُهُ لِمُحِبِّهِ فَمَاذَا تَرَاهُ فِي أَعَادِيهِ يَصْنَعُ

وأنت تشاهد كثيرًا من الناس إذا أصابه نوعٌ من البلاء يقول: تُرى ما

كان ذنبي حتى فَعَلْتَ بي هذا؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال آخرٌ من كبار القوم)، كبار القوم يعني: الجهمية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال آخرٌ من كبار القوم: ما على الخلق أضرُّ من الخالق)،

ما على الخلق أضر من الخالق، تعالی الله عما يقولون.

يفصفون أفعال الله بالضرر على الناس، ولا يصفونها بالكمال

والحكمة والعلم، يصفونها بالضرر -والعياذ بالله-؛ لعمى بصائرهم وفساد

عقيدتهم.

وقد يكونون متمكنين من الفقه وتمكنين من العلوم الأخرى ومن

اللغة، ولكن الأساس هو العقيدة، فليس عندهم عقيدة صحيحة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُهُ لِمُحِبِّهِ)، إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُهُ، أي: فعل الله،

لِمُحِبِّهِ: وهو المؤمن.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَمَاذَا تَرَاهُ فِي أَعَادِيهِ يَصْنَعُ)، فَمَاذَا تَرَاهُ، أي: تظنه.

(١) انظر تاريخ بغداد (٣/٣٠٣)، والبداية والنهاية (١٥/٤٦٧) منسوبًا لأبي طالب المكي.

في أَعَادِيهِ يَصْنَعُ: عنده أنه يعطيهم ويمكنهم، وأنهم أعز من المسلمين، وأمكن من المسلمين ونحو من هذا الكلام الفاسد؛ لأنهم ليس عندهم علم بأسماء الله وصفاته وحكمته، هذا نتاج عقيدتهم الفاسدة.

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمٍ^(١)

هذه نتاج عقيدتهم الفاسدة - والعياذ بالله -.

الله جَلَّ وَعَلَا ماذا أعطى المؤمنين من عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وقتنا هذا؟ ماذا أعطاهم من النعم والتمكين والنصر على الأعداء؟ أعطاهم الشيء الكثير.

والكفار وإن انتصروا في بعض الأمور فهم مهزومون مخذولون في كثير من الأمور، إذا انتصروا في ناحية أو ظهروا في ناحية فإنهم مخذولون في نواح كثيرة لمن يتبصر ويعتبر، وأعظم ذلك الإيمان، ليس عندهم إيمان، فقدوا أعز شيء في هذه الحياة وهو الإيمان بالله عَزَّجَلَّ وبأسماؤه وصفاته، هذا نتاج العقائد الفاسدة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأنت تشاهد كثيرا من الناس إذا أصابه نوعٌ من البلاء يقول: ترى ما كان ذنبي حتى فعلت بي هذا؟)، يعاتب ربه عَزَّجَلَّ!

فلك ذنوب كثيرة لو فكرت في عيوبك وذنوبك لعرفت، لكنه لا يفكر بذنوبه وعيوبه ونقصه، فهو يتمنى على الله الأمانى ولا ينظر في أفعاله واعتقاده وتصرفاته.

(١) البيت للمتنبي، انظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي (ص ٦٠).

بعض السلف يقول: إذا عصيت الله عَرَفْتُ ذلك في زوجتي ودابتي (١).

إذا عصيت الله عرف أثر ذلك على زوجته ودابته، يظهر عليها شيء من عدم الانقياد له وعدم الخضوع له؛ لأن الله سلطها عليه.



(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٩) من كلام الفضيل بن عياض، ولفظه: «فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

وقال لي غير واحد: إذا تبتُ إليه، وأنتُ وعملتُ صالحاً، ضيقَ عليّ رزقي، ونكدَ على معيشتي، وإذا راجعتُ معصيته، وأعطيتُ نفسي مُرادها، جاءني الرزقُ والعونُ، أو نحو هذا.

فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه، ليرى صدقك وصبرك، وهل أنت صادقٌ في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذبٌ، فترجع على عقبك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهل أنت صادقٌ في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذبٌ، فترجع على عقبك)، هكذا الجواب السديد لمثل هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال لي غير واحد)، غير واحد: من هؤلاء الجهمية. قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا راجعتُ معصيته، وأعطيتُ نفسي مُرادها، جاءني الرزقُ والعونُ، أو نحو هذا)، ولا يعلم أن هذا استدراج من الله عزَّ وجلَّ وليس إكراماً له، الله جلَّ وعزَّ إذا أحبَّ عبده ابتلاه: «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(١).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾ [العنكبوت: ١-٣].

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤٢).

يقول جَلَّ وَعَلَا أَيضًا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فهؤلاء لهم أقوال ولهم تصرفات مع ما يجريه الله عليهم وعلى غيرهم؛ لأنهم على غير عقيدة سليمة وعلى غير منهج صحيح.

وأحد السلف يقول: لو أن الله قطع أعضائي، وقطع كذا وكذا من جسمي، وأبقى لي لساني أذكر الله به؛ لكان ذلك أكبر نعمة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهل أنت صادقٌ في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذبٌ، فترجع على عقبك)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾: يعني على طرف.

﴿فَإِنِ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنِ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. فضعف الإيـان يأتـي بالعضائم، النفاق يأتـي بالشرور.

وصدق الإيـان هو الذي يثبت الله به عبده مهما أصابه من المضايقات ومن الامتحانات فإنه يصبر، ويعلم أن ذلك في صالحه عند الله سبحانه، وأيضًا يحاسب نفسه فيتوب إلى الله عَزَّجَلَّ ويصحح عمله ومسيرته إلى الله جَلَّ وَعَلَا.



وهذه الأقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مَبْنِيَّةٌ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ:

إحداهما: حُسْنُ ظَنِّ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ وَدِينِهِ، وَاعْتِقَادُهُ أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَتَارِكٌ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَاعْتِقَادُهُ فِي خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَارِكٌ لِلْمَأْمُورِ، مُرْتَكِبٌ لِلْمَحْظُورِ، وَأَنَّهُ نَفْسُهُ أَوْلَى بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ مِنْهُ.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إحداهما: حُسْنُ ظَنِّ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ وَدِينِهِ، وَاعْتِقَادُهُ أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَتَارِكٌ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَاعْتِقَادُهُ فِي خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَارِكٌ لِلْمَأْمُورِ، مُرْتَكِبٌ لِلْمَحْظُورِ، وَأَنَّهُ نَفْسُهُ أَوْلَى بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ مِنْهُ)، بَعْضُ النَّاسِ يَنْظُرُ إِلَى مَا يَجْرِي عَلَى النَّاسِ فَيَحْكُمُ عَلَى ظَاهِرِ ذَلِكَ وَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ رَضِيَ عَنْ فُلَانٍ لَمْ يُعْطِهِ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ سَاخِطٌ عَلَى فُلَانٍ لَمْ يُعْذِبْهُ وَعَاقِبَهُ بِهَذِهِ الْأَمْرَارِ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

وهذا من عمى البصيرة في أفعال الله وحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَيُظَنُّ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا هِيَ مَظْهَرُ الْعِزِّ أَوْ مَظْهَرُ الْإِهَانَةِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، يَبْتَلِي عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالمَصَائِبِ لِيَمْحَصَهُمْ.

﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فَمَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمَكَارِهِ تَمْحِصٌ، وَمَا يُصِيبُ الْكَافِرَ مِنَ الْمَكَارِهِ يَمْحَقُهُ، مُحَقٌّ لَهُ.

فالله جَلَّ وَعَلَا حكيم في أفعاله وفي خلقه وأمره فيجب الإيثار بذلك والرضا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ويجب على العبد أن يحاسب نفسه أيضًا ليصح عمله، ما أصابه من مصيبة إلا بسبب ذنب هو غافل عنه أو قد نسيه، فلا بد أن يراجع عمله ويصح سيره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، هذا يوم أحد، أستشهد سبعون من صحابة رسول الله، قُتِلَ منهم سبعون وأسر منهم مثل هذا العدد.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾: يعني في أحد، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾: يعني في بدر وليس بينهما إلا سنة واحدة.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: ما الذي سبب لنا هذا؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].
فالصحابة في أحد لما كانوا يسرون على خطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا متصرين في أول الأمر، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رتب المسلمين لقتال الكفار في أحد، وجعل على الجبل الذي خلفهم جماعة من الرماة يذودون عن المسلمين من خلفهم. فلما انتصر المسلمون في أول المعركة ظن الرماة أن الواقعة انتهت وأن القتال انتهى، وقالوا: ننزل ونجمع الغنائم مع إخواننا. قال لهم رئيسهم عبد الله بن جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ

رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ»^(١)؛ لا تركوا الجبل سواء انتصرنا أو هُزِمْنَا، فلما عَصَوْهُ وَأَخْلَوْا الْجَبَلَ، دار خالد بن الوليد وكان على الشرك في هذه المعركة، دار من خلف الجبل؛ لأنه قائد محنك فرأى الفرصة قد سنحت في هذا الجبل، فانقضوا على المسلمين من خلفهم، فأصبح المسلمون في كماشة بين هؤلاء وهؤلاء من عدوهم، دارت المعركة من جديد وحصل على المسلمين ما حصل من المصيبة في أحد.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فلو أن الرماة ثبتوا كما قال لهم قائدهم؛ لاستمرَّ المسلمون يقتلون فيهم حتى يفنؤهم، ولكنهم خالفوا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحصل عليهم ما حصل، والعقوبة إذا نزلت تعم، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].



والمقدمة الثانية: اعتقاده أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قد لا يُؤَيِّد صاحبَ الدين الحق وَيُنْصُرُهُ، وقد لا يجعلُ له العاقبة في الدنيا بوجهٍ من الوجوه، بل يعيشُ عُمُرَهُ مَظْلُومًا مَقْهُورًا مُسْتَضَامًا، مع قيامه بما أمرَ به ظاهراً وباطناً، وانتهائه عما نُهيَ عنه باطناً وظاهراً. فهو عند نفسه قائمٌ بشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، وهو تحت قَهْر أهل الظلم والفجور والعُدوان.

فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابِدِ جاهلٍ! ومُتدِين لا بصيرة له! ومُتسبب إلى العلم لا مَعْرِفَة له بحقائق الدين!

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمقدمة الثانية: اعتقاده أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قد لا يُؤَيِّد صاحبَ الدين الحق وَيُنْصُرُهُ، وقد لا يجعلُ له العاقبة في الدنيا بوجهٍ من الوجوه)، وهذا من سوء الظن بالله عَزَّجَلَّ، فهو جريمة كبيرة، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، فظن السوء بالله عَزَّجَلَّ أشد من المعاصي العملية.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، هالकिन بهذا.

المسلم يحسن الظن بالله مهما أصابه، ومهما أصاب المسلمين فهو يحسن الظن بالله، وأن الله لم يفعل هذا بالمسلمين إلا لحكمة ليظهرهم ويمحصهم،

وليتنبهوا أيضاً فيصححوا واقعهم وما هم عليه، والمصائب فيها فوائد للمسلمين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلا إله إلا الله، كم فسد بهذا الاغترار من عابِدِ جاهلٍ! ومُتَدِينٍ لا بصيرة له! ومُنْتَسِبٍ إلى العلم لا مَعْرِفَةَ له بحقائق الدين!)، هذا كله بسبب ضعف الإيمان وبسبب الجهل بدين الله عَزَّجَلَّ وسوء الظن بالله عَزَّجَلَّ؛ وإلا فالمسلم لا ييأس مهما أصابه وأصاب المسلمين؛ فإنه لا ييأس من روح الله؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فيحسن الظن بالله عَزَّجَلَّ ويصبر ويثبت وتكون العاقبة للمسلمين، الكفار وإن نالوا شيئاً في أول الأمر فإن هذا يزول. وهذا أجراه الله لحكمة عظيمة في تمحيص المسلمين وتخليصهم، وتربيتهم، ومحاسبتهم لأنفسهم.



فإنه من المعلوم أن العبد وإن آمن بالآخرة، فإنه طالبٌ في الدنيا لما لا بُدَّ له منه؛ من جلبِ النَّفْعِ، ودَفْعِ الضَّررِ، بما يعتقدُ أنه مُسْتَحَبٌّ أو واجبٌ أو مباحٌ.

فإذا اعتقد أن الدينَ الحقَّ واتباع الهدى والاستقامة على التوحيد ومتابعة السَّنة: ينافي ذلك، وأنه يُعادي جميع أهل الأرض، ويتعرَّضُ لما لا يقدر عليه من البلاء، وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة، لزم من ذلك إعراضه عن الرغبة في كمال دينه، وتجرده لله ورسوله، فيُعْرِضُ قلبه عن حال السابقين المقربين.

بل قد يُعْرِضُ عن حال المقتصدین أصحاب اليمين، بل قد يدخل مع الظالمين، بل مع المنافقين، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثيرٍ من فُروعه وأعماله. كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيُعْرِضُ قلبه عن حال السابقين المقربين، بل قد يُعْرِضُ عن حال المقتصدین أصحاب اليمين، بل قد يدخل مع الظالمين، بل مع المنافقين)، هل حصل المسلمون على هذا النصر وهذه العاقبة الحميدة إلا بالصبر وعدم اليأس من رحمة الله عَزَّجَلَّ؟!، وإن أصابهم ما أصابهم فهم لا ييأسون من رحمة الله، ولا يسيئون الظن بالله عَزَّجَلَّ.

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بل يصبرون ويصابرون حتى تكون النتيجة لهم في العاقبة؛ فإن العاقبة للمتقين كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فُروعه وأعماله)، لما حاصرت الأحزاب المدينة، جاءت غزاة العرب من كل جهة وحاصروا المدينة في غزوة الأحزاب، ماذا قال المؤمنون وماذا قال المنافقون؟

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. والمنافقون قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. ثم ماذا كانت العاقبة؟

كانت العاقبة أن الله أرسل ريحاً على المشركين في الليل؛ حصبتهم وقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وأصابهم الرعب والفرع، فانهزموا وعادوا آيسين من النيل من المسلمين.

﴿إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، أرسل الله ملائكة توقع الرعب في قلوب المشركين، وأرسل الريح التي حصبتهم وقلعت خيامهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب فاندحروا ورجعوا خاسرين، ونصر الله نبيه وعباده المؤمنين بعد الامتحان، بعد الضيق يقول المنافقون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ويقولون: الرسول يقول لكم تفتحون بلاد كسرى وقيصر، ونحن الآن لا نستطيع أن يذهب الواحد لقضاء حاجته. هكذا قالوا -قبحهم الله- فبين

الله ما عندهم من النفاق، وبين الله ما عند المسلمين من الإيمان، ونصر الله المؤمنين وحذل الكافرين والمنافقين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «(بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا)»، الفتن إذا جاءت تزلزل ضعاف الإيمان فينتكسون عن دينهم، يظنون أن النصر مع الكفار فينضمون إلى الكفار فيكونون كالمستجير من الرمضاء بالنار -والعياذ بالله-.

أما المؤمنون فلا يزيدهم ما يصيبهم إلا قوة إيمان ومراجعة لأنفسهم ونظرًا في عدتهم واستعدادهم، ثم يكرون على الكفار فينصرهم الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ)، يعني: بادروا قبل أن تأتيكم هذه الفتن، التي هي كقطع الليل المظلم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) يعني: بطمع من الدنيا الزائلة، هذا هو العجيب! أما المؤمن فلا يبيع دينه مهما كلفه الأمر؛ يصبر على دينه حتى يكتب الله له النصر والكرّة.



وذلك أنه إذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل إلا بفساد دُنياه، من حصول ضررٍ لا يحتمله، وفواتٍ مَنفَعَة لا بُدَّ له منها: لم يُقدِّم على احتمال هذا الضرر، ولا تفويت تلك المنفعة.

فسبحان الله! كم صدَّت هذه الفتنة الكثير من الخلق بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين؟

وأصلها ناشئٌ من جهلين كبيرين: جهل بحقيقة الدين، وجهل بحقيقة النعيم الذي هو غاية مطلوب النفوس وكمالها، وبه ابتهاجها والتذاذها، فيتولَّد من بين هذين الجهلين: إعراضه عن القيام بحقيقة الدين، وعن طلب حقيقة النعيم.

ومعلومٌ أن كمال العبد هو بأن يكون عارفاً بالنعيم الذي يطلبه، والعمل الذي يُوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لذلك النعيم، وإلا فالعلمُ بالمطلوب وطريقه لا يُحصِّله إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا تُوجب وجودَ المراد إلا إذا لازمها الصبر.

فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفاً على هذه المقامات الخمسة: علمه بالنعيم المطلوب، ومحبته له، وعلمه بالطريق الموصل إليه، وعمله به، وصبره على ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فسبحان الله! كم صَدَّتْ هذه الفتنة الكثير من الخلق بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين؟)، المؤمن يبتلى بلا شك؛ «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»^(١)، فالأنبياء يُتَلَوْنَ عليهم الصلاة والسلام، ومن أمهم كذلك مَنْ يُتَلَى: «الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»؛ الأقوى إيماناً فالأقوى، ولكنهم يصبرون ويثبتون ويوقنون بنصر الله عَزَّجَلَّ ويصححون أوضاعهم، ويقوون أسبابهم فتعود لهم الكرة بإذن الله، هذه سنة الله جَلَّ وَعَلَا في خلقه. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، فالله جَلَّ وَعَلَا يبتلى العباد؛ ليظهر ما عندهم من إيمان و يقين، أو نفاق وسوء ظن بالله عَزَّجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (علمه بالنعيم المطلوب)، علمه بالنعيم المطلوب: هذا

واحد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومحبته له)، هذا الثاني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعلمه بالطريق الموصل إليه)، هذا الثالث.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعمله به)، هذا الرابع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وصبره على ذلك)، هذا الخامس.

فالصبر لا بد منه، الذي لا يصبر لا يثبت على دينه، لا بد من الصبر على

ما أصابك.

(١) تقدم تخرجه (ص ١١٥).

فاصبر على ما أصابك كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَبُتَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ: يعني رضاعه.

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٣، ١٤]، لأن حق الوالدين يأتي بعد حق الله.

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾: الوالدان إذا كانا كافرين، ويريدان من ولدهما أن يكفر ويترك دينه ويترك الإيمان؛ فالولد لا يطيعهما في ذلك.

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، لكن هل انتهى الموضوع؟ لا.

﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]: أحسن إليهما وإن كانا كافرين على معروفهما الذي أسدياه إليك في تربيتك، في إطعامك وكسوتك وأنت لا تستطيع.

﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: لا تتبعهما. ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: من أهل الإيمان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣])، هذه السورة العظيمة الوجيزة هي تقريباً سطر ونصف، ذكر الله فيها أربعة أشياء:

أولاً: أقسم بالعصر الذي هو الزمان؛ لأن الزمان هو وقت العمل، فالوقت مهم جداً، فلا تضيعه مثلما يقول بعض الناس: نقتل الوقت، يريدون أن يقضوا على هذا الوقت الطويل، ولا يعرفون أن الوقت هو مزرعتهم وهو حصيلتهم من هذه الدنيا.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾: «الإنسان» مطلقة، سواءً الملوك أو الصعاليك، أو الأغنياء أو الفقراء، أو المؤمنون أو الكفار.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]: خسارة، إلا من اتصف بأربع صفات فهو ناجٍ من هذه الخسارة:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، هذه واحدة.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، هذه الثانية.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، هذه الثالثة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، هذه الرابعة.

أربع صفات، ولهذا قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة؛ لَكَفَّتْهُمْ»^(١).

بعض العوامّ لما سمع كلام الشافعي قال: سورة العصر تكفي عن القرآن كله!

لا، لا تكفي سورة العصر، أين الصيام فيها؟ أين الصلاة؟ أين الحج؟ أين الأعمال؟ لم تذكر فيها، فهي لا تكفي.

(١) تقدم تخريجه (ص ١٩٩).

لكن الله جَلَّ وَعَلَا احتج عليهم بها فهي حجة، «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم». لم يقل: لو لم ينزل الله شريعة على خلقه إلا هذه السورة، لا، حجة، أما الشريعة فلها تفاصيل ولها آيات أخرى وسور أخرى، والقرآن يتفاضل لمعناه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ هذا التواصي بالحق، يحتاج إلى صبر، سيلاقي من الناس التعب والعنت والمشقة والتهديدات لكن؛ يصبر على ذلك.



والمقصود أن المقدمتين اللتين بُنِيَتْ عليهما هذه الفتنة، أصلهما الجهل بأمر الله ودينه، وبوَعْدِهِ ووَعِيدِهِ.

فإن العبدَ إذا اعتقدَ أنه قائمٌ بالدينِ الحقِّ فقد اعتقدَ أنه قد قام بفعل المأمور باطنًا وظاهرًا، وتركِ المحظور باطنًا وظاهرًا، وهذا من جهله بالدين الحق وما لله عليه وما هو المراد منه، فهو جاهل بحق الله عليه، جاهلٌ بما معه من الدين، قَدْرًا ونوعًا وصفةً.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصُرُه الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين، وللفجّار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوَعْدِ الله تعالى ووَعِيدِهِ.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن العبدَ إذا اعتقدَ أنه قائمٌ بالدينِ الحقِّ فقد اعتقدَ أنه قد قام بفعل المأمور باطنًا وظاهرًا، وتركِ المحظور باطنًا وظاهرًا)، الإنسان لا يزكي نفسه، بل يعتبر نفسه مقصرًا فيطلب المزيد من العلم والعمل، فلا يزكي نفسه على الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصُرُه الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين، وللفجّار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوَعْدِ الله تعالى ووَعِيدِهِ)، أين هم الكفار الذين عارضوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهددوا؟ أين هم؟ الإسلام ثبت وبقي والله الحمد، لم يضره ولم يوقفوا مده وامتداده، الإسلام امتد وانتصر وبقي، وكيدهم وتهديدهم ذهب أدراج الرياح.

فأما المقام الأول: فإن العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلمُ بها ولا بوجوبها، فيكون مقصراً في العلم، وكثيراً ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلاً وتهاوناً، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشغول بما هو أوجبُ منها، أو لغير ذلك.

فواجبات القلوب أشدّ وجوباً من واجبات الأبدانِ وأكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل والمستحبات.

فتراه يتحرّج من ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهمّ واجبات القلوب وأفرضها، ويتحرّج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشدّ تحريماً وأعظم إثمًا.

بل ما أكثر من يتعبد لله عزَّ وجلَّ بترك ما أوجب عليه، فيتخلّى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قدرته عليه، ويزعم أنه مُتقربٌ إلى الله تعالى بذلك، مجتمعٌ على ربه، تاركٌ ما لا يعنيه!

فهذا من أمقت الخلق إلى الله تعالى، وأبغضهم له، مع ظنه أنه قائمٌ بحق الإيمان، وشرائع الإسلام، وأنه من خواص أوليائه وحزبه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فواجبات القلوب أشدّ وجوباً من واجبات الأبدانِ وأكد منها)، واجبات القلوب أشد من واجبات الأبدان، القلب له الصبر،

له الثبات، له الإيمان، له الخشية، له الخشوع، له الرغبة، له الرهبة؛ كل هذه أعمال قلبية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بل ما أكثر مَنْ يتعبدُ لله عَزَّجَلَّ بترك ما أَوْجَبَ عليه، فيتخلَّى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قُدرته عليه، ويزعم أنه مُتَقَرَّبٌ إلى الله تعالى بذلك، مجتمِعٌ على رَبِّه، تاركٌ ما لا يَعْنِيه!)، لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعظم المعروف: التوحيد والإيمان، وأعظم المنكر: الشرك بالله والكفر.

فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب استطاعته ومقدرته؛ إن كان له سلطة يأمر بيده وينكر المنكر بيده ويزيله، وإن لم يكن له سلطة فبلسانه؛ يعظ ويذكر ويعلم ويدرس ويبين للناس، فهذا من إنكار المنكر باللسان.

فإن لم يكن عنده علم أو إنكار باللسان؛ فإنه يجتنب المنكر ويكرهه بقلبه، ويجتنبه ويجتنب أهله ويكرهه، لا يقول: أنا ليس لي شأن بهم، وأنا منهم، مثل ما يقول بعض الناس، فيتعامل مع أهل المنكرات ويجالسهم ويخالطهم ويقول: والله أنا نصحتهم وبينت لهم، والآن أنا ليس لي شأن بهم، أديت الذي علي.

لا، لم تؤدِ الذي عليك، ما داموا على المنكر فلا تخالطهم ولا تجالسهم ولا تصاحبهم.



بل ما أكثر من يتعبّد لله بما حرّمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعةٌ وقُرْبَةٌ! وحاله في ذلك شرٌّ من حالٍ مَنْ يعتقد ذلك معصيةً وإثمًا، كأصحاب السماع الشّعري الذي يتقربون به إلى الله تعالى، ويظنّون أنهم من أولياء الرحمن، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان.

وما أكثر مَنْ يعتقد أنه هو المظلوم المُحِقُّ من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوعٌ من الحقّ ونوعٌ من الباطل والظلم، ومع خصمه نوعٌ من الحقّ والعدل، وحُبُّك الشيء يُعمي ويُصمّ.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كأصحاب السماع الشّعري الذي يتقربون به إلى الله تعالى، ويظنّون أنهم من أولياء الرحمن، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان)، السماع يعني الغناء، وهذا عند الصوفية عبادة يتقربون بها إلى الله، ويعتبرونه طاعة وعبادة لله عَزَّجَلَّ، وهو مقومات دينهم.

وكذلك غير الصوفية الذين يحبون الغناء ويطربون له ويستمعون إليه من الإذاعات ومن غيرها من وسائل البث، هؤلاء يشاركون الصوفية في مثل هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وما أكثر مَنْ يعتقد أنه هو المظلوم المُحِقُّ من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك)، يزكي نفسه وهو ليس كذلك، عنده مؤاخذات كثيرة وهو يزكي نفسه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما أكثر مَنْ يعتقد أنه هو المظلوم المُحِقُّ من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوعٌ من الحقِّ ونوعٌ من الباطل والظلم، ومع خصمه نوعٌ من الحقِّ والعدل، وحُبُّ الشيء يُعمي ويُصم)، إذا كان بين اثنين خصومة أو اختلاف في أمر من الأمور فقليل من ينصف من نفسه ويعترف بخطئه، بل يرى أنه هو المحق وأن خصمه هو الظالم إلا من رحم الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»^(١)؛ فلا بد من هذا النظام والحكم الشرعي بين المختلفين.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. والحمد لله، الوحي المنزل يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، أنزل الله جَلَّ وَعَلَا الكتاب وأنزل السنة، والعلماء استنبطوا الفقه من الكتاب والسنة، الذي يرجع إليه الناس عند اختلافهم على أيدي العلماء؛ فيزول النزاع بإذن الله.

وهذا من رحمة الله بعباده أنه أنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومن كان في قلبه إيمان؛ فإنه يرضى بحكم الله وحكم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى (١٠ / ٤٢٧) من حديث ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري (٤٥٥٢) بلفظ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَدَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ». ومسلم (١٧١١) بلفظ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ».

ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فُحْكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠].

وأُنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه: في أمر العقيدة، في أمر العبادة، في أمر الخصومات بين الناس، والله جَلَّ وَعَلَا أنزل: ﴿ أَلْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ثم قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

والحديد لمن عصى وخالف حكم الله فليس له إلا الحديد، وأما من قنع بحكم الله وسلم له؛ فهذا يستريح.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

﴿ شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾: يعني اختلفوا فيه. ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ بل يقتنع، المسلم يقتنع فلا يكون في نفسه تردد أو اعتقاد أنه مظلوم، يسلم، ﴿ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾: هذه واحدة. ثم: ﴿ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ﴾.

الثالثة: ﴿ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾: يسلموا الأمر لحكم الله ورسوله، ﴿ سَلِيمًا ﴾: تأكيد، فهذا شأن المؤمنين عند الاختلاف.

والإنسان محبوبٌ على حُبِّ نفسه، فهو لا يرى إلا محاسنها، ومُبْغِضٌ لخصمه، فهو لا يرى إلا مساوئها، بل قد يَشْتَدُّ به حُبُّه لنفسه، حتى يرى مساوئها محاسن، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨]، ويشد به بغضُ خصمه حتى يرى محاسنه مساوئ، كما قال:

نَظَرُوا بِعَيْنِ عَدَاوَةٍ وَكَوَّانَهَا عَيْنُ الرِّضَا لَا سَتَحْسُنُوا مَا اسْتَقْبَحُوا^(١)

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والإنسان محبوبٌ على حُبِّ نفسه، فهو لا يرى إلا محاسنها، ومُبْغِضٌ لخصمه، فهو لا يرى إلا مساوئها)، إذا قل الإيمان فإنه يزكي نفسه، يعتقد أنه لا يخطئ وأن الحق معه وحده إذا ضعف إيمانه، وأن خصمه هو المخطئ وهو المعتدي، إلا إذا رُزِقَ الإيمان فإنه يرضى بحكم الله ورسوله ويسلم تسليماً، يعني يستسلم.

هذا شأن المؤمنين عند الاختلاف، وإلا فالاختلاف يحصل ليس هناك شك، ولكن من رحمة الله أنه أرسل هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس، وحكم الرسول موجود في كثير من القضايا مروى عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي لم يحكم به الرسول في حياته يحكم به الكتاب والسنة على أيدي العلماء.

والحمد لله، الطريق واضح، ولا تزال الأمة بخير - والله الحمد - في رجوعها إلى شرع الله وحكم الله، فالمؤمن يرضى بحكم الله وحكم رسوله

(١) أورده سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٨ / ٢٥٠) منسوباً للشريف الرضي.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما حكم الجاهلية فلا يقتنع به الإنسان، ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وكل ما خالف حكم الله وحكم رسوله فهو حكم الجاهلية: القوانين الوضعية حكم الجاهلية، الجاهلية ليست مقصورة على ما قبل الإسلام بل تستمر، هناك ناس لا يخرجون من الجاهلية، هناك ناس يخرجون منها بعض الشيء، وهناك ناس يخرجون منها نهائياً وإلا فهي موجودة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل قد يَشْتَدُّ به حُبُّه لنفسه، حتى يرى مساوئها محاسن، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾: عمله سيئٌ وهو يراه أنه طيب وأنه حسن؛ لأن الشيطان زَيَّنَ له سوء عمله، وهذا لا ينصف من نفسه، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى﴾ [النجم: ٣٢]: فلا تُزَكِّ نفسك، ولا تبرئ نفسك؛ ﴿وَمَا أَتَرَى نَفْسِي إِنْ أَلْفَاةٌ أَلْفَاةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعُ رِيًّا﴾ [يوسف: ٥٣]. فالإنسان لا يبرئ نفسه، ولا يزيكها؛ بمعنى أنه لا يصوبها ويعتقد أنها هي التي أصابت وأن خصمه مبطل ومخطئ، لا، بل ينصف من نفسه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى﴾ [النجم: ٣٢].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (نظروا بعينِ عداوةٍ ولو أنّها * عَيْنُ الرِّضَا لاسْتَحْسَنُوا مَا اسْتَقْبَحُوا)، هذا الواجب على المسلم أن ينظر بعين الرضا والإنصاف مع نفسه قبل غيره، فلا يزيكي نفسه دائماً.



وهذا الجهل مقرون بالهوى والظلم غالباً، فإن الإنسان ظلوم جهولٌ. وأكثر ديانات الخلق إنما هي عاداتٌ أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وقلدوهم فيها، في الإثبات والنفي، والحبّ والبغض، والموالاتة والمعاداة. والله سبحانه إنما ضمّن نصر دينه وحزبه وأوليائه بدينه علماً وعملاً، لم يضمن نصرَ الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه مُحقّق. وكذلك العِزَّة والعُلُوّ إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رُسُلَهُ، وأنزل به كتبه، وهو علمٌ وعملٌ وحالٌ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا الجهل مقرون بالهوى والظلم غالباً، فإن الإنسان ظلوم جهولٌ)، الإنسان ظلوم جهولٌ، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: يعني الأمانة. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]: وصفان له: الجهل والظلم، إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَنْ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِنصَافِ، فهذا لا يبرئ نفسه ويحمل الخطأ على الآخرين كله، الإنسان بشر يخطئ ويصيب. وقليل من الناس من ينصف من نفسه، فيعتبر نفسه هي التي أصابت وهي التي معها الحق وهي التي لا تخطئ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأكثر ديانات الخلق إنما هي عاداتٌ أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وقلدوهم فيها، في الإثبات والنفي، والحبّ والبغض، والموالاتة والمعاداة)، وهذا دين الجاهلية، الذين يسيرون على العادات والأعراف والتقاليد ويتركون الكتاب والسنة والحكم بالشرع، يأخذون بعرف القبائل

أو القوانين الوضعية الطاغوتية، يعتبرونها هي التي تنصفهم ويقتنعون بها ويسلمون لها ولا يسلمون لشرع الله تعالى، تعالى الله عن ذلك.

انظر الإنسان إلى أين يصل بالضلال؟! إلا من من الله عليه بالإيمان وأنصف من نفسه وأبصر، وإلا فالإنسان كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿ظَلُومًا﴾: هذه صيغة مبالغة، كثير الظلم، ﴿جَهُولًا﴾: ليس المراد بالجهل عدم العلم، لا، المراد هنا بالجهل عدم الحلم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله سبحانه إنما ضَمِنَ نصر دينه وحزبه وأوليائه بدينه علمًا وعملاً، لم يضمن نصرَ الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه مُحِقٌّ)، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضمن الإصابة والإنصاف والحق لمن حكم بالكتاب والسنة؛ لأنها تنزيل من حكيم حميد، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. هذا من رحمة الله بعباده أنه أنزل عليهم هذا الكتاب وهو القرآن، وأنزل عليهم السنة وهي سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وتُوضِّحُه وتدل عليه؛ وهي وحي. فالسنة وحي كما أن القرآن وحي، قال تعالى في وصف نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. فالرسول معصوم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيجب الثقة بالكتاب والسنة؛ بحكم الله، وحكم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله سبحانه إنما ضَمِنَ نصر دينه وحزبه وأوليائه بدينه علمًا وعملاً)، إنما الله ضمن نصر الحق من الكتاب والسنة.

فالذي يأخذ بهما منصور ينصره الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يتركهما مخذول، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لم يضمن نصرَ الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه مُحَقَّقٌ)، ليس العبرة باقتناع الشخص، العبرة بموافقة الكتاب والسنة، أما اقتناع الشخص؛ فأكثر الناس يقتنع بالباطل ويرى أنه حق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك العِزَّةُ والعُلُوُّ إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رُسُلَهُ، وأنزل به كتبه، وهو علمٌ وعملٌ وحالٌ)، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ أَعَزُّ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

لما قالوا، في غزوة بني المصطلق حصل بين شابين مشادة: شاب من الأنصار وشاب من المهاجرين، فقال الأنصاري: يا للأنصار! يستنصرهم، وقال المهاجري: يا للمهاجرين! يستنصرهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع هذا: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟»^(١). فأنكر عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاعتزاز بقبائلهم وجماعتهم؛ ﴿الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ليس هناك فرق بين أنصاري ومهاجري، أو بين فلان وفلان، وقبيلة كذا؛ ﴿الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ليس بالفخر والأنساب والغناء، لا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].



(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]،
 فللعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
 وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان
 وحقائقه، فإذا فاتهُ حَظٌّ من العلوِّ والعزة، ففي مُقابلة ما فاتهُ من حقائق الإيمان
 علمًا وعملاً، ظاهرًا وباطنًا. وكذلك الدفْعُ عن العبد هو بحسب إيمانه، قال
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. فإذا ضَعُف الدفْعُ عنه
 فهو من نَقْصِ إيمانه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
 [آل عمران: ١٣٩])، بهذا الشرط، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: بشرط أن تكونوا مؤمنين،
 فالمؤمنون قد أعلي الله مكانتهم، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
 [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
 [آل عمران: ١٣٩]، فالإيمان يعلو بصاحبه، والنفاق يخذل صاحبه والكفر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فللعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان)، انظر! إلى
 بلال وأبي جهل، أبو جهل من سادات قريش من بني مخزوم، وبلال عبدٌ
 حبشي، ولكن بلال مؤمن وأبو جهل كافر ولم ينفعه حسبه ونسبه، ولم يضر
 بلالاً رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ عَرَبِيًّا وَلَيْسَ قَبِيلِيًّا، وهو من سادات أهل الجنة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلوّ والعزة، ففي مُقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملاً، ظاهرًا وباطنًا)، فالعزة للمؤمنين وهي تتفاوت بحسب الإيمان، عزة كاملة أو عزة دونها، حسب الإيمان. لكن المؤمن عزيز عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كان محتقرًا عند الناس فهو عزيز عند الله بإيمانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك الدفْعُ عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. ﴿عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: اتصفوا بالإيمان. فأخبر جَلَّ وَعَلَا أنه يدفع عنهم المكروهات والشُرور بحسب إيمانهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا ضَعَفَ الدفْعُ عنه فهو من نَقْصِ إيمانه)، والدفْع بحسب الإيمان، دفْعًا كاملاً لمن إيمانه كامل، ودفْعًا دون ذلك لمن إيمانه دون ذلك، ولكن المؤمن عزيز، ولو كان إيمانه ضعيفًا فهو عزيز بإيمانه.



وكذلك الكفاية والحسبُ هي بقدرِ الإيمان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٦٤]، أي: حَسْبُكَ اللهُ وَحَسْبُ أَتْبَاعِكَ، أي كافيك وكافهم.

فكفايته لهم بحسبِ أتباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك الكفاية والحسبُ هي بقدرِ الإيمان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٦٤]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيك.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله حَسْبُ من اتبعك من المؤمنين، فهو حسبه، ومن كان الله حَسْبُهُ فلن يُغلب، تكفل الله للمؤمن بأنه يكفيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله)، بأن ينقص حَسْبُهُ عند الله بِحَسَبِ نقص إيمانه، ويقوى بِحَسَبِ قوة إيمانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص)، مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، ليس على حدٍّ سواء.

لا شك أن إيمان أبي بكر يعدل إيمان الأمة كلها كما جاء في الحديث، ؛ بما أعطاه الله من قوة اليقين والتصديق بكتاب الله وسنة رسوله، والدفاع عن دين الإسلام، فالإيمان يتفاوت عند الناس.

ولهذا تعريف الإيـان عند أهل السنة والجماعة: الإيـان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: يعني الآيات التي تنزل.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ :
يعني نفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾
[التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فبحسب الإيـان يرسخ في القلب وتصدقه الأعمال؛ ولهذا
يقول بعض السلف وهو الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ، يقول: «الإيـانُ مَا وَقَرَ فِي
الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»^(١).



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٣)، والبيهقي في شعب الإيـان (١/ ١٥٨).

وكذلك ولاية الله تعالى لعبده هي بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكذلك مَعِيَّتُهُ الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، فإذا نقص الإيمانُ وضعُفَ كان حَظُّ العبد من ولاية الله له ومَعِيَّتِهِ الخاصة بقدر حَظِّه من الإيمان.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك ولاية الله تعالى لعبده هي بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨])، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بمعنى أنه يناصرهم ويدافع عنهم، فلا أحد يعتدي على مؤمن إلا والله ينتصر له عاجلاً أو آجلاً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧])، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك مَعِيَّتُهُ الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩])، مَعِيَّةُ اللَّهِ لخلقهِ نوعان:

معية عامة: معناها الإحاطة والعلم، وهذه لكل مخلوق للمؤمنين والكفار، الله محيط بهم ويعلم أعمالهم ولا يخفون عليه في أي مكان كانوا، ولا يخفى عليه ما في قلوبهم، يعلم ما في الصدور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه مَعِيَّةُ عامة.

وأما المعية الخاصة: فهي للمؤمنين، يقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر وهما في الغار: ﴿لَا تَخْزَنَ إِيَّاكَ اللهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

جاؤوا إلى الغار الذي اختفى فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه، فقال أبو بكر - يخاف على الرسول -: والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، يعني المشركين. قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللهُ تَالِثُهُمَا؟»^(١)، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِيَّاكَ اللهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فأعمى الله بصائرهم، ولم يروا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عند أقدامهم، لكن الله أعماهم عنه فولوا مدبرين.

وخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه وركبوا رواحلهم، وذهبوا إلى المدينة، ومعهم الدليل يدهم حتى وصلوا إلى المدينة.

«يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللهُ تَالِثُهُمَا؟»، فسجل الله هذا في القرآن: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِيَّاكَ اللهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك مَعِيَّتُهُ الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩])، فالمعية كما سمعتم قسمان:

معية عامة لجميع الخلق؛ ومعناها الإحاطة والعلم.

ومعية خاصة للمؤمنين؛ ومعناها النصر والتأييد والإعانة هذه خاصة بالمؤمنين، فهذه المعية الخاصة، ﴿لَا تَخْزَنَ إِيَّاكَ اللهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]: معهم بنصره وتوفيقه وإعانتة وحمايته.

وقال لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَا ﴾ [طه: ٤٦]، لما ذهباً، ﴿ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ ﴾: يعني فرعون، ﴿ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

فذهبا إلى فرعون ونصحاه ودعياه إلى الإسلام، وهددهما بالقتل وتقطيع الأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل؛ فأخزاه الله وأغرقه، ونجى المؤمنين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإذا نقص الإيمان وضعفَ كان حظُّ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حفظه من الإيمان)، الولاية الخاصة والنصر بحسب ما مع العبد من الإيمان.



وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤]، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد؛ ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عدوه عليه، فإنها هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١])، ﴿ إِنَّا ﴾: هذا تأكيد، ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]: يوم القيامة تكفل الله بنصر الرسل والمؤمنين، وحمائهم وحفظهم، في الدنيا والآخرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١])، ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤])، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: هذا في قوم عيسى، في الحواريين.

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: نصرناهم.

﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾: على عدوهم، متمكنين منه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولهذا إذا أصيبَ العبدُ بمصيبةٍ في نفسه أو ماله أو بإدالة عُدُوِّه عليه، فإنما هي بذنوبه)، بلا شك، ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾: هذا في أحد.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾: يعني في بدر.
 ﴿قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا﴾: ما سبب الذي أصابنا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].
 فما أصابهم يوم أحد؛ إنما هو بسبب ما وقع من الصحابة الذين جعلهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجبل يحمون ظهور المسلمين.

فلما حصل النصر ظن هؤلاء أن المعركة انتهت، فقالوا: نزل نشارك إخواننا في جمع الغنائم، قال لهم رئيسهم: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لا تنزلوا سواء انتصرنا أو هُزِمْنَا، لا تتركوا الجبل^(١)، فعصوا قائدهم ونزلوا، فدار خالد بن الوليد وكان حينذاك على الشرك، دار على الجبل ورآه قد فرغ، فانقض على المسلمين من خلفهم، فوقع المسلمون في وسط الكفار من الأمام ومن الخلف بسبب هذه المخالفة التي خالفوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، فدارت المعركة من جديد وأصيب المسلمون. وهم صحابة رسول الله أفضل الخلق، لما حصل منهم ما حصل من المخالفة حصلت عليهم هذه النكبة.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦].
 ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾: بقدره وقضائه، وإذنه الكوني.

(١) تقدم تخرجه (ص ٢٧٣).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة عَدُوّه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه)، والمصيبة إذا نزلت لا تقتصر على العاصي، فهي تَعْمُ، ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فالعقوبة إذا نزلت تعم الصالح والطالح؛ لأنهم لم يمنعوا الطالح من المخالفة فتعمهم العقوبة.



وبهذا يزول الإشكال الذي يُورده كثير من الناس على قوله تعالى:
﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].
ويجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنه لن يُجْعَلَ لهم عليهم سبيلاً في الآخرة.
ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة.
والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان
الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص
من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله تعالى.
فالؤمن عزيز عالٍ مُؤَيَّدٌ منصورٌ مَكْفِيٌّ مَدْفُوعٌ عنه بالذات أين كان، ولو
اجتمع عليه من باقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبهذا يزول الإشكال الذي يُورده كثير من الناس على
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١])،
﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]: يعني سبيلاً
دائماً، قد يحصل سبيل لكنه ليس دائم.

أو: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يعني ولاية،
لا يتولون عليهم ويتسلطون عليهم وتكون سلطتهم على المؤمنين دائماً، وإنما
قد تحصل بعض الأحيان بسبب من قبل العبد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن
أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل

بحسب ما نقص من إيمانهم)، الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني كامل الإيمان، وإذا نقص الإيمان، تسلط الكفار على المسلمين بسبب ذنوبهم.

أما لو أنهم كمل إيمانهم لم يستطع الكفار، ما أصاب المسلمين على أيدي الكفار إنما هو بذنوب المسلمين ونقص إيمانهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله تعالى)، يعني ليس الله هو الذي جعل السبيل للكفار على المؤمنين.

هم الذين جعلوا السبيل على أنفسهم؛ بمخالفتهم لأوامر الله وأوامر رسوله، هم الذين جعلوا للكفار سبيلاً عليهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا قام بحقيقة الإيمان)، بهذا الشرط.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً)، إذا كَمَّلَ الإيمان؛ كَمَّلَ الله له الحماية، وإذا نقص الإيمان؛ جعل الله عليه شيئاً من تسلط الكفار عقوبةً له وتنبهًا له.



وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جُندٌ من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يُفَرِّدُها عنهم، ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقةً لأمره.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾).

﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾: يعني الصلح. فإذا كنتم أنتم الأعلون على الكفار فلا تدعوا إلى الصلح، أما إذا احتجتم إلى الصلح بتسلط الكفار عليكم؛ فلا بأس من الصلح، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَالِحَ الْمُشْرِكِينَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥])، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: معية خاصة، ﴿وَلَنْ يَتْرُكُ﴾: يعني ينقصكم، الوتيرة: النقص، ﴿وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩])، بهذا الشرط؛ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فأنتم الأعلون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جُنْدٌ من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يُفَرِّدُهَا عنهم، ويقتطعها عنهم، فيُبْطِلُهَا عليهم، كما يَتَرُ الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن مُوَافِقَةً لأمره)، فأعمال الكفار باطلة، وَتَرَهَا اللهُ بِمَعْنَى قَطَعَهَا؛ لأنها باطلة.

أما أعمال المؤمنين لما كانت على شرع الله؛ فإنها محفوظة وعزتهم قائمة، ولو حصل عليهم ما حصل فإنه لن يدوم.



فصل

وأما المقام الثاني الذي وقع فيه الغلط: فكثيرٌ من الناس يظنُّ أن أهل الدين الحقَّ يكونون في الدنيا أذلاءً مقهورين مغلوبين دائماً، بخلاف مَنْ فارَقهم إلى سبيلٍ أُخرى، وطاعة أُخرى.

فلا يَتَّقُ بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو يجعله مُعلَّقاً بالمشيئة، وإن لم يُصرح بها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما المقام الثاني الذي وقع فيه الغلط: فكثيرٌ من الناس يظنُّ أن أهل الدين الحقَّ يكونون في الدنيا أذلاءً مقهورين مغلوبين دائماً، بخلاف مَنْ فارَقهم إلى سبيلٍ أُخرى، وطاعة أُخرى)، من الناس من يحتقر أهل الدين ويتنقصهم ويظن أنهم مغفلون، وأنهم ليس لهم مدى بعيد، وليس عندهم من سياسة الأمور شيء، هذه نظرهم إلى أهل الدين.

ولكن في الواقع أن الأمر عكس ذلك، فإن أهل الدين على بصيرة وعلى نور من ربهم، ولكنهم لا يظهرون هذا للناس، بل يحتفظون به سراً عندهم، والله هو الذي يظهره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أهل الدين عندهم نظر وعندهم بصيرة، وعمدتهم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهما الكفاية في الدنيا والآخرة.

والذين يغمطونهم في الحقيقة أنهم هم الذين تنقصهم الفراسة، فراسة المؤمنين، وبصيرتهم قصيرة ونظرتهم إلى الدنيا، فهم قاصروا النظر.

فأهل الدين دائماً وأبداً أهل بصيرة وأهل علم وأهل فكر ناضج، وأما غير أهل الدين فهم إنما ينظرون إلى عاجل الأمر.

ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ [الروم: ٦، ٧].

فنظرة أهل الدنيا قاصرة على الدنيا، ونظرة أهل الدين ممتدة على الدين والدنيا والآخرة، وهم يفكرون لآخرتهم أكثر مما يفكرون لدنياهم، فهم أهل البصيرة وهم أهل النظر، وهم أهل الفراسة الصادقة في الأمور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَا يَتَّقُ بِوَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِ دِينِهِ وَعِبَادِهِ)، أهل الدين يثقون بوعده الله ونصره وأن الله لا يخذل أهل الدين.

ولكن غير أهل الدين يظنون أن أهل الدين نظرهم قاصرة وأنهم لا يعرفون الأمور ويتنقصونهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٦﴾ [الروم: ٦، ٧].

﴿ظَاهِرًا﴾: وما يخفى عليهم أكثر، وسأهم الله بأنهم لا يعلمون، وإن كانوا ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهم لا يعلمون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو يجعله مُعَلَّقًا بالمشيئة، وإن لم يُصرح بها)، هذه نظرهم، نظرهم:

أن أهل الدين ليس عندهم نظر بعيد وليس عندهم سياسة للأمر، وهذا شيء مستمر، تنقصهم لأهل الدين هذا مستمر.

ولكن الواقع أن أهل الدين هم أهل البصيرة، وهم أهل النظر الذين نظروا إلى الدنيا ونظروا إلى الآخرة؛ فعملوا لكل عملها اللاتق بها. أما أهل الدنيا فإنما نظرهم للدنيا ولا ينظرون إلى الآخرة؛ فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون لها وإنما همهم الدنيا، قد تفتح الدنيا على بعضهم من باب الاستدراج، ولكنه فتحٌ ينتهي ولا يستمر، فنظرهم دائماً قاصرة إنما هي دنيوية فقط.

هذا الفرق بين أهل الدين وأهل الدنيا: أن نظرة أهل الدين نافذة للدنيا وللآخرة، نظرة أهل الدنيا قاصرة على الدنيا ولا يفكرون في الآخرة، ولا يفكرون في المصير إنما همهم تطوير هذه الدنيا والصناعات والمبتكرات. لكن هذا متاع قليل، ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا نُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

والدنيا مشتركة بين المؤمنين والكفار، وإن كانت في الأصل للمؤمنين ولكن يشاركون فيها الكفار، وإلا فالأصل أنها للمؤمنين خلقها الله للمؤمنين؛ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ففي الدنيا يشاركون الكفار، في الآخرة تخلص الآخرة والجنة لأهل الإيمان، ويحرم منها الكفار، فالدنيا مهما تطورت ومهما تزينت فإنها تنتهي، أما الآخرة فإنها تبقى ولا تبعد ولا تفنى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلا يَثِقُ بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة)، أهل الدنيا لا يثقون بنصر الله وتمكينه، لا يثقون بهذا؛ لأنهم لا يؤمنون بالله فهم لا يثقون.

أما أهل الإيمان فهم يثقون بنصر الله، وإن أصابهم ما أصابهم فإنهم لا يأسون من نصر الله ولا يزيدهم ما يقع عليهم من النقص والمصائب إلا إيماناً وثقة برهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يغذيهم الإيمان الذي في قلوبهم، فهم أهل نظرة فاحصة وأهل نظر، بخلاف أهل الدنيا فإنما نظرهم إلى متاع الدنيا وغرورها وهي لا تدوم لهم، الدنيا لا تدوم لهم.

ولهذا قالوا في الغزوة الأخيرة، غزوة تبوك، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

حتى قال بعض المنافقين أو بعض الكفار: يحسبون قتال بني الأصفر مثل قتال العرب؟ كأنني بهم يؤخذون ويذلون ويمتهنون^(١)!

ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ﴾: يعني يرجع من غزوة تبوك، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

قال قائل المنافقين لأصحابه: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، لأن غزوة تبوك صادفت الصيف والحَرَّ، ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/٥٢٤، ٥٢٥)، وتفسير ابن كثير (٤/١٧١).

فالحر هذا يذكر بنار جهنم، فيخاف المؤمن منها ويستعد للخلاص منها، أما غير المؤمن فيتألم من هذا الحر ولا يفكر فيه، ولا يعلم لماذا أجراه الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بل إما أن يجعل ذلك خاصًّا بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمانٍ)، يعني نصر المؤمنين خاص بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، وهذا ظن فاسد؛ بل نصر الله للمؤمنين عمومًا ليس طائفة دون طائفة، وأيضًا هو مستمر وليس لزمان دون زمان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أو يجعله مُعَلَّقًا بالمشيئة، وإن لم يُصرح بها)، أو إذا نصر الله المؤمنين قال هذا من موجب القدر والمشيئة، ولم يعلقه بالإيمان وأن الله نصر المؤمنين بالإيمان والدين، لا يفكر بهذا.



وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه.
والله سبحانه قد بيّن في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة:
قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَصِّرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى)، عندهم أنهم لا يثقون بوعد الله أنه وعد النصر للمؤمنين والعاقبة للمتقين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن سوء الفهم في كتابه)، ومن سوء الفهم في كتاب الله. كتاب الله متضمن لقصاص الأولين والآخرين ليعتبر من يقرأه فيما يجريه الله سبحانه وتعالى، هم لا يعتبرون بكتاب الله، يقرؤونه ولكن لا يتدبرونه، وإنما قراءة عابرة على الألسنة، وليس لها نفوذ إلى بصائرهم، يقرؤونه بألستهم. وقد يقرؤونه للحرفة، يأكلون به فيقرؤونه في الحفلات وفي المناسبات، ويتخذون القرآن حرفة، يأخذون عليه أجرة يتكسبون به.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والله سبحانه قد بيّن في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة)، الله ناصر المؤمنين، تكفل للمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة، والله لا يخلف وعده سبحانه وتعالى.

ولكن قد يتبلى المؤمنين، ليمحصهم ويظهرهم ولينبههم على خطأ ارتكبوهم، فيتداركوا أنفسهم، فما يجري على المؤمنين هو من مصلحتهم.

وأما الكافر فإنها هو كالحمار، لا يدري لماذا ربطه أهله، ولا لماذا أطلقوه كما جاء في تشبيهه، الحمار يُربط ويُطَلَق ولا يدري لماذا رُبط ولا لماذا أُطْلِق، خلاف المؤمن فإنه يعتبر بما يجري، وما أصابه يكون تمحيص وتحليص.

أما ما يصيب الكافرين فإنه يكون تدميراً لهم، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْاَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١])، الله تكفل بنصر الرسل والذين آمنوا، تكفل بهذا ووعده وهو لا يخلف وعده سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَى.

فلو أصاب المسلمين نكسة أو شيء؛ فهذا لا يدوم بل هو من صالح المسلمين، يتراجعون ويفكرون في أمرهم ويستعدون بالقوة وبالعتاد.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبٰطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ءَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وءٰخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأهل الإيـان لا يصيبهم شيء إلا في صالحهم إما عاجلاً وإما آجلاً.



وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وهذا كثير في القرآن.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦])، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ ﴾: يكون من أولياء الله ومحبيه، من الولاية وهي الحب والإيمان.

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]، فيكون من حزب الله الغالبين الذين ضمن الله لهم الغلبة، وهو لا يخلف وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالمؤمنون لا ييأسون من نصر الله عَزَّجَلَّ مهما أصابهم لا ييأسون، وأما أهل النفاق فهم ييأسون، ويقولون نحن لو تقدمنا مع المؤمنين لأصابنا ما أصابنا، فنحن بقينا فسلمنا مما أصاب المؤمنين - كما يقولون - ويشمتون بالمؤمنين، ولا يعتقدون أن ما أصاب المؤمنين هو في صالحهم؛ فهو تخلص وتمحيص وتنبيه، وما أصاب الكفار فهو هلاك وزوال.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١])، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: يحادونه؛ بأن يكونوا في جانب، والله ورسوله في جانب.

أما المؤمنون فيكونون مع الله ومع رسوله، ولا يتخلون عن دينهم، مهما أصابهم، والعاقبة لهم، إذا فاتهم شيء في الدنيا فإن العاقبة لهم، فهم دائماً وأبداً بإيمانهم ناشطون، وإن أصابهم ما أصابهم لا ييأسون من رحمة الله.

لما أصيبوا في وقعة أحد لم يكلهم هذا، وإنما زادهم إيماناً وزادهم استعداداً للمستقبل، وزادهم توبة مما وقع منهم.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾: يعني في أحد.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾: في بدر.

﴿قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا﴾: ما السبب؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، السبب هو أنتم، سببه

أنتم، فتنبها وحاسبوا أنفسهم، واستدركوا أمرهم واستعدوا لعدوهم؛ فنصرهم الله سبحانه وتعالى.



وقد بيّن سبحانه فيه أنّ ما أصاب العبد من مصيبة، أو إدالة عدوّ، أو كسرٍ وغير ذلك، فبذنوبه. فبين سبحانه في كتابه كلا المقدمتين، فإذا جمعت بينهما تبيّن لك حقيقة الأمر، وزال الإشكال بالكليّة، واستغنيت عن تلك التكلّفات الباردة والتأويلات البعيدة. فقرر سبحانه المقام الأول بوجوه من التقرير: منها: ما تقدم.

ومنها: أنه ذمّ مَنْ يطلبُ النَّصرَ والعزّ من غير المؤمنين، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوَالَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمَلُهُمْ قَاصِبُونَ فَاصْبِرُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد بيّن سبحانه فيه أنّ ما أصاب العبد من مصيبة، أو إدالة عدوّ، أو كسرٍ وغير ذلك، فبذنوبه)، فالؤمن يعتبر أن هذه عقوبة على ذنب ارتكبه فيتوب إلى الله وينتبه، فيكون ما أصابهم لمصلحته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنها: أَنَّهُ دَمٌ مَنْ يَطْلُبُ النَّصْرَ وَالْعِزَّ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾)،
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾: تعتمدون عليهم وتثقون بهم، لا تتخذوهم أولياء.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني: اليهود لليهود، والنصارى للنصارى، أما المؤمنون فلا، ليسوا مع اليهود وليسوا مع النصارى، إنما هم مع المؤمنين، وإن أصاب المؤمنين ما أصابهم فإنه في صالحهم، وسيعوضهم الله عَزَّجَلَّ بعدما يمحصهم ويخلصهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾)، أولياء بالمحبة يعني وبالاعتماد عليهم، لا تتخذوهم.
لا مانع أن المسلمين يشترون الأسلحة من الكفار بما لهم، لم يأخذوه منةً من الكفار، فالكفار ليس لهم منة؛ لأن المسلمين اشتروه بما لهم، بل المنة لله ثم للمسلمين، فإن مصانع الكفار لا تعمر إلا بتمويل من المسلمين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾)، من يتولهم بالمحبة والمناصرة فإنه منهم، فهذا دليل على من أحب الكفار وناصرهم صار منهم، صار يهودياً أو نصرانياً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: لا يهديهم هداية توفيق، وإنما يهديهم هداية بيان فقط.
وأما هداية التوفيق فهي خاصة بالمؤمنين، الذين استجابوا لله وللرسول هؤلاء يهديهم الله جَلَّ وَعَلَا هداية التوفيق والتثبيت والتأييد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾،
﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾: يعني نفاق.

﴿ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾: في الكفار لإرضائهم، يسارعون لإرضاء الكفار، لماذا؟

يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة، نخشى أن ينتصر الكفار على المسلمين، لا يحسنون الظن بالله، فإذا انتصر الكفار على المسلمين فإن لنا يدٌ عند الكفار فلا يضرونا، هكذا يقولون، يجعلون لهم يدًا عندهم؛ من أجل أنهم لا يضرونهم لو انتصر الكفار.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾، ﴿ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾: تدور الأمور وينتصر الكفار ويكون لنا يدٌ عندهم لا يضرونا، هذا ما يقولونه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾، ﴿ فَعَسَى اللَّهُ ﴾، ﴿ فَعَسَى ﴾: يقولون من الله واجبة، فهذا وعد من الله جَلَّ وَعَلَا، وعد من الله للمسلمين.

﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾: بالفتح أي النصر، نصر المسلمين على الكفار.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾، أي يصبح هؤلاء المنافقون على ما أسروا في أنفسهم نادمين؛ حيث انعكس الأمر عليهم وصار النصر للمسلمين، وهم اتخذوا يدًا مع الكفار ولم ينفعهم الكفار، فأصبحوا نادمين -والعياذ بالله-.

المؤمنون لا يياسون مهما أصابهم، يثقون بالله عَزَّوَجَلَّ ولا يياسون من النصر ولو أصيبوا هذه المرة يرجون النصر في المستقبل، لا يياسون أبداً مهما أصابهم.
﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي: نصر المسلمين على الكفار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾: أو أمر من عند الله جَلَّوَعَلَا، دبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فِيُضَيِّحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، فيصبح المنافقون على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فِيُضَيِّحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ [المائدة: ٥١]، يعني مع المؤمنين.

﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾: بطلت أعمالهم بالنفاق، ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣]. والعياذ بالله، هذه الدائرة والدوائر التي تدور، وهذه عواقبها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قالوا: هذه الآية انطبقت على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لما ارتدت العرب بوفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثبت

الصَّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَزَمَ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ، فَعَمِرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَرَاجَعُ مَعَهُ، وَقَالَ: تَقَاتِلُهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! فَأَصْرَ الصَّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَعَلِمَ عَمْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِثَبَاتِهِ وَعَدَمِ تَرَدُّدِهِ، فَقَاتَلَ الْمُرْتَدِينَ حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَحَتَّى كَبَحَ شَرَّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿مُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ذَلِكُمْ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿﴾، وَهَذَا فِي الْمِثْلِ يَقُولُونَ: رِدَّةٌ، وَلَا أَبَا بَكْرٍ لَهَا. قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، ﴿وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾: أَي نَاصِرِكُمْ وَمُؤَيِّدِكُمْ وَمُحِبُّوكُمْ الَّذِي تَحِبُّونَهُ: هُوَ اللَّهُ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: وَلَيْسَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٩٩، ١٤٠٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ
 الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ولو أنهم حصل عليهم ما حصل فالنتيجة يغلبون فيما
 بعد، نتيجة لثباتهم على الحق وجهادهم في سبيل الله فإن الله ينصرهم ويجعل
 الكرة لهم.



فأنكر على مَنْ طلب النصر من غير حزبه، وأخبر أن حزبه هم الغالبون. ونظير هذا قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُّوا عَنْهُمْ أَعَزَّةً فِإِنَّ أَعَزَّةً لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأنكر على مَنْ طلب النصر من غير حزبه، وأخبر أن حزبه هم الغالبون)، من طلب النصر من غير حزب الله - من غير المؤمنين - فإنه سيكون مغلوبًا.

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]: سينتصرون عليه، ينتصر عليه حزب الله ولا يكون هو من حزب الله، بل يكون مغلوبًا، فيجب الثقة بالله وينصر الله ووعده الله، وإن أصاب المسلمين ما أصابهم فإن العاقبة للمتقين كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونظير هذا قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُّوا عَنْهُمْ أَعَزَّةً فِإِنَّ أَعَزَّةً لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، أي: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾: أي أخبرهم بخبر يظهر أثره على بشرتهم من الندم.

التبشير يكون بالخير ويكون بالشر، فيبشر المؤمن بالجنة ويبشر الكافر والمنافق بالنار، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨])، لما كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في غزوة بني المصطلق حصل بين مهاجريّ وأنصاريّ مشادة، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فكلُّ نادى جماعته، فغضب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «أَبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»^(١)، غضب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الكلام؛ لأن المؤمنين إخوة، ليس بينهم تفريق.

فإذا قال عدو الله، رأس المنافقين، ابنُ أبيّ؟

قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. يقصد بالأذل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأعز هو رأس المنافقين! قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، فكانت العزة للمؤمنين، والحمد لله.



(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال: ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال صاحب المثل: سَمَّنْ كَلْبَكَ يَا كُتْلَكَ^(١)،
يعني: أن المهاجرين كلاب، ونحن نصرناهم وآويناهم، فشبهم بالكلاب!
وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا
بطاعة الله من الكلم الطيب والعمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَهْدَىٰ وَدِينٍ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾)،
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾: يعني القوى والمنعة.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾: يطلبها من الله عَزَّجَلَّ، لا يطلبها من الكفار، أو من
المنافقين، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ [فاطر: ١٠]. يطلبها من الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾)،
﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: من أين تنال العزة؟

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. هذا
سبب العزة، الكلم الطيب: ذكر الله عَزَّجَلَّ، تلاوة القرآن، تَعَلَّمَ العلم النافع.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢ / ٢٩١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤ / ٥٢)، وتفسير ابن كثير
(٤ / ١٧٩) و(٨ / ١٢٨).

﴿وَأَعْمَلُ الصَّالِحِ يُرَفَعُهُ﴾: الكلام الطيب لا يرتفع إلا إذا صحبه عمل، أما مجرد كلام وليس معه عمل فلا قيمة له.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠])، الكلم الطيب ب لا يرتفع إلا بالعمل الصالح، يعني يصحبه عمل صالح.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨])، ﴿هُوَ﴾: أي الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾: محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: الهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فالله أرسل رسوله بالعلم النافع والعمل الصالح، هذا الذي أرسل الله به رسوله.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: على جميع الأديان في الأرض، وقد أظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإِسْلَامَ؛ فبلغ المشارق والمغارب.



وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنْكُمْ عَلَىٰ نَجْوِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمِ ۗ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠-١٣]، أي: ويعطيكم أخرى فوق مغفرة الذنوب ودخول الجنة، وهي النصر والفتح، إلى قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنْكُمْ عَلَىٰ نَجْوِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمِ ۗ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾)، التجارة تجارتان: تجارة بالمال والبيع والشراء، وتجارة بالأعمال الصالحة، والتجارة التي تنجي من عذاب الله: هي العمل الصالح.

﴿هَلْ أَذُنْكُمْ﴾: يعرض علينا ربنا سُبحانه وتعالى.

﴿هَلْ أَذُنْكُمْ عَلَىٰ نَجْوِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمِ﴾: ما هي؟

﴿تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١١، ١٢] إلى آخر الآيات.

هذه التجارة، تجارة رابحة، التجارة مع الله هي التجارة الرابحة، التجارة مع الله بالعمل الصالح، فالذي يريد هذه التجارة يطلبها بالعمل الصالح.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾،
﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾: في الدنيا ينصركم الله.

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾: يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَكُمْ فِي
جهادكم وجهودكم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إلى قوله: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾
[الصف: ١٤])، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾: والحواريون هم أتباع عيسى، أصحابه الذين آمنوا معه هم
الحواريون. ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ ﴾: أي لا تباعه. ﴿ مِّنْ أَنصَارِي
إِلَى اللَّهِ ﴾ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴿ [الصف: ١٤]. في سورة آل عمران: ﴿ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامِنًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾
[آل عمران: ٥٢]. وفي سورة الصف: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إلى قوله: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾
[الصف: ١٤])، ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: قوبناهم ونصرناهم.
﴿ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾: من الكفار.

﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤]، بالنصر، أظهرهم الله جَلَّ وَعَلَا ونصرهم
وأيدهم؛ نتيجة الإيمان والصدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وقال تعالى للمسيح: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فلما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى للمسيح: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥])، اجتمع اليهود يريدون قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاؤوا به ليقتلوه، أو حاصروه ليقتلوه.

عادتهم أنهم يقتلون الأنبياء؛ قتلوا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقتلوا يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأرادوا أن يقتلوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ استمرازا في سيرتهم الخبيثة.

اجتمعوا لقتله ودخلوا عليه ليقتلوه، فألقى الله شبهه على رجلٍ ذلهم على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فأخذوه وقتلوه، ورفع الله عبده ورسوله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رفعه الله حيا ولا يزال حيا، وسينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة الإسلام، ويقيم شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكون من أتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يقبضه الله حينذاك قبض الوفاة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة)، ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾: اتبعوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وهم اليهود.

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وهذا شيء ظاهر، النصارى الآن فوق اليهود وسيستمر ذلك، النصارى فوق اليهود؛ لأنهم آمنوا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود كفروا به.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وأنتم ترون الآن النصارى فوق اليهود ويتحكمون في اليهود.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة)، إذا كان مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النصارى فوق اليهود، فإن المؤمنين من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكونون أولى بهذا منهم؛ فَهُمْ آمَنُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إيماناً حقيقياً؛ فيكونون فوق الذين كفروا.



وقال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٣) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿[الفتح: ٢٢، ٢٣]، فهذا خطابٌ للمؤمنين الذين قاموا بحقائق الإيمان ظاهرًا وباطنًا.

وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣]، وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِي﴾ [طه: ١٣٢]. والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة، لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح، ونصره وصبره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، أي: عاقبة النصر لك ولن معك، كما كانت لنوح ومن آمن معه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٣) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿[الفتح: ٢٢، ٢٣]، ولو قاتل الكفار المسلمين؛ فإن الله ينصر المسلمين، هذا وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ﴾: يعني ينصركم الله عليهم، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾ [طه: ١٣٢].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْقِينَ﴾ [هود: ٤٩])،
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: تلك الآيات العظيمة والأخبار الصادقة من أنباء
وأخبار الغيب الماضي، أنت لم تحضرها ولم تشهدها يا محمد.

فهذا دليل على رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف أنه يخبر عن شيء لم يحضره
ولم يعايشه إلا أن الله هو الذي أخبره بذلك؟

فهذا من معجزات هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن آيات رسالته وصدقته
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه يخبر عن أمور ماضية وسحيقة في القدم ويقصها؛ كأنه قد
حضرها؛ لأن الله أوحاها إليه وأعلمه بها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾)،
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: يعني الأمور الغائبة الماضية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ﴾)، ﴿مَا كُنْتَ
تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ ولا قومك العرب، فالعرب لم يكونوا يعلمون هذه
الأمور التي ذكرها الله في القرآن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾)، من قبل أن ينزل عليك القرآن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْقِينَ﴾ [هود: ٤٩])، فاصبر على
ما يصيبك وما يحصل لك أنت وأتباعك من المشاق والمكاره، ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ
لِلْمُنْقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أي: عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح ومن آمن معه)، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يؤمن معه إلا قليل يقال أنهم مائة وأربعون أو نحو من ذلك، رغم أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، ومع هذا لم يؤمن معه إلا قليل.

انظر! أتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كم هم؟ أتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحصيهم عدد.

﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، مع أن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما ذكر الله في سورة نوح أنه عرض عليهم، وأنه دعاهم سرًّا ودعاهم جهرًا، وأنه تلطف معهم وأنه، وأنه، في سورة نوح كله مذكور، ولكن لم يؤمن معه إلا قليل.



وكذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزَقْنَاكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِي﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِي﴾ [طه: ١٣٢]. والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة، لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح، ونصره وصبره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. أي: عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح ومن آمن معه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزَقْنَاكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِي﴾ [طه: ١٣٢])، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾: مَنْ فِي بَيْتِكَ يَعْنِي.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾: مَنْ تَحْتَ يَدِكَ وَمَنْ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلايَةٌ فِي بَيْتِكَ خُصُوصًا، وَإِلَّا أَنَّهُ يَأْمُرُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعَ النَّاسِ لَكِنْ أَهْلُهُ بِالْخُصُوصِ، وَكَيْفَ يَتَعَدَّى أَهْلُهُ وَيَأْمُرُ النَّاسَ؟ لا، يَبْدَأُ بِأَهْلِهِ أَوَّلَ شَيْءٍ.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: لِأَنَّ الَّذِي يَأْمُرُ وَيُنْهَى يَشْتَقُ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيَعَارِضُهُ النَّاسُ، لَكِنْ يَصْبِرُ.

﴿وَأَصْطَرِ عَلَيْهِمَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢].

كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

﴿وَأَصْطَرِ عَلَيْهِمَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

قوله رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَإِضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠])، ﴿وَأِنْ تَصَبَّرُوا﴾: على دينكم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: تتقوا الله. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: لا يضركم كيد الكفار؛ إذا تمسكتم بدينكم وصبرتم عليه وعلى ما ينالكم.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قوله رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣])، وقال:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢])، لما ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن ما يجري في هذه الدنيا من المداورات بين الحق والباطل، وبين أهل الحق وأهل الباطل فإن الله سبحانه وتعالى يجعل العاقبة للمتقين، وقبل العاقبة يكون هناك مداورات بين الحق والباطل للابتلاء والامتحان.

ولكن النهاية -النهاية الحسنة- تكون لأهل الحق وللحق، ولكن هذا يحتاج من أهل الحق إلى صبر، وعدم يأس، وعدم استبطاء النصر، فلا بد من الصبر، ثم مع الصبر تكون العاقبة للمتقين، تكون العاقبة للتقوى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمراد: العاقبةُ في الدنيا قبل الآخرة)، قد يفهم بعض الناس أن المراد بالعاقبة يعني في الآخرة، لا، في الدنيا قبل الآخرة وهذا شيء مُشاهد، ما يجري بين الحق والباطل، وأن أهل الحق ينتصرون في النهاية، هذا شيء معروف في تاريخ البشرية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لأنه ذكر ذلك عَقِيبَ قصة نوح، ونصره وصره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩])، الله جَلَّ وَعَلَا قص على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جرى للأنبيا من قبله من نوح وما بعده، وهذا موجود في القرآن.

ثم قال الله لنبينا: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَقِيبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

والله جَلَّ وَعَلَا لا يخلف وعده، فالمتقون لهم العاقبة الحسنة في الدنيا وفي الآخرة، فالؤمن إذا ذكر هذا فإنه يطمئن ويصبر ولا يستعجل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾)، هذا من معجزات هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو لم يدرك هذه الأمم ولم يرى ما حصل بينها، ولكن الله أخبره بذلك وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أعلمه شيئاً لم يشاهده ولم يحضره؛ ليكون ذلك دليلاً على صدقه ومعجزه له.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ﴾: يا محمد.

﴿وَلَا قَوْمَكَ﴾: وهم العرب، لم يكونوا يعلمونها إلا أن الله ذكرها في القرآن وقصّها عليهم في القرآن كأنهم يشاهدونها ويحضرونها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، فاصبر على ما يكون من أذى الكفار ومن مكيدتهم؛ فإن العاقبة لك ولقومك.

﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: علق العاقبة بهذا الوصف: التقوى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أي: عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح ومن آمن معه)، كانت العاقبة لنوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على قومه أن أغرقهم الله وَأَنْجَاهُ، ومن معه في السفينة التي صنعها نوح بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥].

والبقية غرقوا، تفجرت عليهم الأرض من تحت أرجلهم وأمطرت عليهم السماء من فوقهم، فالتقى الماء من السماء والأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَّ قُدْرًا﴾ [القمر:١٢] حتى غطى الجبال وغرقوا جميعاً، إلا من كان مع نوح في السفينة.



وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢])، يقول الله جَلَّ وَعَلَا لنبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾: الصلاة سواء كانت مفروضة أو نافلة؛ لأن الصلاة صلةٌ بين العبد وبين ربه، يقف بين يدي ربه ويناجيه ويدعوه، ويركع ويسجد أمام ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالصلاة عبادة عظيمة تشتمل على أنواع من العبادات القولية والفعلية، فهي عبادة مبتدئة بالتكبير ومختتمة بالتسليم أقوال وأفعال، هذه هي الصلاة. وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهذا في الصلاة، ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]: يعني اقترب من ربك، فالسجود يقربك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فالصلاة عظيمة وهي صلة بين العبد وبين ربه، ولذلك فرضها الله في اليوم والليلة خمس مرات في كل مرة يقف العبد بين يدي ربه ويدعوه ويشني عليه ويذكره، فهي عبادة عظيمة لمن عقلها وتدبرها.

خلاف الذي يتحرك ويركع ويسجد بدون حضور قلبه، ودون خشوعه فإن صلاته لا تنفعه، فصلاة المنافقين لا تنفعهم؛ لأنهم لا يأتونها رغبة فيها، وإنما يأتونها مداراة أو يأتونها من باب العادة ولا يجدون لها لذة ولا يجدون فيها راحة.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستريح في الصلاة من هموم الدنيا، فإذا اشتد عليه الأمر وضاعت عليه الدنيا قال: «يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»^(١)، فيرتاح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة، ولم يقل: أَرِحْنَا مِنْهَا، بل قال: «أَرِحْنَا بِهَا».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾)، ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: اصطبر عليها، تحتاج إلى صبر، الذي لا يصبر لا يمضي في الصلاة، بل يمل ويتركها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، الله لم يطلب من نبيه رزقاً؛ لأن الله هو الرزاق بيده الرزق، ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

لم يطلب منه رزقاً ولا إعانة، وإنما أمره بالصلاة لمصلحته هو، المصلحة فيها للبعد وكل الطاعات مصلحتها ترجع للبعد، أما الله فإنه غَنِيٌّ عنها، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

«يَا عِبَادِي لَوْ كَانَ أَوْلَاكُمْ وَأَخْرَكُكُمْ وَإِنْسَكُكُمْ وَجِنُّكُمْ عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا».

وَلَوْ أَنَّ أَوْلَاكُمْ وَأَخْرَكُكُمْ وَإِنْسَكُكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»^(٢)؛ فالعبادة راجعة إلى العبد، أمره الله بها لمصلحته هو وحاجته إليها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، العاقبة تكون لأهل التقوى.

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال تعالى - إخبارًا عن يوسف أنه نصرَ بتقواه وصبره - فقال: ﴿أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠])، ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾: تصبروا على ما أصابكم، وتتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا يضركم كيد الكفار شيئًا فإن الله معكم، ومن كان الله معه فإنه لا يُغلب، ولا يخسر؛ لأن الله معه معية خاصة يُعِينُهُ ويسدده ويرزقه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥])، الملائكة تنزل مع المسلمين وقت جهاد الكفار، وقت اللقاء، إلا أن الملائكة لا تقاتل ولا تحمل السلاح، ولكنها تثبت المسلمين؛ ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

فهم ينزلون يثبتون المؤمنين ويطمئنونهم، ويحجزون لهم الكفار حتى يلحقوا بهم ويقتلوهم، فجاءت الملائكة في بدر مع المسلمين، وجاءت الملائكة

يوم أحد مع المسلمين، وتأتي مع المسلمين، إذا صدق المسلمون مع ربهم أنزل الله الملائكة تثبتهم وتعينهم وتقويهم، وتلقي الرعب في قلوب الكفار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى - إخباراً عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ نُصِرَ بِتَقْوَاهُ وَصَبْرِهِ - فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠])، لما دخل إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه محتاجين، فقراء، يريدون الميرة لقومهم، يريدون أن يكتالوا من الخزائن التي عليها يوسف حفيظ عليها، فلم يعرفوا يوسف في الأول، ولكن في النهاية عرفوه؛ ﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنَّ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ [يوسف: ٩٠]، لأنه طلب منهم أن يحضروا أخاهم بنيامين أولاً، فأحضره فأمسكه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمكيدة، وهي أنه أمر قومه أن يضعوا صواع الملك في رحل أخيه، وكان صواع الملك من ذهب، فنادوهم: ﴿أَيُّتْهَا أَعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠، ٧١].

﴿قَالُوا﴾: أي إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأقبلوا على من ناداهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حَمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٢]: يعني من جاء بصواع الملك وَرَدَّهُ نَعَطِيهِ حَمْلٌ بَعِيرٍ مَكَافَاةً لَهُمْ.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾: يعني: كفيل بهذا الوعد، ففتشوا في أحمال القافلة لم يجدوا فيها شيئاً، ثم وجدوا الصواع في رحل أخيه يوسف بنيامين؛ فأمسكه يوسف عنده وحبسه.

قالوا أيها الملك: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾: يعني يعقوب، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا ﴿يوسف: ٧٨، ٧٩﴾. فرجعوا إلى أبيهم وهم في غاية الندامة، بماذا يواجهون أباهم؟ وقد فقدوا أخاهم وهم متكفلون بإحضاره والرجوع به، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]. فرجعوا إلى أبيهم فقالوا: ﴿يَتَأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ: أي أهل القرية، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢]. وعند ذلك استرجع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربه وسلم الأمر لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا حيلة له، فالحاصل أن العاقبة للمتقين، العاقبة صارت ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخيه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقال): ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، لما دخلوا عليه في المرة الثانية ووجدوا عنده سعة الصدر والرحابة وحسن الضيافة، وأنه كالهم ووفى لهم الكيل، ﴿قَالُوا أَيْنَ نَتَّكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾: لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

لما ذكر لهم ذلك قالوا: ﴿أَيْنَ نَتَّكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾.

الشاهد عند هذه، ﴿ إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

﴿ إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ ﴾: الله جَلَّ وَعَلَا ويصبر على ما أصابه ولا يستعجل،

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].



وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩]، والفرقان: هو العز والنصر والنجاة والنور الذي يُفَرِّق بين الحق والباطل.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩])، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾: يعني يجعل في قلوبكم معرفة الحق من الباطل، والفرق بينها.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩]، فالتقوى تفيد هذه الفائدة العظيمة: أن الله يجعل في قلب صاحبها الفرقان الذي يعرف به الحق من الباطل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣])، والله علَّت على التقوى خيرات كثيرة في آيات كثيرة، منها ما ذكره الله في هذه الآية، وهي:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾)، يجعل له مخرجًا من كل ضائقة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ويأتيه رزقه من حيث لا يحتسب ولا يدري، يأتيه من جهة لا يدري أنه يأتي منها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ومن يعتمد على الله، ﴿يَتَوَكَّلْ﴾: يعني يعتمد على الله، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: كافيه، حسبه يعني كافيه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾: أمر هذا العبد ومسده ورازقه بسبب التقوى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: أي مقدارًا وتقديرًا يقدره سبحانه وتعالى.

فالأمور بالمقادير ليست الأمور مضیعة، وإنما هي مقدرة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].



وقد روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوْسَعَتْهُمْ»^(١).

فهذا في المقام الأول.

وأما المقام الثاني، فقال تعالى في قصة أُحُدٍ: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوْسَعَتْهُمْ»)، هذه الآية، وهي؟
 ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].
 لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم وكفاهم الله من كل ما يهتمهم، وإنما يقصرون في العمل بهذه الآيات وهذه البيئات، فيؤتون من تقصيرهم وغفلتهم وضعف توكلهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال تعالى في قصة أُحُدٍ: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥])، في أحد حصل على المسلمين نكبة. لما التقى المسلمون والكفار عند جبل أحد -الجبل المعروف عند المدينة- الكفار جاؤوا يغزون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعهم الأحزاب من كل القبائل يريدون القضاء على الرسول وعلى دعوته.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٠)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٣٢).

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تقابل مع المشركين، كان المشركون كثيرين بأعداد وأحزاب كثيرة، والذين مع الرسول قلة بالنسبة إلى عدد المشركين.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظم المسلمين وجعل على الجبل جماعة من الرماة الحاذقين في الرمي يحمون ظهور المسلمين، فصار المسلمون محمية ظهورهم، ففرغوا القتال الكفار.

فلما التقوا والمسلمين محمية ظهورهم؛ لا يأتيهم أحد من الخلف انتصر المسلمون، ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. تقتلونهم، ﴿تَحْسُونَهُمْ﴾: يعني تقتلونهم، ﴿بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وذلك أنه لما أخذ المسلمون يجمعون المغانم قال الذين على الجبل: نزل، انتهت المعركة نزل، ونشارك إخواننا في المغانم ونجمعها معهم.

فقال لهم رئيسهم: أليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لكم لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هُزِمنا، لا تتركوا الجبل، لكنهم عصوا ونزلوا يظنون أن المعركة انتهت. فلما نظر خالد بن الوليد - وكان مع الكفار قبل إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى الجبل وجده فارغاً فدار وانقضَّ على المسلمين من خلفهم، فوقع المسلمون بين الكفار من الأمام ومن الخلف. فدارت المعركة من جديد وحصل على المسلمين نكبة، قُتِلَ منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون، صارت معركة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُصِيبَ، انهشم المغفر على رأسه، وغاصت منه حلقتان في رأس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفرة. فحصلت مصيبة عظيمة على المسلمين بسبب أن الرماة تركوا الجبل، فهذه معصية

للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَكِبَ المسلمون بسبب هذه المعصية لما خالفوا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزلوا عن الجبل، وكان قال لهم: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ»^(١)؛ فلما عصوا أو عصى بعضهم صار شؤم هذه المعصية على الجميع.

فهذه ثمرات المعاصي - والعياذ بالله - حتى مع أفضل الخلق وهم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَحَدٍ: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾)، يعني في بدر، ﴿قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾: في بدر، قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾)، ما هو سبب ما أصابنا؟ ما هو الجواب؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥])، ﴿قُلْ هُوَ

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: السبب من عندكم أنتم.

لما عصيتم أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصلت المصيبة حتى على من

لم يعص؛ لأن العقوبة إذا نزلت تعم، فعمت من لم يعص.



وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران: ١٥٥])، في وقعة أحد هناك ناس يعني خرجوا يريدون القتال ثم إنهم تراجعوا.

﴿ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾، هو الذي أوقعهم في هذه المعصية وتراجعوا عن القتال.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران: ١٥٥])، يعني سلط الله عليهم الشيطان ببعض ذنوبهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠])، وقال تعالى مبيِّناً أن المصائب عقوبة على المعاصي، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾)، ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾: أي مصيبة.

﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب ذنوبكم، فالمسلم يحاسب نفسه والمسلمون يحاسبون أنفسهم وينقوا أنفسهم من المعاصي.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولو أخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لكن الله يعفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١])، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: الفساد معناه: ما يصيب الناس في البر من تسلط العدو ومن القحط والجذب، وفي البحر ما يصيب السفن والمراكب من الغرق، كل هذا بسبب الذنوب والمعاصي.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

والحكمة: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، يعني يتوبون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وقال تعالى: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ
سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا
وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨])،
﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا﴾، من الله جَلَّ وَعَلَا مِنَّا منه وفضلاً.

﴿رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾: والمراد بالفرح هنا: فرح الأشر والبطر، وإلا
الفرح بنعمة الله مطلوب، لكن لا يكون فرح أشر واطر كفرح قارون: ﴿لَا
تَفْرَحْ﴾ هذا فرح الأشر والاطر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨])، ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: بسبب ما قدمت أيديهم من
الذنوب والمعاصي.

﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾: ينسى نعم الله عليه وينسى ما أعطاه الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ
تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦])، يفرحون عند
السراء ويقنطون عند الضراء، هذه صفة الإنسان إلا من رحم الله عَزَّجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]؛ ولهذا أمر الله سبحانه رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته وهو المقدمة الأولى، وأمر بانتظار وعده، وهو المقدمة الثانية.

وأمر بالاستغفار والصبر، لأن العبد لا بد أن يحصل له نوع تقصير وسرف يزيله الاستغفار، ولا بد في انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد.

وقد جمع الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿ فَأَصْبِرْ إِنِّي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه قصص الأنبياء وأتباعهم، وكيف نجّاهم بالصبر والطاعة، ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٤])، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) ﴿ إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

هذا من آيات الله: أن المراكب البحرية المحملة تقف على ظهر الماء ولا تغوص فيه، هذا من رحمة الله سبحانه وتعالى، ولو شاء لأغرقها ولغاصت في الماء، سفن محملة، ومراكب ضخمة تقف على الماء، هذا من آيات الله سبحانه وتعالى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤])، ﴿يُوبِقَهُنَّ﴾ أي: يهلكهن بالغرق في الماء.

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بسبب ذنوبهم.

﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾: من ذنوب العباد، ولو يؤاخذهم الله بذنوبهم لهلكوا، لكنه يعفو عن كثير من ذنوبهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩])، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾: والمراد بالحسنة هنا: سعة الرزق والخصب في الأرض والنبات، هذا تَفَضُّلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾: أي من عقوبة، ﴿فَمِنَ نَفْسِكَ﴾: سببها أعمالك وكسبك السيء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأمر بالاستغفار والصبر، لأن العبد لا بدّ أن يحصل له نوع تقصير وسرف يزيله الاستغفار)، الاستغفار له مكانة عند الله عَزَّجَلَّ وهو طلب المغفرة، ليس باللسان، وإنما طلب المغفرة باللسان وبالقلب، أما الذي يقول: أستغفر الله، بلسانه فقط ولا يستغفر بقلبه فهذا لا ينفعه الاستغفار.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لأن العبد لا بدّ أن يحصل له نوع تقصير وسرف يزيله الاستغفار، ولا بدّ في انتظار الوعد من الصبر)؛ لأن الإنسان محل التقصير فيحتاج إلى الاستغفار، ولذلك شرع الله الاستغفار بعد العبادة.

فإذا صليت وسلمت من الصلاة تستغفر الله ثلاثاً^(١)، إذا قمت من المجلس تستغفر الله كفارة المجلس^(٢)، في ختام العمر تستغفر الله.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي

دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢]: هذه علامات أجل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]: أمره

أن يختم حياته بالاستغفار والتوبة مع أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل مسلم بحاجة إلى الاستغفار والتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبالصبر يتم اليقين بالوعد)، يعني إذا تأخر المطلوب

يصبر، فلا يستعجل ويقنط ويقول: دعوت ودعوت فلم يستجب لي، لا، يصبر وينتظر الفرج.

(١) أخرج مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

(٢) أخرج الترمذي (٣٤٣٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَفْظُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا عُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ». قال الترمذي: (هذا حديث حسنٌ صحيحٌ غريبٌ).

(٣) أخرج مسلم (٤٨٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحَدْتَهَا تَقُولُهَا؟ قَالَ: «جُعِلَتْ لِي عَلَامَةً فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتَهَا قُلْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد جمع الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿فَأَصْبِرْ إِيَّاكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقُّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥])، ﴿فَأَصْبِرْ﴾: أيها الرسول.

﴿إِيَّاكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقُّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾: صبر واستغفار، هذا الذي أمر الله به رسوله وهو أمرٌ للأمة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَسَيِّحْ﴾: أي نزه ربك، التسبيح هو التنزيه، أي: نزه ربك عن ما لا يليق به من الشرك ومن النقائص والعيوب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥])، ﴿بِالْعَشِيِّ﴾: يبدأ العشي من زوال الشمس، دخول وقت الظهر.

﴿وَالْإِبْكَرِ﴾: أول النهار، الفجر، صلاة الفجر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١])، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾: أي قصص الأنبياء وأمهم مما ذكره الله في كتابه لنا.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ أي: عظة.

﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول، الذين يتفكرون بالقصص ويستفيدون منها هم أصحاب العقول.



فصل

وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة:
الأصل الأول: أن ما يصيبُ المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون
ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه
الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الأصل الأول: أن ما يصيبُ المؤمنين من الشرور والمحن
والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك)، قال رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى في
المصائب: ما يصيب المسلمين من المصائب أكثر مما يصيب الكفار، وذلك؛
لأن المسلمين يحصون بالمصائب ويُطهَّرون بها، وأما الكفار فإنها هي زيادة
عذاب لهم.

والمسلمون تقتصر عقوباتهم في الدنيا، أما الكفار عقوباتهم -والعياذ
بالله- في الآخرة، فلذلك تقلُّ عقوباتهم في الدنيا ويُمْتَعون فيها.

وأتم ترون -الآن- الكفار وما عندهم من القوة ومن الأموال ومن
الحضارة، متاع قليل، وليس لهم عاقبة إلا النار -والعياذ بالله- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَمْتَنِعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير)، ما يصيب الأبرار، جمع بر: وهو التقي العابد من البر.

الأبرار: مأخوذ من البر، ما يصيبهم أكثر مما يصيب الكفار؛ لأن ما يصيب المؤمنين يخلصهم الله به من عقوبة الآخرة ويطهرهم به، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].



الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرونٌ بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعوّهم على الصبر والاحتساب، وذلك يُخفّف عنهم ثقلَ البلاء ومؤوّنته، فإنهم كلّما شاهدوا العوّض هان عليهم تحمّل المشاقّ والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم.

وقد نبّه سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهْتَفُوا فِي آبِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلّقى من الله تعالى.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرونٌ بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعوّهم على الصبر والاحتساب)، المسلمون مصائبهم مقرونة بالرضا عن الله سبحانه وتعالى.

يعلمون أن ما أصابهم فهو في صالحهم؛ يمحصهم الله به ويخلصهم من ذنوبهم، فهم تفرّ أعينهم بذلك، ويصبرون على ما يصيبهم؛ لأن الله يسليهم بما أمّاهم من النعيم ومن الجزاء الذي لا تتصوره العقول.

خلاف الكافر ليس له مستقبل إلا النار، المسلم له مستقبل في الآخرة يؤمّله ويرجوه وتفرّ عينه به، وأما الكافر فليس له مستقبل إلا النار - والعياذ بالله -.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإن فاتهم الرضا فمعوّ لهم على الصبر والاحتساب، وذلك يُخَفِّف عنهم ثقل البلاء ومؤونته)، الصبر يخفف عنهم ثقل الابتلاء.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، فالصلاة تعينهم على المصائب.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]: هذه المعية معية رحمة ومعية نصر وتأييد، معية خاصة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم)، ليس لهم في صبرهم أجر، وليس في صبرهم له عاقبة، فهم كالبهائم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقد نبّه سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤])، ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي لا تضعفوا.

﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾: الكفار في قتالهم وما ينالكم في القتال من المشاق؛ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فالمسلمون يصبرون، أعطاهم الله الصبر الذي يغطي ما يصيبهم من الآلام.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾،
 ﴿إِنْ تَكُونُوا﴾: أيها المؤمنون، ﴿تَأْلُمُونَ﴾: أي تتوجعون، فإن الكفار
 ﴿يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾.

وهم لا عاقبة لهم إلا النار؛ فهذا الألم الذي يصيبهم مقدمة لألم أكبر منه
 في الآخرة، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾: هذا الذي يسلي المؤمنين أنهم
 يرجون العاقبة الحميدة، وأما الكفار فليس لهم عاقبة إلا النار، ليس لهم
 عاقبة تسليهم وتصبرهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿وَتَرْجُونَ مِنْ
 اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: ولا يزال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
 ﴿عَلِيمًا﴾: بكل شيء.

﴿حَكِيمًا﴾: فيما يأمر به وما ينهى عنه وما يشرعه لحكمة.
 والحكمة: وضع الشيء في موضعه، الله حكيم له معنيان:
 من الحكمة وهي وضع الشيء في موضعه، هذا واحد.
 الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم بمعنى متقن للأشياء من الأحكام
 والإتقان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلْفَى
 من الله تعالى)، اشتركوا في الألم، ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا
 تَأْلُمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

لكن امتاز المؤمنون؛ بأنهم يرجون من الله من المستقبل الطيب ما لا يرجون أي: ما لا يرجوه الكفار؛ لأنه ليس أمامهم إلا ما هو أشد وأنكى وهو العذاب المتواصل -و العياذ بالله-.



الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أُوذِيَ في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يُحْمَل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله.

وهذا من دَفَع الله عن عبده المؤمن، فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دَفَع عنه ثقله ومؤونته ومشقته وتبعته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أن المؤمن إذا أُوذِيَ في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يُحْمَل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله)، أنه -المؤمن- إذا أصابه شيء وآلمه شيء فإنه يتسلى ويتحمل؛ لأنه يرجو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ والنصر في الدنيا، والعاقبة في الآخرة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لا بد له من شيء منه دَفَع عنه ثقله ومؤونته ومشقته وتبعته) فالمؤمن إذا أصابه ما يؤلمه فهناك ما يحمل هذا الألم عنه من وعد الله جَلَّ وَعَلَا بنصره، وبوعد الله بجنته، وبوعد الله جَلَّ وَعَلَا فيما عنده من الخير للمؤمنين.

فالمسلمون تقر أعينهم بذلك ويصبرون على المصائب؛ لأنهم يترقبون الفرج من الله عَزَّ وَجَلَّ.



الأصل الرابع: أن المحبّة كلّما تمكّنت في القلب ورَسَخَتْ فيه كان أذى المُحِبِّ في رضا محبوبه مُسْتَحْلِي غير مسخوط، والمحبُّون يَفْتَخِرُونَ عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لَئِن سَاءَ نِي أَن نَلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَائِكِ^(١)

فما الظنُّ بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمةً منه له وإحسانٌ إليه؟!

الشَّرح

قوله رَحْمَةٌ أَلَلَهُ: (فما الظنُّ بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمةً منه له وإحسانٌ إليه؟!)، إذا تذكروا هذا، أن الله جَلَّ وَعَلَا يمتحنهم لا يهلكهم ويدمرهم، وإنما ليذكرهم بخطئهم ليتجنبوه، يريهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم تكون العاقبة الحميدة والمستقبل المشرق، فالمؤمن يتحمل ما يصيبه إذا تذكر هذا.



(١) أورده الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (٢/ ١٣٤) منسوبة لابن الدُّمَيْنَةِ.

الأصل الخامس: أن ما يصيبُ الكافرَ والفاجرَ والمنافقَ من العِزِّ والنصرِ والجاهِ دون ما يحصلُ للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذُلٌّ وكسرٌ وهوانٌ، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قال الحسنُ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّهُمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَطَقَطَقَتْ بِهِمُ النَّعَالُ، إِنَّ ذُلَّ الْعَصِيَةِ لَفِي قُلُوبِهِمْ؛ أَبِي اللهُ إِلَّا أَنْ يُذَلَّ مَنْ عَصَاهُ^(١).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أن ما يصيبُ الكافرَ والفاجرَ والمنافقَ من العِزِّ والنصرِ والجاهِ دون ما يحصلُ للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذُلٌّ وكسرٌ وهوانٌ، وإن كان في الظاهر بخلافه)، ما يصيب المؤمنين ينجر بها لهم عند الله عَرَجَلٌ، وهذه المصيبة يؤجرون عليها ويخلصهم الله بها من خطاياهم ومن خطئهم، فهي في صالحهم.

إذا تذكروا ذلك هانت عليهم المصائب، وتذكروا أن الله لا يصيبهم؛ لأنه يبغضهم وإنما يصيبهم؛ لأنه يحبهم، ومن محبته لهم أنه يخلصهم من ذنوبهم ويمحصهم ويدخر لهم الأجر والثواب الذي يجدونه.

ولا شك الدنيا دارٌ كَدْرٍ؛ حتى وإن أُعطي الإنسان فيها ما يعطى من النعمة إلا أن ما في قلبه وخوفه من المستقبل يكدر عليه هذه النعمة التي هو يغفل بها.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/١٤٩) بنحوه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ)، الحسن البصري رَحْمَةُ اللَّهِ إمام التابعين كلامه يشبه كلام الأنبياء؛ لأن الله أعطاه هذا العلم النافع؛ فكلماته كلها تنضح بالخير، من ذلك هذه الكلمة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إِنَّهُمْ) أي: الكفار.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَطَقَطَقَتْ بِهِمُ النَّعَالُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَفِي قُلُوبِهِمْ) المظاهر لا تكفي، الكلام على القلوب وطمأنينة القلوب ونعيم القلوب، فهم ذل المعصية في قلوبهم؛ فإذا كانوا أذلةً في قلوبهم؛ فإنهم لا يجدون لذةً من هذه النعم وهذه المظاهر وإن تظاهروا بها.

المؤمن في خير حتى وإن كان ليس بيده شيء من الدنيا، فهو في خير وفي نعيم، حتى قال بعضهم: «إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»^(١).

قلوبهم عامرة بالإيمان، بالذكر، والطاعة، مُنيرة بنور الله، ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

هذا قلب المؤمن فيه نور، أعطاه الله النور في قلبه حتى أصبح قلبه مثل المصباح في المشكاة يعني: في الكوة الضيقة التي تجمع النور حتى يكون قويا، هكذا قلب المؤمن شبهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ طَيِّبٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/٢٥٧) في ترجمة أبي سليمان الداراني، قال: «إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب». وانظر: صفة الصفوة (٢/٤٢٣).

زُجَاجَةٌ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ
وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿النور: ٣٥﴾.

هذا قلب المؤمن وما فيه من الإيمان واليقين والعلم النافع، وإن لم يكن
بيده شيء من متاع الدنيا وحطامها، فهو في عيش طيب، ولذة ونعمة وإن
كان خالي اليد.

خلاف الكافر لو جُمعت له الدنيا ومظاهرها إلا أن قلبه خائفٌ وجِلٌّ
من مستقبله، يعلم أنه مستقبل سيء، هو عاقل يعلم هذا، لا يتلذذ بالمظاهر
وإن أُعطيها، وإن هملجت بهم البغال وطققت بهم النعال ذل المعصية في
قلوبهم، كما يقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَفِي قُلُوبِهِمْ، أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ)،
الكافر وإن كان عنده مظاهر وعنده قوة ظاهرة؛ لكنه ذليل في قلبه.



الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعدُّ به لتهام الأجر وعلو المنزلة.

ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته)، لمصالحه، هذا الأصل أيضًا أن ما أصاب الله به المؤمن هو دواء له، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١].

فهو دواء، وإن كان فيه مذاق يعني مُرٌّ مثل الدواء، الدواء يكون فيه مذاقٌ مُرٌّ؛ لكن عاقبته طيبة يعالج المرض ويقوي الجسم، فما يصيب المؤمن مثل الدواء، وما يصيب الكافر - والعياذ بالله - هلاك عاجل وذل عاجل.

فهناك فرق بين المسلمين وبين الكفار لو تأملنا هذا، بعض الناس يغتر بما عند الكفار من القوة، ومن الصناعات، ومن المناظر الجميلة، ومن الحضارة،

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن لا ينظر في العواقب، ما هي عاقبتهم؟ عاقبتهم سيئة، لا تنفعهم هذه الأشياء، العبرة بالعواقب.

والمؤمن وإن ناله فقر وناله حاجة فهو راضٍ بما عند الله، مطمئن، وإن لم يكن في يده شيء، الإيمان الذي في قلبه هو التجارة وهو النور.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعدُّ به لتمام الأجر وعلو المنزلة)، ما يصيبه فهو جزاء له من الآفات والأمراض، فهو دواء له.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»)، المؤمن بين شاكر وصابر، شاكر على النعمة، وصابر على البلاء.

هذا المؤمن والله الحمد، فهو في نعمة وفي خير في حياته وبعد مماته، هو في خير متواصل من الله جَلَّ وَعَلَا؛ وإن لم يكن بيده شيء من الدنيا ومتاعها؛ فإن الله قد يحجبها عنه لا؛ لأنه يبغضه، لكن يحجبها عنه لمصلحته لئلا يغتر بها أو تلهيه عن طاعة الله عَزَّجَلَّ أو يحصل عنده كِبْرٌ، أو نحو من ذلك.

حكمة عظيمة فيما يصيب المؤمن في هذه الدنيا، أنه خير له، وإن كان ظاهره أنه مؤلم فهو خير له، ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ و﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. القتال، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾: يعني: فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ، قتال الكفار.

﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾: لأن فيه سفك دماء وفيه جراح وفيه خوف ولقاء للعدو، لكن هو خير. ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: يكف الله به عنكم أعداءكم، يكتب الله لكم به الأجر، ويرفع لكم به الدرجات في الجنات: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥]. أي: القاعدون من المؤمنين وعدهم الله بالحسنى، والمجاهدون وعدهم الله؛ وما وعد الله به المجاهدين أكثر.



(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رَوَاهُ اللَّهُ مَعْنَهُ.

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزّه وعافيته.

ولهذا كان «أشدّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمّ الأقربُ إليهمِ فالأقربُ، يُبتلى المرءُ على حسبِ دينه؛ فإن كان في دينه صلابَةٌ شدّدَ عليه البلاءُ، وإن كان في دينه رِقَّةٌ خُفّفَ عنه، ولا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ حتّى يمشي على وجهِ الأرضِ وما عليه خِطِيئةٌ»^(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره)، من تمام نصره، ينصره الله به مستقبلاً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعزّه)، رفعته؛ لأنّ الجهاد يعز الله به المؤمنين ويرفعهم على الكافرين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعافيته)، يعافيه به من شر الكفار ومن آفات كثيرة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا كان «أشدّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمّ الأقربُ إليهمِ فالأقربُ، يُبتلى المرءُ على حسبِ دينه)، هذا حديث عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ»، يبتليهم الله عَزَّجَلَّ؛ لأجل أن يرفع من درجاتهم. «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»؛ حسب الإيمان.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فالمؤمنون على خير إن أصابتهم سرأء شكروا، وإن أصابتهم ضرأء صبروا، «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَأءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَأءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)، طَهَّرَهُ اللهُ مِنْهَا بِمَا أَصَابَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ غَسَلَ الْخَطَايَا بِالْمَصَائِبِ الَّتِي تَصِيبُهُ.



الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوّه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان، أمرٌ لازم لا بدّ منه، وهو كالحرّ الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين.

فلو تجرّد الخير في هذا العالم عن الشرّ، والنفع عن الضرّ، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مُزج لأجلها بين الخير والشرّ، والألم واللذة، والنافع والضار.

وإنما يكون تخلص هذا من هذا وتمييزه في دارٍ أخرى غير هذه الدار، كما قال سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْرَ مِنَ الْطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْرَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الشّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوّه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان، أمرٌ لازم لا بدّ منه)، ما من أحد حتى البهائم في هذه الدنيا يصيبها ما يصيبها من الأمراض والأسقام والجوع والعطش، فكيف بيني آدم؟ يصيبهم أشد.

الدنيا دار ابتلاء وامتحان وليست دار نعيم، ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكانت تفوت الحكمة التي مُزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار)، لو نُعم الناس كلُّهم في هذه الدنيا وأعطوا ما يريدون، وكُفَّ عنهم ما يكرهون؛ لم يتمييز المؤمن من الكافر، ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

الله يُجري هذه الابتلاءات والامتحانات على العباد؛ لتمييز المؤمن الذي يصبر ويرضى عن الله، من الكافر الذي يجزع ويسخط ويكره هذه الأمور التي لو صبر عليها كانت في صالحه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما قال سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧])، من المؤمنين من يعمل الأعمال الصالحة ويجاهد في سبيل الله ولا يترك مجالاً من الخير إلا ويفعله، ثم يموت ولا ينال من جزاءه شيء، لماذا؟

لأن جزاءه في الآخرة ليس جزاؤه في الدنيا، جزاؤه في الآخرة والله أحكم الحاكمين لا يمكن أن يضيع عمل عامل.

فإذا لم يُعطَ المؤمن شيئاً في هذه الدنيا وهو رجل عامل مطيع؛ فهذا لأن الله ادَّخَرَ له أجره في الآخرة، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

كثيراً ما يرى المؤمن يجاهد، يتصدق ويعمل، ولا ينال شيئاً من أجره؛ لأن الله ادَّخَرَ له في الدار الآخرة.

ويُرى الكافر والمشرك والفاسق يعمل الأعمال الخبيثة، ولا يناله عقوبة في هذه الدنيا؛ لأن الله ادخر عقوبته في الآخرة.

هذا دليل على البعث، هذا من أدلة البعث: أن الناس يعملون في هذه الدنيا في الخير والشر ولا ينالون من أجورهم شيئاً، والله لا يظلم أحداً، دلّ على أن هناك داراً أخرى فيها الجزاء.



الأصل الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً، فيه حكم عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عزَّوَجَلَّ.

فمنها: استخراج عبوديتهم وذُلمهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لَبَطَرُوا وَأَشْرُوا، ولو كانوا دائماً مَقهورين مَغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لَبَطَرُوا وَأَشْرُوا، ولو كانوا دائماً مَقهورين مَغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة)، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ مرةً للمؤمنين، ومرةً للكفار.

لكن ما يجري على المؤمن تطهير له وتمحيص، وما يجري على الكافر فهو إِمْلَاءٌ له ليزداد، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قد يعجب قاصر النظر أو ضعيف الإيمان، يقول: لماذا الكفار في هذه النعمة وهذه القوة وهذه البلاد المزهرة، والمسلمون في هذه الصحاري الجافة اليابسة؟

نقول: هذا لحكمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله لو أعطى المؤمنين في هذه الدنيا جزاءهم؛ لِأَشْرُوا وَبَطَرُوا، والله لا يظلم أحداً، يعجل للكافر حسناته.

الله لا يظلم أحداً، حتى الكافر، إذا أحسن الكافر فالله يجزيه؛ لكن يعجل جزاءه في الدنيا، أما المؤمن فالله يدخر له جزاءه في الآخرة، وقد يعطيه في الدنيا ما يساعده ويعينه، لكن الجزاء الأوفى هو في الآخرة؛ ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿الْحَيَوَانُ﴾: يعني الحياة الكاملة في الآخرة.

أمّا حياة الدنيا؛ فهي حياة منتهية بالموت والفناء، وأما الآخرة فهي الحيوان؛ الحياة الدائمة، التي لا يعترها موتٌ ولا مرض ولا فقر ولا أي ما يؤلم.



فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبتهم تارةً، وكونهم مغلوبين تارةً، فإذا غلبوا تضرّعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوّه، ونصروا أوليائه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائماً منصورين غالبين قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحدٌ. فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارةً، وعليهم تارةً، فيتمييز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبتهم تارةً، وكونهم مغلوبين تارةً)، المسلمون انتصروا في بدر، قتلوا من الكفار سبعين، وأسروا منهم سبعين.

في السنة التي بعدها وقعة أُحُدٍ قُتِلَ من المسلمين أكثر من سبعين واستشهدوا وأسر منهم من أُسر^(١)، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فيداول الله الأيام بين الناس؛ ابتلاءً وامتحاناً، لو كان

(١) انظر أخبار غزوة أُحُدٍ في: سيرة ابن إسحاق (ص ٣٢٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٠١)، والروض الأُنْف (٥/ ٢٩٦)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٣٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٨).

المسلمون دائماً ينتصرون لم يكفر أحد على وجه الأرض، ولو كانوا دائماً معذبين ولا يحصلون على شيء لم يؤمن أحد، فالله يُداوِلُ بين هذا وهذا.

قال الله جَلَّ وَعَلَا في وقعة أحد: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ

مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا﴾: ما السبب؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا

أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾

[آل عمران: ١٦٥-١٦٧]، فالله له حكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يجري من الخير والشر، من النصر والهزيمة، من الصحة والمرض، من الفقر والغنى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِذَا غَلَبُوا تَضَرَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَنَابُوا إِلَيْهِ، وَخَضَعُوا لَهُ،

وَانكسروا له، وتابوا إليه، وَإِذَا غَلَبُوا أَقَامُوا دِينَهُ وَشَعَائِرَهُ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَجَاهَدُوا عَدُوَّهُ، وَنَصَرُوا أَوْلِيَآءَهُ)، هذا شأن المؤمنين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ كَانَتْ لَهُمِ الدُّوْلَةُ تَارَةً،

وَعَلَيْهِمْ تَارَةً، فَيَتَمَيَّزُ بِذَلِكَ بَيْنَ مَنْ يَرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ مَرَادٌ إِلَّا

الدُّنْيَا وَالْجَاهُ)، اللهُ جَلَّ وَعَلَا يجري ما يجري على الناس للابتلاء والامتحان،

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، لا نعرف نحن

الصادق من غير الصادق، إلا بالمصائب والمجريات التي تجري.



ومنها: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ تَكْمِيلَ عِبُودِيَّتِهِمْ عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَفِي حَالِ الْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ، وَفِي حَالِ إِدَاتِهِمْ وَالْإِدَالَةِ عَلَيْهِمْ.

فَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْعِبَادَةِ فِي كِلْتَا الْحَالَيْنِ عُبُودِيَّةٌ بِمَقْتَضَى تِلْكَ الْحَالِ، لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَسْتَقِيمُ الْقَلْبُ بِدُونِهَا، كَمَا لَا تَسْتَقِيمُ الْأَبْدَانُ إِلَّا بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالنَّصَبِ وَأَضْدَادِهَا.

فَتِلْكَ الْمِحْنُ وَالْبَلَايَا شَرْطٌ فِي حَصُولِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَالِاسْتِقَامَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ، وَوُجُودِ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ مَمْتَنٌّ.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يُمَحِّصُهُمْ وَيُخَلِّصُهُمْ وَيُهَيِّدُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حِكْمَةِ إِدَالَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٣) إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٤].

الشَّرْحُ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يُمَحِّصُهُمْ وَيُخَلِّصُهُمْ وَيُهَيِّدُهُمْ)، اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتَلِي بِالْمَصَائِبِ، الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارَ.

ولكن فرق بين الفريقين؛ لأن إجراء المصائب على الكفار من باب الإهلاك لهم ﴿وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾؛ فالمصائب محق لهم.

وأما جريانها على المؤمنين فإنها خير لهم، وتمحيص وتخليص لهم من سيئاتهم وذنوبهم، وتربية لهم.

فالله جلَّ وعلا قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

هذا الفرق، المصائب تجري على الفريقين: المؤمنين والكفار، ولكن هي للمؤمنين تمحيص وتخليص وتطهير، وهي للكفار هلاك ومحق وعقوبات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد)، إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: انتصار الكفار على المؤمنين في وقعة أحد، الوقعة التي جرت عند جبل أحد، فسميت بوقعة أحد؛ وذلك أن المشركين تألبوا من جميع القبائل، ولذلك تسمى غزوة الأحزاب.

تألبوا من جميع القبائل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يريدون أن يقضوا على رسول الله وعلى المسلمين، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَمَى الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، ولم يدركوا من المسلمين شيئاً، وَوَلَّوْا عَلَى إِدْبَارِهِمْ، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

لكن بعد الامتحان ومضايقه المسلمين حتى قال المنافقون لما رأوا الأحزاب قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، نسأل الله العافية.

قال المؤمنون: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فكانت العاقبة أن الله دحض الكفار ورددهم خائبين، ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ولم ينالوا شيئاً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، هذا يوم أحد، وقعة أحد وهي بعد بدر. في بدر انتصر المسلمون على الكفار وقتلوا منهم سبعين وأسروا منهم سبعين.

لما دارت السنة تجمّع الكفار يريدون الانتقام من المسلمين، وجاءوا من مختلف القبائل يريدون الانتقام من المسلمين حصلت وقعة أحد، وقُتِلَ من المسلمين سبعون وأسر من أسر.

وهذا من مداولة الأمور بين المسلمين والكفار، فلو أن المسلمين ينتصرون في كل معركة لأسلم الناس كلهم، ولكن يجري عليهم الامتحان فعند ذلك ينخذل المنافقون ويشتموا بالمسلمين، وأما المسلمون فلا يزيدهم ذلك إلا قوة.

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾، ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ ﴾: أيها المسلمون مصيبة، قتل وأسرى؛ ﴿ فَقَدْ مَسَّ ﴾

أَلْقَوْمَ ﴿: وهم الكفار؛ ﴿فَرَحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿: لحكمة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فما يجري على المسلمين تمحيص وتخليص وتطهير، وما يجري على الكفار هلاك ودمار وعذاب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿: يعني صدقوا في إيمانهم وثباتهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴿: يقتلون في سبيل الله شهداء.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿: يطهرهم بما يصيبهم؛ ﴿وَيُمَحِّقَ الْكٰفِرِينَ ﴿.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴿: الله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن هذا علم ظهور ووضوح أمام الناس، وإلا فالله يعلم سبحانه كل شيء، لكن هذا علم خاص.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٩- ١٤٤])، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿: لله عَزَّوَجَلَّ، يجزيهم بالثواب، الذين يشكرون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الضراء والسراء.



فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْوَاعًا مِنَ الْحِكْمِ الَّتِي لِأَجْلِهَا أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ، بعد أن ثَبَّتَهُمْ وَقَوَّاهُمْ، وبَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْأَعْلُونَ بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَلَّاهُمْ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ مَسَّهِمُ الْقَرْحُ فِي طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَقَدْ مَسَّ أَعْدَاءَهُمُ الْقَرْحُ فِي عِدَاوَتِهِ وَعِدَاوَةِ رَسُولِهِ.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دُولًا بَيْنَ النَّاسِ، فيصيب كُلًّا مِنْهُمْ نَصِيْبَهُ مِنْهَا، كَالْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يَعْلَمَهُمْ موجودين مُشَاهِدِينَ، فيعلم إيمانهم واقِعًا.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْوَاعًا مِنَ الْحِكْمِ الَّتِي لِأَجْلِهَا أُدِيلَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ، بعد أن ثَبَّتَهُمْ وَقَوَّاهُمْ، وبَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْأَعْلُونَ بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْإِيمَانِ)، اللهُ جَلَّ وَعَلَا يَجْرِي هَذِهِ الْأُمُورَ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَهِيَ تَمْحِيطُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَتَطْهِيهِمْ وَإِهْلَاكَ لِلْكَافِرِينَ، فَهِيَ عَلَى الْكُفَّارِ عَقُوبَةٌ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لِيَطْهَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَتَّخِذُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يَعْلَمَهُمْ موجودين مُشَاهِدِينَ، فيعلم إيمانهم واقِعًا)، هو يعلم ما كان وما يكون، ولكنه يريد أن يظهر ذلك أمام الناس؛ حتى تقرأ أعين المؤمنين وينهزم أعداء الله الكافرون.

ثم أخبر أنه يُحِبُّ أن يتَّخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تُنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العُدُوِّ لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي تحليصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أدلى بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يَمْحَقَ الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعُدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسابهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتُلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذا بعض حِكْمِهِ في نصر عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم أخبر أنه يُحِبُّ أن يتَّخذ منهم شهداء)، يجب أن يتخذ من المؤمنين شهداء يقتلون في سبيل الله؛ فينالون أجر الشهادة وعلو المنزلة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تُنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العُدُوِّ لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد)، هذا من الحكمة العظيمة: أنه يجري ما يجري على المسلمين من القتل على يد أعدائهم ليتخذ منهم شهداء، والشهادة منزلة عالية لا تُنال إلا بالجهاد في سبيل الله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي تخلصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أدل بها عليهم العدو)، وهذا أيضاً من الحكمة في إدالة الكفار على المسلمين: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوَقِّظُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنْ خَطَأٍ أَوْ تَقْصِيرٍ؛ فَيَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُمْ، وَيَعُودُونَ أَقْوَى مَا كَانُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأنه مع ذلك يريد أن يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ بِبَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ إِذَا انْتَصَرُوا)، فَالْكَافِرُ إِذَا انْتَصَرُوا لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ صَالِحِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّوَعَلَا يُرِيدُ أَنْ يَمْحَقَهُمْ وَيُعَاقِبَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا بِالْمُسْلِمِينَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم أنكر عليهم حسابهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر)، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. هذا من الحكم.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، وَثَبَتُوا وَلَمْ يَتَرَا جَعُوا. ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: الثابتين على الحق ولو أصابهم ما أصابهم فإنهم لا يتزحزون عن الحق، بل هم ثابتون عليه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتُلُوا بِمَا يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَذَى أَعْدَائِهِمْ)، هَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي إِدَالَةِ الْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْإِيمَانَ الصَّادِقَ مِنَ الْإِيمَانِ الْمُدْعَى، إِيْمَانِ الْمُنَافِقِينَ.

المنافقون ينخذلون في وقعة أحد، فرجع عبد الله بن أُبَيِّ بثمانمائة من المنافقين أو ما يقارب من ذلك، لما قاربوا الوصول إلى وقعة أحد رجعوا إلى المدينة.

قيل لهم: تعالوا، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عن المسلمين، قالوا: لو نعلم القتال لا تبعنناكم، وأنه ليس هناك قتال من باب الدس على المسلمين وأنه ليس هناك قتال، كيف ليس هناك قتال والجموع متقابلة، وليس هناك قتال؟! قتال!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهذا بعض حِكْمِهِ في نصر عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان)، نصر العدو على المسلمين فيه حكم عظيمة وهو من صالح المسلمين.



الأصل التاسع: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الْأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا؛ لِابْتِلَاءِ عِبَادِهِ وَامْتِحَانِهِمْ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَرِيدُهُ وَيُرِيدُ مَا عِنْدَهُ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَيُرِيدُهَا.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].
وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الأصل التاسع: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الْأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا، لِابْتِلَاءِ عِبَادِهِ وَامْتِحَانِهِمْ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَرِيدُهُ وَيُرِيدُ مَا عِنْدَهُ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَيُرِيدُهَا)، وَلَا يَتَّبِعِينَ هَذَا إِلَّا بِالْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَمَا يَجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ نَصْرٍ أَوْ هَزِيمَةٍ لَا يَتَّبِعِينَ إِلَّا بِمَا يَجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ، هَذَا مِنْ حُكْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
فَالْمُسْلِمُونَ يَكْتَسِبُونَ بِالْمَصَائِبِ: الْقُوَّةَ وَإِصْلَاحَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْخُلَلِ، وَالْكَفَّارُ يَغْتَرُونَ أَوْ يِيَّاسُونَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَيُخْسِرُونَ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَتَهُمْ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧])،

﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾: خلق السموات والأرض في ستة أيام بدأت يوم الأحد، وانتهت في يوم الجمعة^(١)، وهو قادر على أن يخلق السموات والأرض في لحظة، ولكنه خلقها في ستة أيام؛ لأجل تعليم الناس أنهم يتأنون في العمل ويتقنونه ولا يستعجلون.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴾ أي: عرش الله.

﴿ عَلَى الْمَاءِ ﴾ وهو بحرٌ فوق السموات فوقه عرش الرحمن؛

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧]،

﴿ لِيَبْلُوكُمْ ﴾: يعني: ليختبركم، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾: لأن العبرة

بحسن العمل لا بكثرتة، لم يقل: ليبلوكم أيكم أكثر عملاً، بل ﴿ لِيَبْلُوكُمْ

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، ولو كان قليلاً، إذا كان حسناً بارك الله فيه.

ليست العبرة بكثرة العمل، العبرة بالحسن؛ أن يكون خالصاً لوجه الله

وصواباً على سنة رسول الله، فالعمل حسن ما اجتمع فيه شرطان:

- أن يكون خالصاً لله؛ ليس فيه شركٌ ولا رياء ولا سمعةٌ.

- أن يكون صواباً على سنة رسول الله؛ ليس فيه بدعةٌ ولا محدثاتٌ.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/٢٨٧)، وتفسير القرطبي (١٠/١٩٩)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٢).

هذان الشرطان هما شرطا قبول العمل، وحصول ثمرته: الإخلاص والمتابعة كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي مُتَّبِعٌ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذان الشرطان^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧])، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾: من جميع المخلوقات.

﴿زِينَةً لِّهَا﴾: زينة للأرض.

﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾: نختبرهم.

﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: لم يقل: أيهم أكثر عملاً؛ لأن العبرة ليست بالكثرة، العبرة بالنوعية أن يكون العمل حسناً: يعني خالصاً صواباً على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو العمل الذي يتقبله الله، ويُثيبُ عليه.



(١) قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا. وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ». أخرجه الثعلبي في تفسيره (٣٥٦/٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٩٥).

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]،
 وقال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]،
 وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾
 [محمد: ٣١].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢])، قال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ﴾: لماذا، ما هي الحكمة؟
 ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليختبركم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: لم يقل: أيكم أكثر عملاً، بل قال: أحسن،
 والعمل الحسن: هو ما اجتمع فيه الشرطان: الإخلاص لله والمتابعة للرسول
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥])، ﴿وَبَلَّوْكُمْ﴾: يعني نختبركم.
 ﴿بِالشَّرِّ﴾: وهو ما تكرهون.
 ﴿وَالْخَيْرِ﴾: وهو ما تحبون.
 ﴿فِتْنَةً﴾: يعني ابتلاء واختبار.

ثم، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾: يوم القيامة؛ فنجازيكم بأعمالكم التي
 عملتموها في الدنيا، فالدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١])، قال تعالى: ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ﴾: يعني نختبرنكم، وهذا تأكيد، النون نون التوكيد.

﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾: هل الله لا يعلم؟ يعلم، ولكن المراد ظهور هذا ووقوعه أمام الناس، وإلا علم الغيب هذا عند الله يعلمه في عالم الغيب عنده، ولكن أيضًا يعلمه علم ظهور ووقوع إذا وقع.



وقال تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿العنكبوت: ١-٣﴾.

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت، أو لا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر، ولا بد من امتحان هذا وهذا. فأما من قال: آمنت فلا بد أن يمتحنه الربُّ ويبتليهُ، ليتبين هل هو صادقٌ في قوله: آمنت أو كاذبٌ؟

فإن كان كاذبًا رجع على عَقْبِيهِ، وفرَّ من الامتحان كما يفرُّ من عذاب الله، وإن كان صادقًا ثبت على قوله، ولم يزدَه الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا على إيمانه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿الأحزاب: ٢٢﴾.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿العنكبوت: ١-٣﴾)، ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا﴾: على ما هم عليه؟

لا يليق هذا بحكمة الله؛ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : من الأمم .

﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ : فهو يعلم علم الغيب العام، ويعلم علم الظهور والوقوع .

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى): ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ : الذين تجمعوا من سائر القبائل وجاءوا يريدون القضاء على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته وأصحابه، أحزاب من القبائل هذه، المؤمنون لم يضعفهم هذا، ولم ينقص، بل زاد من إيمانهم وثقتهم بالله .

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ : الله وعد أنه سيبتلي المؤمنين وسيختبرهم وسيمحصهم؛ ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ : ما رأوه من العدو وكيد العدو، ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله، ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ : لأمره وعدم اعتراض عليه سُجَّانَهُ وَتَعَالَى .

أما المنافقون لما رأوا الأحزاب قالوا: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]، نسأل الله العافية .

الآن تبين نتيجة الامتحان، الذي يقول: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، والذي يقول: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

ثم كفى الله المؤمنين القتال بعدما امتحنهم ورد عدوهم ولم ينالوا خيراً، صارت النتيجة في صالح المسلمين وصارت خسارة على الكفار والمنافقين .

وأما من لم يؤمن فإنه يُمتحن في الآخرة بالعذاب ويُفتن به، وهي أعظم المحتتين، هذا إذا سَلِمَ من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتَّبِع رسله وعصاهم، فلا بُدَّ من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل أحد.

ولكن المؤمن أخفُّ محنةً وأسهلُ بليَّةً، فإن الله يَدْفَعُ عنه بالإيمان، ويحمل عنه به، ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يُهَيِّئُ به عليه محنته. وأما الكافر والمنافق والفاجر، فتشدد محنته وبليَّته وتدوم، فمحنةُ المؤمن خفيفةٌ منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما من لم يؤمن فإنه يُمتحن في الآخرة بالعذاب ويُفتن به، وهي أعظم المحتتين، هذا إذا سَلِمَ من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتَّبِع رسله وعصاهم)، الكافر خاسر حتى ولو انتصر في الدنيا أو نال شيئاً من الدنيا فهو خاسر؛ لأنه وإن حصل له ما يريد في الدنيا؛ فأمامه الحساب في القيامة، وأمامه النار -والعياذ بالله- فمآله إلى الخسران، أما المؤمن فإنه وإن أصابه ما أصابه في الدنيا؛ فأمامه الجنة، فرق بين هذا وهذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما من لم يؤمن فإنه يُمتحن في الآخرة بالعذاب ويُفتن به، وهي أعظم المحتتين)، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]. على النار يفتنون، يختبرون.

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٤].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلا بُدَّ من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل

أحدٍ)، هذه الدار يعني في الدنيا، وفي البرزخ يعني القبر.

الميت إذا وضع في قبره ودفن وولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع

نعالمهم؛ يأتيه ملكان منكر ونكير، فيُعدانه وتعاد روحه في جسده، ويحيا حياة

برزخية ليست هي بمثل حياته في الدنيا.

ثم يسألانه: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟

كل ميت، أما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينادي منادٍ: «أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا

لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُوسِّعْ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا،

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي»^(١).

وأما المنافق فإنه إذا قيل له: من نبيك؟ يقول: «هاها لا أدري، سَمِعْتُ النَّاسَ

يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُهُ!»! يغيب عنه ما كان يقول في الدنيا -والعياذ بالله-.

من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ثلاثة أسئلة، فكل سؤال يقول:

«هاها لا أدري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُهُ»، مقلد على غير علم

وعلى غير بصيرة.

فيضرب بمرزبة من حديد -والعياذ بالله-، يضرب ضربة واحدة

بمطرقة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها

الإنسان لصَعِقَ، يعني: لمات، نسأل الله العافية.

(١) أخرجه أحمد (٣٠/٥٠٣)، وأبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ حَتَّى تَخْتَلِفُ أَضْلَاعُهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي جَحِيمٍ
وَفِي ضَيْقٍ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَفِي عَذَابٍ، هَذَا مَأْلَهُ فِي الْقَبْرِ، وَمَا يَكُونُ لَهُ فِي
الْآخِرَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ.

ولهذا كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ بَكَى بِكَاءٍ شَدِيدًا، ثُمَّ يَقُولُ:
«هَذَا أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، إِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلأَبْدُ مِنَ الْمُحَنَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَفِي الْبَرْزَخِ)، الْإِمْتِحَانُ
يَعْنِي وَالْإِبْتِلَاءُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَفِي الْبَرْزَخِ وَهُوَ الْقَبْرُ عِنْدَ سُؤَالِ الْمَلِكِينَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِي الْقِيَامَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ)، وَفِي الْقِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
مُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَكِنِ الْمُؤْمِنُ أَخْفُ حُنَّةً وَأَسْهَلُ بَلِيَّةً، فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنْهُ
بِالْإِيمَانِ، وَيَحْمِلُ عَنْهُ بِهِ)، اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ النِّعْمَةِ وَمِنَ الْخَيْرِ
مَا يَنْسِيهِ مَا يَلَاقِي مِنَ الشَّدَائِدِ؛ فَيَصْبِحُ فِي نِعْمَةٍ.



(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٠٨)، وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢٦٧) عَنْ هَانِئِ مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: «كَانَ عُثْمَانُ
ابْنُ عُفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذَكَّرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِي،
وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟! قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ؛
فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ

فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت.

لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعمة ابتداءً، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أنه يُخْلَص من المحنة والألم البتة.

يوضحه:

الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدنيٌّ بالطبع، لا بدّ له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إراداتٌ، وتصوّراتٌ، واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعدّبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر.

فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب إذا لم يُوافق أهواءهم واعتقاداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المرتّب على موافقتهم.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةً اللهُ: (فلا يطمع أحد أنه يُخْلَص من المحنة والألم البتة)، لا أحد، لا بد من الابتلاء والامتحان على الجميع، لكن المؤمن له العاقبة الحميدة، ويسهل الله عليه هذه الشدائد.

وأما المنافق الذي يدعي الإيمان وهو كاذب والكافر، المنافق مؤمن في الظاهر كافر في الباطن، والكافر الخالص هذا كافر في الظاهر والباطن.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدنيٌّ بالطبع)، مدني يعني اجتماعي، الإنسان اجتماعي بالطبع لا يعيش وحده، لابد أن يعيش مع أحد من الناس.



واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم، أو فاحشة، أو شهادة زور، أو المعاونة على محرّم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه.

ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يُسلطون عليه، فينال من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومُراعاه من أنفع ما للعبد، فألم يسير يُعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعقب ألمًا عظيمًا دائمًا، والتوفيق بيد الله.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

والعياذ بالله، ففرق بين من يصبر على طاعة الله وعلى دينه ويثبت عليه ولا يتحول عنه؛ ولو ناله ألم ومضايقة، وبين من إذا أصابه أدنى شيء تحول عن دينه فرارًا كالذي يفر من الرمضاء إلى النار -والعياذ بالله-.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، هذا الخاسر -والعياذ بالله- عذاب الله أشد من فتنة الناس وعذاب الناس، وهو لا بد أنه يتلى ويجري عليه امتحان، ويجري عليه ما يجري من المكاره، لكن المؤمن يصبر؛ لأنه ينتظر العاقبة الحميدة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والغالبُ أنهم يُسلطون عليه، فينالُه من الألم منهم أضعافُ ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم)، فالمؤمن يثبت على دينه ولو أودى، فإن أذى الناس أهون أو أيسر من عذاب الله عزَّجَلَّ.

عذابُ الناس يزولُ، لكنَّ عذابَ الله لا يزولُ، عذابُ الناس يمكن تحمله، لكنَّ عذابَ الله لا يمكن تحمله!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فمعرفة هذا ومُراعاته من أنفع ما للعبد، فألمٌ يسيراً يُعقبُ لذةً عظيمةً دائمةً أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعقبُ ألماً عظيماً دائماً، والتوفيق بيد الله)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾: يعني على طرف.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].



الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يُصيبُ العبدَ في الله لا يخرجُ عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عِرْضه، أو في أهله ومن يُحب.

والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارةً، وبتألمها بدون التلف. فهذا مجموع ما يُبتلى به العبد في الله عزَّ وجلَّ، وأشدُّ هذه الأقسام: المصيبةُ في النفس.

ومن المعلوم أن الخلق كلُّهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يُستشهدَ في الله، وتلك أشرفُ الموتات وأسهلُها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو مُعتادُ لبني آدم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (الأصل الحادي عشر: أن البلاء الذي يُصيبُ العبدَ في الله لا يخرجُ عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عِرْضه، أو في أهله ومن يُحب)، الإنسان في هذه الحياة يبتلى لا سيما المؤمن، وأشدُّ الناس بلاء: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلون في أنفسهم، يبتلون في أولادهم، يبتلون في أقاربهم، يبتلون في إخوانهم وأصدقاءهم.

الله جَلَّ وَعَلَا يبتلى عباده؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ»^(١). والمسلم يرضى ويُسلم.

(١) تقدم ترجمته (ص ٢٤٢).

وغالب المصائب تكون بسبب العبد، يعني يصدر منه إساءة فيبتلى بقدر ما صدر منه، ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿ وَلَوْ يُوَازِحُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر: ٤٥].

فالمصائب تجري ولكن العبد المؤمن يصبر؛ ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]: أن الله يشي عليهم، الصلاة من الله جَلَّ وَعَلَا ثناؤه على عبده في الملاء الأعلى كما في الحديث، فالمصائب إذا استقبلها الإنسان بالصبر، واستقبلها بالرضا عن الله جَلَّ وَعَلَا صارت هذه المصائب فوائد ونعم من الله عَزَّجَلَّ، وتمحيص من ذنوبه، وتخليص، الحمد لله المؤمن على خير، أما ضعيف الإيمان والمنافق؛ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾: يعني على طرف.

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يُسْتَشْهَدَ في الله، وتلك أشرفُ الموتات وأسهلُها)، فالمؤمن إذا استشهد في قتال الكفار؛ فإنه يكون حيًّا عند الله عَزَّجَلَّ حياة برزخية؛ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١﴾ : ليسوا بأحياء في الدنيا،
﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في
قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم)، فإذا قُتِلَ المسلم واستشهد
في سبيل الله؛ فإنه لا يجد ألماً عند قتله إلا مثل القرصة، قرصة ذوات السموم؛
يخفف الله عنه سكرات الموت؛ رحمةً منه به، وإكراماً له.



فَمَنْ عَدَّ مَصِيبَةَ هَذَا الْقَتْلِ أَعْظَمَ مِنْ مَصِيبَةِ الْمَوْتِ عَلَى الْفَرَّاشِ فَهُوَ
 جَاهِلٌ، بَلْ مَوْتُ الشَّهِيدِ مِنْ أَيْسَرِ الْمَوَاتِ وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا، وَلَكِنْ الْفَارِّ
 يَظُنُّ أَنَّهُ بِفِرَارِهِ يَطْوِلُ عَمْرَهُ، فَيَتَمَتَّعُ بِالْعَيْشِ!

وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن، حيث يقول: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ
 إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو
 نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه
 وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه سبحانه.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فمن عدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على
 الفراش فهو جاهل)، من عدَّ مصيبة الموت بالشهادة في سبيل الله كالموت على
 الفراش فهذا مخطئٌ وغلط في هذا، بل موت الشهيد أسهل عليه من قرصة
 تصيبه؛ لأن الله يخفف عنه ألم الموت.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بل موتُ الشهيد من أيسر الموات وأفضلها وأعلاها)،
 إن موت الشهيد أسهل الموات وأعلاها وأكرمها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، شرف
 الشهادة وما يجده من الفرح بقاء الله عَزَّجَلَّ يسهل عليه ما يصيبه أو ينسيه ما
 يصيبه من ألم الموت.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن، حيث يقول: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦])، فالفرار يوم الزحف هذا من كبائر الذنوب؛ فلا يجوز الفرار إذا التقى الجمعان، لا يجوز لمسلم أن يفر، بل يصبر؛ فإن نصره الله فهذا خير، وإن استشهد فهذا أكثر أجرًا أو أكثر خيرًا.

فالتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر بعد الشرك، فالمسلم يصبر ويثبت في لقاء العدو؛ فإن انتصر فهذا خير؛ وإن استشهد فهذا خيرٌ وأعظم أجرًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خيرٌ منه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه سبحانه)، فالفرار لا ينجيه من الموت؛ ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]: فما لكم إلى الموت، والموت قريب، المسلم يوطن نفسه ويصبر ويحتسب الأجر عند الله، والمؤمن يُبشِّر عند الموت بالأجر والثواب فيهون عليه الموت.



ثم قال سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحدٌ من الله، إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فرّ منه، فإنه فرّ من الموت لما كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءًا غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفرّ مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةً اللَّهِ: (ثم قال سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحدٌ من الله، إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فرّ منه، فإنه فرّ من الموت لما كان يسوؤه، قد يفرح إذا فرّ من المعركة يظن أنه نجا، وهو في الحقيقة لم ينج، لو كان في المعركة لكان خيرًا له؛ إن انتصر فهو خير؛ وإن استشهد فهو أعظم أجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفراره لم يُنَجِّهِ من الموت، الموت يلاحقه؛ ﴿ قُلْ إِنْ أَلْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴾: لاحظ العادة أن الذي يفر من شيء يكون هذا الشيء وراءه، ولكن هذا الذي يفر من الجهاد في سبيل الله ومن لقاء العدو يلاقيه الموت، فهو ذاهب ليلاقى الموت هذا من العجائب.

﴿ قُلْ إِنْ أَلْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨].

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فهكذا الأمر في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بما له أن يُنْفِقَه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سَلَبَه الله إياه، أو قِيَصَ له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرتَه عاجلاً وأجلاً.

وإن حبسه وادّخره منعه التَّمَتُّعُ به، ونقله إلى غيره، فيكون له مَهْنُؤُهُ وعلى مَخْلَفُهُ وِزْرُهُ.

وكذلك من رَفَه بَدَنَهُ وعَرَضَهُ، وأثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: «لَمَّا يَلْقَى الَّذِي لَا يَتَّقِي اللَّهَ مِنْ مُعَالَجَةِ الْخَلْقِ، أَعْظَمُ مِمَّا يَلْقَى الَّذِي يَتَّقِي اللَّهَ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّقْوَى»^(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فهكذا الأمر في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بما له أن يُنْفِقَه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته سَلَبَه الله إياه، أو قِيَصَ له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرتَه عاجلاً وأجلاً)، مَنْ بَخَلَ بِالْمَالِ أن ينفقه في سبيل الله صار هذا المال نَقْمَةً عليه، فيتحسر عليه ولا يريد أن يذهب منه شيء، ويتألم ويحرس المال.

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/٢٤٥).

فهذا المال لن يدوم له، أو هو لن يدوم للمال؛ إما أن يؤخذ منه المال وإما أن يؤخذ هو من المال، المسلم يتصور هذا فيهون عليه ما يلقي من منازعة النفس وكرهتها للإنفاق في سبيل الله والصدقات.

أنت تقدم لنفسك، فالمال هذا تقدمه لنفسك، ولو لم تقدمه لنفسك أخذ منك ولا تنتفع من وراءه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإن حبسه وادّخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مَهْنُوهُ وَعَلَى خَلْفِهِ وَزُرُّهُ)، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۞﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، لا يشعرون بالعواقب.

لأنه قدّم هذا المال أمامه لوجده عند الله، فإذا أخّرهُ ذهب إلى غيره ولم ينتفع به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك من رفّه بدّنه وعرضه، وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب)، من أحب الرفاهية والتنعم في هذه الدنيا؛ فإنه يندم عما قليل.

والمسلم إنما ينظر إلى ما أمامه ولا ينظر إلى ما خلفه، ينظر فيصلح الطريق أمامه؛ لئلا يسلك طريقاً يهلكه، ومن إصلاح الطريق: الإحسان في العمل، والإحسان في المال والإنفاق، فالله أتاك هذا المال وأمرك أن تنفق منه ليكتبه لك، ويقيه لك، ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠]، رزقك الله هذا المال وأمرك أن تنفق منه في سبيل الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال أبو حازم)، من أئمة التابعين رَحِمَهُ اللَّهُ.
 قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَا يَلْقَى الَّذِي لَا يَتَّقِي اللَّهَ مِنْ مُعَالَجَةِ الْخَلْقِ، أَعْظَمَ مِمَّا
 يَلْقَى الَّذِي يَتَّقِي اللَّهَ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّقْوَى)، معالجة التقوى فيها تعب، ولكن
 التعب الذي يحصل للإنسان من معالجة الخلق الذين يؤذونه ويعتدون عليه،
 ويجسدونه هذا أشد مما يجده من إنفاق المال في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.
 والمسلم إذا تصوّر الثواب وتأمل كتاب الله وسنة رسوله هان عليه
 إنفاق المال؛ لأنه ينفقه لنفسه، وأيضاً ما ينفقه يخلفه الله عليه بأكثر؛ ﴿وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَكْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]،
 وإذا كان الله يعلمه فلن يضيعه عليك.

ما أنفقت من نفقة: «ما» عامة نفقة كثيرة أو قليلة فإن الله يعلمه، لا تظن
 أن الله غافلاً عما تعمل وعما تنفق، منه الرزق ومنه الخلف؛ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ
 شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفي الحديث القدسي أن الله يقول: «عَبْدِي، أَنْفِقْ، أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(١).

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَعْطِي وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ
 عَلَيْكَ»^(٢)، وقال لأسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ،
 وَلَا تَوْعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٣) يعني: لا تحفظي المال في الوعاء عن الناس
 وعن الإحسان، فالله يوعي عليك رزقه، يوعي عنك.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٠٠)، والنسائي (٢٥٤٩) بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩).

واعتبر ذلك بحال إبليس؛ فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنيه فساق ذريته.

وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه، ورضوا أن يعبدوا إلهاً من الأحجار.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنيه فساق ذريته)، الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية ليس بسجود عبادة، سجود العبادة لا يجوز إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هو سجود تحية.

أن يسجدوا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسجد الملائكة كلهم أجمعهم إلا إبليس؛ حسد آدم، ثم إنه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

بزعمه أن الطين ليس فيه فائدة، والنار فيها فائدة؛ يُطبخ عليها وتحرق، ويُستدفاً بها، وهذا من القياس الباطل؛ لأن الطين أحسن من النار، فالنار تحرق ولا تنتج، وأما الطين فإنه ينتج البذور والزراعة، وينتج الخيرات، فالطين فيه خير.

ولكن إبليس عمي عن هذا، وافتخر بالنار؛ ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ﴾، من لهب النار^(١). ﴿وَخَلَقْنَاهُ﴾ أي: آدم ﴿مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

انظر القياس الباطل، ولم يتصور ما في الطين من الخير والبركة ومن البرودة. قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك عبَادُ الأصنام أنفُوا أن يتَّبِعُوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضُوا أن يعبدوا إلهًا من الأحجار)، المشركون الذين يعبدون الأشجار أو الأحجار أو الأصنام أنفُوا من أن يعبدوا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأذَّهَمَ اللهُ وجعلهم يعبدون الأحجار أو الأشجار والأشياء التي لا تنفع ولا تضر.

ولو أنهم امتثلوا أمر ربهم الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير وعبدوه وحده؛ لكان ذلك خيرًا لهم عاجلاً وأجلاً، فالعزة والكرامة والرفعة كلها في عبادة الله، والذلَّةُ والمهانة والخسارة كلها في عبادة غير الله؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

ما النتيجة، ما الضائدة؟!

يتركون عبادة الخالق الذي بيده ملكوت السموات والأرض، الخلاق الرزاق الغني الكريم الرؤوف الرحيم، يتركون عبادته ويعبدون أحجارًا وأشجارًا وأصنامًا وشياطين وكفرة -والعياذ بالله- لَمَّا أنفُوا من عبادة الله ابتلاهم الله؛ فأذَّهَمَ لغيره وعبدوا غيره، هذا من انتكاس الفطر.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٩٦) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٨/١٢٣، ١٢٤): (الجان: الجن. والمارج: اللهب المختلط بسواد النار).

وكذلك كلُّ من امتنع أن يذللَّ لله، أو يبذلَّ ماله في مَرْضَاتِهِ، أو يُتَعَبَ نفسه في طاعته، لا بدَّ أن يذللَّ لمن لا يَسْوَى، ويبذلَّ له ماله، ويُتَعَبَ نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبةً له.

كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خُطواتٍ في حاجته أمشاه الله تعالى أكثرَ منها في غير طاعته.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك كلُّ من امتنع أن يذللَّ لله، أو يبذلَّ ماله في مَرْضَاتِهِ، أو يُتَعَبَ نفسه في طاعته، لا بدَّ أن يذللَّ لمن لا يَسْوَى، ويبذلَّ له ماله، ويُتَعَبَ نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته عقوبةً له)، الله الذي خلقهم ورزقهم ويحييهم ويميتهم، ويده خزائنُ السموات والأرض، يتركون عبادته!

لما تركوا عبادة الله ابتلوا بعبادة غير الله ممن هو أقلُّ منهم درجة عبدوا شجرة، عبدوا حجراً لا ينفع ولا يضر؛ قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]: يعكفون على صور تماثيل مجسمة، تماثيل: يعني صور مجسمة على صور حيوانات وصور آدميين.

﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾: سؤال إنكار منه عَلَيْهِ السَّلَامُ، تماثيل، كيف

تعبد التماثيل؟

﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾: ما هي حاجتهم؟

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]: تقليد أعمى، والعباد

بالله؛ ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿ [الشعراء: ٧٢-٧٤]. هذا الاحتجاج بما عليه الناس، وترك الحججة من كتاب الله وسنة رسوله، تقليد، التقليد الأعمى هو الذي أوقع الكثير فيما أوقعهم فيه. فالإنسان لا يقلد إلا أهل الخير وأهل العلم وأهل الصلاح، لا يقلد كل من هبَّ ودبَّ بحجة أنه أكبر منه، وأنه أقدم منه وأسنَّ منه، أو يقلد من سبقوه كل هذا حجة واهية لا تنفع.

﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَرِيدِينَ ﴿ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]: ليس عندهم حجة إلا التقليد الأعمى.

﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَرِيدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣]: لا ينفع التقليد الأعمى، لا يكون الإنسان إمعة؛ إن أحسن الناس أحسن معهم، وإن أساءوا أساء معهم! بل إن أحسنوا أحسن معهم، وإن أساءوا تجنب إساءتهم^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خُطواتٍ في حاجته أمشاه الله تعالى أكثرَ منها في غير طاعته)، يقول الإمام ابن القيم في النونية:

(١) أخرج الترمذي عن حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمْعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أسَاءُوا فَلَا تَظَلِّمُوا». قال الترمذي (٤/٣٦٤): (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه).

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٨٧٦٥) (٩/١٥٢) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمْعَةً»، قَالُوا: وَمَا الْإِمْعَةُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: «يَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا مَعَ النَّاسِ؛ إِنْ اهْتَدَوْا اهْتَدَيْتُ، وَإِنْ ضَلُّوا ضَلَلْتُ! أَلَا لِيُوطِنَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ عَلَىٰ إِنْ كَفَرَ النَّاسُ أَلَّا يَكْفُرُ».

هَرَبُوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ (١)

انظر الخِذْلَان - والعياذ بالله-! (هربوا من الرق الذي خلقوا له) وهو عبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فكانت العقوبة: (فَبُلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ): صاروا يعبدون أهواءهم وأنفسهم، (والشيطان): عدوهم، يعبدون عدوهم -والعياذ بالله-، وهذا هو العجب!



(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/٤٦٦).

فصل

في خاتمة هذا الباب هي الغاية المطلوبة، وجميع ما تقدّم كالوسيلة إليها. وهي أن محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه: أصل الدين، وأصل أعماله وإرادته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهي أن محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه: أصل الدين، وأصل أعماله وإرادته)، التعلق القلبي بالله عَزَّجَلَّ خوفاً وطمعاً ورغبة ورهبة.

تعلق القلب بالله هو الذي يفيد الإنسان وينجيه من عذاب الله، إذا علق قلبه بالله كفاه الله عَزَّجَلَّ، وإذا علق قلبه بغير الله وَكَلَهُ اللهُ إلى ما علق قلبه به، فإن علق قلبه بحجر صنم من الأصنام وَكَلَّ إِلَيْهِ، بماذا ينفعه الصنم، جماد، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾: قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]:

لم يكن لهم حجة إلا التقليد

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]. التقليد الأعمى،

والعياذ بالله.

هل هذه حجة؛ ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]؟!

﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٤]، هل هذه حجة؟!!

الآن عباد القبور يتركون عبادة الله ويعبدون الأموات، الحي خير من الميت، الحي يتحرك ويذهب ويحيى ويفعل، الميت جامد تراب، ماذا يطلب من الميت؟

الميت هو بحاجة إلى من يدعو له، إلى من يتصدق عنه، إلى من يهدي إليه خيراً وعملاً صالحاً، وهؤلاء يطلبون حوائجهم من الأموات العاجزين الهامدين، نسأل الله العافية؛ لأن فطرهم انتكست عقوبة لهم، انتكست فلم ينتفعوا بها، عندهم عقول؛ ﴿ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَأْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]: يعني هم يسمعون سماع الحيوان، لكن لا يسمعون سماع انتفاع، لا يسمعون إلى القرآن، لا يسمعون إلى السنة، لا يسمعون إلى أوامر الله ونواهيه، يسمعون، لكن لا يسمعون ما ينفعهم؛ عطل الله آذانهم فلم ينتفعوا بها، صارت آذانهم أخطاً من آذان الحيوانات.

الحيوانات خير منهم؛ لأن الحيوانات تفر مما يضرها، لو تأتي به عند ماء، عند نهر يمشي، عند نار مؤقدة لا يطيعك أبداً، لو تُقَطَّعُ لا يقدم على الخطر، وهؤلاء يوقعون أنفسهم في الخطر - والعياذ بالله - بالشرك والكفر والفسق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها)، ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الأسماء الحسنی، كل أسماء الله الحسنی منها ما علمناه التسعة والتسعين، ومنها ما لم نعلمه استأثر الله بعلمها، فأسماء الله لا تحصى، كلها أسماء كمال، وأسماء لها معانٍ جليئة، ما علمنا منها ومنها لم نعلمه ندعوه بها، نتوسل إليه بها، فنقول: يا رحمن ارحمنا، يا كريم أكرمنا أعطنا، يا رازق ارزقنا، وهكذا.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: ندعوه بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ندعوه بأسمائه.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^(١).

يسأله ويتوسل إليه بأسمائه، هذا هو التوسل المشروع، وليس التوسل أن تجعل بينك وبين الله ميتاً من الأموات؛ تريد أن يتوسط لك عند الله ويشفع لك عند الله؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: هذه حججهم أنهم يشفعون لهم عند الله، الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه هذا شرط.

الشرط الثاني: لا يقبل الشفاعة إلا فيمن هو من الموحدین، ولا يقبل الشفاعة في المشركين؛ قال تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، فالشفاعة لها شرطان:

(١) أخرجه أحمد (٦/٢٤٧) (٧/٣٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الشرط الأول: أن يأذن الله بها، يأذن للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه ممن يرضى الله قوله وعمله، يكون من المؤمنين، أمّا المشرك والكافر فلا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، ليس لهم عند الله لا ﴿حَمِيمٍ﴾ أي: صديق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.



فمعرفة أجلّ المعارف، وإرادة وجهه أجلّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمعرفة أجلّ المعارف، وإرادة وجهه أجلّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال)، هل الذي يعبد الله الذي خلقه ورزقه، ويده ملكوت السموات والأرض، القادر على كل شيء، مثل الذي يعبد حجراً أو شجراً لا ينفع ولا يضر، أو ميتاً رمياً في قبره يعبده؟! لا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمعرفة أجلّ المعارف، وإرادة وجهه أجلّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال)، أشرف الأعمال: عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، أن تكون عبداً لله، ومن لم يكن عبداً لله صار عبداً للشيطان، على كل حال هو عبد؛ إما أن يكون عبداً لله يعبد الله ويتعلق قلبه بالله، وإما أن يكون عبداً للشيطان، فليس له مخرج عن العبودية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال)، تدعوه بأسمائه وصفاته؛ وتثني عليه بأسمائه وصفاته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام)، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].

﴿ حَنِيفًا ﴾، ما معنى ﴿ حَنِيفًا ﴾؟ مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه، هذا

هو الحنيف

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ تُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣])، أمر الله نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَّبِعَ ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ حَنِيفًا ﴾: مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه، متبرئًا من المشركين

لا يصادقهم ولا يجبههم ولا يمدحهم.



وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِي أصحابه إذا أضحوا أن يقولوا: «أُضْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(١).

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين.

وليس لله دينٌ سواه، ولا يقبلُ من أحدٍ دينًا غيره: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِي أصحابه إذا أضحوا أن يقولوا: «أُضْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»)، يقولها المسلم كل في ورده الصباحي والمساءلي.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله)، ف لا إله إلا الله نفي وإثبات؛ نفي الألوهية عما سوى الله، وإثباتها لله عَزَّجَلَّ. لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

احذر أن تقول: لا معبود إلا الله؛ لأن المعبودات كثيرة، فتصير كل العبادات الباطلة لله! لا، هذا باطل، لا بد من هذا القيد: لا معبود بحق إلا الله.

(١) أخرجه أحمد (٧٧/٢٤، ٧٩) من حديث عبد الرحمن بن أبزي رَوَى اللَّهُ عَنْهُ.

لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، لا تحذف كلمة (حق)، إذا حذفها صرت على مذهب وحدة الوجود الذين يقولون كل المعبودات هي الله، الأصنام والأحجار والأشجار كلها هي الله عندهم، -فَبَّحهم الله- أهل وحدة الوجود أتباع ابن عربي الطائي.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعليها قام دين الإسلام)، دين الإسلام قام على كلمة «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله، قام عليها دين الإسلام.

لا إله: أي لا معبود، انتهى، لا معبود بحق إلا الله، بطلت كل الإلهة. هذه الكلمة العظيمة الوجيزة أبطلت كل المعبودات من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وأثبتت العبادة لله وحده لا شريك له.

وهي كلمة التقوى والعروة الوثقى؛ ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ هذا معنى لا إله إلا الله.

لا إله: هذا كفران بالطاغوت.

إلا الله: هذا إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ هذه الكلمة العظيمة الشاملة المختصرة الخفيفة على اللسان هذا شأنها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعليها قام دين الإسلام)، وليس القصد أنه يقول: لا إله إلا الله ثم يعبد ما يريد، لا، يلتزم بمعنى هذا الكلمة، وإلا فالقبوريون

يقولون لا إله إلا الله، ويكثرون في الصباح والمساء، ولهم أورد، لكنهم يبطلونها بعبادة القبور، من العجيب أنهم يقولون لا إله إلا الله، ثم يدعون غير الله ويعبدون غير الله، هذا تناقض.

المشركون أبوا أن يناقضوا لما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْأَلَهَةَ إِلَّا هَا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ ﴾ [ص:٥]. عرفوا معنى لا إله إلا الله، وهذا لم يعرف معنى لا إله إلا الله، وهو يقولها وينطق بها، لم يعرف معنى لا إله إلا الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعليها قام دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين)، دين الإسلام هو دين الأنبياء والمرسلين، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠]، والأنبياء كلهم يقولون: نحن من المسلمين.

الإسلام معناه: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهذا دين جميع الأنبياء، فكلهم مسلمون.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وليس لله دين سواه ولا يقبل من أحد ديناً غيره): ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، الذي يبتغي غير الإسلام ديناً يعبد غير الله، يدعو غير الله، هذا ابتغى غير الإسلام ديناً، وإن كان يقول لا إله إلا الله، لكنه لم يعمل بها، يقولها بلسانه ويناقضها بفعله.

فالمشركون الأولون أعرف بمعنى لا إله إلا الله من القبوريين اليوم! القبوريون يقولون لا إله إلا الله ويكثرون ويوردون صباحًا ومساءً، ثم يعبدون القبور، لما هذا التناقض؟، المشركون أبوا أن يقولوها؛ لأنهم لو قالوها لبطلت ألهتهم كلها، وهم لا يريدون هذا؛ فصاروا أعرف بمعنى لا إله إلا الله من هذا القبوري!



فمحبتة سبحانه، بل كونه أحبُّ إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق من أعظم واجباتِ الدِّين، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده. ومن أحبَّ معه مخلوقاً مثلما يُحِبُّه فهو من الشرك الذي لا يُغْفَر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل.

قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الشَّح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمحبتة سبحانه، بل كونه أحبُّ إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق من أعظم واجباتِ الدِّين، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده)، محبة الله وحده، أعظم أنواع العبادة: المحبة، العبادة أنواع أعظمها محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أحبَّ معه مخلوقاً مثلما يُحِبُّه فهو من الشرك الذي لا يُغْفَر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل)، من أحب مع الله غيره. المشركون يحبون الله، ولكنهم يحبون معه غيره من الأصنام والأشجار والأحجار فبطلت محبتهم لله عَزَّ وَجَلَّ.

الموحِّدون يحبون الله وحده ولا يشركون معه غيره في المحبة وسائر أنواع العبادة.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾: انظر! هذا دليل على أن عبَاد الأصنام يحبون الله، لكنهم يحبون معه غيره.

أما أهل التوحيد فيحبون الله وحده؛ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ من حب المشركين لله.

﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: من حب المشركين لله؛ لأن المؤمنين أفردوا الله بالمحبة ولم يحبوا معه غيره محبة عبادة، وأما المشركون فيحبون الله ويحبون معه غيره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال سبحانه): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، هذا دليل على أن المشركين يحبون الله، ولكنهم أحبوا معه غيره من الأصنام والأحجار والأشجار، وأما أهل الإيـمان فيحبون الله وحده ولا يحبون معه غيره محبة عبادة.

أما المحبة الطبيعية هذه ليست عبادة، تحب الطعام، تحب الزوجة، تحب أولادك، هذه محبة طبيعية.



وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟

وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه، والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأُسس الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟)، المؤمنون يحبون أقاربهم، يحبون أصدقاءهم، يحبون إخوانهم المسلمين، لكنها ليست محبة عبادة، بل محبة أخوة.

المؤمن كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه، والذل له)، ليس هناك شك.

(١) أخرجه مسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأُسِّست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقيِّ وسعيدٍ)، على هذه الكلمة، من حققها دخل الجنة، ومن أشرك بالله وهو يقول لا إله إلا الله لا تنفعه، أشرك بالله دخل النار ولو كان يقول لا إله إلا الله؛ لأنه يقولها بلسانه ولم يحققها بعقيدته وقوله وعمله.



وكما أنه سبحانه ليس كمثل شيء، فليس كمحبته وإجلاله محبة وإجلالاً ومخافة. فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه وهربت منه، والله سبحانه وتعالى كلما خفته أنست به وفررت إليه.

والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحِبِّ ووبال عليه، وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكرهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكما أنه سبحانه ليس كمثل شيء، فليس كمحبته وإجلاله محبة وإجلالاً ومخافة)، كل ما يتعلق بالله جَلَّ وَعَلَا فإنه لا يشاركه فيه أحد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه وهربت منه، والله سبحانه وتعالى كلما خفته أنست به وفررت إليه)، الله جَلَّ وَعَلَا كلما خفته قربت منه وأحبيته بخلاف غيره، فالمخلوقات إذا خفتها؛ فررت منها وبعدت عنها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمخلوق يُخَافُ ظَلْمَهُ وَعُدْوَانَهُ، وَالرَّبُّ سَبْحَانَهُ إِنَّمَا يُخَافُ عَدْلَهُ وَقِسْطَهُ)، إِنَّمَا يُخَافُ عَدْلَهُ وَقِسْطَهُ أَنْ يَضَعَ عَلَيْكَ الْمِيزَانَ، فَتُخَفَّ مَوَازِينُكَ؛ ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، فَالْعَدْلُ يَهْلِكُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمَا فَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ، فَأَنْتَ تَسْأَلُ اللَّهَ فَضْلَهُ، وَلَا تَسْأَلُهُ عَدْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَضَعَ عَدْلَهُ عَلَيْكَ هَلَكْتَ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَكذلكَ المَحَبَّةُ فَإِنَّ مَحَبَّةَ المَخْلُوقِ إِذَا لَمْ تَكُنْ لِهِيَ عَذَابٌ لِلْمُحَبِّ وَوَبَالَ عَلَيْهِ)، الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ هَذَا أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

الحب في الله: تحب الشخص لا تحبه إلا لله؛ لا يجد عبداً طعم الإيمان حتى يحب الله، ويجب العبد لا يحبه إلا لله ذاق طعم الإيمان؛ «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الشِّرْكِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَفَ فِي النَّارِ»^(٢)، يَبْغِضُ الشِّرْكَ وَأَهْلَ الشِّرْكِ كَمَا يَبْغِضُ النَّارَ وَالْوُقُوعَ فِيهَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (هَذَا إِلَى مَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْكَ، وَالتَّجَنُّيِ عَلَيْكَ، وَعَدَمِ الْوَفَاءِ لَكَ إِذَا لَمْزَاحِمَةٌ غَيْرُكَ مِنَ الْمُحِبِّينَ لَهُ، وَإِمَا لِكِرَاهَتِهِ وَمَعَادَاتِهِ لَكَ، وَإِمَا لِاسْتِغَالِهِ عَنْكَ بِمَصَالِحِهِ وَمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْكَ، وَإِمَا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ)، هَذَا شَأْنُ الْمَخْلُوقِ، فَلَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَخْلُوقِ، وَتَتَعَلَّقُ بِالْخَالِقِ وَأَخْلِصِ الْمَحَبَّةَ لِلَّهِ، وَلَا تَخْلُصْهَا لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مَحَبَّةَ الْعِبَادَةِ.

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١١).

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحبُّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليُّها ومولاها، وربُّها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبتته سبحانه نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرّة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى، ولا ألد، ولا أطيب، ولا أسرُّ، ولا أنعم، من محبته سبحانه والأنس به والشوق إلى لقائه. والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحبُّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليُّها ومولاها، وربُّها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها)، المحبة نوع من أنواع العبادة، هي أعظم أنواع العبادة، ولكنها لا تكفي كما عند الصوفية. الصوفية يزعمون أنهم يحبون الله فلا يحتاجون إلى الأعمال - نسأل الله العافية - يحبون الله، ويقولون: يكفي هذا ويتركون الأعمال، يقولون: وصلنا، عرفنا الله، يسمونه العارف بالله.

لا، المسلم لا يترك عبادة الله، ما دام فيه حياة؛ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]: يعني الموت، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فالصوفية يقولون: اعبد ربك إلى أن تعرفه، فإذا عرفته فلست بحاجة إلى العبادة، هذا ضلال وكفر، والعياذ بالله.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب^(١).
وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات، يهتزُّ فيها طرباً؛ بأنسه بالله، وحبّه له^(٢).
وقال آخر: مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيّب ما فيها^(٣).
وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف^(٤).
ووجد هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، فكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب)، أهل المحبة الصحيحة الخالصة لله يقولون: إن كان أهل الجنة في مثل هذا فإنهم لفي عيش طيب، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات، يهتزُّ فيها طرباً، بأنسه بالله وحبّه له)، ليس هناك شك، ما أحلى عبادة الله، وما أحلى محبة الله،

(١) تقدم تحريجه (ص ٣٦٦).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/١٧٦) من قول عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٧٠) من قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ.

وما أحلى طاعة الله هذه التي تسر القلب وتبهج النفس، وتؤنس الإنسان، ولا يستوحش أبداً إذا كان مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يستوحش ولا يخاف من شيء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال آخر: مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيّب ما فيها)، والأخر يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أحلى ما فيها، قيل: وما أحلى ما فيها؟ قال: محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)، لأن أهل المحبة في الله في نعيم وفي سرور وفي لذة لا يجدها الملوك.

الملوك مشغولون بالملوك واعتدى علينا فلان، وذهب فلان، ويخافون الأعداء، ويكُونون جيوشاً للدفاع عنهم، لكن الذي يحب الله لا يحتاج إلى هذا كله، مستريح؛ لأنه لا يخاف إلا الله، ولا يجب إلا الله، ولا يرجو إلا الله.



فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحبُّ، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعْرَفُ إلا بالذوق والوجد.

ومتى ذاق القلبُ ذلك لم يُمكنه أن يقدم عليه حبًّا لغيره، ولا أنسابه، وكلما ازداد له حبًّا ازداد له عبوديةً وذلاً، وخضوعاً ورقاً له، وحريةً عن رقبته غيره. فالقلب لا يفلح، ولا يصلح، ولا يتنعم، ولا يبتهج، ولا يلتذُّ، ولا يطمئنُّ، ولا يسكن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه.

ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقاً، حتى يظفر بما خلق له، وهُيئَ له، من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه، فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه، من حيث هو معبوده ومحبوه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقراً ذاتياً إليه، من حيث هو ربُّه وخالقه ورازقه ومدبِّره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه خرج منه تأله لما سواه، وعبوديته له:

فَأَصْبَحَ حُرّاً عِزَّةً وَصِيَانَةً عَلَى وَجْهِهِ أَنْوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ^(١)

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحس به لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به.

(١) أورده ابن مفلح في الآداب الشرعية (٦٠١/٣) منسوباً ليحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه، هي بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه خرج منه تأله لما سواه، وعبوديته له: فَأَصْبَحَ حُرًّا عِزَّةً وَصِيَانَةً... عَلَى وَجْهِهِ أَنْوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ)، محبة الله وعبادته، فعبادة الله تحرك من عبادتك للمخلوقين، وتصبح عبداً لله وحده لا شريك له.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى، وطمانينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه)، ما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله، لكن المحبة لله عند المؤمنين تتفاوت بعضهم أكمل من بعض. ما من مؤمن في قلبه إيمان ولو ضعيف إلا أنه يجب الله جلَّ وَعَلَا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فيحبون الله عَزَّجَلَّ؛ تطمئن قلوبهم بذكره؛ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وكلما قوي الإيمان في قلب المؤمن قويت محبة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

المحبة نوع من أنواع العبادة ولكن هي أساسها؛ المحبة والرغبة والرهبة هذه من أعمال القلوب والصلاة والصيام والجهاد هذه من أعمال الجوارح، فكل مؤمن ولو إيماناً ضعيفاً فإنه يجب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكلما زاد الإيمان زادت محبة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمحبة لا تكفي عن العبادة كما تقوله الصوفية، لابد من العبادة والذل والخضوع وفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، فلا تكفي المحبة، ولكنها أساس العبادة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى، وطمأنينة بذكره)، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنَطَمَنُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. وهذه الطمأنينة تزيد وتنقص بحسب الإيمان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه، هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه)، فكلما زاد الإيمان زادت محبة الله، وكلما ضعف الإيمان ضعفت محبة الله، إلا أن المؤمن لابد أن يحب الله عَزَّوَجَلَّ حُبًّا كثيرًا أو قليلاً؛ فمن لازم الإيمان: محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه، هي بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه)، لأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.



ومتى لم يكن الله وحده غايةً مراد العبد، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب، بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله، متيقناً أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانتته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه لم يحصل له مطلوبه، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يوصل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يُعبد إلا بإعانتته، ولا يطاع إلا بمشيئته: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿التكوير: ٢٨، ٢٩﴾.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومتى لم يكن الله وحده غايةً مراد العبد، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله)، لا بد في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله من محبة الله عَزَّجَلَّ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله بلسانه، ولكنه لا يجب الله بقلبه فهذا منافق يدعي ما ليس له.

فالمنافقون ليس في قلوبهم إيمان إذا كان نفاقهم أكبر، فالنفاق الأصغر قد يجتمع معه الإيثار، أما النفاق الأكبر فلا يجتمع معه الإيثار أبداً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله، متيقناً أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانتته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه لم يحصل له مطلوبه، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، فإذا علق المؤمن قلبه بالله فإنه يعتقد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا حصل له مطلوبه فهذا بمشيئة الله، وإذا لم يحصل له مطلوبه فهذا لعدم مشيئة الله لذلك، فالمؤمن يعلق قلبه بالله ويعتقد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، هكذا المؤمن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾: يعني على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأثبت أن للعبد مشيئة، بخلاف الجبرية الذين يقولون: ليس للعبد مشيئة، وإنما هو مجبر ومحرك كما تحرك الريشة في الهواء، وكما يحرك الميت على يد من يغسله ويقبله وهو ليس له مشيئة ولا إرادة، هذا قول الجبرية.

يقابلهم المعتزلة؛ فإنهم يقولون: الإنسان يخلق فعل نفسه، فليس لله مشيئة في أفعال العباد، وإنما هم الذين يشاؤونها ويوجدونها، تعالى الله عن ذلك.

أهل السنة والجماعة يقولون: الله له مشيئة، والعبد له مشيئة، ولكن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فأثبت للعبد مشيئة، خلاف الجبرية.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]: خلاف المعتزلة الذين يقولون: العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله تدبير في ذلك، ويقولون: الأمر أنف لم يسبق أنه قدر قبل ذلك.

وكل هذا راجع إلى عدم التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اعتمدوا على آرائهم وعلى آراء من يقتدون بهم وضلوا سواء السبيل.

أما المؤمنون - أهل السنة والجماعة - فيثبتون للعبد مشيئة خلاف الجبرية، ويقولون: إنها مربوطة بمشيئة الله عَزَّجَلَّ، خلافاً للمعتزلة والقدرية، هذا هو المنهج الصحيح، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].



فإذا عُرف هذا، فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملةً لما قَدَّم عليها لذةً وشهوةً لا نسبة بينها بوجهٍ ما، بل هي أَدْنَى من حبة خَرْدَلٍ بالنسبة إلى الدنيا وما فيها.

ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١)، فإنَّ ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يُؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يُشعُّه وينقصه.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت أو ذهبت)، فإذا وقع العبد في المعاصي والسيئات؛ فإن محبته لله تضعف أو تزول، لا تجتمع محبة الله مع معصيته ومخالفته؛ لا بد أن المؤمن يجب الله ولو خالفه بعض المخالفات لهوى نفسه فإنه يجب الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جيء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجل قد شرب الخمر؛ ليقيم عليه الحد؛ فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢)؛ فدل على أن المؤمن يجب الله ولو وقع في شيء من المخالفات، فهو يجب الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنها لو كانت موجودة كاملةً لما قَدَّم عليها لَذَّةً وشهوةً لا نسبة بينها بوجه ما، بل هي أَدْنَى من حبة خَرْدَلٍ بالنسبة إلى الدنيا وما فيها)، قد يضعف الإيـان حتى يكون وزن حبة خردل.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(١).

فدل على أن الإيـان يضعف حتى يكون بقدر حبة خردل، هذا المؤمن، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً»، له شُعْبٌ: «أَعْمَالُهَا قَوْلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)؛ فدل على أن الإيـان له أعلى وله أدنى، وله بين ذلك؛ بين الأعلى والأدنى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»)، إذا وقع في المعصية فإن الإيـان يرتفع عنه، ليس معناه أنه يكفر لكن؛ يرتفع عنه الإيـان، لو كان عنده إيمان في هذه اللحظة لم يزن ولم يسرق، فيرتفع عنه ويغيب عنه بسبب الهوى وبسبب الطمع وبأسباب كثيرة.

(١) تقدم تخرجه (ص ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لكنه لا ينقطع، وسرعان ما يعود إليه إيمانه، ويقوى حتى يتكامل في قلبه، فالمعاصي تُنقص الإيمان والطاعات تُزيد الإيمان.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأَنْفَال: ٢-٤].

فالذي يؤمن بالله يقيم صلاته ويطهر عبادته، وإن حصل له غفلة بعض الأحيان إلا أن إيمانه لا يزول، يعاوده ويرجع إليه، فإذا وقع في الزنا، وقع في شرب الخمر يزول عنه الإيمان في هذه الفترة؛ لأنه لو كان عنده إيمان لم يقع في هذه الأمور، لكن يغيب عنه الإيمان في فترة؛ فيقع في المعاصي والسيئات وتغلبه الشهوة والهوى على إيمانه ويقينه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يُشعّنه وينقصه)، فدلّ على أنه عند وقوعه في الشهوة المحرمة يرتفع عنه الإيمان ويغفل عنه، ثم يعود إليه ويندم ويتوب.



ولهذا تجد العبد إذا كان مُخلصاً لله، منيباً إليه، مطمئناً بذكره، مشتاقاً إلى لقائه قلبه، منصرفاً عن هذه المحرمات لا يلتفت إليها، ولا يُعَوِّلُ عليها.

ويرى استبداله بها عمّا هو فيه كاستبداله البعْر الخسيس بالجواهر النفيس، ويبيعه الذهب بأعقاب الجزر، ويبيعه المسك بالرجيع.

ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة، إنما يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، ينفِرُ من المطالب العالية واللذات الكاملة، كما ينفِرُ الجُعَلُ من رائحة الورد.

وشاهدنا من يُمسك بأنفه عند وجود المسك، ويتكرّره بها لما يناله بها من المضرّة.

فمن خُلِقَ للعمل في الدباغة لا يجيء منه العمل في صناعة الطيب، ولا يليق به، ولا يتأتّى منه، والنفوس لا تترك محبوباً إلا المحبوب هو أحبّ إليها منه، أو للخوف من مكروهه هو أشقّ عليها من فوات ذلك المحبوب.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولهذا تجد العبد إذا كان مُخلصاً لله، منيباً إليه، مطمئناً بذكره، مشتاقاً إلى لقائه قلبه، منصرفاً عن هذه المحرمات لا يلتفت إليها، ولا يُعَوِّلُ عليها)، الإيمان إذا قوي في القلب وزاد؛ ابتعد عن المعاصي ومحبة المعاصي والميل إليها، وإذا ضعف الإيمان؛ فإنه يقع في المعاصي والسيئات والمخالفات لضعف إيمانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا تجد العبد إذا كان مُخْلِصًا لله، منيبًا إليه، مطمئنًا بذكره، مشتاقًا إلى لقاءه قلبه، منصرفًا عن هذه المحرمات)، كلما قوي الإيمان انصرف القلب عن المحرمات، وكلما ضعف الإيمان يقرب من المحرمات؛ لأنه ليس هناك إيمان قوي يحجزه عنها، تغلبه الشهوة، يغلبه الهوى، يغلبه الشيطان، يغلبه دعاة السوء وقرناء السوء؛ فيقع في المعصية، لكن سرعان ما يعود له إيمانه فيندم ويتوب إلى الله عَزَّجَلَّ فتمحى سيئاته ويعود إلى إيمانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويرى استبداله بها عمًا هو فيه كاستبداله البع الخسيس بالجواهر النفيس، ويبيع الذهب بأعقاب الجزر، ويبيع المسك بالرجيع)، بعض السلف إذا رأى الشيء الذي يحبه من المباحات؛ ولكنه لا يستطيع الحصول عليه؛ لِفَقْرِهِ، فإنه يقول: موعدك الجنة، لقوة إيمانه ويقينه، وأن الله سيعوضه في الجنة خيرًا مما فاته في الدنيا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة، إنما يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، يَنفِرُ من المطالب العالية واللذات الكاملة، كما ينفر الجُعْلُ من رائحة الورد)، فمن الناس؛ وهم ضعاف الإيمان من يميل إلى المعاصي والسيئات وأهلها، ويمجالسهم ولا يأنس إلا بهم، بمجالس السوء وقرناء السوء.

ومن الناس من ينفر مما يخدش إيمانه ودينه، كما يفر من العدو، وكما يفر من السبع، فلا يجالس أهل الفساد، ولا يخالطهم ولا يأنس بهم، يصبح كأنه في سجن إلى أن يفارقهم ويتعد عنهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فمن خُلِقَ للعمل في الدِّبَاغَةِ لا يَجِيءُ منه العمل في صناعة الطَّيِّبِ، ولا يَلِيْقُ به، ولا يَتَأْتِي منه)، الذي خُلِقَ للدِّبَاغَةِ، دبَاغَةُ الجلود وروائحها المتنتنة هذا ينفر من الطَّيِّبِ ويكره الطَّيِّبِ؛ لأن طبعه تعلق أو نفسه تعلقَتْ بضد الطَّيِّبِ.

ولذلك أهل المعاصي يأنسون بها، بشرب الخمر وبالزنا والسرقة وغير ذلك؛ لأن نفوسهم انحطت وضعف إيمانها، أو يرتفع الإيمان بالكلية وقت مقارفة الذنوب ويكون كالظِّلَّةِ على رأسه، ثم إذا عاد ورجع؛ رجع إليه إيمانه. فالمؤمن يحافظ على إيمانه، ولا يذهب مع ضعاف الإيمان أو مع المنافقين أو مع قراء السوء، لا يذهب معهم، يحفظ إيمانه، ويحْتَنِبُ من الغيبة والنميمة التي تضعف الإيمان، ويذكر الله عَزَّوَجَلَّ ليقوي إيمانه ودينه، هذا شأن المؤمن. يذكرون أن الشخص يشكو من ألم رأسه دائماً، والتمسوا له العلاجات ولم يجدوا له دواءً، وهو يتألم من وجع رأسه، فقال له بعض الأطباء النفسانيين: ما هو عملك الذي تعمل فيه؟ قال أنه يعمل في الصرف الصحي، قال: ارجع إلى عملك من أجل أن لا يوجعك رأسك.

يعني تعود على هذا الشيء فصار يتألم من فراقه، والإنسان وما اعتاد، فلذلك على المؤمن أن يلازم الخير وأهل الخير، ويتعد عن جلساء السوء وعن أمكنة السوء؛ ليصون نفسه ويقوي إيمانه.



فالذنب يُعدم لعدم المقتضي له تارة، لاشتغال القلب بما هو أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، من خوف فوات محبوبٍ هو أحب إليه منه:

فالأول: حالٌ من حَصَلَ له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعم به ما عَوَّض قلبه عن مَيْلِه إلى الذنوب.

والثاني: حالٌ من عنده داعٍ وإرادةٌ لها، وعنده إيمانٌ وتصديقٌ بوعد الله تعالى ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيها هو أكره إليه، وأشقَّ عليه.

فالأول للنفوس المطمئنة إلى ربها، والثاني لأهل الجهاد والصبر. وهاتان النفسان هما المخصوصتان بالسعادة والفلاح.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالأول للنفوس المطمئنة إلى ربها)، النفوس درجات: نفس مطمئنة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس كافرة خالصة في الكفر، فالنفوس تتفاوت بلا شك، فعلى المسلم أن يحافظ على نفسه فيجنبها ما يندسها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فالذي يندس نفسه بالمعاصي هذا خاب، والذي يترفع بنفسه عن المعاصي هذا أفلح، ﴿أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

تزكية النفوس منها شيء لا يجوز؛ ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والمراد: لا تمدح نفسك، بل اعتبر نفسك مقصراً مهما عملت، لا تمدحها، هذا لا يجوز أنك تمدح نفسك، أما أن تأخذ بها إلى الخير وإلى الطاعات هذا مأمور به.

فتارةً يُنهى عن تزكية النفس وذلك بمدحها، وتارةً يُؤمر بتزكية النفس وذلك بحملها على الطاعة والعبادة والذكر لله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والثاني لأهل الجهاد والصبر)، الجهاد المراد به جهاد النفس، النفس تحتاج إلى جهاد، أول مراتب الجهاد: جهاد النفس، فالذي لا يجاهد نفسه لا يجاهد العدو، ولا يجاهد الشيطان.

أول شيء: يجاهد نفسه.

ثانياً: يجاهد الشيطان.

ثالثاً: يجاهد الكفار والمنافقين؛ فالجهاد أنواع ولكن أول شيء جاهد نفسك، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].



قال الله تعالى في النفس الأولى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿الفجر: ٢٧-٣٠﴾، وقال في الثانية: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا تُمْرَّ جَهْدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النحل: ١١٠﴾.

فالنفوس ثلاثة:

نفس مطمئنة إلى ربِّها، وهي أشرف النفوس وأزكاها.
ونفس مجاهدة صابرة.

ونفس مفتونة بالشهوات والهوى، وهي النفس الشقيّة، التي حظها الألم والعذاب، والبعد عن الله تعالى والحجاب.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال الله تعالى في النفس الأولى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿الفجر: ٢٧-٣٠﴾)، ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: إلى جسدك، هذا عند البعث.

﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾: هذه النفس المطمئنة.

النفس الأمارة بالسوء هذه تحتاج إلى جهاد، تجاهدها على طاعة الله.

الأولى لا تحتاج إلى جهاد، مطمئنة، لكن الأمارة بالسوء هي التي تحتاج إلى الجهاد وأول مراتب الجهاد: جهاد النفس، فمن لم يجاهد نفسه لم يجاهد الشيطان، ولم يجاهد الكفار؛ حتى يبدأ بنفسه يجاهدها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال في الثانية: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠])، الذين هاجروا وصبروا وجاهدوا في سبيل الله، ولو كان سبق منهم شيء من المعاصي والسيئات، لكن يغفرها الله لهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونفس مفتونة بالشهوات والهوى، وهي النفس الشقية، التي حَظَّهَا الأَلَمُ والعَذَابُ، والبعد عن الله تعالى والحجاب)، نسأل الله العافية.



فصل

في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى كاد ذرية نفسه وذرية آدم، فكان مشؤومًا على نفسه، وعلى ذريته، وأوليائه، وأهل طاعته من الجن والإنس. أما كيده لنفسه: فإن الله سبحانه وتعالى لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام كان في امثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزّه ونجاته، فسوّلت له نفسه الجاهلة الظالمة أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضةً عليه، وهضمًا لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجدًا لمن خلق من طين، وهو مخلوق من نار، والنار بزعمه أشرف من الطين، فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضةً عليه، وهضمٌ لمنزله!

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فصل: في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين)، هذا كيد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين: آدم وحواء عليهما السلام؛ لما كاد لهما؛ أخرجهما من الجنة بسبب كيده لهما.

لما أكلا من الشجرة التي نُهيَا عن الأكل منها فهو كاد لنفسه يعني ضررها قبل أن يضر الأبوين؛ لأنه كان قبل ذلك في السماء يتعبد مع الملائكة إلى أن حسد آدم وكاد له للأكل من الشجرة فأهبطه الله من الجنة وطرده ولعنه، وأهبطه من الجنة، فهو كاد لنفسه وضرّها قبل أن يضر آدم عليه السلام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم لم يقتصر على ذلك، حتى كاد ذرية نفسه وذرية آدم، فكان مشؤومًا على نفسه، وعلى ذريته، وأوليائه، وأهل طاعته من الجن والإنس)، كاد لأتباعه، بعدما كاد لنفسه، كاد لأتباعه وضر نفسه وضر أتباعه من الجن والإنس، وهذه نتيجة المعاصي - والعياذ بالله - هذه ثمرات المعاصي على إبليس، وعلى بني آدم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أما كيده لنفسه: فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أمره بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في امتهال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعِزُّه ونجاته، فسوَّلت له نفسه الجاهلة الظالمة أن في سجوده لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضاضَةً عليه، وهَضْمًا لنفسه، إذ يَخْضَعُ ويقَعُ ساجدًا لمن خُلِقَ من طِينٍ، وهو مخلوقٌ من نار، والنار بزعمه أشرف من الطين)، السجود لآدم الذي أمر الله به الملائكة هو سجود التحية، وليس سجود العبادة، وكان معروفًا حتى في أول الإسلام؛ كانوا يسجدون سجود التحية للقادم وللإنسان الذي له مكانة.

حتى إن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا قَدِمَ من الشام ورآهم يسجدون لأكابرهم سجودَ تَحِيَّةٍ، أراد أن يسجد للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»^(١)؛ من عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، فَنَسِخَ ذَلِكَ، نُسِخَ سَجُودُ التَّحِيَّةِ من ذلك الوقت.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وأحمد (٣٢ / ١٤٥)، وابن حبان (٩ / ٤٧٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَدِمَ مُعَاذُ الْيَمَنِ، أَوْ قَالَ: الشَّامِ، فَرَأَى النَّصَارَى تَسْجُدُ لِطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَى فِي نَفْسِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ أَنْ يُعْظَمَ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: =

ومع أنه أضر بنفسه وحسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قاس قياسًا فاسدًا، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾: يعني من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وهو عليه الامتثال، وقد عصى الله في ذلك، ثم قاس قياسًا باطلاً، فيقولون: أول من قاس إبليس، الذين ينكرون القياس يقولون: أول من قاس إبليس، فنقول: القياس على قسمين: قياس فاسد، وقياس صحيح: وهو إلحاق الفرع بالأصل في الحكم لعله جامعة بينهما^(١)، وهذا دليل من الأدلة الشرعية: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فهو دليل وأصل من أصول أهل السنة والجماعة.

لكن إبليس قاس قياسًا فاسدًا حيث زعم أن النار أحسن من الطين، وهذا غلط؛ لأن الطين أحسن من النار، النار لا تنتج شيئًا، ولا تنبت شيئًا، وإنما تحرق فقط، وأما الطين، فإنه ينبت الزروع، وينبت الكلاء، والطين فيه المعادن النفيسة، فالطين أحسن من النار.



= يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتُ النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّأْتُ فِي نَفْسِي أَنَّكَ أَحَقُّ أَنْ تُعَظَّمَ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرٌ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِرُؤُوسِهَا، وَلَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَيْهَا كُلَّهُ، حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ رُؤُوسِهَا عَلَيْهَا كُلَّهُ، حَتَّى لَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ لَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ».

(١) انظر: الورقات للجويني (ص ٢٦)، وقواطع الأدلة في الأصول (٢/ ١٣٤)، والإبهاج (٣/ ٣).

فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة، فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميزه بذلك عن الملائكة، وأسكنه جنته، فبلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ، وكان عدو الله يُطيفُ به وهو صلصالٌ كالفخار، فيعجب منه، ويقول: لأمرٍ عظيمٍ قد خُلق هذا، ولئن سلطتُ على لأعصيته، ولئن سلطتُ عليه لأهلكته^(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة)، الله خلق آدم بيده، هذا من كرامة آدم أن الله خلقه بيده؛ ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، خلق الله آدم بيديه الكريمتين، وهذا فيه فضل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من رُوحه)، نفخ فيه من رُوحه المخلوقة من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، جبريل هو روح الله بمعنى أن الله خص جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من بين الملائكة؛ لأنه الروح الأمين، وأمينه على وحيه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأسجد له ملائكته)، أسجد لآدم ملائكته سجود التحية؛ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]: يعني سجود تحية.

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٤٨٢-٤٨٤)، وتفسير ابن كثير (١/٢٢٧، ٢٢٨).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ)، الكرامة الثانية: أن الله علمه أسماء كل شيء، كل شيء في هذا الكون فإن آدم يعرف اسمه وغيره لا يعرفونه، والله جَلَّ وَعَلَا قال للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿أَنْبِئُونِي﴾: يعني أخبروني، ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾: يعني المخلوقات.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

[البقرة: ٣٢]، ولم يعلمهم الله أسماء كل شيء، إنما هذا من خصائص آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

[البقرة: ٣٣]. فظهر فضل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ناحية أن الله خلقه بيده، ومن ناحية العلم أن الله علمه الأسماء، أسماء كل شيء، فهذا من فضائل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَمِيَّزَهُ بِذَلِكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ)، ميز آدم بالعلم على الملائكة؛ علمه ما لم يُعَلِّمِ الْمَلَائِكَةَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ)، وهذه الفضيلة الثالثة لآدم: أن الله أسكنه جنته؛ ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وهل هي الجنة الموعود بها التي هي ضد النار، أو هي بستان في السماء؟ الظاهر أنها بستان في السماء، والبستان يسمى جنة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَبَلَغَ الْحَسَدَ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ كُلِّ مَبْلَغٍ)، لما ظهرت فضائل آدم، ظهر حسده لآدم فإبليس هو أول من حسد، وعمل بالحسد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان عدو الله يُطِيفُ به وهو صلصالُ كالفَخَّارِ)، وكذلك الله جَلَّ وَعَلَا لما خلق ابني آدم؛ ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧].

أخوه حسده على أن الله تقبَّلَ منه ولم يتقبل من القاتل، فسبب قتل قابيل لهابيل هو الحسد؛ حسد أخاه لما تقبَّلَ الله منه؛ وذلك أنهم إذا تصدقوا بصدقة، المقبول منها تنزل نار من السماء فتحرقه، هذه علامة القبول، وغير المقبول يبقى على حاله^(١). فابنا آدم حسد أحدهما الآخر فقتله.

وجاء في الحديث الصحيح: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَقْتُلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(٢).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان عدو الله يُطِيفُ به وهو صلصالُ كالفَخَّارِ)، لما بناه الله جَلَّ وَعَلَا قبل أن ينفخ فيه الروح، الصلصال يعني طين، طين معتق. أنتم ترون الناس المهرة في البناء يعتقدون الطين بأن يصبوا عليه الماء مدة حتى يتصلب ويقوى، فآدم خُلِقَ من صلصال.

﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]: يعني فيه رائحة الماء، والتأثير بالماء، ظهرت له رائحة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو صلصالُ كالفَخَّارِ)، خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ: يعني إبليس وذريته؛ ﴿مِنْ مَارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]: يعني من لهب، المارج: هو لهب النار.

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣١٧-٣٢٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيعجب منه، ويقول: لأمرٍ عظيمٍ قد خُلِقَ هذا، ولئن سُلِّطَ عَلَيَّ لِأَعْصِيَّتِهِ، ولئن سُلِّطْتُ عَلَيْهِ لِأَهْلِكَنَّهُ)، هكذا يقول إبليس يعني أدرك أن الله كرم آدم، وحسده على ذلك وتوعد أنه ليهلكنه، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا حمى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن شاء من ذريته، حماه من الشيطان؛ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].



فَلَمَّا تَمَّ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَكْمَلِ صُورَةٍ وَأَجْمَلِهَا، وَكَمَلَتْ مُحَاسِنُهُ الْبَاطِنَةَ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ، وَتَوَلَّى رَبُّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ بِيَدِهِ، فَجَاءَ فِي أَحْسَنِ خَلْقٍ، وَأَتَمَّ صُورَةَ، طُولَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا، قَدْ أَلْبَسَ رِداءَ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ وَالْمَهَابَةِ وَالْبَهَاءِ، فَرَأَتْ الْمَلَائِكَةُ مَنْظَرًا لَمْ يَشَاهِدُوا أَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلَ، فَوَقَعُوا كُلُّهُمْ سَجُودًا لَهُ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَشَقَّ الْحَسُودُ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَاشْتَعَلَتْ فِي قَلْبِهِ نِيرَانُ الْحَسَدِ الْمَتِينِ، فَعَارَضَ النَّصَّ بِالْمَعْقُولِ بَزْعَمِهِ، كَفَعَلَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الْمُبْطِلِينَ، وَقَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فَأَعْرَضَ عَنِ النَّصِّ الصَّرِيحِ، وَقَابَلَهُ بِالرَّأْيِ الْفَاسِدِ الْقَبِيحِ.

ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بِالْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي لَا تَجِدُ الْعُقُولَ إِلَى الْإِعْتِرَاضِ عَلَى حِكْمَتِهِ سَبِيلًا، فَقَالَ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (طوله في السماء ستون ذراعًا)، طول آدم ستون ذراعًا، وما زال الخلق يتناقص.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجدًا له بأمر ربهم تبارك وتعالى)، سجود التحية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢])، هذا دليله أنه مخلوق من نار فهو أفضل من آدم؛ لأن آدم مخلوق من الطين، وبزعمه أن النار أفضل من الطين، وهذا زعم باطل؛ لأن النار لا تنتج شيئاً، وإنما تحرق وتهلك، وأما الطين فإنه مبارك؛ ينبت الزروع، ينبت الفواكه، ينبت الكلاء، وينبت الأشياء الطيبة، وتُستخرج منه المعادن الثمينة، فأين النار من الطين؟!!!



وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني لم كرمته؟

وَعَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟

ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وإزرائه به، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. ثم قرّر ذلك بحجّته الداحضة، في تفضيل مادّته وأصله على مادة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصله، فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصية الرب المعبود، فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل.

فأهان نفسه كلّ الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعها، وأذلّها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مَصْرَّتِهِ لم يبلغ منه ذلك المبلغ، ومن كان هذا غِشَّهُ لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل ويواليه؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَعَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب)، هكذا يقول لربه، يطعن في حكمة الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وإزرائئه به، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾)، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، هذا دليhle.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾)، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، وليس من الملائكة وإن كان معهم ويتعبد معهم، لكنه من الجن فخانته أصله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾)، ﴿فَسَقَ﴾: يعني خرج ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، الفسق: هو الخروج عن طاعة الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠])، الذي يختار إبليس وجنوده ويتبعهم، ويترك أمر الله وطاعة الله الذي خلقه ورزقه، الذي له ملك السموات والأرض؛ هذا من الانتكاس، والعياذ بالله.

فأيها خير: أن تطيع الله الذي خلقك ورباك، والذي بيده عزك وكرامتك ورزقك، أو تطيع إبليس العدو اللدود لبني آدم؟!

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]: يتوعد بني آدم أنه سيضلهم ويهلكهم إلا من عصمه الله؛ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

فصل

وأما كيده للأبوين: فقد قصَّ الله سبحانه علينا قصَّته معهما، وأنه لم يزل يخدعهما ويعدهما ويؤمِّنهما الخلود في الجنة، حتى حلف لهما بالله جَهْدَ يمينه أنه ناصح لهما، حتى اطمأنا إلى قوله، وأجاباه إلى ما طلبَ منهما، فجرى عليهما من المحنة، والخروج من الجنة، ونزع لباسهما عنهما ما جرى.

وكان ذلك بكَيْدِهِ ومكره الذي جرى به القلم، وسبق به القدر، وردَّ الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبةُ مكره عليه، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]!

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما كيده للأبوين: فقد قصَّ الله سبحانه علينا قصَّته معهما، وأنه لم يزل يخدعهما ويعدهما ويؤمِّنهما الخلود في الجنة)، لما نهى الله آدم أن يأكل من الشجرة التي في الجنة، شجرة واحدة وأباح له كل ما في الجنة.

فزين له الشيطان هذه الشجرة، ﴿وَقَالَ مَا تَهَنْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا ﴿٢١﴾: حلف لهما؛ ﴿إِنِّي لَكُمْ لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِفُرُورٍ ﴿[الأعراف: ٢٠-٢٢]﴾، والعياذ بالله.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾: ظهرت عورتها، وكانت مستورة من قبل، ومن ذلك ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

يغطيان عورتها، فهذه نتائج طاعة الشيطان والاعتزاز به وتزيينه وتسويله لأدم وذريته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنه لم يزل يخدعها ويعدّها ويُمَنِّيها الخلود في الجنة، حتى حلف لها بالله جَهْدَ يمينه أنه ناصح لها، حتى اطمأنا إلى قوله)، لما حلف لها اطمأنا إلى قوله لطيبتهما وثقتها بالحلف.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأجاباه إلى ما طلبَ منهما)، أكلا من الشجرة التي نُهيَا عن الأكل منها، وهي شجرة الحنطة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فجرى عليهما من المحنة، والخروج من الجنة، ونزع لباسهما عنهما ما جرى)، ولا يزال إبليس يحاول كشف العورات منذ ذاك الوقت؛ يجبر النساء إلى السفور والتعري، ويجربني آدم إلى عدم ستر عورتهم، ولهذا قمعهُ الله جَلَّ وَعَلَا، وقال: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ يعني لباسكم؛ ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]: يعني عند كل صلاة.

هذا ستر العورة في الصلاة، وهو شرط من شروط صحة الصلاة؛ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي عند كل صلاة استروا عوراتكم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان ذلك بكَيْدِهِ ومكره الذي جرى به القلم، وسبقَ به القدر)، جرى به القلم، القلم الذي كتب الله به المقادير في اللوح المحفوظ؛ كما في الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ قَالَ رَبِّ وَمَاذَا اَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٣٧٨/٣٧) من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَرَدَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ كَيْدَهُ عَلَيْهِ، وَتَدَارَكَ الْأَبْوِينَ بِرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ)، رد الله كيد إبليس عليه، ولم يضر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، هذه الكلمات.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَأَعَادَهُمَا إِلَى الْجَنَّةِ عَلَى أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ وَأَجْمَلِهَا)، أعادهما، لما تابا إلى الله وتضرعا إليه أحسن من كونها فيها بعد خلقهما؛ لأنها عادا إليه تائبين منيبين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، متضرعين إلى الله، فهذا أحسن من حالهما الأول.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَعَادَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِ عَلَيْهِ)، باء باللعنة، وباء بالبعد عن رحمة الله، وباء بكل نقص وعقوبة، والعياذ بالله.

كلاهما عصي: آدم وإبليس، ولكن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ تاب إلى الله وتاب الله عليه، واعترف بذنبه، أما إبليس فإنه زاد في الشر، فزاده الله إهانة، وزاده الله عذاباً، والعياذ بالله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]!، ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: يعني لا يهلك؛ ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾؛ لأن المكر على قسمين:

القسم الأول: مكرٌ حسن، وهو إيصال الخير إلى الشخص من طريق غير معلوم لا يعلمه إلا الله.

القسم الثاني: مكر مذموم، وهو الإساءة والضرر، وهو المكر السيئ؛ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له في هذا الحرب، ولم يعلم
بكمين جيش: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا بإقبال دولة: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه
بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، من
أجل أكله أكلها.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يعلم بكمين جيش: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ
تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣])، آدم وحواء تابا إلى
الله ودعيا ربهما بالمغفرة والرحمة فاستجاب الله لهما، فكان حالهما بعد التوبة
أحسن من حالهما قبل التوبة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا بإقبال دولة: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾
[طه: ١٢٢])، ﴿اجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾، ﴿اجْنَبْهُ﴾: يعني اختاره.

﴿اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: مما وقع من المعصية، ﴿وَهَدَىٰ﴾: ودله
على الطريق الصحيح، هذه كلها كرامات لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه
وحبيبه الذي خلقه بيده)، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن الله يتخلى عنه، فالله لا يتخلى

عن أوليائه وأحبابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ، إِنْ تَابُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنْ هَذَا يَزِيدُهُمْ كَمَا لَا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ أَجَلَ أَكَلَتْهُ أَكَلَهَا)، وَتَابَ مِنْهَا، أَكَلَتْهُ وَقَدْ نُهِِيَ عَنْهَا، لَكِنْ تَابَ مِنْهَا، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.



وما علم أن الطبيب قد علّم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحسّ بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدوّ بسهمه وقع في غير مَقْتَل، فبادر إلى مُداواة الجُرح، فقام كأن لم يكن به قَلْبَةٌ.

بُلي العدوّ بالذنب فأصرّ، واحتج وعارض الأمر، وقَدَح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلّة.

وبُلي الحبيب بالذنب، فاعترف وتاب وندم، وتضرّع واستكان وفزع إلى مَفْزَع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العيبُ، وغُفِر له الذنب، فقبل منه المتاب، وفتح له من الرحمة والهداية كلُّ باب.

ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كان شيمته التوبة والاستغفار فقد هُدي لأحسن الشيم.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما علم أن الطبيب قد علّم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحسّ بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدوّ بسهمه وقع في غير مَقْتَل، فبادر إلى مُداواة الجُرح، فقام كأن لم يكن به قَلْبَةٌ)، هذا مثل ساقه الشيخ في حالة آدم مع ما حصل منه من الذنب أنه كان سبباً في كرامته، وإعلاء شأنه؛ لأنه تاب إلى الله وتضرّع إلى الله واعترف بذنبه وهذه فضائل عظيمة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وبُلي الحبيب بالذنب، فاعترف وتاب وندم، وتضرّع واستكان وفزع إلى مَفْزَع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار)، هذا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إبليس عصى ربه ولم يتب، بل تمرد وزاد من المعصية، أما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عصى، لكنه تاب إلى الله وتضرع فكانت حاله بعد التوبة أحسن من حاله قبلها، ففات على إبليس مقصوده من آدم، والحمد لله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم)، هذا بيت،

يقول:

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ: عدي بن حاتم الجواد المشهور، وعدي هذا

صحابي جليل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمَ^(١)

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَمَنْ كَانَتْ شِيمَتُهُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَقَدْ هُدِيَ لِأَحْسَنِ

الشيم)، التوبة والاسْتِغْفَارُ أمرهما عظيم، والله يحب التوابين، ويجب المتطهرين، ويجب المتقين، ويجب المحسنين.



(١) عزاه في شرح التصريح على التوضيح (١/ ٦٢) لرؤية، يمدح به عدي بن حاتم.

فصل

ثم كاد أحدَ وَلَدَيْ آدَمَ، ولم يزل يتلاعبُ به حتى قتلَ أخاه، وأسخطَ أباهُ، وعصى مولاها، فسَنَّ للذرية قتل النفوس، وقد ثبت في «الصحیح» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١)، فكاد العدوُّ هذا القاتل بقطيعة رحمه، وعقوق والديه، وإسخاط ربّه، ونقص عَدَدِهِ، وظلم نفسه، وعَرَضَهُ لأعظم العقاب، وحرَمَهُ حظّه من جزيل الثواب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم كاد أحدَ وَلَدَيْ آدَمَ)، قصة ابْنِي آدَمَ لما حسد أحدهما الآخر فقتله؛ لأن الله تقبل منه ولم يتقبل من القاتل فحسده على ذلك، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]: هابيل وقابيل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولم يزل يتلاعبُ به حتى قتلَ أخاه)، ولم يزل يتلاعبُ بقابيل حتى قتلَ أخاه هابيل؛ بسبب أن الله استجاب لهابيل ولم يستجب لقابيل، فحسده على هذه النعمة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأسخطَ أباهُ)، أسخطَ أباهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كان آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا في وقت القتل هذا، فأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أساءه ما حصل من ابنه مع ابنه الآخر.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعصَى مولاها، فَسَنَّ لِلذَّرِيَةِ قَتْلَ النُّفُوسِ)، أول من قَتَلَ ظَلَمًا هو قابيل، قَتَلَ أَخَاهُ لِمَا تَقَبَّلَ اللهُ مِنْهُ، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَكَادَ الْعَدُوُّ هَذَا الْقَاتِلَ بِقَطِيعَةِ رَحْمِهِ، وَعَقُوقِ وَالِدِيهِ، وَإِسْخَاطِ رَبِّهِ، وَنَقْصِ عَدَدِهِ، وَظَلْمِ نَفْسِهِ، وَعَرَضِهِ لِأَعْظَمِ الْعِقَابِ، وَحَرَمِهِ حِظَّهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ)، هَذِهِ عَقُوبَةُ التَّعَدِيِّ عَلَى أَخِيهِ، قَتَلَ أَخِيهِ لِأَلْشِيءِ إِلَّا لِأَنَّ اللَّهَ تَقَبَّلَ مِنْهُ مَا بَدَّلَهُ اللَّهُ عَرَجَجَلًا مِنَ الصَّدَقَةِ.



فصل

ثم جرى الأمر على السداد والاستقامة، والأمة واحدة، والدين واحد، والمعبود واحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال سعيد عن قتادة^(١): ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَشْرَةَ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْهُدَى وَعَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نُوحًا، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَبُعِثَ عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ وَتَرَكَ الْحَقَّ.

وقال ابن عباس^(٢): ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كانوا على الإسلام كلهم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٧٧/٢).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٦٢١/٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةَ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا؛ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]». وأخرجه الحاكم (٤٨٠/٢)، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه).

فصل

ثم جرى الأمر على السداد والاستقامة، والأمة واحدة، والدين واحد،
 والمعبود واحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا
 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
 [يونس: ١٩].

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم جرى الأمر على السداد والاستقامة، والأمة واحدة،
 والدين واحد، والمعبود واحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً
 وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
 فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩])، كان الناس أمة واحدة من عهد آدم
 عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم أمة واحدة.

ثم بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هناك من خيار أتباعه جماعة: وَدُّ، وَسُوعٌ،
 وَيَعْقُوثُ، وَيَعْقُوقُ، وَنَسْرٌ، كانوا علماء، كانوا عِبَادًا، وكانوا مستقيمين على دين
 أبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، عشرة قرون (ألف سنة)، وهم على
 التوحيد، وعلى الاجتماع، وعلى اتباع نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلا أنهم ماتوا في
 عام واحد؛ فحزن عليهم قومهم وفقدوهم، جاءهم الشيطان -لعنه الله- في
 صورة إنسان، وقال: صوروا صور هؤلاء الصالحين، وانصبوا هذه الصور

على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها؛ حتى إذا رأيتموهم تتذكروهم، فتنشطون على العبادة والافتداء بهم.

فقبلوا هذه المشورة، صوروا صورهم ونصبوها على مجالس هؤلاء، فلم تعبد؛ لأن العلماء موجودون ولا يستطيع إبليس أن يزين لهم عبادتها؛ لأن العلماء موجودون، اكتفى بنصبها على مجالسهم.

فلما طال الزمن قال: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور على مجالس الصالحين إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، وكان العلماء قد ماتوا وفشا الجهل، فقبلوا منه هذه المشورة الإبلسية فعبدوهم من دون الله: ود سواع ويغوث ويعوق ونسر، وحدث الشرك في الأرض من ذلك التاريخ^(١)؛ فأرسل الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى الله وينكر هذا الشرك، ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، يدعوهم إلى التوحيد.

﴿وَمَا آءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، يقال: إن الذين استجابوا لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مائة وأربعون فقط، والبقية عصوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه قد تمكن كيد الشيطان من قلوبهم.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَارَتِ الْأَوْتَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوعٌ كَانَتْ هُدَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي عَطِيفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا يَعُوقٌ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنْ انْصَبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَيْكَ وَتَسَخَّ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

فلما عصوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أوحى الله إليه: ﴿أَنْتَهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، عند ذلك دعا عليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال: ﴿رَبِّ لَا نَذِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]: أي ساكن دار.

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾ [نوح: ٢٧]، فدعا عليهم: ﴿رَبِّ لَا نَذِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، فأرسل الله الطوفان عليهم وأغرقهم جميعًا بعدما أمر نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصنع السفينة، وصنع السفينة وكان نجارًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم ركب فيها هو وذريته وأتباعه؛ إلا ابن نوح الذي عصى والده.

ناداه أبوه: ﴿يَبْنَئِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَبَّأُوْا إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣]. فغرق مع الكفار كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثم إنه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نادى ربه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]: الله وعده أن ينجي أهله.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰكِمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]: يعني ليس من أهلك الناجين.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰلِحٍ﴾: وفي قراءة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰلِحٍ﴾.

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤٦)
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي
 أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ [هود: ٤٦، ٤٧]، فهذا حاصل ما جرى على عهد نوح
 عَلَيْهِ السَّلَامُ.



وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال سعيد عن قتادة^(١): ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْهَدَى وَعَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نُوحًا، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَبُعِثَ عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ وَتَرَكَ الْحَقَّ.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾)، كانوا أمة واحدة من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عَهْدِ نُوحٍ، لَمَّا عَصَوْا نُوحًا وَكَفَرُوا بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالطُّوفَانِ وَهُوَ الْغُرْقُ الَّذِي عَلَا عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ؛ أَمَرَ السَّمَاءَ فَامْطَرَتْ مَطَرًا قَوِيًّا، وَأَمَرَ الْأَرْضَ فَتَفْجَرَتْ عَيْونًا حَتَّى التَّنَائِيرِ الَّتِي كَانُوا يُوقِدُونَ فِيهَا النَّارَ فَارَتْ، ﴿وَفَارَ النَّوُورُ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَأَلْنَقَى السَّمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ﴾ [القمر: ١٢]: ماء الأرض وماء السماء، أغرقهم الله عن آخرهم إلا من ركب مع نوح في السفينة.

(١) تقدم تحريجه (ص ٤٧١).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾)، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾: لما اختلفوا وحصل الكفر بعث الله النبيين - وأولهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ - ينهونهم عن الشرك، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [يونس: ١٩]: على التوحيد وعلى الدين.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾: يعني اختلفوا.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾)، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: يعني نوع الكتب، ﴿الْكِتَابَ﴾: يعني نوع الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء: التوراة والإنجيل والزرور، صحف إبراهيم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣])، ليحكم الكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، فالحكم إلى كتاب الله عَزَّجَلَّ في كل وقت: في العقائد في المعاملات في أي شيء، وأي خلاف؛ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وفي الآية الأخرى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَأْتِيَ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال سعيد عن قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى الْهُدَى)، عشرة قرون: أي ألف سنة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عَزَّوَجَلَّ نُوحًا)، بعث الله أول الرسل وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.



وقال ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كانوا على الإسلام كلهم. وهذا هو القول الصحيح في الآية. وقد روى عطية، عن ابن عباس^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كانوا أمة واحدة كانوا كفارًا. وهذا قول الحسن، وعطاء، قالوا: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أمة واحدة، على ملة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفارًا كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا، وإبراهيم، والنبیین. وهذا القول ضعيف جدًا، وهو منقطع عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم^(٢): حدثنا أبو زُرعة، حدثنا شيبان بن قُرُوح، قال: حدثنا هَمَّامٌ، قال: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانوا على الإسلام كلهم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال ابن عباس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كانوا على الإسلام كلهم، وهذا هو القول الصحيح في الآية)، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿البقرة: ٢١٣﴾، لما حصل الاختلاف بعث الله الرسل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد روى عطية، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كانوا أمة واحدة كانوا كفارًا)، وهذا ليس بصحيح، ليسوا كفارًا كانوا على التوحيد.

(١) أورده الثعلبي في التفسير (٥/ ٣٦٧)، وقال: وروي عن ابن عباس قال: «كان الناس على عهد إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أمة واحدة؛ كفارًا كلهم».

(٢) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٧)، والدر المشهور (١/ ٥٨٢).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كانوا كفارًا كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا، وإبراهيم، والنبين. وهذا القول ضعيف جدًا)، بل غير صحيح.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانوا على الإسلام كلهم)، كانوا على التوحيد كلهم من عهد آدم إلى عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.



وهذا هو الصواب قطعاً، فإن في قراءة أبي بن كعب: (فاختلفوا
فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة
يونس: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس: ١٩].

والمقصود أن العدو كادهم وتلاعب بهم، حتى انقسموا قسمين: كفاراً
ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث.

وكان أول ما كاد به عبادة الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير
أهلها، ليتذكروهم بها، كما قصَّ الله سبحانه قصتهم في كتابه، فقال: ﴿ وَقَالُوا
لَا نَذَرَنَّا الْهَتَكَ وَلَا نَذَرَنَّا وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةً لِلَّهِ: (ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا
كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس: ١٩])، ﴿ فَاخْتَلَفُوا ﴾
آية سورة يونس تُبَيِّنُ أنهم كانوا على التوحيد، إلى أن حدث فيهم الشرك
فبعث الله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك، ثم تابع
الرسل من بعده إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحْمَةً لِلَّهِ: (والمقصود أن العدو كادهم وتلاعب بهم، حتى انقسموا
قسمين: كفاراً ومؤمنين)، العدو: وهو إبليس -لعنه الله- قد لعب بهم،
فانقسموا إلى قسمين: مؤمنين وكفار بعد أن كانوا أمة واحدة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والمقصود أن العدو كادهم وتلاعب بهم، حتى انقسموا قسمين: كفارًا ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث)، كادهم: يعني أنه عمل لهم الكيد والضلال.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان أول ما كاد به عبادة الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها)، ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، عبدوا قبورهم.

فتنة القبور فتنة شديدة؛ يأتي الشيطان ويزين لهم أن صاحب هذا القبر يقضي الحوائج ويجيب الدعوات إلى آخره، فيصدقونهم؛ لأنهم يحبون قضاء حوائجهم، فإذا وجدوا شيئًا من هذا فرحوا به، ولا ينظرون إلى طريقه، ينظرون إلى حوائجهم فقط.

وهذا الذي عليه عباد القبور اليوم، يطلبون حوائجهم من الموتى، ولا يطلبونها من الله، ينسون الله ويطلبون من الموتى، نسأل الله العافية.

وإذا سئلوا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. نتخذهم شفعاء يشفعون لنا عند الله، ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَرَعٌ لَكُمْ أَنْ تَمْدُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَيْهِ؛ تدعوه وتعبدوه، لم يشرع لكم أن تدعوا غيره وتقولون يشفعون لنا عند الله؛ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَقَالَ: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَيْكُمُ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣])، يعني لا تطيعوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وتذروا
أهتكم، تمسكوا بهم واتركوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته.



قال البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت»^(١).

وقال ابن جرير: عن محمد بن قيس، قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، كان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم»^(٢).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت)، نُسخ العلم يعني رُفِعَ، مات العلماء، لا يقبض العلم إلا بموت العلماء، فلما ماتوا انقبض العلم، جاء الشيطان فباض وفرخ في رؤوسهم -والعياذ بالله- لأنه ليس هناك علماء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن محمد بن قيس، قال: كانوا قومًا صالحين من بني آدم، كان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا)، هذا فيه التحذير من التصوير لاسيما التماثيل، التماثيل: المجسمات، وهذه

(١) تقدم تحريجه (ص ٤٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠٣/٢٣).

خطر عظيم، هي التي ضل بها قوم إبراهيم؛ ﴿مَا هَذِهِ﴾، لما قال لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

صور على صور رجال منحوتة، الآن يسمونها الفن، فن شيطاني.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إِلَيْهِمْ إبليسُ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَوْنَ المطر، فعبدوهم)، فعبدوهم بتزيين الشيطان لهم في هذه الصور، افتتنوا بها.

فهذا فيه التحذير من التماثيل، ومن الصور المعلقة والمنصوبة لا يجوز هذا؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبى أن يدخل؛ لما جاء من سفر ووجد عائشة قد علقت قراماً على فتحة في الجدار فيها تصاوير، أبى أن يدخل حتى هتكت عائشة هذا الستر وجعلته وسائد يتكئ عليها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١). قبل ذلك أبى أن يدخل حتى أزال هذا القرام، وجعلته وسائد ممتهنة يتكئ عليها ويمشى عليها.



(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٩، ٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي، قال: أول ما عبَدت الأصنام أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا مات جعله بنو شِيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ، وهو أخصب جبل في الأرض^(١).

قال هشام: فأخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: فكان بنو شِيث عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل: يا بني قابيل، إن لبني شِيث دُورًا يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها^(٢).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويقال للجبل: نوذ)، هذا جبل في الهند.
قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال رجل من بني قابيل: يا بني قابيل، إن لبني شِيث دُورًا يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها)، شِيث هذا نبي قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.



(١) كتاب الأصنام (٥٠).

(٢) كتاب الأصنام (٥١).

قال هشام: وأخبرني أبي، قال: كان ودُّ، وسواعٌ، ويغوثة، ويعوق، ونسرٌ قومًا صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أنني لا أقدرُ أن أجعل فيها أرواحًا، قالوا: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام على صورها، ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، وكانت عملت على عهد يزيد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا يرجون شفاعتهم عند الله تعالى، فعبدوهم، وعظموا أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام فدعاهم، فكذبوه، فرفعه الله مكانا عليًّا^(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام فدعاهم، فكذبوه، فرفعه الله مكانا عليًّا)، ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ في السماء، إدريس عليه السلام في مكان مرتفع من السماء^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ... ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: =



=مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنِيِ الْحَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَبًا وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

ولم يزل أمرهم يشتد - فيما قال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس - حتى أدرك نوح، فبعثه الله تعالى نبياً، وهو يومئذ ابن أربع مئة وثمانين سنةً، فدعاهم إلى الله تعالى في نبوته عشرين ومئة سنةً، فعصوه وكذبوه.

فأمره الله تعالى أن يصنع الفلك، ففرغ منها وركبها، وهو ابن ست مئة سنة، وغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ثلاث مئة وخمسين سنة.

وكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومئتا سنة، فأهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض، حتى قذفها إلى أرض جُدَّة، فلما نضب الماء وبقيت على الشَّطِّ فَسَفَّتْ الرِّيحُ عليها حتى وارثتها.

قلت: ظاهر القرآن يدلُّ على خلاف هذا، وأن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أهلَكهم بالغرق بعد أن لبث فيهم هذه المدة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأمره الله تعالى أن يصنع الفلك، ففرغ منها وركبها)، الفلك: هي السفينة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قلت: ظاهر القرآن يدلُّ على خلاف هذا، وأن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً)، لبث فيهم يدعوهم ألف سنة.



قال الكلبي: وكان عمرو بن لُحَيٍّ كاهناً، وله رَثِيٌّ من الجنِّ، فقال له: عَجَّلَ المسيرَ والظَّعنَ من تهامة، بالسعد والسلامة، ائتِ جُدَّةَ، تجذَّ فيها أصناماً معدَّةً، فأوردَها تهامة ولا تَهَبْ، ثم ادعُ العرب إلى عبادتها تُجَبْ، فأتى نهر جُدَّة فاستثارها، ثم حملها حتى وَرَدَ تهامة، وحضر الحجِّ، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبةً، فأجابه عوفُ بنُ عُذْرَةَ بن زيد اللات، فدفع إليه وَدًّا فحمله، فكان بوادي القرى بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد وَدِّ، فهو أول من سُمِّيَ به، وجعل عوفُ ابنه عامراً سادناً له، فلم يزل بنوه يَسُدُّونَه حتى جاء الله بالإسلام^(١).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال الكلبي: وكان عمرو بن لُحَيٍّ كاهناً)، عمرو بن لحي الخزاعي هذا كان ملكاً في الحجاز؛ لأن خزاعة استولت على مكة فترة من الزمن، وفيهم هذا الملك، فجاءه الشيطان، جاء إلى عمرو بن لحي هذا الملك الكافر، وقال له: اذهب إلى جدة تجذ فيها أصناماً معدة خذها ولا تَهَبْ، وادعو إليها سائر العرب، فاستخرجها من الأرض ووزعها على القبائل، كل قبيلة لها صنم، فعبدوها من دون الله -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسمى ابنه عبد وَدِّ، فهو أول من سُمِّيَ به، وجعل عوفُ ابنه عامراً سادناً له، فلم يزل بنوه يَسُدُّونَه حتى جاء الله بالإسلام)، ولهذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الكسوف رأى عمرو بن لحي -والعياذ بالله- يجر قُصْبَهُ يعني: أمعاه، في النار^(٢).

(١) كتاب الأصنام (٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٤).

قال الكلبي: فحدثني مالك بن حارثة أنه رأى ودًا، قال: وكان أبي يعثني باللبن إليه، فيقول: اسقِه إلهك، فأشربه. قال: ثم رأيت خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَسَرَهُ فَجَعَلَهُ جُذَاذًا، وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد ابن الوليد لهدمه، فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ودّ وبنو عامر، فقاتلهم فقتلهم، وهدمه وكسره^(١).

الشَّرْح

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قال: ثم رأيت خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَسَرَهُ فَجَعَلَهُ جُذَاذًا)، كسر هذا الصنم، خالد بن الوليد قائد الجيوش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان في دومة الجندل وجعله جذاذًا.
قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بن الوليد لهدمه، فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ودّ وبنو عامر، فقاتلهم فقتلهم، وهدمه وكسره)، خالد بن الوليد أيضًا هو الذي هدم العزى في مكة، وكانت شجرة فأحرقها، ظهرت عليه عجوز شمطاء - جنية - فقتلها، أعلاها بالسيف وقتلها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخبره، قال: «تلك العزى، ولا عزى بعدها»^(٢).

(١) كتاب الأصنام (٥٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (١٩٦/٢) عن أبي الطفيل، قال: «لما فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةَ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ازْجِعْ، فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا. فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ - وَهُمْ حَجَبَتُهَا - أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَزَّى يَا عَزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: تِلْكَ الْعُزَّى».

قال الكلبي^(١): فقلت لمالك بن حارثة: صِفْ لي ودًّا، حتى كأني أنظر إليه، قال: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد زُبِرَ أي نُقِشَ عليه حُلَّتَانِ، مُتَزِرٌ بحلة، مُرْتَدٍ بأخرى، عليه سيفٌ قد تقلده، وقد تنكب قوسًا، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضةٌ فيها نبلٌ، يعني جعبة.

وأجابت عمرو بن لُحَيٍّ: مُضَرُّ بن نزار، فدفع إلى رجل من هذيل - يقال له: الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن اليأس بن مُضَرِّ - سُوعًا.

فكان بأرض يقال لها: رُهاط من بطن نخلة، يعبده من يليه من مُضَرِّ، وفي ذلك يقول رجل من العرب:

تَرَاهُمْ حَوْلَ قِبْلَتِهِمْ عُكُوفًا كَمَا عَكَفَتْ هُذَيْلٌ عَلَى سُوعٍ^(٢)

وأجابه مَدْحِجٌ، فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي: يعوث، وكان بأكمة باليمن، تعبده مَدْحِجٌ ومن والها.

وأجابه هَمْدَانٌ، فدفع إلى مالك بن مرثد بن جُشَمٍ: يعوق، فكان بقرية يقال لها: خَيَّوان، فعبده هَمْدَانٌ ومن والها من اليمن.

وأجابت حَمِيرٌ، فدفع إلى رجل من ذي رُعَيْنٍ يقال له مَعْدِي كَرِبٌ: نسرًا، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له: بَلْخَعٌ، تعبده حمير ومن والها، فلم يزل يعبدونه حتى هَوَّدهم ذو نواس.

(١) كتاب الأصنام (٥٦).

(٢) في كتاب الأصنام (٥٧) غير منسوب.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكان بموضع من أرض سبأ يقال له: بَلْخَع، تعبدته حمير ومن والاها، فلم يزل يعبدونه حتى هَوَّدهم ذو نُواس)، هودهم: يعني دعاهم إلى اليهودية؛ فتهودوا وصاروا يهودًا في اليمن.



فلم تزل هذه الأصنام تُعبد، حتى بعث الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهدمها وكسرها.

قلت: هذا شرح ما ذكره البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس، قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما وَدَّ فكانت لكَلْبٍ بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يَغوث فكان لمراد، ثم لبني عُطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحَمِيرَ لآل ذي الكلاع»^(١). قال: وهؤلاء أسماء رجال صالحين من قوم نوح، وذكر ما تقدم.

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ الْخُزَاعِيِّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ». وفي لفظ: «وَعَمِيرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ»^(٢).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلم تزل هذه الأصنام تُعبد، حتى بعث الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهدمها وكسرها)، كسر الأصنام كلها، بعث علي بن أبي طالب^(٣)، وخالد بن الوليد^(٤)، والمغيرة بن شعبة^(٥) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى هذه الأصنام

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفاً.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٠٢).

(٤) انظر: (ص ٤٩٢).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/١٣٨).

فهدموها، ولما فتح الله له مكة، وجد على الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، على الكعبة معلقة، فجعل يشير إليها، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فتتهاوى على الأرض، فأمر بها فأخرجت من المسجد الحرام وأحرقت^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرِ الْخُزَاعِيِّ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»)، «من سيب السوائب» يعني: سيب الإبل للأصنام؛ لا تركب ولا يحمل عليها، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، هذه عند المشركين كانوا يعدونها للأصنام.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي لفظ: «وَعَيْرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ»)، في الحجاز، أول من غير دين إبراهيم في الحجاز هو عمرو بن لحي الخزاعي.



(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥١/٨)، وفي الكبير (٤٥٢/١٢)، وابن حبان (٤٥٢/١٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٥١٩/١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٧٢/٥) عَنِ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَةَ وَبِهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَتَمَانُونَ صَنْمًا، وَفِي يَدِهِ عَصَا، فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْهَا، وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ، وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا، فَتَسَاقَطُ الْأَصْنَامُ».

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، أن أبا صالح السمان حدثه، أنه سمع أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأَكْثَمَ بنِ الْجَوْنِ الْخُزَاعِيِّ: «يا أكثم! رأيت عمرو بن لحي بن قَمْعَةَ بنِ خِنْدَفٍ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ، وَلَا بِهِ مِنْكَ»، فقال أكثم: عسى أن يَضُرَّني شَبُهُهُ يا رسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أولَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ، فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي»^(١).

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم: أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، رأهم يعبدون الأصنام. فقال لهم: ما هذه الأصنام التي تعبدون؟ فقالوا: نستمطر بها فتُمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أفلا تُعْطُونِي مِنْهَا صِنًّا، فَأَسِيرَ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ فَيَعْبُدُونَهُ؟ فَأَعْطَوْهُ صِنًّا يَقَالُ لَهُ: هُبْلُ، فَقَدِمَ بِهِ مَكَةَ، فَنَصَبَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ^(٢).

الشَّحْ

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (يا أكثم! رأيت عمرو بن لحي بن قَمْعَةَ بنِ خِنْدَفٍ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ)، يعني أمعاه -والعياذ بالله-.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٧٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٧٧).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَبَحْرُ الْبَحِيرَةِ، وَسَيِّبُ السَّائِبَةِ، وَوَصَلُ الْوَصِيلَةِ، وَحَمَى الْحَامِي)، يعني من الإبل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم: أن عمرو بن لُحِيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره)، ذهب عمرو بن لحي يريد العلاج بالشام من مرض أصابه، فتعالج وشفاه الله، ووجد عندهم الأصنام فجاء بها يحملها معه ووزعها على العرب -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أن عمرو بن لُحِيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره)، خرج للعلاج.



قال هشام^(١): وحدثني أبي وغيره: أن إسماعيل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما سكن مكة، وُوِلِدَ بها أولادُهُ، فكثروا، حتى ملأوا مكة، وَنَفَوْا من كان بها من العماليق: ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضا، فتنفسحوا في البلاد والتماس المعاش، فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يَظَعُنُّ من مكة ظاعنٌ إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابةً بمكة، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت، حُبًّا للبيت، وصبابةً به، وهم على ذلك يعظّمون البيت ومكة، ويحجّون ويعتَمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ثم عبدوا ما استحسنوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحجّ والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البُدن.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يَظَعُنُّ من مكة ظاعنٌ إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابةً بمكة)، كانوا ينقلون هذه الأحجار ويعبدونها، ينصبونها وينصب الحجر الذي معه ويعبده، وإذا لم يكن معه حجر فإنه يجمع كوماً من التراب ويعبده.

(١) كتاب الأصنام (٦).

وكانت نِزَارُ تقول في إهلالها: لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ، لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك، تملكه وما ملك!^(١) وكان أولَ مَنْ غَيَّرَ دينَ إسماعيلَ فنَصَبَ الأوثانَ، وسَيَّبَ السائبةَ، ووصل الوصيلةَ، وحَمَى الحامي: عمرو بن ربيعة، وهو لحِيَّ بن حارثة، وهو أبو خُزاعة، وكانت أم عمرو فُهيرة بنت عمرو بن الحارث، وكان الحارث الذي يلي أمر الكعبة، فلما بلغ عمرو بن لحِيَّ نازعه في الولاية، وقاتل جرهم ببني إسماعيل، فظفر بهم، وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم من بلاد مكة، وتولَّى حِجَابَةَ البيت.

ثم إنه مرض مرضاً شديداً، ف قيل له: إن بالبلقاء من الشام حَمَّةً، إن أتيتها برأت، فأتاها فاستَحَمَّ فيها، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام. فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة.

الشَّرْحُ

قوله (رَحِمَهُ اللهُ): (وكانت نِزَارُ تقول في إهلالها: لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك!)، هذا في تلبية أهل الجاهلية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٨٥): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ».

إِذَا كَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ شَرِيكَ وَهُوَ عَبْدُهُ؟!

تملكه وهو مملوك لله، تملكه وما ملك، أنتم لا ترضون هذا لأنفسكم، لا ترضى أن عبدك يصير شريكاً لك.

فلبى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد بدل هذه التلبية الشركية: «لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقاتل جرهم ببني إسماعيل، فظفر بهم، وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم من بلاد مكة، وتولّى حِجَابَةَ الْبَيْتِ)، جرهم تولت شؤون البيت مدة ونزعته من قريش.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم إنه مرض مرضاً شديداً، فقبل له: إن بالبلقاء من الشام حَمَّةً، إن أتيتها برأت)، حَمَّةٌ: يعني ماء متتن فيه تسمونها الغربية، الغربية هذه يسمونها الحممة، ﴿حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، خلق آدم من حملاً مسنون يعني من طين فيه رائحة.



(١) أخرجه البخاري (١٥٤٩، ٥٩١٥)، ومسلم (١١٨٤): عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُهَلُّ مُلَبِّدًا يَقُولُ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»، لَا يَزِيدُ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ».

واتخذت العربُ الأصنامَ، فكانت أقدمُها مناةُ، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشللِ بقُدَيْدٍ بين مكة والمدينة. وكانت العربُ جميعها تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه، ويذبحون له، ويهدون له، ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظامًا له من الأوس والخزرج.

قال هشام: وحدثنا رجلٌ من قريش، عن أبي عُبَيْدة بن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عَمَّار بن ياسر، قال: كانت الأوس والخزرج ومن جاورهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجون، فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يخلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه، فحلقوا عنده رؤوسهم، وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تمامًا إلا بذلك^(١).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واتخذت العربُ الأصنامَ، فكانت أقدمُها مناةُ، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشللِ بقُدَيْدٍ بين مكة والمدينة)، وهذا كان أهل المدينة في الجاهلية يجرمون منه بالحج، من قُدَيْدٍ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يخلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه، فحلقوا عنده رؤوسهم)، تعبدًا له، يخلقون رؤوسهم تعبدًا للصنم.

(١) كتاب الأصنام (ص ١٤).

وكانت مناةً لهذيلٍ وخزاعة، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا، فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللات بالطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرةً مُرَبَّعةً، وكان سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، وبها كانت العرب تسمي زيد اللات، وتيم اللات، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم تزل كذلك حتى أسلّمت ثقيف، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغيرة بن شعبه، فهدمها وحرّقها بالنار. ثم اتخذوا العزى، وهي أحدث من اللات ومناة، اتخذها ظالمٌ بن أسعد، وكانت بوادٍ من نخلة، فوق ذاتِ عِرْقٍ، وبنوا عليها بيتاً، وكانوا يسمعون منه الصوت.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم)، مسجد العباس.

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وكانت بوادٍ من نخلة، فوق ذاتِ عِرْقٍ)، وادي نخلة الذي هو النخلة اليمانية والنخلة الشامية، على طريق السيارات اليوم، الريع الذي تمرّون به كانت في أوله.

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وبنوا عليها بيتاً، وكانوا يسمعون منه الصوت)، شيطان.



قال هشام: وحدثني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: «كانت العُزَيُّ شيطانةً، تأتي ثلاث سَمُرَاتٍ ببطن نخلة، فلما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بعث خالد بن الوليد، فقال: آتت بطن نخلة، فإنك ستجد ثلاث سَمُرَاتٍ، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه قال: «هل رأيت شيئاً؟»، قال: لا، قال: «فاعضد الثانية»، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «هل رأيت شيئاً؟»، قال: لا. قال: «فاعضد الثالثة»، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافسةٍ شعرها، واضعةٌ يديها على عاتقها، تصرفُ بأنيابها، وخلفها سادتها. فقال خالد: يا عُزَيُّ كُفْرَانِكَ لا سُبْحَانَكَ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ. ثم ضربها، ففلق رأسها، فإذا هي حُمَّةٌ، ثم عضد الشجرة، وقتل السادن، ثم أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال: «تلك العُزَيُّ، ولا عُزَيُّ بعدها للعرب»^(١).

قال هشام: وكانت لقريش أصنامٌ في جوف الكعبة وحوها، وأعظمها عندهم: هُبْلٌ، وكان فيما بلغني من عقيقٍ أحمر، على صورة إنسانٍ مكسور اليد اليمنى، أدركته قريشٌ كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول من نصبه خُزَيْمة بن مُدْرِكة بن اليأس بن مُضر، وكان في جوف الكعبة، وكان قُدَّامه قِدَاحٌ مكتوبٌ في أحدها: صريحٌ، وفي الآخر: مُلْصَقٌ، فإذا شكوا في مولودٍ أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج «صريح» ألحقوه، وإن كان «ملصقاً» دفعوه^(٢).

(١) كتاب الأصنام (ص ٢٥).

(٢) كتاب الأصنام (ص ٢٧).

وكانوا إذا اختلفوا في أمرٍ أو أرادوا سفرًا أتوه، فاستقسموا بالقداح عنده. وهو الذي قال له أبو سفيان يوم أُحُدٍ: اعلُ هُبُلُ! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا له: الله أعلى وأجل»^(١).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو الذي قال له أبو سفيان يوم أُحُدٍ: اعلُ هُبُلُ! فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا له: الله أعلى وأجل»)، هذا في غزوة أحد، فلما جاء أبو سفيان وكان قائد المشركين في ذلك فنادى: أفي القومِ مُحَمَّدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَنهَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أفي القومِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أفي القومِ ابْنُ الحَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَا هَؤُلَاءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لِأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ: يَوْمُ بِيَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القومِ مِثْلَهُ، لَمْ أَمْرٌ بِهَا وَلَمْ تَسُونِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: اعلُ هُبُلُ، اعلُ هُبُلُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا العِزِّيَّ وَلَا عِزِّيَ لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكان لهم إسافٌ، ونائلةٌ.

قال هشام: فحدث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن إسافاً رجلاً من جرهم يقال له: إساف بن يعلى، ونائلة بنت زيد من جرهم، وكان يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجاً، فدخلوا البيت، فوجدا غفلةً من الناس وخلوةً من البيت، ففجرا بها في البيت، فمسخا حجرين، فأصبحوا، فوجدوهما مسخين، فأخرجوهما فوضعهما موضعهما، فعبدتها خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعد من العرب»^(١).

قال هشام^(٢): لما مسخا حجرين ووضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام عبداً معها، وكان أحدهما مُلصقاً بالكعبة، والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي كان مُلصقاً بالكعبة إلى الآخر، فكانوا يذبحون وينحرون عندهما.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان لهم إسافٌ، ونائلةٌ)، إساف ونائلة: صنمان على الصفا والمروة، جعلهم المشركون، فلما فتح الله مكة بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسرها وحكمها وأزالتها.

(١) كتاب الأصنام (ص ٩).

(٢) كتاب الأصنام (ص ٢٩).

فكان المسلمون يعني يتورعون من السعي بين الصفا والمروة؛ لأنه كان
عليهما صنمان، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: هذا نفي لما كانوا يتوهمونه من أن السعي بينهما
فيه تعظيم لمناة والعزى.



وكان من تلك الأصنام: ذو الخَلْصَة^(١)، وكان مَرَوَةً بيضاء منقوشةً، عليها كهيئة الناج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة. وكانت تعظمه وتُهدى إليه خُثْعَمٌ وبِحَيْلَة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجرير: «ألا تكفيني ذا الخَلْصَة؟»^(٢). فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة، فظفر بهم، وهدم بيت ذي الخلصة، وأضرم فيه النار فاحترق. وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تَبَالَة.

وكان لَدَوْسٌ صَنَمٌ يُقال له: ذُو الكَفِّينِ، فلما أسلموا بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطُّفَيْلَ بنَ عَمْرِو فحرقه.

وكان لبني الحارث بن يَشْكُرٍ صنم يُقال له: ذُو الشَّرِيِّ.

وكان لَقُضَاعَة وِلْحَمٍ وِجْدَامٍ وَعَامِلَة وَعُظْفَانٌ صَنَمٌ في مشارف الشام، يُقال له: الأُقَيْصِر.

وكان لَمُرَيْنَة صَنَمٌ يُقال له: نُهْمٌ، وبه كانت تُسَمَّى عبدُ نُهْمٍ.

وكان لعنزة صنم يُقال له: سَعِير.

وكان لَطِييِّعٍ صنم يُقال له: الفِلس^(٣).

وكان لأهل كلِّ دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه.

فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعُ في منزله: أن يتمسح به، وإذا قَدِمَ من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله: أن يتمسح به.

(١) كتاب الأصنام (ص ٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧٦).

(٣) كتاب الأصنام (ص ٥٩).

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذو الخليفة اليوم عتبة باب مسجد تَبَالَةَ)، تباله في الطائف.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان لأهل كلّ دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه)، حتى بيوت مكة فيها أصنام.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان لأهل كلّ دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله: أن يتمسح به)، انظر! نعمة الإسلام ونعمة التوحيد، الحمد لله.



قال ابن إسحاق^(١): وكان لخلوان صنمٌ يقال له: عمّ أنس، بأرض خلوان، يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم.

فما دخل في حق الله من حق عم أنس ردّوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سمّوه له تركوه له، وفيهم أنزل الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال ابن إسحاق^(٢): وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له: سعد، صخرة بفلاة من الأرض طويلة، فأقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة، ليقفها عليه ابتغاء بركنه فيما يزعم، فلما رآته الإبل وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه، فذهبت في كل وجه، فغضب ربها، فأخذ حجراً فرماه به. ثم قال: لا بارك الله فيك! نفرت عني إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بَتْنُوفَةٍ مِنْ الْأَرْضِ لَا تَدْعُو بَعِيٍّ وَلَا رُشْدٍ

الشَّرْحُ

قوله رَجَمَهُ اللَّهُ: (قال ابن إسحاق: وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة صنم يقال له: سعد، صخرة بفلاة من الأرض طويلة، فأقبل رجل

(١) السيرة النبوية لابن هشام (ص ٨٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (ص ٨١).

من بني مَلْكَانِ بَابِلَ لَهُ مُؤَبَّلَةٌ، لِيَقْفَهَا عَلَيْهِ ابْتِغَاءَ بَرَكَتِهِ فِيهَا يَزْعَمُ، مِنْ جَمَلَةِ أَصْنَامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ هَذَا الصَّنَمِ الْمَسْمُومِ سَعْدًا، وَكَانَ صَخْرَةً يَعْبُدُونَهَا وَيَذْبَحُونَ عَلَيْهَا بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ؛ تَقَرَّبًا إِلَيْهَا حَتَّى آثَرَتْ فِيهَا الدَّمَاءَ فَصَارَ مَنْظَرُهَا كَرِيهًا.

فَلَمَّا أَقْبَلَ هَذَا الرَّجُلُ بِإِبِلِهِ لِيَتَبَرَّكَ بِهَذَا الصَّنَمِ عَلَى إِبِلِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْإِبِلُ هَذَا الْحَجَرَ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّمَاءِ نَفَرَتْ وَتَفَرَّقَتْ، فَقَامَ وَجْمَعَهَا، ثُمَّ إِنَّهُ كَسَرَ الصَّنَمَ هَذَا، وَقَالَ فِيهِ هَذَا الشَّعْرُ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ)، مِنْ هَذَا الصَّنَمِ الَّذِي يَسْمُونَهُ سَعْدَ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بَتْنُوفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا تَدْعُو لِنِيٍّ وَلَا رُشْدٍ)، اعْتَرَفَ أَنَّ هَذِهِ الصَّخْرَةَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَإِنَّمَا نَفَرَتْ إِبِلُهُ لَمَّا عَلَيْهَا مِنَ الدَّمَاءِ الْمَشْوُوهَةِ لَهَا.



قال ابن إسحاق^(١): وكان عمرو بن الجموح سيِّداً من سادات بني سلمة، وشريفاً من أشرفهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة.

فلما أسلم فتیان بنی سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو، وغيرهم ممن أسلم وشهد العقبه، وكانوا يُدَلِّجُونَ بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه، فيطرحونه في بعض حُفَرِ بني سلمة، وفيها عذرات الناس مُنكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم! مَنْ عدا على إلهتنا هذه الليلة؟

قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجدته غسله وطَّهره وطَّيَّبه، ثم قال: والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخزيتَه، فإذا أمسى ونام عَدَّوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك، فيغدو يلتمسه، فيجد به مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيِّبه، فيعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به ذلك.

فلما طال عليه استخراجُه من حيث ألقوه، فغسله وطهره وطَّيَّبه، ثم جاء بسيفه، فعلقه عليه، ثم قال له: والله إني لا أعلم مَنْ يصنعُ بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عَدَّوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا، فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذرتٌ من عذر الناس، وغدا عمرو، فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه، حتى وجدته في تلك البئر مُنكسًا، مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه مَنْ أسلم من قومه، فأسلم، وحسن

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٥٢).

إسلامه. فقال حين أسلم وعَرَفَ من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك،

وما أبصر من أمره، ويشكر الله إذ أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ	أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسَطٌ بِئْرٍ فِي قَرْنٍ
أَفِ بِلِقَاكَ إِلَهًا مُسْتَدِنٌ	الآنَ فَتَشْنَاكَ عَنِ سُوءِ الْغَيْبِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمِنَّةِ	الْوَاهِبِ الرِّزَاقِ دَيَّانِ الدِّينِ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ	أَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ قَبْرِ مُرْتَهَنٍ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال ابن إسحاق: وكان عمرو بن الجموح سيداً من

سادات بني سلمة)، ابن الجموح هذا من أهل المدينة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلما رآه أبصر شأنه)، فلما رآه: اعتبر، لما رآه على هذه

الحال، وأنه حجر لا ينفع ولا يضر ولا ينصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟
فصار له عبرة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكلمه مَنْ أسلم من قومه، فأسلم، وحسن إسلامه)،

رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ أسلم وحسن إسلامه بعد هذه العبر التي حصلت له مع هذا الصنم

الذي عرف أنه لا ينفع نفسه ولا يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟!

هناك أيضاً جماعة آخرون لهم صنم ويجعلون عنده طعاماً ليأكل

بزعمهم، ثم يأتي الثعلب ويأكل هذا الطعام ويبول على الصنم، فعل ذلك

ليالٍ، فقال:

أَرَبُّ يَبُولُ الثُّغْلَبَانَ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَاثَ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ (١)

عند ذلك أبصر، وتاب إلى الله عَزَّجَلَّ، وترك عبادة هذا الصنم.

وكان من قصة الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٢)، كان اليهود مجاورين لهم في المدينة، وكانوا يتوعدونهم بنبي سَيِّعَثَ، ويكونون معه، ويقتلون هؤلاء القوم في المدينة، فلما سمعوا ببعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: إنه للذي تتوعدكم يهود به، فأسرعوا إليه ولا يسبقوكم إليه، فجاؤوا وبايعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند جمره العقبة البيعة الأولى، ثم جاء في العام الذي بعده أكثر منهم وبايعوا الرسول من الأوس والخزرج، وبايعوه على أن يهاجر إليهم وأن يحموه ويدافعوا عنه ما يدافعون عن أولادهم ونساءهم، وكان معه عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبل أن يسلم العباس، ليتوثق لابن أخيه منهم، فحصلت الهجرة، حصل الخير والبركة ونفع الله بالأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأعزَّ بهم دين الإسلام وأوَّأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه وصدقوا معه.



(١) هو غاوي بن عبد العزى السلمي، وسماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راشد بن عبد ربه. والقصة في الطبقات الكبرى (١/٢٣٣، ٢٣٤)، والمحزر الوجيز (١/٦٧)، وتاريخ دمشق (٩/٣٢٥)، والإصابة في تمييز الصحابة (٢/٣٦١). وانظر: لسان العرب (١/٢٣٧)، وتاج العروس (٢/٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٥/٦٥٣).

قال ابن إسحاق^(١): واتخذ أهل كل دارٍ في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد رجل منهم سفراً تمسح به، وإذا قدم من سفر تمسح به، فيكون آخرُ عهده به، وأوّل عهده به.

فلما بعث الله محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد قالت قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ﴾ [ص:٥].

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دارٍ في دارهم صنماً يعبدونه)، كان في بيوت مكة في كل بيت صنم يعبدونه، وكانوا إذا سافر الشخص منهم؛ يحمل معه هذا الصنم ليعبده في سفره، فإذا لم يكن معه صنم فإنه يجمع كوماً من تراب ويحلب عليه شاة ثم يعبده من دون الله عَزَّجَلَّ. هذه حالتهم قبل بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم في مكة بجوار الكعبة، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً معلقٌ عليها، وعلى الصفا والمروة، كانت الأصنام منتشرة، فلما فتح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة؛ أتلف هذه الأصنام، وطهر الكعبة، وطهر المسجد الحرام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دارٍ في دارهم صنماً يعبدونه)، يعني في مكة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلما بعث الله محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد قالت قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ﴾ [ص:٥])، لما بعث الله نبيه

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٨٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جهر بالدعوة، وكان مختبئاً في الأول، حيث كانت الدعوة سرية في بيت الأرقم بن أبي الأرقم كانوا يجتمعون فيها، ويخرجون جميعاً يصلون في المسجد الحرام، يحرس بعضهم بعضاً، ثم يرجعون إلى هذا البيت، بيت الأرقم بن أبي الأرقم، فلما أسلم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج معهم، هابت قريش أن تضرهم بشيء ومعهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فأعزَّ الله به الإسلام والمسلمين بإسلامه.

يقول عبد الله بن مسعود: «كُنَّا أَذْلَةً؛ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِعُمَرَ»^(١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فلما بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد قالت قريش: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥٠])، لما أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد الصفا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنادى بأعلى صوته: واصباحاه! على عاداتهم إذا نزل بهم شيء ينادون بعضهم بعضاً، فاجتمعوا عليه، فقال: إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهب عمه: تَبَّ لَكَ، ألهذا جمعنا؟

فأنزل الله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣]. إلى آخر السورة^(٢). ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: كانت تحمل النميمة وتُسبُّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسميه مذمماً بدل محمد، فالله جَلَّ وَعَلَا

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٣) بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نصر رسوله، ومات أبو لهب على الشرك ولم يؤمن ولم يدخل في الإسلام، حرّمه الله من الإسلام؛ عقوبةً له.

وأُمّ جميل التي كانت تُسبُّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا ماتت، انتهى الأمر بهم إلى الهلاك -والعياذ بالله-، لمّا لم يسلم؛ لم ينفعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فبهذا ردُّ على الذين يتعلقون ويتبركون بالأشخاص، ويظنون أنهم سينصرونهم وأنهم سيحمونهم، هذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَقْدِرْ على أن يحمي عمّه أبا لهب، ولم يسلم أبو لهب فمات على الشرك، والعياذ بالله.

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (فلما بعث الله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد قالت قريش: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥])، لما قال لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قولوا: لا إله إلا الله.

لما اجتمعوا بعدما نادى على جبل الصفا، اجتمعوا عليه لينظروا ماذا يريد منهم، قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله تفحلوا، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]: لا إله إلا الله، هذه كلمة التوحيد: لا معبود بحق إلا الله عَزَّجَلَّ، هذا معناها، وقد عرفته قريش، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]، ففهموا أن هذا الكلمة تنفي الشرك وتخلص العبادة لله عَزَّجَلَّ، ولهذا تسمى كلمة الإخلاص، كلمة التوحيد، تسمى العروة الوثقى.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]، لأن ﴿يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرُ بِاللَّهِ﴾، هذا معنى لا إله إلا الله.

ف(لا إله): لا معبود بحق إلا الله عَزَّجَلَّ، والآية: ﴿يَكْفُرُ بِالطَّغُوتِ﴾: هذا معنى لا إله، ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: هذا معنى إلا الله، فهذه الكلمة تفسر لا إله إلا الله.

فانظر! أن المشركين فهموا معنى لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَحَدًّا﴾ [ص:٥]، أبوا أن يقولوها؛ لئلا يتناقضوا، كيف يقولون: لا إله إلا الله، ويعبدون غير الله عَزَّجَلَّ، هذا تناقض وهم لا يريدون التناقض ويأنفون منه. كثير من القبوريين أو كل القبوريين اليوم يقولون: لا إله إلا الله في الصباح والمساء، ولهم أورد في لا إله إلا الله، وهم يعبدون القبور، فلم يفهموا معنى لا إله إلا الله.

يقولون: لا إله إلا الله ويقولون: يا علي، يا حسين، يا فلان، لم يفهموا معنى لا إله إلا الله، مع أن المشركين فهموها، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَحَدًّا﴾ [ص:٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾: يتعجبون منه: جعل الآلهة إلهًا واحدًا.

﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ عَاهَةِ الْهَتِكُمْ﴾: يتواصون بالصبر على الشرك وعلى عبادة الأصنام.

﴿أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ عَاهَةِ الْهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ﴾ [ص:٦، ٧]: أي ملة قريش، لم يسمعوا بهذه الكلمة، فهم فهموا معناها، وهؤلاء يقولونها ويرددونها ولا يفهمون معناها.

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوتٌ تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحُجَّاب، ويهدى لها كما يهدى للكعبة، ويُطاف بها كما يُطاف بالكعبة، ويُنحر عندها كما يُنحر عند الكعبة.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذها ربًّا، وجعل الثلاثة أثنافي لِقْدْرِهِ، فإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك^(١).

قال حنبل^(٢): حدثنا حسن بن الربيع، قال: حدثنا مهدي بن ميمون، قال: سمعت أبا رجاء العطاردي يقول: لما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب، فلحقنا بالنار. قال: وكنا نعبُدُ الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجرًا هو أحسن منه نُلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حَئِثَةً من تُراب، ثم جئنا بغنم، فحلبناها عليه، ثم طُفنا به.

وقال أبو رجاء^(٣) أيضًا: كنا نَعْمِدُ إلى الرَّمْلِ فنجمعه، ونحلب عليه، فنعبده، وكنا نَعْمِدُ إلى الحجر الأبيض، فنعبده زمانًا، ثم نلقيه.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوتٌ تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحُجَّاب)، جعلوا مضاهاةً للكعبة في بلادهم، وجعلوا لها سدنة، وجعلوا لها أوقافًا عليها تضاهي الكعبة.

(١) كتاب الأصنام (ص ٣٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/٣٣٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٠٦).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويُهدى لها كما يُهدى للكعبة)، ويُهدى لها: يعني يُذبح عندها، تهدي لها الإبل والبقر والغنم وتذبح عندها كما تهدي إلى الكعبة المشرفة، وكما يذبح الهدى في الحج والعمرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذها رباً، وجعل الثلاثة أثنافي لِقْدَرِهِ)، إذا سافر الرجل منهم - من المشركين من أهل مكة - جمع أحجاراً فنظر في أحسنها، فجعله رباً يعبده، وجعل البقية أثنافي للقدر يطبخ عليها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإذا ارتحل تركه)، ترك هذه الأحجار، وإذا نزل جاء بأحجار أخرى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال حنبل)، هو حنبل بن إسحاق، ابن أخي الإمام أحمد، عمه الإمام أحمد، وهو من تلاميذ الإمام أحمد، تتلمذ على عمه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: سمعت أبا رجاء العطاردي يقول: لما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب، فلحقنا بالنار)؛ لأن مسيلمة الكذاب في اليامة ادعى النبوة، وتبعه قومٌ كثير في نجدٍ وصدّقه.

وكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله: أما بعد، فإن الأرض بيني وبينك نصفان، وأنتم قوم تظلمون».

فكتب إليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردّاً عليه: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(١).

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/٦٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٠). وانظر: تاريخ الطبري (٣/١٤٦)، والبداية والنهاية (٥/٥١).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثيةً من تُراب، ثم جئنا بغنم، فحلبناها عليه، ثم طُفْنَا به)، يطوفون بهذا التراب الذي جمعوه وحلبوا عليه الشاة، يجعلونه قائم مقام الكعبة، فيطوفون عليه، هذه حالة العرب قبل الإسلام.



وقال أبو بكر بن أبي شيبة^(١): حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا الحجاج بن أبي زينب، قال: سمعت أبا عثمان النهدي يقول: كنا في الجاهلية نعبد حجراً، فسمعنا منادياً ينادي: يا أهل الرحال! إن ربكم قد هلك، فالتمسوا رباً. قال: فخرجنا على كل صعب وذلول، فبينما نحن كذلك نطلبه، إذا نحن بمنادٍ ينادي: إنا قد وجدنا ربكم، أو شبّهه، فإذا حجراً، فنحنرنا عليه الجُرُور.

وقال محمد بن سعد^(٢): أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني الحجاج بن صفوان، عن ابن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن عَبَسَةَ، قال: كنت امرءاً ممن عبد الحجارة، فينزل الحي ليس معهم إله، فيخرج الرجل منهم، فيأتي بأربعة أحجار، فينصب ثلاثة لِقَدْرِهِ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسنُ منه قبل أن يرتحل، فيتركه ويأخذ غيره.

ولما فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وجد حول البيت ثلاث مئة وستين صنماً، فجعل يطعنُ بِسِيَةِ قَوْسِهِ فِي وُجُوهِهَا وَعَيْونِهَا، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١]، وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها، فَأُخْرِجَتْ مِنَ الْمَسْجِدِ وَحُرِّقَتْ^(٣).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال: فخرجنا على كل صعب وذلول، فبينما نحن كذلك

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧/٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نطلبه، إذا نحن بمنادٍ ينادي: إنا قد وجدنا ربكم، أو شبهه، فإذا حجر، فنحرقنا عليه الجُرُ، هذه حالة العرب قبل الإسلام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: كنت امرأةً ممن عبد الحجارة، فينزل الحي ليس معهم إله، فيخرج الرجل منهم، فيأتي بأربعة أحجار، فينصب ثلاثة لِقْدَرِه، ويجعل أحسنها إلهًا يعبده، ثم لعله يجد ما هو أحسنُ منه قبل أن يرتحل، فيتركه ويأخذ غيره)، هكذا حالهم من حَجِرٍ إلى حَجِرٍ!

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولما فتح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وجد حول البيت ثلاث مئة وستين صنمًا، فجعل يَطْعَنُ بِسِيَةِ قَوْسِه في وُجُوهاها وعيونها)، لما فتح مكة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَهَّرَ الكعبة من هذه الأصنام.



فصل

وتلاعبُ الشيطان بالمشرِّكين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعبُ بكل قوم على قدر عقولهم: فطائفةٌ دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كما تقدم عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولهذا لعنَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخذين على القبور المساجدَ والسرَجَ^(١)، ونهى عن الصلاة إلى القبور^(٢)، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يُعبد^(٣)،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٤٧١/٣) و(٣٦٣/٤) و(١٢٨/٥، ٢٢٧)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢١٨١)، وابن ماجه (١٥٧٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسَّرَجَ».

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٣٤٥٣، ٤٤٤٣، ٥٨١٥)، ومسلم (١٩) (٥٢٩) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرُحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحْدِرُونَ مَا صَنَعُوا. قَالَتْ: فَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِداً». وأخرج مسلم (٥٣٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِحُمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ».

(٣) أخرجه مالك (٨٥)، وأحمد (٣١٤/١٢)، وابن أبي شيبة (٣/٣٤٥)، والبخاري (١٢/٢١٦)، وابن أبي عمير (١٦٣/١٤) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثْناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدًا»، وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسوية القبور، وطمس التماثيل^(٢).

فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله، إما جهلاً، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتلاعبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم)، تلاعب الشيطان بكل قوم على قدر عقولهم. فتلاعبات الشيطان بيني آدم كثيرة متنوعة؛ ليضلهم عن سبيل الله، وليأخذ ما أمكنه منهم إلى النار؛ لأنه تعهد بذلك.

لما لعنه الله وأبعده تعهد أنه سيغوي من عباد الله من أطاعه وأغتربه؛ ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غُورِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿ [ص: ٨٢، ٨٣،

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٤٠٣/١٤)، وابن أبي شيبة (٦٠/٢)، والطبراني في الأوسط (٨/٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٥٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورًا عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

(٢) أخرجه مسلم (٩٣) (٩٦٩) عَنْ أَبِي الْمُبَارِجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: «قَالَ لِي عَيِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا تَدْعَ تَمَثَلًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ».

فاستثنى عباد الله المخلصين الذين لا يستطيع أن يأخذ أحداً منهم؛ لأن الله قد عصمهم وحماهم من شره، فخطره على بني آدم عظيم، ولكنه يرده الالتهاء إلى الله والاستعاذة بالله من شره ومن كيده ومن مكره.

فالمسلم دائماً يلجأ إلى الله، ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم؛ ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فالحمد لله هذا حصن حصين للمسلمين من عدوهم

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتلاعبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة)، تلاعب بهم حتى عبدوا الأصنام.

الأصنام: الحجاره والأشجار والقبور، هل هذه تُسَوَّى بالله عَزَّوَجَلَّ، وتشرك مع الله في عبادته؟! لكن الإنسان يفقد عقله، والشيطان يجذبه له، وَيُزَيِّنُ له ويوسوس له.

ولهذا يعترفون وهم في النار، ويقولون للشيطان: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

يقولون لأصنامهم ولما عبدوه من دون الله وهم معهم في النار: ﴿تَاللَّهِ﴾: هذا قسم، حلف بالله، ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فيعبدونهم معه، ويخافونهم ويرجونهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، غابت عقولهم عن هذا، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فظائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى)، صور الموتى على أشكال هؤلاء، صوروا صورهم وعبدوها من دون الله كما فعل قوم نوح.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا لعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخذين على القبور المساجد والسرج)، المساجد: مصليات يصلون إليها، والسرج لتعظيمها؛ فلا يجوز إسراج المقابر، ولا يجوز أن يصلى عندها؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، وإن كان المسلم لا يصلي إلا لله، لكن لا يصلي عند قبر؛ لأن هذا فيه تشبه بالمشركين، وهو وسيلة إلى الشرك. لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن المتخذين المساجد على القبور، والمتخذين عليها السرج والمصاييح؛ لأن هذا يجر إلى عبادتها من دون الله، هذه من وسائل الشرك.

فالقبور لا يكون عليها صور للموتى، ولا يكون عليها مصاييح، ولا تسرج المقابر فتتور؛ لأن هذا وسيلة إلى عبادتها من دون الله.

ولهذا إذا جاؤوا في الليل يدفنون الميت يأتون معهم بكشاف كهربائي أو بسراج بقدر ما يدفنون الميت، ثم يذهبون به، ولا يتركونه في المقبرة، ولا يتركون الكهرباء مضاءة في المقبرة؛ لأن هذا وسيلة إلى عبادة القبور.

فسد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه النافذة إلى الشرك، فنهى عن إضاءة القبور والبناء عليها، وكل ما فيه تعظيم للأموال بغير حق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونهى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة إلى القبور)، كذلك من وسائل الشرك: الصلاة إلى القبور، واستقبال القبور في الصلاة وإن كان المصلي يصلي لله، لكن صلاته إلى القبر تجرُّ إلى تعظيم القبر، وفي النهاية عبادة الموتى، فنهى عن الصلاة إلى القبور، فالمسلم إذا أراد أن يصلي يبتعد عن القبور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يُعبد)، سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه فقال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثْنًا يُعْبَدُ»^(١).

«لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثْنًا»: والوثن: هو ما عُبدَ من دون الله، وإن لم يكن على صورة، ما عُبدَ من دون الله فهو وثن، وما عُبدَ على صورة إنسان أو حيوان، فهو صنم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً)، «عيداً»، يتخذوا قبره عيداً.

«لَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»: يعني لا تصلون فيها صلاة التطوع، صلاة الليل. «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»: يعني لا يصلى فيها صلاة الليل، صلاة التطوع، ولا يُقرأ فيها القرآن.

«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»: يعني تعتادون المجيء إليه، وتجلسون عنده، وتكررون زيارته، إنما يزار قبر الرسول لمن كان وافداً إلى المدينة فيصلي في المسجد النبوي، أوّل ما يُقدّم يصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يذهب ويسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير غُلُوٍّ، ومن غير تعلق بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يُسَلِّمُ عليه كسلامه عليه يوم أن كان حياً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم ينصرف، هذا للقادم إلى المدينة.

أما من كان مقيماً في المدينة فلا يذهب كلما دخل المسجد ويسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا، تكرار السلام عليه هذا وسيلة إلى الشرك، فيدخل في المسجد النبوي ويصلي، ثم ينصرف إلى بيته ومسكنه، من غير أن يذهب

(١) تقدم تخرجه (ص ٥٢٤).

ويسلم على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنَا يُعْبَدُ».

فحُمي الله قبر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دُفِنَ فِي حِجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ولم يصل إليه أحد، وإنما يُسَلِّمون عليه من وراء الْحُجْبِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَمَايَةً لَهُ. يقول ابن القيم:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ (١)

على قبر الرسول ثلاثة جدران على شكل مثلث، من جهة الشمال مثلث، لماذا؟ لثلاث استقبال أحد هذا الجدار الذي على قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يكون أمامه جدار، وإنما هو مثلث يلتقي بزواوية، هذا من الحكمة في جعله هكذا؛ لثلاث يعبد؛ (وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ).

حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وَحَمَايَةٍ وَصِيَانٍ (٢)

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً)، «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»: يعني عيداً مكاني، لا تجتمعوا عند القبر، سلم وامض، ولا تقفون عنده للدعاء لا يجوز هذا، تُسَلِّمُ على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا أردت أن تدعو فاذهب إلى ناحية من مسجد الرسول، وادع الله وصلِّ، لا يكون هذا عند القبر؛ حماية للتوحيد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ

أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»)، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَشِدَّةُ الْغَضَبِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هَلَاكٌ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللهُ جَلَّ وَعَلَا إِذَا اشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى أَحَدٍ أَهْلَكَهُ.

(١) انظر نونية ابن القيم (ص ٢٥٢).

(٢) المصدر السابق.

فالنبي دعا هذا الدعاء: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»: يعني يُصَلُّونَ عندها، وإن كانوا يُصَلُّونَ لله، لكن المكان ليس مكاناً للصلاة؛ لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك.

لما حضرته الوفاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يقاسي من سكرات الموت، وهو يقول: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يحذر مما صنعه المشركون أن يفعلوا بقبره مثلما فعل المشركون بقبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يشغله الموت وسكرات الموت عن النصيحة لأتمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمْرٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسوية القبور)، بتسوية القبور. «لَا تَدَعَنَّ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»: المشرف: يعني المرتفع.

يسوى: يعني يزال ارتفاعه، ويكون كسائر القبور ليس له مَزِيَّةٌ عليها، ولا يُكْتَبُ عليه، ولا يوضع عليه لوحات؛ هذه من وسائل الشرك ولا يُعرف، لا يعرفه إلا من كان يعرفه من قبل، أما أن يُعرفَ لِمَا له من علامات؛ هذا لا يجوز، لا بد أن تكون القبور سواء، قبور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبورهم في البقيع لا يُمَيِّزُ بعضها عن بعض، قبور مسنمة مرفوعة عن الأرض قدر شبر؛ لئلا تداس، ولا يزداد على هذا.

تسوية القبور: يعني عدم رفعها، يرفع القبر عن الأرض قدر شبر، ولا يرفع أكثر من ذلك، ويكون مسنماً؛ لأجل أن ينزل الماء عنه ولا يجتمع فوقه، يكون مسنماً وقدر شبر، هكذا قبور المسلمين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وطمس التماثيل)، التماثيل: جمع تمثال، وهو الصورة المجسمة، يعني: ينحت حجراً ويجعل على صورة إنسان أو يبنى بنية على صورة إنسان هذه التماثيل التي أنكرها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. طمس التماثيل، التماثيل: الصور المجسمة، وقد يطلق التمثال على الصور غير المجسمة، المرسومة تسمى تماثيل، لكن الغالب أن التماثيل على الصور المجسمة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله)، أبى المشركون إلا خلاف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن القبور، ففعلوا عندها وبها ما نهى عنه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فال الأمر إلى عبادتها من دون الله، هكذا فعل المشركون، أما المسلمون فلم يفعلوا هذا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولم يضرهم ذلك شيئاً)، ولم يضر، أهل الشرك لم يضرُوا أهل التوحيد شيئاً، وإنما نصر الله أهل التوحيد وأذل أهل الشرك، والحمد لله. ولم يضر، أهل التوحيد أن عاندتهم المشركون في القبور؛ لأنهم يتبرؤون منه، ولم يرضوا به فلا يضرهم هذا، إنما يضر من فعله، وقام به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا السبب هو الغالب على عوامّ المشركين)، التعلق بالقبور هو السبب الغالب على العوام، والعوام غير المتعلمين، من عوام المشركين، وأما خواصّ المشركين والذين عندهم معرفة وخبرة؛ فإنهم صوروا هذه القبور، وجعلوا عليها صور الكواكب التي يعبدونها من دون الله.



أما خواصهم: فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتاً، وسدنةً، وحجاباً، وحجاً، وقرباناً، ولم تزل هذه في الدنيا قديماً وحديثاً.

فمنها: بيتٌ على رأس جبل بأصبهان، كان به أصنام، أخرجها بعض ملوك المجوس، وجعله بيت نارٍ.

ومنها: بيتٌ ثانٍ وثالثٌ ورابعٌ بصنعاء، بناه بعض المشركين على اسم الزهرة، فخرَّبه عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

ومنها: بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة، فخرَّبه المعتصم^(١).

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أما خواصهم: فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم)، المؤثرة في العالم عندهم: يعني يعتقدون أن الكواكب تؤثر في الكواكب، وهذا هو التنجيم الذي حذر منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ الشَّرِّكَ، زَادَ مَا زَادَ»^(٢)، فلا يجوز هذا.

(١) انظر تلبس ابليس (ص ٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد في المسند (٤٥٤/٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

جعلوا صورًا للكواكب؛ لأنهم يعبدون النجوم، ويعتقدون فيها عند طلوعها وعند غروبها أن يحصل حوادث تتعلق بطلوعها أو بغروبها، هذا هو التنجيم هو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية والكواكب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وجعلوا لها بيوتًا، وسَدَنَةً، وَحُجَابًا)، وجعلوا لها بيوتًا: بنوا عليها بيوتًا ليست بيوت سكن، وإنما بيوتًا للقبور بنوها عليها، وجعلوا لها حُجَابًا على الأبواب، فيكون عليه ضريح وسدنة: سدنة يخدمونها وينظفونها، ويقيمون عندها يحفظونها، سدنة مثل سدنة بيت الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَحُجَابًا)، يحجون إليها كما يُحُجُّ إلى بيتِ الله العتيق، يحجون إلى القبور، وصل بهم الأمر إلى هذا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَقُرْبَانًا)، وَقُرْبَانًا: يذبحون عندها تعظيمها لها، كل هذا من الغلو في القبور، ومن تزيين الشيطان لِعِبَادِهَا، والمعظمين لها.

ففتنة القبور فتنة خطيرة، وقد اسْتَشْرَتْ في العالم وخصوصًا العالم الإسلامي، إلا من وَفَّقَهُ اللهُ لِلهُدَى وكلمة التوحيد، فإنهم كانوا في عافية من هذا، تمسكهم بالسنة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم تزل هذه في الدنيا قديمًا وحديثًا)، لا يزال المشركون على هذا قديمًا وحديثًا إلا من هدى الله منهم، ولم تزل هذه الفعلة الشنيعة في الدنيا قديمًا وحديثًا، وتتجدد، وَاتَّخَذَتْ سُنَّةً عند القبور؛ ومن لم يفعل هذا، فقد احتقر هذا الميث بزعمهم، وَبَخَسَهُ حَقَّهُ.

فالذي لا يخلو في القبور، يقولون هذا تهاونٌ بالميتِ وبخسه حقه، وهذا من إملاء الشيطان-شياطين الإنس والجن-هناك علماء ضلال يُحسِنُونَ هذه الأمور للناس، ويصوّبونها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فمنها: بيتٌ على رأس جبل بأصبهان، كان به أصنام، أخرجها بعض ملوك المجوس، وجعله بيت نارٍ)، جبل في أصبهان في المشرق في بلاد المجوس، بيت فيه قبور تُعظَّم وتُزارُ ويُتقَرَّبُ إليها.

ولكن بعض ملوك المجوس أخرجها من هذا البيت؛ ليستبدلها، ويجعلها بيت نارٍ؛ لأن المجوس يعبدون النار، فيجعلون لها بيوتاً، فأخرجها؛ لأجل أن يجعل هذا المكان بيتاً للنار التي يعبدونها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: بيتٌ ثان وثالثٌ ورابعٌ بصنعاء، بناه بعض المشركين على اسم الزهرة)، صنعاء: عاصمة اليمن يعني، هذا في الجاهلية. صنعاء: من بلاد اليمن، وكان للمجوس عليها سلطان في الزمان السابق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بناه بعض المشركين على اسم الزهرة)، الزهرة: التي هي النجم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فخرَّبه عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه)، في خلافته، عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخليفة الثالث، ثالث الخلفاء الراشدين دمَّرَ هذا المعبد وأزاله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا واجب ولاة أمور المسلمين ألا يتركوا هذه المعابد الشركية في بلادهم.

على اسم الشمس؛ لأنهم يعبدون الشمس، وهي أكبر الكواكب، يعبدونها ويعبدون القمر، ويعبدون النجوم، تَفَرَّقَتْ بهم الأهواء، نسأل الله العافية.

لما تركوا التوحيد وقعوا في أنواع كثيرة من الشرك، وهكذا من ترك الحق يُبْتَلَى بالباطل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فَرْغَانَةَ، فخرَبَهُ المعتصم)، المعتصم العباسي، وقد أجاد في هذا، وهذا من محاسنه.



وأشد الأمم في هذا النوع من الشرك: الهند.

قال يحيى بن بشر: إن شريعة الهند وضعها لهم رجلٌ يقال له: برَهْمَنُ، ووضع لهم أصنامًا، وجعل أعظم بيوتها بيتًا بمدينة من مدائن السُّنْدِ، وجعل فيه صنمهم الأعظم، وزعم أنه بصورة الهَيُولَى الأكبر.

وفُتحت هذه المدينة في أيام الحجاج، واسمها المِلَّتَانُ، فأراد المسلمون قُلْعَ الصنم، فقبل لهم: إن تركتموه ولم تقلعوه جعلنا لكم ثُلُثَ ما يجتمع له من المال، فأمر عبد الملك بن مروان بتركه.

فالهند تُحجُّ إليه من نحو ألفي فرسخ، ولا بد لمن يحجه أن يحمل معه من النقد ما يمكنه، من مئةٍ إلى عشرة آلاف، لا يكون أقل من هذا ولا أكثر، فيلقيه في صندوق عظيم هناك، ويطوف بالصنم، فإذا ذهبوا ورجعوا إلى بلادهم قُسم ذلك المال، فثلثه للمسلمين، وثلثه لعمارة المدينة وحصونها، وثلثه لسدنة الصنم ومصالحه.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأشد الأمم في هذا النوع من الشرك: الهند)، الهند، يقولون: فيها ثلاثمائة وستين ديانة هذا في السابق، وربما زاد الآن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال يحيى بن بشر: إن شريعة الهند وضعها لهم رجلٌ يقال له: برَهْمَنُ)، برهم، البراهمة، الذين يسمون البراهمة هؤلاء أتباع لهذا الملك المشرك: برهم.

(وَفُتِحَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ فِي أَيَّامِ الْحِجَابِ، وَاسْمُهَا الْمِثْنَانُ).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِتَرْكِهِ)، وَهَذَا مِنْ خَطَاةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ أَنَّهُ خَلِيفَةُ حَازِمٍ، لَكِنْ أَغْرَاهُ الْمَالُ فَتَرَكَ لَهُمْ هَذَا، وَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ هَذَا الْمَالُ الَّذِي يَدْفَعُونَهُ، وَهَذَا مِنْ أَخْطَاءِ الْوَلَاةِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَالْهَنْدُ تَحْجُّ إِلَيْهِ)، يَعْنِي تَقْصِدُهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (مِنْ نَحْوِ أَلْفِي فَرَسَخٍ)، يَعْنِي مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، أَلْفِي فَرَسَخٌ، وَالْفَرَسَخُ: مَحْدَدٌ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا بَدَّ لِمَنْ يَحْبِجُهُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ مِنَ النِّقْدِ مَا يُمْكِنُهُ، مِنْ مِئَةِ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ)، لِأَجْلِ السَّدَنَةِ، تَأْخُذُ السَّدَنَةُ، وَكَانَ مَلُوكُهُمْ يَسْتَعْلُونَ هَذِهِ الْأَرْضَ لِلْإِسْتِثْمَارِ، وَلَا يَزَالُ هَذَا إِلَى الْآنِ، يَسْتَعْلُونَهَا فَيَأْخُذُونَ قِسْطًا مِمَّا يَحْصِلُ لَهَا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ لَهَا النَّذُورَ، وَيُقَدِّمُونَ لَهَا الْأَمْوَالَ تَقَرُّبًا إِلَيْهَا.

فَكَانَ بَعْضُ الْمُلُوكِ، وَقَدْ يَكُونُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَأْخُذُونَ قِسْطًا مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، فَتَرْكُوهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، فَصَارُوا يَسْتِثْمِرُونَهَا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لَا يَكُونُ أَقَلُّ مِنْ هَذَا وَلَا أَكْثَرَ، فَيَلْقِيهِ فِي صَنْدُوقِ عَظِيمٍ هُنَاكَ)، صَنْدُوقِ النَّذُورِ، يَتَّخِذُونَهَا مَوَارِدَ، بَعْضُ الْوَلَاةِ يَعْتَبِرُونَهَا مِنْ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ، فَيَأْخُذُونَ مِمَّا يَحْصِلُ لَهَا مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَيَجْعَلُونَهَا لِبَيْتِ الْمَالِ لَهُمْ.



وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين ناظرهم في بطلان الشرك، وكسر حجتهم بعلمه، وأهتهم بيده، فطلبوا تحريقه.

وهو مذهب قديم في العالم، وأهله طوائف شتى. فمنهم عِبَادُ الشَّمْسِ، زعموا أنها مَلَكٌ مِنَ الملائكة، لها نفس وعقل، وهي أصلُ نور القمر والكواكب، وتكوّن الموجودات السفلية كلها عندهم منها، وهي عندهم ملك الفلك، فيستحق التعظيم والسجود والدعاء.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين ناظرهم في بطلان الشرك، وكسر حجتهم بعلمه، وأهتهم بيده، فطلبوا تحريقه)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية^(١): الصابئة على قسمين: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالصَّٰنِئِينَ وَاللَّذِيْنَ أَلْحَنُوا﴾ [البقرة: ٦٢]، هؤلاء المسلمون، الصابئون المسلمون.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ فِي بَابِلَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ، وَكَانَ فِيهَا الشَّرْكُ الْعَظِيمُ، كَانُوا يَعْبُدُونَ النُّجُومَ وَالْكَوَاكِبَ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا عَلَى صُورِ هَذِهِ الْقُبُورِ فَنَاطَرَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

(١) انظر الرد على المنطقيين (ص ٢٨٨).

يعني غاب وذهب، والربُّ لا يغيب، يريد إبراهيم أن يناظرهم في هذا؛ فهو مُنَاطِرٌ لهم، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ يعني بزعمكم، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني غاب، هل يغيب الإله؟ لا يغيب عن عباده.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني غاب، ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٧].

الرب لا يغيب عن خلقه، ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوْرٍ إِنِّي بِرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

فحَاجَّهُ قَوْمُهُ، وفي النهاية أوقدوا له نارًا عظيمة إذا مرت الطيور في الجو تسقط فيها من حرها، وجاءوا بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُقْبِدًا بِالْقِيدِ، ولم يقربوا من النار لحرِّها ووضعوا إبراهيم في المنجنيق ثم قذفوه في النار، قال الله للنار: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. طلبوا تحريق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩]، فجعلها الله روضةً خضراء. قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ لو قال: ﴿بَرْدًا﴾، وسَكَتَ لَأَهْلَكَتْ إبراهيمَ ببرودتها، لكنه قال: ﴿وَسَلَامًا﴾.

فلما جاؤوا وجدوه في أحسن حال وأطيب حال وما صرته النار التي زعموا أنها أحرقتة؛ لأن الله قال لها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنِّي بَرَاهِمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الذين ناظرهم في بطلان الشرك، وكسر حجتهم بعلمه، وآهتهم بيده)، كسر آهتهم بيده، لما ذهبوا نظر نظرة في النجوم - يعني على مذهبه يريد أن يتنزل معهم -، قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩].

يعني مريض لا أستطيع الذهاب معكم؛ فتركوه لأنه مريض، فلما ذهبوا قام عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْأَصْنَامِ فَكَسَرَهَا إِلَّا وَاحِدًا مِنْهَا وَهُوَ أَكْبَرُهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

لما جاؤوا وجدوا أصنامهم مكسرة، ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٩ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ٦٠ ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ٦١ ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ٦٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٣].

لأن الكبير لا يرضى أن يُشاركه من هو دُونُهُ، وفي هذا إشارة إلى توحيد الله عَزَّجَلَّ، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ٦٣ ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٦٤ ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ٦٥ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ٦٦ ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٧ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٣-٧٠]. عند ذلك هاجر إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أرض بابل إلى أرض الشام وبيت المقدس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهو مذهب قديم في العالم، وأهله طوائف شتى)، يعني عبادة الكواكب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمنهم عِبَادُ الشَّمْسِ، زعموا أنها مَلَكٌ مِنَ الملائكة، لها نفس وعقل، وهي أصلُ نور القمر والكواكب)؛ لأن نور القمر مستفادٌ من نور الشمس؛ ولهذا إذا حالت الأرض بين الشمس وبين القمرِ أَظْلَمَ الجَوْ، هذا كسوف الشمس، وإذا حال القمر بين الشمس وبين الأرض حصل خسوف القمر.



ومن شريعتهم في عبادتها: أنهم اتخذوا لها صنماً، بيده جَوْهَرٌ على لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه، وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع، وله سَدَنَةٌ وَقُومٌ وَحَجَبَةٌ، يأتون البيت ويصلُّون فيه لها ثلاث كَرَّاتٍ في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات، فيصومون لذلك الصنم ويصلُّون، ويدعونه ويستسقون به.

وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، وإذا غربت، وإذا توسطت الفلَّك، ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة، لتقع عبادتهم وسجودهم له؛ ولهذا نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحري الصلاة في هذه الأوقات^(١)، قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً، وسدّاً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويأتيه أصحاب العاهات، فيصومون لذلك الصنم ويصلُّون، ويدعونه ويستسقون به)، يصنعونه بأيديهم ويعبدونه، ﴿ قَالَ أَنْعَبُدُونَ مَا تَنْحِبُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها)، يسجدون للشمس، ولهذا يُنهي أن يصلي المسلم عند بزوغ الشمس؛ لثلا يشبه بالكفار. قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، وإذا غربت، وإذا توسطت الفلَّك)، يعني يسجدون لها ثلاث مرات: إذا طلعت، وإذا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

غربت، وإذا توسطت الفلك يعني قبل الزوال، أي: قُبَيْلَ دخول وقت الظهر. وكل الأوقات الثلاثة نُهي عن الصلاة فيها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة)، الشيطان يطلع معها -مع الشمس-، ولذلك نهينا عن الصلاة وقت بزوغ الشمس، وكذلك إذا غربت تغرب بين قرني شيطان، فلذلك نهى عن الصلاة في هذين الوقتين. تطلع بين قرني الشيطان، يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»، وكذلك: «تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ».



فصل

وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنمًا، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلى.

ومن شريعة عباده: أنهم اتخذوا له صنمًا على شكل عجل يجره أربعة، ويبد الصنم جوهرة، ويعبدونه، ويسجدون له ويصومون له أيامًا معلومة من كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب، والفرح والسرور، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه.

ومنهم من يعبد أصنامًا اتخذوها على صورة الكواكب وروحانيتها بزعمهم، وبنوا لها هياكل، ومتعبدات، لكل كوكب منها هيكل يخصه، وصنم يخصه، وعبادة تخصه.

ومتى أردت الوقوف على هذا، فانظر في كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم» المنسوب إلى ابن خطيب الرّى تعرف سر عبادة الأصنام، وكيفية تلك العبادة وشرائطها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن شريعة عباده: أنهم اتخذوا له صنمًا على شكل عجل يجره أربعة، ويبد الصنم جوهرة، ويعبدونه، ويسجدون له ويصومون له أيامًا معلومة من كل شهر)، أين عقولهم -والعياذ بالله-، أين عقولهم؟ يصنعون

الشيء بأيديهم ويعبدونه وهم الذين صنعوه، ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومتى أردت الوقوف على هذا، فانظر في كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم» المتسوب إلى ابن خطيب الرّى تعرف سر عبادة الأصنام)، ابن خطيب الري الرازي.



وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام، فإنهم لا تستمر لهم طريقة إلا بشخص خاص على شكل خاص، ينظرون إليه، ويعكفون عليه.

ومن هاهنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما، زعموا أنها على صورتها فوضع الصنم إنما كان الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته، ليكون نائبًا، وقائمًا مقامه. وإلا فمن المعلوم أن عاقلًا لا ينحت خشبةً أو حجرًا بيده، ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده.

ومن أسباب عبادتها أيضًا: أن الشياطين تدخل فيها، وتخطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات، وتدلمهم على بعض ما يخفي عليهم، وهم لا يشاهدون الشياطين، فجَهَلَتْهُمْ وَسَقَطُهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلمُ المخاطبُ، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام، وبعضهم يقولون: إنها الملائكة وبعضهم يقول: إنها العقول المجردة.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أسباب عبادتها أيضًا: أن الشياطين تدخل فيها)، تدخل فيها وتخطب الناس، تدخل في هذه الأشياء ويقولون هي تكلمت وهي لم تتكلم، الشيطان هو الذي تكلم فيها، ودخل فيها وخاطب الناس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أسباب عبادتها أيضًا: أن الشياطين تدخل فيها، وتخطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات)، المغيبات عن الناس؛ لأن الشياطين عندها أشياء تعلمها لا يعلمها الناس؛ لأنهم يصعدون إلى الجو ويسترقون السمع ويأتون بأخبار كثيرة، منها كذب، وقليلٌ منها صحيح وهو الذي سمعوه من الملائكة، وهو استراق السمع.

وبعضهم يقول: هي روحانيات الأجرام العلوية. وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهًا، ولا يسأل عما وراء ذلك.

وبالجمله فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء، أتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعبادتها في الأرض من قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كما تقدم، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها. والكتب المصنفة في شرائع عبادتها طَبَّقَ الأرض.

قال إمام الحنفاء: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۗ رَبِّ إِنِّي نَرَى الْفِتْنَةَ أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. والأمم التي أهلكتها الله بأنواع الهلاك كلهم كانوا يعبدون الأصنام، كما قصَّ الله تعالى ذلك عنهم في القرآن، وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدنين.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبالجمله فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان)، إذا تركوا الدين الحق ابتلوا بالأديان الباطلة ولا يجتمعون على دين، كلُّ له دينٌ، كلُّ له نِحْلَةٌ، خلاف أهل الحق فدينُهُم واحدٌ، وكلمتهم واحدة، وتوجُّهُهم واحدٌ؛ لا يختلفون ولا يتعادون ولا يتباغضون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبالجمله فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء، أتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ)، الحنفاء

والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠]. أي مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال إمام الحنفاء: ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦])، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف على نفسه من الشرك، ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فلا يأمن الإنسان أنه لا يقع في الشرك، لا يَغْتَرُّ ويقول: أنا عرفت الحق وأنا وأنا، فقد ينخدع من الشيطان فيقع في الشرك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال إمام الحنفاء: ﴿ وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦])، مع أنه كَسَّرَهَا بيده خاف أن يعبدها، لم يأمن على نفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



ويكفي في معرفة كثرتهم، وأنهم أكثر أهل الأرض: ما صح عن النبي -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم-: «أَنْ بَعَثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةَ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ»^(١) وقد قال تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويكفي في معرفة كثرتهم، وأنهم أكثر أهل الأرض: ما صح عن النبي -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم-: «أَنْ بَعَثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةَ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ»)، يقول الله جَلَّ وَعَلَا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم القيامة: «أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعَثَ النَّارِ»، يعني الذين وجبت لهم النار، فيُخْرِجُ مِنَ الْأَلْفِ وَاحِدًا، وتسعمائة وتسعة وتسعون مشركون، فالشُّرْكُ كَثِيرٌ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قال تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩])، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ امتنع، ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] ييغون الكفر.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال: ﴿تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦])، ﴿وَأِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].
 ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فلا يغتر بالكثرة ويقال هذا حق، وإنما يعتبر بالقلَّة الذين على الحق وإن كانوا قليلين، -يأتي الأنبياء يوم القيامة-، فيأتي النبي وليس معه أحد، ويأتي النبي ولم يتبعه إلا رجل أو رجلان.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ولم يتبعه إلا مائة وأربعون فقط.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَنَسِيقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢])، آيات تدل على أن الكثرة لا عبرة بها، وإنما العبرة بمن على الحق، ولو كانوا قليلين أو واحداً.



ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حُبًّا لها وتعظيمًا، ويوصى بعضهم بعضًا بالصبر عليها، وتحمل أنواع المكارِه في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم التي فُتنت بعبادتها، وما حل بهم من عاجل العقوبات، ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها.

فتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور، وفتنة الفجور بها.

والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبة في الدنيا، ولا في الآخرة، وهو يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك: من الآلام والعقوبات، والضرب، والحبس، والنكال، والفقر، غير ما أعد الله له في الآخرة وفي البرزخ، ولا يزيده ذلك إلا إقدامًا وحرصًا على الوصول والظفر بحاجته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها)، يقاتلون دونها، ويقتلون دونها ويصبرون على القتل؛ لأنهم - والعياذ بالله - عَلِقَ في قلوبهم الشرك فحسبوه حقًا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور، وفتنة الفجور بها)، فتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور والاستمتاع بها؛ لأنها فتنة عظيمة.

فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام أشد، فإن تأله القلوب لها أعظم من تأها للصور التي يريد منها الفاحشة بكثير.

والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية، من أولها إلى آخرها، مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله، وأنهم أعداء الله ورسله، وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها، وهم الذين حلت بهم المثلث، ونزلت بهم العقوبات، وأن الله سبحانه برئٌ منهم هو وجميع ملائكته، وأنه سبحانه لا يغفر لهم، ولا يقبل لهم عملاً. وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف. وقد أباح الله عَزَّجَلَّ لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء، وأموالهم، ونساءهم وأبناءهم بتطهير الأرض منهم، حيث وجدوا، وذمهم بسائر أنواع الدم، وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة، فهؤلاء في شقٍّ ورسل الله تعالى كلهم في شق.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف)، ومع هذا لا يقلعون عن الشرك وهم يعلمون ما حل بأهله عاجلاً وآجلاً، يعلمون ذلك لأنهم فتنوا بالشرك - والعياذ بالله - فأحبوه وتعلقوا به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد أباح الله عَزَّجَلَّ لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء، وأموالهم، ونساءهم وأبناءهم بتطهير الأرض منهم، حيث وجدوا)، أمر الله بجهاد المشركين وقتالهم، فهذا دليل على قبح الشرك وبطلانه؛ لأن الله أباح دماء أهله وأموالهم ونساءهم أيضاً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذبهم بسائر أنواع الذم، وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة، فهؤلاء في شق ورسل الله تعالى كلهم في شق)، هؤلاء يشاقون الله ورسوله؛ لأنهم كانوا في شق غير الشق الذي فيه الله ورسله: يعني في جانب، شق يعني جانب.



فصل

ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جُعِلَ فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم، الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله، وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق)، من أسباب عبادة الأصنام: الغلو في الإنسان.

الغلو في الصالحين؛ فغلوا في أناس قد ماتوا، وصوروا صورهم؛ وجعلوا لهم تماثيل تحمل شبههم كما حصل لقوم نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنهم كانوا رجالاً صالحين؛ ﴿وَلَا تَذَرْنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فماتوا في سنة واحدة، فحزن عليهم قومهم وفقدوهم، جاءهم الشيطان -لعنه الله- وقال لهم: صوروا صورهم؛ حتى تتذكروا أحوالهم، وتشطوا على العبادة. فصوروا صور الصالحين، ونصبوها على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، ثم سكت الشيطان حتى مات العلماء الذين ينكرون الشرك، فجاء الشيطان إلى قوم نوح بعد موت العلماء، وقال لهم: إن آباءكم لم ينصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر.

فبسبب الجهل، وموت العلماء عبدوها من دون الله، فبعث الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ينكر عليهم هذا الشرك، ويدعوهم إلى التوحيد فعصوا نوحًا

عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَتَكُ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]. فعصوا نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واستمروا على عبادة الأصنام التي على صور الصالحين.

فلما عصوا ولم يستجب لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا عدد قليل حوالي مائة وأربعين، وقد بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك ولكنهم عصوه.

دعا عليهم، لما قال الله له: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، فعند ذلك دعا عليهم، فقال: ﴿ رَبِّ لَا نَذِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، فلما دعا عليهم أرسل الله عليهم الطوفان.

والطوفان: هو الماء الذي ينزل من السماء وينبع من الأرض، فنزل الطوفان من السماء ونبع من الأرض، وفارت التنانير؛ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠].

عند ذلك أمر الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحمل المسلمين معه في السفينة التي صنعها؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان نجارًا، فصنع السفينة، وأمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين؛ من أجل بقاء النسل، فحملهم معه، والطوفان غطى رؤوس الجبال، فكانت السفينة تمشي على الماء كأنها في بحر حتى وصلت إلى جبل الجودي عند الموصِل في العراق، فاستوت عليه؛ ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ﴾ [هود: ٤٤]، استوت على هذا الجبل، يعني: رست عليه، فنزلوا

منها، وسكنوا الأرض، وأهلك الله عبدة الأصنام عن آخرهم بسبب دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]: أي ساكن دار، فلم يبق منهم أحدٌ إلا المسلمون.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جُعِلَ فيه حظ من الإلهية)، غلوا في الصالحين، قوم نوح غلوا في الصالحين، وعبدوهم من دون الله، وحدث الشرك في الأرض من ذاك الوقت.

والغلو: هو الزيادة في المدح^(١)، والزيادة في تعظيم المخلوق؛ فلا يعظم المخلوق فوق ما يستحق؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فعبادة القبور الآن هي غلو في المخلوق؛ لأنها غلو في الأموات الذين في هذه القبور، غلوا فيهم، وزعموا أن لهم تصرفات في الكون، وأنهم ينفعون من دَعَاؤِهِمْ، ويضرون من عَصَاؤِهِمْ، هكذا سَوَّلَ لهم شياطين الإنس والجن.

حتى الإنس فيهم شياطين يدعون إلى الكفر وإلى الشرك، ولا يزالون يدعون إلى الشرك وإلى الكفر، وينكرون على من دعا إلى التوحيد، ويقولون: هذا لا يجب الصالحين، كما فعلوا مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ اللَّهِ، فمما نسبوه إليه: أنه لا يجب الصالحين، وأنه يبغض الصالحين، يعني: يبغض

(١) انظر: العين (٤/٤٣٥)، وتهذيب اللغة (٨/١٥٣)، ولسان العرب (٨/١٥)، وتفسير الطبري (٢٣/٢١٩).

الأموات والمعبودات من دون الله، وهو لم ييغض إلا أعداء الله عَزَّجَلَّ، ودعا إلى التوحيد الخالص، وجدد دعوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم، الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله، وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله)، وهذا لا يزال يزيد، ويتعاضم أعني الغلو في الصالحين مثل البدوي في مصر.

البدوي في مصر: كان من أهل الحجاز، من أهل مكة، ثم ذهب إلى مصر، وكان جاهلاً، فغلوا فيه؛ لماذا غلوا فيه؟ لأنه دخل في المسجد يوم الجمعة، وبال فيه، وخرج ولم يصل، ولم يُصَبَّهُ شيء.

الله جَلَّ وَعَلَا أمهله، فلم يُصَبَّهُ شيء، قالوا: هذا ولي من أولياء الله، لم يصل إلى هذه المرتبة إلا لأنه ولي، فنصبوا على قبره بناية، وعبدوه من دون الله، ولا يزالون يذبحون عند قبره الذبائح، ويأتون من بلاد بعيدة، وينزلون عند قبره وفي ساحة قبره، ويدعون.

وانتشر هذا في غير مصر من البلاد التي لم يوفق من يدعوهم إلى الله، ويجدد لهم دعوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنحن في نعمة عظيمة يرجع سببها وثوابها -إن شاء الله- إلى هذا العالم الرباني الذي قام بالدعوة إلى التوحيد، وصبر على الأذى، والله جَلَّ وَعَلَا أعانه، وكوّن مدرسةً للتوحيد في بلاد نجد في الدرعية، وانتشرت -ولله الحمد- مدارس التوحيد في بلاد نجد بسبب هذا العالم الرباني الذي وفقه الله عَزَّجَلَّ، والذي صبر على الأذى، وتمّت مطاردته، ولكنه صبر.

ولم يكن معه ميزانية وأموال، ليس معه إلا مروحته اليدوية يومئ بها على وجهه، ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فنفع الله بدعوته، واستجاب له آل سعود - وفقهم الله -، وبايعوه على النصر، وعلى الجهاد في سبيل الله، ومنذ ذلك الوقت وهذه البلاد في خير ونعمة - والله الحمد - في ظل هاتين الأسرتين: آل الشيخ، وآل سعود، وفقهم الله وأعانهم، وبارك فيهم.



فهو سبحانه ينفي وينهى أن يُجعل غيره مثلاً له، ونداً له، وشبهاً له، لا أن يُشَبَّه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمةٌ جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلاً وشبَّهت به الخالق، فهذا لا يُعرَفُ في طائفة من طائفة بني آدم، وإنما الأوَّلُ هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوًّا فيمن يعظمونه، ويحبونه، حتى شبَّهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة لها واحداً وقالوا: ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦]. وصرحوا بأنه إله معبود، يرجى ويخاف، ويعظم ويسجد له، ويحلف باسمه، وتُقَرَّبُ له القرابين، إلى غير ذلك من خصائص العبادة، التي لا تنبغي إلا لله تعالى.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهو سبحانه ينفي، وينهى، أن يُجعل غيره مثلاً له، ونداً له، وشبهاً له)، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].
 ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: أي شباه، ونظراء لله؛ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أن لا أحد يشبه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، تعلمون هذا في فطرتكم، وتعلمونه من دعوة الرسل -أيضاً- عليهم الصلاة والسلام.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلاً وشبَّهت به الخالق)، لم يعرف العكس، لم يعرف أن أحداً شبَّه الله بخلقه، وإنما العكس؛ شبَّهوا الخلق بالله عَزَّجَلَّ، فَعَلُّوا فيهم، وعبدوهم من دون الله أحياءً وأمواتاً.

وهذا واجبكم، وواجب كل طالب علم؛ أن يقوم بالدعوة إلى الله في بلده، وفي البلاد التي يصل إليها، وينشر هذه العقيدة، هذا التوحيد؛ ينفع الله به، فيكون له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْئاً»^(١).

وهذا البلاء مستشري الآن في العالم الإسلامي يحتاج إلى مقاومة، ويحتاج إلى بيان، ويحتاج إلى دعوة، وهذا واجبكم، وواجب كل طالب علم. قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك)، تشبيهه المخلوق بالخالق هذا هو المعروف.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلواً فيمن يعظمونه، ويحبونه، حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله)، قالوا في البدوي: أنه لا يدخل مصر ذرة، ولا يخرج منها ذرة إلا بإذنه، يعني بإذن البدوي، صار البدوي هو الله! تعالى الله عما يقولون!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأنكروا جعل الآلهة لها واحداً وقالوا: ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَيَّ إِلَهَيْكُمْ﴾ [ص:٦])، لكن -والحمد لله- لا تزال في كل البلاد الدعوة إلى التوحيد: أنصار السنة في مصر والسودان، وفي كل بلد يكون فيها من دعاة

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

التوحيد من تقوم به الحجة على قومه -والحمد لله- حتى لا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿وَقَالُوا لَا نَذْرُنَّ إِلَهُتِكُمْ وَلَا نُذِرُّنَّ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

يوصي بعضهم بعضاً: لا تذروا آلهتكم التي تعبدونها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تطيعوا الدعاة إلى الله، ولكن إذا قامت عليهم الحجة برئت الذمة منهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وصرحوا بأنه إله معبود، يرجى ويخاف، ويعظم ويسجد له، ويحلف باسمه، وتقرب له القرابين)، بل إن بعض البلاد تستثمر هذه القبور؛ تأخذ مما يقدم لها من النذور، ومن القرابين، وتعتبرها استثمار، -نسأل الله العافية- يجعلون لها سدنة؛ يجمعون المال، ويؤخذ من هذا المال لبيت المال عندهم.



فكل مشرك فهو مشبه إلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه، حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم: إنه فقير، وإن يده مغلولة، وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم.

والذين جعلوا له ولدًا وصاحبة، -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلًا، ثم يشبهون به الخالق، بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً، لا قصدًا أن يكون غيره أصلًا فيها، وهو مشبه به.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكل مشرك فهو مشبه إلهه ومعبوده بالله سبحانه)، لم يعبدوهم إلا لما شبهوهم بالله؛ أنهم ينفعون وأنهم يضررون، وأنهم يعلمون الغيب، وأنهم، وأنهم...

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإن لم يشبهه به من كل وجه)، من وجوه العبادة والنفع والضرر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم: إنه فقير، وإن يده مغلولة)، هذه مقالات اليهود.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم)، عندهم يوم السبت، يقولون: أن الله استراح يوم السبت، خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ مبدؤها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت! تعالى الله عما يقولون!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨]، هذا ردُّ عليهم، واللغوب يعني: التعب كما يقولون: إنه تعب، واستراح يوم السبت! ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ .

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والذين جعلوا له ولداً وصاحبة)، جعلوا لله ولداً، قالوا: ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، قالوا: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عيسى ابن مريم ابن الله! تعالى الله عما يقولون.

وبعضهم يقول: المسيح هو الله، وبعضهم يقول: المسيح ثالث ثلاثة، هذه مقالات اليهود.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والذين جعلوا له ولداً) كما قالوا في المسيح، وكما قالت اليهود في عزيز: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، هذه مقالاتهم، تعالى الله عما يقولون.

الولد شبيه للوالد، والله لا يشبهه أحدٌ من خلقه، والولد جزءٌ من الوالد، والله ليس له جزءٌ في خلقه، ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف:١٥]: يعني ولداً؛ لأن الولد جزءٌ من الوالد، ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف:١٥]، تعالى الله عن ذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والذين جعلوا له ولداً وصاحبة)، صاحبة يعني: زوجة. يقولون: إنه ناسب الجن، تزوج من الجن، فولدت له الملائكة! تعالى الله عما يقولون.



ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل، لكونها في نفسها نقائص وعيوبًا، ليس جهة البطلان في اتصافه بها: هو التشبيه والتمثيل، فلا يتوقف في نفيها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه، كما يفعله بعض أهل الكلام الباطل، حيث صرحوا بأنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب عنه، وإنما تنفي عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل.

وهؤلاء إذا قال لهم الواصفون لله سبحانه بهذه الصفات: نحن نثبتها له على وجه لا يماثل فيها خلقه، بل ثبت له فقراً وصاحبة وإيلاداً لا يماثل فيه خلقه، كما تثبتون أنتم له علماً وقدرة، وحياة وسمعاً، وبصراً، لا يماثل فيه خلقه.

فقولنا في هذا كقولكم فيما أثبتموه سواء لم يتمكنوا من إبطال قولهم، ويصيرون أكفاء لهم في المناظرة، فإنهم قد أعطوهم أنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب، وإنما ننفي ما نفي عنه لأجل التشبيه والتمثيل، وقد أثبتوا له صفات على وجه لا يستلزم التشبيه، فقال أولئك: وهكذا نقول نحن.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل)، وَصَفُهُ بِالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ هَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ اللَّهُ لَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ؛ ﴿أَنْتِ يَكُونُ لَهُ، وَكَدُّ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]، يعني: ليس له زوجة، تعالى الله عن ذلك.

ولما عرف بعضهم أن هذا لازم له لا محالة استروح إلى دليل الإجماع، وقال: إنما نفينا النقائص والعيوب عنه بالإجماع، وعندهم أن الإجماع أدلته ظنية، لا تفيد اليقين، فليس عند القوم يقين وقطع بأن الله سبحانه منزّه عن النقائص والعيوب.

وأهل السنة يقولون: إن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاته، وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأهل السنة يقولون: إن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاته، وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء)، كيف يكون الذي خلق الخلق كله، خلق السموات والأرض ومن فيهن، وخلق الدواب ورزقها، أليست هذه تكون صفات كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! الذي خلق هذا الخلق الفسيح، وخلق هذه المخلوقات الهائلة، وأوجدها من عدم، أليس هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرِزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [فاطر: ٣]؟

لا أحد يخلق مع الله، لا أحد ادّعى أنه خلق جبلاً، أو خلق بحراً، أو خلق حيواناً، لا أحد ادّعى أنه خلق أبداً، بل أفردوا الله جَلَّ وَعَلَا بأنه هو الخالق، وهو الرزاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف يُسَوُّونهم بالله عَزَّجَلَّ؟! لكن العقول فسدت.

ومن العجب أن هؤلاء جاؤوا إلى ما عَلِمَ بالاضطرار أن الرسل جاؤوا به، ووصفوا الله سبحانه به، ودلت عليه العقول والفطر والبراهين، فنفوه، وقالوا: إثباته يستلزم التجسيم والتشبيه، فلم يثبت لهم قدم البتة، فيما يثبتونه له سبحانه، وينفونه عنه.

وجاؤوا إلى ما عَلِمَ بالاضطرار والفطر والعقول، وجميع الكتب الإلهية من تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وعب، فقالوا: ليس في أدلة العقل ما ينفيه، وإنما ننفيه بما ننفي به التشبيه.

وليس في الخذلان فوق هذا، بل إثبات هذه العيوب والنقائص يضاد كماله المقدس وهو سبحانه موصوف بما يضادها وينافياها من كل وجه، ونفيها أظهر وأبين في العقول من نفي التشبيه، فلا يجوز أن يثبت له على وجه لا يشابه فيه خلقه.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن العجب أن هؤلاء جاؤوا إلى ما عَلِمَ بالاضطرار أن الرسل جاؤوا به، ووصفوا الله سبحانه به، ودلت عليه العقول والفطر والبراهين، فنفوه)، يقولون: إثبات الأسماء والصفات لله؛ إذا قلنا: الله سميع، الله بصير، الله له وجه، له يد، قالوا: أنتم شبهتهم المخلوق بالخالق. نقول: لا، هناك فرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق، لا يشبه هذا هذا.

ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه السمع والبصر، ونفي عن نفسه مشابهة المخلوق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: إثباته يستلزم التجسيم والتشبيه)، يقولون: أنتم مجسمة، هذه الصفات لا تكون إلا لجسم، والله ليس بجسم.

نقول: مسألة الجسم لم يرد فيها كتاب ولا سنة لا نفيًا ولا إثباتًا، من أين جئتم بهذا التجسيم؟! لم يرد ذكر الجسم لا في الكتاب ولا في السنة، أنتم الذين ابتدعتم هذا الشيء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: إثباته يستلزم التجسيم والتشبيه)، التشبيه، نقول: لا، ليس هناك تشبيه؛ صفات الخالق تليق به، وصفات المخلوق تليق به، ولا يشبه هذا هذا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقالوا: ليس في أدلة العقل ما ينفيه، وإنما ننفيه بما ننفي به التشبيه)، ينفون عن الله النقائص والعيوب، ويقولون: ليس في العقل ما يدل على نفيها، ما هذا العقل الذي لا يعرف الله عَزَّوَجَلَّ وعظمة الله، هل يكون هذا عقل؟! هذا عقل فاسد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وليس في الخذلان فوق هذا)، الله خذلهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (بل إثبات هذه العيوب والنقائص يضاد كماله المقدس وهو سبحانه موصوف بما يضادها وينافيها من كل وجه)، قلبنا الدليل عليهم، نقول: نفيها يضاد كمال الله؛ لأنها نقائص، إذا صار ليس له سمع وليس له بصر إلى آخره صار ناقصًا، فأنتم الذين أثبتتم النقائص لله عَزَّوَجَلَّ.

أما نحن فنقول: له صفات لا تشبه صفات المخلوقين خاصة به، لا ثقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونفيها أظهر وأبين في العقول من نفي التشبيه، فلا يجوز أن يثبت له على وجه لا يشابه فيه خلقه)، هناك فرق بين صفات الخالق والمخلوق.



والمقصود: أنه لم يكن في الأمم من مثله بخلقه، وجعل المخلوق أصلاً ثم شبهه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه في الأمم، حيث شبهوا أو ثابتهم ومعبودهم به في الإلهية.

وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام، فأعرض عنه وعن بيان بطلانه أهل الكلام، وصرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق الذي لم تعرف أمة من الأمم عليه، وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال.

وهذا موضع مهم نافع جداً، به يعرف الفرق بين ما نزه الرب سبحانه نفسه عنه، وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه، وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله، ويزعمون أن القرآن دل عليه وأريد به نفيه.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وصرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق الذي لم تعرف أمة من الأمم عليه، وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال)، نفوا صفات الكمال؛ لثلا يشبه الخلق، فالخلق له وجه والله له وجه فيقولون: لا، هذا يقتضي التشبيه.

ليس عندهم فارق بين صفات الخالق والمخلوق، كما أنهم ليس عندهم فارق بين ذات الخالق وذات المخلوق.



والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات ما يشبه الرب تعالى أو يمثله، فهذا هو الذي قُصِدَ بالقرآن، إبطالاً لما عليه المشركون والمشبّهون العادلون بالله تعالى غيره.

قال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢])، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

الأنداد: جمع ند وهو الشبيه، أي شبهاء يُشبّهون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه لا ند له، ولا أحد يمثله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥])، ﴿أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمشركون يحبون الله، لكن يحبون معه غيره، والموحدون يفردون الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يجعلون معه غيره في صفاته وأسمائه وتصرفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناك كتاب اسمه «الفارق بين المخلوق والخالق»، وهو مطبوع

وموجود.

فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق.

فلند: الشبه. يقال فلان نِد فلان، ونَدِيدُه أي: مثله وشبهه.

ومنه قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ؟ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ^(١)

ومنه قول النبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - لمن قال له ما شاء الله

وشئت: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا»^(٢).

وقال جرير:

أَتَيْمٌ تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا؟ وَمَا تَيْمٌ لِيذِي حَسَبٍ نَدِيدٌ^(٣)

قال ابن مسعود، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لا تجعلوا الله أكفأ من الرجال،

تطيعونهم في معصية الله»^(٤).

وقال ابن زيد: «الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه»^(٥).

وقال الزجاج: «أي لا تجعلوا الله أمثالا»^(٦).

(١) انظر: الشعر والشعراء (١/٢٩٨)، والعقد الفريد (٦/١٤٦)، ولباب الآداب (ص ١٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧٤)، وابن ماجه (٢١١٧)،

وابن أبي شيبة (٦/٧٤)، والبيهقي في الكبرى (٣/٣٠٧) من حديث ابن عباس

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: ديوانه (١/٣٣١) بشرح محمد بن حبيب.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (١/٣٩١).

(٥) أخرجه الطبري في التفسير (١/٣٩١)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٦٠).

(٦) انظر: معاني القرآن (١/٩٩).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنه قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمْهَجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنْدٌ؟ * فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ)، حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شاعر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رد على أبي سفيان بن الحارث ابن عم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أبا سفيان هجا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فردَّ عليه حسان، قال:

أَمْهَجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكْفُؤٍ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ

قصيدة همزية طويلة، ومنَّ الله على أبي سفيان هذا فأسلم وحسَن إسلامه، وصار يدافع عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنه: قول النبي -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- لمن قال له ما شاء الله وشئت: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا»)، قال رجل للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ». عطف بالواو، والواو تقتضي المساواة والاشتراك. فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا» -يعني شبيهاً- «قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

فلهذا يقال: ما شاء الله وحده، أو ما شاء الله ثم شاء فلان، تأتي بـ«ثم» التي ترتب بين المعطوفات.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال جرير)، جرير هذا الشاعر المعروف مع الفرزدق من شعراء صدر الإسلام، عاش في اليمامة في الرياض.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَتَيْتُمْ تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا * وما تيمُّ لذي حَسَبٍ نديدٌ)، يقول ليس لي ند منكم، لا أحد يشبهنني منكم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال ابن مسعود، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال، تطيعونهم في معصية الله»)، هذا تفسير للآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿أندادًا﴾: تشبهون المخلوقين بالخالق فتعطونهم ما يستحقه الله جلَّ وَعَلَا من التعظيم والإجلال والانفراد بالكمال.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال الزجاج: «أي لا تجعلوا لله أمثالاً»)، كلها معنى واحد، أمثال، أشباه، شركاء.



فالذي أنكره الله سبحانه عليهم: تشبيه المخلوق به، حتى جعلوه ندًا لله تعالى، يعبدونه كما يعبدون الله.

وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأنكر هذا التشبيه عليهم، وهو أصل عبادة الأصنام.

ونظيرُ هذا قوله سبحانه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]. أي يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً وشبهًا.

قال ابن عباس^(١): يريد عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام، بعد أن أقرؤا بنعمتي وربوبيتي.

وقال الزجاج^(٢): أعلم الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية. وأن خالقها لا شيء مثله. وأعلم أن الكفار يجعلون له عدلاً.

والعدل: التسوية، يقال: عدل الشيء بالشيء إذا سَوَّاهُ به، ومعنى يعدلون به: يشركون به غيره. قاله مجاهد^(٣).

قال الأحرر: يقال: عدل الكافر بربه عدلاً، وعدولاً: إذا سوى به غيره؛ فعبده. وقال الكسائي: عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولاً إذا ساوَيْته به^(٤).

(١) انظر: التفسير البسيط (٩/٨).

(٢) انظر: معاني القرآن (٢٢٧/٢).

(٣) أخرجه مجاهد في التفسير (ص ٣١٩).

(٤) انظر: البسيط (١٠/٨).

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأنكر هذا التشبيه عليهم، وهو أصل عبادة الأصنام)، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فالشركون يحبون الله لكنهم يحبون معه غيره، فصاروا مشركين، أما المسلمون فيحبون الله وحده، المحبة الخاصة بالله لا يشاركه فيها أحد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونظيرُ هذا قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: الذي خلقها كلها على سعتها وعظمتها هو الله، خلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقُدْرَتِهِ، ولا يعجزه شيء.

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: والظلمات: جمع ظلمة ولا تستوي مع النور، النور واضح جليٌّ، والظلمات خفية ومظلمة، فهناك فرق بين الظلمات والنور، وانظر كيف أنه عدد الظلمات؛ لأنها كثيرة، وأفرد النور، النور شيء واحد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، محل الشاهد: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. يعني يسوون به غيره من مخلوقاته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال ابن عباس: يريد عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام)، يريد الله سبحانه في هذه الآية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال ابن عباس: يريد عدلوا بي من خلقي الحجاره والأصنام، بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي)، سوا الحجاره والأشجار والأحجار بالله فعبدوها معه، عبدوها معه، فمعنى هذا أنهم أشركوا مع الله مخلوقاته، ومخلوقاته لا تشاركه سبحانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال الأحمري: يقال: عدل الكافر بربه عدلاً، وعدولاً: إذا سوى به غيره فعبدته)، عادله. وهؤلاء الذين ذكرهم من أئمة اللغة.



ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين إنهم يقولون في النار لأهنتهم: ﴿ تَأْتِيهِمْ فِيهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمَن يَأْكُلْ مِنْ ثَمَرِهِمْ فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْحَارِثَ وَالشَّيْطَانَ فَاغْتَابُوا بِصَفْوَتِهِمْ لَأَسْفَرُوا بِهِمْ وَرَوَّاهُمْ لِئَلَّا يَدَّبُوا عَلَيْهِمْ وَأَلَّا يَمَسُّهُمُ أَفْجَاءً يَسْرَرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه، إذ جعلوا لله شبهاً وعدلاً من خلقه سووهم به في العبادة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن عباس: «شبهاً ومثلاً، وهو من يساميه».

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين إنهم يقولون في النار لأهنتهم: ﴿ تَأْتِيهِمْ فِيهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمَن يَأْكُلْ مِنْ ثَمَرِهِمْ فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْحَارِثَ وَالشَّيْطَانَ فَاغْتَابُوا بِصَفْوَتِهِمْ لَأَسْفَرُوا بِهِمْ وَرَوَّاهُمْ لِئَلَّا يَدَّبُوا عَلَيْهِمْ وَأَلَّا يَمَسُّهُمُ أَفْجَاءً يَسْرَرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، إذا اجتمعوا مع الأصنام في جهنم يوم القيامة قالوا: ﴿ تَأْتِيهِمْ فِيهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمَن يَأْكُلْ مِنْ ثَمَرِهِمْ فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْحَارِثَ وَالشَّيْطَانَ فَاغْتَابُوا بِصَفْوَتِهِمْ لَأَسْفَرُوا بِهِمْ وَرَوَّاهُمْ لِئَلَّا يَدَّبُوا عَلَيْهِمْ وَأَلَّا يَمَسُّهُمُ أَفْجَاءً يَسْرَرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥])، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. يعني شبهها تعبده.

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾: هذا نفي، لا تعلم له شبهها من خلقه.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية فيها أنواع التوحيد

الثلاثة:

- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا توحيد الربوبية.
- ﴿فَاعْبُدْهُ﴾: هذا توحيد العبادة.
- ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: هذا توحيد الأسماء والصفات، ففيها أنواع التوحيد الثلاثة^(١).



(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٩٨).

وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهاً للخالق، ومثالاً له، بحيث يستحق العبادة والتعظيم.

ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سمياً، أو مشبهاً لغيره، فإن هذا لم يقله أحد. بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهاً له، مسامياً، ونذاً وعدلاً، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]، فنهاهم أن يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه فإن هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه. فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سمياً، أو مشبهاً لغيره، فإن هذا لم يقله أحد)، لا أحد شبه الله بخلقه، إنما العكس شبهوا الخلق بالله عزَّوجلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فنهاهم أن يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه فإن هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه)، ليس هناك أحد شبه الله بخلقه إنما العكس، شبه الخلق بالله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم)، حتى الكفار.

ولكن المشبهون المشركون يغفلون فيمن يعظمونه. فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعظيم؛ لأنه مثل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه نسبة في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين المدوحين.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره)، ليس هناك أحد شبه الله بخلقه، إنما العكس، الكفار شبهوا المخلوق بالخالق.



ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاؤوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحاً، و جاؤوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهاً وتمثيلاً، عكس ما بينه القرآن، وجاء به من كل وجه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤].

هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه.

ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق

ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج إلى نفيه.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمن

التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات

يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين)، إذا قالوا: ليس له سمع ولا بصر،

ولا يكون أنقص الناقصين، فالذي ليس له صفات يكون أنقص الناقصين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد)، ولم يكن هو: أي لله،

﴿ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤]، لا أحد يكافئ الله ويساوي الله ويشابهه.



وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه. وأما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو نداء له ولا كفوًّا، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مُدِحَ بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك نداء ولا كفوًّا، ولا شبيهاً من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

وكذلك قول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: ١١].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له)، لو جئت عند ملك من الملوك، وقلت أنت لست بزبال ولا كذا، وتأتي صفات النقص ربما يقتلك هذا الملك، لماذا تقول هكذا؟! لست بزبال ولا كناس ولا متسولًا، ولا، ولا، هذا ليس مدحًا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنه ليس في رعيته من يساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه:

كان هذا غاية المدح)، هذا في المخلوق، فكيف بالخالق سبحانه؟!

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر في الصحو.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك قول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١])، من أنواع التوحيد - كما سبق - توحيد الأسماء والصفات، وذلك بأن نثبت لله ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسوله من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ففي المثل له، ليس له مثل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَاتِهِ، ولا في أسمائه وصفاته، ليس له شبيه وليس له مثل.

ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا نفي للشبيه.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات.

فهذه الآية جمعت بين النفي والإثبات، نفي الشبيه والنظير والمثل، وإثبات الأسماء والصفات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ له السمع وله البصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
 والمخلوق أيضًا سميع بصير؛ كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
 مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾: يعني مختلطة من مني الرجل ومني المرأة.
 ﴿تَبَتَّلِيهِ﴾: يعني نخبره، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا﴾: يسمع، ﴿بَصِيرًا﴾
 [الإنسان: ٢]: يبصر.

الله سميع بصير أيضًا، والمخلوق سميع بصير، ولكن لا تشابه بينهما
 فالله له سمع وبصر وصفات وأسماء خاصة تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وللمخلوق
 سمع وبصر وصفات تليق بالمخلوق.

ولا تشابه بينهما، وإن اشتركت في الاسم، واشتركت في المعنى أيضًا،
 سميع يعني له سمع، بصير له بصر، فهي وإن اشتركت في الاسم والمعنى
 فإنها لا تشترك في الكيفية، هذه قاعدة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق
 العبادة والتعظيم)، ومما يدخل في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
 [الشورى: ١١].

يعني حتى في كل شيء حتى في العبادة فلا يعبد معه أحد، هو المخصوص
 بالعبادة.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
 فهو المختص بالعبادة؛ فلا يعبد معه غيره كالَّذِي عَلَيْهِ المشركون.

فالمشركون يؤمنون بالله: يعني يؤمنون بتوحيد الربوبية، ولكنهم يشركون في توحيد الألوهية.

وأما المسلمون وأهل السنة والجماعة يخالفونهم في ذلك؛ فلا يشبهونه بخلقه، ولا يعبدون معه غيره؛ بل يفرّدونه بالعبادة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون)، قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]: هذا عام، ليس كمثل شئ في العبادة، في الأسماء والصفات، في الأفعال، لا يشبهه أحد في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يقصد به نفي صفات كماله)، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أثبت لنفسه السمع والبصر، ونفي عن نفسه المثلية والشبيهة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعلوه على خلقه)، علوه على خلقه، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له العلو بأنواعه الثلاثة: علو الذات، وعلو الأسماء والصفات فهو منفرد بهذا، وعلو القهر؛ لأن العلو ثلاثة أنواع: علو القهر، وعلو الذات، وعلو الأسماء والصفات.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتكلمه بكتبه)، تكلمه بكتبه، فالله يوصف بأنه يتكلم ويقول، والمخلوق يوصف بأنه يتكلم ويقول، ولكن لا تشابه بينهما، كلام الله لا يشبهه كلام أحد، كما أن ذاته لا يشبهها أحد في ذوات المخلوقين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتكلمه بكتبه، وتكليمه لرسله)، تكلمه بكتبه، الكتب منزلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ تَكَلَّمَ اللهُ بِهَا، وحملها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَلَّغَهَا لِلرَّسُلِ، والرسول بلغوها لأممهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر في الصحو)، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا، لا أحد يطيق رؤية الله في هذه الدنيا؛ لضعف المخلوقات والمخلوقين عن رؤيته؛ ولهذا لما سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

لما كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وسمع كلامه تلذذ بذلك واشتاق إلى رؤية الله، فطلب أن يراه، ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿لَنْ تَرَنِي﴾: هذا نفي، وهذا في الدنيا؛ لأن ﴿لَنْ﴾ ليست للنفي المؤبد، ولم يقل: لم ترني، بل قال: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾، و«لن» نفي لكنه نفي مؤقت في الدنيا، ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ يعني في الدنيا.

ثم أراد الله جَلَّوَعَلَا أَنْ يُرَى مُوسَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى اللَّهَ فِي الدُّنْيَا، لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ الجبل الأصم، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ اندك الجبل وصار تراباً بعد أن كان حجارة وجامداً؛ صار تراباً متفتتاً من عظمة الله.

﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾: غَشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُنْظَرِ الْعَظِيمِ. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾: يَعْنِي أَفَاقَ مِنَ الْغَشْيِ، رَفَعَ رَأْسَهُ، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ ﴾: مما حصل مني من طلب الرؤية التي لا يمكن أن تتحقق في الدنيا، ولم يره أحد في الدنيا.

﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٤٣] قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾: اخترتك على الناس.

﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤]:
كَلِمَةُ رَبِّهِ، يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ يَكْلِمُهُ وَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ فَلِذَلِكَ يُسَمَّى
كَلِيمَ اللَّهِ، أَفْعَلَ كَذَا، لَا تَفْعَلُ كَذَا، يَكْلِمُهُ رَبُّهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ وَصَوْتَ اللَّهِ
جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ عِبَادُهُ مِنْ يَرِيدِ اللَّهِ أَنْ يَسْمَعَهُ إِيَّاهُ.

﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ ﴾: يعني اخترتك على الناس، ﴿ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٤٤]: خذ ما آتيتك من
هذه الرسالة وهذا الكلام والتكليم، ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى
ذَلِكَ.



فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من
دونه أولياء. يوالونهم من دونه، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦ ﴾ وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ٧ ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ ﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ
وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ ﴾ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [الشورى: ٦-١١].

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ
عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾)، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ أولياء من
دون الله عَزَّجَلَّ يدعونهم ويطلبون منهم كما عليه المشركون وعباد القبور
يطلبون من المخلوقين حوائجهم، وإذا قيل لهم في ذلك، قالوا: إنما اتخذناهم
وسائل ووسائط بيننا وبين الله.

نحن نعلم أنهم مخلوقون وأنهم ضعفاء، لكن الله أكرمهم برسالاته
وبكلامه فنحن نطلب منهم الوساطة والوسيلة بيننا وبين الله.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]. شفعاء يشفعون لنا عند الله، هذه حجتهم.

الشفاعة ملك لله تطلب من الله ولا تطلب من المخلوق، فلا تقل: يا رسول الله اشفع لي، يا فلان، يا جبريل اشفع لي.

بل تقول: اللهم شفّع فيّ رسولك ونبيك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشفّع فيّ عبادك الصالحين، تطلب الشفاعة من الله أن يشفع فيك هؤلاء، ولا تطلبها منهم؛ لأنهم لا يملكونها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: يحفظ عليهم أعمالهم وما يصدر منهم، ومن ذلك الشرك الذي أشركوا المخلوق مع الخالق سبحانه، يحفظه عليهم ويحاسبهم عليه ويجازيهم عليه يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾، الوكيل: هو الذي تُوكَلُ إليه الأمور وتفوض إليه.

هذا إنما يكون لله سبحانه هو الذي تفوض إليه الأمور، وهو الذي يتوكل عليه سبحانه وتعالى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

يعني باللغة العربية الفصحى، لغة العرب الفصحى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾: يعني أهل أم القرى وهم أهل مكة ومن حولها.

وهكذا يبعث الله جَلَّ وَعَلَا الرسل، لا يبعثهم من البادية أو من الأعراب، إنما يبعثهم من القرى المسكونة والمدن، يبعثهم من الحضارة، من الحضرة ولا يبعثهم من البدو.

أم القرى هي مكة؛ لأن القرى ترجع إليها في إدارتها وفي أعمالها ترجع إلى مكة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: من البلاد، جميع بلاد الدنيا ترجع إلى أم القرى، فأم القرى هي مرجع العالم كله في صلاتهم، في عبادتهم، في حجهم، في عمرتهم، في قبلتهم يستقبلونها، هذه أم القرى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾: وهو يوم القيامة؛ لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين على صعيد واحد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه، الريب هو الشك، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه؛ لأنه حق ليس محلاً للشك والارتياب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، يكون الخلق يوم القيامة فريقين:

- فريق في الجنة وهم المؤمنون من الأولين والآخرين.
- وفريق في النار - والعياذ بالله-، ﴿فِي السَّعِيرِ﴾ يعني النار.

وليس هناك دار ثالثة، إذ ليس هناك إلا دار الجنة ودار النار.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، الله قادر على أن يجعلهم كلهم مسلمين، كلهم مؤمنين، هو قادر على ذلك.

ولكنه أراد أن يترك لهم الاختيار، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. له اختيار من مشيئته، يكفر بمشيئته واختياره، ويؤمن بمشيئته واختياره ولم يجبرهم الله جَلَّ وَعَلَا على ذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سبحانه. ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾: يعني في الجنة.

﴿وَالظَّالِمُونَ﴾: وهم الكفار والمشركون.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يرجعون إليه ويدبر شؤونهم.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: ينصرهم إذا وقعوا في الشدائد والكربات والعذاب، ليس لهم نصير ينقذهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿أَمْرٌ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، ﴿أَمْرٌ﴾:

بمعنى (بل) ﴿أَخَذُوا﴾: أي الكفار والمشركون.

﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: يعبدون هؤلاء الأولياء ويقولون: نحن نعلم أنهم

لا يقدرون على نفع، ولا على ضرر، ولا يملكون ذلك، وإنما نجعلهم وسائط

وشفعاء بيننا وبين الله؛ لأنهم صالحون ويتقبل الله منهم، ونحن مذنبون فهم

يتوسطون لنا عند الله.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. هذه حجتهم، ﴿شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: يتوسطون لنا عند الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، الله جَلَّ وَعَلَا هو الولي الذي يتولى أمور عباده لا يشاركه فيها أحد في تدبيره لخلقه.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾: هل هناك أحد يحيي الموتى!؟

أبدًا، ليس هناك إلا الله جَلَّ وَعَلَا، يرد الأرواح إلى أجسادها فتقوم حية تتكلم وتسمع وتبصر، من يقدر على هذا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الشورى: ٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ كل شيء، لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء فإنه يرجع في معرفة الحق منه إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى أهل العلم الذين يحلون مشاكل الناس بالوحي المنزل، حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّيَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾: الله ربي الذي خلقتني ورباني بنعمه، ومن علي بهذه الرسالة وهذا الوحي، ربَّاهُ اللهُ بالوحي كما رباه بالطعام والشراب والصحة والعافية.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: يعني فوضت أموري إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .
 ﴿وَالِيَهُ أُذِيبُ﴾: يعني أرجع، فالمرجع إلى الله سبحانه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]: لا نرجع إلى غيره، بل نرجع إلى الله في حياتنا الدنيا وفي حياتنا الآخروية، مردنا إلى الله جَلَّ وَعَلَا .

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي مبدعهما، تقول: فطرت البئر، بمعنى حفرتها بيدك، ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾: أي مبدعها على غير مثال سابق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾: خلق الله الإناث من الذكور، من أين أتت الإناث؟ من الذكور، وهذا من عجائب قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾، ومن الأنعام أشكال ذكور وإناث، ومنه يتكون الولادة والأنعام المولودة من الإبل والبقر والغنم، تتكون من ذكور وإناث.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾، ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾: يعني يمدكم فيه ويسخره لكم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: نفى عن نفسه المثلية، لا أحد يشابهه الله جَلَّ وَعَلَا: لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله، ليس له شبيه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: أثبت لنفسه السمع والبصر ونفى عن نفسه المثلية والشبيه.

فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد، وإبطالاً لما عليه أهل الشرك: من تشبيه آلهتهم، وأوليائهم به، حتى عبدوهم معه. فحرفها المحرفون وجعلوها تُرْسًا لهم في نفي صفات كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد)، هذا التقرير للتوحيد وإفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة؛ لأن توحيد الربوبية يدل على توحيد الألوهية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإبطالاً لما عليه أهل الشرك)، الذين يشركون بالله ومع الله من لا يخلق ولا يرزق ولا يملك من الأمر شيئاً، هذا من العجائب، يشركون مع الله أناساً مثلهم، آدميون مثلهم ضعاف لا يملكون شيئاً إلا ما ملكهم الله وأعطاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإبطالاً لما عليه أهل الشرك: من تشبيه آلهتهم، وأوليائهم به، حتى عبدوهم معه)، فالمشركون سوا هذه المعبودات بالله عَزَّجَلَّ، الذي يخلق ويرزق ويدبر ويحيي ويميت، وهي عاجزة لا تملك من الأمر شيئاً؛ بل إنها جماد.

تعجب أن إنساناً سميع، بصير، يتكلم ويتحرك يعبد جماداً حجارةً وجبالاً لا تملك من الأمر شيئاً، ولا تتكلم، ولا تدبر من الأمر شيئاً، تعجب من هذا، لكنه انتكاس الفطر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فحرفها المحرفون وجعلوها تُرْسًا لهم في نفي صفات كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله)، حرف هؤلاء المشركون والمعطلة هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ فجعلوا آلهتهم مساوية لله عزَّوجلَّ.

ولهذا دخلوا النار هم وآلهتهم، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُؤَلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

فالحجارة والأصنام التي عُبدت في الدنيا تلقى في النار يوم القيامة مع من عبدوها، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قالوا: إذا المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله معبود إذاً يكون مثل هؤلاء؟ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

رد الله عليهم، فعيسى وغيره من المؤمنين لم يرضوا أن يعبدوهم مع الله، بل كانوا ينكرون هذا ويجاهدون عليه، إنما عبدوهم بعد موتهم، لم يُعبد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بعد موته، وإلا فهو كان سيحذرهم من هذا ويجاهدهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فحرفها المحرفون وجعلوها تُرْسًا لهم في نفي صفات كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله)، ولهذا يقولون لمعبوداتهم التي معهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: يعني في الدنيا، ﴿إِذْ سُوِّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، يتحسرون -والعياذ بالله-.

وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفياً ونهياً: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام.

ولهذا نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسجد أحد لمخلوق مثله أو يحلف بمخلوق مثله، أو يصلى إلى قبر، أو يتخذ عليه مسجداً، أو يعلق عليه قنديلاً، أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان^(١). ونحو ذلك، حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك.

وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفياً ونهياً: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام)، إنما عُبِدَتِ الأصنام؛ لأنهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله، وإلا يقرون أنها لا تنفع ولا تضر، لا تملك شيئاً، إنما يقولون: هؤلاء يشفعون لنا عند الله عَزَّجَلَّ، صنم، حجر يشفع لك عند الله؟!!

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (ولهذا نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسجد أحد لمخلوق مثله)، سجود عبادة، لا يسجد لمخلوق سجود عبادة؛ إنما هذا الله عَزَّجَلَّ، إنما كانوا يسجدون سجود تحية وليس سجود عبادة كسجود الملائكة لآدم هذا سجود تحية وليس سجود عبادة.

وكانوا يسجدون في الأول للغائب إذا قدم، وللناس الكبار يسجدون لهم سجود تحية لا سجود عبادة، ثم نُسِخَ ذلك.

(١) تقدم تحريجه (ص ٥٧١).

ولما أراد معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَسْجُدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجُودَ تَحِيَّةٍ لَمَّا قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ، نَهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ (١)، وَنُسِخَ حَتَّى سَجُودِ التَّحِيَّةِ فَلَا يَجُوزُ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَوْ يَحْلِفُ بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ)، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» (٢).

«كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»: شَكَّ مِنَ الرَّاوِي، هَلْ قَالَ الرَّسُولُ كَفَرَ أَوْ قَالَ أَشْرَكَ؟ كِلَاهُمَا أَمْرٌ مُحْرَمٌ وَبَاطِلٌ، لَكِنْ يَتَحَرَّزُونَ فِي الرَّوَايَةِ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الرَّاوِي شَكٌّ وَاحْتِمَالٌ أَتَى بِهِ وَبَيْنَهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَوْ يَصَلِّي إِلَى قَبْرِ)، أَوْ يَصَلِّي إِلَى قَبْرِ: يَعْنِي يَجْعَلُ الْقَبْرَ أَمَامَهُ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي لَا يَصَلِّي إِلَّا لِلَّهِ، لَكِنْ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ إِلَى الْقَبْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا وَسِيلَةٌ إِلَى الشَّرْكِ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَوْ يَتَخَذُ عَلَيْهِ مَسْجِدًا)، أَوْ يَتَخَذُ عَلَيْهِ مَسْجِدًا: يَعْنِي يَبْنِي عَلَيْهِ مَسْجِدًا، هَذَا فَعَلُ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى إِلَى الْآنَ وَهُمْ يَبْنُونَ الْمَسَاجِدَ عَلَى الْقُبُورِ، يَتَرَكُونَ بِهَا وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

فَإِذَا بُنِيَ مَسْجِدٌ عَلَى قَبْرِ، الْقَبْرِ هُوَ الْقَدِيمُ وَالْمَسْجِدُ حَادِثٌ؛ يَهْدَمُ الْمَسْجِدُ، وَإِذَا كَانَ الْقَدِيمُ هُوَ الْمَسْجِدُ وَالْقَبْرِ دُفِنَ فِيهِ فَإِنَّهُ يَنْبِشُ وَيُخْرَجُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَيُجْعَلُ فِي الْمَقَابِرِ، كُلُّ هَذَا سَدًّا لَوْسَائِلِ الشَّرْكِ.

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أو يعلق عليه قنديلاً)، أو يعلق عليه قنديلاً يعني: سراجاً، فلا يجوز إسراج القبور، ولا أن يجعل فيها أعمدة كهربائية؛ لأن هذا وسيلة إلى تعظيمها وعبادتها؛ فلا يجوز هذا.

فإذا احتاجوا إلى دفن الميت في الليل يأتون معهم بمصباح أو سراج أو جهاز كهربائي، فإذا دفنوه ذهبوا بما معهم من الإضاءة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان. ونحو ذلك)، نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان.

ولما قال له رجل: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ»، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

فلا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان، بالواو؛ لأن هذا يقتضي التشريك والمساواة، ولكن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، تكون مشيئة العبد بعد مشيئة الله مرتبة بـ«ثم» التي هي للتراخي والتعقيب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حذرًا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك)، تشبيه المخلوق بالخالق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد)، إثبات صفات الكمال لله التي وصف بها نفسه: السمع والبصر والكلام وما جاء في هذا المعنى؛ فهذا ثابت في القرآن يوصف الله به، وقد وصف به نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإن كان في المخلوقين ما يشبهه بالسمع والبصر، لكن هناك فرق بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد)، إثبات صفات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ فهذا أصل التوحيد، والله أثبت لنفسه صفات الكمال ونفي عن نفسه صفات النقص.



فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والхلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستغائة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت، وأنا مُتَكِلٌ على الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والхلف به، والنذر له)، كل المشركون على هذا النمط، يشبهون المخلوق بالخالق ويعبدونه مع الله عَزَّوَجَلَّ - تعالى الله عن ذلك -، فأساس الشرك هو التشبيه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والخلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته)، كل هذا يفعله المشركون عند القبور والأضرحة، وهذا هو أصل الشرك.
قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وحلق الرأس له)، ويحلقون رؤوسهم له، يعني حلق الرأس والحالة هذه لا يجوز. وإما أن يكون مباحًا؛ وذلك لإزالة الأذى، وإما أن يكون نُسْكًا من مناسك الحج والعمرة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والاستغائة به)، والاستغائة به، الإغائة: طلب الغوث فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلا يستغاث بالمخلوق في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله، وأما الاستغائة بالمخلوق فيما يقدر عليه فلا بأس بذلك.
قال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْهُ الْذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾

[القصص: ١٥]: يعني الإسرائيلي استغاث بموسى على القبطي.

لما تشاجر القبطي والإسرائيلي، وموسى من بني إسرائيل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿فَاسْتَعَاذَ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ [القصص: ١٥].

وكز القبطي: يعني ضربه ضربة واحدة ففضى عليه؛ لأن موسى قوي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ففضى على القبطي بضربة واحدة، ثم اعترف بذنبه، وتاب إلى الله، وندم على ما فعل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت)، «وأنت» يجعل العطف بالواو؛ لأن الواو تقتضي التشريك والمماثلة.

فلا تقل: ليس لي إلا الله وأنت، تقول: ليس لي إلا الله ثم أنت، ولا تقل: ما شاء الله وشئت، تقول: ما شاء الله ثم شئت، ولا تقل: لولا الله وفلان، تقول: لولا الله ثم فلان، تأتي بـ«ثم».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأنا متكل على الله وعليك)، لا يجوز، تقول: أنا متكل على الله ثم عليك، تأتي بـ«ثم».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا من الله ومنك)، وكذلك لا تقل: هذا من الله ومنك، تقول: هذا من الله ثم منك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأنا في حسب الله وحسبك)، الحسب: هو الكفاية، أي: أنا في كفاية الله وكفايتك لا يجوز هذا، تقول: أنا في كفاية الله ثم في كفايتك، (ثم) تحل لك المشكلة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما شاء الله وشئت)، تقول: ما شاء الله ثم شئت، لا تقل: وشئت.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا لله ولك)، هذا لله ثم هو لك.

فهؤلاء هم المشبهة حقاً، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبتته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له نداً من خلقه، ولا عدلاً، ولا كفوّاً، ولا سميّاً، وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولا سيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب عليهم. فيجمعون بين تعطيل الرب سبحانه عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهؤلاء هم المشبهة حقاً، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبتته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه)، أهل التوحيد هم الذين على الحق والطريق الصحيح في عبادة الله، في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم؛ لأنهم يرجعون إلى الوحي كتاباً وسنة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (الذين لا يجعلون له نداً من خلقه، ولا عدلاً، ولا كفوّاً، ولا سميّاً، وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)، فهم أهل التوحيد يفرقون بين ما هو لله وما هو للمخلوق، فلا يجعلون ما هو لله للمخلوق من السجود والدعاء وغير ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام)، سبب عبادة الأصنام: هو تشبيه المخلوق

بالخالق، ولهذا يقولون يوم القيامة وهم في النار، يقولون لأصنامهم: ﴿ تَاللَّهِ
 إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

﴿ كُنَّا ﴾: يعني في الدنيا، ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ ﴾: يعني
 نسبهم ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

﴿ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾: فهم لم يعبدوا الأصنام والأحجار
 والأشجار إلا لأنهم يشبهونها برب العالمين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة،
 ولا سيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب
 عليهم)، يجمعون بين تعطيل أسماء الله وصفاته، وتشبيه المخلوقين بالخالق في
 الأفعال والأقوال وغير ذلك.



فصل

ومن كيده وتلاعبه: ما تلاعب بعباد النار، حتى اتخذوها آلهة معبودة.
وقد قيل: إن هذا كان من عهد قابيل.
كما ذكر أبو جعفر محمد بن جرير^(١): «أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. أتاه إبليس، فقال له: إن هابيل إنما قُبل قربانه وأكلته النار؛ لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها».

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن كيده وتلاعبه: ما تلاعب بعباد النار، حتى اتخذوها آلهة معبودة)، من كيد الشيطان ببني آدم وتلاعبه بهم: ما زين لأمة من الأمم عبادة النار، وهم المجوس الذين يعبدون النار - والعياذ بالله -.
النار المحرقة المهلكة التي لا تنفع وإنما تضر، ولا تنتج شيئًا، ومع هذا يعبدونها، وعلى هذا أمة عظيمة من الفرس المجوس، فهذا من كيد الشيطان وتلاعبه ببني آدم.

وإلا ماذا في النار من النفع، وماذا فيها من الإنتاج؟! بل هي عدوة لبني آدم^(٢)، فزين لهم الشيطان فعبدوها.

(١) تاريخ الطبري (١/١٦٥).

(٢) أخرج البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: =

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما ذكر أبو جعفر محمد بن جرير: «أنه لما قتل قابيل هايل وهرب من أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. أتاه إبليس، فقال له: إن هايل إنما قُتِلَ قربانه وأكلته النار، لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار»)، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، فقال الذي لم يتقبل منه للذي تقبل الله منه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فقال المتقبل منه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فحسده على ذلك، وقتله -والعياذ بالله- في حياة أبيهما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قتل قابيل هايل عند هذه المسألة، وسبب ذلك الحسد؛ حسده على أن الله تقبل منه، وكان في وقتهم إذا تقبل الله الصدقة تنزل نار من السماء فتحرقها، هذه علامة القبول، والذي لا تأكله النار فهذا مردود على صاحبه^(١).

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾: يعني تصدقا بصدقة مالية، ﴿فَتُقَبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾: بأن نزلت النار وأكلت صدقته، ولم تأكل صدقة أخيه قابيل، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ من باب الحسد.

فقال هايل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) لِنُ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ

= «احترق بيت على أهلِه بالمدينة من الليل، فلما حدث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَأْنِهِمْ،

قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارُ إِنَّمَا هِيَ عَدُوُّكُمْ؛ فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ».

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٣١٧-٣٢٥)، وتفسير ابن كثير (٣/٨٢).

﴿٤٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿[المائدة: ٢٧-٢٩].

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾: الحاسد، ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ، قَتَلَ أَخِيهِ ﴾
الذي تقبل الله منه ﴿ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠] والعياذ بالله،
فهذه قصة هابيل وقايل.

ثم لما قتله كان أول قتيل في بني آدم، ضاقت حيلته، ماذا يفعل بجثته؟
﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا ﴾: طائرًا، ﴿ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُؤَارِي
سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾: الغراب مات معه غراب، فحفر له في الأرض ودفنه، فعلم
ابن آدم هذا العمل بالميت، وهو دفنه في الأرض.

﴿ قَالَ يَتُولَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]. نسأل الله العافية.

﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، ﴿ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ جراء فعلته القبيحة، كان
هو أول من سنَّ القتل في الأرض، وكلما قُتِلَتِ نفس ظلماً وعدواناً إلى يوم
القيامة؛ فإنه يناله قسطٌ من إثمها؛ لأنه أول من سنَّ قتل العدوان، فهذا
جزاؤه -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهو أول من نصب النار وعيدها)، هكذا ذكر ابن جرير
إمام المفسرين رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه القصة أن أول من قتل ظلماً وعدواناً هو ابن
آدم، قتل أخاه حسداً له لما تقبل الله منه، ولم يتقبل من الآخر الذي هو القاتل،
حسده فقتله، فكان أول من سنَّ قتل العدوان في الأرض، وكل نفس تقتل

إلى يوم القيامة يناله قسط من إثمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل كما صح ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وأيضًا لما قتل قاييلُ هابيلَ زين له الشيطان عبادة النار بعد القتل؛ لأنها هي التي أكلت قربان أخيه وتقبلته، وصارت آلهة بزعمه، فسُنَّ هذه السنة القبيحة؛ عبادة النار، وورث ذلك عنه المجوس.



(١) أخرج البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وسرى هذا المذهب في المجوس، فبنوا لها بيوتاً كثيرة، واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجاب، فلا يدعونها تحمد لحظة واحدة، فاتخذ لها إفريدون بيتاً بطوس، وآخر ببخارى. واتخذ لها بهمن بيتاً بسجستان، واتخذ لها أبو قباد بيتاً بناحية بخارى، واتخذت لها بيوت كثيرة.

وعباد النار يفضلونها على التراب، ويعظمونها، ويصوبون رأى إبليس. وقد رُميَ بشار بن بُرْدٍ بهذا المذهب؛ لقوله في قصيدته:

الْأَرْضُ سَافِلَةٌ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذُكَانَتِ النَّارِ^(١)

ويقولون: إنها أوسع العناصر خيراً، وأعظمها جرماً، وأوسعها مكاناً، وأشرفها جوهرًا، وألطفها جسمًا، ولا كَوْنٌ في العالم إلا بها، ولا نُمُوٌّ ولا انعقاد إلا بممازجتها.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسرى هذا المذهب في المجوس، فبنوا لها بيوتاً كثيرة، واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجاب)، بنوا للنار بنايات، وجعلوا لها السدنة، وأوقفوا عليها أوقافاً تدر عليها وتعمرها - والعياذ بالله - فكان عليه إثمها، وإثم من عمل بها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلا يدعونها تحمد لحظة واحدة)، بنوا لها، وجعلوا يوقدونها دائماً وأبداً، فلا يتركونها تنطفئ.

(١) انظر البيان والتبيين (١/٣٨)، والكامل للمبرد (٣/١٤٢)، ووفيات الأعيان (١/٢٧٣)، ولسان الميزان (٢/٢٨٣).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واتخذ لها بهمن بيتاً بسجستان، واتخذ لها أبو قباد بيتاً بناحية بخارى، واتخذت لها بيوت كثيرة)، وانتشرت بيوت النار في جهات كثيرة؛ لأن الشيطان زين لهم ذلك، وغرهم -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعباد النار يفضلونها على التراب، ويعظمونها)، يعظمون النار على التراب مع أن التراب أعظم منها وأنفع منها؛ التراب يُنبت، والتراب طهور يتطهر به، فهو أحسن منها، التراب ينتج، أما النار فإنها تحرق ولا تنتج شيئاً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويصوبون رأى إبليس)، فبئس الرأي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد رُميَ بشار بن برد بهذا المذهب)، بشار بن برد: هذا شاعر فحل في وقته، وهو أعمى، ولكنه يجيد الشعر، وله ديوان معروف، وهو القائل، لما غزوا مرة خرج معهم، فقال:

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبُه^(١)

وهو أعمى لا يرى النجوم، ولكنه يتصورها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لقوله في قصيدته: الأَرْضُ سَافِلَةٌ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّارُ)، فهو يفضل النار على التراب، وقد أخطأ في ذلك، التراب أحسن من النار، التراب ينتج وينبت، وهو طاهر، وأما النار فإنها تحرق ولا تنتج شيئاً. فهو يثني على ذلك، يقول:

وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّارُ

قبحه الله.

(١) انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٢١)، وبيمة الدهر (١/ ١٦٥).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويقولون: إنها أوسع العناصر خيراً)، يعني عباد النار يقولون: أنها أوسع العناصر خيراً. فمن أين لها الخير؟! إنما هي تتلف الخير، وتتلف كل شيء -والعياذ بالله-.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأعظمها جِزْماً، وأوسعها مكاناً، وأشرفها جوهرًا، وألطفها جسمًا، ولا كَوْنٌ في العالم إلا بها، ولا نُمُوٌّ ولا انْعِقَادٌ إلا بممازجتها)، كل هذا يصفون به النار، أو صاف جيدة يصفون بها النار، ويروّجون لعبادتها -والعياذ بالله-.



ومن عبادتهم لها: أن يحفروا لها أخدودًا مربعًا في الأرض ويطوفون به.

وهم أصناف مختلفة:

فمنهم: من يحرم إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها، وهم أكثر

المجوس.

وطائفة أخرى منهم: من تبلغ بهم عبادتهم لها إلى أن يقربوا أنفسهم

وأولادهم لها، وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم.

ولهم سنة معروفة في تقريب نفوسهم، وإلقائهم فيها، فيعمد الرجل الذي

يريد أن يفعل ذلك بنفسه، أو بولده، أو حبيبه. فيجمله ويلبسه أحسن اللباس،

وأفخر الخلى. ويركب أعلى المراكب وحول المعازف والطبول والبوقات، فيزف

إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه. حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهي

تأجج طرح نفسه فيها، فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له، وغبطته على

ما فعل، فلا يلبث إلا يسيرًا حتى يأتيهم الشيطان في صورته وشكله وهيأته،

لا ينكرون منه شيئًا، فيأمرهم بأمره، ويوصيهم بما يوصيهم به، ويوصيهم

بالتمسك بهذا الدين. ويخبرهم أنه صار إلى جنة ورياض وأنهار، وأنه لم يتألم

بمس النار له، فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعمهم عن أن يفعلوا مثله. ومنهم زهاد

وعباد، يجلسون حول النار صائمين، عاكفين عليها.

ومن سنتهم: الحث على الأخلاق الجميلة، كالصدق، والوفاء، وأداء

الأمانة، والعفة، والعدل، وترك أضدادها.

ولهؤلاء شرائع في عبادتها، ونواميس وأوضاع لا يخلون بها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن عبادتهم لها: أن يحفروا لها أخدودًا مربعًا في الأرض ويطوفون به)، يحفرون لها أخدودًا: يعني يحفرون لها حفرة معترضة ممتدة، ويجعلون فيها النار تتوقد، ويطوفون بها كما يطاف ببيت الله العتيق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهم أصناف مختلفة)، المجوس طوائف مختلفة، أشدهم هؤلاء الذين يلقون فيها الناس ويلقون فيها أولادهم، ويلقون فيها أموالهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فيعمد الرجل الذي يريد أن يفعل ذلك بنفسه)، الذي يريد أن يلقي نفسه في النار عبادة لها، وتقربًا لها، يتقرب إليها بنفسه - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلا يلبث إلا يسيرًا حتى يأتيهم الشيطان في صورته وشكله وهيأته، لا ينكرون منه شيئًا)، يأتيهم للرؤية.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنهم زهاد وعباد، يجلسون حول النار صائمين، عاكفين عليها)، يجلسون حولها عبادة لها، يتقربون إليها بجلوسهم عندها، ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿[البروج: ٥٠، ٦٠].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن سنتهم: الحث على الأخلاق الجميلة، كالصدق، والوفاء، وأداء الأمانة، والعفة، والعدل، وترك أضدادها)، حتى تتقبلهم النار، يتطهرون بالأخلاق الطيبة؛ لأجل أن تتقبلهم النار.



فصل

ومن كيده وتلاعبه: تلاعبه بطائفة أخرى تعبد الماء من دون الله، وتسمى اللبنانية، وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء، وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء، فكان حقه أن يعبد. ومن شريعتهم في عبادته: أن الرجل منهم إذا أراد عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل فيه، حتى يصير إلى وسطه، فيقيم هناك ساعتين أو أكثر، بقدر ما أمكنه ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين. فيقطعها صغاراً، فيلقبها فيه شيئاً فشيئاً، وهو يسبحه ويمجده. فإذا أراد الانصراف حرك الماء بيديه، ثم أخذ منه فيضعه على رأسه ووجهه وجسده، ثم يسجد وينصرف.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء، فكان حقه أن يعبد)، نسأل الله العافية.

من ترك عبادة الله ابتلي بعبادة هذه الأشياء، هذا خذلان من الله عَزَّجَلَّ لمن ترك عبادته فإنه يعبد كل شيء؛ لأنهم يخترعون الآلهة من عندهم، وكلُّ له رغبة، وكلُّ له ذوق.



فصل

ومن تلاعبه: تلاعبه بعباد الحيوانات. فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ: ٤٠، ٤١﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْتَدَ إِلَيْكُمْ يَتَّبِعِ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿يس: ٦٠، ٦١﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرِ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿الأنعام: ١٢٨﴾. يعني قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ: ٤٠، ٤١﴾، ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾: يعني الشياطين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، يقول الله جَلَّ وَعَلَا لأهل النار: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعَشَرَ الْجِنِّ فَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ﴾): يعني أضللتهم الإنس وأخرجتموهم عن طاعتي وعبادتي، يعاتبهم سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾: فالجن استمتعوا بالإنس في أن عبدوهم وعظموهم، والإنس استمتعوا من الجن بأن نالوا على أيديهم بعض المنافع غرورًا، وتغريبًا بهم.

﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْت لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].



قال ابن عباس^(١)، ومجاهد^(٢)، والحسن^(٣) وغيرهم: «أضللتهم كثيراً».

فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿أَسْتَمْتَعُ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨] يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر.

فاستمتع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمر ونهم من الكفر، والفسوق، والعصيان. فإن هذا أكبر أغراض الجن من الإنس. فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم منأهم.

واستمتع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم، وغيرها.

فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك، والفواحش، والفجور، فأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات. فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فإن هذا أكبر أغراض الجن من الإنس)، الجن: الذين هم الشياطين.

(١) أخرجه الطبري (٩/٥٥٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري (٩/٥٥٦).

وإبليس كان من الجن كما ذكر الله عزَّوجلَّ، ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولكنه كان مع الملائكة، وكان مشهوراً بالعبادة والزهد إلى أن حسد آدم عليه السلام على ما أتاه الله من الفضل والخير، حسده فكفر بالله عزَّوجلَّ بسبب ذلك. حسد آدم لما قال الله جلَّ وعلا للملائكة: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: يعني سجود تحية.

وكان سجود التحية معروفاً، إلى صدر الإسلام، ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: يعني سجود تحية.

﴿فَسَجَدُوا﴾: الملائكة سجدوا طاعة لله، تحية لآدم، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. عنده أن النار أحسن من الطين.

والعكس هو الصحيح، الطين أحسن من النار؛ لأن الطين ينبت وينتج، ويُتَفَعُّ به منافع كثيرة، أما النار فليس فيها نفع، إنما تحرق فقط، وتُهْلِكُ، فلا مقارنة بين النار وبين التراب والطين.

ويقولون: أن أول من قاس إبليس، الذي ينكرون القياس وهم الظاهرية يقولون: لأن أول من قاس: إبليس، وهذا القياس باطل.



وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشف شيطانية وتأثير شيطاني. فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان. أطاعوه في الإشراف، ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه.

فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قلَّ حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وستته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول، وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشف شيطانية وتأثير شيطاني)، أصحاب الخوارق الضالة والفسادة هم من هذا النوع، خوارق شيطانية.

الخارق للعادة إن جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإن جرى على يد عابد، فهو كرامة، وإن جرى على يد شيطان، فهو تغرير وخذلان واستدراج.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان)، يسترقون السمع، فإذا سمعوا كلمة من الملائكة، ألقوها على الكاهن من الإنس، والكاهن يكذب معها مائة كذبة، فيصدقها الناس بسبب الكلمة التي سُمِعَت من الملائكة.

والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقدًا، لا يروج عليه الزغل، تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشیطان، بإعانتة له على أسباب فسوقه، والشیطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له فيسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به، وعبادته له. ويستمتع هو بالشیطان في قضاء حوائجه، وإعانتة له.

ومن لم يحط علمًا بهذا؛ لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الثقيلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث.

فكلاهما أجلٌ أَجَّلَهُ اللهُ تعالى لعباده وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿فَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

وكان هذا - والله أعلم - إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة.

فكانهم يقولون: هذا أمرٌ قد كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله. فلم يستمر ولم يَدُم، فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته.

ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لِّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة، فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بضعكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه.

والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبده، واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم قالوا: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث)، أجل الموت وأجل البعث، أعلان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكلاهما أجل أجله الله تعالى لعباده وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢٠])، ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ بالخلق والإيجاد، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾: وهو أجل البعث والنشور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بضعكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه)، بل يجد العاقبة، وهي النار - والعياذ بالله -.



فصل

ومن تلاعبه بهم: أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم.
ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين. فعبدوا أقبح
خلق الله وأحقهم باللعن والذم.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ
أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ
ءَأَنْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَتُولَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا
كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَاءِبَاءَهُمْ
حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾
[الفرقان: ١٧-١٩].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن تلاعبه بهم: أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم
بزعمهم)، عبدوا الملائكة، قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩].

يقولون بنات الله، يزعمون أن الله جَلَّ وَعَلَا تزوج من الجن وأن هذه الزوجة أنجبت له هذه الشياطين -والعياذ بالله-.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١])، يعبدون الجن الذين أمرهم بذلك، فهم أطاعوهم، وهذه عبادة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾، ﴿ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾: الذي هو الوحي.

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾: أي كانوا هالكين؛ لأن من ترك طاعة الأنبياء والرسل فهو هالك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُوكُمْ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٩]، لذلك الموقف القادم لا تستطيعون صرفًا ولا نصرًا، ليس لكم حيلة.



وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان، فقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الفرقان: ١٧]. عام في كل عابد، ومن عبده من دون الله، وأما قوله: ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧]، فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح - عنه^(١) قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة» وروى عنه ابن جريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك^(٢) والكلبي^(٣)، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبادتها. ثم يأذن سبحانه لها في الكلام، فيقول: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾ [الفرقان: ١٧]. قال مقاتل^(٤): يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟ أي أم هم أخطأوا الطريق؟ فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قوله: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الفرقان: ١٨]. وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الفرقان: ١٧]. عام في كل عابد ومن عبده من دون الله)، في كل عابد ومعبود من دون الله.

(١) انظر: تفسير مجاهد (ص ٤٩٦)، وتفسير الطبري (١٧/٤١٥).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/٣١٥).

(٣) انظر: تفسير الكشاف (٣/٢٦٨).

(٤) انظر: تفسير مقاتل (٣/٢٢٩).

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم.

وقال ابن عباس ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله»^(١).

وفيها قراءتان: أشهرهما - نتخذ - بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل وهي قراءة السبعة.

والثانية - نُتخذ - بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول. وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع.

وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال.

فأما قراءة الجمهور^(٢)، فإن الله سبحانه إنما سأهم: هل أضلوا المشركين

بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟

وكيف يكون هذا الجواب مطابقا للسؤال؟ فإنه لم يسأهم: هل اتخذتم

من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ

أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وإنما سأهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك، أم هم أشركوا من قبل

أنفسهم؟

فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، ولكنهم آثروه وارتضوه،

أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما قال في الآية الأخرى عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا

(١) انظر: التفسير البسيط (١٦/٤٣٣).

(٢) انظر: المصدر السابق.

إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿ [القصص: ٦٣]، فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فروا إلى بناء الفعل للمفعول.

وقالوا: الجواب يصح على ذلك، ويطابق. إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نعبد ونتخذ آلهة، فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، ولا يحسن منا؟.

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، وهو قوله: ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الفرقان: ١٨]. فإن زيادة (من) لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. وما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي وارداً على شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة (من) فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نُسب إليهم من دعوى المشركين: أنهم أمر وهم بالشرك. فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا يحسن منهم، ولا يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا؟
فكان الواجب على هذا: أن تقرأ: (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكَ) أو: (مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ).

فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجه:

أحدها: أن المعنى: ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، ونتخذ غيرك ولياً ومعبوداً فكيف ندعو أحداً إلى عبادتنا؟ إذ كنا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحداً إلى أن عبادتنا؟

والمعنى: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ هذا جواب الفراء^(١).

(١) انظر: معاني القرآن (٢/ ٢٦٤).

وقال الجرجاني: هذا بالتدرّيج يصير جواباً للسؤال الظاهر، وهو أن من عبد شيئاً فقد تولاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود ولياً للعابد.

يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ: ٤٠، ٤١﴾.

فدل على أن العابد يصير ولياً للمعبود.

ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، وأن نتخذ من دونك وليا يعبدنا.

وهذا أبسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قال: يقولون: ما توليناهم، ولا أحببنا عبادتهم.

قال: ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم: أي نحن وهم عبيدك.

فكان لا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء، ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعاً منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا: أي أنت مثلى عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ نُتَّخِذَ بضم النون. وهذه القراءة أقرب إلى التأويل.

لكن قال الزَّجَّاجُ^(١): هذه القراءة خطأ، لأنك تقول: ما اتخذت من أحد ولياً، ولا يجوز ما اتخذت أحدًا من ولي؛ لأن «من» إنما دخلت؛ لأنها تنفي واحداً من معنى جميع، تقول: ما من أحد قائماً، وما من رجل محباً لما يضره، ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]. ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحت هذه القراءة.

قال صاحب النظم^(٢): العلة في سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه: فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من» كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥].

فقوله «من ولد» لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدًا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من» لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد. وصحح آخرون هذه القراءة لفظاً ومعنى، وأجروها على قواعد العربية. قالوا: وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته.

فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو جعفر، ومجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن، وحفص بن حميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء ذكر ذلك أبو الفتح ابن جني^(٣).

(١) انظر: معاني القرآن (٤/ ٦٠) للزجاج.

(٢) يعني: أبا علي الجرجاني في كتابه «نظم القرآن»، وهو كتاب مفقود. وانظر: التفسير البسيط للواحدى (١٦/ ٤٣٦).

(٣) انظر: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٢/ ١١٩، ١٢٠).

ثم وَجَّهَهَا بأن يكون «من دونك من أولياء» في موضع الحال: أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء.

ودخلت «من» زائدة لمكان النفي، كقولك: اتخذت زيدًا وكيلًا، فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدًا من وكيل. وكذلك: أعطيتُه درهمًا، وما أعطيته من درهم. وهكذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك مثاقلاً، فإذا أَكَّدْتَ قلت: من مُتثاقلاً.

فإن قيل: فقد صَحَّحَتِ القراءتان لفظاً ومعنى، فأَيُّهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أَحْسَنُ وأبلغ في المعنى والمقصود، والبراءة مما لا يليق بهم؛ فإنهم على قراءة الضم يكونون قد نَفَوْا حُسْنَ اتِّخَاذِ المَشْرِكِينَ لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليقُ بهم، ولا يحسُنُ منهم أن يتخذوا أولياء من دونه، بل أنت وحَدِّكَ وَلِيِّنا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نُشْرِكَ بك شيئاً فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟!

وهذا المعنى أَجَلُّ من الأول وأكبر، فتأملهُ.

والمقصود أنه على القراءتين، فهذا الجواب من الملائكة وَمَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أوليائه. وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن الله سبحانه أنطقها بذلك تكذيباً لهم، ورداً عليهم، وبراءةً منهم، كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمان بالله تعالى بقولهم: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

قال ابن عباس: أَطَلَّتْ لَهُمُ الْعُمُرُ، وَأَفْضَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَوَسَّعَتْ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ^(١).

وقال الفراء: وَلَكِنَّكَ مَتَّعْتَهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، حَتَّى نَسُوا ذِكْرَكَ^(٢).

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾، أي: هلكى فاسدين، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان، والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة: إذا كسدت، ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: وَاللَّهِ مَا نَسِيَ قَوْمٌ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِلَّا بَارُوا وَفَسَدُوا^(٣).

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلُّوا.

قال الله سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩]، أي:

كذبكم المعبودون بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

(١) أورده الواحدي في التفسير البسيط (١٦/٤٣٧)، والتفسير الوسيط (٣/٣٣٧).

(٢) معاني القرآن للفراء (٢/٢٦٤)، وأورده الواحدي في البسيط (١٦/٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٦٧٣).

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله من التوحيد والإيمان.

والأول أظهر، وعليه يدل السياق.

وَمَنْ قَرَأَهَا بِالْبَاءِ آخِرَ الْحُرُوفِ فَالْمَعْنَى: فقد كذبوكم بقولهم.

ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾: إخبارًا عن حالهم يومئذٍ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَجْتَمِعُ الْخَلَائِقُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، قَالَ: مَنْ عَبْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَنْصُرُ الْيَوْمَ مَنْ عَبْدَهُ، وَالْعَابِدُ لَا يَنْصُرُ إِلَهَهُ، ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ﴾ [الصافات: ٢٦]^(١).

فهذا حال عبادة الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوا سوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين! إذا سمعوا النداء: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿[يس: ٥٩-٦٢].



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٤٢١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٧٤).

فصل

ومن تلاعبه وكيده: تلاعبه بالثنوية.

وهم طائفة قالوا: الصانع اثنان، ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان لم يزا ولا ولن يزا الا قَوِيَّيْنِ حَسَّاسِيْنِ، مُدْرِكِيْنِ، سَمِيعِيْنِ، بَصِيرِيْنِ، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادَّانِ في الفعل والتدبير.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه وكيده: تلاعبه بالثنوية. وهم طائفة قالوا: الصانع اثنان، ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة)، من تلاعب الشيطان ببني آدم تلاعبه بالثنوية من المجوس، والأصل فيهم أنهم يعبدون النار، ويبنون لها المكان الذي يوقدونها فيه.

ومنهم: الثنوية الذين يعبدون إلهين اثنين: النور والظلمة، يقولون: إن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، فهم يعبدونها من دون الله عَزَّجَلَّ، يعبدون النور؛ يرجون الخير، ويعبدون الظلمة؛ يخشون من الشر.

فهذا من تلاعب الشيطان بهم؛ لأنهم لما تركوا عبادة الله ابتلوا بعبادة الأوثان، والأوثان لا تنتهي عند حد؛ كل يخترع له وثناً ومعبوداً من دون الله، ولهذا كثرت عبادات المشركين ومعبوداتهم بسبب أنهم تركوا الرب الحق وهو الله فابتلوا بأرباب متفرقين.

قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَارِبَاتٌ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ

﴿٢١﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿ [يوسف: ٣٩، ٤٠]: أي من حجة؛ لأن السلطان والحجة والدليل على ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، هذا الذي عليه الدليل والبرهان والواقع يشهد لذلك.

مَنْ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْبَحَارَ وَالْأَنْهَارَ وَالْفِجَاجَ؟
 خلقها رب العالمين، ولو كان هناك من يخلق مع الله لانقساموا، وذهب كلُّ إله بما خلق، كلُّ ينفرد بمخلوقه، ولم يحصل في الكون هذا، لم يدع أحد أنه خلق شيئاً.

حتى الذباب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ١٧٣].

الذباب، أصغر شيء وأحقر شيء لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، لو اجتمع العالم حكماؤهم ومهندسوهم ومفكروهم على أن يخلقوا ذباباً ما استطاعوا، والأطباء لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً.

ولو أن الذباب أخذ منهم شيئاً لن يستطيعوا أن يسترده منه، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبِ﴾: الذي هو المشرك، ﴿وَالْمَطْلُوبِ﴾: الذي هو الذباب.

هذا برهان ساطع ودليل قاطع على وحدانية الله جَلَّ وَعَلَا للربوبية والخلق والرزق والإحياء والإماتة.

لا أحد ادعى أنه خلق شيئاً في هذا الكون، ولو ادعى من باب الكذب والدجل لأبطله البرهان والدليل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهما قديمان لم يزاالا ولن يزاالا قويين حساسين، مدركين، سميعين، بصيرين، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير)، هذا قول الثنوية في آهتهم: أن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، وكل واحد مُسْتَقِلٌّ بخلقه لا يشاركه الآخر، وليس عندهم دليل على هذا ولا برهان.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالله جَلَّ وَعَلَا تحداهم في أن يبينوا الشيء الذي خلقوه في هذا الكون، فانقطعوا ولم يدلوا بحجة أو بدعوة؛ فَبَطَّلَ كيدهم وِبَطَّلَ شركهم، وقام البرهان على أن الخالق واحد وهو الواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير)، هذا قولهم، في النفس والصورة: هذا نور وهذا ظلمة مختلفان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (متضادان في الفعل والتدبير)، متضادان في الفعل والتدبير؛ يقولون النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، هكذا يقولون؛ مثلهم، بل أشد منهم الذين يقولون بالطبيعة، وأن هذا الخلق طبيعي أوجده الطبيعة.

إِذَا مَنْ الذي أوجد الطبيعة؟ هل أوجدت نفسها؟ لا، الذي أوجد الطبيعة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يَدَّعِ أحد أنه هو الذي أوجد الطبيعة، ولم تُوجَدْ نفسها؛ بل الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أوجدها.

فالنور فاضل حسن نقي، طيب الريح حسن المنظر، ونفسه خيرة، كريمة، حكيمة، نفاعه، منها الخيرات والمسرات، والصلاح. وليس فيها شيء من الضرر، ولا من الشر. والظلمة على ضد ذلك: من الكدر، والنقص، وتنن الريح، وقبح المنظر، ونفسها نفس شريرة، بخيلة، سفيهة. منتنة، مضره، منها الشر والفساد. ثم اختلفوا، فقالت منهم: إن النور لم يزل فوق الظلمة. وقالت فرقة: بل كل واحد منهما إلى جانب الآخر. وقالت فرقة: النور لم يزل مرتفعاً في ناحية الشمال، والظلمة منحطة في الجنوب، ولم يزل كل واحد منهما مبايناً لصاحبه.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالنور فاضل حسن نقي، طيب الريح حسن المنظر، ونفسه خيرة، كريمة، حكيمة، نفاعه، منها الخيرات والمسرات، والصلاح)، هذا النور.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والظلمة على ضد ذلك: من الكدر، والنقص، وتنن الريح، وقبح المنظر، ونفسها نفس شريرة، بخيلة، سفيهة. منتنة، مضره، منها الشر والفساد)، لا شك أن النور والظلمة مختلفان في آثارهما وفي حقيقتهما، ولكن؛ النور لم يوجد نفسه والظلمة لم توجد نفسها، وإنما لهما خالق، خلق الظلمات والنور، هذا رد عليهم، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالت فرقة: النور لم يزل مرتفعاً في ناحية الشمال، والظلمة منحطة في الجنوب، ولم يزل كل واحد منهما مبايناً لصاحبه)، كل هذا

تخرُّصات لا يستقيم عليها دليل، كل هذه الأقوال منهم لا يقوم عليها دليل؛ بل هي دعاوى، والدعاوى إذا لم يقيموا بيناتٍ عليها؛ فأصحابها أَدْعِيَاءُ، كما قال الشاعر^(١).



(١) البيت للبوصيري كما في ديوانه (ص ٢١)، وهو:

وَالدَّعَاوَى مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

وزعموا أن لكل واحد منها أربعة أبدان، وخامس هو الروح.

فأبدان النور الأربعة: النار، والنور، والريح، والماء، وروحه: السبح، ولم يزل يتحرك في هذه الأبدان.

وأبدان الظلمة الأربعة: الحريق، والظلمة، والسموم، والضباب، وروحها: الدخان. وسموا أبدان النور ملائكة، وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وزعموا أن لكل واحد منها أربعة أبدان، وخامس هو الروح)، يخترعون الأقوال، وهذه الأقوال ليس لها مستند، ولهذا لما جاء جبير بن مطعم إلى المدينة ليتفاوض مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان مشرکًا وقت ذلك، حضر صلاة المغرب ينظر إلى المسلمين، ورسول الله يصلي بهم؛ فقرأ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطور، ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ وَكُنْتِ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿الطور: ١-٦﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿الصفات: ٤، ٥﴾.

هذه أدلة، وبراهين، الأول براهين ثم الحقيقة ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿الصفات: ٤﴾: إلهكم يعني ربكم.

فالرب يطلق على الإله، والإله يطلق أيضًا على الرب، يطلق على الرب إذا انفرد كل منهما.

أما إذا ذُكِرَ الإله والرَب فيكون لكل واحد معنى، الإله: من الألوهة وهي العبادة، والرَب من التربية والخلق والإيجاد.

فلما سمع جبير بن مطعم هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. قال: كاد قلبي يطير^(١)، لَمَّا سمع هذه الآيات.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأبدان النور الأربعة: النار، والنور، والريح، والماء، وروحه: السبح، ولم يزل يتحرك في هذه الأبدان)، تخرصات كلها ليس لها دليل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسموا أبدان النور ملائكة، وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت)، الملائكة خلقهم الله من النور، وخلق الشيطان من النار؛ ولهذا قال: ﴿ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿﴾ [الأعراف: ١٢] يعني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. يقول: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿﴾ [الأعراف: ١٢]، فقاس على أصله قياساً باطلاً.

ولهذا يقولون أول من قاس إبليس بقياسه باطل؛ لأنها لا يستويان، الطين الذي خُلِقَ منه آدم، والنار التي خلق منها إبليس، فالنار محرقة لا تنتج شيئاً، وإنما تُتَلَفُ الأشياء.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿﴾ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبُونَ ﴿﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ».

وأما الطين فهو مبارك، ينبت الزرع، وينبت الكلاء، وفيه المعادن الثمينة فالطين ينتج، وأما النار فإنها لا تنتج شيئاً.

هذا رد على إبليس -لعنه الله- الذي قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وعلى زعمه أن النار خير من الطين.



وبعضهم يقول: الظلمة تتولد شياطين، والنور يتولد ملائكة، والنور لا يقدر على الشر، ولا يجيء منه، والظلمة لا تقدر على الخير، ولا يجيء منها. ولهم مذاهبٌ سخيفةٌ جداً.

وَفُرِضَ عَلَيْهِمْ صَوْمُ سَبْعِ الْعُمُرِ، وَأَلَّا يُؤْذِيَ أَحَدَهُمْ ذَا رُوحِ الْبُتَّةِ.
ومن شريعتهم: ألا يدخروا إلا قوت يوم، وتجنب الكذب، والبخل، والسحر وعبادة الأوثان، والزنا، والسرقه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبعضهم يقول: الظلمة تتولد شياطين، والنور يتولد ملائكة)، إلى آخره، دعهم يقولون ما يشاؤون كله لا دليل عليه ولا حقيقة له، ولذلك يتخبطون، كثرة هذه الأقوال دليل على تخبطهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولهم مذاهب سخيفة جداً)، لهم مذاهب سخيفة جداً، مضحكة لا حقيقة لها، مع أنهم يزعمون أنهم عقلاء، وأنهم دهاة، لكن:

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ (١)

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَفُرِضَ عَلَيْهِمْ صَوْمُ سَبْعِ الْعُمُرِ، وَأَلَّا يُؤْذِيَ أَحَدَهُمْ ذَا رُوحِ الْبُتَّةِ)، يعني يصوم مقداراً كثيراً، ولا يؤذي ذوات الأرواح هذا من الأخلاق الطيبة، لكنه قليل بالنسبة للأشياء الأخرى التي يدعونها.

(١) البيت منسوب للأمر يحيى بن علي باشا الأحسائي المدني الحنفي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/٤٧٦).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن شريعتهم: ألا يدخروا إلا قوت يوم)، من شريعتهم التي شرعوها لأنفسهم: أنهم يجرمون الادخار إلا قوت يومه، هذا زهدهم، والمشركون عندهم زهد، ولكنه زهد شيطاني.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن شريعتهم: أن لا يدخروا إلا قوت يوم، وتجنب الكذب، والبخل)، وشريعة الإسلام جاءت بالادخار، ادّخار القوت، وادخار الثمار، والحبوب، والفواكه؛ لأنها مال الله، وهم بحاجة إليها، فيدخرونها لحاجتهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتجنب الكذب)، تجنب الكذب هذا طيب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والبخل)، وتجنب هذا طيب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والسحر)، تجنب هذا طيب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعبادة الأوثان)، وعبادة الأوثان غير أوثانهم، يعني: ليس هناك إلا أوثانهم فقط.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والزنا)، وتجنب هذا طيب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والسرقة)، وهذا طيب أيضًا، عندهم هذه الأخلاق

الطيبة، لكن عندهم قاسمة الظهر: الشرك والكفر، فيذهب الكفر والشرك بما عندهم من هذه الأشياء الطيبة.



واختلفوا: هل الظلمة قديمة أو حادثة؟
فقال فرقة منهم: هي قديمة لم تنزل مع النور.
وقالت فرقة: بل النور هو القديم، ولكنه فكر فكرة رديئة حدثت منها
الظلمة.

فدار مذهبهم على أصلين من أبطل الباطل:
أحدهما: أن شر الموجودات وأخبثها، وأردأها: كفوؤ خير الموجودات،
وخذ له ومناوئ له يعارضه، ويضاده، ويناقضه دائماً. ولا يستطيع دفعه.
وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام، الذين عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى.
فإنهم جعلوها مملوكة له، مربوبة مخلوقة، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لَبَّيْكَ،
اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ^(١).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقالت فرقة: بل النور هو القديم، ولكنه فكر فكرة رديئة
حدثت منها الظلمة)، لكن النور فكر فكرة خبيثة فنشئت من هذه الفكرة
الظلمة إلى جانب النور، هذا زعمهم وهذا من إملاء الشيطان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أحدهما: أن شر الموجودات وأخبثها، وأردأها: كفوؤ
لخير الموجودات، وخذ له ومناوئ له يعارضه، ويضاده، ويناقضه دائماً).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٨٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ
الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ
قَدْ»، فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ! يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ».

ولا يستطيع دفعه، وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام)، لأن عباد الأصنام لا يدعون لأصنامهم هذه الدعوى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ تَمَلِّكُهُ وَمَا مَلَكَ)، هذه تلبية المشركين إذا أحرموا: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمَلِّكُهُ وَمَا مَلَكَ»^(١).

فلبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «لبيك، لا شريك لك، لك الحمد ولك النعمة، ولك الفضل، ولك الثناء الحسن ... لا شريك لك لبيك»^(٢).



(١) سبق تخريجه (ص ٥٠٠).

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٠١).

والأصل الثاني: أنهم نزهاوا النور أن يصدر منه شر. ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده وأثبتوا إلهين، وربين، وخالقين. فجمعوا بين الكفر بالله تعالى، وأسمائه وصفاته، ورسله، وأنبيائه، وملائكته، وشرائعه، وأشركوا به أعظم الشرك. وحكى أرباب المقالات عنهم: أن قومًا منهم يقال لهم: الديسانية زعموا أن طينة العالم كانت طينة خشنة، وكانت تحاكي جسم النور - الذي هو الباري عندهم - زمانًا فتأذى بها. فلما طال ذلك عليه قصد تنحيتها عنه فتوحد فيها واختلط بها، فتركب من بينهما هذا العالم المشتمل على النور والظلمة، فما كان من جهة الصلاح فمن النور، وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والأصل الثاني: أنهم نزهاوا النور أن يصدر منه شر. ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده)، هذا تناقض، يقولون: النور لا يخلق الشر ولا يأتي منه شر، في حين أنهم قالوا: إن النور خلق الشر؛ لما حصلت منه خطيئة، صارت ظلمة وتطورت وصارت عديلة للنور.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فجمعوا بين الكفر بالله تعالى، وأسمائه وصفاته، ورسله، وأنبيائه، وملائكته، وشرائعه، وأشركوا به أعظم الشرك)، رد الله عليهم بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ لَتَنَازَعُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ، وَتَقَاتَلُوا، فَيَنفِرِدَ الْقَوِيُّ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَلَا يَشَارِكُهُ الضَّعِيفُ، بَلْ يَقْضِي عَلَيْهِ، لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مَعَهُ أَحَدٌ.

فإذا كان النور لا يرضى أن يكون معه أحد، فكيف يرضون لله أن يكون له شريك؟! تعالى الله عن ذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فجمعوا بين الكفر بالله تعالى، وأسمائه وصفاته، ورسله، وأنبيائه، وملائكته، وشرائعه، وأشركوا به أعظم الشرك)، كل هذه الشرور داخلة في دينهم -والعياذ بالله- كلها شرور وضلالات ومحن وفتن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وحكى أرباب المقالات عنهم)، أرباب المقالات: الذين صنفوا في الملل والنحل حكوا عنهم مثل هذه الأشياء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فما كان من جهة الصلاح فمن النور، وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة)، هذا الله عَزَّوَجَلَّ، ما كان من خير أو شر، أو محبوب أو مكروه فإنها هو من الله جَلَّوَعَلَا، خلق الأشياء المتضادة لحكمة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ.



قال: وهؤلاء يفتالون الناس، ويخنقونهم، ويزعمون أنهم يحسنون إليهم بذلك، وأنهم يخلصون الروح النورانية من الجسد المظلم.

وقال بعضهم: إن الباري سبحانه لما طالت وحدته استوحش، ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته، فاستحال ظلمة.

فحدث منها إبليس، فرام الباري إبعاده عن نفسه فلم يستطع، فتحرز منه بخلق الجنود والخيرات، فشرع إبليس في خلق الشر.

وأصل عقد مذهبهم، الذي عليه خواصهم: إثبات القدماء الخمسة: الباري، والزمان، والخلاء، والهيولى، وإبليس. فالباري خالق الخيرات، وإبليس خالق الشرور.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: وهؤلاء يفتالون الناس)، يفتالون الناس يعني يقتلونهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويخنقونهم)، ويخنقونهم، من الخنق وهو كتم النفس حتى

يموت.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويزعمون أنهم يحسنون إليهم بذلك)، يحسنون إليهم

بذلك ليريجوهم من الشر، يعني يقتلوهم إحساناً إليهم؛ ليريجوهم من الشر ومن الخير، ليس من الشر فقط.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال بعضهم: إن الباري سبحانه لما طالت وحدته

استوحش)، لما طالت وحدة الله جَلَّ وَعَلَا الواحد في هذا الكون استوحش من وحدانيته، تعالى الله عما يقولون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته، فاستحال ظلمة)،
فكر تفكيراً سيئاً - تعالى الله - فنشئت من تفكيره الظلمة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فحدث منها إبليس، فرام الباري إبعاده عن نفسه فلم
يستطع، فتحرز منه بخلق الجنود والخيرات، فشرع إبليس في خلق الشر)،
هكذا يقولون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأصل عقد مذهبهم، الذي عليه خواصهم)، أصل
عقيدتهم، الذي عليه خواصهم دون عوامهم.
قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والهيولى)، الهيولى: يعني الشكل.



وكان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب، لكنه لم يثبت إبليس، فجعل مكانه النفس. وقال: بقدم الخمسة، مع ما رسخه به من مذاهب الصابئة والدهرية والفلاسفة، والبراهمة، فكان قد أخذ من كل دين شر ما فيه، وصنف كتاباً في إبطال النبوات، ورسالة في إبطال المعاد، فركب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم.

وقال: أنا أقول: إن الباري، والنفس، والهيولى، والمكان، والزمان: قداماء وأن العالم محدث.

فقيل له: فما العلة في إحداثه؟

فقال: إن النفس أشهبت أن تحبل في هذا العالم، وحركتها الشهوة لذلك، ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا حبلت فيه، فاضطربت وحركت الهيولى حركات مشوشة مضطربة على غير نظام، وعجزت عما أرادت.

فأعانها الباري على إحداث هذا العالم وحملها على النظام والاعتدال. وعلم أنها إذا ذاقت وبال ما اكتسبته عادت إلى عالمها، وسكن اضطرابها، وزالت شهواتها، واستراحت، فأحدث هذا العالم بمعاونة الباري لها.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب، لكنه لم يثبت إبليس، فجعل مكانه النفس، وقال: بقدم الخمسة)، الرازي: صاحب تفسير الرازي، هو على هذا المعتقد -والعياذ بالله-.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال: بقدم الخمسة، مع ما رشحه به من مذاهب الصابئة والدهرية والفلاسفة، والبراهمة، فكان قد أخذ من كل دين شر ما)، لذلك رد عليه شيخ الإسلام ردًّا مفحّمًا بكتابه المشهور «الرد على الرازي».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال: أنا أقول: إن الباري، والنفس، والهيولي، والمكان، والزمان: قداماء وأن العالم محدث)، هذا كلام الرازي.



قال: ولولا ذلك لما قدرت على إحداث هذا العالم، ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم.

ولولا أن الله سبحانه يحكى عن المشركين والكفار أقوالاً أسخف من هذا وأبطل لاستحيا العاقل من حكاية مثل هذا. ولكن الله سبحانه سنَّ لنا حكاية أقوال أعدائه.

وفي ذلك من قوة الإيمان، وظهور جلالته، ومعرفة قدره، وتمام نعمة الله تعالى على أهله به، ومعرفة قدر خذلانه للعبد، وإلى أي شيء يصيره الخذلان، حتى يصير ضحكة لكل عاقل.

فأي ضلال، وأي خذلان، أعجب من أن يفنى عمره في النظر والبحث. وهذا غاية علمه بالله عَزَّوَجَلَّ، وبالمبدأ والمعاد؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: ولولا ذلك لما قدرت على إحداث هذا العالم، ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم)، يمكن هذا منقول من كلام شيخ الإسلام في رده على الرازي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولكن الله سبحانه سنَّ لنا حكاية أقوال أعدائه)، هذا ظاهر أنه من كلام الشيخ تقي الدين في كتابه «الرد على الرازي».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومعرفة قدر خذلانه للعبد، وإلى أي شيء يصيره الخذلان، حتى يصير ضحكة لكل عاقل)، يعني بذلك الرازي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأَيُّ ضلال، وأَيُّ خذلان، أعجب من أن يفنى عمره في النظر والبحث. وهذا غاية علمه بالله عَزَّجَلَّ، وبالمبدأ والمعاد؟)، هذه نتيجة الاعتماد على العقل.



فصل

والمجوس تعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض. ويقرون بنبوة زرادشت. ولهم شرائع يصيرون إليها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمجوس تعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض)، من الطوائف البشرية الكافرة: المجوس، والمجوس: أمة تعبد النيران، يعظمون النار، ويعبدونها من دون الله عَزَّجَلَّ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ منهم الجزية، وألحقهم بالمشركين، أخذ منهم الجزية، وقال: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١). غير آكلي ذابحهم، ولا ناكحي نسائهم.

إنما يلحقون بأهل الكتاب في أخذ الجزية منهم؛ لأن لهم شبهة كتاب، ولهم نبي اسمه زرادشت، ولكنه رُفِعَ هذا الكتاب، فصار لهم شبهة، فحكمهم حكم أهل الكتاب بهذه الشبهة أن لهم كتابًا، وأن لهم نبيًا، فل هذه الشبهة ألحقوا بأهل الكتاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، طوائف الكفر هذه.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٣٩٥) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَوَى اللَّهُ عَنْهُ.

وهم فرق شتى:

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ.

والموبذ عندهم: العالم القدوة.

وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها.

ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي. وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام.

وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة، والإسماعيلية، والنصيرية، والبشكية، والدرزية، والحاكمية، وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار، كما ستأتي ترجمتهم. فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم. وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم. وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (منهم: المزدكية)، المزدكية: هذه طائفة منهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها)، اشتراكية، هؤلاء اشتراكية لا يختص أحد منهم

بملك لا في النساء ولا في غيرهم، وإنما يشتركون في النساء، ويشتركون في الأرض، ويشتركون في الأموال.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي)، من المجوس: الخرمية: أصحاب بابك الخرمي.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام)، هذه الطائفة هي شر المجوس، وهم الخرمية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة)، القرامطة الذين أخذوا الحجر الأسود، بنوا لهم كعبة عندهم، وأخذوا الحجر الأسود ووضعوه في كعبتهم، فصار المسلمون يشيرون إلى مكان الحجر الأسود إذا حاذوه في الطوف، يشيرون إلى مكانه وهم يطوفون حتى رد الله الحجر الأسود إلى مكانه وأنقذه منهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة)، القرامطة: أتباع حمدان قرمط، وهم شر طوائفهم، وهؤلاء صار لهم سلطة في وقتهم وامتدت وآذوا المسلمين، وقتلواهم عند الكعبة في المطاف، وألقواهم في بئر زمزم، ألقوا جثثهم في بئر زمزم، ثم خرجوا إلى المسلمين وهم واقفون في عرفات، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، هؤلاء هم القرامطة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والإسماعيلية)، والإسماعيلية المعروفة الآن.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والنصيرية)، النصيرية الذين منهم بقية في الشام.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والدرزية)، الدرروز موجود في لبنان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية)، الفاطميين، الدولة الفاطمية حكموا المغرب مدة طويلة، وفرضوا دينهم، وفرضوا عباداتهم حتى انتصر عليهم المسلمون فتخلصوا منهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار، كما ستأتي ترجمتهم)، يتسبون إلى فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي منهم بريئة، فيتسمون بالفاطميين، نسبة لاسم فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي بريئة منهم كل البراءة.



ذكر تلاعب الشيطان بالصابئة

وهذه أمة كبيرة من الأمم الكبار. وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً، بحسب ما وصل إليهم من معرفة دينهم.

وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰئِرِينَ وَالصَّٰبِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. فذكرهم في الأمم الأربعة الذين تنقسم كل أمة منهم إلى ناج وهالك.

وذكرهم أيضاً في الأمم الستة الذين انقسمت جملتهم إلى ناج وهالك، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالصَّٰئِرِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧].

فذكر الأمتين اللتين لا كتاب لهما، ولا ينقسمون إلى شقي وسعيد، -وهما: المجوس والمشركون- في آية المفصل، ولم يذكرهما في آية الموعد بالجنة. وذكر الصابئين فيهما، فعلم أن فيهم الشقي والسعيد.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ذكر تلاعب الشيطان بالصابئة، وهذه أمة كبيرة من الأمم الكبار)، الصابئة منهم الصابئة الحنفاء المسلمون، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالصَّٰئِرِينَ﴾ [الحج: ١٧]، هذه صابئة مسلمة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرَى ﴾ [البقرة: ٦٢])، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾: يعني اليهود، ﴿ وَالنَّصْرَى ﴾.

اليهود: مأخوذ من: ﴿ هَدَانَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، قولهم: ﴿ هَدَانَا إِلَيْكَ ﴾ إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فسموا باليهود.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّابِغِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢])، وهؤلاء هم الصابئة الحنفاء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذكر الصابئين فيهما، فعلم أن فيهم الشقي والسعيد)، يعني الصابئين.



وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل. وهم أهل دعوته. وكانوا بحران، فهي دار الصابئة.

وكانوا قسمين صابئة حنفاء، وصابئة مشركين، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة، والبروج الاثني عشر، ويصوّرونها في هياكلهم. ولتلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة، وهي المتعبدات الكبار، كالكنائس للنصارى والبيع لليهود.

فلهم هيكل كبير للشمس، وهيكل للقمر، وهيكل للزهرة، وهيكل للمشتري، وهيكل للمريخ، وهيكل لعطارد، وهيكل لزحل وهيكل لليلة الأولى.

ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة. ويصوّرونها في تلك الهياكل. ويتخذون لها أصنامًا تخصها، ويقربون لها القرابين. ولها صلوات خمس في اليوم والليلة، نحو صلوات المسلمين.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل)، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ فِيهِمْ فِي أَرْضِ حِرَانَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ نَقَلَ بَعْضَ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى مَكَّةَ.

﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾

[إبراهيم: ٣٧]، فنقل إسماعيل وأمه إلى الحجاز، وهاجر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ

أَرْضِ حِرَانَ إِلَى الْعِرَاقِ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة)، السبعة السيارة، الكواكب السبعة السيارة التي منها الشمس والقمر؛ لأن النجوم تنقسم إلى قسمين: نجوم ثابتة ونجوم سيارة؛ تطلع من المشرق وتغرب في المغرب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والبروج الاثني عشر)، بروج الشمس، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]: أي منازل الشمس الاثني عشر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلهم هيكل كبير للشمس، وهيكل للقمر، وهيكل للزهرة)، يصنعونها على صورة الكواكب، على صورة الشمس وعلى صورة القمر إلى آخره.



وطوائف منهم يصومون شهر رمضان، ويستقبلون في صلواتهم الكعبة، ويعظمون مكة، ويرون الحج إليها، ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، ويحرمون من القرابات في النكاح ما يحرمه المسلمون. وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد، منهم: هلال بن المحسن الصابئ، صاحب الديوان الإنشائي، وصاحب الرسائل المشهورة كان يصوم مع المسلمين، ويعيد معهم، ويزكي ويحرم المحرمات. وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين، وليس على دينهم.

وأصل دين هؤلاء - فيما زعموا - أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة، أي خارجين. فقد خرجوا عن تقيدهم بجملة كل دين وتفصيله، إلا ما رأوه فيه من الحق. وكانت كفار قريش تسمى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصابئ، وأصحابه الصبأة. يقال: صبأ الرجل، بالهمز، إذا خرج من شيء إلى شيء. وصبأ يصبو إذا مال. ومنه قوله: ﴿وَالْأَلَا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]. أي أمل. والمهموز والمعتل يشتركان. فالمهوز: ميل عن الشيء. والمعتل: ميل إليه، واسم الفاعل من المهموز: صابئ، بوزن قارئ، ومن المعتل: صاب، بوزن قاض، وجمع الأول: صابئون، كقارئون، وجمع الثاني: صابون كقاضون، وقد قرئ بهما.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكانت كفار قريش تسمى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصابئ، وأصحابه الصبأة)، لأنهم خرجوا على دين قريش.

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سموه الصابئ؛ لأنه خرج على دين قومه، فقالوا صبأ: إذا خرج.

والمقصود: أن هذه الأمة قد شاركت جميع الأمم وفارقتهم، فالحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية. والمشركون منهم شاركوا عباد الأصنام، ورأوا أنهم على صواب. وأكثر هذه الأمة فلاسفة. والفلاسفة يأخذون من كل دين -بزعمهم- محاسن ما دلت عليه العقول، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم. وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يجرمه، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك، كما سيأتي ذكر تلاعب الشيطان بهم بعد هذا.

ولهذا لم يكن هؤلاء الفلاسفة ولا الصابئة من الأمم المستقلة التي لها كتاب ونبي، وإن كانوا من أهل دعوة الرسل. فما من أمة إلا وقد أقام الله سبحانه عليها حجته وقطع عنها حجتها، ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وتكون حجته عليهم.

والمقصود: أن الصابئة فرق. صابئة حنفاء، وصابئة مشركون، وصابئة فلاسفة، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقييد بملة ولا نحلة، ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل، ومنهم من يقر بها جملة وتفضيلاً ومنهم من ينكرها جملة وتفضيلاً. وهم يقرون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيمًا، مقدساً عن العيوب والنقائص.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهم يقرون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيمًا، مقدساً عن العيوب والنقائص)، نعم، توحيد الربوية قل من ينكره، فالمشركون يعترفون به، وسائر الطوائف تقر بالربوبية.

ثم قال المشركون منهم: لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط. فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه. وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجسمانية، وعن القوى الجسدانية، بل قد جُبلوا على الطهارة، فنحن نتقرب إليهم، ونتقرب بهم إليه، فهم أربابنا وآهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى، الغضبية حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، وتتصل أرواحنا بهم، فحينئذ نسأل حاجتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبوا في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى إلهنا وإلههم.

وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستمداد من جهة الروحانيات. وذلك بالتضرع والابتهاال بالدعوات: من الصلوات والزكوات، وذبح القرابين، والبخورات، والعزائم، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل، بل نأخذ من المعدن الذي أخذت منه الرسل. فيكون حكمنا وحكمهم واحداً: ونحن وإياهم بمنزلة واحدة.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل، بل نأخذ من المعدن الذي أخذت منه الرسل. فيكون حكمنا وحكمهم واحداً: ونحن وإياهم بمنزلة واحدة)، بزعمهم أنهم يستغنون عن الرسل، وأنهم يعرفون الله بدون الرسل.

وهذا كما عليه غلاة الصوفية يزعمون أنهم إذا وصلوا إلى مرحلة من التصوف وصلوا إلى الله، ويسمون العارف بالله، العارف بالله بمعنى أنه عرف ووصل إلى الله، وأما الرسل فهم للعوام، وأما هؤلاء فليسوا بحاجة إلى الرسل، تعالى الله عما يقولون.



قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع وشركاؤنا في المادة، وأشكالنا في الصورة، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب، وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا.

وزادت الاتحادية أتباع ابن عربي، وابن سبعين والعفيف التلمساني، وأضرابهم على هؤلاء بما قاله شيخ الطائفة محمد بن عربي: أن الولي أعلى درجة من الرسول، لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى إلى الرسول فهو أعلى منه بدرجتين.

فجعل هؤلاء الملاحدة أنفسهم وشيوخهم أعلى في التلقي من الرسل بدرجتين، وإخوانهم من المشركين جعلوا أنفسهم في ذلك التلقي بمنزلة الأنبياء، ولم يدعوا أنهم فوقهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وزادت الاتحادية)، الاتحادية: أهل وحدة الوجود، أهل وحدة الوجود يقال لهم الاتحادية ومنهم ابن عربي الملحد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأضرابهم على هؤلاء بما قاله شيخ الطائفة محمد بن عربي: أن الولي أعلى درجة من الرسول)، يقول: أن الولي أعلى درجة من الرسول؛ لأنه وصل إلى الله بدون واسطة، فهو أعلى من الرسول، ولهذا يقولون: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي^(١)

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢١) منسوبة لابن عربي.

والمقصود: أن هؤلاء كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء، من أولهم إلى آخرهم.

أحدهما: عبادة الله وحده لا شريك له. والكفر بما يعبد من دونه من إله. والثاني: الإيمان برسله، وما جاؤوا به من عند الله، تصديقاً وإقراراً، وانقياداً، وامثالاً.

وليس هذا مختصاً بمشركي الصابئة، كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات، بل هو مذهب المشركين من سائر الأمم.

لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب العلويات، ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء - صلوات الله، وسلامه عليه - في بطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته ودحضت حججهم.

فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً، غير مغلوب ولا مقهور. نافعاً لعباده، يملك لعباده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه، ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه. وذلك ليس إلا لله وحده. فكل معبود سواه باطل.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء)، إمام الحنفاء: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾: يعني غاب.

﴿ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي
 فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى
 الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ
 مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴿ [الأنعام: ٧٦-٨٠] ، إلى
 آخر الآيات.



فلما رأى إمام الحنفاء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ
ليست بهذه المثابة صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي
وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة
إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها
ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلها.

فحاجة قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة، فقال
إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُحَدِّثُوكُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ [الأنعام: ٨٠].

وهذا من أحسن الكلام، أي أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي
وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه. وقد أرشدني وبين لي الحق،
حتى استبان لي كالعيان.

وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن أهتكم لا تصلح للعبادة، وأن
عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة.

فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته - سبحانه - وتوحيده إلى
الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟

فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى
الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في
الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بأهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يأله مع الله أن يناله بسوء.

فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فإن آهتكم أقل وأحق من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها.

ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه - سبحانه - هو الذي يخاف ويرجى. فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا استثناء منقطع.

والمعنى: لا أخاف آهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني، لا آهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئاً، وربى له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علماً.

فمن أولى بأن يخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فتعلمون بطلان ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه.

فإنهم خوفوه بألهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطاناً بعبادتها.

وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟

فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله - سبحانه - بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾: أي بشرك. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. «ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله «وأيناً لم يظلم نفسه؟ فقال: إنما هو الشرك: ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١)، فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف، ثم قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةً ٱللَّهِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، الأمن المطلق، لهم الأمن المطلق.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٠، ٣٢، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣])، العبد الصالح: لقمان عَلَيْهِ السَّلَام. قال: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه^(١)، فالمشرك وضع العبادة في غير موضعها، فصار ظالماً. وأعظم الظلم: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه وضع للعبادة في غير موضعها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله «وأيتنا لم يظلم نفسه؟»، فهموا أن المراد بالظلم: ظلم الذنوب والمعاصي، قالوا: أيتنا لم يظلم نفسه؟! قال: إنه ليس بالذي تعنون، إنه الشرك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح -يعني لقمان-: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].



(١) انظر: غريب الحديث لابن قُتَيْبَةَ (٢/ ٨٤)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣)، والقاموس المحيط (ص ١٤٦٤)، ومختار الصحاح (ص ١٧٠).

قال أبو محمد بن حَزْم^(١): وكان الذي يتتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا، إلى أن أحدثوا الحوادث، وبدلوا شرائعهم. فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام، الذي نحن عليه اليوم، وتصحيح ما أفسدوه، وبالحنيفية السمحة التي أتانا بها محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله تعالى. وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء.

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات. وقد حكى الشهرستاني بعض مناظراتهم في كتابه^(٢).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال أبو محمد بن حَزْم)، ابن حزم له كتاب الفصل في الملل والنحل: يذكر فيه أديان العالم سيئها وحسنها، فهو كتاب جيد في هذا الموضوع.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد حكى الشهرستاني بعض مناظراتهم في كتابه)، كتابه «الملل والنحل».



(١) انظر: الفصل في الملل والنحل (١/٣٧).

(٢) كتاب الملل والنحل (٢/٣٥).

فصل

في ذكر تلاعب الشيطان بالدهرية

وهؤلاء قومٌ عطّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم:
﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقان:

فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقتة، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها.

وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل، تكونت الأشياء: مركباتها، وبسائطها، من ذاتها لا من شيء آخر.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فصل: في ذكر تلاعب الشيطان بالدهرية)، الدهرية الذين يجحدون وجود الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وينسبون ما يصيبهم إلى الدهر؛ ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، الدهرية - والعياذ بالله -.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهؤلاء قومٌ عطّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤])، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

[الجاثية: ٢٤].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقته)، أحرق الله عباداً بالله، عندهم هذه الأفلاك أحرق الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما دارت.



وقالوا: إن العالم دائم لم يزل ولا يزال، لا يتغير، ولا يضمحل، ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو المسك لهذه الأجزاء التي فيه.

وهؤلاء هم المعطلة حقاً، وهم فحول المعطلة، وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة، على اختلاف آرائهم وتباينهم في التعطيل، كما سرى داء الشرك تأصيلاً وتفصيلاً في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه، وكما سرى جحد النبوات تأصيلاً وتفصيلاً في سائر من جحد النبوة أو صفة من صفاتها، أو أقر بها جملة وجحد مقصودها وزيدتها أو بعضه.

فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها في الناس، ولم ينبج منه إلا أتباع الرسول، العارفون بحقيقة ما جاء به، المتمسكون به دون ما سواه، ظاهراً وباطناً. فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول وجحد ما جاء به، أو شيء منه: هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل.

فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة، أو من بعضها.

فَإِنْ تَنَجُّ مِنْهَا تَنَجُّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا^(١)

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهؤلاء هم المعطلة حقاً)، المعطلة: الذين عطلوا المصنوعات من الصانع، والمخلوقات من الخالق.

(١) ذكره في البيان والتبيين (١/ ٢٩٣) منسوباً للأسود بن سريع.

فصل

فسرت هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة، لا في جميعهم. فإن الفلسفة من حيث هي لا تعطي ذلك؛ فإن معناها محبة الحكمة، والفيلسوف أصله «فَيْلاسُوفًا»: أي محب الحكمة «ففيلا» هي المحب «وُسُوفًا» هي الحكمة.

والحكمة نوعان: قولية وفعلية.

فالقولية: قول الحق، والفعلية: فعل الصواب، وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها.

وأصح الطوائف حكمة: من كانت حكمتهم أقرب إلى حكمة الرسل التي جاؤوا بها عن الله تعالى.

قال تعالى عن نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال عن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وقال لرسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال لأهل بيت رسوله: ﴿وَأَذْكُرْتُمْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالحكمة التي جاءت بها الرسل: هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح للهدى ودين الحق، لإصابة الحق اعتقادًا وقولًا وعملاً.

وهذه الحكمة فرقها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بين أنبيائه ورسوله، وجمعها لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وجمع في كتابه من العلوم والأعمال ما فرقه في الكتب قبله.

فلو جُمِعت كل حكمة صحيحة في العالم من كل طائفة لكانت في الحكمة التي أوتيتها - صلوات الله وسلامه عليه - جزاء يسيرًا جدًا لا يدرك البشر نسبتَه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال تعالى عن نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَيُّنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠])، ﴿وَأَيُّنَهُ الْحِكْمَةَ﴾. أتى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الحكمة، ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾.

قالوا: فَصَلَ الْخُطَابِ: هو قول: أما بعد، أما بعد هذا فصل الخطاب.



والمقصود: أن الفلاسفة اسم جنس لمن يجب الحكمة ويؤثرها.

وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه.

وأخص من ذلك: أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع أرسطو، وهم المشاؤون خاصة. وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم وبسطها، وقررها، وهي التي يعرفها، بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين.

وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفة، ومقاتلهم واحدة من مقالات القوم، حتى قيل: إنه ليس فيهم من يقول بقدم الأفلاك غير أرسطو وشيعته، فهو أول من عُرف أنه قال بقدم هذا العالم.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأخص من ذلك: أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع أرسطو، وهم المشاؤون خاصة)، المشاؤون: يعلمهم معلمهم وهم يمشون لا يجلسون، يلقي عليهم التعليم وهم يمشون، ولذلك يسمون بالمشائين.



والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه، وإثبات الصانع، ومباينته للعالم، وأنه فوق العالم وفوق السموات بذاته كما حكاه عنهم أعلم الناس في زمنه بمقالاتهم: أبو الوليد بن رُشد في كتابه «مناهج الأدلة».

فقال فيهم: «القول في الجهة».

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه، حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية، كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله.

إلى أن قال: والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السموات نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قرب من سدرة المنتهى.

وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله - سبحانه - والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما حكاه عنهم أعلم الناس في زمنه بمقالاتهم: أبو الوليد بن رشد في كتابه «مناهج الأدلة»)، ابن رشد يقال عنه القديم، والحديث ابن رشد الحفيد.

الجد: ابن رشد صاحب كتاب «المبسوط» في فقه الشافعية.

وأما ابن رشد الحفيد فهو فيلسوف؛ عنده فلسفة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية، كأبي المعالي)، هو أبو المعالي الجويني.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (إلى أن قال: والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين)، هذا قول ابن رشد.



ثم ذكر تقرير ذلك بالمعقول، وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم.

إلى أن قال: فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع وانبنى عليه، وأن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع.

فقد حكى لك هذا المطلع على مقالات القوم، الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سينا وأضرابه: إجماع الحكماء على أن الله - سبحانه - في السماء، فوق العالم.

والمطفون في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك، إما جهلاً، وإما عمداً، وأكثر من رأيناه يحكى مذاهبهم ومقالات الناس مطفف.

وكذلك الأساطين منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال، وحدوث العالم، وقيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه، كما ذكره فيلسوف الإسلام في وقته أبو البركات البغدادي، وقرره غاية التقرير.

وقال: لا يستقيم كون الرب سبحانه رب العالمين إلا بذلك، وأن نفى هذه المسألة ينفي ربوبيته.

قال: والإجلال من هذا الإجلال، والتنزيه من هذا التنزيه أولى.



فصل

وكذلك كان أساطينهم ومتقدموهم، العارفون فيهم، معظمين للرسل والشرائع، موجبين لاتباعهم، خاضعين لأقوالهم، معترفين بأن ما جاؤوا به طور آخر وراء طور العقل، وأن عقول الرسل وحكمتهم فوق عقول العالمين وحكمتهم.

وكانوا لا يتكلمون في الإلهيات، ويسلمون باب الكلام فيها إلى الرسل، ويقولون: علومنا إنما هي الرياضيات والطبيعات وتوابعها. وكانوا يقرون بحدوث العالم.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك كان أساطينهم ومتقدموهم، العارفون فيهم، معظمين للرسل والشرائع، موجبين لاتباعهم، خاضعين لأقوالهم، معترفين بأن ما جاؤوا به طور آخر وراء طور العقل، وأن عقول الرسل وحكمتهم فوق عقول العالمين وحكمتهم)، يتكلم عن الفلاسفة، فيقول:

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكذلك كان أساطينهم ومتقدموهم)، كان أساطينهم: يعني أساطين الفلاسفة، وهم كبارهم، كانوا يعترفون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه جاء بما لا تدركه العقول، وما لا تدركه الفلسفة، يعترفون بهذا، ولكنهم لم يتبعوه فلا ينفعهم ذلك، إذا لم يتبعوه.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ
مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فبعد المعرفة لابد من الاتباع، فهم عرفوا مكانة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وأن ما جاء به فوق فلسفتهم، ولكنهم لم يتبعوه، ولا ينفع اعترافهم بذلك إذا
لم يتبعوه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكانوا لا يتكلمون في الإلهيات)، الفلاسفة لا يتكلمون
في الإلهيات: يعني العلوم الإلهية؛ لأنهم يعلمون أنها فوق مداركهم، فعندهم
عقولهم تحجزهم من أن يتكلموا بشيء فوق عقولهم، ولا تدركه عقولهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويسلمون باب الكلام فيها إلى الرسل)، لأنها من علم
الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ولا تدركها العقول.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويقولون: علومنا إنما هي الرياضيات والطبيعات
وتوابعها. وكانوا يقرون بحدوث العالم)، فهم يعترفون أن علوم الرسل فوق
علومهم، وأن عقولهم لا تدركها، معترفون بهذا؛ لأن لهم عقول تحجزهم عن
الدخول فيما لا يحسنون.



وقد حكى أرباب المقالات أن أول من عُرفَ عنه القول بقدم هذا العالم أرسطو. وكان مشرِّكاً يعبد الأصنام. وله في الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره، فقد تعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين، حتى الجهمية والمعتزلة، والقدرية، والرافضة، وفلاسفة الإسلام أنكروه عليه، وجاء فيه بما يسخر منه العقلاء.

وأنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيئاً من الموجودات، وقرر ذلك بأنه لو علم شيئاً لكمل بمعلوماته، ولم يكن كاملاً في نفسه، وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات، فهذا غاية عقل هذا المعلم والأستاذ. وقد حكى ذلك أبو البركات، وبالغ في إبطال هذه الحجج وردّها.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد حكى أرباب المقالات)، أرباب المقالات: يعني الذين يدونون الديانات مثل الملل والنحل للشهرستاني، وغيرها من كتاب الملل والنحل، وكذلك الملل والنحل لابن حزم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد حكى أرباب المقالات أن أول من عُرفَ عنه القول بقدم هذا العالم أرسطو)، القائل بقدم العالم قليل منهم، يعترفون أن العالم حادث، وأنه ليس بقديم إلا أرسطو وأتباعه منهم، فهم يقولون بقدم العالم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان مشرِّكاً يعبد الأصنام. وله في الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره)، لأنه لا يدرك الكلام في الإلهيات؛ لأنها من علم

الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فتكلمه فيه تكلم بما لا يدركه عقله، لذلك وقع في الخطأ الكبير.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيئاً من الموجودات)، فعند أرسطو أن الله لا يعلم الموجودات الحادثة في هذا الكون.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقرر ذلك بأنه لو علم شيئاً لكمل بمعلوماته، ولم يكن كاملاً في نفسه)، لو أن الله جَلَّ وَعَلَا -بزعمه هو- لو أنه تكلم في الإلهيات لكان تكلم بما لا يعلمه -تعالى الله عما يقول علواً كبيراً- فالله علام الغيوب يعلم كل شيء؛ لا يخفى عليه شيء لا في الماضي ولا في الحال، ولا في المستقبل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات)، وبأن الله جَلَّ وَعَلَا -بزعمه- يلحقه التعب والكلل في نفسه، تعالى الله عما يقول؛ لأنه يقيس الله بعقله وإدراكه.

ولا يؤمن بأن الله على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا يعرف هذا، إنما هذا جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بوحى من الله، نزل به جبريل على الأنبياء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهذا غاية عقل هذا المعلم والأستاذ)، المعلم: الذي هو أرسطو، المعلم الأول.



فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لأتباعه: الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، ودرج على أثره أتباعه من الملاحدة، ممن يتستر باتباع الرسل، وهو منحل من كل ما جاؤوا به.

وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء، ويرون عرض ما جاءت به الرسل والأنبياء على كلامه، فما وافقه منها قبلوه، وما خالفه لم يعبتوا به شيئاً.

ويسمونه المعلم الأول، لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم)، يسمونه المعلم الأول، والمعلم الثاني الفارابي.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء)، أتباع أرسطو يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنهم معجبون به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويرون عرض ما جاءت به الرسل والأنبياء على كلامه فما وافقه منها قبلوه، وما خالفه لم يعبتوا به شيئاً)، والواقع بالعكس: أنه تُعرض أقوالهم وأفكارهم على ما جاءت به الرسل، فما وافق ما جات به الرسل فهو حق، وما خالف فهو باطل، فالحكم هو كما جاءت به الرسل، لا ما جاءت به العقول العاجزة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويسمونه المعلم الأول، لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عَرُوضَ الشُّعْرِ)، كما أن الخليل بن أحمد الفراهيدي العالم في النحو هو أول من وضع العَرُوضَ الذي هو علم القوافي ووزن الشعر، وبحور الشعر الخمسة عشر أو الستة عشر.



وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني، كما أن العروض ميزان الشعر.

وقد بينَ نُظَّارُ الإسلامِ فسادَ هذا الميزانِ وَعِوَجَهُ، وتعويجَه للعقول، وتخبيطه للأذهان، وصنّفوا في رده وتمهاتِهِ كثيرًا.

وآخرُ مَنْ صنّف في ذلك: شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رَحِمَهُ اللهُ، أَلَّفَ في رده وإبطاله كتابين؛ كبيرًا، وصغيرًا، بيّن فيه تناقضه وتمهاتِهِ، وفسادَ كثير من أوضاعه. ورأيت فيه تصنيفًا لأبي سعيد السّيرافي.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني، كما أن العروض ميزان الشعر)، أن المنطق: يعني علم المنطق الذي هو الفلسفة أنه هو ميزان المعاني الذي ترجع إليه المعاني، كما أن الشعر يرجع فيه إلى علم العروض.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد بينَ نُظَّارُ الإسلامِ فسادَ هذا الميزانِ وَعِوَجَهُ)، نظار الإسلام: الفلاسفة المسلمون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وآخرُ مَنْ صنّف في ذلك: شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رَحِمَهُ اللهُ، أَلَّفَ في رده وإبطاله كتابين؛ كبيرًا، وصغيرًا، بيّن فيه تناقضه وتمهاتِهِ، وفسادَ كثير من أوضاعه)، العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيميّة، كتاب عظيم.

يقول ابن القيم^(١):

وَأَقْرَأُ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانٍ

كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، قال: إن العقل الصحيح لا يخالف النقل الصريح؛ فإن اختلفا فإمّا أن يكون العقل فيه آفة، وإما أن يكون النقل غير صحيح؛ ليس كل ما رُوِيَ وكل ما دُوِّنَ يكون صحيحًا.

قد قيَّضَ اللهُ للحديث رجالاً محصّوه وخلصّوه، وميّزوا الدخيل فيه، ووضّحوا ذلك في كتب الحديث المعروفة؛ كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربع، والمسانيد: مسند الإمام أحمد، ومسند الشافعي، ومسند أبي حنيفة، مسند الدرامي...

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ورأيت فيه تصنيفاً لأبي سعيد السيرافي)، السيرافي: هذا

صاحب البلاغة.



المقصود: أن الملاحظة درجت على أثر هذا المعلم الأول، حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثاني: أبي نصر الفارابي. فوضع لهم التعاليم الصوتية، كما أن المعلم الأول وضع لهم التعاليم الحرفية.

ثم وسع الفارابي الكلام في صناعة المنطق، وبسطها وشرح فلسفة أرسطو وهذبا، وبالغ في ذلك.

وكان على طريقة سلفه: من الكفر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر. فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة.

وإذا رأوه مؤمناً بالله وملائكته، وكتبه ورسله، ولقائه، متقيداً بشريعة الإسلام، نسبوه إلى الجهل والغباوة.

فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته، نسبوه إلى التلبيس والتنميس بناموس الدين استهالة لقلوب العوام.

فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (المقصود: أن الملاحظة درجت على أثر هذا المعلم الأول)، الذي هو أرسطو.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثاني: أبي نصر الفارابي)، أبو نصر الفارابي: هذا المعلم الثاني، وهو خبيث ملحد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة)، حتى يخرج على ما جاءت به الرسل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته، نسبوه إلى التلبس والتنميس بناموس الدين استمالة لقلوب العوام)، أنه يداهن الناس، ينسبون إليه أنه يداهن الناس، ويتألفهم ليصدقوه ويتبعوه، ولا يسيئوا به الظن، كله تلبس وتدليس على الناس. فالفلاسفة لا خير فيهم البتة إلا من آمن بالله ورسوله وكتابه وقدمها على المنطق وعلى الفلسفة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط)، جزء منها أو شرط لها.



ولعل الجاهل يقول: إنا نحاملنا عليهم في نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله إليهم. وليس هذا من جهله بمقالات القوم، وجهله بحقائق الإسلام ببعيد.

فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - عندهم كما قرره أفضل متأخريهم، ولسانهم، وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل: أبو علي ابن سينا: هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئاً باختياره البتة، ولا يعلم شيئاً من الموجودات أصلاً، لا يعلم عدد الأفلاك، ولا شيئاً من المغيبات. ولا له كلام يقوم به، ولا صفة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولعل الجاهل يقول: إنا نحاملنا عليهم في نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله إليهم)، يقول شيخ الإسلام؛ لأن شارح الطحاوية ينقل عنه، يقول:

(إنا نحاملنا عليهم في نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله إليهم. وليس هذا من جهله بمقالات القوم، وجهله بحقائق الإسلام ببعيد. يزعم أن من كفر الفلاسفة أنه تحامل عليهم، وتشدد في حقهم؛ لأنه يعتقد لهم الفضيلة، ويعتقد لهم المكانة بسبب ما عندهم من الفلسفة. والفلسفة: هي الحكمة عندهم، فليسوف: يعني حكيم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قرره أفضل متأخرينهم، ولسانهم، وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل: أبو علي ابن سينا)، ابن سينا اليهودي الخبيث. وابن سينا له معرفة بالطب، فهو طبيب حاذق، لكنه في الشرع ملحد وكافر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - عندهم كما قرره أفضل متأخرينهم، ولسانهم، وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل: أبو علي ابن سينا: هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق)، الله جَلَّ وَعَلَا عنده هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق: يعني لا يوصف بصفة ولا يسمى باسم، بل هو الوجود المطلق، تعالى الله عن ذلك.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

والله جَلَّ وَعَلَا له أسماء بينها لعباده في كتبه، وله أسماء استأثر بعلمها، ولم يعلمها لعباده، «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^(٢). هكذا دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئًا باختياره البتة، ولا يعلم شيئًا من الموجودات أصلًا، لا يعلم عدد الأفلاك،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص ٤١٨).

ولا شيئاً من المغيبات. ولا له كلام يقوم به، ولا صفة، هذا كلام الفلاسفة في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقولون: وجود مطلق ليس له أسماء ولا صفات ولا خاصية، يؤمنون بوجود الرب، لكنهم يسلبونه أسمائه وصفاته، ويلحدون فيها.



ومعلوم أن هذا إنما هو خيال مقدر في الذهن، لا حقيقة له، وإنما غاية أن يفرضه الذهن ويقدره، كما يفرض الأشياء المقدره.

وهذا ليس هذا هو الرب الذي دعت إليه الرسل وعرفته الأمم، بل بين هذا الرب الذي دعت إليه الملاحدة وجردته عن الماهية، وعن كل صفة ثبوتية، وكل فعل اختياري، وأنه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مباين له ولا فوقه ولا تحته، ولا أمامه ولا خلفه، ولا عن يمينه ولا عن شماله - وبين رب العالمين، وإله المرسلين، من الفرق ما بين الوجود والعدم، والنفي والإثبات.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومعلوم أن هذا إنما هو خيال مقدر في الذهن، لا حقيقة له)، يعني شيء في الوجود ليس له أسماء ولا صفات هذا خيال ليس بصحيح إلا في الذهن، فالذهن يأتي فيه كل شيء، أما خارج الذهن؟ لا، هذا باطل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذا ليس هذا هو الرب الذي دعت إليه الرسل وعرفته الأمم)، هذا هو إله الفلاسفة إنما هو في أذهانهم فقط، ولا وجود له في الخارج، تعالى الله عن ذلك.

يا سبحان الله! لا وجود له، إذاً مَنْ الذي أوجد هذه السموات وهذه الأرض، وهذه الجبال وهذه البحار؟ ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. لما سمع جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هذه الآية في الصلاة، قال: «كَأَدَّ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»^(١).

(١) سبق تخريجه (ص ٦٣٧).

فأي موجود فُرضَ كان أكمل من هذا الإله، الذي دعت إليه الملاحظة، ونحتته أفكارهم، بل منحوت الأيدي من الأصنام له وجود، وهذا الرب ليس له وجود، ويستحيل وجوده إلا في الذهن.

هذا، وقول هؤلاء الملاحظة أصلح من قول معلمهم الأول أرسطو.

فإن هؤلاء أثبتوا وجودًا واجبًا ممكنًا، هو معلول له وصادر عن صدور المعلول عن العلة، وأما أرسطو فلم يثبتته إلا من جهة كونه مبدأً عقليًا للكثرة، وعلّة غائية لحركة الفلك فقط، وصرح بأنه لا يعقل شيئًا، ولا يفعل باختياره.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذا الرب ليس له وجود، ويستحيل وجوده إلا في الذهن)، تعالى الله عما يقولون.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما أرسطو فلم يثبتته إلا من جهة كونه مبدأً عقليًا للكثرة، وعلّة غائية لحركة الفلك فقط، وصرح بأنه لا يعقل شيئًا، ولا يفعل باختياره)، هذا ما يؤول إليه من لم يتبع الرسل، ولم يؤمن بما جاؤوا به.



وأما هذا الذي يوجد في كتب المتأخرين من حكاية مذهبه، فإنما هو من وضع ابن سينا. فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهدته. وغاية ما أمكنه أن يقربه من أقوال الجهمية الغالين في التجهم، فهم في غلوهم وفي تعطيلهم ونفيهم أسد مذهباً وأصح قولاً من هؤلاء. فهذا ما عند هؤلاء من خبر الإيثار بالله عَزَّوَجَلَّ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما هذا الذي يوجد في كتب المتأخرين من حكاية مذهبه، فإنما هو من وضع ابن سينا. فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهدته)، ابن سينا قرب قول شيخه الأول من الملاحدة في حق الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فجعل له وجوداً في الأذهان، وليس له وجود في الخارج.

هذا قول ابن سينا الذي تسمى به بعض المدارس: مدرسة ابن سينا، وهو ملحد، خبيث.

نعم، هو في الطب مبرز، ومن علماء الطب المتمكنين، ولكن في علوم الشرع ليس له نصيب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وغاية ما أمكنه أن يقربه من أقوال الجهمية الغالين في التجهم)، الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان الذي ينكر الأسماء والصفات، فهم ينسبون إليه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهم في غلوهم وفي تعطيلهم ونفيهم أسد مذهباً وأصح قولاً من هؤلاء)، يعني أقرب إلى الحق.

ومع الأسف هناك ناس الآن يدعون إلى إحياء الفلسفة وتدريسها، وهؤلاء ينعمون بما لا يفهمون، لا يعرفون الفلسفة ما هي، ولذلك ينادون ببعثها وتدريسها وتقريرها في المدارس.



وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم.

وإنما الملائكة -عندهم- ما يتصوره النبي بزعمهم في نفسه من أشكال نورانية، هي العقول عندهم، وهي مجردات ليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق السموات، ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد، ولا تنزل، ولا تدبر شيئاً، ولا تتكلم، ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس، ولا حركة البتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تَصُفُّ عند ربها، ولا تصلى، ولا لها تصرف في أمر العالم البتة، فلا تقبض نفس العبد، ولا تكتب رزقه وأجله وعمله، ولا عن اليمين وعن الشمال قعيد، كل هذا لا حقيقة له عندهم البتة.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم)، الملائكة: خلق من خلق الله في العالم العلوي في السموات.

وإمامهم وكبيرهم جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو سيد الملائكة، وهو الذي ينزل بالوحي من الله على الرسل.

آخر ما نزل بالقرآن الكريم، هذا مما جاء به جبريل إلى رسول الله، من عند الله، تكلم الله به، وسمعه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحمله إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه إياه، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَّغَهُ لِأُمَّتِهِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإنما الملائكة - عندهم - ما يتصوره النبي بزعمهم في نفسه من أشكال نورانية)، الملائكة - يقولون - أفكار في الأذهان وليس لها وجود في الخارج.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهي مجردات ليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق السموات، ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد)، إذا هي ليست موجودة، ما دامت ليست فوق ولا تحت، ولا يمتدة ولا يسرة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس ولا حركة البتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تُصَفُّ عند ربها، ولا تصلى، ولا لها تصرف في أمر العالم البتة)، ومع الأسف هذا الكلام موجود في تفسير المنار، لرشيد رضا، وهو لم يفهمه.

لا نقول - إن شاء الله - : إنه يعتقد، لكنه لم يفهم هذا، ونقل كلام الفلاسفة بدون تمحيص.



وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام، فقال: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد. والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى الإسلام وإلى الرسل.

وأما الكتب، فليس لله عندهم كلام أنزله إلى الأرض بواسطة الملك، فإنه ما قال شيئاً، ولا يقول، ولا يجوز عليه الكلام.

ومن تقرب منهم إلى المسلمين يقول: الكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية، فتصورت تلك المعاني، وتشكلت في نفسه بحيث توهمها أصواتاً تخاطبه، وربما قوي الوهم حتى يراها أشكالاً نورانية تخاطبه، وربما قوي ذلك حتى يخيلها لبعض الحاضرين فيرونها ويسمعون خطابها، ولا حقيقة لشيء من ذلك في الخارج.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام، فقال: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد. والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة)، الأفكار السيئة هذه شياطين عندهم، والأفكار الطيبة هذه ملائكة، وليس لها وجود في الخارج عندهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأما الكتب، فليس لله عندهم كلام أنزله إلى الأرض بواسطة الملك، فإنه ما قال شيئاً، ولا يقول، ولا يجوز عليه الكلام)، الكلام -يقولون-: إنه من صفات المخلوق، وليس من صفات الخالق، تعالى الله عما يقولون.

والأشاعرة يقولون: كلام الله هو المعنى القائم في نفسه، وهذا القرآن الذي معنا هو حكاية عن كلام الله حكاة جبريل أو حكاة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسمونه حكاية عن كلام الله الذي في نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله لا يتكلم عندهم. حكاية أو عبارة: يعني عبَّرَ به جبريل، أو عبَّرَ به محمد عن المعنى القائم في نفس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأبو الحسن الأشعري الذي ينتسبون إليه تراجع عن هذا كما في كتاب «الحيدة»، وفي كتاب «الرسالة إلى أهل الثغر»، تراجع عن هذا، وصرَّح أنه على مذهب الإمام أحمد.

أبو الحسن الأشعري: كان معتزلياً على مذهب المعتزلة، ثم تبرأ منه أمام الناس، وخلعه كما خلع ثوبه، وقال: أخلعه كما أخلع ثوبي هذا، ثم انتقل إلى مذهب الكُلابية^(١)، ثم انتقل من مذهب الكلابية إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وصرَّح على اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل، وصرَّح بهذا. الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان.

فما هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فلا يصح إيمان أحد لا يؤمن بالملائكة.

(١) هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب البصري، رأس المتكلمين، قال بنفِي الصفات الاختيارية لله تعالى، وابتدع بدعة القول بالكلام النفسي، وأن القرآن خُلِقَ ليدل على ذلك المعنى، وإنما هو حكاية عن كلام الله تعالى، وأن الله تعالى لا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت! وهو الذي تأثر بمذهبه الأشعري ومن تابعه. تُوفِّي سنة ٢٤٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤)، والفتاوى (١٢/١٢٠).

وأما الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فللنبوة عندهم ثلاث خصائص، من استكملها فهو نبي:

أحدها: قوة الحدس، بحيث يدرك الحد الأوسط بسرعة.

الثانية: قوة التخيل والتخيل، بحيث يتخيل في نفسه أشكالاً نورانية تخاطبه، ويسمع الخطاب منها، ويخيلها إلى غيره.

الثالثة: قوة التأثير بالتصرف في هَيُولَى العالم. وهذا يكون عندهم بتجرد النفس عن العلائق، واتصالها بالمفارقات، من العقول والنفوس المجردة.

وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب؛ ولهذا طلبَ النبوة مَنْ تصوف على مذهب هؤلاء، كابن سَبِين^(١)، وابن هُود، وأضرابهما.

والنبوة عند هؤلاء صنعة من الصنائع، بل من أشرف الصنائع، كالسياسة، بل هي سياسة العامة، وكثير منهم لا يرضى بها، ويقول: الفلسفة: نبوة الخاصة. والنبوة: فلسفة العامة.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الثالثة: قوة التأثير بالتصرف في هَيُولَى العالم. وهذا يكون عندهم بتجرد النفس عن العلائق، واتصالها بالمفارقات، من العقول والنفوس

(١) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسي، الرُّقُوطِي، نسبةً إلى رُقُوطَة، بلدة قريية من مُرْسِيَّة، وُلد سنة أربع عشرة وست مئة، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد، وصنف فيه. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٦١)، والوافي بالوَفَيَات (١٨/ ٣٧)، ولسان الميزان (٣/ ٣٩٢)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٢٩).

المجردة)، هذه كلها أفكار سيئة باطلة مخالفة لما جاءت به الرسل، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا أعمى بصائرهم، فصاروا يقولون هذا الكلام في الملائكة وغيرهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب. ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب هؤلاء كابن سبعين، وابن هود، وأضرابهما)، يظنون أن النبوة مكتسبة، وأن الإنسان يكسبها، ولا يعتقدون أن النبوة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُ الَّذِي يَبْعَثُ الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَيُوحِي إِلَيْهِمْ.

كل من ترك الكتاب والسنة فإنه يهيم في هذه المواطن القدرية، والأفكار السيئة، ولا عصمة إلا لمن عصمه الله، وتمسك بكتاب الله، وسنة رسوله، وما عليه سلف الأمة وأئمتها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والنبوة عند هؤلاء صنعة من الصنائع، بل من أشرف الصنائع، كالسياسة)، بإمكان الإنسان عندهم أن يكون رسولاً، ليست الرسالة بعثٌ من الله ووحى منه، بل يعتبرونها مكتسبة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (بل هي سياسة العامة)، سياسة العامة، وليست سياسة الفلاسفة، والصوفية.

(والنبوة عند هؤلاء صنعة من الصنائع، بل من أشرف الصنائع، كالسياسة) يعني أنها مكتسبة، وليست اختياراً من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكثير منهم لا يرضى بها، ويقول: الفلسفة: نبوة الخاصة. والنبوة: فلسفة العامة)، الفلسفة نبوة الخاصة من الناس الراقين الذين عندهم رُقِيٌّ فِي الْأَفْكَارِ، وأما النبوة فهي فلسفة العامة، يعني العوام!

وأما الإيمان باليوم الآخر: فهم لا يُقَرُّون بانفطار السموات، وانتشار الكواكب، وقيامه الأبدان، ولا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأوجد هذا العالم بعد عدمه.

فلا مبدأ عندهم، ولا معاد، ولا صانع، ولا نبوة، ولا كتب نزلت من السماء، تكلم الله بها، ولا ملائكة تنزلت بالوحي من الله تعالى.

فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خير من دين هؤلاء.

وحسبك جهلاً بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، من يقول: إنه سبحانه لو علم الموجودات لحقّه الكلال والتعب، واستكمل بغيره.

وحسبك خذلاً وضالاً وعمى: السير خلف هؤلاء، وإحسان الظن بهم، وأنهم أولو عقول.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خير من دين هؤلاء)، لماذا؟ لأن اليهود والنصارى يؤمنون بالنبوءات، ويقرون بالرسول، وهؤلاء لا يقرون بهم على الوجه المطلوب، إنما يقرون بأفكار يعتقدونها، وينطقون بها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وحسبك)، يعني: يكفيك.



وحسبك عجباً من جهلهم، وضلالهم: ما قالوه في سلسلة الموجودات،
 وصدور العالم عن العقول والنفوس، إلى أن أنها صدور ذلك إلى واحد من
 كل جهة، لا علم له بما صدر عنه ولا قدرة له عليه، ولا إرادة، وأنه لم يصدر
 عنه إلا واحد.

فذلك الصادر إن كان فيه كثرة بوجه ما فقد بطل ما أصلوه، وإن لم يكن
 فيه كثرة البتة لزم أن لا يصدر عنه إلا واحد مثله.

وتكثر الموجودات وتعددها يكذب هذا الرأي الذي هو ضحكة
 للعقلاء، وسخرية لأولى الألباب، مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا، وإرادته
 تقريب هذا المذهب من الشرائع، وهيهات. وإلا فالمعلم الأول لم يُثبت صانعاً
 للعالم البتة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وحسبك عجباً من جهلهم، وضلالهم: ما قالوه في سلسلة
 الموجودات)، وهذه هي الفلسفة التي يدعون إلى أن تقرر في المدارس...

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتكثر الموجودات وتعددها يكذب هذا الرأي الذي هو
 ضحكة للعقلاء وسخرية لأولى الألباب)، كل من حاد عن الكتاب والسنة؛
 فإنه تضحك منه العقول، وتشمئز منه الفطر.

لا عصمة إلا لكتاب الله وسنة رسوله التي هي نزول من الله عزَّجَلَّ إلى
 رسله بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولهذا يقول الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ: «كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ»: يعني أكثر جدلاً من رجل. «تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِرِيْلُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدَلٍ هُوَ لَاءٍ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا، وإرادته تقريب هذا المذهب من الشرائع، وهيئات)، ابن سينا هذا معروف بالإلحاد، جاءه رجل يريد أن يسلم على يده، ظن هذا الرجل أن هذا عالم من علماء المسلمين، فجاء إليه ليسلم على يده، وليتعلم منه، فقال له: على أي الأديان تريد: تريد اليهودية، أم تريد النصرانية، أم تريد الإسلام؟

قال: أليست هذه أديان منسوخة، والدين الباقي هو دين الإسلام؟! قال: لا، هذه أديان، ولكن الإسلام هو أحسنها، وإلا كل إنسان له الخيار يعتنق ما شاء عنده.



(١) أخرجه البيهقي في شعب الإبان (٤٢/١١).

والرجل معطلٌ مشرك، جاحد للنبوات والمعاد، ولا مبدأ عنده ولا معاد، ولا رسول، ولا كتاب.

والرازي وفروخه لا يعرفون مذهب الفلاسفة غير طريقه.

ومذاهبهم وآراؤهم كثيرة جداً، قد حكاها أصحاب المقالات، كالأشعري في مقالاته الكبيرة، وأبى عيسى الوراق، والحسن بن موسى النوبختي.

وأبو الوليد بن رُشد يحكى مذهب أرسطو غير ما حكاه ابن سينا، ويُغلّطه في كثير من المواضع، وكذلك أبو البركات البغدادي يحكى نفس كلامه على غير ما يحكيه ابن سينا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كالأشعري في مقالاته الكبيرة)، الأشعري له كتاب اسمه: مقالات الإسلاميين ومذاهب المصلين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأبو الوليد ابن رشد يحكى مذهب أرسطو غير ما حكاه ابن سينا، ويغلطه في كثير من المواضع)، ابن رشد الجد: هذا رجل طيب، وهو إمام، أما ابن رشد الحفيد فهذا دخلت عليه الفلسفة فخلطت عليه.



فصل

والفلاسفة لا تختص بأمة من الأمم، بل هم موجودون في سائر الأمم، وإن كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم: هم فلاسفة اليونان. فهم طائفة من طوائف الفلاسفة.

وهؤلاء أمة من الأمم، لهم مملكة وملوك، وعلماء وهم فلاسفتهم، ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني. وهو ابن فيليبس.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والفلاسفة لا تختص بأمة من الأمم، بل هم موجودون في سائر الأمم)، الفلاسفة: جمع فيلسوف، والفيلسوف معناه محب الحكمة، (فيل): يعني محب، (سوف) يعني الحكمة.

فهم يزعمون أنهم يبحثون عن الحكمة، ولذلك استغنوا بالفلسفة عن دين الأنبياء وصاروا يزعمون أنهم خير من الأنبياء؛ لأنهم عرفوا ووصلوا إلى ربهم من دون الأنبياء.

هكذا قال لهم الشيطان وقال لهم شياطينهم من أهل الضلال، هذه هي الفلسفة وهؤلاء هم الفلاسفة، وهم منتشرون في الهند وفي غيرها من البلاد.

ولما جاء الإسلام -والحمد لله- قاومهم، وهتك أستارهم وبين ما عندهم من المنكرات؛ فأصبحوا لا قيمة لهم عند أهل الإيمان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم: هم فلاسفة اليونان. فهم طائفة من طوائف الفلاسفة)، ومن البلاء الآن أنهم يريدون أن يقرروا الفلسفة في المدارس وفي دور العلم عندنا، ولكن ذلك لن يكون إن شاء الله.



وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن، بل
بينها قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين.

فدو القرنين كان رجلاً صالحاً موحدًا لله تعالى، يؤمن بالله تعالى
وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكان يغزو عبّاد الأصنام، وبلغ
مشارك الأرض ومغارها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج.

وأما هذا المقدوني فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته.

وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمئة سنة. والنصارى تؤرخ
له. وكان أرسطاطليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام، وهو الذي غزا
دارا بن دارا ملك الفرس في عقر داره ففلَّ عرشه، ومزَّق مُلكه، وفرَّق جمعه،
ثم دخل إلى الصين، والهند، وبلاد الترك، فقتل وسبى.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى
نبأه في القرآن، بل بينها قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين)، الإسكندر
المقدوني هذا هو كبير الفلاسفة.

وأما الإسكندر الذي هو ذو القرنين فهذا مسلم، ومن الدعاة إلى الله،
ملك عادل، وملك مسلم قصَّ الله خبره في القرآن العظيم، وتجوله في المشرق
والمغرب يدعو إلى الله عزَّوجلَّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج)، هو الذي بنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وهؤلاء قوم أهل فساد، وأهل بأس وانتقام، فطلبوا منه أن يبني بينهم وبينهم سداً يمنعهم من أذية الناس والخروج عليهم.

قالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: يعني إعانة ومالاً.

﴿عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَأَتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الضَّدْفَيْنِ﴾: يعني بين الجبلين بزبر الحديد، ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٤-٩٦].

انفخوا النار عليها، فنفخوا عليها فاشتعلت ناراً، وأذابت الحديد حتى سد ما بين الجبلين.

وكان هذا السد أملساً لا يستطيعون الصعود عليه، ولا يستطيعون نقبه وخرقه، ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: ٩٨].

في يوم القيامة يندك هذا السد ويخرجون على الناس -والعياذ بالله- ويحصل منهم قتل ذريع في المسلمين، حتى إن المسلمين في وقته يتحصنون منهم ولا يخرج من المسلمين أحد؛ لأنهم يقتلون من ظفروا به.

ثم إن الله جلَّ وَعَلَا يسلط عليهم النَّغْفَ، وهو الذي يسمى السرو في أعناقهم، فماتوا عن آخرهم وخرج المسلمون من حصارهم، وأراح الله المسلمين منهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمائة سنة. والنصارى تؤرخ له)، تؤرخ لهذا الفاسد، يعني: يعتبرونه من الحوادث؛ لأن من عادة الأمم أنها تؤرخ بالحوادث التي تمر عليها، ومن أعظم الحوادث وجود هذا الملك الفاجر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان أرسطاطليس وزيره)، هذا أرسطو المعروف، وكان وزيراً لهذا الملك الفاجر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهو الذي غزا دارا بن دارا ملك الفرس في عقر داره فقلَّ عرشه، ومزق ملكه، وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين، والهند، وبلاد الترك، فقتل وسبى)، هذا الملك الفاجر صار معه قوة، فغزا بلاد الصين، وقتل ملكهم وآذى المسلمين أشد الأذى.



وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدبّر مملكته. وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالة، وأحدهم بطليموس، كما إن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم. ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية لهم، وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة. وهم على شركهم من عبادة الأصنام وهو دينهم الظاهر، ودين آبائهم. فنشأ فيهم سقراط أحد تلامذة فيثاغورس، وكان من عبادهم، ومتألهيهم، وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام، وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها. فثار عليه العامة، واضطروا الملك إلى قتله، فأودعه السجن ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون إلا بقتله، فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدبر مملكته)، وهو من اليونان، أرسطو من اليونان فحامى دونهم واستراح اليونان من شر هذا الظالم بسبب وزيره.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالة، وأحدهم بطليموس، كما إن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم)، كانت لليونان حضارة وكانت لهم مملكة، وكانت لهم فلسفة هي التي سرت في الناس

-فلسفة اليونان- إلى أن جاء الله بالإسلام فقاومها وأبطلها، والآن هناك من ينادي بتقرير الفلسفة في المدارس، ولكن نرجو أن لا يتم هذا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية لهم، وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة)، الأدوار تدور على الناس، ينتصر هذا وينهزم هذا، فبعد أن كان لليونان حضارتهم وقوتهم وهم النفوذ في العالم أدال الله عليهم الروم، والروم أهل كتاب.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿[الروم: ١-٥].

يفرح المسلمون بنصر الروم على فارس؛ لأن الروم أهل كتاب، ومنهم مسلمون ومؤمنون، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ ﴿[الروم: ٤، ٥].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهم على شركهم من عبادة الأصنام وهو دينهم الظاهر، ودين آبائهم)، يعني: فلاسفة.



ومذهبه في الصفات قريب من مذهب أهل الإثبات، فقال: إنه إله كل شيء وخالقه، ومقدره. وهو عزيز، أي منيع، ممتنع أن يضام وحكيم، أي محكم أفعاله على النظام.

وقال: إن علمه، وقدرته، ووجوده، وحكمته، بلا نهاية، لا يبلغ العقل أن يصفها.

وقال: إن تناهى المخلوقات بحسب احتمال القوابل، لا بحسب الحكمة والقدرة، فلما كانت المادة لا تحمل صوراً بلا نهاية تنهت الصور، لا من جهة بخل في الواهب، بل لقصور في المادة.

قال: وعن هذا اقتضت الحكمة الإلهية أنها وإن تنهت ذاتاً وصورة وحيزاً ومكاناً. إلا أنها لا تتناهى زماناً في آخرها، لا من نحو أولها، فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص باستبقاء الأنواع، وذلك بتجدد أمثالها، ليحفظ الأشخاص ببقاء الأنواع، ويستبقى الأنواع بتجدد الأشخاص. فلا تبلغ القدرة إلى حد النهاية، ولا الحكمة تقف على غاية.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال: إن علمه، وقدرته، ووجوده، وحكمته، بلا نهاية، لا يبلغ العقل أن يصفها)، هذا فيثاغورث.



ومن مذهبه: أن أخص ما يوصف به الرب سبحانه، هو كونه حيًّا قيومًا، لأن العلم، والقدرة، والجود، والحكمة، تندرج تحت كونه حيًّا قيومًا، فهما صفتان جامعتان للكل.

وكان يقول: هو حي ناطق من جوهره، أي من ذاته وحياته، ونطقنا وحياتنا لا من جوهرنا، ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد، ولا يتطرق ذلك إلى حياته ونطقه.

وكلامه في المعاد والصفات والمبدأ أقرب إلى كلام الأنبياء من كلام غيره.

وبالجملة، فهو أقرب القوم إلى تصديق الرسل، ولهذا قتله قومه.

وكان يقول: إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات.

وقال: لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

وقال: ينبغي أن يُعْتَمَ بالحياة ويفرح بالموت، لأن الإنسان يحيا ليموت، ثم يموت ليحيا.

وقال: قلوب المغرمين بالمعرفة بالحقائق منابر الملائكة. وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين.

وقال: للحياة حَدَّانٍ: أحدهما: الأمل، والآخر: الأجل. فبالأول بقاؤها، وبالآخر فناؤها.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن مذهبه: أن أخص ما يوصف به الرب سبحانه، هو كونه حياً قيوماً)، حياً قيوماً، الحي القيوم، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: صفتان عظيمتان، فالحي هذه الصفة ترجع إليها صفة الخلق والإيجاد والتدبير؛ لأنه سبحانه حي.

قيوم - وفي قراءة قِيَّام - أي قائم بأمور عباده فيما يصلحهم وما يرزقهم وما يبقئهم، فهذان الاسمان تدور عليهما أسماء الله وصفاته، ولهذا جاء أن هذين الاسمين هما الاسم الأعظم: الحي القيوم.



وكذلك أفلاطون. كان معروفاً بالتوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وإثبات حدوث العالم وكان تلميذ سقراط، ولما هلك سقراط قام مقامه، وجلس على كرسيه.

وكان يقول إن للعالم صانعاً محدثاً، مبدعاً أزلياً، واجباً بذاته عالماً بجميع المعلومات.

وقال: وليس في الوجود رسم ولا تطل إلا ومثاله عند الباري تعالى. يشير إلى وجود صور المعلومات في علمه.

فهو مثبت للصفات، وحدث العالم. ومنكر لعبادة الأصنام، ولكن لم يواجه قومه بالرد عليهم، وعيب آلهتهم فسكتوا عنه. وكانوا يعرفون له فضله وعمله، وصرح أفلاطون بحدوث العالم. كما كان عليه الأساطين، وحكى ذلك عنه تلميذه أرسطو، وخالفه فيه، فزعم أنه قديم، وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة، من المنتسبين إلى الملل وغيرهم، حتى انتهت النبوة إلى أبي على ابن سينا، فرام بجهدته تقريب هذا الرأي من قول أهل الملل، وهيئات اتفاق النقيضين، واجتماع الضدين.

فرسل الله تعالى وكتبه وأتباع الرسل في طرف. وهؤلاء القوم في طرف.

وكان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - قال: أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة الباطنية، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كذلك أفلاطون. كان معروفاً بالتوحيد، وإنكار عبادة الأصنام)، ثم جاء من عبد فيثاغورث: أفلاطون، وهذا قريب من منهج الأنبياء، وهو على الحكمة يعني يتصف بالحكمة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان يقول إن للعالم صانعاً محدثاً، مبدعاً أزلئياً، واجباً بذاته عالماً بجميع المعلومات)، وهذا إقرار بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (حتى انتهت النوبة إلى أبي علي ابن سينا، فرام بجهدته تقريب هذا الرأي من قول أهل الملل)، ابن سينا هذا ملحد، لكنه متضلع في علم الحكمة والعلوم التي في وقته، وإلا فهو ملحد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - قال: أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة الباطنية، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى)، هذا دين ابن سينا، ليس له دين إنما هو ملحد. وهو مشهور بعلم الطب.



وكان هؤلاء الزنادقة، يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض، ويتنسبون إلى أهل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وهو وأهل بيته براء منهم نسباً ودينًا.

وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الإلحاد والشرك والكفران، لا يجرمون حرامًا، ولا يجلون حلالًا. وفي زمنهم ولخواصهم وُضعت رسائل إخوان الصفا.

ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك، والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعين، والسحرة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي زمنهم ولخواصهم وُضعت رسائل إخوان الصفا)، إخوان الصفا هؤلاء مجموعة من الملاحدة اجتمعوا ووضعوا رسائل في الفلسفة تسمى رسائل إخوان الصفا، وهي مشحونة بالكفر والإلحاد، ويسمونها الحكمة، هذه رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء.

لما خشوا من الناس في وقتهم اجتمعوا وأسروا أمرهم - أخفوه - وكتبوا رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء بزعمهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك، والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسي)، هو اسمه: نصير الدين، لكن سُمِّيَ نصير الكفر وهو شيعي، وكان بالغاً في الإلحاد مبلغاً بعيداً -نعوذ بالله-، ولذلك سموه نصير الكفر، ليس نصير التوحيد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (النصير الطوسي وزير هولاء)، الذي قتل المسلمين قتلاً ذريعاً وأبادهم بمشورة هذا الخبيث.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين)، قتل الخليفة العباسي، آخر العباسيين، وبذلك ضاعت دولة العباسيين.



ونقل أوقاف المدارس والمساجد، والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ: من علمه، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة، واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن فلم يقدر على ذلك، فقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحرًا يعبد الأصنام.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونصر في كتبه قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ: من عمله، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة)، هذا دين نصير الدين الطوسي، وهو نصير الكفر.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن)، ابن سينا له كتاب اسمه الإشارات في الفلسفة الملحدة، رام هذا الخبيث أن يجعله محل القرآن، ويلزم الناس بدراسته والعمل به.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال: هي قرآن الخواص. وذاك قرآن العوام)، القرآن الذي من الله هذا قرآن العوام، وأما الخواص الذين عندهم معرفة كتاب الإشارات لابن سينا، ﴿يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتعلم السحر في آخر الأمر. فكان ساحرًا يعبد الأصنام)، أسهل وأهون ما عنده السحر، مع عظم كفر السحر.

وصارعه محمد الشهرستاني في كتاب سماه «المصارعة» أبطل فيه قوله
 بقدوم العالم وإنكار المعاد، ونفى علم الرب تعالى وقدرته، وخلقه للعالم، فقام
 له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه «مصارعة المصارع» ووقفنا على
 الكتابين - نصر فيه: أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض في ستة أيام. وأنه
 لا يعلم شيئاً، وأنه لا يفعل بقدرته واختياره، ولا يبعث من في القبور.
 وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله،
 وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وصارعه محمد الشهرستاني في كتاب سماه «المصارعة»
 أبطل فيه قوله بقدوم العالم وإنكار المعاد، ونفى علم الرب تعالى وقدرته،
 وخلقه للعالم)، الشهرستاني له كتاب الملل والنحل أبطل فيها قول هذا الملحد
 الخبيث ابن سينا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين
 الكافرين بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر)، هذا الطوسي.



والفلسفة التي يقرؤها أتباع هؤلاء اليوم هي مأخوذة عنه وعن إمامه ابن سينا، وبعضها عن أبي نصر الفارابي، وشيء يسير منها من كلام أرسطو. وهو - مع قلته وغثائه وركاكة ألفاظه - كثير التطويل، لا فائدة فيه.

وخيار ما عند هؤلاء، فالذي عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم خير منهم؛ فإنهم يدأبون حتى يثبتوا واجب الوجود، ومع إثباتهم له فهو عندهم وجود مطلق، لا صفة له ولا نعت، ولا فعل يقوم به، لم يخلق السموات والأرض بعد عدمها، ولا له قدرة على فعل، ولا يعلم شيئاً، وعباد الأصنام كانوا يثبتون رباً خالقاً مبدعاً عالماً، قادراً حياً، ويشركون به في العبادة.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والفلسفة التي يقرؤها أتباع هؤلاء اليوم هي مأخوذة عنه وعن إمامه ابن سينا، وبعضها عن أبي نصر الفارابي)، أبو نصر الفارابي معلم الفلسفة، يسمونه المعلم الثاني، وأرسطو المعلم الأول.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وخيار ما عند هؤلاء، فالذي عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم خير منهم)، لأن كفار قريش يؤمنون بتوحيد الربوبية، يؤمنون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، أما هؤلاء فينكرون ذلك، ويقولون إن الطبيعة هي التي توجد هذه الأشياء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعباد الأصنام كانوا يثبتون رباً خالقاً مبدعاً عالماً، قادراً حياً، ويشركون به في العبادة)، إنما يشركون به في العبادة، أما توحيد الربوبية فهم مقرون أنه لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فنهاية أمر هؤلاء الوصول إلى شيء برز عليهم فيه عباد الأصنام وهم فرق شتى لا يحصيهم إلا الله عَزَّجَلَّ.

وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم اثنتي عشرة فرقة، كل فرقة منها مختلفة اختلافاً كثيراً.

فمنهم أصحاب الرواق، وأصحاب الظلة، والمشائون، وهم شيعة أرسطو. وفلسفتهم هي الدائرة اليوم بين الناس، وهي التي يحكيها ابن سينا والفارابي، وابن الخطيب وغيرهم.

ومنهم الفيثاغورثية، والأفلاطونية، ولا تكاد تجد منهم اثنين متفقين على رأى واحد، بل قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة. ومقالاتهم أكثر من أن نذكرها على التفصيل.

وبالجملة: فملاحظتهم هم أهل التعطيل المحض. فإنهم عطلوا الشرائع، وعطلوا المصنوع عن الصانع، وعطلوا الصانع عن صفات كماله، وعطلوا العالم عن الحق الذي خلقه له ربه، فعطلوه عن مبدئه ومعاده، وعن فاعله وغايته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فنهاية أمر هؤلاء الوصول إلى شيء برز عليهم فيه عباد الأصنام وهم فرق شتى لا يحصيهم إلا الله عَزَّجَلَّ)، وهكذا الباطل، لانهاية له يتقسم ويتنوع؛ لأنه خاضع للأفكار كل له فكر، ولا يتبعون الأنبياء، ولا يتبعون الوحي المنزل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهي التي يحكيها ابن سينا والفارابي، وابن خطيب الري وغيرهم)، ابن الخطيب هو الرازي.

ثم سرى هذا الداء منهم في الأمم، وفي فرق المعطلة.

فكان منهم إمام المعطلين فرعون، فإنه أخرج التعطيل إلى العمل، وصرح به، وأذن به بين قومه، ودعا إليه، وأنكر أن يكون لقومه إله غيره.

وأنكر أن يكون الله تعالى فوق سماواته على عرشه، وأن يكون كلم عبده موسى تكليماً، وكذب موسى في ذلك.

وطلب من وزيره هامان أن يبنى له صرحاً ليطلع -بزعمه- إلى إله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكذبه في ذلك.

فاقتدى به كل جهمي مكذب أن يكون الله مكلماً متكلماً، أو أن يكون فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، ودرج قومه وأصحابه على ذلك، حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق، وجعلهم عبرة لعباده المؤمنين، ونكالا لأعدائه المعطلين.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فكان منهم إمام المعطلين فرعون، فإنه أخرج التعطيل إلى العمل، وصرح به، وأذن به بين قومه، ودعا إليه، وأنكر أن يكون لقومه إله غيره)، قال فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. هذا أشد الكفر -والعياذ بالله-، ادعى الربوبية.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنكر أن يكون الله تعالى فوق سماواته على عرشه، وأن يكون كلم عبده موسى تكليماً، وكذب موسى في ذلك)، معروف ما حصل

بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون من المشادة ومما حاول فيه أن يقتل موسى، يقول لقومه: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يظهر في الأرض الفساد، وفرعون يظهر فيها الصلاح؟! هذا من انتكاس الفطر. لكن ماذا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

فحصل ما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أهلك الله عدوهم، واستخلفهم في الأرض، وأعطاهم الملك بعد أن كانوا مستذلين ومستعبدين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطلع -بزعمه- إلى إله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكذبه في ذلك)، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنِي﴾: وزيره، ﴿أَبْنِ لِي صَرْحًا﴾: صرحًا يعني بنية مرتفعة.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كُذِّبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. يريد أن يبني بناء يصل إلى السماء ويبحث عن إله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا كذب، لكنه يريد الانتصار لنفسه والترويج على قومه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فاقتدى به كل جهمي مكذب)، الجهمية هذه الفرقة المارقة على مذهب فرعون ينكرون الصفات، وينكرون الأسماء والصفات فهم على مذهب فرعون.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ودرج قومه وأصحابه على ذلك، حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق)، أهلكهم الله جَلَّ وَعَلَا بالغرق في البحر، وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل من مصر فراراً بدينهم، فلحق بهم فرعون وقومه حتى وصلوا إلى البحر، فصار المسلمون أمامهم البحر وخلفهم العدو، وقالوا: ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

قالوا للموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

البحر أماننا والعدو خلفنا، فماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر، فضربه بعصاه فتجمد البحر، وصار طرقاتاً على قدر فرق المسلمين جامداً، يمشون وينظر بعضهم إلى بعض؛ لأن الماء المتجمد شفاف ينظر بعضهم إلى بعض.

فلما تكاملوا خارجين لحق بهم فرعون وقومه، فلما تكاملوا داخلين أطبق الله عليهم البحر، وعاد كما كان ماءً أغرقهم عن آخرهم، وأنجى الله موسى وقومه.



ثم استمر الأمر على عهد نبوة موسى كلیم الرحمن، على التوحيد وإثبات الصفات، وتكليم الله لعبده موسى تكليماً.

إلى أن توفي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودخل الداخل على بني إسرائيل، ورفع التعطيل رأسه بينهم، وأقبلوا على علوم المعطلة، أعداء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقدموها على نصوص التوراة، فسَلَّطَ اللهُ تعالى عليهم من أزال ملكهم وشردهم من أوطانهم، وسبى ذراريهم، كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا عرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم.

كما سَلَّطَ النصارى على بلاد العرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم. وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق، سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم استمر الأمر على عهد نبوة موسى كلیم الرحمن، على التوحيد وإثبات الصفات، وتكليم الله لعبده موسى تكليماً)، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خصه الله: بأن الله يكلمه مباشرة من غير واسطة الملك، جبريل، فكلمه الله مباشرة ويسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامه، ويأمره وينهاه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، يا موسى، يا موسى...

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأقبلوا على علوم المعطلة، أعداء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقدموها على نصوص التوراة، فسلط الله تعالى عليهم من أزال ملكهم وشردهم من أوطانهم، وسبى ذراريهم)، سلَّط الله المجوس على بني إسرائيل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم)، والآن ينادون بتقرير الفلسفة في المدارس.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق، سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها)، كلما ظهر الفساد في الأرض؛ بعث الله من ينتقم لدينه من الظلمة، الظالم يسلمه الله على هؤلاء الذين أنكروا دينهم وغيروا فيه وبدلوا، يسلم الله عليه عدوهم الذي هو كافر لا يؤمن بالله.

المؤمن يخاف من الله عَزَّجَلَّ، لكن هذا كافر لا يخاف فيبش بهم البطشة المهلكة - والعياذ بالله -.

وفي الأثر أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»^(١).



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (ص ٣٧) عن الفضيل بن عياض قال: ... فذكره.

وكذلك في أواخر المائة الثالثة، وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سلط الله عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات واستولوا على الحاج، واستعرضوهم قتلاً وأسراً، واشتدت شوكتهم.

واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء والكتاب، والأدباء وغيرهم.

واستولى أهل دعوتهم على بلاد الغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر، وبنيت في أيامهم القاهرة، واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب، وخطب لهم على منبر بغداد.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك في أواخر المائة الثالثة، وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سلط الله عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات واستولوا على الحاج، واستعرضوهم قتلاً وأسراً)، دخلوا مكة وقت الحج وقتلوا الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، ثم خرجوا إليهم في عرفة وهم واقفون فقتلوهم -والعياذ بالله-، هذا مذهب القرامطة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واستولى أهل دعوتهم على بلاد الغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر)، هؤلاء الفاطميون.

والمقصود أن هذا الداء لما دخل في بني إسرائيل كان سبب دمارهم وزوال مملكتهم، ثم بعث الله سبحانه عبده ورسوله وكلمته المسيح ابن مريم، فجدد لهم الدين وبين لهم معاملة، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، والتبرّي من تلك الأحداث، والآراء الباطلة.

فعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالعظائم، وراموا قتله، فطهره الله تعالى منهم، ورفعته إليه، فلم يصلوا إليه بسوء.

وأقام الله تعالى للمسيح أنصاراً دعوا إلى دينه وشريعته، حتى ظهر دينه على من خالفه، ودخل فيه الملوك، وانتشرت دعوته، واستقام الأمر على السداد بعده نحو ثلاثمائة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير، حتى تناسخ واضمحلاً، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبّاد الأصنام وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسّدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح، كالختان، والاغتسال من الجنابة، وتعظيم السبت وتحريم الخنزير، وتحريم ما حرّمته التوراة، إلا ما أحلّ لهم بنصّها.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق)، ولذلك يستقبل النصارى الآن المشرق في صلاتهم.

ثم تناسخت الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير، وأحلوا السبت، وعضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان، والاعتسال من الجنابة.

وكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصَلِي إلى بيت المقدس، فصلوا هم إلى المشرق، ولم يعظم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صليبيًا قط، فعظموا هم الصليب وعبدوه.

ولم يصم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صومهم هذا أبدًا، ولا شرعه، ولا أمر به البتة بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضًا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية.

وتعبدوا بالنجاسات، وكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في غاية الطهارة والطيب والنظافة، وأبعد الخلق عن النجاسة، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود، ومراغمتهم.

فغيروا دين المسيح، وتقربوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام، بأن وافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم به، وليستنصروا بذلك على اليهود.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصَلِي إلى بيت المقدس، فصلوا هم إلى المشرق)، خالفوه في القبلة، المسيح كغيره من الأنبياء يصلون إلى بيت المقدس القبلة الأولى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يعظم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صليبيًا قط، فعظموا هم الصليب وعبدوه)، والصليب: هو مجسم على صورة إنسان يزعمون أن المسيح

مصلوب، وأن اليهود قتلوه وصلبوه، فصوروا صورة للمسيح مجسمة وهو
مصلوب وفيه مسامير برجليه.

وهذا من غباوتهم أنهم فضحوا أنفسهم، كان الواجب أنهم يكسرون
كل صليب على وجه الأرض؛ لأنه فضيحة عليهم، ومع هذا يفتخرون به
ويعلقونه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يصم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صومهم هذا أبداً، ولا شرعه،
ولا أمر به البتة)، يعني صوم يوم السبت.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد
عوضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية)، يريدون البراد،
نقلوا الصوم من وقته إلى وقت الربيع والبراد وزادوا فيه، تعويضاً عن النقل،
فجمعوا بين الزيادة والتغيير -والعياذ بالله-.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتعبدوا بالنجاسات)، النصارى يتعبدون بالنجاسات،
ويظنون أن هذا تواضع وفيه عبادة لله عَزَّجَلَّ، يلطخون أنفسهم بالنجاسات،
ولا يتطهرون منها، وهذا من إهانة الله لهم.



ولما أخذ دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً، ثم يتفرقون على الاختلاف والتلاعن يلعن بعضهم بعضاً، حتى قال فيهم بعض العقلاء: «لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً». حتى جمعهم قسطنطين^(١) الملك آخر ذلك، من الجزائر والبلاد، وسائر الأقطار. فجمع كل بترك وأسقف وعالم، فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر.

فقال: أنتم اليوم علماء النصرانية، وأكابر النصارى فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية، ومن خالفها لعنتموه، وحرتموه.

فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا، واتفقوا على وضع الأمانة التي بأيديهم اليوم، وكان ذلك بمدينة نيقية، سنة خمس عشرة من ملك قسطنطين.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولما أخذ دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً)، يريدون إصلاح ما فسد من الدين. قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك، من الجزائر والبلاد)، من الجزائر: يعني الجزر ليست الجزائر البلد المعروفة، وإنما الجزر.



(١) انظر: الجواب الصحيح (٤/٢٢٢).

وكان أحد أسباب ذلك أن بطريق الإسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة ولعنه، فخرج أريوس إلى قسطنطين الملك مستعدياً عليه، ومعه أسقفان فشكوه إليه، وطلبوا مناظرته بين يدي الملك. فاستحضره الملك، وقال لأريوس: اشرح مقالتك.

فقال أريوس: أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الابن، فكان كلمة له، إلا أنه محدث مخلوق، ثم فوض الأمر إلى ذلك الابن المسمى كلمة.

فكان هو خالق السماوات والأرض وما بينهما كما قال في إنجيله، إذ يقول «وهب لي سلطاناً على السماوات والأرض». فكان هو الخالق لهما بما أُعطي من ذلك.

ثم إن تلك الكلمة بعد اتحدت من مريم العذراء ومن روح القدس. فصار ذلك مسيحاً واحداً. فالمسيح الآن معنيان: كلمة، وجسد، إلا أنهما جميعاً مخلوقان.

فقال بطريق الإسكندرية -حبرياً-: أيما أوجب علينا عندك؟ عبادة من خلقنا، أو عبادة من لم يخلقنا؟.

فقال أريوس: بل عبادة من خلقنا.

فقال: فعبادة الابن الذي خلقنا -وهو مخلوق- أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تصير عبادة الأب الخالق كفرًا. وعبادة الابن المخلوق إيمانًا.

فاستحسن الملك والحاضرون مقاتته، وأمرهم الملك أن يلعنوا أريوس
وكل من يقول مقاتته.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقال أريوس: أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم
أحدث الابن)، إن الأب: يعني الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فالمسيح الآن معنيان: كلمة، وجسد)، المسيح كلمة،
سُمِّيَ كلمة لأنه وُجِدَ بكلمة، بقوله: «كن»، كلمة، فسُمِّيَ كلمة الله، ليس له
أب، وإنما خلق بكلمة فسُمِّيَ كلمة الله.



فلما انتصر البطريق قال للملك: استحضر البطارقة والأساقفة، حتى يكون لنا مجمع ونصنع قصة نشرح فيها الدين ونوضحه للناس.

فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق فاجتمع عنده بعد سنة وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا. وكانوا مختلفي الآراء متباينين في أديانهم. فلما اجتمعوا كثر اللغظ بينهم، وارتفعت الأصوات، وعظم الاختلاف فتعجب الملك من شدة اختلافهم. فأجرى عليهم الأنزال، وأمرهم أن يتناظروا حتى يعلم الدين الصحيح مع من منهم. فطالت المناظرة بينهم.

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا على رأى واحد. فناظروا بقية الأساقفة، فظهروا عليهم. فعقد الملك لهؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر مجلسًا خاصًا وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم. وقال لهم: قد سلطتكم على المملكة. فاصنعوا ما بدا لكم مما فيه قوام دينكم، وصلاح أمتكم. فباركوا عليه وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه. ودفعوا إليه الأمانة التي اتفقوا على وضعها. فلا يكون عندهم نصراني من لم يقرَّ بها. ولا يتم لهم قربان إلا بها، وهي هذه:

«نؤمن بالله الواحد الأب، مالك كل شيء، صانع ما نرى وما لا نرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي وُلِدَ من أبيه قبل العوالم كلها. وليس بمصنوع.

إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء الذي من أجلنا - معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء

وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً ومُحَلِّ به، ثم وُلِدَ من مريم البتول، وألم، وشُجِّ، وقُتِلَ، وصُلِبَ، ودُفِنَ.

وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسيّة جاثليقيّة، وبقيامه أبداننا والحياة الدائمة إلى أبد الأبدين».

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وخلق كل شيء الذي من أجلنا - معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس)، ولذلك يسمون عيسى بالمخلص؛ لأنه نزل من السماء، وخلصهم من الخلف الذي هم فيه - بزعمهم - يسمونه المخلص.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتجسد من روح القدس)، يعني جبريل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه)، التي يسمونها كنيسة القيامة في فلسطين، يزعمون أن المسيح قام من قبره حياً وصعد إلى السماء، وهذا كله من الكذب والافتراء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء)، المجيء: ينزل عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر الزمان، ويحكم بدين الإسلام ويكون مجدداً لدين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو آخر المجددين.

فهذا العقد الذي أجمع عليه الملكية والنسطورية، واليعقوبية.

وهذه الأمانة التي ألفها أولئك البتاركة، والأساقفة، والعلماء، وجعلوها شعار النصرانية. وكان رؤساء هذا المجمع بترك الإسكندرية، وبترك أنطاكية، وبترك بيت المقدس. فافترقوا عليها، وعلى لعن من خالفها، والتبري منه، وتكفيره. ثم ذهب أريوس يدعو إلى مقالته، وينفر النصارى عن أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر. فجمع جمعًا عظيمًا، وصاروا إلى بيت المقدس، وخالف كثير من النصارى لأولئك المجمع.

فلما اجتمعوا قال أريوس: إن أولئك نفر تعدوا عليّ، وظلموني، ولم ينصفوني في الحجاج، وحرموني ظلماً وعدواناً. ووافقه كثير من الذين معه. وقالوا: صدق. فوثبوا عليه فضربوه، حتى كاد أن يقتل لولا ابن أخت الملك خلصه. وافترقوا على هذه الحال. ثم كان لهم مجمع ثالث بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول. اجتمع الوزراء والقواد إلى الملك، وقالوا: إن مقالة الناس قد فسدت، وغلب عليهم مقالة أريوس، فاكتب إلى جميع البتاركة والأساقفة: أن يجتمعوا، ويوضحوا دين النصرانية، فكتب الملك إلى سائر بلاده. فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا. وكان مقدموهم بترك الإسكندرية، وبترك أنطاكية، وبترك بيت المقدس. فنظروا في مقالة أريوس.

وكان من مقالته: أن روح القدس مخلوق مصنوع، ليس بإله.

فقال بترك الإسكندرية: ليس لروح القدس عندنا معنى غير روح الله

تعالى وليس روح الله تعالى شيئاً غير حياته.

فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق.

وإذا قلنا: إن روح الله مخلوقة، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. فقد جعلناه غير حي. ومن جعله غير حي فقد كفر. ومن كفر وجب عليه اللعن. فلعنوا بأجمعهم أريوس وأشباعه وأتباعه، والبتاركة الذين قالوا بمقالته، وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق، إله حق، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد، وطبيعة واحدة.

وزادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثائة والثمانية عشر أسقفًا.
قالوا: «ونؤمن بروح القدس الرب المحيي المميت، المنبثق من الأب، الذي مع الابن والأب، وهو مسجود ومُجَدَّد».

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فهذا العقد الذي أجمع عليه الملكية والنسطورية، واليعقوبية)، من فرق النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإذا قلنا: إن روح الله مخلوقة، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. فقد جعلناه غير حي. ومن جعله غير حي فقد كفر. ومن كفر وجب عليه اللعن)، عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ روح مخلوقة بنفخة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر الله، نفخ في درع مريم، فوصلت النفخة إلى فرجها فحملت، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾: يعني في فرجها، ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]: يعني من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهو نفخة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وصلت إلى فرج أمه فحملت به، فلذلك يسمى روح الله، ويسمى كلمة الله.

وكانوا في الأمانة الأولى «وبروح القدس فقط».

وبينوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص، وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة، وزادوا ونقصوا في الشريعة. وأطلق بترك الإسكندرية للربان والأساقفة والبتاركة أكل اللحم وكانوا على مذهب ماني، لا يرون أكل ذوات الأرواح.

فانفض هذا المجمع وقد لعنوا فيه أكثر أساقفتهم وبتاركتهم، ومضوا على تلك الأمانة.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وبينوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاث وجوه، وثلاثة خواص، وحدة في تثليث وتثليث في وحدة)، يقول واحد من علمائهم: أنا في حيرة من قولهم ثلاثة، الآلهة ثلاثة في واحد، واحد في ثلاثة. يقول: لم أتصور هذا، عجزت عن تصور هذا، ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة، الواحد يصير ثلاثة أو الثلاثة يصيرون واحد؟! هذا لا يمكن.

يقول: حتى سمعت قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. يقول: فزال عني هذا الإشكال تمامًا من هذه السورة العظيمة الموجزة.



ثم كان لهم مجمع رابع بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع على نسطورس.

وكان مذهبه: «أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة، ولكن ثمة اثنان: إله الذي هو موجود من الأب، والآخر إنسان الذي هو موجود من مريم. وأن هذا الإنسان الذي نقول إن المسيح متوحد مع أب الإله وابن الإله ليس ابناً على الحقيقة. لكن على سبيل الموهبة والكرامة، واتفق الاسمين». فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد، فجرت بينهم مراسلات. واتفقوا على تخطئته. واجتمع منهم مائتا أسقف في مدينة أفسيس، وأرسلوا إلى نسطورس للمناظرة. فامتنع ثلاث مرات.

فأوجبوا عليه الكفر، فلعنوه، ونفوه وحرموه، وثبتوا «أن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح إله حق، وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد في الأقوم». فلما لعنوا نسطورس غضب له بترك أنطاكية. فجمع أساقفته الذين قدموا معه، وناظرهم، فقطعهم، فتقاتلوا.

ووقع الحرب والشر بينهم، وتفاقم أمرهم. فلم يزل الملك حتى أصلح بينهم. فكتب أولئك صحيفة «أن مريم القدسية ولدت إلهاً، وهو ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أمه في الطبيعة، ومع الناس في الناسوت». وأنفذوا لعن نسطورس.

فلما نُفي نسطورس سار إلى أرض مصر، وأقام بإخميم سبع سنين، ودُفِنَ بها، ودرست مقالته، إلى أن أحيها ابن صرما، مطران نصيين، وبثها في بلاد المشرق فأكثر نصارى العراق والمشرق نسطورية.

وانفض ذلك المجمع أيضاً على لعن نسطورس، ومن قال بقوله.
وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضلال، وتفرق على اللعن. فلا ينفض
المجمع إلا وهم ما بين لاعن وملعون.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وثبتوا «أن مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح إله حق)، هل
الإله يولد؟ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۗ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ [الإخلاص: ٣، ٤]. الإله يكون في بطن امرأة ويخرج مع
فرجها؟! تعالى الله عن ذلك.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فكتب أولئك صحيفة «أن مريم القدسية ولدت إلهًا، وهو
ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعة، ومع الناس في الناسوت»)،
يقولون: اتحد اللاهوت بالناسوت، اللاهوت الله، والناسوت مريم.



ثم كان لهم مجمعٌ خامس، وذلك أنه كان بالقسطنطينية طيب رهاب
يقال له: أوطيسوس، يقول: إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة،
وإن المسيح قَبْلَ التَّجَسُّدِ طبيعتان، وبعد التجسد طبيعة واحدة، وهذه مقالة
اليعقوبية.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم كان لهم مجمعٌ خامس)، يعني لليهود، المجمع اليهودية،
مجامع خبيثة، اليهود لهم مجامع خبيثة يكيدون للبشرية، ولكن الله فضحهم،
وبين كيدهم؛ حتى يسلم المسلمون من شرهم في كل زمان ومكان.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذلك أنه كان بالقسطنطينية طيب رهاب يقال له: أوطيسوس،
يقول: إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة)، وهذا من الغلو في المسيح
عَلَيْهِ السَّلَامُ، من غلو اليهود في المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يقول: إن المسيح ليست طبيعته كطبيعتنا، ولا خلقته كخلقنا مع أن
الله سماه عيسى ابن مريم؛ لأنه ليس له أبٌّ، وإنما هو من نفثة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ
في أمه؛ أمره الله أن ينفث في مريم، فحملت بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو روح الله،
وكلمة الله ألقاها إلى مريم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن المسيح قَبْلَ التَّجَسُّدِ طبيعتان، وبعد التجسد طبيعة
واحدة)، هذا كلام باطل، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ آدمي كبني آدم، وإنما فضله الله
بالنبوة، وفضله بأنه من روح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهذه مقالة اليعقوبية)، اليعقوبية: فرقة من النصارى.

فرحل إليه أسقف دولته، فناظره فقطعه، وأدخض حُجَّتَهُ.
ثم سار إلى قسطنطينية، فأخبر بتركها بالمناظرة وبانقطاعه، فأرسل بترك
الإسكندرية إليه، فاستحضره، وجمع جمعاً عظيماً، وسأله عن قوله.
فقال: إن قلنا: إن المسيح طبيعتان فقد قلنا بقول نسطورس، ولكننا نقول:
إن المسيح طبيعة واحدة، وأقنومٌ واحد؛ لأنه من طبيعتين كانتا قبل التجسد،
فلما تجسّد زالت عنه الاثنيتيَّة، وصار طبيعةً واحدةً، وأقنومًا واحدًا.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فرحل إليه أسقف دولته، فناظره فقطعه، وأدخض
حُجَّتَهُ)، والأسقف: هو الرئيس عند النصارى.

يقول كذا: إنه رحل إليه الأسقف الذي هو رئيس النصارى، فناظره،
فخصمه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا من الكذب، هذا من كذب النصارى
وافتراءهم، وهم أصحاب الكذب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إن المسيح طبيعة واحدة، وأقنومٌ واحد؛ لأنه من طبيعتين
كانتا قبل التجسد، فلما تجسّد زالت عنه الاثنيتيَّة، وصار طبيعةً واحدةً،
وأقنومًا واحدًا)، هذا من كذب اليهود على المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما هو كبني
آدم، آدمي كبني آدم.



فقال له بترك القسطنطينية: إن كان المسيح طبيعةً واحدةً فالطبيعةُ القديمة هي الطبيعة المحدثّة، وإن كان القديم هو المحدث فالذي لم يَزَلْ هو الذي لم يَكُنْ، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث لكان القائم هو القاعد، والحارُّ هو البارد. فأبى أن يرجع عن مقالته، فلعنوه، فاستعدى إلى الملك، وزعم أنهم ظلّموه، وسأله أن يكتب إلى جميع البتاركة للمناظرة.

فاستحضر الملك البتاركة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة أفسيس، فثبّت بطريق الإسكندرية مقالة أوطيسوس، وقطع بتاركة القسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس، وسائر البتاركة والأساقفة، وكتب إلى بترك رومية وإلى جماعة البتاركة والأساقفة، فحرّمهم ومنعهم من القربان إن لم يقبلوا مقالة أوطيسوس. ففسدت الأمانة، وصارت المقالة مقالة أوطيسوس، وخاصة بمصر والإسكندرية، وهو مذهب اليعقوبية.

فافترق هذا المجمع الخامس وهم ما بين لاعنٍ وملعونٍ، وضالٍّ ومُضِلٌّ، وقائلٍ يقول: الصواب مع اللاعنين، وقائلٍ يقول: الحقُّ مع الملاعين.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقال له بترك القسطنطينية: إن كان المسيح طبيعةً واحدةً فالطبيعةُ القديمة هي الطبيعة المحدثّة، وإن كان القديم هو المحدث فالذي لم يَزَلْ هو الذي لم يَكُنْ، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث لكان القائم هو القاعد، والحارُّ هو البارد)، هذا من الكذب على عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والكذب مهنة اليهود.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكتب إلى بترك رُومية وإلى جماعة البتاركة والأساقفة، فحَرَمَهُمْ ومنعهم من القُرْبَانِ إن لم يقبلوا مقالة أوطيسوس)، يعني هددهم بأن يلزموا هذه المقالة الباطلة بالمسيح، وإلا فإنه سيقاطعهم ويبيدهم، وهذا من كيد النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وصارت المقالة مقالة أوطيسوس، وخاصة بمصر والإسكندرية، وهو مذهب اليَعْقُوبِيَّةِ)، مذهب باطل في حقيقة المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنه آدمي ولدته امرأة من بني آدم، فهو آدمي، وروحه كأرواح بني آدم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فافترق هذا المجمع الخامس وهم ما بين لاعنٍ وملعونٍ، وضالٌّ ومُضَلٌّ، وقائلٍ يقول: الصواب مع اللاعنين، وقائلٍ يقول: الحقُّ مع الملاعين)، هذا من اختلاف النصارى، ومن كذبهم في حقيقة المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فاfterق هذا المجمع الخامس وهم ما بين لاعنٍ وملعونٍ، وضالٌّ ومُضَلٌّ)، وهذه طبيعة الضالين المنحرفين أنهم ليس أحدٌ منهم على جادة واضحة، وكل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها، وهذا من كيد الشيطان لهم، من مصائد الشيطان التي اصطادهم بها.

والحمد لله الحق واضح، والمسيح هو ابن مريم آدمي خلقه الله مما يخلق منه البشر بنفخة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم كان لهم بعد هذا مجمع سادسٌ في دولة مرقيون .
فإنه اجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد، فأعلموه ما كان من ظلم ذلك
المجمع، وقلة الإنصاف، وأن مقالة أوطيسوس قد غلبت على الناس، وأفسدت
دين النصرانية، فأمر الملك باستحضار سائر البطاركة والمطارنة والأساقفة إلى
حضرته، فاجتمع عنده ست مئة وثلاثون أسقفًا، فنظروا في مقالة أوطيسوس
وبترك الإسكندرية، التي قطع بها جميع البطاركة، فأفسدوا مقالاتها ولعنوها،
وأثبتوا «أن المسيح إله وإنسان، ومع الله في اللاهوت، ومعنا في الناسوت، له
طبيعتان تامتان. فهو تامٌ باللاهوت، تامٌ بالناسوت، وهو مسيح واحد».

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأثبتوا «أن المسيح إله وإنسان، ومع الله في اللاهوت،
ومعنا في الناسوت، له طبيعتان تامتان. فهو تامٌ باللاهوت، تامٌ بالناسوت،
وهو مسيح واحد»)، لعنهم الله على هذه المقالات الباطلة.

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥]، أمه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ صِدِّيقَةٌ، ومقام الصديق
هو أعلى المقامات في بني آدم بعد النبوة، والصديق: كثير الصدق وكثير
التصديق بالحق، وهذه مرتبة لم ينالها في هذه الأمة إلا أبو بكر الصديق
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]، فمرتبة الصديقة بعد مرتبة النبوة، ﴿ مَنْ
النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾.

وثبتوا قول الثلاث مئة والثمانية عشر أُسْقَفًا، وقبلوا قولهم: «بأن الابن مع الله في المكان، وأنه إله حقُّ مع إله حقُّ». ولعنوا أريوس وقالوا: «إن روح القدس إله».

وقالوا: «إن الأب والابن وروح القدس واحدٌ بطبيعةٍ واحدةٍ، وأقانيم ثلاثة». وثبتوا قول أهل المجمع الثالث، وقالوا: «إن مريم العذراء ولدت إلهًا ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع الله في الطبيعة، ومعنا في الناسوت».

وقالوا: «إن المسيح طبيعتان، وأقنومٌ واحدٌ»، ولعنوا نسطورس، وبترك الإسكندرية. فانفضَّ هذا المجمع، وهم ما بين لاعنٍ وملعونٍ.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وثبتوا قول الثلاث مئة والثمانية عشر أُسْقَفًا، وقبلوا قولهم: «بأن الابن مع الله في المكان، وأنه إله حقُّ مع إله حقُّ»)، نسأل الله العافية.

يقولون: المسيح إله حق مع الله جَلَّ وَعَلَا؛ وهذا من كذبهم وضلالهم وافتراءهم؛ فالمسيح بين الله حقيقته في هذه الآية: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: «إن الأب والابن وروح القدس واحدٌ بطبيعةٍ واحدةٍ، وأقانيم ثلاثة»)، أقانيم: يعني صفات، واحد بثلاث صفات، وهذا من المستحيل أن يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، أبدًا، لا يكون الثلاثة

واحد، ولا الواحد ثلاثة، هذا من المستحيل، وهم يعتقدون هذا مع أنه مستحيل وكذب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَبَيَّنَّا قَوْلَ أَهْلِ الْمُجْمَعِ الثَّلَاثِ، وَقَالُوا: «إِنَّ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءَ وَلَدَتْ لَهَا رَبَّنَا يُسُوعَ الْمَسِيحَ»، اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ ۝ ٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴿﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

بين الله ذلك في هذه السورة الوجيزة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ١﴾ اللَّهُ الْأَصَمُّ ۝ ٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ ۝ ٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴿﴾ [الإخلاص: ١-٤]، هذه الآية أبطلت عقائد النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: «إِنَّ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءَ وَلَدَتْ لَهَا رَبَّنَا يُسُوعَ الْمَسِيحَ، الَّذِي هُوَ مَعَ اللَّهِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَمَعْنَى فِي النَّاسُوتِ»)، يقولون: اتحد الناسوت في اللاهوت - تعالى الله عما يقولون -: يعني اختلط الإنسان بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقالوا: «إِنَّ الْمَسِيحَ طَبِيعَتَانِ، وَأَقْنُومٌ وَاحِدٌ»)، أقنوم واحد: يعني شخص واحد، شخص واحد لكنه ثلاثة، كيف يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً؟! هذه عقيدتهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولعنوا نسطورس، وبترك الإسكندرية)، الحمد لله، أهل الباطل يتلاعنون ويكذب بعضهم بعضاً، وأهل الحق يتناصرون ويؤيد بعضهم بعضاً؛ لأنهم على طريق إلهي واضح، لا يختلفون.



ثم كان لهم بعد هذا مجمع سابع في أيام أنسطاس الملك.

وذلك أن سورس القسطنطين جاء إلى الملك، فقال: إن أصحاب ذلك المجمع الست مئة والثلاثين قد أخطئوا، والصواب ما قاله أوطيسوس وبترك الإسكندرية، فلا تقبل ممن سواهما، واكتب إلى جميع بلادك أن العنوا الست مئة والثلاثين، وأن يأخذوا الناس بطبيعة واحدة ومشية واحدة وأقنوم واحد، فأجابه الملك إلى ذلك.

فلما بلغ بترك بيت المقدس جمع الرهبان، فلعنوا أنسطاس الملك، وسورس، ومن يقول بمقاتلتهما، فبلغ ذلك الملك، فغضب، وبعث فنفي البترك إلى أيلة. وبعث يوحنا بتركًا على بيت المقدس؛ لأنه كان قد ضمن للملك أن يلعن الست مئة والثلاثين. فلما قدم إلى بيت المقدس اجتمع الرهبان، وقالوا: إياك أن تقبل سورس، ولكن قاتل عن الست مئة والثلاثين ونحن معك، ففعل، وخالف الملك. فلما بلغه أرسل قائدًا وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك، فإن لم يفعل أنزله عن الكرسي ونفاه، فقدم القائد، وطرح يوحنا في الحبس، فصار إليه الرهبان في الحبس، وأشاروا عليه بأن يضمن للقائد أن يفعل ذلك، فإذا حضر فليقر بلعنة كل من لعنه الرهبان.

فاجتمع الرهبان وكانوا عشرة آلاف راهب، فلعنوا أوطيسوس، ونسطورس، وسورس، ومن لا يقبل من أولئك الست مئة والثلاثين.

ففرع رسول الملك من الرهبان، وبلغ ذلك الملك، فهم بنفي يوحنا، فاجتمع الرهبان والأساقفة، فكتبوا إلى الملك: أنهم لا يقبلون مقالة سورس، ولو أريق دماؤهم، وسألوه أن يكف أذاه عنهم.

وكتب بترك رومية إلى الملك بفتح فعله وبلعنه، فانفض هذا المجمع على اللعنة أيضًا. وكان لسورس تلميذ يقال له: يعقوب البراذعي؛ لأنه كان يلبس من قطع براذع الدواب، يرقع بعضها ببعض، وإليه ينسب اليعاقبة، فأفسد أمانة القوم. ثم هلك أنسطاس الملك، وولي بعد قسطنطين، فرد كل من كان نفاه أنسطاس إلى موضعه، وكتب إلى بيت المقدس بأمانته.

فاجتمع الرهبان، وأظهروا كتابه، وفرحوا به، وأثبتوا قول الست مئة والثلاثين أسقفًا، وغلبت اليعقوبية على الإسكندرية، وقتلوا بترًا يقال له: بولس، وكان ملكانيًا. فولى الملك إسطيانوس، فأرسل قائدًا ومعه عسكر عظيم إلى الإسكندرية، فدخل الكنيسة في ثياب البتركة، وتقدم وقدم، فرموه بالحجارة، حتى كادوا يقتلونه، فانصرف وتوارى عنهم.

ثم أظهر لهم بعد ثلاثة أيام أنه أتاه كتاب من الملك، وأمر الحرس أن يجمعوا الناس لسماعه، فلم يبق أحد بالإسكندرية حتى حضر لسماعه، وكان قد جعل بينه وبين جنده علامة إذا هو فعلها وضعوا السيف في الناس، فصعد المنبر.

وقال: يا معشر أهل الإسكندرية! إن رجعتم إلى الحق وتركتم مقالة اليعاقبة، وإلا لم تأمنوا أن يوجه الملك إليكم من يسفك دماءكم.

فرموه بالحجارة حتى خاف على نفسه، فأظهر العلامة، فوضعوا السيوف على من بالكنيسة، فقتل خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى، حتى خاض الجند في الدماء، وظهرت مقالة الملكانية بالإسكندرية.

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع ثامن.

وذلك أن أسقف مَنبِجَ كان يقول بالتناسخ، وأنه ليس ثمة قيامة ولا بعثٌ. وكان أسقف الرُّها وأسقف المِصِيصة وأسقف ثالث يقولون: إن جسد المسيح خيال غير حقيقة. فحشروهم الملك إلى قسطنطينية، فقال لهم بتركها: إن كان جسدهُ خيالاً فيجب أن يكون فعله خيالاً، وقوله خيالاً، وكل جسدٍ نعاينه لأحدٍ من الناس أو فعلٍ أو قولٍ فهو كذلك.

وقال له: إن المسيح قد قام من الموتى، وأعلمنا أنه كذلك يقومُ الناس يوم الدين.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقدِمُ القائد، وطرحُ يُوَحْنَا في الحبس)، يعني سجنوه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه لم ينزل على مقاتلهم، بل لزم ما قاله الله له.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذلك أن أسقف مَنبِجَ كان يقول بالتناسخ)، التناسخ: مذهب التناسخية أن الأرواح لا تموت، وإنما تذهب إلى أجساد أخرى، فإذا خرجت بالوفاة من شخص فإنها تذهب إلى شخص آخر، وهكذا لا تموت.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقال له: إن المسيح قد قام من الموتى، وأعلمنا أنه كذلك يقومُ الناس يوم الدين)، يقولون: إن المسيح قُتِلَ، ثم قام من القبر، يسمونها كنيسة القيامة: يعني قيام المسيح من القبر.

وهذا كذب وبهتان؛ فإن المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُقتل، ولم يسلطهم الله عليه رغم أنهم اجتمعوا مع مالكهم وحاصروه يريدون قتله، فرفعه الله من بينهم، رفعه الله إليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

أُلقي شبه المسيح على الذي دهم عليه، فقتلوا الذي دهم يظنون أنه المسيح، وهو ليس كذلك، وإنما عاقبه الله فألقى عليه شبه المسيح؛ عقوبة له على دلالتهم على مكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]: رفعه الله من بينهم، ولم يشعروا

بذلك.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: يعني قابضك، ليس

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: يعني بالموت، لا، التوفي هو القبض.

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ

الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعني من اليهود، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ

إِلَىٰ مَرَجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].



واحتج بنصوص من الإنجيل كقوله: «إن كل من في القبور إذا سمعوا قول الله سبحانه يَحْيُونَ». فأوجب عليهم اللعن، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنون فيه، واستحضر بتاركة البلاد. فاجتمع عنده مئة وأربعة وستون أسقفًا، فلعنوا أسقف مَنبج، وأسقف المصيصة، وثبّتوا: «أن جسد المسيح حقيقة لا خيال، وأنه إله تامُّ، وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيتين وفعالين، أقنومٌ واحدٌ، وأن الدنيا زائلة، وأن القيامة كائنة، وأن المسيح يأتي بمجد عظيم، فيدين الأحياء والأموات، كما قال الثلاث مئة والثانية عشر الأوائل»، فتفرقوا على ذلك.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (واحتج بنصوص من الإنجيل كقوله: «إن كل من في القبور إذا سمعوا قول الله سبحانه يَحْيُونَ»)، المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يكلم الموتى، المسيح عيسى بن مريم يكلم الموتى ويكلمونه، يردون عليه بما طلب منهم، وهذه من معجزاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وثبّتوا: «أن جسد المسيح حقيقة لا خيال»)، هذا هو الحق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأنه إله تامُّ)، هذا باطل، ليس إلهًا، وإنما هو ﴿رَسُولٌ اللَّهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيتين وفعالين، أقنومٌ واحدٌ)، أقنوم واحد: يعني جسد واحد، كيف يكون هذا؟

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأن الدنيا زائلة)، نعم، الدنيا زائلة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأن القيامة كائنة)، هذا حق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأن المسيح يأتي بمجد عظيم)، وهذا حق.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيدين الأحياء والأموات)، يدين: يعني يخطئهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما قال الثلاث مئة والثمانية عشر الأوائل)، فتفرقوا على

ذلك)، سبحان الذي أطلع الإمام ابن القيم على هذه المقالات وحصرها.



ثم كان لهم مجمعٌ تاسعٌ على عهد معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، تلاعنوا فيه. وذلك أنه كان بروميةً راهبٌ له تلميذان، فجاء إلى قَسْطَا الوالي، فَوَبَّخَهُ على قُبْحِ مذهبه وشناعة كُفْرِهِ، فأمر به قَسْطَا، فُقْطعت يداه ورجلاه، ونُزِعَ لسانه، وفُعل بأحد التلميذين كذلك، وُضِرَبَ الآخر بالسيّاط، ونفاه. فبلغ ذلك ملك قسطنطينية، فأرسل إليه أن يوجّه إليه من أفاضل الأساقفة؛ ليعلم وجه هذه الشبهة، ومَنْ كان ابتداءً بها، ويعلم من يستحق اللعن. فبعث إليه مئةً وأربعين أسقفًا، وثلاث مئة شماس، فلما وصلوا إليه جمع الملك مئة وثمانية وستين أسقفًا، فصاروا مئتين واثنين وتسعين، وأسقطوا الشمامسة.

وكان رئيس هذا المجمع: بَتْرُكُ قُسْطَنْطِينِيَّةِ وبترك أنطاكية، فلَعَنُوا مَنْ تقدّم من القديسين والبتاركة واحدًا واحدًا، فلما لعنواهم جلسوا، فلخّصوا الأمانة، وزادوا فيها، ونقصوا.

فقالوا: «نؤمن بأن الواحد من الناسوت الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية، الدائم المستوي مع الأب، الإله في الجَوْهَرِ، الذي هو رَبَّنَا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين، وفعلين، ومشيتين، في أقنومٍ واحد، ووجهٍ واحد، تامًا بلاهوته، تامًا بناسوته.

وشهدت أن الإله الابن في آخر الأيام اتخذ من العذراء السيدة مريم القُدْسِيَّةِ جسدًا إنسانًا بنفسٍ ناطقة عقلية، وذلك برحمة الله تعالى: محب البشر، ولم يلحقه اختلاط، ولا فساد، ولا فرقة، ولا فصل، ولكن هو واحد، يعملُ بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يُشبه الإله أن يعمله في طبيعته،

الذي هو الابنُ الوحيدُ، والكلمة الأزلية المتجسدة، التي صارت في الحقيقة لحمًا، كما يقول الإنجيل المقدس، من غير أن ينتقل من مجده الأزلي، وليست بمتغيرة، لكنها بفعلين ومشيتين وطبيعتين: إلهيٌّ وإنسيٌّ، الذي بهما يكمل قولُ الحق، وكل واحدةٍ من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبها مشيئتين، غير متضادتين، ولا متصارعتين، ولكن مع المشيئة الإنسية: المشيئة الإلهية القادرة على كل شيء».

هذه أمانة هذا المجمع، فوضعوها ولعنوا مَنْ لعنوه، وبين المجمع الخامس الذي اجتمع فيه الست مئة والثلاثون، وبين هذا المجمع مائة سنة.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فبعث إليه مئةً وأربعين أسقفًا، وثلاث مئة ستماس)، الشمامسة من النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (نؤمن بأن الواحد من الناسوت الابنُ الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية، الدائم المستوي مع الأب، الإله في الجوهر، الذي هو ربنا يسوع المسيح)، هذا كلام باطل -والعياذ بالله-.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وشهدت أن الإله الابن في آخر الأيام اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسدًا إنسانًا بنفسٍ ناطقة عقلية)، في هذا حق وباطل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وذلك برحمة الله تعالى: محب البشر، ولم يلحقه اختلاط، ولا فساد، ولا فرقة)، أهذا صحيح، أهذا كلام جيد؟

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولكن هو واحد، يعملُ بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يُشبهه الإله أن يعمله في طبيعته)، وهذا باطل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الذي هو الابنُ الوحيدُ، والكلمة الأزلية المتجسدة)، وهذا كلام باطل، الله ليس له ابن؛ ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما يقول الإنجيل المقدس)، الإنجيل الذي دسوا فيه وكذبوا فيه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما يقول الإنجيل المقدس، من غير أن ينتقل من مجده الأزلي، وليست بمتغيرة، لكنها بفعالين ومشيتين وطبيعتين: إلهيٌّ وإنسيٌّ)، أما الإنجيل الذي أنزله الله فهو حق وصدق ووحى من الله جَلَّ وَعَلَا.



ثم كان لهم مجمع عاشر: وذلك لما مات الملك وولي ابنه بعده، واجتمع أهل المجمع السادس، وزعموا أن اجتماعهم كان على الباطل، فجمع الملك مئة وثلاثين أسقفًا، فثبّتوا قول أهل المجمع الخمسة، ولعنوا مَنْ لعنهم وخالفهم، وانصرفوا بين لاعنٍ وملعونٍ.

فهذه عشرة مجامع كبارٍ من مجامعهم مشهورة، اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفًا من البتاركة والأساقفة والرهبان، كلهم ما بين لاعنٍ وملعونٍ.

فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلماءهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون، ضالّون مضلّون، لا يثبت لهم قَدَمٌ، ولا يستقر لهم قول في إلههم، بل كلٌّ منهم قد اتخذ إلهه هواه، وصرّح بالكفر والتبرّي من اتبع سواه، قد تفرقت بهم في نبهم وإلههم الأقاويل، وهم كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم)، فإذا كانت هذه أقوالهم مع قربهم من عهد المسيح، فكيف بأقوالهم لما تطاول الزمان وامتد الوقت فإن كذبهم يزيد ويزيد.

وهكذا من ضل عن الحق فإنه يبتلى بالباطل - والعياذ بالله - من ترك الحق ابتلاه الله بالباطل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون، ضالون مضلون، لا يثبت لهم قدم)، هذا تعقيب ابن القيم عليهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولا يستقر لهم قول في إلههم، بل كلُّ منهم قد اتخذ إلهه هواه)، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذه حالهم، اتبعوا السبل وتفرقوا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهم كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧])، ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: أضلوا كثيرا من الناس.



فلو سألت أهل البيت الواحد عن دينهم ومعتقدهم في ربهم ونبیهم لأجابك الرجل بجواب، وامرأته بجواب، وابنه بجواب، والخادم بجواب! فما ظنك بمن في عصرنا هذا، وهم نُخالة الماضين، وزُبالة الغابرين، ونُفایة المتحیرين! وقد طال عليهم الأمد، وبعُدَ عهدهم بالمسیح ودينه.

وهؤلاء هم الذين أوجبوا لأعداء الرسل من الفلاسفة والملاحدة أن يتمسكوا بما هم عليه، فإنهم شرحوا لهم دينهم الذي جاء به المسيح على هذا الوجه.

ولا ريب أن هذا دين لا يقبله عاقل، فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بما هم عليه، وساءت ظنونهم بالرسل والكتب، ورأوا أن ما هم عليه من الآراء أقرب إلى المعقول من هذا الدين.

وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلال: إن هذا هو الحق الذي جاء به المسيح، فتركب من هذين الظنين الفاسدين إساءة الظن بالرسل، وإحسان الظن بما هم عليه.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلو سألت أهل البيت الواحد عن دينهم ومعتقدهم في ربهم ونبیهم)، أهل البيت الواحد من النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لأجابك الرجل بجواب، وامرأته بجواب، وابنه بجواب، والخادم بجواب!)، هذا شأن من ترك الحق فإنه يتخبط في الأقوال.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فما ظنك بمن في عصرنا هذا)، في عصر ابن القيم يعني .
قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلّال: إن هذا هو الحق الذي
جاء به المسيح)، كذبوا .
قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فتركب من هذين الظنّين الفاسدين إساءة الظن بالرسول،
وإحسان الظن بما هم عليه)، سأل الله النجاة من الباطل .



ولهذا قال بعض ملوك الهند وقد ذُكرت له الملل الثلاث، فقال: أما النصارى فإن كان محاربوهم من أهل الملل يُحاربونهم بحكم شرعي، فإني أرى ذلك بحكم عقلي، وإن كُنَّا لا نرى بحكم عقولنا قتالاً.

ولكن أُسْتَنْبِي هؤلاء القوم من بين جميع العوالم، لأنهم قصدوا مضادة العقل، وناصبوه العداوة، وحلُّوا بيت الاستحالات، وحادوا عن المسلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، فشدُّوا عن جميع مناهج العالم الصالحة العقلية والشرعية، واعتقدوا كلَّ مستحيل ممكنًا، وبنوا على ذلك شريعة لا تُؤدِّي البتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنها تُصير العاقل إذا تشرَّع بها أخرق، والرشيد سفيهاً، والمحسن مسيئاً، لأن من كان أصل عقيدته التي جرى نشؤُها عليها الإساءة إلى الخالق، والنيل منه، ووصفه بصدِّ صفاته الحسنى فأخلق به أن يستسهل الإساءة إلى المخلوق، مع ما بلغنا عنهم من الجهل، وضعف العقل، وقلة الحياء، وخساسة الهمة.

فهذا، وقد ظهر له من باطلهم وضلالهم غيُض من فيض، وكانوا إذ ذاك أقرب عهداً بالنبوة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَخْلَقَ بِهِ أَنْ يَسْتَسْهَلَ الْإِسَاءَةَ إِلَى الْمَخْلُوقِ، مَعَ مَا بَلَّغْنَا عَنْهُمْ مِنَ الْجَهْلِ، وَضَعْفِ الْعَقْلِ، وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ، وَخَسَاسَةِ الْهَمَّةِ)، هذا تعقيب ابن القيم على هذه المقالة.



وقال أفلاطون رئيس سدنة الهياكل بمصر، وليس بأفلاطون تلميذ سُقراط، ذاك أقدم من هذا: «لما ظهر محمد بتهامة، ورأينا أمره يعلو على الأمم المجاورة له، رأينا أن نقصد إصطفن البابلي، لنعلم ما عنده، ونأخذ برأيه، فلما اجتمعنا على الخروج من مصر رأينا أن نصير إلى قراطيس معلّمنا وحكيمننا لنودّعه، فلما دخلنا عليه ورأى جمعنا أيقن أن الهياكل قد خَلَّتْ منا، فغُشي عليه حيناً غُشِيَةً، ظننا أنه فارق الحياة فيها، فبكينا، فأوماً إلينا أن كُفّوا عن البكاء، فتصبرنا جَهْدَنَا حتى هَدَأَ وفتح عينيه، وقال: هذا ما كنت أنهاكم عنه، وأحذركم منه، إنكم قوم غيرتم فغير بكم، أطعتم جُهاًلاً من ملوككم، فخلطوا عليكم في الأدعية، فقصدتم البشّر من التعظيم بما هو للخالق وحده، فكنتم في ذلك كمن أعطى القلم مدح الكاتب، وإنما حركة القلم بالكاتب».

ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، وأنفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقص الخالق وسبّه، ورميه بالعظائم، حتى زعموا أنه - سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - نزل من العرش عن كرسيّ عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبّط بين البول والدم والنّجس، وقد علّته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً

يمصّ الثدي، وُلّفَ في القُمُطِ، وأودع السرير، يبكي، ويجوع، ويعطش، ويبول، ويتغوّط، ويحمل على الأيدي والعواتق.

ثم صار إلى أن لظمت اليهود خَدَيْهِ، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لُصْبَيْنِ، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسَمَرُوا يديه ورجليه، وجَرَّعوه أعظم الآلام، هذا وهو الإله الحق، الذي بيده أُنقذت العوالم، وهو المعبود المسجود له.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين)، هذا تعقيب ابن القيم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والثاني: تَنَقُّصُ الخالق وَسَبُّهُ، ورميه بالعظام، حتى زعموا أنه - سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - نزل من العرش عن كرسيّ عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبّط بين البول والدم والنَّجْوِ)، الذين يقولون: أن المسيح هو الله، يزعمون أن الله جَلَّ وَعَلَا دخل في فرج مريم، ثم ولدته - تعالى الله عن ذلك -.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وصلبوه جهراً بين لُصْبَيْنِ، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسَمَرُوا يديه ورجليه، وجَرَّعوه أعظم الآلام)، هذا الصليب الموجد الآن على هذا الشكل؛ يزعمون أن المسيح مصلوب، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فالذي قُتِلَ وَصَلِبَ هو الذي جاء يدلهم على مكان المسيح، لما بحثوا عنه يريدون قتله، دلهم على مكانه.

فلما اجتمعوا والمسيح بينهم رفعه الله من بينهم وهم لا يشعرون وألقى شبهه على هذا المجرم، فأخذه وقلوه وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، هذا هو الصليب الذي عند النصارى الآن.



ولَعَمْرُ اللَّهِ إن هذه مَسَبَّةٌ لله سبحانه ما سبَّه بها أحد من البشر قبلهم، ولا بعدهم، كما قال تعالى فيما يحكي عنه رسوله الذي نَزَّهه ونَزَّه أخاه المسيح عن هذا الباطل، الذي ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مریم: ٩٠]. فقال: «سَتَمَنِي ابنُ آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذَّبني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إِيَّاي فقولُه: اتخذ اللهُ ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوًّا أحد، وأما تكذيبه إِيَّاي فقولُه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته»^(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذه الأمة: «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عَزَّجَلَّ مَسَبَّةً ما سبَّه إياها أحدٌ من البشر»^(٢).

ولَعَمْرُ اللَّهِ إن عِبَادَ الأصنام مع أنهم أعداء الله عَزَّجَلَّ على الحقيقة، وأعداء رسله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأشدُّ الكفار كفرًا يأنفون أن يصفوا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى، وهي من الحجارة والحديد والخشب، بمثل ما وصفت به هذه الأمة ربَّ العالمين، وإله السماوات والأرضين، وكان الله تعالى في قلوبهم أَجَلًّا وأعظمَ من أن يصفوه بذلك، أو بما يقاربه.

وإنما شركُ القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة مُخَدَّثَةٌ، وزعموا أنها تقربهم إليه، لم يجعلوا شيئًا من آلهتهم كفوًّا له، ولا نظيرًا، ولا ولدًا، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة.

(١) أخرج البخاري (٣١٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره القرافي في الفروق (١٦/٣).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولعمُرُ الله)، هذا تعقيب ابن القيم: ولعمُر الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الأمة)، في هذه

الأمة: يعني النصارى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما شركُ القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة

مُحَدَّثَةٌ)، هذا دين النصارى.



وعُدُّهُمْ فِي ذَلِكَ أَقْبَحَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَإِنَّ أَسْلَافَ مُعْتَقِدِهِمْ: أَنَّ أَرْوَاحَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانَتْ فِي الْجَحِيمِ فِي سِجْنِ إِبْلِيسَ، مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى زَمَنِ الْمَسِيحِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَنُوحٌ، وَصَالِحٌ، وَهُودٌ مُعَذِّبِينَ مَسْجُونِينَ فِي النَّارِ بِسَبَبِ خَطِيئَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَكَلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَ كَلِمَا مَاتَ وَاحِدًا مِنْ بَنِي آدَمَ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ وَسَجَنَهُ فِي النَّارِ بِذَنْبِ أَبِيهِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَرَادَ رَحْمَتَهُمْ وَخَلَّصَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ تَحَيَّلَ عَلَى إِبْلِيسَ بِحِيلَةٍ، فَنَزَلَ عَنْ كُرْسِيِّ عِظَمَتِهِ، وَالتَّحَمَّ بِبَطْنِ مَرْيَمَ، حَتَّى وُلِدَ وَكَبِرَ وَصَارَ رَجُلًا، فَمَكَّنَ أَعْدَاءَهُ الْيَهُودَ مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى صَلَّبُوهُ وَقَتَلُوهُ وَسَمَّرُوهُ، وَتَوَجَّهَ بِالشُّوكِ عَلَى رَأْسِهِ، فَخَلَّصَ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسَلَهُ، وَفَدَاهُمْ بِنَفْسِهِ وَدَمِهِ، فَهَرَّاقَ دَمَهُ فِي مَرَضَاتِهِ جَمِيعَ وَلَدِ آدَمَ، إِذْ كَانَ ذَنْبُهُ بَاقِيًا فِي أَعْنَاقِ جَمِيعِهِمْ، فَخَلَّصَهُمْ مِنْهُ بِأَنْ مَكَّنَ أَعْدَاءَهُ مِنْ صَلْبِهِ وَتَسْمِيرِهِ وَصَفَعَهُ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَ صَلْبَهُ أَوْ شَكَّ فِيهِ، أَوْ قَالَ بِأَنَّ الْإِلَهَ يَحِلُّ عَنْ ذَلِكَ، فَهُوَ فِي سِجْنِ إِبْلِيسَ مُعَذَّبٌ حَتَّى يُقَرَّرَ بِذَلِكَ، وَأَنَّ إِلَهَهُ صَلَّبَ وَصُفِعَ وَسُمِّرَ!

فَنَسَبُوا الْإِلَهَ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ إِلَى مَا يَأْتِيهِمْ أَسْقَطَ النَّاسَ وَأَقْلَهُمْ أَنْ يَفْعَلَهُ بِمَمْلُوكِهِ وَعَبْدِهِ، وَإِلَى مَا يَأْتِيهِمْ عِبَادُ الْأَصْنَامِ أَنْ تُنْسَبَ إِلَيْهِ أَوْثَانُهُمْ، وَكَذَّبُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ تَابَ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَفَرَ لَهُ خَطِيئَتَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى أَقْبَحِ الظُّلْمِ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ سَجَنَ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسَلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ فِي الْجَحِيمِ، بِسَبَبِ خَطِيئَةِ أَبِيهِمْ، وَنَسَبُوهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَهَةِ، حَيْثُ خَلَّصَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِتَمَكِينِهِ أَعْدَاءَهُ مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ وَأَرَاقُوا دَمَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى غَايَةِ الْعَجْزِ

حيث عَجَزوه أن يُخَلِّصهم بقدرته من غير هذه الحيلة، ونسبوه إلى غاية النقص، حيث سَلَطَ أعداءه على نفسه وابنه، ففعلوا به ما فعلوا.

وبالجمله، فلا نعلم أمةً من الأمم سَبَّت رَّبَّها ومعبودها وإلهها بما سَبَّته به هذه الأمة، كما قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنْهُمْ سَبُّوا اللَّهَ مَسَبَّةً مَا سَبَّهُ إِيَّاهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ.

الشرح

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه)، هذه مقالة النصارى -والعياذ بالله-.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وكذَّبوا الله عَزَّجَلَّ في كونه تاب على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَفَرَ لَهُ خَطِيئَتَهُ)، حتى آدم لم يسلم من شرهم.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وبالجمله، فلا نعلم أمةً من الأمم سَبَّت رَّبَّها ومعبودها وإلهها بما سَبَّته به هذه الأمة)، النصرانية.



وكان بعضُ أئمة الإسلام إذا رأى صليبيًا أغمض عينيه عنه، وقال:
لا أستطيعُ أن أُملاً عيني من سبِّ إلهه ومعبوده بأقبح السب.

ولهذا قال عقلاء الملوك: إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً، إنهم عازُّ
على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع.

وأما شريعتهم ودينهم فليسوا متمسكين بشيء من شريعة المسيح، ولا
دينه البتة.

فأول ذلك: أمرُ القبلة، فإنهم ابتدعوا الصلاة إلى مَطْلَعِ الشمس، على
علمهم أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُصَلِّ إلى الشرق أصلاً، بل قد نقل مؤرّخوهم أن
ذلك حَدَثَ بعد المسيح بنحو ثلاث مئة سنة، وإلا فالمسيح إنما كان يصلي إلى
قبلة بيت المقدس، وهي قبلة الأنبياء قَبْلَهُ، وإليها كان يصلي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مدّة مُقامه بمكة، وبعد هجرته ثمانية عشر شهراً، ثم نقله الله عَزَّجَلَّ إلى قبلة أبيه
إبراهيم^(١).

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأول ذلك: أمرُ القبلة، فإنهم ابتدعوا الصلاة إلى مَطْلَعِ
الشمس، على علمهم أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُصَلِّ إلى الشرق أصلاً)، النصارى
يستقبلون طلوع الشمس في صلاتهم، لأنها أم الأنوار -بزعمهم-، فهناك
أمة منهم تعبد الشمس، وهم يستقبلون الشمس في صلواتهم إلى الآن.

(١) حديث البراء بن عازب، وفيه: «صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ
شَهْرًا» أخرجه البخاري (٤٤٨٦، ٧٢٥٢)، ومسلم (٥٢٥).

ومن ذلك: أن طوائف منهم وهم الروم وغيرهم لا يرون الاستنجاء بالماء، فيبولُّ أحدهم ويتغوّط، ويقومُ بأثر البول والغائط إلى صلاته بتلك الرائحة، فيستقبلُ الشرق، ويصَلِّبُ على وجهه، ويُحدِّثُ مَنْ يَلِيهِ بأنواع الحديث، كذبًا كان، أو فجورًا، أو غيبة، أو سبًّا وشتمًا، ويخبره بسِعْرِ الخمر ولحم الخنزير، وما شاكل ذلك، ولا يضرُّ ذلك الصلاة، ولا يبطلها، وإن دعتَه الحاجةُ إلى البول في الصلاة بال وهو يصلي، ولا يضرُّ صلاته.

وكلُّ عاقلٍ يعلم أن مواجهة إله العالمين بهذه العبادة قبيحٌ جدًّا، وصاحبُها إلى استحقاق غضبه وعقابه أقربُ منه إلى الرِّضا والثواب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن ذلك: أن طوائف منهم وهم الروم وغيرهم لا يرون الاستنجاء بالماء، فيبولُّ أحدهم ويتغوّط، ويقومُ بأثر البول والغائط إلى صلاته)، يتقربون إلى الله بالنجاسات، لا يستنجون من الغائط، ولا يغسلون البول، يزعمون أن هذا عبادة لله عزَّ وجلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فيستقبلُ الشرق)، هذه الثانية، وهي أنه لا يستقبل القبلة، وإنما يستقبل الشرق الذي هو مطلع الشمس.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ويصَلِّبُ على وجهه)، ويصَلِّبُ على وجهه: يعني ينقش الصليب على وجهه.



من العجيب أنهم يقرأون في التوراة: «ملعون من تعلق بالصليب»، وهم قد جعلوا شعار دينهم ما يلعنون عليه.

ولو كان لهم أدنى عقل لكان الأولى بهم أن يُحَرِّقُوا الصليب حيث وجدوه، ويكسروه ويضمّمخوه بالنجاسة، فإنه قد صُلبَ عليه إلههم ومعبودهم بزعمهم، وأهين عليه، وفُضِحَ وخُزي.

فيا للعجب! بأي وجه بعد هذا يستحقُّ الصليبُ التعظيم، لولا أن القوم أضلّ من الأنعام!

وتعظيمهم للصليب مما ابتدعوه في دين المسيح بعده بزمان، ولا ذُكر له في الإنجيل البتة، وإنما ذُكر في التوراة باللّعنِ لمن تعلق به، فاتخذته هذه الأمة معبودًا يسجدون له، وإذا اجتهد أحدُهم في اليمين، بحيث لا يُخَنَّثُ ولا يكذبُ، حلف بالصليب، ويكذبُ إذا حلف بالله، ولا يكذبُ إذا حلف بالصليب.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولو كان لهم أدنى عقل لكان الأولى بهم أن يُحَرِّقُوا الصليب حيث وجدوه)، هذا من غباوتهم أنهم يعبدون الصليب الذي يزعمون أنه صُلبَ عليه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان اللائق بهم أن يكسروا الصليب، ولا يعبدوه، ولكن هذا من غباوتهم ومن عقوبتهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فاتخذته هذه الأمة معبودًا)، يعني الأمة النصرانية.

ولو كان لهذه الأمة أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ لكان ينبغي لهم أن يلعنوا الصليب من أجل معبودهم وإلههم حين صُلب عليه، كما قالوا: إن الأرض لُعنت من أجل آدم حين أخطأ، وكما لعنت الأرض حين قتل قابيل أخاه، وكما في الإنجيل: «إن اللعنة تنزل على الأرض إذا كان أمرؤها الصبيان».

فلو عقلوا لكان ينبغي لهم أن لا يحملوا صليباً، ولا يمَسُّوه بأيديهم، ولا يذكرونه بألسنتهم، وإذا ذكر لهم سدّوا مسامعهم عن ذكره.

ولقد صدق القائل: عدوُّ عاقل خيرٌ من صديق أحمق؛ لأنهم بحمقهم قصدوا تعظيم المسيح، فاجتهدوا في ذمّه وتنقّصه، والإضرار به، والطعن عليه، وكان مقصودهم بذلك التشنيع على اليهود، وتنفير الناس عنهم، وإغراءهم بهم، فنّفروا الأمم عن النصرانية وعن المسيح ودينه أعظم تنفير.

وعلموا أن الدّين لا يقوم بذلك، فوضع لهم رهبانهم وأساقفتهم من الحيل والمخاريق وأنواع الشّعْبَدَة ما استمالوا به الجُهال، وربطوهم به، وهم يَسْتَجِيزُونَ ذلك، ويستحسنونه، ويقولون: إنه يَشُدُّ دين النصرانية!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولقد صدق القائل: عدوُّ عاقل خيرٌ من صديق أحمق)،

يقول ابن عبد القدوس في قصيدته:

وَلَأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ^(١)

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٤/٤١١)، ولسان الميزان (٣/١٧٢) منسوباً لصالح بن عبد القدوس.

وكانهم إنما عظموا الصليب لما رأوه قد ثبت لصلب إلههم، ولم ينشق، ولم يتطاير ويتكسر من هيئته لما حُمِلَ عليه.

وقد ذكروا أن الشمس اسودّت وتغيّر حال السماء والأرض، فلما لم يتغيّر الصليب ولم يتطاير استحقّ عندهم التعظيم وأن يُعبد.

ولقد قال بعض عقلائهم: إن تعظيمنا للصليب جارٍ مجرى تعظيم قبور الأنبياء، فإنه كان قبر المسيح وهو عليه، ثم لما دُفِنَ صار قبره في الأرض! وليس وراء هذا الحمق والجهل مُحمق، فإن السجود لقبور الأنبياء وعبادتها شركٌ، بل من أعظم الشرك.

وقد لعنَ إمام الحنفاء وخاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود والنصارى -لعنهم الله- حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وأصلُ الشرك وعبادة الأوثان: من العُكوف على القبور، واتخاذها مساجد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد لعنَ إمام الحنفاء وخاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود والنصارى)، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا^(١).

قال هذا وهو في سياق الموت -عليه الصلاة والموت- يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

(١) تقدم تخرجه (ص ٥٢٤).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأصلُ الشركِ وعبادة الأوثان: من العُكوفِ على القبور، واتخاذها مساجد)، تطور العكوف على القبور: يعني الجلوس عندها والإكثار من زيارتها هذا يصير أصحابها إلى العبادة، يجرهم الشيطان شيئاً فشيئاً من تعظيم القبور إلى الشرك.



ثم يقال: فأنتم تعظمون كلَّ صليب، ولا تُحْصِنُ التعظيمَ بذلك الصليب بعينه.

فإن قلت: الصليب من حيث هو يُذَكَّرُ بالصليب الذي صُلب عليه إلهنا.

قيل: وكذلك الحُفْرَ تذكَّر بحفرته، فعَظَّمُوا كلَّ حُفْرَةٍ، واسجدوا لها، لأنها كحفرته أيضًا بل أولى، لأن خشبة الصليب لم يَسْتَقِرَّ عليها استقراره في الحفرة.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قيل: وكذلك الحُفْرَ تذكَّر بحفرته، فعَظَّمُوا كلَّ حُفْرَةٍ، واسجدوا لها، لأنها كحفرته أيضًا بل أولى)، تعظيم القبر أولى من تعظيم الصليب في نظر العقول؛ لأن المسيح - كما تزعمون - قُبرٍ ودُفِنَ، وكان الواجب عليكم أن تعظموا القبور.

هذا تنزلاً معهم، وإلا فالمسيح لم يقتل ولم يصلب ولم يميت عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا في آخر الزمان، حيث يموت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويدفن في بيت المقدس.

وقيل: أنه يدفن مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، وهذا هو الصحيح أنه يدفن في المدينة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



ثم يقال: اليدُ التي مَسَّتْهُ أُولَى أَنْ تُعْظَمَ مِنَ الصَّلِيبِ، فَعُظِّمُوا أَيْدِي الْيَهُودِ، لِمَسِّهِمْ إِيَّاهُ، وَإِمْسَاكِهِمْ لَهُ، ثُمَّ انْقَلَبُوا ذَلِكَ التَّعْظِيمَ إِلَى سَائِرِ الْأَيْدِي. فَإِنْ قَلْتُمْ: مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مَانِعُ الْعَدَاوَةِ: فَعِنْدَكُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَضِيَ بِذَلِكَ وَاخْتَارَ، وَلَوْ لَمْ يَرْضَ بِهِ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ مِنْهُ.

فَعَلَى هَذَا فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُرُوهُمْ وَتَحْمَدُوهُمْ، إِذْ فَعَلُوا مَرْضَاتِهِ وَاخْتَارَهُ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خَلَاصِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْقَدِّيسِينَ مِنَ الْجَحِيمِ وَمَنْ سَجَنِ إِبْلِيسَ.

فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ الْيَهُودِ عَلَيْكُمْ وَعَلَى آبَائِكُمْ، بَلْ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، مِنْ لَدُنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زَمَنِ الْمَسِيحِ!

الشَّحْ

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَعَلَى هَذَا فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُرُوهُمْ وَتَحْمَدُوهُمْ، إِذْ فَعَلُوا مَرْضَاتِهِ وَاخْتَارَهُ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خَلَاصِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْقَدِّيسِينَ مِنَ الْجَحِيمِ وَمَنْ سَجَنِ إِبْلِيسَ)، يَسْمُونُ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَخْلُصَ؛ أَنَّهُ صَبَرَ عَلَى الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَخْلُصَ بَنِي آدَمَ مِنْ خَطِيئَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي تَابَ مِنْهَا آدَمُ، وَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ.

فَهُمْ كَذَبُوا عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَكَذَبُوا عَلَى الْمَسِيحِ، وَكَذَبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



والمقصود: أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعبء الإله وتنقصه، وتنقص نبيهم وعبه ومفارقة دينه بالكليّة، فلم يتمسكوا بشيء مما كان عليه المسيح، لا في صلاتهم، ولا في صيامهم، ولا في أعيادهم، بل هم في ذلك أتباع كل ناعق، مستجيبون لكل مُخْرِق ومبطل، أدخلوا في الشريعة ما ليس منها، وتركوا ما أتت به.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمقصود: أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعبء الإله وتنقصه، وتنقص نبيهم وعبه ومفارقة دينه بالكليّة، فلم يتمسكوا بشيء مما كان عليه المسيح)، قال رَحْمَةُ اللَّهِ: والمقصود أن هذه الأمة: أي أمة النصارى كانوا مثلثة؛ يقولون: الله واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، وهذا قول مستحيل أن الواحد يكون ثلاثة، وأن الثلاثة يكونون واحداً، هذا قول مستحيل، ومع هذا يعتقدون هذه العقيدة المسيحية الخبيثة، عقيدة التثليث -والعباد بالله- ويزعمون أنهم موحدون، وهذا هو الغريب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمقصود: أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعبء الإله وتنقصه)، هذه المقالة تتضمن شيئين:

- الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ أنهم يقولون ثلاثة.

- وعبء الله عَزَّوَجَلَّ، عيب الإله الحق وتنقصه في قولهم: واحد في ثلاثة،

ثلاثة في واحد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتنقص نبیهم وعیبه ومفارقة دینه بالكلیَّة)، أنهم زعموا أن نبیهم جاء بهذا، وهذا كذب، نبیهم عَلَیْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءهم بالتوحید الخالص كإخوانه النبیین والمرسلین.

فعقیده الأنبیاء واحدة، وهي توحید الله عَزَّجَلَّ فی ألوهیته، وعبودیته، وأسمائه وصفاته.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلم يتمسکوا بشيء مما كان علیه المسیح)، لم يتمسکوا بشيء مما جاء به المسیح عَلَیْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهم یزعمون أنهم یؤمنون به، وهذا تناقض، تناقض واضح.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (بل هم فی ذلك أتباع كل ناعق، مستحییون لكل مُمَّخِرِق ومبطل، أدخلوا فی الشریعة ما لیس منها، وتركوا ما أتت به)، هذا دینهم أنهم تركوا الشریعة التي جاء بها نبیهم عیسی بن مریم عَلَیْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي یقول یوم القیامة أمام الخلائق: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]، یفضحهم بهذا أمام الخلائق یوم القیامة ویكذبهم.



وإذا شئتَ أن ترى العبر في دينهم فانظر إلى صيامهم الذي وضعوه للموكلهم وعظمائهم، فلهم صيامٌ للحواريين، وصيامٌ لمارِ مريم، وصيامٍ لمارِ جرجس، وصيامٍ للميلاد! وتركهم أكل اللحم في صيامهم مما أدخلوه في دين المسيح، وإلا فهم يعلمون أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكل اللحم، ولم يمنعهم منه في صومٍ ولا فطرٍ.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإذا شئتَ أن ترى العبر في دينهم فانظر إلى صيامهم الذي وضعوه للموكلهم وعظمائهم، فلهم صيامٌ للحواريين، وصيامٌ لمارِ مريم، وصيامٍ لمارِ جرجس، وصيامٍ للميلاد!)، هذا صيامهم، صيامهم على هذه المفتريات والأخطاء الواضحة، فليسوا يصومون كما يصوم عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأمه، بل كانوا يصومون صيامًا بدعيًا لا ينفعهم شيئًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتركهم أكل اللحم في صيامهم)، وتركهم أكل اللحم: يعني في الليل، إذا أفطروا في الليل لا يأكلون اللحم، وحرموا ما أحل الله عزَّ وجلَّ.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَنْتُمْ الصَّيَامُ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]: هذا صيام الأنبياء جميعًا، صيام الأنبياء جميعًا ولا سيما خاتم النبيين محمد بن عبد الله

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَدْ صَامَ هَذَا الصِّيَامَ وَأَمَرَ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِهِ صَامُوا هَذَا الصِّيَامَ وَأَمَرُوا بِهِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ تَوْقِيَّتُهُمْ لِلصِّيَامِ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِلَّا فَهَمَّ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْهُ فِي صَوْمٍ وَلَا فِطْرٍ)، لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْنَعُ النَّصَارَى مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ لَا فِي صَوْمٍ وَلَا فِطْرٍ، بَلِ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَبَاحَ اللَّحْمَ؛ ﴿كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وَاللَّحْمَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.



وأصل ذلك: أن المانوية كانوا لا يأكلون ذارُوح، فلما دخلوا في النصرانية خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيُقتلوا، فشرعوا لأنفسهم صياماً، فصاموا للميلاد، والحواريين، ومار مريم، وتركوا في هذا الصوم أكل اللحم محافظةً على ما اعتادوه من مذهب ماني.

فلما طال الزمانُ تبعهم على ذلك النسطورية واليعقوبية، فصارت سنةً متعارفةً بينهم، ثم تبعهم على ذلك الملكانية.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأصل ذلك: أن المانوية كانوا لا يأكلون ذارُوح، فلما دخلوا في النصرانية خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيُقتلوا)، المانوية: هم الذين يقولون بإلهين اثنين، وأخذ النصارى هذه العقيدة الباطلة عن المانوية، ولم يأخذوها عن المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فلما طال الزمانُ تبعهم على ذلك النسطورية واليعقوبية، فصارت سنةً متعارفةً بينهم، ثم تبعهم على ذلك الملكانية)، تبعهم في هذا -تحريم الحلال- فرق النصارى الثلاث، تبعوهم في تحريم اللحم.



فصل

ثم إنك إذا كشفت عن حالهم وجدت أئمة دينهم ورُهبانهم قد نصبوا حبال الحيل ليقبضوا بها عقول العوام، ويتوصلوا بالتمويه والتلبيس إلى استمالتهم وانقيادهم، واستدرار أموالهم، وذلك أشهر وأكثر من أن يُذكر. فمن ذلك: ما يعتمدونه في العيد الذي يسمونه عيد النور، ومحله بيت المقدس، فيجتمعون من سائر النواحي في ذلك اليوم، ويأتون إلى بيت فيه قنديلٌ معلق لا نار فيه، فيتلو أحبارهم الإنجيل، ويرفعون أصواتهم، ويبتهلون في الدعاء.

فبينما هم كذلك وإذا نارٌ قد نزلت من سقف البيت، فتقع على ذبالة القنديل، فيشرق ويضيء ويشتعل، فيضجُّون ضجَّةً واحدةً، ويصلُّون على وجوههم، ويأخذون في البكاء والشهيق.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم إنك إذا كشفت عن حالهم)، عن حالهم: يعني عن حال النصارى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فبينما هم كذلك وإذا نارٌ قد نزلت من سقف البيت، فتقع على ذبالة القنديل، فيشرق ويضيء ويشتعل، فيضجُّون ضجَّةً واحدةً، ويصلُّون على وجوههم، ويأخذون في البكاء والشهيق)، هكذا الله جَلَّ وَعَلَا عاقبهم بهذه الأباطيل الواضحة التي لا أصل لها في دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

قال أبو بكر الطرطوشي: كنتُ بيت المقدس، وكان واليها إذ ذاك رجلاً يقال له: سقمان، فلما نما إليه خبرُ هذا العيد أنفذ إلى بتاركتهم، وقال: أنا نازلٌ إليكم في يوم هذا العيد لأكشف عن حقيقة ما تقولون، فإن كان حقاً ولم يتضح لي وجه الحيلة فيه أقررتكم عليه وعظّمته معكم بعلم، وإن كان مخرقةً على عوامكم أوقعتُ بكم ما تكرهونه، فصعبَ ذلك عليهم جدّاً، وسألوه أن لا يفعل، فأبى وألحّ، فحملوا له ما لا عظيماً، فأخذه وأعرض عنهم.

قال الطرطوشي: ثم اجتمعت بأبي محمد بن الأقدم بالإسكندرية، فحدّثني أنهم يأخذون خيطاً رقيقاً من نحاس وهو الشريط، ويجعلونه في وسط قبة البيت إلى رأس الفتيلة التي في القنديل، ويدهنونه بدهن اللبان، والبيت مظلم، بحيث لا يدرك الناظرون الخيط النحاس، وقد عظّموا ذلك البيت، فلا يمكنون كلَّ أحد من دخوله، وفي رأس القبة رجلٌ، فإذا قدّسوا ودعّوا ألقى على ذلك الخيط شيئاً من نار النَّقْط، فتجري النار مع دهن اللبان إلى آخر الخيط النحاس، فتلقَى الفتيلة، فتعلّق بها.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وفي رأس القبة رجلٌ، فإذا قدّسوا ودعّوا ألقى على ذلك الخيط شيئاً من نار النَّقْط، فتجري النار مع دهن اللبان إلى آخر الخيط النحاس، فتلقَى الفتيلة، فتعلّق بها)، وهذا دين النصارى، حيل باطلة يموهون بها على الناس، وليست من دين الله عزَّ وجلَّ، ولا من دين المسيح، ولا من دين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما هي من دين هذا الخبيث الذي صنع لهم هذه الحيلة.

فلو نصح أحدٌ منهم نفسه، وفتش على نجاته، لتتبَّع هذا القدر، وطلب الخيط النحاس، وفتش رأس القبة ليرى الرُّجُل والنفط، ويرى أن منبع ذلك النور من ذلك الممخِرِقِ الملبَّس، وأنه لو نزل من السماء لظهرَ من فوق ولم يكن ظهوره من الفتيلة.

ومن حيلهم أيضاً: أنه قد كان بأرض الروم في زمن المتوكِّل كنيستة، إذا كان يوم عيدها يحجُّ الناس إليها، ويجتمعون عند صنم فيها، فيشاهدون تُدِيَّ ذلك الصنم في ذلك اليوم يخرجُ منه اللبن، وكان يجتمع للسادن في ذلك اليوم مالٌ عظيم، فبحث الملك عنها، فانكشف له أمرها، فوجد القيمَّ قد ثقب من وراء الحائط تُقْباً إلى تُدي الصنم، وجعل فيها أنبوبةً من رصاصٍ، وأصلحها بالجير ليخْفَى أمرها، فإذا كان يومُ العيد فتحتها وصبَّ فيها اللبن، فيجري إلى الثدي، فيقطر منه، فيعتقد الجهال أن هذا سرُّ في الصنم، وأنه علامة من الله تعالى لقبول قُربانهم، وتعظيمهم له، فلما انكشف له ذلك أمر بضرب عنق السادن، ومحو الصور من الكنائس، وقال: إن هذه الصور مقام الأصنام، فمن سجد للصورة فهو كمن سجد للأصنام. ولقد كان من الواجب على ملوك الإسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا وأمثاله لما فيه من الإعانة على الكفر، وتعظيم شعائره، فالمساعد على ذلك والمعين عليه شريك للفاعل.

لكن لما هان عليهم دينُ الإسلام، وكان السُّحت الذي يأخذونه منهم أحبَّ إليهم من الله عزَّ وجلَّ ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أقرَّوهم على ذلك، ومكَّنوهم منه.

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أنه قد كان بأرض الروم في زمن المتوكل)، الخليفة المتوكل على الله العباسي الذي ناصر شيخ الإسلام ابن تيمية وأيده.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلما انكشف له ذلك أمر بضرب عنق السادين، ومحو الصور من الكنائس، وقال: إن هذه الصور مقام الأصنام، فمن سجد للصورة فهو كمن سجد للأصنام)، هذا ما فعله الخليفة المتوكل على الله العباسي رَحْمَةُ اللَّهِ على هذا الصنيع الطيب، وإبطال هذه الحيلة الكاذبة أمام الناس وإظهارها حتى يفتضح النصارى.

فهذا من صنيعه الطيب، وكل صنائعه رَحْمَةُ اللَّهِ طيبة، وهو على دين صحيح، وناصر شيخ الإسلام ابن تيمية، ودافع عنه حتى قام بدعوته رَحْمَةُ اللَّهِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولقد كان من الواجب على ملوك الإسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا وأمثاله لما فيه من الإعانة على الكفر)، ملوك الإسلام ليسوا ملوكًا للإسلام، وإنما هم ملوكًا للإلحاد، لكن هم سموا أنفسهم بذلك، سموا أنفسهم ملوك الإسلام.



فصل

والمقصود: أن دين الأمة الصليبية بعد أن بعث الله تعالى محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل قَبْلَهُ بنحو ثلاث مئة سنة، مبنيٌّ على مُعَانِدَةِ العقول والشرائع، وتنقُصُ إله العالمين ورَمِيهِ بالعِظَائِمِ، فكل نصراني لا يأخذ بحظّه من هذه البليّة فليس بنصراني على الحقيقة.

أفليس هو الدّين الذي أسَّسه أصحاب المجامع المتلاعنين على أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد؟

فيا عجباً! كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله، ومنتهى علمه؟ أترى لم يكن في هذه الأمة مَنْ يَرْجِعُ إلى عقله وفطرته، ويعلم أن هذا عين المحال، وإن ضربوا له الأمثال، واستخرجوا له الأشباه، فلا يذكرون مثلاً ولا شبهةً إلا وفيه بيان خطئهم وضلالهم؟

كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالانسوت وامتزاجه به، باتحاد النار والحديد، وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن، وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن، إلى غير ذلك من الأمثال والمقاييس التي تتضمن امتزاج حقيقتين واختلاطهما، حتى صاروا حقيقة أخرى -تعالى الله عَزَّوَجَلَّ عن إفكهم وكذبهم-.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكل نصراني لا يأخذ بحظّه من هذه البليّة فليس بنصراني على الحقيقة)، الذي لا يأخذ من هذه الأباطيل عندهم -عندهم هم

في عقيدتهم - أنهم ينفون عنه دين النصارى، وهو كذلك نفى الله عنه دين النصارى، لكن هم يعتقدون هذا من السيئات، وفي الواقع أنه من الحسنات ومن الدين الصحيح الذي جاء به روح الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، القاه إلى المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيا عجباً! كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله، ومنتهى علمه؟)، أن يكون الثلاثة واحداً، والواحد ثلاثة، هذا لا يكون، بل هذا مستحيل، ولكنه على استحالته وقبحه هو عقيدة النصارى.

وقد برأ الله المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسيتبرأ منهم على رؤوس الأشهاد في يوم القيامة، فيقول إذا قال الله له: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَال سُبْحَانَكَ﴾: بأن زه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦]: لأن الدين حق لله، وليس حقاً للمسيح.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وامتزاجه به)، اللاهوت: الذي هو الآلهة، الناسوت: الذي هو الإنسان.

فيزعمون - قبحهم الله - أن الله اتحد مع الإنسان في شخص عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصار شيئاً واحداً - تعالى الله عما يقولون -.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وامتزاجه به)، يزعمون - والعياذ بالله - أن الله دخل في فرج امرأة التي هي مريم - عليها الصلاة والسلام - وبرأها الله من ذلك.

دخل في فرجها، وشرب من الدم الذي يشربه الجنين مدة حياته يبطن أمه، ثم إنه وُلِدَ من مريم، وصار إلهًا، هذه عقيدتهم في المسيح عيسى بن مريم أنه الله جَلَّ وَعَلَا - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - هذا دين النصارى الذي هم عليه، ولم يتركوه إلى الآن.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وامتزاجه به، باتحاد النار والحديد، وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن)، يقولون: أن اللبن شيء واحد، وهو يتكون من ثلاثة أشكال.

صحيح اللبن يتكون من ثلاثة أشكال، ولكن ليس هو الدين الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن، إلى غير ذلك من الأمثال والمقاييس)، يحاولون أن يبرروا هذه العقيدة الباطلة الشركية بهذه الأقاويل الباطلة، وفضحوا النصارى بذلك، وقد تبين لكل عاقل فساد هذه المقالة وبطلانها - والحمد لله -.



ولم يُقنعهم هذا القول في ربّ السماوات والأرض، حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه، وساقوه بينهم ذليلاً مقهوراً، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، واليهود يبصقون في وجهه، ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة، حتى مات، وتركوه مصلوباً، حتى التصق شعره بجلده، لما ببس دمه بحرارة الشمس، ثم دُفِنَ، وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاهوتيته من قبره. هذا قول جميعهم، ليس فيهم من ينكر منه شيئاً.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يُقنعهم هذا القول في ربّ السماوات والأرض، حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه، وساقوه بينهم ذليلاً مقهوراً، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها)، هذا من قبائح النصارى.

يقول شيخ الإسلام: كان العقل يقتضي أن يحطموا كل صليب، ولكنهم عظموه ونصبوه أمامهم وهم يصلون له، وهذا من انتكاس عقولهم -والعياذ بالله-.

كان من الحق أن يأخذوا كل صليب على وجه الأرض ويحطموه، لكن من غباوتهم أنهم يعبدون الصليب ولا يزالون مع أنه باطل، باطل، باطل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وتركوه مصلوباً، حتى التصق شعره بجلده، لما ببس دمه بحرارة الشمس، ثم دُفِنَ، وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاهوتيته من قبره. هذا قول جميعهم)، هذا قول جميع النصارى هذه الأباطيل أنهم أخذوا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أخذوا المسيح عيسى بن مريم وأنهم قتلوه، وأنهم صلبوه.

هذه عقيدتهم أنهم قتلوا نبي الله، كما قتلوا غيره من الأنبياء؛ ﴿وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ كَمَا قَتَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَالَّذِينَ
جَاءَهُمْ وَاحِدًا مِنْ جَنَسِهِمْ وَعَلَىٰ عَقِيدَتِهِمْ فَدَلَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِ الْمَسِيحِ - الَّذِي هُوَ
بَيْتُ الْمَسِيحِ - دَلَّهُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ لِأَخْذِهِ وَيَقْتُلُوهُ.

الله جَلَّ وَعَلَا ألقى شبه المسيح على هذا الشخص الذي دله عليه، ورفع
المسيح من بينهم وهم لا يشعرون، فأخذوا هذا الرجل الذي عليه شبه المسيح
فقتلوه وصلبوه. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾
[النساء: ١٥٧]: شُبِّهَ لَهُمْ هذا الرجل الي دلهم على بيت المسيح ليأخذوه؛ ألقى
الله شبه المسيح عليه، وظنوا أنه هو، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، واستمرت
عقيدتهم الصليبية على هذا المنوال يزعمون أنهم قتلوا المسيح وأنهم صلبوه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ليس فيهم من ينكر منه شيئاً)، قد أنكره الله، هم
لا ينكرونه، ولكن الله أنكره، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ
لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، ألقى شبهه على الخبيث الذي دلهم على بيت المسيح
ليقبضوه، فألقى الله شبهه عليه فأخذوه يظنون أنه المسيح بناء على الشبه،
 وقتلوه وصلبوه، وصار مستمراً في عقديتهم الصليبية.

الآن فهمتهم حقيقة دين النصارى، هذه حقيقة دين النصارى - والعياذ بالله -.



فيا للعقول! كيف كان حال هذا العالم الأعلى والأسفل في هذه الأيام الثلاثة؟ وَمَنْ كان يُدبّر أمر السماوات والأرض؟ ومن الذي خَلَفَ الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه المدة؟ وَمَنْ كان الذي يُمسك السماء أن تقع على الأرض، وهو مَدْفُونٌ في قبره؟

ويا عجباً! هل دُفنت الكلمة معه بعد أن قُتلت وصُلبت؟ أم فارقته وخذلته أحوج ما كان إلى نَصْرها له، كما خذله أبوه وقومه؟
فإن كانت قد فارقتهُ وتجرّد منها فليس هو حينئذٍ المسيح، وإنما هو كغيره من آحادِ الناس.

وكيف يصحّ مفارقتها له بعد أن اتَّحدت به، ومازجت لحمه ودمه؟ وأين ذهب الاتحادُ والامتزاجُ؟

وإن كانت لم تفارقه، وقُتلت وصُلبت، ودُفنت معه، فكيف وصل المخلوق إلى قتل الإله، وصلبه ودفنه؟

ويا عجباً! أيّ قبر يسع إله السماوات والأرض؟

هذا وهو ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فيا للعقول! كيف كان حال هذا العالم الأعلى والأسفل في هذه الأيام الثلاثة؟ وَمَنْ كان يُدبّر أمر السماوات والأرض؟)، إذا كان الإله

دخل في فرج امرأة، وصار يشرب الدم، فمن الذي يدبر العالم في هذه الأيام الثلاثة؟!

يدبرها رجل في فرج امرأة، في بطن امرأة؟! تعالى الله عما يقولون، هذه عقديتهم - والعياذ بالله -.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن كان الذي يُمسك السماء أن تقع على الأرض، وهو مدفون في قبره؟)، هل المدفون في قبره يستطيع في هذه الأيام الثلاثة أن يدبر الكون - تعالى الله عما يقولون - لكن ليس لهم عقول، عقولهم فسدت.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ويا عجباً! هل دُفنت الكلمة معه بعد أن قُتلت وصُلبت؟ أم فارقته وخذلته أحوج ما كان إلى نصرها له)، هذه الحقيقة أن الكلمة - كلمة الله - فضحتهم وبينت كذبهم؛ فيما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي يَتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وهو يفضح دين النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن كانت لم تفارقه، وقُتلت وصُلبت، ودُفنت معه، فكيف وصل المخلوق إلى قتل الإله، وصلبه ودفنه؟)، هذه عقيدتهم - والعياذ بالله - أن الله الذي هو المسيح - بزعمهم أن الله هو المسيح ابن مريم، يقولون - أنه قُتِلَ وصُلبَ ودُفِنَ، ثم قام بعد ثلاثة أيام من القبر التي يسمونها القيامة عندهم - عقيدة القيامة - يعني قيام المسيح من القبر الذي زعموه، قام وصعد إلى السماء - تعالى الله عما يقولون - أي كذب أفضع من هذا الكذب في حق الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!!

إله، رب السماوات والأرض يدخل في فرج امرأة، يشرب من حيضها، ثم تلده -تعالى الله عما يقولون- ثم بعد ولادته وتعميره مدة في الدنيا يؤخذ ويقتل ويصلب.

يقولون: نعم، صُلبَ لأجل فداء البشرية من ذنب آدم لما أكل من الشجرة، هذه الأكاذيب يسمونها عقيدة الصلب والفداء أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فدى البشرية فصبر على القتل وعلى الصلب؛ فداء للبشرية من غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هل هذه عقيدة؟! نسأل الله العافية.



أَعْبَادَ الْمَسِيحِ لَنَا سُؤَالَ
إِذَا مَاتَ الْإِلَهُ بِصُنْعِ قَوْمٍ
وَهَلْ أَرْضَاهُ مَا نَالُوهُ مِنْهُ
وَإِنْ سَخِطَ الَّذِي فَعَلُوهُ فِيهِ
وَهَلْ بَقِيَ الْوُجُودُ بِإِلَهِ
وَهَلْ خَلَّتِ الطَّبَاقُ السَّبْعُ لَمَّا
وَهَلْ خَلَّتِ الْعَوَالِمُ مِنْ إِلِهِ
وَكَيْفَ تَخَلَّتِ الْأَمْلَاقُ عَنْهُ
وَكَيْفَ أَطَاقَتِ الْخَشَبَاتُ حَمْلَ الْا
وَكَيْفَ دَنَا الْحَدِيدُ إِلَيْهِ حَتَّى
وَكَيْفَ تَمَكَّنَتْ أَيْدِي عِدَاةِ
وَهَلْ عَادَ الْمَسِيحُ إِلَى حَيَاةِ
وَيَا عَجَبًا لِقَبْرِ ضَمِّ رَبِّا
أَقَامَ هُنَاكَ تِسْعًا مِنْ شُهُورٍ
وَشَقَّ الْفَرْجَ مَوْلُودًا صَغِيرًا
وَيَأْكُلُ، ثُمَّ يَشْرَبُ، ثُمَّ يَأْتِي
تَعَالَى اللَّهُ عَنِ إِفْكِ النَّصَارَى
أَعْبَادَ الصَّلِيبِ لِأَيِّ مَعْنَى
وَهَلْ تَقْضِي الْعُقُولُ بِغَيْرِ كَسْرِ
إِذَا رَكِبَ الْإِلَهُ عَلَيْهِ كُرْهَا

نُرِيدُ جَوَابَهُ مِمَّنْ وَعَاةُ
أَمَاتُوهُ فَمَا هَذَا الْإِلَهُ؟
فَبُشْرَاهُمْ إِذَا نَالُوا رِضَاهُ
فَقَوَّتُهُمْ إِذَا أَوْهَتْ قُورَاهُ
سَمِيعٍ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاةُ؟
ثَوَى تَحْتَ التُّرَابِ، وَقَدْ عَلَاهُ
يُدْبِرْهَا، وَقَدْ سُمِرَتْ يَدَاهُ؟
بِنَضْرِهِمْ، وَقَدْ سَمِعُوا بُكَاءُ؟
إِلَهُ الْحَقِّ مَشْدُودًا قَضَاهُ
يُخَالِطُهُ، وَيَلْحَقُهُ أَذَاهُ؟
وَطَالَتْ حَيْثُ قَدْ صَفَعُوا قَضَاهُ؟
أَمْ الْمُحْيِي لَهُ رَبِّ سِوَاهُ؟
وَأَعْجَبُ مِنْهُ بَطْنٌ قَدْ حَوَاهُ
لَدَى الظُّلُمَاتِ مِنْ حَيْضِ غِدَاهُ
ضَعِيفًا، فَاتِحًا لِلثَّنْدِي فَاهُ
بِالْأَزْمِ دَاكُ، هَلْ هَذَا إِلَهُ؟
سَيُسْأَلُ كُلُّهُمْ عَمَّا افْتَرَاهُ
يُعْظَمُ أَوْ يُقَبَّحُ مَنْ رَمَاهُ
وَإِخْرَاقٍ لَهُ وَكَيْنَ نَعَاهُ
وَقَدْ شَدَّتْ لِتَسْمِيرِ يَدَاهُ

فَذَاكَ الْمَرْكَبُ الْمَلْعُونُ حَقًّا فَدُسُّهُ، لَا تَبْسُهُ إِذْ تَرَاهُ
يُهَانُ عَلَيْهِ رَبُّ الْخَلْقِ طُرًّا وَتَعْبُدُهُ؟ فَإِنَّكَ مِنْ عِدَائِهِ
فَإِنْ عَظُمَتَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ قَدْ حَوَى رَبَّ الْعِبَادِ، وَقَدْ عَلَاهُ
وَقَدْ فُقِدَ الصَّلِيبُ، فَإِنْ رَأَيْنَا لَهُ شَكْلًا تَذَكَّرْنَا سَنَاهُ
فَهَلَّا لِلْقُبُورِ سَجَدَتْ طُرًّا لِضَمِّ الْقَبْرِ رَبِّكَ فِي حَشَاهُ
فَيَا عَبْدَ الْمَسِيحِ أَفِقْ فَهَذَا بِدَايَتِهِ وَهَذَا مُنْتَهَاهُ

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَعْبَادَ الْمَسِيحِ لَنَا سُؤَالٌ * نُرِيدُ جَوَابَهُ مِنْ وَعَاةٍ)، من نظم

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَذَاكَ الْمَرْكَبُ الْمَلْعُونُ حَقًّا * فَدُسُّهُ، لَا تَبْسُهُ إِذْ تَرَاهُ)،

لَا تَبْسُهُ: يعني لا تحبه، لا تحبه بفيك.



فصل

قد بانَ لكل ذي عقل أن الشيطان تلاعبَ بهذه الأمة الضَّالة كلَّ التلاعب، ودعاهم فأجابوه، واستخفهم فأطاعوه، فتلاعب بهم في شأن المعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وتلاعبَ بهم في أمر المسيح. وتلاعب بهم في شأن الصليب وعبادته. وتلاعبَ بهم في تصوير الصُّور في الكنائس وعبادتها، فلا تجدُ كنيسة من كنائسهم تَحُلُوْ عن صورة مريم، والمسيح، وجرجس، وبطرس، وغيرهم من القديسين عندهم، والشهداء. وأكثرهم يسجدون للصور، ويدعونها من دون الله تعالى، حتى لقد كتب بطريقُ الإسكندرية إلى ملك الروم كتابًا يحتج فيه للسجود للصور: بأن الله تعالى أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُصَوِّرَ فِي قُبَّةِ الزمان صورة الساروس، وبأن سليمان بن داود لما عمل الهيكل عمل صورة الساروس من ذهب، ونصَّبها داخل الهيكل.

ثم قال في كتابه: وإنما مثال هذا مثال الملك يكتبُ إلى بعض عمَّاله كتابًا، يأخذه العاملُ وَيُقْبَلُهُ وَيُضَعُّهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَيَقُومُ لَهُ، لَا تَعْظِيمًا لِلْقِرطاسِ وَالْمَدَادِ، بَلْ تَعْظِيمًا لِلْمَلِكِ، كَذَلِكَ السَّجُودُ لِلصُّورِ تَعْظِيمٌ لِاسْمِ ذَلِكَ الْمَصَوِّرِ، لَا لِلْأَصْبَاغِ وَالْأَلْوَانِ. وبهذا المثال بعينه عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتلاعبَ بهم في تصوير الصُّور في الكنائس وعبادتها)، يعني صور الصليب.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم قال في كتابه)، قال في كتابه: يعني النصراني.

وما ذكره هذا المشرك عن موسى وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لو صحَّ لم يكن فيه دليلٌ على السجود للصور.

وغايته أن يكون بمثابة ما يُذكر عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه نقش خطيئته في كفه لئلا ينساها، فأين هذا مما يفعله هؤلاء المشركون من التذلل، والخضوع، والسجود بين يدي تلك الصور؟

وإنما المثال المطابق لما يفعله هؤلاء المشركون: مثال خادمٍ من خُدّام الملك دخل على رَجُلٍ قريب من مجلسه، وسجد له وعبده، وفعل به ما لا يصلح أن يُفعل إلا مع الملك، وكلّ عاقل يستجهله ويستحمقه في فعله إذ قد فعلَ مع عبد الملك ما كان ينبغي له أن يُخصَّص به الملك دون عبيده من الإكرام، والخضوع، والتذلل.

ومعلومٌ أن هذا إلى مَقْتِ الملك له، وسُقوطه من عينه أقرب منه إلى إكرامه له، ورفع منزلته.

كذلك حال مَنْ سجد لمخلوق، أو لصورة مخلوق؛ لأنه عمَدَ إلى السجود الذي هو غاية ما يتوصل به العبدُ إلى رضا الربِّ، ولا يصلح إلا له، ففعله لصورة عبد من عبيده، وسوّى بين الله وبين عبده في ذلك، وليس وراء هذا في القبح والظلم شيء؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد فطر الله سبحانه عباده على استقباح معاملة عبيد الملك وخدمه بالتعظيم، والإجلال، والخضوع، والذل الذي يُعامل به الملك، فكيف حال مَنْ فعل ذلك بأعداء الملك؟

فإن الشيطان عدو الله، والمشرك إنما يشرك به، لا بولي الله ورسوله، بل رسول الله وأولياؤه بريئون ممن أشرك بهم، مُعَادُونَ لهم، أشد الناس مقتًا لهم، فهم في نفس الأمر إنما أشركوا بأعداء الله، وسوَّوا بينهم وبين الله في العبادة والتعظيم، والسجود، والذل.

ولهذا كان بطلان الشرك وقبحه معلومًا بالفطرة السليمة والعقول الصحيحة، والعلم بقبحه أظهر من العلم بقبح سائر القبائح.

والمقصود ذكر تلاعب الشيطان بهذه الأمة في أصول دينهم وفروعه كتلاعبه بهم في صيامهم فإن أكثر صومهم لا أصل له في شرع المسيح، بل هو مختلق مبتدع.

فمن ذلك: أنهم زادوا جمعة في بدء الصوم الكبير، يصومونها لهرقل ملك بيت المقدس.

وذلك أن الفرس لما ملكوا بيت المقدس، وقتلوا النصارى، وهدموا الكنائس، أعانهم اليهود على ذلك، وكانوا أكثر قتلاً وفتكًا في النصارى من الفرس، فلما سار هرقل إليه استقبله اليهود بالهدايا، وسألوه أن يكتب لهم عهدًا، ففعل. فلما دخل بيت المقدس شكوا إليه من فيه من النصارى ما كان اليهود صنعوه بهم، فقال لهم هرقل: وما تريدون مني؟ قالوا: تقتلهم، قال: كيف أقتلهم، وقد كتبت لهم عهدًا بالأمان؟ وأنتم تعلمون ما يجب على ناقض العهد. فقالوا له: إنك حين أعطيتهم الأمان لم تدر ما فعلوا من قتل النصارى، وهدم الكنائس، وقتلهم قربانًا إلى الله تعالى، ونحن نتحمّل عنك هذا الذنب

ونكفّرهُ عنك، ونسأل المسيح أن لا يؤاخذك به، ونجعل لك جمعة كاملة في بدء الصوم نصومها لك، ونترك فيها أكل اللحم مادامت النصرانية، ونكتب به إلى جميع الآفاق، غفراناً لما سألناك! فأجابهم، وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الخليل ما لا يُحصى كثرة.

فصيّروا أول جمعة من الصوم الذي يترك فيه المملّكية أكل اللحم، يصومونها لهرقل الملك، غفراناً لتقضه العهد، وقتل اليهود، وكتبوا بذلك إلى الآفاق. وأهل بيت المقدس وأهل مصر يصومونها. وبقية أهل الشام والروم يتركون اللحم فيها، ويصومون الأربعاء والجمعة. وكذلك لما أرادوا نقل ذلك إلى فصل الربيع المعتدل، وتغيير شريعة المسيح، زادوا فيه عشرة أيام عوضاً وكفارة لنقلهم له.

الشَّرْح

قوله رَحْمَةً لِلَّهِ: (وكذلك لما أرادوا نقل ذلك إلى فصل الربيع المعتدل، وتغيير شريعة المسيح، زادوا فيه عشرة أيام عوضاً وكفارة لنقلهم له)، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧]، ينقلون الصيام من وقت إلى وقت، هذا النسيء ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.



ومن ذلك: تلاعبه بهم في أعيادهم، وكلها موضوعة مختلفة، مُحدثةٌ بأرائهم واستحسانهم.

فمن ذلك عيد ميكائيل، وسببه أنه كان بالإسكندرية صنم، وكان جميع من بمصر والإسكندرية يُعيدون له عيدًا عظيمًا، ويذبحون له الذبائح، فولَّى بتركة الإسكندرية واحدًا منهم، فأراد أن يكسره، ويبطل الذبائح، فامتنعوا عليه، فاحتال عليهم، وقال: إن هذا الصنم لا ينفع ولا يضرُّ، فلو جعلتم هذا العيد لميكائيل ملك الله تعالى، وجعلتم هذه الذبائح له، كان يشفع لكم عند الله، وكان خيرًا لكم من هذا الصنم!

فأجابوه إلى ذلك، فكسر الصنم، وصيّره صُلبانًا، وسمى الكنيسة كنيسة ميكائيل، وسماها قيسارية، ثم احترقت الكنيسة وخربت، وصيروا العيد والذبائح لميكائيل. فنقلهم من كفر إلى كفر، ومن شرك إلى شرك.

فكانوا في ذلك كمجوسيّ أسلم، فصار رافضيًّا، فدخل الناس عليه يهتئون به، فدخل عليه رجل، وقال: إنك إنما انتقلت من زاوية من النار إلى زاوية أخرى.

ومن ذلك: عيد الصليب، وهو مما اختلقوه وابتدعوه فإن ظهور الصليب إنما كان بعد المسيح بزمان كثير، وكان الذي أظهره زورًا وكذبًا أخبرهم به بعض اليهود أن هذا هو الصليب الذي صُلب عليه إلههم وربهم. فانظر إلى هذا السند، وهذا الخبر!

فاتخذوا ذلك الوقت الذي ظهر فيه عيدًا، وسمّوه عيد الصليب، ولو أنهم فعلوا كما فعل أشباههم من الرافضة، حيث اتخذوا وقت قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مآتمًا وحرزًا، لكان أقرب إلى العقول.

وكان من حديث الصليب: أنه لما صُلب المسيح على زعمهم الكاذب، وقُتل ودُفِنَ، رُفِعَ من القبر إلى السماء، وكان التلاميذ كلَّ يوم يصيرون إلى القبر إلى موضع الصلب ويصلُّون.

فقالَت اليهود: إن هذا الموضع لا يخفى، وسيكون له نبأ، وإذا رأى الناس القبر خاليًا آمنوا به، فطرحوا عليه التراب والزبل، حتى صار مَزْبَلَةً عظيمة.

فلما كان في أيام قُسطنطين الملك جاءت زوجته إلى بيت المقدس تطلب الصليب، فجمعت من اليهود والسكان بيت المقدس والخليل مئة رجل، واختارت منهم عشرة، واختارت من العشرة ثلاثة اسمُ أحدهم يهوذا، فسألتهم أن يدلّوها على الموضع، فامتنعوا وقالوا: لا علم لنا بالموضع، فطرحتهم في الحبس في جُبٍّ لا ماء فيه، فأقاموا سبعة أيام، لا يُطعمون، ولا يُسقون، فقال يهوذا لصاحبيه: إن أباه عرّفه بالموضع الذي تطلب، فصاح الاثنان، فأخرجوهما، فخبّراها بما قال يهوذا، فأمرت بضربه بالسياط، فأقرّ، وخرج إلى الموضع الذي فيه المقبرة، وكان مَزْبَلَةً عظيمة، فصلّى.

وقال: اللهم، إن كان في هذا الموضع، فاجعله أن يتزلزل ويخرج منه دخان، فتزلزل الموضع، وخرج منه دخان.

فأمرت الملكة بكنس الموضع من التراب، فظهرت المقبرة، وأصابوا ثلاثة صُلبانٍ، فقالت الملكة: كيف لنا أن نعلم صليب سيدنا المسيح؟

وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة، قد أيس منه، فوُضِعَ الصليب الأول عليه، ثم الثاني، ثم الثالث، فقام عند الثالث، واستراح من عِلّته، فعلمت

أنه صليبُ المسيح، فجعلته في غلاف من ذهب، وحملته إلى قسطنطين. وكان من ميلاد المسيح إلى ظهور هذا الصليب: ثلاث مئةٍ وثلاث وعشرون سنة. هذا كله نقله سعيد بن بطريق النصراني في «تاريخه».

والمقصود: أنهم ابتدعوا هذا العيد بنقل علمائهم بعد المسيح بهذه المدة. وبعد، فسند هذه الحكاية من بين يهودي ونصراني، مع انقطاعها، وظهور الكذب فيها لمن له عقل من وجوه كثيرة. ويكفي في كذبها وبيان اختلاقها: أن ذلك الصليب الذي شفى العليل، كان أولى أن لا يُميتَ الإله الرب المحيي المميت.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبعد، فسند هذه الحكاية من بين يهودي ونصراني، مع انقطاعها، وظهور الكذب فيها لمن له عقل من وجوه كثيرة)، هذا رد ابن القيم عليها.



ومنها: أنه إذا بقي تحت التراب خشب ثلاث مئة وثلاث وعشرين سنة، فإنه يَنْحَرُ وَيَبْلَى لدون هذه المدة.

فإن قال عبّاد الصليب: إنه لما مَسَّ جسم المسيح حصل له الثبات والقوة والبقاء! قيل لهم: فما بال الصليبين الباقين لم يَتَفَتَّتَا واشتبهتا به؟ فلعلمهم يقولون: لما مَسَّت صليبه مَسَّها البقاء والثبات.

وجهل القوم وحمقهم أعظم من ذلك، والرَبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما تجلَّى للجبل تَدَكَّدَكَ الجبل، وساخ في الأرض، ولم يثبت لِتَجَلِّيهِ، فكيف ثبت الخشبة لركوبه عليها في تلك الحال؟

ولقد صدق القائل: إن هذه الأمة عازٌّ على بني آدم أن يكونوا منهم. فإن كانت هذه الحكاية صحيحةً، فما أقربها من حيل اليهود التي تخلصوا بها من الحبس والهلاك!

وحيل بني آدم تصل إلى أكثر من ذلك بكثير، ولا سيما لما علم اليهود أن ملكة دين النصرانية قاصدة إلى بيت المقدس، وأنها تعاقبهم حتى يَدُلُّوها على موضع القتل والصلب، وعلموا أنهم إن لم يفعلوا لم يتخلصوا من عُقوبتها.

ومنها: أن عبّاد الصليب يقولون: إن المسيح لما قُتِلَ غار دمه، ولو وقع منه قُطْرَةٌ على الأرض لبيست ولم تنبت.

فيا عجباً! كيف يَحْيَا الميت، وبرأ العليل بالخشبة التي شُهر عليها وُصِّلَ؟ أهذا كله من بركتها، وفرحها به، وهو مشدود عليها يبكي ويستغيث؟

ولقد كان الأليق أن يَنْفَتَّت الصليبُ ويضمحلُّ لهيئة من صُلب عليه وعظمته، تُحَسِّف الأرض بالحاضرين عند صلبه، والمتماثلين عليه، بل تتفطر السماوات، وتنشق الأرض، وتخزُّ الجبال هُدًا.

ثم يقال لعباد الصليب: لا يخلو أن يكون المصلوب الناسوت وحده، أو مع اللاهوت: فإن كان المصلوب هو الناسوت وحده، فقد فارقتُه الكلمة، وبطل اتحادها به، وكان المصلوب جسدًا من الأجساد، ليس بإله، ولا فيه شيء من الإلهية والربوبية البتة.

وإن قلتُم: إن الصَّلب وقع على اللاهوت والناسوت معًا، فقد أقررتُم بصلب الإله وقتله وموته، وقدرة الخلق على أذاه، وهذا أبطلُّ الباطل، وأحلُّ المحال. فبطل تعلقكم بالصليب من كل وجه عقلاً وشرعًا.

وأما تلاعبه بهم في صلاتهم فمن وجوه:

أحدها: صلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة، والمسيح بريء من هذه الصلاة، وسبحان الله أن يُتَقَرَّب إليه بمثل هذه الصلاة! فَقَدْرُهُ أَعْلَى، وشأنه أَجْلٌ من ذلك.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأما تلاعبه بهم في صلاتهم فمن وجوه)، قال رَحْمَةُ اللَّهِ مَبِينًا تلاعب الشيطان ببني آدم، ومن ذلك: تلاعبه بهم في الصلاة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (أحدها: صلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة)، يقصد النصراني، فإن من مصائد الشيطان التي صادهم بها: أنهم يتقربون إلى الله

بالنجاسات والقاذورات والأوساخ، ويزعمون أن هذا مما يحبه الله، ويأتون به من باب التواضع مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا باطل.

والله جَلَّ وَعَلَا جميل يحب الجمال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يحب النظافة، يحب الطهارة، يحب التوايين، ويجب المتطهرين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والمسيحُ بريء من هذه الصلاة)، المسيح الذي يزعمون، المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي يزعمون اتباعهم له واقتدائهم به بريءٌ منهم ومن أعمالهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسبحان الله أن يُتَقَرَّبَ إليه بمثل هذه الصلاة! فَقَدْرُهُ أَعْلَى، وشأنه أَجَلُّ من ذلك)، التحيات لله والطيبات.

الطيبات لله عَزَّ وَجَلَّ، الكلمات الطيبات والأعمال الصالحة، وكل طيب؛ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

فهو منزّه عما يزعمه هؤلاء النصارى من التقرب إليه بالنجاسات والقاذورات والأوساخ.



ومنها: صلاتهم إلى مشرق الشمس، وهم يعلمون أن المسيح لم يصل إلى المشرق أصلاً، وإنما كان يُصلي إلى قبلة بيت المقدس.

ومنها: تصليبهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة، والمسيح بريء من ذلك.

فصلاةً مفتاحها النجاسة، وتحريمها التصليب على الوجه، وقبالتها الشرق، وشعارها الشرك: كيف يخفى على العاقل أنها لا تأتي بها شريعة من الشرائع البتة؟

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: صلاتهم إلى مشرق الشمس)، النصراني يستقبلون الشرق، يستقبلون مشرق الشمس ويقولون: أنه مطلع الأنوار.

وهذا من عندهم لم يشرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما شرع الصلاة إلى بيت المقدس الذي هو مسجد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يستقبلون بيت المقدس.

وكان المسلمون في أول الإسلام يستقبلون بيت المقدس في صلاتهم، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - محمد - يجب أن يستقبل قبلة أبيه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكعبة المشرفة؛ ﴿قَدْ زَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾: كان يتحرى أن الله يأمره باستقبال الكعبة، فحقق الله له ذلك.

﴿قَدْ زَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الكعبة المشرفة.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]: قرييين أو بعيدين

استقر الأمر على هذا - والله الحمد - قبله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنها: صلاتهم إلى مشرق الشمس، وهم يعلمون أن المسيح لم يصل إلى المشرق أصلاً، وإنما كان يُصَلِّي إلى قبلة بيت المقدس)، قبله الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فكان دينه دين الأنبياء يستقبل ما يستقبلون، وكانوا يستقبلون بيت المقدس.

وكان المسلمون في أول الإسلام يستقبلون بيت المقدس، ثم إن الله أمرهم باستقبال الكعبة المشرفة، واستقر الأمر على هذا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنها: تصليهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة، والمسيح بريء من ذلك)، تصليهم: يعني يرسمون الصليبان على وجوههم. والصليب صورة يزعمون أنه صورة المسيح وهو مصلوب؛ لأن اليهود - يزعمون - أنهم قتلوا عيسى بن مريم وصلبوه، وكذبوا في ذلك.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: ألقى شبهه على الذي دهم على مكان عيسى، فظنوا أنه هو فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]: هذا أصل الصليب.

وهذا من غباوتهم، كيف يزعمون أن نبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُتِلَ وَصُلِبَ، وهم يرضون بذلك ويتعبدون به؟!

وكان الواجب عليهم أن يسكروا كل صليب على وجه الأرض؛ لأنه عار عليهم، والمسيح لم يقتل ولم يصلب، بل رفعه الله إليه من بينهم؛

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]: ألقى شبه المسيح على الرجل الذي دهم على مكان المسيح ليقتلوه، ألقى الله شبه المسيح على هذا الرجل فأمسكوه يظنونه المسيح فقتلوه وصلبوه على الخشبة، هذا أصل الصليب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومنها: تصليبهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة، والمسيح بريء من ذلك)، كانوا يرسمون الصلبان على وجوههم؛ تعظيماً لها مع أنها عار عليهم؛ إذ كيف يرضون لنبيهم أن يقتل ويصلب وهو بريء من ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ!؟

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فصلاةٌ مفتاحها النجاسة)، لا يتطهرون من النجاسة، ويتقربون إلى الله بذلك، ويصلون -بزعمهم- وعليهم النجاسة، ويظنون أن هذا عبادة لله.

والله لا يرضى بذلك، فلا يرضى بالنجاسات والأوساخ، وإنما يرضى بالطهارة والنظافة، الله جميل يحب الجمال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فصلاةٌ مفتاحها النجاسة، وتحريمها التصليب على الوجه، وقبلتها الشرق، وشعارها الشرك: كيف يخفى على العاقل أنها لا تأتي بها شريعة من الشرائع البتة؟)، ومثل هذه العبادة التي تجتمع فيها هذه الأوصاف القبيحة لا يشرعها الله، ولا يمكن أن تأتي بها شريعة من شرائع الله عَزَّجَلَّ وهم يزعمون أنها شريعة المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



ولمّا علمت الرّهبان والمطارنة والأساقفة أن مثل هذا الدّين تنفر عنه العقول أعظم نفرة، شدّوه بالحيل والصُّور في الحيطان، بالذهب واللازورد والزّنجفر، وبالأرغل، وبالأعياد المحدثّة، ونحو ذلك مما يروّج على السفهاء وضعفاء العقول والبصائر.

وساعدهم ما عليه اليهود من القسوة، والغلظة، والمكر، والكذب، والبُهت، وما عليه كثير من المسلمين من الظلم، والفواحش، والفجور، والبدعة، والغلوّ في المخلوق، حتى يتخذها إلهاً من دون الله، واعتقاد كثير من الجهال أن هؤلاء من خواصّ المسلمين وصالحهم.

الشّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولمّا علمت الرّهبان)، الرّهبان من النصارى، الرّهبان: يعني العباد، الرّهبان من النصارى؛ ﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾: الأحرار لليهود، والرّهبان للنصارى.

﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: يعبدونهم ويدعونهم ويشركون بهم، واتخذوا ﴿وَأَلْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرًا﴾.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أُمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]: فعبادتهم شرك وباطلة، وهم لا يزالون مصرين عليها -والعياذ بالله- وهي ضلال، مع أن دين محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نسخ جميع الأديان، فلم يبق دين يقبله الله بعد بعثة

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا دين محمد وهو دين أبيه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، ونحن -والحمد لله- على ملة أبينا إبراهيم وعلى دين نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولمَّا علمت الرَّهْبَانُ، الرَّهْبَانُ، الرَّهْبَانُ من النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والمطارنة)، جمع مطران، وهم -أيضًا- من النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والأساقفة)، والأساقفة: جمع أسقف، وهو من النصارى

أيضًا، كل هذه من النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولمَّا علمت الرَّهْبَانُ والمطارنة والأساقفة أن مثل هذا

الدِّين تنفُرُ عنه العقول أعظم نُفْرَةً، شَدُوهُ بِالْحَيْلِ وَالصُّوَرِ فِي الْحَيْطَانِ،

بِالذَّهَبِ وَاللَّازُورِدِ وَالزَّنْجَفْرِ، وَبِالْأَرْغُلِ، وَبِالْأَعْيَادِ الْمُحَدَّثَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا

يُرْوَجُ عَلَى السَّفَهَاءِ وَضَعْفَاءِ الْعُقُولِ وَالبصائر)، زِينَةُ بِزِينَةِ الذَّهَبِ، هَذِهِ

الشعائر الباطلة زِينَتُهَا وَذَهَبُهَا لِيَقْبَلَهَا النَّاسُ بِأَلْوَانِ جَذَابَةٍ، وَهِيَ بَاطِلٌ

وَكُذْبٌ وَزُورٌ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بَرِيءٌ مِنْهَا وَمَنْ قَبِلَهَا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وساعدهم ما عليه اليهود من القسوة، والغلظة، والمكر،

والكذب، والبُهْت)، اليهود فرحوا بهذه الخرافات من دين النصارى،

وروجوها حتى يكيدوا للنصارى، فهم يبغضونهم ويعادونهم في الباطن وإن

كانوا يتملقونهم في الظاهر؛ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما عليه كثير من المسلمين من الظلم، والفواحش،

والفجور، والبِدْعَة، والغلوّ في المخلوق)، انضم إليهم من المسلمين مثل

هؤلاء المشركين الذين يعبدون القبور ويستشفعون بالأموات، وهم ليسوا

من المسلمين، لكن يتسمون بالإسلام، والإسلام برئ منهم، ومن دينهم وعبادتهم.

وليس هذا هو الدين الذي شرعه الله لعباده، وإنما هو الدين الذي أحدثه اليهود وتبنته النصارى وروجوه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما عليه كثير من المسلمين من الظلم، والفواحش، والفجور، والبدعة)، يوجد في المسلمين هؤلاء الذين أفسدوا دينهم وعبدوا الأموات من دون الله، وبنوا المشاهد على القبور، وهم يتسمون بالإسلام، والإسلام برئ منهم ومما يعملون، الإسلام برئ من كل خرافات ومن كل ضلالات ومن كل أكاذيب.

الإسلام دين، وحي منزل من الله جَلَّ وَعَلَا على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يبق عليه إلا المخلصون من المسلمين، أهل التوحيد وأهل الاستقامة هم الذين بقوا على الدين الصحيح الذي هو من دين إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والبدعة، والغلو في المخلوق، حتى يتخذه إلهًا من دون الله)، الغلو في المخلوقين يزعمون أن الصالحين والعباد أنهم يقربونهم إلى الله. يقولون: نحن مذنبون، ولنا خطايا وسيئات، وهؤلاء مقربون من الله، ونحن نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله، يشفعوا لنا عند الله.

هل الله أغلق أبوابه عنكم حتى تأتوا بمن يشفع لكم عند الله؟! لا تحتاجون إلى هذا، القرآن واضح والسنة واضحة، تعلموها واعملوا بها تكونوا أحسن من على وجه الأرض من أهل الدين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واعتقادُ كثيرٍ من الجهال أن هؤلاء من خواصّ المسلمين وصالحهم)، وليسوا كذلك، ليسوا من المسلمين أصلاً، فكيف يكونون من خواصّ المسلمين؟!

إنما المسلمون من استقاموا على دين الله عَزَّجَلَّ الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء به الأنبياء من قبله، دين الأنبياء، دين إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إفراد الله بالعبادة وألا يعبد الله إلا بما شرع، لا يعبد بالخرافات والبدع والمحدثات والمنامات وما أشبه ذلك، كل هذا باطل وهذا عليه كثير منهم.



فترَكَّب من هذا وأمثاله تَمَسُّكُ القوم بما هم فيه، ورؤيتهم أنه خيرٌ من كثير مما عليه المنتسبون إلى الإسلام من البدع، والفجور، والشرك، والفواحش.

ولهذا لما رأى النصارى الصحابة وما هم عليه، آمن أكثرهم اختيارًا وطوعًا، وقالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء.

ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيرًا من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام ممن يُعَظِّمُهم الجهال، من البدع والظلم، والفجور، والمكر، والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع، فسَاءَ ظَنُّهُم بالشرع وبمن جاء به.

فالله طليبُ قُطَاعِ طريقِ الله، وحسيبهم!

فهذه إشارة يسيرة جدًّا إلى تلاعب الشيطان بعباد الصليب، تدلُّ على ما

بعدها، والله الهادي الموفق!

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فترَكَّب من هذا وأمثاله تَمَسُّكُ القوم بما هم فيه، ورؤيتهم أنه خيرٌ من كثير مما عليه المنتسبون إلى الإسلام من البدع، والفجور، والشرك، والفواحش)، هم الذين يتمسحون بالقبور، وينون عليها المشاهد ويسخرون من المستقيمين على دين الله، يسخرون منهم - من أهل التوحيد - ويعادونهم، ويقاطعونهم، ولا يزال هذا إلى الآن، بل هو في زيادة، إلا من تمسك بهذا الدين الحنيف، لكنه يحتاج إلى صبر، وعلم، وإيمان، وهذا يمنُّ الله به على من يشاء من عباده.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولهذا لما رأى النصارى الصحابة وما هم عليه، آمن أكثرهم اختياراً وطوعاً، وقالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء)، لما رأى النصارى الذين يتحرون الحق ويريدون الحق عبادة المسلمين وما عليه صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عليه التابعون ومن جاء بعدهم من أهل السنة والجماعة شهدوا لهم، وقالوا: هذا هو الدين الصحيح الذي جاءت به الأنبياء، فأمن كثيرٌ منهم وتركوا ما هم عليه.

المسلم يدعو إلى الله وإن لم يتكلم، يدعو إلى الله بسلوكه، وبصدقه، وإخلاصه وبسمته، يدعو إلى الله وإن لم يتكلم، مجرد ما إن يراه الناس يعلمون أنه على الحق مما ظهر عليه، ومن سلوكه ومن سيرته، هذا شيء واضح في المسلمين المستقيمين، دعاء إلى الله وإن لم يتكلموا، دعاء بأفعالهم قبل أقوالهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب إلى الإسلام)، يقول الإمام ابن القيم: وقد دعونا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام ممن يُعَظَّمُهم الجهال، من البدع والظلم، والفجور، والمكر، والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع، فسَاءَ ظَنُّهم بالشرع وبمن جاء به)، دعاء الضلال هم الذين شوها الإسلام، وزيفوا الحقائق، وجعلوا البدع والمحدثات بل والشركيات هي دين الإسلام -والعياذ بالله-.

البناء على القبور والعكوف عندها يزعمون أن هذا من دين الإسلام، وهذا من أبطل الباطل.

دين الإسلام دين التوحيد، دين الحنيفية، ملة إبراهيم الذي قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٦) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنِي وَلَا آخِافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴿[الأنعام: ٧٩، ٨٠]، هذا مقام إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فكادوا له، وأوقدوا نارًا عظيمة بين الجبال؛ كانت الطيور إذا مرت من الجو سقطت من حرها، وجاؤوا بالمنجنيق، لا يقدر أن يقذفوا من هذه النار؛ من حرها وشدتها، فجاؤوا بالمنجنيق، ووضعوا فيه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فرموا به.

قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

أصبحت روضة خضراء، أصبحت هذه النار العظيمة - التي تحرق ما حولها - روضة خضراء، وجلس فيها إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آمنًا مطمئنًا.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾: لم يقل: ﴿بَرْدًا﴾ فقط، لو قال: ﴿بَرْدًا﴾ فقط لقتلته بالبرودة، لكن قال: ﴿وَسَلَامًا﴾، ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، هذه قدرة الله جَلَّ وَعَلَا، وهذه جهود الكفار والمشركين، المسلم إذا ثبت على دينه لا يقف أمامه أحد.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيرًا من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام ممن

يُعَظِّمُهُمُ الْجَهَالُ، مِنْ الْبَدْعِ وَالظُّلْمِ، وَالْفُجُورِ، وَالْمَكْرِ، وَالْاِحْتِيَالِ، وَنَسَبَةَ ذَلِكَ إِلَى الشَّرْعِ، فَسَاءَ ظَنُّهُمْ بِالشَّرْعِ وَبِمَنْ جَاءَ بِهِ)، وَهَذَا الَّذِي صَدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ: الَّذِي يَرُونَهُ مِنْ حَالِ الْمُتَنَسِّبِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهُمْ عَلَى شَرِّ وَضَلَالٍ وَبَدْعٍ وَخِرَافَاتٍ، يُتَسَمَّوْنَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِسْلَامِ، هَذَا الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مُسْلِمِينَ.

ولهذا يقول بعض الحكماء: الإسلام محجوب بأهله، محجوب بأهله: يعني المتنسبين إليه وهم على شر وشرك وبدع وخرافات ويتسمون بالإسلام، فحجبوا الناس عن الإسلام، قالوا: هذا هو الإسلام؟! ظنوا أن هذا هو الإسلام، فحاربوه وابتعدوا عنه.

الإسلام هل يعني رفع القبور ووضع السدنة عندها، وجعلها تُعبد من دون الله، وتُطلب منها الشفاعة، هل هذا هو الإسلام؟! هذا دين المشركين، وليس هو الإسلام.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فهذه إشارة يسيرة جداً إلى تلاعب الشيطان بعباد الصليب، تدل على ما بعدها)، بيّن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الكلام السابق بين ما عليه النصارى من الضلال والكفر والشرك، وقُلْ مثله في المتنسبين إلى الإسلام: القبوريين.

القبوريون منتسبون إلى الإسلام، ويظنون أن هذا هو الإسلام؛ ولهذا قالوا: الإسلام محجوب بأهله، أي: بأهله أمثال هؤلاء.

الإسلام الصحيح بريءٌ من هذا كله، ولكن من استقام عليه يُعَادَى، وَيُقَاتَلُ، وَيُنْفَرُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى ثَبَاتٍ وَيَقِينٍ بِرَبِّهِ عَزَّجَلَّ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منعهم البغي والحسد من أن يتبعوه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، باءوا بغضب جديد على غضب قديم - والعياذ بالله - هم في الأصل على غضب، ثم أضافوا إليه غضبًا جديدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، توعدهم الله، ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ﴾: أولاً: حكم عليهم بالكفر، ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ﴾: حكم عليهم بالكفر وأخبر أن لهم عذاباً مهيناً يهينهم، توعدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

على المسلم أن يعرف دينه معرفة صحيحة؛ لأن هناك كثير من الأمور التي تنسب إلى الإسلام وهي ليست منه، نفرت من يريد الإسلام، ولهذا يقولون: الإسلام محبوب بأهله: يعني بالمنتسبين إليه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠])، لما طعنوا في المسلمين قال الله جَلَّ وَعَلَا: هل؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، ﴿بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾: الذي تنبذون به المسلمين، أنتم على شر أشد مما تنسبونوه إلى المسلمين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾)، ﴿مَثُوبَةً﴾: يعني مرجعاً إلى الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾: وهم اليهود والنصارى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ﴾: مسخهم الله - والعياذ بالله - فتحولوا من صور آدميين إلى صور قردة وخنازير أحسن الحيوانات لما غيروا دين الله عَزَّجَلَّ وكذبوا على الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾)، ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: يعني من اليهود والنصارى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يوالون: يعني يتولونهم: يعني يوالونهم، ويصادقونهم، ويروجون ما هم عليه، وهم ينتسبون إلى الإسلام، وكذلك من ينتسب إلى دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى دين عيسى، هم ينتسبون إلى دين الأنبياء وهم على غير دين الأنبياء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، هذا ما قدموه لأنفسهم: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].



وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يَهْدِينَا صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. وثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالُّون»^(١).

الشَّرْح

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يَهْدِينَا صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، هذا في كل ركعة من صلواتنا نقرأ الفاتحة، وفيها: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]: من هم الذين أنعم الله عليهم؟

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: وهم اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وهم النصارى.

قوله رَحْمَةُ اللهِ: (وثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالُّون»)، اليهود مغضوب عليهم؛ لأن عندهم علم، ولم يعملوا به، أما النصارى فهم ضالون؛ لأنهم على غير علم وعلى غير دين صحيح.



فأولُّ تلاعب الشيطان بهذه الأمة: في حياة نبيِّها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون، وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قومًا يَعْكُفُونَ على أصنامهم، فقالوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. فأبي جهلٍ فوق هذا؟ والعهد قريبٌ، وإهلاك المشركين أمامهم برأي عيونهم، فطلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل لهم إلهًا، فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجموعًا؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه، والمجموع مؤيدٌ مصنوعٌ، فيستحيل أن يكون إلهًا.

وما أكثر الخلف هؤلاء في اتخاذ إله مجموع، فكل من اتخذ إلهًا غير الله فقد اتخذ إلهًا مجموعًا!

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلما جاوزوا البحر رأوا قومًا يَعْكُفُونَ على أصنامهم، فقالوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨])، هذا وهم على قرب من عدوهم وهلاك عدوهم ونجاتهم.

لما رأوا الذين يعكفون على الأصنام، ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿[الأعراف: ١٣٨-١٤١].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فطلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إلهًا، فطلبوا من مخلوق أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجموعًا؟)، ﴿أَجْعَلْ لَنَا إلهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨]، هل الإله يُجْعَل، أو الإله هو الذي يُجْعَل؟ هذا من الانتكاس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول، فكل من اتخذ إلهًا غير الله فقد اتخذ إلهًا مجموعًا!)، ليست المسألة قاصرة على اليهود، كل من عبد غير الله فقد اتخذ إلهًا مجموعًا، وليس جاعلاً، وهل الإله يُجْعَل؟! يعني مثلما يقولون: إن من جهال العرب من يعبد التمرة، ثمرة معه يعبدها، فإذا جاع أكلها، كيف يأكلها وهو كان يعبدها؟!)



وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنه كان في بعض غزواته، فمروا بشجرة يُعَلَّقُ عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم، يسمونها ذات أنواطٍ. فقال بعضهم: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ! فقال: «الله أكبر! قلتكم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]! ثم قال: لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَدَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ»^(١).

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان في بعض غزواته، فمروا بشجرة يُعَلَّقُ عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم)، يتبركون بها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ثم قال: لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَدَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ)، التقليد الأعمى، «حَتَّى تُوَدَّخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَا خَلْتُمُوهُ»، تقليد من غير بصيرة.



فصل

ومن تلاعبه بهم: عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حلّ بالمشركين من العقوبة، والأخذة الربية، ونبههم حَيٌّ لم يمت. هذا، وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويُصَلِّيه النارَ، وَيُدْقُّه بالمطرقة، وَيَسْطُو عليه بالبرد، وَيُقَلِّبه بيديه ظهرًا لبطن.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه بهم: عبادتهم العجل من دون الله تعالى)، العجل، إنما عبدوا العجل الذي صنعه السامري، جمع الحلي الذي مع نساء بني إسرائيل من الذهب وصاغه على صورة عجل مجوف، يدخل الهواء من جانب ويخرج من جانب ويصير له صوت -الهواء- ﴿لَّهُ خَوَارٌ﴾ [طه: ٨٨]. هذا الهواء الذي يدخل فيه، ظنوا أن العجل هو الذي يصيح، وإنما يدخل الهواء من جانب ويخرج من جانب فيصير له صوت.

﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾: ذهب موسى إلى ربه لمناجاته على موعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ليعطيه التوراة، فتلاعب بهم السامري، وجمع ما معهم من الحلي والذهب فصاغه عجلًا مجوفًا يدخل الهواء من جانب ويخرج من جانب ويصير له صوت، ﴿لَّهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، يقول لهم: موسى لم يعرف أين ربه،

هذا هو، وقد ذهب يبحث عن ربه، ﴿فَنَسِيَ﴾ -والعياذ بالله- هكذا تلاعب
الشیطان بهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (هذا، وقد شاهدوا صَانِعَهُ يصنعه ويصوغه، وَيُصَلِّيه
النار)، وهو السامري.



ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يَكْتَفُوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشرك، وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعا عن نفسه، بحيث يُضْرَبُ به المثلُ في البلادة والذُّلِّ، فجعلوه إله كلِّم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك، حتى جعلوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضالاً مخطئاً، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

قال ابن عباس^(١): أي ضلَّ وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه^(٢): أي إن موسى ذهب يطلب ربه، فَضَلَّ، ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضاً^(٣): نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم.

وقال السُّدِّيُّ^(٤): أي ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه.

وقال قتادة^(٥): أي إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نَسِيَهُ وخالفه في

طريق آخر.

على هذا القول المشهور أن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامريِّ وعُبَّاد

العجل معه.

(١) انظر التفسير البسيط (٥٠٠/١٤).

(٢) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٣٢/٧)، والدر المنثور (٥٨٨/٥).

(٣) أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥٩٥/٥).

(٤) أخرجه الطبري (٦٧٠/١).

(٥) التفسير البسيط (٥٠٠/١٤).

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى)، ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨].

موسى ذهب يبحث عن إله، وهذا هو عندكم، ﴿فَنَسِيَ﴾: نسى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب يبحث عنه وهو عندكم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فنسبوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشرك، وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعاً عن نفسه)، وهو العجل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم لم يكتفوا بذلك، حتى جعلوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضالاًً مخطئاً، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨])، يعني لم يعرف أن هذا هو إلهه، وذهب يبحث عن إلهه.



وعن ابن عباس رواية أخرى^(١): أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري أنه نسي: أي ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه.

ولم يذكر البخاري في التفسير^(٢) غيره، فقال: يقول: أخطأ الرب.

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: فنسي.

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم!

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً مَصُوعاً من جَوْهر أَرْضِي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سَبْكِ بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلَّباً في النار مرة بعد مرّة، قد نُحِتَ بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضميم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه)، أن الذي

نسي بزعمهم هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) أخرجه الطبري (١/٦٧٢، ١٦/١٤١).

(٢) فتح الباري (٨/٤٣٣).

قال محمد بن جرير^(١): وكان سبب اتخاذهم العجل: ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي، حدثنا سفيان ابن عيينة، قال: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرسٍ أدهم حصان، فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحّم خلفها.

قال: وعرف السامري جبريل، فقبض قبضة من أثر فرسه، قال: أخذ من تحت الحافر قبضة.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرأها: «فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ».

قال عكرمة عن ابن عباس: وألقي في روع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كُنْ كذا وكذا، إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وغرق الله آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعده ربه.

قال: وكان مع بني إسرائيل حَيٌّ من حلي آل فرعون قد استعاروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله.

فلما جمعه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وقال: كن عَجَلًا جَسَدًا له خَوَارٌ، فصار عَجَلًا جَسَدًا له خوار، فكان يدخل الريح من دُبُرِهِ ويخرج من فيه، يُسْمَعُ له صوت.

(١) أخرجه الطبري (١/٦٩٩).

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

وقال السدي^(١): لما أمر الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، أَمَرَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَخْرُجُوا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَعِيرُوا الْحُلِيَّ مِنَ الْقِبْطِ.

فلما نَجَّى اللهُ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْبَحْرِ، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، أَتَىٰ جَبْرِيْلُ إِلَىٰ مُوسَىٰ لِيَذْهَبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى فِرْسٍ، فَرَأَاهُ السَّامِرِيُّ، فَأَنْكَرَهُ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ فِرْسُ الْحَيَاةِ، فَقَالَ حِينَ رَأَاهُ: إِنَّ هَذَا لَشَأْنًا، فَأَخَذَ مِنْ تَرْبَةِ حَافِرِ الْفِرْسِ، فَاذْهَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَخْلَفَ هَارُونَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَوَعَدَهُمْ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، فَأَتَمَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِعِشْرٍ.

فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل! إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حُلِيَ الْقِبْطِ إِنَّمَا هُوَ غَنِيْمَةٌ، فَاجْمَعُوا جَمِيعًا وَاحْفَرُوا لَهَا حُفْرَةً، فَادْفَنُوهَا، فَإِنْ جَاءَ مُوسَىٰ فَأَحْلَهَا أَخَذْتُمُوهَا، فَجَمَعُوا ذَلِكَ الْحَلِي فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ.

وجاء السامريّ بتلك القبضة، فقدفها، فأخرج الله من الحلي عجلًا جسدًا له خوارًا، فلما رأوه وقال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، يقول: ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي.

(١) أخرجه الطبري (١/ ٦٧٠).

فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل! ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ﴾ يقول: إنما ابتليتكم بالعجل، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى الله يكلمه.

فلما كلمه قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿ [طه: ٨٣-٨٥]، فأخبره خبرهم.

قال موسى: يا رب! هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب! أنت إذا أضللتهم!

وقال ابن إسحاق^(١)، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل.

فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: إنكم قد حملتم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعة وحلياً، فتطهروا منها فإنها نجس، وأوقد لهم ناراً، فقال: اقدفوا ما كان معكم من ذلك فيها.

فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقدفون به فيها، حتى إذا انكسر الحلي فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار.

فقال لهارون: يا نبي الله! ألقى ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقدفه فيها، فقال: كُنْ عَجَلًا

(١) أخرجه الطبري (١/٦٧٢).

جسدًا له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حبًّا لم يحبُّوا شيئًا مثله قط.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَانْبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿[طه: ٩٠، ٩١]! فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، وكان له هائبًا مطيعًا.

فقال تعالى مذكّرًا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]، يعني: من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، أي: بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشرك أظلم الظلم، لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قَدِمَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورأى ما أصاب قومه من الفتنة، اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلامُ الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يَعْتَبِ الله عليه في ذلك؛ لأنه حملة عليه الغضبُ لله.

وكان الله عَزَّوَجَلَّ قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال مشاهدةً حدث له غضب آخر فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلامُ الله الذي كتبه له)، ألقى ألواح التوراة من على رأسه لشدة الغضب فتكسر بعضها.



فصل

وَمِن تَلَاعِبِ الشَّيْطَانِ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِي حَيَاةِ نَبِيِّهِمْ أَيْضًا: مَا قَصَّه اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أَي عَيَانًا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه الله تعالى في كتابه حيث يقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أَي عَيَانًا)، ومن تلاعب الشيطان بأمة اليهود: أنه - كما قص الله جَلَّ وَعَلَا عنهم في القرآن - حيث قالوا لنبيهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَلِيمِ اللَّهِ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما واعده الله أنه سيكلمه - لأنه كليم الله - في الليلة الأربعين من الموعد ذهب معه ببني إسرائيل؛ تشریفًا لهم.

فلما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لموعد الله له أنه سيكلمه، وكلمه ربه، ثم رجع إلى قومه بني إسرائيل، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، يقولون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سمعوا كلامه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾!

يريدون أن ينزلوا أنفسهم منزلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كلمه ربه زاد شوقه إلى الله، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ محبة لربه، ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني: في الدنيا؛ لأن لا أحد يرى الله في الدنيا، وإنما رؤية الله جل وعلا لأهل الجنة يوم القيامة؛ ولذلك قال: ﴿لَنْ﴾، أتى بـ﴿لَنْ﴾، وهي للنفي غير المؤبد.

﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾؛ لأن موسى عليه السلام لا يطيق رؤية الله عز وجل يتجلى له؛ فموسى عليه السلام جسم من لحم ودم.

﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾: جبل عند موسى عليه السلام.

﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾: الجبل الأصم، حجارة.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: ظهر جل وعلا للجبل اندك الحبل وصار تراباً

من عظمة الله، ومهابته وخشيته سبحانه وتعالى.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾: بدل أن كان حجارة صلبة

صار تراباً من مهابة الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾: سقط موسى على الأرض مغشياً عليه من هيبته

الله سبحانه وتعالى.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾: موسى عليه السلام من غشيته.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ بُتُّ إِلَيْكَ﴾: تبت إليك من هذا السؤال، ﴿وَأَنَا

أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

التوبة عن ماذا؟ عن طلبه أن يرى الله جهرة.

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ۗ ﴾ ظهر الله للجبَل فخر موسى صعقًا، وُعُشِيَ عليه من هيبة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ ۗ ﴾ من الغشية، ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ۗ ﴾: نزّه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، نزّهه عن هذا السؤال.

﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾: المؤمنون بالغيب، يؤمنون بالله بالغيب وهم لم يروه، ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾. فذكّره الله بما أنعم عليه: ﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ ۗ ﴾ أي: اخترتك، ﴿ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخَذَ مَا آتَيْتُكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۗ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿ فَخَذَ مَا آتَيْتُكَ ۗ ﴾: يكفي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله، يكلمه ربه، ويسمع موسى كلامه ويسأل ربه، ويسمع الله كلام موسى، هذا شرف عظيم.

﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخَذَ مَا آتَيْتُكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۗ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۗ ﴾ [هود: ٤٧]، فتاب الله عليه، وأعاد له مكانته العظيمة عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ما قصّه الله تعالى في كتابه حيث يقول: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۗ ﴾ [البقرة: ٥٥]، أي عيانًا)، يعني: فلا يؤمنون بالغيب - والعياذ بالله -.

قال ابن جرير^(١): ذكّرهم الله سبحانه بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معابنتهم من آيات الله ما يُثَلِّجُ بِأَقْلَاهَا الصدورُ، وتطمئن بالتصديق معها النفوسُ، وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسُبُوغِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى لَدَيْهِمْ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله.

ومرة يقولون: لا نُصَدِّقُكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، وأخرى يقولون له إذا دُعُوا إِلَى الْقِتَالِ: ﴿فَأَذَهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ومرة يقال لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَرَّيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، فيقولون: «حنطة في شعرة»، ويدخلون من قِبَلِ أَسْتَاهِمِ.

ومرة يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِالتَّوْرَةِ، فيمتنعون من ذلك، حتى نَتَقَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْجِبَلَ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، الَّتِي آذَوْا بِهَا نَبِيِّهِمْ، الَّتِي يَكْثُرُ إِحْصَاؤُهَا.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن جرير: ذكّرهم الله سبحانه بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم)، الموجودون عند نزول هذه الآية

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٦٨٨).

غير الذين تكلموا بهذا الكلام، آباءهم هم الذين تكلموا بهذا الكلام من اليهود، ونسب الله كلام آبائهم إليهم؛ لأنهم لم ينكروه ورضوا به.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يُتَلَجُّ بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس)، هذا من الإيثار بالغيب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله) قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

لما أنجاهم الله من فرعون، وأغرق فرعون، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، هذا التقليد الأعمى - والعياذ بالله -.

﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، هل الله جَلَّ وَعَلَا يُجْعَلُ؟! تعالى الله عن ذلك.

﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، ماذا قال لهم موسى؟
 ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، عَذَرَهُمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْجَهْلِ.
 ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) **إِنَّ هَتُوْلَاءَ**: الذين يعكفون على الأصنام،
 ﴿مُتَبَرِّمًا مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: باطل. ﴿وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]،
 عند ذلك استغفروا ربهم عَزَّجَلَّ، ولكنهم يستغفرون ويعودون.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومرة يعبدون العجل من دون الله)، العجل الذي صنعه لهم السامريُّ من الذهب وجعله مجوفًا، فجعلت الريح تدخل من جانبه وتخرج من الجانب الآخر، ويصير لها صوتٌ يسمعون.

﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]: يعني ثغاء، يثغو مثل الثور، وذلك بالريح التي تدخل فيه، فعبدوا هذا العجل -والعياذ بالله- الذي صنعه لهم السامري، عبده من دون الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومرة يقولون: لا نُصَدِّقُكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً)، مرة يقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]: أي لا نصدقك على ما جئتنا به حتى نرى الله بأعيننا جهرة، فهم لا يؤمنون بالغيب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وأخرى يقولون له إذا دُعُوا إِلَى الْقِتَالِ: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤])، لما أمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بدخول بيت المقدس الذي هو لهم، بيت المقدس لبني إسرائيل أمرهم أن يدخلوه، وكانت العماليق، العماليق من العرب استحلوا بيت المقدس، ونزلوا فيه، وهم أولو أجسام عظيمة من بني آدم، أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل أن يدخلوا المسجد -بيت المقدس-.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾: يعني من العماليق.

﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]: ما شاء الله، إذا خرجوا منها ودخلتموها فليس لكم فضل في هذا، ادخلوها وهم فيها بإيمانكم بالله عَزَّجَلَّ، وتصديقكم لنييكم، ادخلوها.

﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كُنَّا اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١١) قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾: يعني بدون قتال، وبدون شيء.

﴿ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢١، ٢٢].

قال موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥]: الخارجون عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾: ضربهم الله بالتيه، تاهوا

في الأرض، أربعين سنة يتيهون في الأرض لا يدرون أين هم، يمشون ثم

لا يشعرون إلا وهم راجعون إلى مكانهم، تحيروا -والعياذ بالله- ضربهم الله

بالتيه أربعين سنة.

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا ﴾ أي: بيت المقدس، ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً

يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦]: لا تأس

- يا موسى - على قومك الفاسقين الخارجين عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومرة يقال لهم: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا

تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦١]

فيقولون: «حِطَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»)، ومرة قال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَادْخُلُوا

الْبَابَ سُجَّدًا ﴾: ساجدين على الأرض بجباهكم وأنوفكم على الأرض،

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ ﴾: أي باب بيت المقدس، ﴿ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف: ١٦١].

﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾: أي حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، هذا استغفار.

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ ﴿ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]: بدّلوا القول، وبدّلوا الفعل أيضًا، بدّلوا

﴿ سُجَّدًا ﴾ فدخلوا بيت المقدس يزحفون على أستاههم.

وقالوا: حنطة - زادوا النون - ﴿حِطَّةٌ﴾: يعني حط عنا ذنوبنا، أتوا بـ (حنطة) يريدون الأكل ولا يريدون العمل - والعياذ بالله - هذه سيرتهم مع نبيهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قالوا: حبة في حنطة: حرفوا القول، وغيروا الفعل، دخلوا يزحفون وهم يقولون: حنطة، حبة في حنطة؛ يريدون الأكل من الحنطة، عند ذلك ضربهم الله عَزَّجَلَّ بالذلة والمهانة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومرة يُعرض عليهم العمل بالتوراة، فيمتنعون من ذلك، حتى نَقَّ اللهُ تعالى عليهم الجبل كأنه ظلَّةٌ)، ﴿وَإِذْ نَقَّْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾. ﴿نَقَّْنَا الْجَبَلَ﴾: جبل فوقهم.

﴿كَانَهُ ظُلَّةٌ﴾: كأنه غمامة فوق رؤوسهم؛ تذكيراً لهم بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يعبدوه حق عبادته.

﴿وَإِذْ نَقَّْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: ظنوا أن الجبل واقع عليهم، ظنوا أنه واقع.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: وهي التوراة، خذوها بقوة وعمل، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦) ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِبَعَثِنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَنْ يُسُوْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٥، ١٦٧].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إلى غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيهم، التي يكثر إحصاؤها)، يصعب إحصاء أخطاءهم ومخالفاتهم؛ لأنها كثيرة - والعياذ بالله -.

فَاعْلَمْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ لَنْ يَعُدُّوا أَنْ يَكُونُوا فِي
تَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجُحُودِهِمْ نُبُوْتَهُ، وَتَرْكِهِمُ الْإِقْرَارَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ
بِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ: كَأَسْلَافِهِمْ وَأَبَائِهِمُ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ
عَلَيْنَا قِصَصَهُمْ.

الشَّحْ

كَمَا أَنَّهُمْ عَصَوْا نَبِيَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَوْا خَاتِمَ النَّبِيِّينَ وَإِمَامَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبَوْا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَهَمَّ لَا يَزَالُونَ مِنْ
غَضَبٍ إِلَى غَضَبٍ، ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].



قال محمد بن إسحاق^(١):

لما رجع موسى إلى قومه، فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرّق العجل وذّراه في اليمّ، اختار موسى منهم سبعين رجلاً، الخيّر فالخيّر.

وقال: انطلقوا إلى الله عزّ وجلّ، فتوبوا إلى الله مما صنعتم، وسلّوه التوبة على من تركتكم وراءكم من قومكم، فصوموا ونظّهروا، وطهّروا نياتكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه.

فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: يا موسى! اطلب لنا إلى ربّك أن نسمع كلام ربّنا، فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام، حتى تغشى الجبل كلّهُ، ودنا موسى، فأدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا.

وكان موسى عليه السّلام إذا كلمه ربّه وقع على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيّه موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم.

فقالوا لموسى عليه السّلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة، فماتوا جميعاً، وقام موسى عليه السّلام يُناشدُ ربه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٦٩٣).

ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾
[الأعراف: ١٥٥].

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (اختار موسى منهم سبعين رجلاً، الخَيْرَ فَالْخَيْرِ)، هذه مرة ثانية، لما واعد الله موسى أنه سيكلمه على رأس أربعين ليلة، فجاء للموعد، واختار معه سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل لموعد الله عَزَّوَجَلَّ.

فلما كلم الله موسى وسمعوا كلام الله، قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]: يريدون أن يصيروا مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يجعلون أنفسهم مثل الأنبياء.

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾: يعني يا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]: لا يؤمنون بالغيب، هذا من معانيهم ومن مصائد الشيطان التي أوقعهم فيها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وَقَّته له رَبُّه)، والطور: هو الجبل، والمراد به جبل بيت المقدس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام، حتى تغشى الجبلُ كُلَّهُ)، وقد غطى الغمام الجبل.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة، فماتوا جميعاً)، صاح فيهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر الله حتى هلكوا من الصاعقة من صوت جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنَادِي رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ، وَيُرْغَبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ [الأعراف: ١٥٥])، قام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو رَبَّهُ، وَيَقُولُ: كَيْفَ أَرْجِعُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَيْسَ مَعِيَ الْقَوْمَ الَّذِينَ ذَهَبَتْ بِهِمْ، إِنَّهُمْ سَيَتَّهَمُونَنِي بِأَنِّي قَتَلْتَهُمْ. فْتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ حَتَّى أَحْيَاهُمْ، رَدَّ عَلَيْهِمْ أَرْوَاحَهُمْ وَعَادُوا كَمَا كَانُوا، فَارْجِعُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.



فإن قيل: فما مقصود موسى بقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ﴾؟
فقد ذُكِرَ فِيهِ وَجُوهٌ:

فقال السُّدِّيُّ^(١): لما ماتوا قام موسى يبكي، ويقول: رب! ماذا أقول
لبنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أُتِيَتْهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ؟

وقال ابن إِسْحَاقَ^(٢): اخترتُ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا، الْخَيْرَ فَالْخَيْرِ، أَرْجَعُ
إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ؟ فَمَا الَّذِي يُصَدِّقُونِي بِهِ أَوْ يَأْمَنُونِي عَلَيْهِ
بَعْدَ هَذَا؟

وعلى هذا فالمعنى: لو شئتُ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ خُرُوجِنَا، فَكَانَ بَنُو
إِسْرَائِيلَ يُعَايِنُونَ ذَلِكَ وَلَا يَتَّهِمُونَنِي.

وقال الزَّجَّاجُ^(٣): المعنى: لو شئتُ أُمَّتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْتَلِيَهُمْ بِمَا أَوْجِبُ
عَلَيْهِمُ الرَّجْفَةَ.

قلت: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود.

والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيّه -: أن هذا استعطافٌ من
موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ، وَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِعَفْوِهِ عَنْهُمْ مِنْ قَبْلِ حِينَ عَبْدَ قَوْمَهُمُ
الْعَجَلُ وَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَيْهِمْ.

يقول موسى: إنهم قد تقدّم منهم ما يقتضي هلاكهم ومع هذا فوسعهم
عفوكم ومغفرتكم ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٩٥/١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١١٣/١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٩٣/١).

(٣) انظر: معاني القرآن (٣٨٠/٢).

وهذا كما يقول مَنْ وَاخَذَهُ سَيِّدُهُ بِجُرْمٍ: لو شئت وَاخَذْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْجُرْمِ، وَلَكِنْ وَسَعَنِي عَفْوُكَ أَوَّلًا، فَلَيْسَعَنِي الْيَوْمَ.

ثم قال نبي الله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فقال ابن الأنباري وغيره: هذا استفهام على معنى الجحد أي: لست تفعل ذلك.

والسفهاء هنا: عبدة العجل.

وقال الفراء^(١): ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل، فقال: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وهذا من تمام الاستعطاف أي: ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك، فأنت ابتليتهم وامتحتتهم، فالأمر كله لك وبيدك، لا يكشفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت، فنحن عائدون بك منك، ولا جئون منك إليك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قلت: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود)، اختلاف المفسرين اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد كما قرر ذلك أهل العلم.

اختلاف التنوع: أن تكون الآية محتملة لعدة معان، وكل مفسر يأخذ معنى من هذه المعاني، والآية تحتمل كل هذه المعاني.

(١) انظر: معاني القرآن (١/٣٩٥) له.

فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم: أنهم قيل لهم وهم مع نبيهم، والوحي ينزل عليه من الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْفَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].
قال قتادة^(١)، وابن زيد^(٢)، والسدي^(٣)، وابن جرير^(٤) وغيرهم: هي قرية بيت المقدس.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] أي: هنيئًا واسعًا.
﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

قال السدي^(٥): هو بابٌ من أبواب بيت المقدس.
وكذلك قال ابن عباس^(٦)، قال: والسجود بمعنى الركوع.
وأصل السجود: الانحناء لمن تُعظَّمه، فكل منحنٍ لشيءٍ معظَّمٍ له فهو ساجدٌ، قاله ابن جرير^(٧) وغيره.
قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام أحدهما لصاحبه: من السجود المحرَّم، وفيه نهيٌ صريحٌ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٨).

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٧١ / ١)، والطبري في تفسيره (٧١٢ / ١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧١٣ / ١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧١٢ / ١).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧١٢ / ١).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٧١٤ / ١).

(٦) المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٧١٤ / ١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٢٨)، وابن ماجه (٣٧٠٢) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

ثم قيل لهم: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة: ٥٨] أي: حُطَّ عَنَّا خطايانا.

هذا قول الحسن، وقتادة^(١)، وعطاء^(٢).

وقال عكرمة^(٣) وغيره: أي قولوا: لا إله إلا الله.

وكان أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي نُحِطُّ بها الخطايا، وهي

كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٤): أمروا بالاستغفار.

وعلى القولين فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار،

وَضَمِنَ لَهُمْ بِذَلِكَ مَغْفِرَةٌ خَطَايَاهُمْ، فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير

الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به.

روى البخاري في «صحيحه» ومسلمٌ أيضاً من حديث هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]،

فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ. فَبَدَّلُوا

القولَ والفعل معاً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ^(٥).

قال أبو العالية^(٦): هو الغضب.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٧٢) عن معمر عنها.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧١٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٣٠).

وقال ابن زيد^(١): هو الطاعون.

وعلى هذا فالطاعون بالرّصد لمن بدّل دين الله قولاً وعملاً.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعلى هذا فالطاعون بالرّصد لمن بدّل دين الله قولاً وعملاً)، الطاعون، يعني: العقوبة بالطاعون باقية على كل من غيّر دين الله وعمل بغير ما أمره الله فإنه متوعد بالطاعون.



فصل

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملؤا ذلك، وذكروا عيش الثوم، والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها.

ولهذا قال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا﴾ أي مصرًا من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفصح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواءً، وأبعدها من الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سَقَفُهُم الذي يُظْلِمُهُم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم: المنّ.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى)، كانوا في أرض التيه الذي ضربه الله عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض لا يدرون في أي مكان هم.

ومع هذا لم يتخل الله عنهم؛ أنزل الله عليهم المنّ والسلوى بدل الطعام.

الْمَنْ: هو الحلال الحلو، الشيء الحلو هذا مَنْ، وكان ينزل من السماء بالليل على الشجر فيجدونه على الشجر ويأخذونه، يجمعونه.

والسلوى: هي الطيور الطيبة والسمانى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فمَلُّوا ذلك، وذكروا عيش الثوم، والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

يقولون: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: الذي هو المن والسلوى أفضل الأطعمة.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾: وهو الزرع.

﴿وَقَثَائِهَا﴾: القثاء هو الذي يُسَمَّى الآن الخيار، وهو يُجْنَى ويؤكل.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَثَائِهَا وَفُومَهَا﴾: الثوم معروف.

﴿وَعَدْسِهَا﴾: العدس معروف.

﴿وَبَصَلِهَا﴾: هذه أشياء دنيئة، يعن بدل المن والسلوى، يقولون: إنا

مللنا من المن والسلوى، نريد هذه النباتات وهذه الأشياء، وهي أدنى منها!

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي

هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾: يعني: اهبطوا أي بلد؛ تجدوا فيه هذه الأشياء.

﴿فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]: أي بلد تدخلونها تجدون هذه

الأشياء في أسواقها وتباع بأرخص الأثمان.

﴿أَهْيَطُوا مِصْرًا﴾ لا تقل مصر، إذا قلت: مصر، صارت مصر المعروفة، لا، مِصْرًا يعني أي بلد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها من الأذى، ومجاورة الأنتان والأقدار)، وهي أرض التيه.



قال ابن زيد^(١): كان طعامُ بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء يقال له: المنّ، وطعامهم طيراً يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره. ومعلومٌ فضلُ هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة. وكان مع ذلك يتفجّر لهم من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذمّوا على ذلك. فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغى بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظّه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وكان مع ذلك يتفجّر لهم من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء)، على عدد أسباط بني إسرائيل، حجر واحد يحمله موسى معه، فيضربه بالعصا، فيتفجر منه اثنا عشرَ عيناً على عدد أسباط بني إسرائيل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغى بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة)، فالذين هم من اليهود وغيرهم يستبدلون الدين الباطل الأسفل بالدين الأعلى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وخدمة الخالق بخدمة المخلوق)، خدمة يريدون بها العبادة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/١٤).

فصل

ومن تلاعبه بهم: أنهم لما عُرِضت عليهم التوراة لم يقبلوها، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه، حتى أمر الله سبحانه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقلع جبلاً من أصله على قَدْرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم، فقبلوها كرهاً.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه بهم: أنهم لما عُرِضت عليهم التوراة لم يقبلوها)، ومن تلاعب الشيطان باليهود: أن الله لما فرض عليهم التوراة وهو الكتاب المنزل عليهم، وهو أشرف الكتب بعد القرآن الكريم، وله مكانة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعِنْدَ رَسَلِهِ.

لَمَّا فرض الله عليهم التوراة تنكروا لها، وحرفوها عما أنزلت عليهم، فغيروا حروفها، وبدلوا ألفاظها، وهذا من تلاعبهم بكتابتهم الذي هو التوراة أشرف كتاب بعد القرآن فهذا موقفهم منه، وهم يدعون أنهم أحباب الله!

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨]،

أولياء الله جَلَّ وَعَلَا، يعني: أحبابه، والولي هو المحبوب، يقولون: نحن أولياء الله.

والله جَلَّ وَعَلَا أنكر عليهم ذلك، كيف تدعون أنكم أولياء الله وقد خالفتم كتابه وحرّفتموه؟

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حتى أمر الله سبحانه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقلع جبلاً من أصله على قدرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم)، لما أمرهم الله بأخذ التوراة والعمل بها فلم يقبلوا ذلك، أمر الله جَلَّ وَعَلَا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ -روح الله- أن يقتلع الجبل ويجعله فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، ظنوا أن الجبل واقع عليهم. عند ذلك أخذوا التوراة مُكرهين؛ خشية وقوعه عليهم، ولم يأخذوها راغبين فيها -نسأل الله العافية-.

﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

﴿بِقُوَّةٍ﴾: يعني بقبول ومحبة لا خوفاً فقط.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١]: اعملوا بما فيه، ﴿وَاذْكُرُوا﴾: يعني اعملوا بما في التوراة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حتى أمر الله سبحانه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقلع جبلاً من أصله على قدرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم)، لقوة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ القوي الأمين حيث اقتلع الجبل بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وظلله عليهم فوق رؤوسهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناها عليكم، فقبلوها كرهاً)، قبلوها كرهاً وهم ينظرون إلى الجبل خشية أن يقع عليهم، ولم يأخذوها تقبلاً وطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا موقف اليهود من كتابهم التوراة.

انظر! انظر إلى قوة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف أنه اقتلع الجبل، وجعله فوق رؤوسهم، فهو القوي الأمين.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾)، ﴿وَظَنُّوا﴾: يعني أيقنوا، ﴿وَظَنُّوا﴾: أيقنوا أنه ساقط عليهم.



قال عبد الله بن وهب:

قال ابن زيد^(١): لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذي أمركم به، ونهيه الذي نهاكم عنه.

فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله، حتى نرى الله جَهْرَةً، حتى يَطَّلِعَ اللهُ علينا، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى! فيقول: هذا كتابي فخذوه؟

فجاءت غضبةٌ من الله تعالى، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم، فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم.

فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أيُّ شيء أصابكم؟ قالوا: متنا ثم حيينا، فقال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا.

قال: فبعث الله ملائكته، فتنقَّت الجبلَ فوقهم، فقبل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم الطور، قال: خذوا الكتاب وإلا طر حناه عليكم، قال: فأخذوه بالميثاق.

الشَّحْ

قوله رَجَمَهُ اللهُ: (قال ابن زيد: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله)، التوراة كتبها الله بيده في الألواح -ألواح التوراة- وأعطاهما لكليمه موسى مناولة، أعطاهما لموسى مناولة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٧/٢).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقالوا: وَمَنْ يأخذ بقولك أنت؟ لا والله، حتى نرى الله جَهْرَةً، حتى يَطْلُعَ اللهُ علينا، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى! فيقول: هذا كتابي فخذوه؟)، هذا تعنت اليهود؛ يريدون أن يكلم الله كل واحد منهم، ويقول: هذا كتابي إليك فاعمل به، ولم يقبلوا من رسول الله القوي الأمين ما قاله لهم.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فجاءت غضبة من الله تعالى، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم، فأتوا أجمعون)، جاءهم غضب من الله لما قالوا هذا المقالة: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

فصاح بهم جبريل الصيحة الصاعقة، صوت جبريل صاعقة صعقتهم فخرؤا أمواتا.

فقال موسى: يا رب! أنا أخذت سبعين من خيارهم للقائك، وقد وقع بهم ما وقع وماتوا، ماذا أقول لبني إسرائيل؟ سيقولون لي: أنت قتلتهم، فأحياهم الله جَلَّ وَعَلَا بعدما صعقوا؛ استجابة لدعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال: فبعث الله ملائكته، فتنقَّت الجبل فوقهم)، هذه معجزة ثانية، وهي أن الله أمر جبريل فاقطلع الجبل من أصله ورفع فوقهم؛ تهديدا لهم ووعيدا لهم على أن يأخذوا التوراة.

فأخذوها وهم ينظرون إلى الجبل خشية أن يسقط عليهم، ولولا أنهم يخافون من سقوطه ما أخذوها.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم)، خذوا الكتاب:
يعني التوراة، ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾: يعني التوراة، يعني اعملوا بها.
﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣]: يعني بقبول، لا من أجل الخوف فقط.
هذه واحدة، هذه واحدة: أن الله نتق الجبل عليهم ولم يأخذوا التوراة
إلا بعد أن خافوا من سقوط الجبل عليهم.



وقال السُّدي^(١): لما قال الله تعالى لهم: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوََابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فأبوا أن يسجدوا.

فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم، فنظروا إليه وقد غَشِيَهُمْ، فسقطوا سُجَّدًا على شِقِّ، ونظروا بالشق الآخر، فكشفه عنهم، ثم تولَّوا من بعد هذه الآيات وأعرضوا، ولم يعملوا بها في كتاب الله، ونبذوه وراء ظهورهم.

فقال تعالى مذكرًا لهؤلاء بما جرى من أسلافهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ [البقرة: ٦٣، ٦٤].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال السُّدي: لما قال الله تعالى لهم: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوََابَ سُجَّدًا﴾)، والثانية: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوََابَ سُجَّدًا﴾: باب بيت المقدس. ﴿وَادْخُلُوا أَبْوََابَ سُجَّدًا﴾: أي اسجدوا على الأرض؛ طاعة لله وعبادة له.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿(وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: أي حط عنا خطايانا، واغفرها لنا، فكلمة ﴿حِطَّةٌ﴾: تعني الاستغفار.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٩/٢).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَبُوا أَنْ يَسْجُدُوا)، أبوا أن يسجدوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، بدل أن يسجدوا لله عَزَّجَلَّ، دخلوا يزحفون على أستاههم.

ولما قال لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، قالوا: حنطة، الحنطة: يعني حبة الحنطة؛ يريدون الأكل.

زادوا النون -والعياذ بالله- وقالوا: (حنطة): أي حبة في حنطة، حبة حنطة وهي الأكل، فهمهم الأكل، وليس همهم طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وزادوا نوناً من عندهم (حنطة) بدل ﴿حِطَّةٌ﴾: أي حط عنا خطايانا.

قال الإمام ابن القيم في النونية^(١):

أمر اليهود بأن يقولوا حطة فأبوا وقالوا حنطة لهوان

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَمَرَ اللهُ الْجِبَلَ أَنْ يَرْتَفِعَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ وَقَدَّعَشِيهِمْ، فَسَقَطُوا سُجَّدًا عَلَى شِقِّ، وَنَظَرُوا بِالشَّقِّ الْآخَرَ، فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ)، سجدوا مكرهين.

﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، دخلوا الباب مكرهين يزحفون

على أستاههم ولم يسجدوا لله عَزَّجَلَّ، هذه واحدة، والثانية:

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، والثانية: لم يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾:

يعني حط عنا خطايانا، قالوا: حنطة، حبة الحنطة؛ يريدون الأكل.

(١) انظر: نونية المصنف (ص ١٢١).

فصل

ومن تلاعبه بهم: أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرّق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم، وأعزّهم وآناهم ما لم يُؤتِ أحدًا من العالمين.

ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم، فأبوا طاعته وامتناع أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعبه بهم: أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرّق بهم البحر)، الموقف الثاني المخزي لهم: أن الله لما أنجاهم من عدوهم فرعون وأغرقه وهم ينظرون، ونجاهم جميعاً لم يشكروا نعمة الله عليهم.

فلما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مشركين يعكفون على أصنام، ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ التقليد الأعمى - والعياذ بالله -.

﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ: أي هالك.

﴿مُتَبِّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم)، أمرهم الله أن يدخلوا بيت المقدس الذي كتبه الله لهم؛ لأن الله كتب بيت المقدس للمؤمنين، كتبه للمؤمنين إلى يوم القيامة.

فبيت المقدس ليس ملكاً لليهود، ولا ملكاً لأحد غيرهم، إنما هو مسجد من مساجد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١).

والمسجد الأقصى: أعني القدس، بيت المقدس.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فأبوا طاعته وامتنال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤])، لأن العماليق كانت تحتل بيت المقدس، والعماليق: قوم عِظَامِ الخَلْقَةِ لا طاقة لأحد بهم.

فلما رآهم قوم موسى قالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]؛ خوفاً من العماليق! نسأل الله العافية.



(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتأمل تَلَطَّفَ نبيّ الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أديبارهم، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين، فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة.

فقابلوه أقبح المقابلة فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿ قَالُوا يَمْؤَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢] فَلَمْ يوقِّروا رسوله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله! وقالوا: ﴿ قَالُوا يَمْؤَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يُذَلُّ الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشدَّ رهبةً في صدورهم منه.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أديبارهم، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين)، ﴿ يَقَوْمٍ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَانْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝١١ ﴾ قَالُوا يَمْؤَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝١٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٣ ﴾ قَالُوا يَمْؤَسَىٰ إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۝: يعني العماليق.

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾: يعنون الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي

وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ [المائدة: ٢١-٢٥].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۗ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي

الْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦]: عاقبهم الله بالتيه، فكانوا يمشون ثم لا يدرون إلا وهم

راجعون إلى المكان الذي مشوا منه، حيرهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

أربعين سنة على هذه الحال، ومع هذا منَّ الله عليهم في هذا التيه فأنزل

عليهم المن وهو الحلوى، وأنزل السلوى وهي طيور السمان أحسن الطيور،

فكانوا يأكلون من اللحم -لحم الطيور- ويشربون من النهر.



ثم صرّحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾. والثاني: تصرّحهم بأنهم غير مطيعين، وصدّروا الجملة بحرف التأكيد، وهو (إِنَّ)، ثم حققوا النفي بأداة (لَنْ) الدالة على نفي المستقبل أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل، ثم علّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها.

فقال لهم رجالان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافونهم من الجبارين، أسلّموا وأتبعوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد ملئوا منكم رعبًا، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَلِيْبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]. ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم، وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

فسبحان من عَظُم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلّم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه.

وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردّدهم في برية التّيه أربعين عامًا، يظل عليهم الغمام من الحرّ، ويُنزّل عليهم المنّ والسّلوى.

الشَّحْ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ثم عَلَّقُوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها)، بدون قتال.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فقال لهم رجالان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله)، رجالان من أتباع موسى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وكان أقصى ما عاقبهم به: أن رَدَّدهم في بَرِّيَةِ التَّيِّهِ أربعين عامًا، يظل عليهم الغمام من الحرِّ)، لم يقطع عنهم رحمته، حتى وهم في التيه، ظلل عليهم الغمام من الشمس، وأنزل عليهم المن وهو الحلوى، وأنزل عليهم السلوى وهي طيور طيبة المأكَل، فكانوا في رغد من العيش وهم في التيه.



وفي «الصححين»: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ - مَشْهَدًا - لِأَنِّي أَكُونُ أَنَا صَاحِبُهُ، أَحَبُّ إِلَيَّ بِمَا عَدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ. فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ لَذَلِكَ وَسُرَّ بِهِ»^(١).

فلما قابلوا نبي الله هذه المقابلة قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ط فَاذْهَبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾)، في وقعة بدر جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ: لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ، فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهِمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلما قابلوا نبي الله هذه المقابلة)، لما قابلوا: يعني بني إسرائيل قابلوا نبي الله موسى.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢، ٤٦٠٩).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦]، حرمتها عليهم أربعين سنة، وضربهم بالتيه لا يدرون أين يمشون وأين يسرون، يسرون، ثم إذا فكروا إذا هم في المكان الذي كانوا فيه من قبل رجعوا إليه، وتحيروا -والعياذ بالله- أربعين سنة وهم على هذا الشكل.

ومات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التيه، بقي معهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ يقودهم بعد أخيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى جاء غلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ففتح الله على يده بيت المقدس، غلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يعني خادمه.



فصل

ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ قِصَّةِ الْقَتِيلِ الَّذِي قَتَلُوهُ وَتَدَافَعُوا فِيهِ، حَتَّى أَمْرُوا بِذَبْحِ بَقْرَةٍ وَضَرَبَهُ بِبَعْضِهَا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ قِصَّةِ الْقَتِيلِ الَّذِي قَتَلُوهُ وَتَدَافَعُوا فِيهِ، حَتَّى أَمْرُوا بِذَبْحِ بَقْرَةٍ وَضَرَبَهُ بِبَعْضِهَا)، قُتِلَ قَتِيلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يُعْلَمْ قَاتِلُهُ، قُتِلَ غِيْلَةً، وَلَمْ يُعْلَمْ قَاتِلُهُ، فَتَدَافَعُوا فِي قَتْلِهِ كُلِّ يَقُولُ: الَّذِي قَتَلَهُ فُلَانٌ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُوَاخِذَ قَبِيلَتَهُ، تُوَاخِذُ قَبِيلَتَهُ بِهَذَا الْقَتِيلِ.

فَتَدَافَعُوا فِي ذَلِكَ، كُلُّ يَتَهُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بِهَذَا الْقَتِيلِ، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهَا ثُمَّ فِيهَا﴾: تَدَافَعْتُمْ، ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

ماذا أمرهم الله لمعرفة هذا القتل؟

بمعجزة من المعجزات لنبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآيَةٌ عَلَى صَدَقِهِ، فَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَمْرَهُمْ بِذَبْحِ بَقْرَةٍ، قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنَنْخِذْنَا هَذَا هَذَا﴾.

﴿قَالَ﴾ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

[البقرة: ٦٧]؛ لِأَنَّ هَذَا الْاِتِّهَامَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ إِلَّا عَنِ جَاهِلٍ، وَمُوسَى نَبِيُّ اللَّهِ،

برأه الله من ذلك، وهو كليم الله، وهو أعلم أهل الأرض في وقته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولم يكن أعلم منه إلا الخضر في بني إسرائيل الذي سار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه، وطلب أن يعلمه - أن يعلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

تدافعوا في هذا القتل؛ من الذي قتله؟ فأمرهم الله بذبح بقرة، أي بقرة مطلقة، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة تمكنوا منها لكفى ذلك.

ولكنهم شددوا وجعلوا يسألون ما لونها، ما صفتها، كلما ذكر لهم صفة لم تكفهم حتى لم يجدوا البقرة التي أمروا بذبحها، لم يجدوها؛ لأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

فالله جَلَّ وَعَلَا وصفها لهم حتى عرفوها، ﴿قَالُوا أَكُنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: موسى لم يأت بالحق إلا في هذه المسألة، وهذا من جهلهم.

﴿أَكُنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: يعني عجزوا أن يفعلوا ما أمرهم الله به من ذبح البقرة؛ لأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولما قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]: فلولا أنهم قالوا: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لَمَا وَفَّقُوا أَبَدًا، ووفَّقهم الله لذبح البقرة، فأمرهم الله أن يمسحوا القتل بشيء منها.

﴿فَقُلْنَا أَصْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ [البقرة: ٧٣]: أمرهم الله أن يضربوا القتل بجزء منها.

فلما مسحوا القتيل بجزء من البقرة قال: قتلني فلان، عرفهم باسم
القاتل، فقتلوه، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ لأنهم شددوا فشدد الله
عليهم.



وفي القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحّة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم:

من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء،

عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق

المتنوعات؛ زيادة في هداية المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضلال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل

يُبادر إلى الامتثال فإنهم لما أمرُوا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا

بالامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل

هو بمنزلة قوله: أَعْتَقْ رَقَبَةً، وأطعم مسكيناً، وصُمْ يوماً، ونحو ذلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)،

أن الإعلام بالبقرة المطلوبة أنه من الله جَلَّ وَعَلَا علم به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فأجرى

ما أمره الله به على هذه البقرة.

﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾: أي ببعض البقرة.

﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٧٣]: لما ضربوه بجزء من البقرة أحياء

الله، وقال: قتلني فلان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: الدلالة على نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه رسول رب العالمين)، لأن هذه معجزة.

الدلالة على نبوة موسى أن الله أجرى ذلك معجزة له تدل على نبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأن كل نبي له معجزة تدل على نبوته، له معجزة يجريها الله على يديه تدل على نبوته.

فأين معجزة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ معجزة نبينا: القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: الدلالة على صحّة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم)، ومنها: الدلالة على البعث الذي أنكره كثيرٌ من أهل الأرض، ولم يؤمن به إلا أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنهم يقولون: كيف يحيي الله الموتى بعد موتهم؟

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخْرَجُ ۗ ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّهَ إِذَا كَرَّهَ ۗ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١، ١٢].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخْرَجُ ۗ﴾: يعني بالية يبعثهم الله.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّهَ ۗ﴾: أي رجعة إلى الحياة، ﴿خَاسِرَةٌ﴾ بزعمهم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء)، ومنها: إثبات ربوبية الله عَزَّجَلَّ وقدرته على كل شيء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (عَدْلٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الظُّلْمُ وَالْجُورُ، حَكِيمٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَبَثُ)، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْجُورُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَلْ هُوَ الْعَدْلُ، الْحَكْمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (عَدْلٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الظُّلْمُ وَالْجُورُ، حَكِيمٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَبَثُ)، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا مِنْ هَذَا الْقَاتِلِ، تَحْيِرُوا حَتَّى أَمَرَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَبْحِ الْبَقْرَةِ، ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]: بِجِزْءٍ مِنْ لَحْمِهَا. فَضْرَبُوهُ بِقِطْعَةٍ مِنْ لَحْمِهَا، فَقَالَ: قَتَلْتَنِي فَلَانَ، فَعَرَفُوا الْقَاتِلَ بِهَذِهِ الْمَعْجِزَةِ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي مُقَابَلَةَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْتَعَنُّتِ، وَكَثْرَةِ الْأَسْئَلَةِ)، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَذْبَحُوا الْبَقْرَةَ إِلَّا بَعْدَ التِّي وَاللُّتِيَا.

يَسْأَلُونَ عَنْ أَوْصَافِهَا، وَعَنْ، وَعَنْ، حَتَّى قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، وَلَوْلَا أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لَمَا اهْتَدَوْا أَبَدًا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (بَلْ يُبَادِرُ إِلَى الْإِمْتِثَالِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أُمِرُوا أَنْ يَذْبَحُوا بَقْرَةَ كَانَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَبَادِرُوا بِالْإِمْتِثَالِ بِذَبْحِ أَيِّ بَقْرَةٍ اتَّفَقَتْ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِذَلِكَ لَا إِجْمَالَ فِيهِ وَلَا إِشْكَالَ)، بَقْرَةَ، ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] لَيْسَ هُنَاكَ إِشْكَالٌ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (بَلْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: أَعْتِقْ رَقَبَةً، وَأَطْعَمْ مَسْكِينًا، وَصُمْ يَوْمًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ)، يَعْنِي أَمْرٌ مُطْلَقٌ يَصْدُقُ عَلَى أَيِّ مَعْنَى يَرِيدُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب فإن الآية غنيّة عن البيان المنفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعتتوا وشدّودا شدّد عليهم.

قال أبو جعفر ابن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية^(١): لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب)، عن وقت الحاجة، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة: هذه مسألة أصولية، لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة أبداً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإن الآية غنيّة عن البيان المنفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعتتوا وشدّودا شدّد عليهم)، إنما الذي حصل هو أنهم تشدّدوا فشدّد عليهم، لما أمرهم بذبح بقرة قالوا: أي بقرة هي؟

لو أنهم بادروا وذبحوا أي بقرة أجزاء وانتهى الإشكال، لكنهم تعتتوا في أوصافها، في لونها، في سنّها؛ حتى شدّد الله عليهم، ولم يحصلوا على ذبح البقرة إلا بعد التي واللّتياء، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال أبو جعفر ابن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية)، أبو العالية: إمام المفسرين في وقته.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩٩/٢).

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يَعْلَمُ المأمورُ به وَجْهَ الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر؛ فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَلَنَخِذْنَا هُزُؤًا﴾.

فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا: ﴿أَلَنَخِذْنَا هُزُؤًا﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله؛ فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به ولو كان هو الأمر به لم يُجْزُ لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك.

فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تَعَيَّنَتْ لهم، ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يَعْلَمُ المأمورُ به وَجْهَ الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر)، لا يتوقف امتثال الأمر على معرفة المأمور به، بل المبادرة بتنفيذه، ولو لم تعرفه، ولو لم تعلمه، تبادر بتنفيذه ولو لم تعلمه، يكفي علم الله جَلَّ وَعَلَا به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك)، وهذا يكفي، أخبرهم أن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة، ولو لم يعرفوا الحكمة، يمتثلون لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ولم يكن هو الأمر به ولو كان هو الأمر به لم يُجْزُ لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك)، ليس الأمر بذبح البقرة هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل الأمر -الأصل- هو الله جَلَّ وَعَلَا، وإنما موسى مبلغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأتِ بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفرٌ ظاهر.

وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهلٌ ظاهر فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير^(١): وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، وزعم أن ذلك نفيٌ منهم أن يكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفرٌ منهم.

قال: وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلةً منهم، وهفوةً من هفواتهم.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١])، ﴿أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]: يعني كأنه لم يأت بالحق في الأول.

(١) انظر: تفسير الطبري (١١٢/٢).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التامّ في تعيين البقرة المأمور بذبحها)، وهذا هو المطلوب.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا موسى جهلةً منهم، وهفوةً من هفواتهم)، هذا خطأ، خطأً منهم، وليس كفرًا.



فصل

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل، عن وهب: كان ابن عباس^(١) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآية والحق.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرًا؛ فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففصحه الله تعالى، وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان، الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي: لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١٧/٢).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب الأمة وغلظها)، الأمة اليهودية يعني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال عبد الصمد بن مَعْقِل، عن وهب)، عن وهب بن منبه، ووهب بن منبه كان من أحبار يهود اليمن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤])، لما رأوا الآية البينة كان المطلوب منهم: أن تلين قلوبهم، ولكنها قست -والعياذ بالله- لما تأخروا في تنفيذ أمر الله قست قلوبهم.

وهكذا كل من تناقل عن تنفيذ أمر الله فإنه يقسو قلبه، وهذا في أول سورة البقرة: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٤]، هذا في بني إسرائيل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرًا؛ فإن القاتل قصده ميراثُ المقتول، ودفع القتل عن نفسه، فَفَضَّحَهُ اللَّهُ تعالى، وهتكه وحرَّمه ميراث المقتول)، ولذلك يمنع القاتل من الميراث من المقتول.

وَيَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الْمِيرَاثِ وَاحِدَةً مِنْ عِلَلِ ثَلَاثٍ^(١)

(رُقُ)، و (قَتْلُ)، و (اِخْتِلَافُ دِينِ)

(١) انظر: متن الرحبية (ص ٣).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومنها: أن بني إسرائيل فُتِنُوا بالبقرة مرّتين من بين سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة)، فتنوا بعبادة العجل، العجل الذي نحته السامري من الذهب الذي استعارته نساء بني إسرائيل بمناسبة زواج، ولم يردوا هذه العارية على أهلها.

وإنما أخذها السامري فنحت منها: ﴿عَجَلًا جَسَدًا﴾: يعني مجسم، مجسم عجل، ﴿لَهُ حُورٌ﴾: يدخل الهواء من جهة ويخرج من جهة فيصير له صوت، فظنوا انه العجل يتغو، ففتنوا به.

وقال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَسَى﴾ [طه: ٨٨]:
يعني نسي موسى أين ربه، وذبح يبحث عنه وهو هذا عندكم.



فصل

ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا: ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السبت، حين مسخهم قردةً لما تحيلوا على استحلال محارمه.

ومعلومٌ أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم الحرام، وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت.

ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه كمخادعة الصبيان، ومسَّخُوا دينه بالاحتيال، مسَّخَهُمُ اللهُ قِرْدَةً.

وكان الله سبحانه وتعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمسك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت.

وهكذا يفعلُ الله سبحانه بمن تعرَّض لمحارمه فإنه يُرْسِلُهَا عَلَيْهِ بِالْقَدَرِ، حتى تَزْدَلِفَ إِلَيْهِ بِأَيْهَا يَبْدَأُ.

فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكُفْيَةِ ومن هاهنا قيل: مَنْ طَلَبَهُ كُلُّهُ فَاتَهُ كُلُّهُ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا: ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السبت، حين مسخهم قردةً لما تحيلوا على استحلال محارمه)،

أصحاب السبت، يعني: سبت اليهود؛ لأن اليهود يعطلون يوم السبت، عندهم عطلة يوم السبت، نزهة.

فحصل منهم يوم السبت أنهم ارتكبوا ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك أنهم عملوا حيلة، احتالوا بها على أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أمرهم الله أن يدخلوا بيت المقدس الذي هو للمسلمين إلى يوم القيامة، القدس للمسلمين وليست لليهود ولا لغيرهم، إنما هي للمسلمين في كل زمان ومكان، القدس للمسلمين.

أمرهم الله أن يدخلوا المسجد الأقصى سُجَّدًا؛ يعني: لتكفير ما حصل منهم، أمرهم الله أن يدخلوا الباب سُجَّدًا: باب بيت المقدس.

فدخلوا يزحفون، بدل السجود يزحفون على أستاههم ولم يمتثلوا أمر الله فيدخلون الباب سُجَّدًا يعني: يركعون، سُجَّدًا يعني: ركوعًا؛ لأن الركوع أيضًا سجود.

أمرهم الله أن يدخلوا الباب سُجَّدًا فدخلوا يزحفون؛ تكبرًا وعنادًا.

﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا﴾: فدخلوا يزحفون على أستاههم.

وأمرهم أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾: أي حط عنا خطايانا، هذا دعاء، فحرفوه، وقالوا: حبة في حنطة؛ زادوا النون، زادوا النون فزادوا في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا كفرٌ شنيع، لا يجوز الزيادة في كلام الله أو النقصان منه، بل يبلغ كما جاء، ويعلم كما جاء، ولا يزداد فيه ولا ينقص.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا: ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السبت)، نُهوا عن الصيد يوم السبت، نُهوا عن الصيد -صيد السمك- يوم السبت؛ لأنهم يوم السبت يوم عيد لهم، يتفرغون فيه للعبادة، لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل يوم الجمعة عندنا، لكن الله أضلهم عن يوم الجمعة فاختروا يوم السبت.

حَرَّمَ الله عليهم صيد السمك يوم السبت، وابتلاهم بمجيء السمك وتكاثره يوم السبت مما أغراهم، فوضعوا الشباك وأمسكت السمك يوم السبت، أخذوها يوم الأحد، قالوا: نحن لم نصطده، بل اصطادته الشباك.

فخالفوا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واحتالوا عليه بهذه الحيلة الباطلة، نصبوا الشباك، وقالوا: نحن لم نصطده يوم السبت، صادته الشباك، ونحن أخذناه من الشباك، وهكذا يخادعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يخادعون الله عَزَّ وَجَلَّ؟!!

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا: ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السبت، حين مسخهم قِرْدَةً لما تحيلوا على استحلال محارمه)، مسخهم الله قردة.

والقردة هي أحسن الحيوانات، فمسخهم الله على صور أحسن الحيوانات وهي القردة، ثم ماتوا وهلكوا؛ لأن المسوخ لا يعيش.

وليست القردة الآن -هذه- من بني إسرائيل كما يظن بعض العوام، لا، القردة فصيلٌ أصلي من الخلق، وليس هو من بني إسرائيل؛ لأن المسوخ لا يعيش، بل يموت على الفور.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً)، مسخهم ولعنهم، ﴿أَوْ نَلَعْنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ النَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧].

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكُليَّة ومن هاهنا قيل: مَنْ طَلَبَهُ كُلُّهُ فَاتَهُ كُلُّهُ)، وليس المراد أن بني إسرائيل كلهم كفروا، بل منهم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَيْدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِتِنَاءً لِلَّذِينَ لَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]: فلا يضيع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

منهم: النجاشي ملك الحبشة كان نصرانياً، فهداه الله وآمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآوى المهاجرين إليه مرتين من أذى قريش الذين هاجروا للحبشة من مكة، إذ قد هاجروا هجرتين إلى الحبشة.



فصل

ومن تلاعب الشيطان بهم أيضاً: أنهم لما حُرِّمَت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا أثمانها. وهذا من عدم فَقْهِهِمْ وفهمهم عن الله تعالى دينه؛ فإن أثمانها بدلٌ منها، فتحريمها تحريمٌ لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناولُ تحريم أعيانها وأبدالها.

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعب الشيطان بهم أيضاً: أنهم لما حُرِّمَت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا أثمانها)، من تلاعب الشيطان بهذه الأمة، يعني: بأمة اليهود، أن الله لما حرم عليهم الشحوم؛ امتحاناً لهم وابتلاءً وتشديداً عليهم؛ لأنهم شددوا فشدد الله عليهم، لما حرم الله عليهم الشحوم، ماذا فعلوا من الاحتيال؟

أذابوها ثم باعوا وأكلوا ثمنها، وقالوا: نحن لم نأكل الشحوم، إنما أكلنا الودج المذاب من الشحوم، «جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا، وَأَكَلُوا ثَمَنُهَا». مع أن الله إذا حرم شيئاً حرم ما اشتق منه أو حُول منه، فهذا من تتلاعب الشيطان باليهود، وفتح لهم باب الحيل على محارم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلما حرم الله على اليهود الشحوم، شحوم الأنعام، شحوم البطون، شحوم الأمعاء؛ من أجل أن يشق عليهم ترك الشحوم؛ لأنها مختلطة باللحم، فيشق عليهم تجنب

الشحوم؛ لأن الله شدد عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأذابوها بالنار فصارت ودكًا فأكلوها، وقالوا نحن لم نأكل شحوم، أكلنا ودكًا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا من عدم فِقْهِهِمْ وفهمهم عن الله تعالى دينه؛ فإن أثمانها بدلٌ منها)، وما كان حرامًا فثمنه حرام. وبدل الحرام حرام، فهم لم يفعلوا شيئًا إلا الاحتيال على ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما أن تحريم الخمر والميتة والدم)، وأبدالها: جمع بدل، فما تحول منها أو تفرع منها فإنه حرام كأصله، وهذا من احتيال اليهود على ما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتحريم الخمر يتناول كل أنواع الخمر، وتحريم الميتة يتناول كل أجزاءها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والدم ولحم الخنزير)، والدم تحريمه يتناول كل الدم قليله وكثيره، ولحم الخنزير كذلك، ولحم الخنزير أشد؛ لأن شحمه مختلطة بلحمه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (يتناولُ تحريم أعيانها وأبدالها)، يعني أعيان الشحوم، وأبدالها: وهي الأثمان.



ومن تلاعبه بهم أيضاً: اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، ولعنته تناول مَنْ فعل فعلهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعبه بهم أيضاً: اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد)، هذه المصيبة التي قَلَّ من يسلم منها، فالله جَلَّ وَعَلَا حرم الصلاة عند القبر أو إلى القبر؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، والغلو في الميت، فاليهود لم يتنبهوا لذلك؛ بنوا على قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عندها ثم تحول الأمر إلى أن عبدوها واعتقدوا فيها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه المصيبة تسربت إلى المسلمين بعد العصور المتقدمة، بعد عصر الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ والتابعين ومن تبعهم، فلما طال الأمر عظموا القبور، وآل بهم الأمر إلى أن اعتقدوا فيها أنها تنفع وتضر فعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ صاروا يتقربوا إليها، يعتكفون عندها، ويوقفون لها الأوقاف والندور؛ اعتقاداً ببركتها ونفعها.

وهذه مصيبة عظيمة كاد بها الشيطان كثيراً من الناس، تعظيم القبور، تعظيم الأموات، البناء على القبور، الصلاة عند القبور.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الصلاة عند القبور إلا صلاة الجنائز، وأما غيرها فلا يصلى عند القبور؛ لأن هذا وسيلة إلى الغلو في الموتى، فأصاب الناس بلاءً من هذه الفتنة الشيطانية: الغلو في القبور: قبور الأنبياء، قبور الصالحين.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد لعنهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، ولعنته تتناول فعلهم)، فعل اليهود، وفعل من تشبه باليهود في هذا الأمر من هذه الأمة، قال رَحِمَهُ اللهُ: «لُعِنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدًا»، قال ذلك وهو في سكرات الموت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خشية أن يفعل بقبوره مثل قبورهم؛ من إشفاقه على أمته ورحمته بهم وهو يعاني من سكرات الموت يحذر من فعل اليهود. «لُعِنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدًا»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١). ولكنه دُفِنَ فِي حَجْرَتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا تَحْتَ فِرَاشِهِ، يَعْنِي زَحْزَحُوا الْفِرَاشَ الَّذِي يَرْقُدُ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَفَرُوا مَكَانَهُ قَبْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ، فِي بَيْتِ عَائِشَةَ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولعنته تتناول مَنْ فعل فعلهم)، ليست لعنته قاصرة على من أحدث المنكر، وإنما على من أحدثه ومن فعله، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدِّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدِّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).



(١) سبق تخريجه (ص ٥٢٤).

(٢) سبق تخريجه (٣٠٦/٢).

ومن تلاعبه بهم أيضاً: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تُنال الهداية إلا على أيديهم، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، يُحرمون عليهم ويُحلّون لهم، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم، ولا يلتفتون: هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن تلاعبه بهم أيضاً: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تُنال الهداية إلا على أيديهم)، من تلاعبه بهم: أنه حملهم على قتل الأنبياء؛ قتلوا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقتلوا يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا لم يجاروهم على ما يريدون، قتلوهم، وحاولوا قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واجتمعوا لقتله فرفعه الله من بينهم وهم لا يشعرون، قتلوا رجلاً دهم على المكان الذي فيه المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، دهم عليه وهو من أتباع المسيح ومن تلاميذ المسيح، ولكنه - العياذ بالله - أغواه الشيطان فدهم على المكان الذي فيه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وألقى الله شبه المسيح على هذا الرجل الذي دهم على مكانه فظنوه المسيح، قتلوه وصلبوه، ومنه عبادة الصليب المستمرة إلى الآن، رجلٌ مصلوب يعبدونه يظنون أنه المسيح، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، يعني: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، ألقى الله شبهه على هذا الرجل فقتلوه؛ يظنون أنه المسيح، وحاولوا قتل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحماه الله منهم.

فهم يقتلون الأنبياء ويغلون في العلماء، ﴿ اُنْخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ ﴾: الأخبار لليهود، والرهبان من النصارى وهم العباد.

﴿ اُنْخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فهذا كيد الشيطان باليهود والنصارى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويتخذون أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى)،
يحرمون عليهم الحلال فيعتقدون تحريمه، ويجلون لهم الحرام فيعتقدون حله،
﴿ اُنْخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ
ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فهؤلاء يعبدون إلهه كثيرة، الأخبار والرهبان كثيرون.

فمن غلا في العلماء أو الصالحين ففيه شبه من اليهود والنصارى، الغلو
لا يجوز بشخص أو بمكان، الغلو محرم وهو الزيادة عن الحد المشروع، يقال:
غلا القدر إذا زاد، فالغلو محرم، والمطلوب الاعتدال، فالاعتدال بين الغلو
وبين التساهل هذا هو المطلوب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ وَيُحَلِّوْنَ لَهُمْ، فَيَأْخُذُونَ بِتَحْرِيمِهِمْ
وَتَحْلِيلِهِمْ، وَلَا يُلْتَفَتُونَ: هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم
لا؟)، هذا التناقض؛ يقتلونهم، ويتخذونهم أرباباً من دون الله؛ يعبدون
الأخبار والرهبان!

اتخذوهم أرباباً في التحليل والتحريم، والتحليل والتحريم إنما هو لله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس للعلماء أن يجرموا من عندهم أو يجللوا من عندهم، وإنما
 يبلغون ما أحله الله وما حرمه الله، يبلغون عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فهذه وظيفة
 الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- أنهم مبلغون عن الله جَلَّ وَعَلَا
 رسالاته ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ وَيُجَلِّونَ لَهُمْ، فَيَأْخُذُونَ بِتَحْرِيمِهِمْ
 وَتَحْلِيلِهِمْ)، وهذا وقع في هذه الأمة أنهم نحو هذا المنحى -إلا من رحم
 الله- فصاروا يأخذون أقوال أهل العلم، ويعتقدونها تشريعاً من عند الله
 عَزَّ وَجَلَّ، وينون عليها دينهم ومعاملاتهم وأمورهم، وهي ليست من دين الله،
 وإنما هي من دين الشيطان زينه لهم، فأخذوه عن الشيطان وتركوا كتاب الله
 وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومثلهم من يأخذ بالرخص من كلام العلماء؛ إذا اختلفوا في شيء ظن
 أن الاختلاف سهل عليه أن يأخذ هذا المختلف فيه.

يقول: ما دام أن هناك خلاف وليس هناك إجماع ف يأخذ بهذا الشيء
 المختلف فيه، ولم يسأل عن دليله ومأخذه، هل هو صحيح أو غير صحيح؟
 لا نأخذ أقوال أهل العلم مطلقة، وإنما نعرض أقوالهم على كتاب الله
 وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما دل عليه الدليل أخذنا به، وما خالف الدليل
 فهو اجتهاد أخطأ فيه، ولا نأخذه وهو خطأ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (يُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ وَيُحْلُونَ لَهُمْ، فَيَأْخُذُونَ بِتَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ: هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟)، يقول: ما دام أن الأمر فيه خلاف فالأمر سهل، ويأخذون الذي يصلح لهم، ولو كان مخالفاً لشرع الله عَزَّوَجَلَّ.

يظنون أن الخلاف يبيح لهم هذا الشيء، وأن قول العالم يبيح لهم هذا الشيء، وهذا من كيد الشيطان وتلاعبه بهم.



قال عدي بن حاتم: «أتيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: يا رسول الله! ما عبدوهم؟ فقال: «حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إيّاهم». رواه الترمذي، وغيره^(١).

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان: أن يقتل أو يُقاتل مَنْ هُداة على يده، ويتخذ مَنْ لم تُضْمَنْ له عصمته ندًا لله، يحرم عليه، ويحلُّ له.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال عدي بن حاتم)، عدي بن حاتم الطائي، حاتم الجواد المشهور في طيء، وابنه عدي من خيار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان قائداً كبيراً في الجهاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فقال: حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إيّاهم)، العبادة اسم جامع، اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، اسم جامع، هذه هي العبادة، ولا يعتبر، ولا يتعبد بالشيء إلا إذا صح دليله من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: هذا حديث غريب.

وأيضاً عندنا هدي السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتابعين،
ومن جاء بعدهم، فنقتفى أثرهم، ونسلك مسلكهم، هذا هو الحق الذي تبرأ
به الذمة.



ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهما بختنصر، وسنحاريب وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه، ثم كان منهم في شأن المسيح ورميه وأمه بالعظام، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم فكفروا به بغياً وعناداً، وراموا قتله وصلبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفع له إليه، وطهره منهم، فأوقعوا القتل والصلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانقم الله تعالى منهم، ودمر عليهم أعظم تدمير، وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْحُ

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهما بختنصر، وسنحاريب وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه)، سلط الله عليهما الجبايرة لما قتلوا أنبياء الله زكريا وابنه يحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

لماذا قتلوهما؟ لأنهما لم يوافقوهما على أهوائهم ورغباتهم، وإنما أوقفوهم على الدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقتلوهما، قتلوا الأنبياء، وهما يقتل رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الله أنجاه منهم، فهذا شأن الضالين من اليهود والنصارى؛ ولهذا في سورة الفاتحة يقول تعالى:

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]: هذا دعاء لله عَزَّوَجَلَّ، دعاء الله أن يهدينَا ﴿ الصِّرَاطَ ﴾، يعني: الطريق، ﴿ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ المعتدل.

صراط من؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]: من هم المنعم عليهم؟
 ذكرهم الله في قوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
 النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾
 [النساء: ٦٩]، هؤلاء هم المنعم عليهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم كان منهم في شأن المسيح ورميه وأمه بالعظائم)،
 اتهموا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ليس له أب، ولذلك يُنسب إلى أمه،
 عيسى بن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، ومريم هي بنت عالم اليهود، مريم بنت عالم اليهود
 الرجل الصالح التقي، هذه مريم.

عيسى عَلَيْهَا السَّلَامُ ليس له أب، وإنما وُجِدَ بنفخة جبريل عَلَيْهَا السَّلَامُ، ﴿الَّتِي
 أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، يعني: من جبريل
 عَلَيْهَا السَّلَامُ نفخ في فَرْجَهَا.

وقيل: نفخ في جيبها، نفخ في جيبها، تحولت النفخة إلى فَرْجَهَا، فكان
 منها المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وهو من نفخة جبريل عَلَيْهَا السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وراموا قتله وصلبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفع
 إليه، وطهره منهم)، رفعه إليه سبحانه، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]،
 فهو حي في السماء وسينزل في آخر الزمان، ويقتل المسيح الدجال بباب لُدٍّ في
 فلسطين^(١)، يقتل مسيح الهداية مسيح الضلالة - والعياذ بالله -.

(١) أخرجه مسلم (١١٠) (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الترمذي
 (٢٢٤٤) من حديث مُجَمِّعِ ابْنِ جَارِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: =

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فأوقعوا القتل والصلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، والله جَلَّ وَعَلَا نفى ذلك، ﴿وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، يعني: وُضِعَ شبهه على الرجل الذي دُهِمَ على مكان المسيح.



= «يَقْتُلُ ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَالَ بِيَابِ لُدٍّ». وقال: حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٣/ ٤٢٠)، وابن حبان (٦٨١١). ولُدٌّ: مدينة تقع شمال غرب القدس، تبعد عنها ٢٦ ميلاً تقريباً. انظر: التعليق على صحيح ابن حبان (١٥/ ٢٢٣).

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يبق لهم بعد ذلك مُلك إلى أن بعث الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فكفروا به وكذبوه، فأتى عليهم - سبحانه - غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يُرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويظهر الأرض منهم، ومن عباد الصليب. قال تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح.

والغضب الثاني: بسبب كفرهم بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما.

الشَّحْ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومزقهم كل ممزق)، فاليهود مزقهم الله في الأرض وشتتهم، سلط عليهم الجبابرة، فلم تقم لهم دولة، وهذه الدولة الموجودة الآن لهم إنما هي بمظاهرة النصارى لهم، وإلا هم لا يستطيعون أن يقيموا دولة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأتى عليهم - سبحانه - غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلاً وصغاراً لا يُرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء،

فيستأصل شأفتهم، ويظهر الأرض منهم، ومن عباد الصليب)، إذا نزل المسيح عيسى بن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طهر الله به الأرض من الشرك والكفر، وانتقم الله به من هؤلاء الظلمة المخالفين لدين الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فيقتل المسلمون اليهود في آخر الزمان حتى إن الشجرة تنادي المسلم فتقول: «يَا مُسْلِمُ، يَا وَلِيَّ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلَفِي فَأَقْتُلْهُ»^(١)، فيقتله، تسليط الله عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠])، هذا شأن اليهود.

اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، ولهذا في آخر الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وهم النصارى.



(١) أخرجه مسلم (٧٩) (٢٩٢١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أن ألقى إليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسًا لهم في جحد نبوة رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء وهو على الله تعالى محال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أن ألقى إليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد)، ولهذا ينكرون النسخ، اليهود ينكرون النسخ في الشرع.

والنسخ ثابت ووارد؛ ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فالله جَلَّ وَعَلَا ينسخ بعض الأحكام بأحكام مثلها أو أحسن منها، أو ينسخ إلى غير بدل، ينسخ إلى بدل أو ينسخ إلى غير بدل.

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخَ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أن ألقى إليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد)، فهم ينكرون النسخ، اليهود ينكرون النسخ في الشرع، والنسخ ثابت، فالله جَلَّ وَعَلَا ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسًا لهم في جحد نبوة رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، هذه الضلالة اتخذوها دينًا لهم فأنكروا رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء بنسخ ما كان من قبله من الأحكام التي انتهت صلاحيتها، فنسخها الله بخير منها أو مثلها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء وهو على الله تعالى محال)، هذه شبهتهم، يستلزم البداء، يعني: أن الله لم يكن عالمًا من قبل فعلم فنسخ، هذه شبهتهم.

الله جَلَّ وَعَلَا عالمٌ بكل شيء، والأحكام تصلح لوقت دون وقت، وينسخ الله جَلَّ وَعَلَا ما انتهت صلاحيته ويثبت ما بقيت صلاحيته من الشرائع.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء وهو على الله تعالى محال)، البداء، يعني: أن الله بدا لهم أن هذا لا يصلح، وأن المنسوخ به أصلح للناس، هذه شبهتهم.

الله جَلَّ وَعَلَا يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء، وليس معنى النسخ أن الله كان يجهل صلاحية هذه الشريعة التي نسخها، وإنما يعلم أنها تصلح في وقتها، فينسخها الله بأحسن منها أو مثلها، أو ينسخ إلى غير بدل.



وقد أكذبهم الله سبحانه في نص التوراة، كما أكذبهم في القرآن.
قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٥]. فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحاً في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه. ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٥]، هذا الذي بين الله به ضلالهم.

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ولما زنى رجلٌ منهم ذهبوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يظنون أن الرسول سيخفف عنه العقوبة، فقال لهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما تصنعون به أنتم؟ قالوا: نسود وجهه، ونركبه على حمار على قفاه، ونطوف به في الناس، هذا ما كذبوه -والعياذ بالله-، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب منهم التوراة، فوضع اليهودي أصبعه على الآية التي فيها الحق، وكان عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حاضراً، من كبار علمائهم من الله عليه بالإسلام وأسلم، فقال له: ارفع يدك، فلما رفع يده فإذا الآية تلوح واضحة بالحكم الذي يريد أن يكتمه^(١).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران: ٩٣])، وإسرائيل هو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعقوب هو إسرائيل.

إسر: عبد، (ثيل): الله، أي: عبد الله، إسرائيل، يعني: عبد الله.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٦)، ومسلم (٢٦) (١٦٩٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنِيَا، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟ قَالُوا: نُحْمِئُهَا وَنَضْرِبُهَا، فَقَالَ: لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ؟ فَقَالُوا: لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَوَضَعَ مِدْرَاسَهَا الَّذِي يُدْرَسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ، وَمَا وَرَاءَهَا وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَتَنَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَخْنِي عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣]، هذا دليل النسخ، وهو في كتابهم ومعلوم عندهم، لكن جحدوه.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥])، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حنيف مسلم، وهم يزعمون -فيه- أنه على دينهم. ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، هذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم يزعمون أنهم على دينهم. ﴿لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



وقوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ [آل عمران: ٩٣]: أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣]. هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة. وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضوع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه)، وإسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما حرم ما حرم؛ لأنه يضر به، وهو اللبن، لبن الإبل، لبن الإبل؛ لأنه يضره، ولا يطابقه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فتأمل هذا الموضوع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه)، لم يتبين لهم، لم يتبين لهم، لأكثرهم، تبين للأخرين.



وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح، والذبائح، والأفعال، والأقوال. وذلك نسخٌ لحكم البراءة الأصلية؛ فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًا. فإن القوم لم ينكروا رفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب، إذ هذا شأن كل الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى، فيجعله حرامًا، أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحًا. وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة.

فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم

لا؟

فإن قالوا: لم ترفع شيئًا من أحكام تلك الشرائع، فقد جاهروا بالكذب والبهت، وإن قالوا: قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة، فقد أقرروا بالنسخ قطعًا.

وأيضًا، فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

فإن قالوا: نعم، قلنا: أليس في التوراة أن من مس عظم ميت، أو وطئ قبرًا، أو حضر ميتًا عند موته، فإنه يصير من النجاسة بحال لا يخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها؟ فلا يمكنهم إنكار ذلك.

فيقال لهم: فهل أنتم اليوم على ذلك؟

فإن قالوا: لا نقدر عليه، فيقال لهم: لم جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهرًا يصلح للصلاة، والذي في كتابكم خلافه؟
فإن قالوا: لأننا عدمننا أسباب الطهارة، وهي رماد البقرة، وعدمنا الإمام المطهر المستغفر.

فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله، أو لم يغنكم؟
فإن قالوا: أغنانا عدمه عن فعله.

قيل لهم: قد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر.
فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعي بنسخه لمصلحة النسخ، فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام، فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت، وفي شريعة دون أخرى، كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم صار مفسدة في سائر الشرائع، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن قبله وفي سائر الشرائع، ثم صار مفسدة في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام، ومنعتم تحليلها بها، فالأمر حينئذ أظهر، فإنه سبحانه يحلل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، والتحليل والتحرير تبعٌ لمجرد مشيئته، لا يُسأل عما يفعل.

وإن قلت: لا نستغني في الطهارة عن ذلك الظهور الذي كان عليه أسلافنا، فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبدًا، ولا سبيل لكم إلى حصول الطهارة.

فإن قالوا: نعم، الأمر كذلك.

قيل لهم: فإذا كنتم أنجاسًا على مقتضى أصولكم، فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام، اعتزالًا تخرجون فيه إلى حد لو أن أحدكم لمس ثوبه ثوب المرأة نجستموه مع ثوبه.

فإن قلتم: ذلك من أحكام التوراة.

قيل لكم: ليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة، فإذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم، والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل، فهي إذاً أشد من نجاسة الحيض، ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم، ولا تنجسون من لمسها، ولا الثوب الذي تلمسه، فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس في التوراة.

الشَّرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم صار مفسدة في سائر الشرائع)، يعني: انتهت صلاحيته^(١).



(١) إلى هذا الموضوع توقف شرح شيخنا العلامة صالح بن فوزان الفوزان جَفَظَهُ اللَّهُ، أملين أن يكمل الجزء اليسير الباقي - إن شاء الله - ونستدركه في الطبعة الجديدة، والله الموفق والمستعان.

فصل

قالت الأمة الغضبية:

التوراة قد حظرت أمورًا، كانت مباحة من قبل، ولم تأت بإباحة محظور، والنسخ الذي ننكره ونمنع منه: هو ما أوجب إباحة محظور؛ لأن تحريم الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسدة، فإذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومقرراتها، فإذا جاء من أباحه علمنا بإباحة المفسدة: أنه غير نبي، بخلاف تحريم ما كان مباحًا، فإننا نكون متعبدين بتحريمه.

قالوا: وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرّمته التوراة، مع أنه إنما حرم لما فيه من المفسدة.

فهذه النكتة هي التي تعتمد عليها الأمة الغضبية، ويتلقاها خالف منهم عن سالف والمتكلمون لم يشفوهم في جوابها، وإنما أطلوا معهم الكلام في رفع البراءة الأصلية بالشرائع، وفي نسخ الإباحة بالتحريم.

ولعمر الله إنه لما يبطل شبهتهم؛ لأن رفع البراءة الأصلية، ورفع الإباحة بالتحريم هو تغيير لما كان عليه الحكم الاستصحابي أو الشرعي، بحكم آخر لمصلحة اقتضت تغييره، ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين تغيير الإباحة بالتحريم، أو تغيير التحريم بالإباحة.

والشبهة التي عرضت لهم في أحد الموضوعين هي بعينها في الموضوع الآخر، فإن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته. فإذا حرّمته الشريعة الأخرى وجب قطعًا أن يكون

تحريمه فيها هو المصلحة، كما كان إباحته في الشريعة الأولى هو المصلحة، فإن تضمن إباحة الشحوم المحرمة في الشريعة الأولى هو المصلحة، فإن تضمن إباحة الشحوم المحرمة في الشريعة الأولى إباحة المفسد - وحاشا لله - تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح، وكلاهما باطل قطعاً. فإذا جاز أن تأتي شريعة التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ومن تقدمه يستبيحه، فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظوراً.

وهذه الشبهة الباطلة الداحضة هي التي ردت بها الأمة الغضبية نبوة سيدنا محمد - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -، هي بعينها التي رد بها أسلافهم نبوة المسيح، وتوارثوها كافرًا عن كافر. وقالوا لمحمد - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -، كما قال أسلافهم للمسيح: لانقر بنبوة من غير شريعة التوراة. فيقال لهم: فكيف أقررتم لموسى بالنبوة، وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - قدح في موسى فلا تقدحون، في نبوتها بقادح إلا ومثله في نبوة موسى سواء، كما أنكم لا تثبتون نبوءة موسى ببرهان إلا وأضعافه شاهد على نبوة محمد - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -.

فمن أبين المحال أن يكون موسى رسولاً صادقاً ومحمد ليس برسول، أو يكون المسيح رسولاً ومحمد - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - ليس برسول. ويقال للأمة الغضبية أيضاً: لا يخلو المحرم، إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته، بحيث تمنع إباحته في زمان من الأزمنة، وإما أن يكون تحريمه لما تضمنته من المفسدة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول، لزم أن يكون ما حرّمته التوراة محرّماً على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وإن كان الثاني، ثبت أن التحريم والإباحة تابعان للمصالح، وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد محرّماً في ملة دون ملة، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وفي حال دون حال. وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه لكان محرّماً على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟ وكذلك ما حرّمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها لو كان محرّماً لعينه وذاته، لوجب تحريمه على كل نبي، وفي كل شريعة.

وإذا كان الرب تعالى لا حجر عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويتلى عباده لما يشاء، ويحكم ولا يحكم عليه. فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنه أو يحرم محرّماً على أمة ويبيحه لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين، بحسب المصلحة، وقد بين ذلك سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُو

اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿البقرة: ١٠٦-١٠٧﴾.

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء كما أنه يمحو من أحكامه القدريّة الكونية ما يشاء، ويثبت فهكذا أحكامه الدنيّة الأمرية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء.

فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته، وتجدد رسالته: بكونه أنى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم. وبالله التوفيق، يضل من يشاء ويهدى من يشاء. ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أكثر ما هم عليه، وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلمائهم.

فمن ذلك: أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته هكذا «اللهم اضرب بيوق عظيم لفيئنا واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانه يا جامع شتات قوم إسرائيل». ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا «أردد حكمانا كالأولين، ومسرانا كالابتداء وابنِ أورشليم قرية قدسك في أيامنا، وأعزنا بابتنائها، سبحانه يا باني يورشليم». فهذا قولهم في صلاتهم، مع علمهم بأن موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يقولوا شيئاً من ذلك. ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامهم، كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصا، وصوم كدليا التي جعلوها فرضاً لم يصمها موسى، ولا يوشع بن نون. وكذلك

صوم صلبِ هامان، ليس شيء من ذلك في التوراة، وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

هذا. مع أنه في التوراة ما ترجمته «لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً، ولا تنقصوا منه شيئاً».

وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جداً، هم مجمعون على تعطيلها وإلغائها فإما أن تكون منسوخة بنصوص أخرى من التوراة أو بنقل صحيح عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو باجتهاد علمائهم.

وعلى التقادير الثلاث، فقد بطلت شبهتهم في إنكار النسخ.

ثم من العجب أن أكبر تلك الأوامر التي هم مجمعون على عدم القول والعمل بها إنما يستندون فيها إلى أقوال علمائهم وأمرائهم، وقد اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني، وهو نص التوراة، وتعطيل أحكام كثيرة منصوصة في التوراة.

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم يزعمون أن الفقهاء إذا أحلوا لهم الشيء صار حلالاً، وإذا حرموه صار حراماً وإن كان نص التوراة بخلافه.

وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاءوا من شريعة التوراة، فحجروا على الرب - تعالی وتقدس - أن ينسخ ما يريد من شريعته، وجوزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم. كما تكبر إبليس أن يسجد لآدم، ورأى أن ذلك يغض منه، ثم رضى أن يكون قوادا لكل عاص وفساق.

وكما أبى عباد الأصنام أن يكون النبي المرسل إليهم بشرًا، ثم رضوا أن يكون إلههم ومعبودهم حجرًا.

وكما نزهت النصارى بتاركتهم عن الولد والصاحبة، ولم يتحاشوا من نسبة ذلك إلى الله - سبحانه تعالى.

وكما نزهت الفرعونية من الجهمية الرب سبحانه أن يكون مستويًا على عرشه، لتلايلزم الحصر، ثم جعلوه سبحانه في الآبار والحانات، وأجواف الحيوانات.



فصل

ومن تلاعب الشيطان بهم: ما شددوه على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها، مما ليس له أصل عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع الحاخاميم وآرائهم، وهم فقهاءهم.

ولقد كان لهذه الأمة في قديم الزمان بالشام والعراق والمدائن مدراس وفقهاء كثيرون، وذلك في زمن دولة البابليين والفرس، ودولة اليونان والروم، حتى فقهاءهم في بعض تلك الدول على تأليف المشنا والتلمود.

فأما المشنا فهو الكتاب الأصغر، ومبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة. وأما التلمود فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكبره، ولم يكن الفقهاء الذين ألفوه في عصر واحد، وإنما ألفوه جيلاً بعد جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه، وأن في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائل هذا التأليف، علموا أنهم إن لم يقطعوا ذلك ويمنعوا من الزيادة فيه أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سده، قطعوا الزيادة فيه، ومنعوا منها. وحظروا على الفقهاء الزيادة فيه، وإضافة شيء آخر إليه، وحرموا من يضيف إليه شيئاً آخر فوقف على ذلك المقدار.

وكانت أئمتهم قد حرموا عليهم في هذين الكتابين مؤاكلة الأجانب، وهم من كان على غير ملتهم. فحرموا عليهم الأكل من ذبيحة من لم يكن على دينهم، لأن علماءهم علموا أن دينهم لا يبقى في هذه الخلوة مع كونهم تحت الذل والعبودية، إلا أن يصدوهم عن مخالطة من هو على غير ملتهم، فحرموا

عليهم الأكل من ذبائحهم، ومناكحتهم، ولم يمكن تقرير ذلك إلا بحجة يتدعونها من أنفسهم، ويكذبون بها على الله تعالى؛ لأن التوراة إنما حرمت عليهم مناكحة غيرهم من الأمم؛ لئلا يوافقوا الأزواج في عبادة الأصنام والشرك، وحرّم عليهم في التوراة أكل ذبائح الأمم التي يذبحونها قرباناً إلى الأصنام؛ لأنه قد سمي عليها اسم غير الله تعالى. فأما الذبائح التي لم تذبح قرباناً للأصنام فلم تنطق التوراة بتحريمها، وإنما نطقت بإباحة الأكل من أيدي غيرهم من الأمم وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا نَهَاهُمْ عَنْ مَنَاكِحَةِ عِبَادِ الْأَصْنَامِ، وَأَكَلَ مَا يَذْبَحُونَهَا عَلَى اسْمِهَا.

فما بال هؤلاء لا يأكلون من ذبائح المسلمين وهم لا يذبحون للأصنام، ولا يذكرون اسمها عليها؟!!

فلما نظر أئمتهم إلى أن التوراة غير ناطقة بتحريم مآكل الأمم عليهم إلا عباد الأصنام، وأن التوراة قد صرحت بأن تحريم مؤاكلتهم ومخالطتهم خوف استدراج المخالطة إلى المناكحة، وأن مناكحتهم إنما منع منها خوف استتباعها إلى الانتقال إلى أديانهم وعبادة أوثانهم، ووجدوا جميع هذا واضحاً في التوراة. اختلقوا كتاباً في علم الذبائح، ووضعوا فيه من التشديد والآصار والأغلال ما شغلهم به عما هم فيه من الذل والمشقة، وذلك أنهم أمرهم أن ينفخوا الرئة حتى يملؤها هواء ويتأملوها، هل يخرج الهواء من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها الهواء حرموها، وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقاً ببعض لم يأكلوه.

وأمروا الذي يتفقد الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة، ويتأمل بأصابعه، فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر، أو أحد الجانبين، ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة؛ حرموه ولم يأكلوه وسموه طريفاً، يعنون بذلك أنه تنجس وأكله حرام.

وهذه التسمية هي أصل بلائهم؛ وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريفاً، والطريفاً: هي الفريسة التي يفترسها الأسد أو الذئب، أو غيرها من السباع، وهو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣].

والدليل على ذلك: أنه قال في التوراة «ولحما في الصحراء فريسة لا تأكلوه، وللكلب ألقوه».

وأصل لفظ «طريفاً» طوارف، وقد جاءت هذه اللفظة في التوراة في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما جاء إخوته على قميصه بدم كذب، وزعموا أن الذئب افترسه.

وقال في التوراة «ولحما في الصحراء فريسة لا تأكلوا»، والفريسة إنما توجد غالباً في الصحراء.

وكان سبب نزول هذا عليهم: أنهم كانوا ذوي أخبية يسكنون البر والته، لأنهم مكثوا يترددون في التيه أربعين سنة، كانوا لا يجدون طعاماً إلا المن والسلوى - وهو طائر صغير يشبه السمان - وفيه من الخاصية أن أكل لحمه يلين القلب ويذهب بالخروب والقساوة، فإن هذا الطائر يموت إذا

سمع صوت الرعد، كما أن الخطاف يقتله البرد؛ فألمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوان المطر والرعد، فيخرج من الجزائر، وينتشر في الأرض.

فجلب الله تعالى إليهم هذا الطائر؛ ليتنفعوا به ويكون اغتداؤهم به كالدواء لغلظ قلوبهم وقسوتها.

والمقصود: أن مشايخهم تعدوا في تفسير الطريفا عن موضوعها وما أريد بها. وكذلك فقهاؤهم اختلقوا من أنفسهم هذيانا وخرافات تتعلق بالرئة والقلب، وقالوا: ما كان من الذبائح سليماً من تلك الشروط فهو «دحيا». ومعنى هذه اللفظة أنه طاهر، وما كان خارجاً عن هذه الشروط فهو «طريفا»، وتفسيرها أنه حرام.

قالوا: ومعنى نص التوراة «ولحما فريسة في الصحراء لا تأكلوه، وللكلب ألقوه»، أي إنكم إذا ذبحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها، بل تبيعونها على من ليس من أهل ملتكم.

وفسروا قوله: «للكلب ألقوه»، أي: لمن ليس من أهل ملتكم فأطعموه وبيعوه، وهم أحق بهذا اللقب وأشبه الناس بالكلاب.

ثم إن هذه الأمة الغضبية فرقتان:

إحدهما: عرفوا أن أولئك السلف الذين ألفوا المشنا والتلمود، هم فقهاء اليهود، وهم قوم كذابون على الله وعلى موسى النبي، وهم أصحاب حماقات وتنطع، ودعاوى كاذبة، يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من

تلك المسائل يوحى الله تعالى إليهم بصوت يسمعه جمهورهم، يقول: الحق في هذه المسألة مع الفقيه فلان، ويسمون هذا الصوت «بث قول».

فلما نظرت اليهود القراءون، وهم أصحاب «عانان وبنيامين» إلى هذه المحالات الشنيعة، وهذا الافتراء الفاحش، والكذب البارد. انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء وعن كل من يقول بمقالاتهم، وكذبوهم في كل ما افتروا به على الله وزعموا أنه لا يجوز قبول شيء من أقوالهم، حيث ادعوا النبوة، وأن الله تعالى كان يوحى إليهم، كما يوحى إلى الأنبياء.

وأما تلك الترهات التي ألفها الحاخاميم، وهم فقهاؤهم، ونسبوا إلى التوراة وإلى موسى فإن القرائين اطرحوها كلها، وألقوها ولم يجرموا شيئاً من الذبائح التي يتولون ذباحتها البتة، ولم يجرموا سوى لحم الجدى بلبن أمه فقط، مراعاة لنص التوراة: «لا تنضج الجدي بلبن أمه» وليسوا بأصحاب قياس، بل أصحاب ظاهر فقط.

وأما الفرقة الثانية: فهم الربانون، وهم أصحاب القياس، وهم أكثر عدداً من القرائين، وفيهم الحاخاميم المفترون على الله تعالى الكذب، الذين زعموا أن الله تعالى كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت، الذي يسمونه «بث قول».

وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم، لأن حاخاميمهم أوهموهم أن المأكولات إنما تحل للناس إن استعملوا فيها هذا العلم، الذي نسبوه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى الله تعالى، وأن سائر الأمم لا يعرفون هذا،

وأنهم إنما شرفهم الله تعالى بهذا وأمثال ذلك من الترهات، فصار أحدهم ينظر من ليس على مذهبه وملته، كما ينظر إلى الحيوان البهيم، وينظر مآكل الأمم وذبائحهم، كما ينظر إلى العذرة.

وهذا من كيد الشيطان لهم ولعبه بهم، فإن الحاخاميم قصدا بذلك المبالغة في مخالفتهم الأمم، والإزراء عليهم، ونسبتهم إلى قلة العلم، وأنهم اختصوا دون الأمم بهذه الآصار والأغلال والتشديدات.

وكلما كان الحاخاميم فيهم أكثر تكلفاً وأشد إصراراً، وأكثر تحريماً، قالوا: هذا هو العالم الرباني.

ومما دعاهم إلى التضييق والتشديد: أنهم مبددون في شرق الأرض وغربها، فما من جماعة منهم في بلدة إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة، يظهر لهم الخشونة في دينهم والمبالغة في الاحتياط، فإن كان من المتفقهة فهو يسرع في إنكار أشياء عليهم، ويوهمهم التنزه عما هم عليهم، وينسبهم إلى قلة الدين، وينسب ما ينكره عليهم إلى مشايخه، وإلى أهل بلده، ويكون في أكثر تلك الأشياء كاذباً، وقصده بذلك إما الرياسة عليهم، وإما تحصيل بعض مآربه منهم، ولا سيما إن أراد المقام عندهم.

فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم ولا من ذبائحهم، ويتأمل سكين ذابحهم، وينكر عليهم بعض أمره، ويقول: أنا لا أكل إلا من ذبيحة يدي، فتراهم معه في عذاب لا يزال ينكر عليهم المباح، ويوهمهم تحريمه بأشياء يخترعها، حتى لا يشكون في ذلك، فإن قدم عليهم قادم آخر فخاف المقيم أن

ينقض عليه القادم، تلقاه وأكرمه وسعى في موافقته وتصديقه، فيستحسن ما فعله الأول، ويقول لهم: لقد عظم الله تعالى ثواب فلان، إذ قوى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، وشد سياج الشرع عندهم، وإذا لقيه يظهر من مدحه وشكره والدعاء له ما يؤكد أمره.

وإن كان القادم الثاني منكرًا لما جاء به الأول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع، وينسبونه إما إلى الجهل، وإما إلى رقة الدين؛ لأنهم يعتقدون أن تضييق المعيشة وتحريم الحلال، هو المبالغة في الدين.

وهم أبدًا يعتقدون الصواب والحق مع من يشدد ويضيق عليهم. هذا إن كان القادم من فقهاءهم.

فأما إن كانوا من عبادهم وأخبارهم فهناك ترى العجب العجيب من الناموس الذي يعتمد، والسنن التي يحدثها ويلحقها بالفرائض؛ فتراهم مسلمين له منقادين، وهو يحتلب درهم، ويحتلب درهمهم، حتى إذا بلغه أن يهوديًا جلس على قارعة الطريق يوم السبت، أو اشترى لبنًا من مسلم، تلبسه وسبه في مجمع اليهود، وأباح عرضه ونسبه إلى قلة الدين.



فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية: أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي مما أمروا به أو نهوا عنه شاقاً عليهم، طلبوا التخلص منه بوجوه الخيل، فإن أعييتهم الخيل قالوا: هذا كان علينا لما كان لنا الملك والرياسة.

فمن ذلك: أنهم إذا أقام أخوان في موضع واحد، ومات أحدهما ولم يعقب ولداً، فلا تخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي، بل ولد حميها ينكحها، وأول ولد من ينكحها ينسب إلى أخيه الدارج، فإن أبي أن ينكحها خرجت مشتكية منه إلى مشيخة قومه، تقول: قد أبي ابن حمى أن يستبقى اسماً لأخيه في إسرائيل. ولم يرد نكاحي، فيحضره الحاكم هناك، ويكلفه أن يقف ويقول: ما أردت نكاحها، فتتناول المرأة نعله فيخرجه من رجله، وتمسكها بيدها وتبصق في وجهه، وتنادى عليه: كذا فليصنع بالرجل الذي لا يبنى بيت أخيه، ويدعى فيما بعد بالمخلوع النعل وينبز بنوه بنى مخلوع النعل. هذا كله مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة.

وفيه حكمة ملجئة للرجل إلى نكاح زوجة أخيه الدارج، فإنه إذا علم أن ذلك يناله إن لم ينكحها أثر نكاحها عليه، فإن كان مبغضاً لها زاهداً في نكاحها، أو كانت هي زاهدة في نكاحه مبغضه له، استخرج له الفقهاء حيلة يتخلص بها منها وتتخلص منه، فيلزمونها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشايخهم، ويلقنونها أن تقول: أبي ابن حمى أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل، لم يرد نكاحي، فيلزمونها بالكذب عليه، لأنه أراد نكاحها وكرهته، وإذا

لقنوها هذه الألفاظ قالتها، فيأمرونه بالكذب، وأن يقوم ويقول: ما أردت نكاحها، ولعل ذلك سؤاله وأمنيته، فيأمرونه بأن يكذب، ولم يكنهم أن كذبوا عليه، وألزموه أن يكذب، حتى سلطوها على الإخراق به والبصاق في وجهه. ويسمون هذه مسألة «البياما والجالوس».

وقد تقدم من التنبيه على حيلهم في استباحتهم محارم الله تعالى بعض ما فيه كفاية. فالقوم بيت الحيل والمكر، والخبث.

وقد كانوا يتنوعون في عهد رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- بأنواع الحيل والكيد والمكر عليه وعلى أصحابه، ويرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ عليهم. فتحيلوا عليه وأرادوا قتله مرارا والله تعالى ينجيه من كيدهم.

فتحيلوا عليه وصعدوا فوق سطح وأخذوا رَحًا أرادوا طرحها عليه وهو جالس في ظل حائط، فأتاه الوحي؛ فقام منصرفًا، وأخذ في حربهم وإجلانهم^(١).

ومكروا به وظاهروا عليه أعداءه من المشركين؛ فظفره الله تعالى بهم^(٢).

(١) قصة بني النضير أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ٤٨٩، برقم ٤٢٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٨). وانظر: قصتهم في زاد المعاد (٣/ ١١٥-١١٧)، والروض الانف (٦/ ١٥٨-١٧٥)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٤٥-١٥٩)، والمغازي للواقدي (١/ ٣٦٣-٣٨٣)، والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (١/ ٢٣٤-٢٣٧).

(٢) قصة بنو قينقاع أخرجها البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٣-١٧٥). وانظر: قصتهم في سيرة ابن إسحاق (ص ٣١٣-٣١٥)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٤٧-٤٩)، والمغازي للواقدي (١/ ١٧٦-١٨٠)، والروض الانف (٥/ ٢٧٥-٢٧٩)، وزاد المعاد (٣/ ١١٧-١٢٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥-٧).

ومكروا به وأخذوا في جمع العدو له، فظفره الله تعالى برئيسهم فقتله^(١).
 ومكروا به وأرادوا قتله بالسم، فأعلمه الله تعالى به، ونجاه منه^(٢).
 ومكروا فسحروه، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء، ولم يفعله،
 فشفاه الله تعالى وخلصه^(٣).

(١) قصة بني قريظة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٩٨-٤٠٧). وانظر: قصتهم في سيرة ابن هشام (٢/٢٣٣-٢٤١)، والمغازي للواقدي (٢/٤٩٦-٥٢٥)، والروض الانف (٦/٢٢٢-٢٥٣)، وزاد المعاد (٣/١١٧-١٢٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٢٣-٢٣٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٦٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا فَتَحَتْ حَيْبُرُ أُهْدَيْتَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ يَهُودٍ، فَجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَبُوكُمْ؟، قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا، فَقَالَ لَهُمُ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخَلَّفْنَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخْسَسُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا تَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَادِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ».

وأخرج البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لِأَقْتُلَكَ، قَالَ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ، قَالَ: -أَوْ قَالَ- عَلَيَّ، قَالَ: قَالُوا: أَلَا تَقْتُلُهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي هَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٤٣) (٢١٨٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «سُحِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، =

ومكروا به في قولهم: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ
وَكَفَرُوا ۗ ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، يريدون بذلك تشكيك المسلمين
في نبوته، فإنهم إذا أسلموا أول النهار اطمأن المسلمون إليهم، وقالوا: قد اتبعوا
الحق، وظهرت لهم أدلته، فيكفرون آخر النهار، ويحسدون نبوته، ويقولون:
لم نقصد إلا الحق واتباعه، فلما تبين لنا أنه ليس به رجعنا عن الإيمان به. وهذا
من أعظم خبثهم ومكرهم^(١)، ولم يزلوا موضعين مجتهدين في المكر والخبث
إلى أن أخزاهم الله بيد رسوله واتباعه - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضي
عنهم - أعظم الخزي، ومزقهم كل ممزق وشتت شملهم كل مشتت.

وكانوا يعاهدونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويصالحونه، فإذا خرج لحرب عدوه
نقضوا عهده.

= حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي، دَعَا اللَّهَ وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: أَشَعْرَتُ يَا عَائِشَةُ أَلَا اللَّهُ قَدْ
أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ. قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا
عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ،
قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ
وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَثْرِ ذِي أَرْوَانَ، قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْبَيْتِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ
فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نَفَاعَةٌ الْحِنَاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ
أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُتَوَّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا،
وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ.»

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٩٥-٤٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢/٦٧٩-٦٨٠)،
وتفسير السمعاني (١/٣٣١-٣٣٢)، والقرطبي (٤/١١١)، وابن كثير (٢/٥٩).

ولما سلب الله تعالى هذه الأمة ملكها وعزها وأذلها، وقطعهم في الأرض، انتقلوا من التدبير بالقدرة والسلطان، إلى التدبير بالمكر والدهاء، والخيانة والخداع، وكذلك كل عاجز جبان سلطانه في مكره وخداعه، وبهته وكذبه، ولذلك كان النساء بيت المكر والخداع والكذب والخيانة، كما قال الله تعالى عن شاهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أنهم يمثلون أنفسهم بعناقيد الكرم، وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعلى حيطان الكرم.

وهذا من غاية جهلهم وسفهمهم، فإن المعتنين بمصالح الكرم إنما يجعلون على أعلى حيطانه الشوك، حفظاً له، وحيطة وصيانة، ولسنا نرى لليهود من سائر الأمم إلا الضرر والذل والصغار، كما يفعل الناس بالشوك.

ومن تلاعبه بهم أنهم ينتظرون قائماً من ولد داود النبي، إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وعدوا به.

وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال، فهم أكثر أتباعه^(١)، وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقتلهم ولا يبقى منهم أحداً.

والأمم الثلاث تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان، فإنهم وعدوا به في كل ملة.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٤) (٢٩٤٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَّبِعُ الدَّجَالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ، سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ».

والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء، لكسر الصليب، وقتل الخنزير، وقتل أعدائه من اليهود، وعباده من النصارى^(١)، ومنتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً^(٢).



(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤٣) (١٥٥) عَنِ ابْنِ الْمُسَيْبِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٢٨٥)، وأحمد (٣٢١/١٧) عَنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجَلِي الْجَهَنَّةَ، أَقْتَى الْأَنْفِ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مَلَأَتْ جَوْزًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ».

فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية: أنهم في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة يقولون في صلاتهم «لم تقول الأمم: أين إلههم؟ انتبه. كم تنام يارب؟ استيقظ من رقدتك».

وهؤلاء إنما أقدموا على هذه الكفريات من شدة ضجرهم من الذل والعبودية، وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بُعدًا. فأوقعهم ذلك في الكفر والتزندق الذي لا يستحسنه إلا أمثالهم. وتجروا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ الْمُنَاجَاةَ الْقَبِيحَةَ، كأنهم ينخونه بذلك لينتخى لهم ويحمى لنفسه فكأنهم يخبرونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ أَنَّهُ قَدْ اخْتَارَ الْحَمُولَ لِنَفْسِهِ وَأَحْبَابَهُ، ولأبناء أنبيائه. فينخونه للنباة، واشتهار الصيت.

فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات في الصلاة يقشعر جلده، ولا يشك أن هذه المناجاة تقع عند الله تعالى بموقع عظيم. وأنها تؤثر فيه، وتحركه، وتمزه وتنخيه.

ومن ذلك: أنهم ينسبون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الندم على الفعل.

فمن ذلك: قولهم في التوراة التي بأيديهم «وندم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ، وَشَقَّ عَلَيْهِ، وَعَادَ فِي رَأْيِهِ». وذلك عندهم في قصة قوم نوح.

وزعموا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ لِمَا رَأَى فِسَادَ قَوْمِ نُوحٍ، وَأَنَّ شُرَكَاهُمْ وَكَفَرَهُمْ قَدْ عَظُمَ نَدَمٌ عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ.

وكثير منهم يقول: إنه بكى على الطوفان، حتى رمد، وعادته الملائكة، وأنه عض على أنامله حتى جرى الدم منها.

وقالوا أيضاً: إن الله تعالى ندم على تملكه شاؤول على بني إسرائيل، وأنه قال ذلك لشمويل.

وعندهم أيضاً: أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى، وقرب عليه قرابين، وأن الله تعالى استنشق رائحة القثار فقال الله تعالى في ذاته «لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس؛ لأن خاطر البشر مطبوع على الرداءة، ولن أهلك جميع الحيوان كما صنعت».

وقد واجهوا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله تعالى عنهم - بأمثال هذه الكفريات.

فقال قائل منهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَرَحَ. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيباً لَهُمْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]»^(١).

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/١٣٦٢)، والحاكم (٢/٥٩٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٢٠٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ الْيَهُودَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَتْهُ عَنِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ: خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ، =

وتأمل قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩]،
فإن أعداء الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نسبوه إلى ما لا يليق به، وقالوا فيه ما هو
منزه عنه، فأمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ، ويكون له أسوة بربه
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق.

وكذلك قال فتاح لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله فقير ونحن أغنياء؛ لهذا
استقرضنا من أموالنا، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]»^(١).

= وَخَلَقَ اللَّهُ الْحَبَالَ يَوْمَ الثَّلَاثِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ مَنَافِعٍ، وَخَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الشَّجَرَ وَالْمَاءَ
وَالْمَدَائِنَ وَالْعُمُرَانَ وَالْحَرَابَ فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَبَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَحْمِلُونَ لَهُ أَثْقَالَهَا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٠١ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَنَزَلَ
فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّالِفِينَ ﴿وَخَلَقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ يَوْمَ
الْجُمُعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَقِينٌ مِنْهُ فَخَلَقَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ
مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ السَّاعَاتِ الْأَجَالَ حِينَ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَلْقَى الْأَقَّةَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَفِي الثَّلَاثَةِ أَدَمَ أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، وَأَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَخْرَجَهُ
مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ، ثُمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ: ثُمَّ مَاذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ. قَالُوا:
قَدْ أَصَبْتَ لَوْ أَتَمَّمْتَ، قَالُوا: ثُمَّ اسْتَرَاحَ، قَالَ: فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبًا شَدِيدًا،
فَنَزَلَتْ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ
لُغُوبٍ﴾ ٢٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿﴾.

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/٢٧٨-٢٨١)، وابن أبي حاتم (٢/٤٦٠)، وزاد المسير (١/٣٥٣-٣٥٤)، وتفسير القرطبي (٤/٢٩٤)، وابن كثير (٢/١٧٦).

وقالوا أيضًا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويقولون في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة: «يا إلهنا وإله آبائنا، أملك على جميع أهل الأرض؛ ليقول كل ذي نسمة: الله إله إسرائيل قد ملك، ومملكته في الكل متسلطة».

ويقولون في هذه الصلاة أيضًا: «وسيكون لله تعالى الملك، وفي ذلك اليوم يكون الله تعالى واحدًا، واسمه واحدًا»، ويعنون بذلك: أنه لا يظهر الملك لله تعالى إلا إذا صارت الدولة لليهود الذين هم صفوته وأمته، فأما ما دامت الدولة لغير اليهود؛ فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خامل الذكر عند الأمم، مطعون في ملكه، مشكوك في قدرته.



فصل

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم يقولون بالقدح في الأنبياء، وأذيتهم. وقد آذوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته، ونسبوه إلى ما برأه الله تعالى منه. ونهى الله سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك حيث يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءَ، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوَاءِ بَعْضٍ. وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْتَسِلُ وَخَدَهُ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آذَرُ. قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ تَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِتَوْبِهِ. قَالَ: فَجَمَعَ مُوسَى بِإِثْرِهِ يَقُولُ: تَوْبِي حَجَرٌ، تَوْبِي حَجَرٌ، حَتَّى نَظَرْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوَاءِ مُوسَى قَالُوا: وَاللَّهِ، مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ تَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرَبَ مُوسَى بِالْحَجَرِ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩] الآية»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨، ٣٣٩، ٣٤٠٤، ٤٧٩٩)، ومسلم (٣٣٩).

وقال ابن جرير، حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد:
«قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّ مُوسَى آذَرُ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ أَبْرَصٌ مِنْ شِدَّةِ
تَسْتُرِهِ»^(١).

وقال ابن سيرين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي -صلى الله تعالى عليه
وسلم-: «كَانَ مُوسَى رَجُلًا حَيِيًّا سَتِيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً
مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرُ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ
بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُذْرَةٌ: وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا...» وذكر
الحديث^(٢).

وقال سفیان بن حسین عن الحكم عن ابن جبير عن الحكم بن جبير
عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا
مُوسَى﴾ [الأحزاب: ٦٩]. قال: «صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونَ الْجَبَلَ، فَهَاتَ هَارُونَ،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩٢/١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩)، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سَتِيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ
شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرُ، إِلَّا مِنْ
عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُذْرَةٌ: وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَحَلَا
يَوْمًا وَحَدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ
الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي
حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَاهُ مِمَّا
يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ
لِنَدْبًا مِنْ أَنْزِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا».

فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: أَنْتَ قَتَلْتَهُ، وَكَانَ أَشَدَّ حُبًّا لَنَا مِنْكَ، وَأَلَيْنَ لَنَا مِنْكَ، فَآذَوْهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ فَحَمَلْتُهُ حَتَّى مُرُّوا بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَكَلَّمَتِ الْمَلَائِكَةُ بِمَوْتِهِ، حَتَّى عَرَفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَانْطَلَقُوا بِهِ فَدَفَنُوهُ، فَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَى قَبْرِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا الرَّحْمَ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ أَصَمًّا أَبْكَمًا^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تَتُودُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

فإنها جملة في موضع الحال: أي أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم. وتأمل قوله: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]. وذلك أبلغ في العناد.

وكذلك المسيح قال: ﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فهذا قليل من كثير من أذاهم لأنبيائهم. وأما أذاهم لهم بالقتل والبغي فأشهر من أن يذكر. ولقد بالغوا في أذى النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - بجهدهم بالقول والفعل، حتى ردهم الله تعالى خاسئين. ومن قدحهم في الأنبياء: ما نسبوه إلى نص التوراة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩٤/١٩)، والحاكم (٦٣٢/٢).

أنه لما أهلك الله أمة لوط لفسادها، ونجى لوطاً بابتتيه فقط، ظن ابتناه أن الأرض قد خلت ممن يستبقين منه نسلاً. فقالت الصغرى للكبرى: إن أبانا شيخ ولم يبق في الأرض إنسان يأتينا كسبيل البشر، فهلمى نسقي أبانا خمراً ونضاجعه لنستبقي من أبينا نسلاً ففعلنا ذلك بزعمهم.

فنسبوا لوطاً النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أنه سكر، حتى لم يعرف ابتتيه، ثم وطئها وأحبلها وهو لا يعرفها. فولدت إحداهما ولدا أسمته «مواب» يعنى أنه من الأب.

والثانية سمت ولدها «بنى عمو» يعنى أنه من قبيلتها.

وقد أجاب بعضهم عن هذا: بأنه كان قبل نزول التوراة، فلم يكن نكاح الأقارب حراماً والتوراة تكذبهم.

فإن فيها «أن إبراهيم الخليل خاف في ذلك العصر أن يقتله المصريون، حسداً له على زوجته سارة، فأخفى نكاحها، وقال: هي أختي، علماً منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون إليها سبيل».

وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثابتاً في ذلك الزمان. فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟.

وعندهم أيضاً في التوراة التي بأيديهم قصة أعجب من هذه، وهي أن يهوذا بن يعقوب النبي زوج ولده الأكبر من امرأة يقال لها «تامار» فكان يأتها مستدبراً، فغضب الله تعالى من فعله فأماتته، فزوجها يهوذا من ولده الآخر، فكان إذا دخل بها أنزل على الأرض، علماً منه بأنه إن أولدها كان أول الأولاد

مدعوا باسم أخيه، ومنسوبًا إلى أخيه. فكره الله تعالى ذلك من فعله، فأماته أيضًا. فأمرها يهوذا باللاحاق ببيت أبيها إلى أن يكبر ولده شبلاً، ويتم عقله، حذرًا من أن يصيبه ما أصاب أخويه، فأقامت في بيت أبيها، ثم ماتت من بعد زوجة يهوذا، وصعد إلى منزل [يقال له مناث] ليحرس غنمه، فلما أخبرت المرأة «تامار» بإصعاد سموها إلى المنزل، لبست زي الزواني، وجلست في مستشرف على طريقه لعلمها بشبقة فلما مر بها خالها زانية فراودها؛ فطالبت بالأجرة، فوعدها بجدي، ورهن عندها عصاه وخاتمه، ودخل بها، فعلقت منه، فلما أخبر يهوذا أن كتته علقت من الزنا أذن بإحراقها، فبعث إليه بخاتمه وعصاه، فقالت: من رب هذين أنا حامل، فقال: صدقت، ومنى ذلك، واعتذر بأنه لم يعرفها، ولم يستحل معاودتها، ولا تسليمها إلى ولده، وعلقت من هذا الزنا بفارص، قالوا: ومن ولدها داود النبي.

ففي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر إلى بيت النبوة ما يقارب ما نسبوه إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا كله عندهم وفي نص كتابهم، وهم يجعلون هذا نسبًا لداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ولمسيحهم المنتظر.

ومن العجب: أنهم يجعلون المسلمين أولاد زنا، ويسمونهم «مميزيم» واحدها «مميزر»، وهو اسم لولد الزنا؛ لأن في شرعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن نكحت زوجها غيره، فأولادهما أولاد زنا.

وزعموا أن ما جاءت به شريعة الإسلام من ذلك هو من موضوعات عبد الله بن سلام قصد به أن يجعل أولاد المسلمين «مميزيم» بزعمهم.

قالوا: وكان محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم- قد رأى أحلاما تدل على أنه صاحب دولة، فسافر إلى الشام في تجارة لخديجة. واجتمع بأحبار اليهود، وقص عليهم أحلامه، فعلموا أنه صاحب دولة، فأصبحوه عبد الله ابن سلام. فقرأ عليه علوم التوراة وفقهها مدة، ونسبوا الفصاحة والإعجاز للذين في القرآن إلى عبد الله بن سلام، وأن من جملة ما قرره عبد الله بن سلام: أن الزوجة لا تحل للمطلق ثلاثا إلا بعد أن ينكحها رجل آخر ليجعل أولاد المسلمين «مزميريم» أولاد زنا.

ولا ريب أن مثل هذا البهت يروج على كثير من حميرهم. وقد خلق الله تعالى لكل باطل وبهت حملة، كما للحق حملة وليس وراء هذا البهت بهت.

وليس بمستنكر من أمة قدحت في معبودها وإلهها، ونسبته إلى ما لا يليق بعظمته وجلاله، ونسبت أنبياءه إلى ما لا يليق بهم، ورمتهم بالعظام أن ينسبوا محمداً -صلى الله تعالى وآله وسلم- وبجل وكرم وعظم -إلى ذلك. وعدواته لهم وملاحمه فيهم، وإجلاؤه لهم من ديارهم وأموالهم، وسبى ذراريهم ونسائهم معلوم غير مجهول.

وقد نسبت هذه الأمة الغضبية عيسى ابن مريم إلى أنه ساحر ولد بغية. ونسبت أمه إلى الفجور.

ونسبت لوطاً إلى أنه وطئ ابنتيه وأولدهما وهو سكران من الخمر. ونسبوا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أنه كان ملكاً ساحراً، وكان أبوه عندهم ملكاً مسيحاً، ونسبوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أنه حل تكة سراويله وتكة سراويل

سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، وأن الحائط انشق له فرأى أباه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عَاضًا على أنامله، فلم يقم حتى نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال «يا يوسف تكون من الزناة، وأنت معدود عند الله تعالى من الأنبياء؟» فقام حينئذ.

ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأى هذا لولى هاربا وترك الفاحشة.

ومنهم من يزعم أن المسيح كان من العلماء، وأنه كان يداوى المرضى بالأدوية، ويوهمهم أن الانتفاع إنما حصل لهم بدعائه، وأنه داوى جماعة من المرضى في يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود ذلك، فقال لهم: «أخبروني عن الشاة من الغنم إن وقعت في بئر، أما تنزلون إليها وتحلون السبت لتخليصها؟ قالوا: بلى. قال: فلم أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تحلونه لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟» فأفحموا.

ويحكون أيضا عنه. أنه مشى مع قوم من تلاميذه في جبل، ولم يحضرهم الطعام، فأذن لهم في تناول الحشيش يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش في يوم السبت، فقال لهم: أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيدا مع قوم على غير ملته، وأمروه بقطع النبات وإلقائه لدوابهم لا يقصدون بذلك إبطال السبت، أستم تحيرون له قطع النبات؟ قالوا: بلى. قال: فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه، وليتغذوا به، لا لقطع السبت. ومن العجب: أن عندهم في التوراة التي بأيديهم: «لا يزول الملك من آل يهودا والراسم من بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح» وهم لا يقدر أن يجحدوا ذلك. فيقال لهم:

إنكم كنتم أصحاب دولة حتى ظهر المسيح، ثم انقضى ملككم، ولم يبق لكم اليوم ملك، وهذا برهان على أن المسيح قد أرسل.

ومن حين بعث المسيح وكفروا به وطلبوا قتله، استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس، وانقضت دولتهم وتفرق شملهم.

فيقال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فيقولون: إنه ولد يوسف النجار لِعَيَّةٍ لا لِرَشْدَةٍ وقد كان عرف اسم الله الأعظم سحر به كثيرا من الأشياء.

وعند هذه الأمة الغضبية أيضًا: أن الله تعالى كان قد أطلع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفا، وبه شق البحر، وعمل المعجزات.

فيقال لهم فإذا كان موسى قد عمل المعجزات باسم الله، فلم صدقتم نبوته، وأقررتم بها وجحدتم نبوة عيسى، وقد عمل المعجزات بالاسم الأعظم؟

فأجاب بعضهم عن الإلزام: بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علم موسى ذلك الاسم، فعلمه بالوحي، وعيسى إنما تعلم من حيطان بيت المقدس.

وهذا هو اللائق ببهتهم وكذبهم على الله تعالى وأنبيائه، وهو يسد عليهم العلم بنبوة موسى؛ لأن كلا الرسولين اشتركا في المعجزات والآيات الظاهرة التي لا يقدر أحد أن يأتي بمثلها، فإن كان أحدهما قد تعلمها بحيله أو بعلم، فالآخر يمكن ذلك في حقه، وقد أخبرا جميعًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي

أجرى ذلك على أيديهما، وأنه ليس من صنعهما، فتكذيب أحدهما وتصديق الآخر تفريق بين المتماثلين.

وأيضاً، فإنه لا دليل لهم على أن موسى تلقى تلك المعجزات عن الله تعالى إلا وهو يدل على أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تلقاها أيضاً عن الله تعالى، فإن أمكن القدح في معجزات عيسى؛ أمكن القدح في معجزات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كان ذلك باطلاً؛ فهذا أيضاً باطل.

وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرسولين - مع بعد العهد، وتشتت شمل أمتيهما في الأرض، وانقطاع معجزاتهما - فما الظن بنبوة من معجزاته وآياته تزيد على الألف؟ والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرهم، ونقلها ثابت بالتواتر قرناً بعد قرن، وأعظهما معجزة كتاب باق غض طري لم يتغير ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كل وقت على الوجه الذي أخبر به كأنه كان يشاهده عياناً؟.



فصل

ولا يمكن البتة أن يؤمن يهودى بنبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إن لم يؤمن بنبوة محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم -، ولا يمكن نصرانيا أن يقر بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم -.

وبيان ذلك أن يقال لهاتين الأمتين:

أنتم لم تشاهدوا هذين الرسولين، ولا شاهدتم آياتها وبراهين نبوتها، فكيف يسع العاقل أن يكذب نبياً ذا دعوة سابقة، وكلمة قائمة وآيات باهرة، وتصديق من ليس مثله ولا قريباً منه في ذلك؟ لأنه لم ير أحد النبيين، ولا شاهد معجزاته، فإذا كذب بنبوة أحدهما لزمه التكذيب بنبوتها، وإن صدق بأحدهما لزمه التصديق بنبوتها، فمن كفر بنبى واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم، ولم ينفعه إيمانه به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿ [النساء: ١٥٠-١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فنقول للمغضوب عليه: هل رأيت موسى وعائنت معجزاته؟ فبالضرورة يقول: لا.

فنقول له: بأي شيء عرفت نبوته وصدقه؟ فله جوابان:

أحدهما: أن يقول: أبي عرفني ذلك، وأخبرني به.

والثاني: أن يقول: التواتر وشهادات الأمم حقق ذلك عندي، كما حققت

شهادتهم وجود البلاد النائية والبحار، والأنهار المعروفة وإن لم أشاهدها.

فإن اختار الجواب الأول، وقال: إن شهادة أبي وإخباره إياي بنبوة

موسى هي سبب تصديقي بنبوته.

قلنا له: ولم كان أبوك عندك صادقاً في ذلك، معصوماً عن الكذب؟

وأنت ترى الكفار يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك، فإذا كنت ترى الأديان

الباطلة والمذاهب الفاسدة، قد أخذها أربابها عن آبائهم كأخذك مذهبك عن

أبيك، وأنت تعلم أن الذي هم عليه ضلال؛ فلزمك أن تبحث ما أخذته عن

أبيك، خوفاً أن تكون هذه حاله.

فإن قال: إن الذي أخذته عن أبي أصح من الذي أخذه الناس عن

آبائهم، كفاه معارضة غيره له بمثل قوله.

فإن قال: أبي أصدق من آبائهم وأعرف وأفضل، عارضه سائر الناس

في آبائهم بنظير ذلك.

فإن قال: أنا أعرف حال أبي، ولا أعرف حال غيره.

قيل له: فما يؤمنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك، وأصدق

وأعرف. وبكل حال. فإن كان تقليد أبيه حجة صحيحة، كان تقليد غيره

لأبيه كذلك، وإن كان ذلك باطلاً، كان تقليده لأبيه باطلاً.

فإن رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثاني، وقال: إنما علمت نبوة موسى بالتواتر قرناً بعد قرن. فإنهم أخبروا بظهوره وبمعجزاته وآياته وبراهين نبوته التي تضطرنني إلى تصديقه.

فيقال له: لا ينفعك هذا الجواب؛ لأنك قد أبطلت ما شهد به التواتر من نبوة عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-.

فإن قلت: تواتر ظهور موسى ومعجزاته وآياته، ولم يتواتر ذلك في المسيح ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-.

قيل لك: هذا هو اللائق ببهت الأمة الغضبية؛ فإن الأمم جميعهم قد عرفوا أنهم قوم بهت، وإلا فمن المعلوم أن الناقلين لمعجزات المسيح ومحمد -صلى الله تعالى عليهما وسلم- أضعاف أضعافكم بكثير، والمعجزات التي شاهدها أوائلهم لا تنقص عن المعجزات التي أتى بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد نقلها عنهم أهل التواتر جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وأنت لا تقبل خبر التواتر في ذلك وترده؛ فيلزمك أن لا تقبله في أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن المعلوم بالضرورة: أن من أثبت شيئاً ونفى نظيره فقد تناقض، وإذا اشتهر النبي في عصر وصحت نبوته في ذلك العصر بالآيات التي ظهرت عليه لأهل عصره، ووصل خبره إلى أهل عصر آخر، وجب عليهم تصديقه والإيمان به، وموسى ومحمد والمسيح في هذا سواء، ولعل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد؛ لأن الأمة الغضبية قد مزقتها الله تعالى كل ممزق، وقطعها في الأرض، وسلبها ملكها

وعزها، فلا عيش لها إلا تحت قهر سواهم من الأمم لها، بخلاف أمة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنها قد انتشرت في الأرض، وفيهم الملوك، ولهم الممالك.

وأما الخنفاء، فممالكهم قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وملأوا الدنيا سهلاً وجبلاً، فكيف يكون نقلهم لما نقلوه كذباً، ونقل الأمة الغضبية الخاملة القليلة الزائلة صدقاً؟.

فثبت أنه لا يمكن يهودياً على وجه الأرض أن يصدق بنبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يمكن نصرانياً البتة الإيمان بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بعد الإيمان بمحمد -صلى الله تعالى عليه وسلم.

ولا ينفع هاتين الأمتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح؛ لأنهم آمنوا بهما على يد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان إيمانهم بهما من الإيمان بمحمد، وبما جاء له، فلولا ما عرفنا نبوتها، ولا آمننا بهما.

ولا سيما فإن أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم ما يوجب الإيمان بهم فلولا القرآن ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما عرفنا شيئاً من آيات الأنبياء المتقدمين، فمحمد -صلى الله تعالى عليه وسلم-، وكتابه هو الذي قرر نبوة موسى ونبوة المسيح، لا اليهود ولا النصارى، بل كان نفس ظهوره ومجيئه تصديقاً لنبوتها، فإنها أخبرا بظهوره، وبشرا به قبل ظهوره. فلما بعث كان بعثه تصديقا لهما.

وهذا أحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَتَأْتِكُنَّ لِشَاعِرٍ مَجْتُونٍ ﴾ [٣٦] بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ [الصافات: ٣٦-٣٧]، أي: مجيئه

تصديق لهم من جهتين. من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به، ومطابقة ما جاءوا به لما جاءوا به. فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي، ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به، وأخبر بمثل ما أخبر به سواء، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر. وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان، ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته، بحيث يعلم أنه لم يجتمع به، ولا تلقى عنه، ولا عمن تلقى عنه فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء. فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني. والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذباً لمن قبله من الأنبياء، مزرياً عليهم، كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك بل جاء مصداقاً لهم، شاهداً بنبوتهم، ولو كان كاذباً متقولاً منشئاً من عنده سياسة، لم يصدق من قبله، بل كان يزرى بهم، ويطعن عليهم، كما يفعل أعداء الأنبياء.



فصل

وقد اختلف أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم: هل هي مبدلة، أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل؟ على ثلاثة أقوال طرفين، ووسط.

فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض: وغلا بعضهم، فجوز الاستحمار بها من البول.

وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقهاء والكلام، فقالوا: بل التبديل وقع في التأويل، لا في التنزيل، وهذا مذهب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال في صحيحه: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يُزِيلُونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ، يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ^(١). وهذا اختيار الرازي في تفسيره^(٢).

وسمعت شيخنا يقول: وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء، فاختار هذا المذهب ووهن غيره، فأنكر عليه، فأحضر لهم خمسة عشر نقلاً به^(٣). ومن حجة هؤلاء: أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوباً وشمالاً، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله تعالى، ومن الممتع

(١) انظر: صحيح البخاري (١٦٠/٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٩٣/١٠).

(٣) انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١٨٠/١).

أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ. بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد، وهذا مما يحيله العقل، ويشهد ببطلانه.

قالوا: وقد قال الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محتجاً على اليهود بها: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم، ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لما قرؤوها على النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- وضع القارئ يده على آية الرجم، فقال له عبد الله بن سلام: «ارْفَعْ يَدَكَ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ»^(١)، فرفعها فإذا هي تلوح تحتها، فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

قالوا: وكذلك صفات النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- وخرجه هو في التوراة بين جدًّا، ولم يمكنهم إزالته وتغييره. وإنما ذمهم الله تعالى بكتابتهم، وكانوا إذا احتج عليهم بها في التوراة من نعته وصفته يقولون: ليس هو، ونحن نتظره.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَّرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنِيًا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟. فَقَالُوا: نَفْضُحُهُمْ وَجُلْدُونَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَتَشَرُّوْهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فُرْجِمَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ».

قالوا: وقد روى أبو داود في سننه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «أَتَى نَفْرٌ مِنْ يَهُودٍ، فَدَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْفُفِّ، فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمَدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ: إِنَّ رَجُلًا مِّنَّا زَنَى بِأَمْرَأَةٍ، فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: بِالتَّوْرَةِ، فَأُتِيَ بِهَا، فَزَنَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ، فَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: آمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أَنْزَلَكَ، ثُمَّ قَالَ: اثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ، فَأُتِيَ بِفَتَى شَابٍّ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ»^(١).

قالوا: فلو كانت مبدلة مغيرة لم يضعها على الوسادة، ولم يقل: «آمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أَنْزَلَكَ».

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] والتوراة من كلماته.

قالوا: والآثار التي في كتان اليهود صفة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في التوراة ومنعهم أولادهم وعوامهم الاطلاع عليها مشهورة، ومن اطلع عليها منهم، قالوا له ليس به.

فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة.

وتوسط طائفة ثالثة، وقالوا: قد زيد فيها، وغير ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه، والتبديل في يسير منها جدًا.

ومن اختار هذا القول شيخنا في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». قال: (وهذا كما في التوراة عندهم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٤٩).

لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اذبح ولدك بكرك ووحيدك إسحاق» زيادة منهم في لفظ التوراة^(١).

قلت: وهي باطلة قطعاً من عشرة أوجه:

أحدها: أن بكره ووحيدته هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمور بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَنْقُلَ هَاجِرَ وَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ عَنْ سَارَةَ، وَيَسْكُنَهَا فِي بَرِيَةِ مَكَّةَ، لِثَلَاثَةِ سَارَةَ، فَأَمْرٌ بِإِبْعَادِ السَّرِيَةِ وَوَلَدِهَا عَنْهَا، حَفْظًا لِقَلْبِهَا، وَدَفْعًا لِأَذَى الْغِيْرَةِ عَنْهَا، فَكَيْفَ يَأْمُرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْدَ هَذَا بِذَبْحِ ابْنِ سَارَةَ وَإِبْقَاءِ ابْنِ السَّرِيَةِ؟ فَهَذَا مِمَّا لَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعاً، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرايين بمكة، تذكيراً للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن الله سبحانه بشر سارة أم إسحاق: ﴿يَاسْحَقُ وَيَمِنْ وَرَأَى إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]. فبشرها بهما جميعاً، فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق، وقد بشر أبويه بولد ولده؟.

الخامس: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ الذَّبِيحِ وَتَسْلِيمِهِ نَفْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِقْدَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى ذَبْحِهِ، وَفَرَّغَ مِنْ قِصَّتِهِ، قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

(١) انظر: المستدرک علی مجموع الفتاوی (١/ ١٨٠).

فشكر الله تعالى له استسلامه لأمره، وبذل ولده له، وجعل من إثابته على ذلك: أن آتاه إسحق. فنجى إسماعيل من الذبح، وزاده عليه إسحق.

السادس: أن إبراهيم -صلوات الله تعالى وسلامه عليه- سأل ربه الولد. فأجاب الله دعاءه، وبشره، فلما بلغ معه السعى أمره بذبحه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿[الصفوات: ٩٩-١٠١].﴾

فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولداً، وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعاً بنص القرآن.

وأما إسحق فإنما بشر به من غير دعوة منه، بل على كبر السن، وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْتَلَقُ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿[هود: ٦٩-٧٣].﴾

فتأمل سياق هذه البشارة وتلك، تجدهما بشارتين، متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى.

والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها.

والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها، دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقدم بإسحاق إلى مكة البتة، ولم يفرق بينه وبين أمه.

وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته، فيذبحه بموضع ضرتهما في بلدها، ويدع ابن ضرتهما؟.

الثامن: أن الله تعالى لما اتخذ إبراهيم خليلاً. والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقاً بربه، ليس فيه شعبة لغيره. فلما سأله الولد، وهبه إسماعيل. فتعلق به شعبة من قلبه. فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له، ليست لغيره من الخلق. فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال، خلصت له تلك الخلة، وتمحضت لله وحده. فنسخ الأمر بالذبح، لحصول المقصود وهو العزم، وتوطين النفس على الامتثال.

ومن المعلوم: أن هذا إنما يكون في أول الأولاد، لا في آخرها. فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول لم يحتج في الولد الآخر إلى مثله. فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه. كما أمر بذبح الأول. فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة. ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك. وهذا خلاف مقتضى الحكمة فتأمل.

التاسع: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما رزق إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ على الكبر، وإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ رزقه في عنفوانه وقوته. والعادة أن القلب أعلق بأول

الأولاد، وهو إليه أميل وله أحب، بخلاف من يرزقه على الكبر، ومحل الولد بعد الكبر كمحل الشهوة للمرأة.

العاشر: أن النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - كان يفتخر بقوله: «أنا ابنُ الذَّبِيحَيْنِ»^(١)، يعني: أباه عبد الله، وجده إسماعيل.

والمقصود: أن هذه اللفظة مما زادوها في التوراة.

ونحن نذكر السبب الموجب لتغيير ما غير منها، والحق أحق ما اتبع، فلا تغلوا غلو المستهينين لها، المتمسخرين بها، بل معاذ الله من ذلك، ولا نقول: إنها باقية كما أنزلت من كل وجه، كالقرآن.

فنقول: وبالله التوفيق:

علماء اليهود وأخبارهم يعتقدون أن هذه التوراة التي بأيديهم ليست هي التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران بعينها؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صان التوراة عن بني إسرائيل، خوفاً من اختلافهم من بعده في تأويلها، المؤدي إلى تفرقهم أحزاباً. وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد لاوى.

ودليل ذلك قوله في التوراة: «وكتب موسى هذه التوراة ودفعها إلى بني إسرائيل إلى الأئمة من بني لاوى».

وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم؛ لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم، ولم يبذل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من التوراة لبني

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨٥ / ٢٣)، والحاكم (٦٠٤ / ٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٤٩٩ / ٥) من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إسرائيل إلا نصف سورة، وهي التي قال فيها: «وكتب موسى هذه السورة وعلمها بني إسرائيل».

هذا نص التوراة عندهم، قال: «وتكون لي هذه السورة شاهدة على بني إسرائيل». وفيها: قال الله تعالى: «إن هذه السورة لا تنسى من أفواه أولادهم».

يعنى: أن هذه السورة مشتملة على ذم طبائعهم، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة، وأن السخط يأتيهم بعد ذلك، وتخرّب ديارهم، ويسبون في البلاد، فهذه السورة تكون متداولة في أفواههم، كالشاهد عليهم. الموقف لهم على صحة ما قيل لهم.

فما نصت التوراة أن هذه السورة لا تنسى من أفواه أولادهم، دل ذلك على أن غيرها من السور ليس كذلك، وأنه يجوز أن ينسى من أفواههم.

وهذا يدل على أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعط بني إسرائيل من التوراة إلا هذه السورة، فأما بقيتها فدفعتها إلى أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عن سواهم.

وهؤلاء الأئمة الهارونيون -الذين كانوا يعرفون التوراة، ويحفظون أكثرها- قتلهم بختنصر على دم واحد، يوم فتح بيت المقدس، ولم يكن حفظ التوراة فرضاً عليهم ولا سنة. بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة.

فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة

ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم؛ ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة.

فزعموا أن النور الآن يظهر على قبره، وهو عند بطائح العراق؛ لأنه جمع لهم ما يحفظ دينهم.

وغلا بعضهم فيه حتى قال: هو ابن الله؛ ولذلك نسب الله تعالى ذلك إلى اليهود، إلى جنسهم، لا إلى كل واحد منهم.

فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عزرا، وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم تداولتها أمة قد مزقها الله تعالى كل ممزق، وشتت شملها فلحقها ثلاثة أمور:

أحدها: بعض الزيادة والنقصان.

الثاني: اختلاف الترجمة.

الثالث: اختلاف التأويل والتفسير.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تبين حقيقة الحال.

المثال الأول:

نص ما تقدم من قوله «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه، وللكلب ألقوه». وتقدم بيان تحريفهم هذا النص وحمله على غير محمله.

المثال الثاني:

قوله في التوراة: «نبيا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، به فليؤمنوا»، فحرفوا تأويله، إذ لم يمكنهم أن يبدلوا تنزيله، وقالوا: هذه بشارة بنبي من بني إسرائيل، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه لو أراد ذلك لقال «من أنفسهم» كما قال في حق محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم-: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولم يقل من إخوانكم.

الثاني: أن المعهود في التوراة: أن إخوانهم غير بني إسرائيل. ففي الجزء الأول من السفر الخامس قوله «أنتم عابرون في تخوم إخوانكم بنى العيص المقدس في سيعير، إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم».

فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل؛ لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق، والروم هم بنو العيص، واليهود بنو إسرائيل، وهم إخوانهم. فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم.

الثالث: أن هذه البشارة لو كانت بشمويل أو غيره من بنى إسرائيل، لم يصح أن يقال: بنو إسرائيل إخوة بنى إسرائيل، وإنما المفهوم من هذا: أن بنى إسماعيل، أو بنى العيص هم إخوة بنى إسرائيل.

الرابع: أنه قال: «سأقيم لهم نبيا مثلك» وفي موضع آخر «أنزل عليه التوراة مثل توراة موسى».

ومعلوم أن شمويل وغيره من أنبياء بنى إسرائيل لم يكن فيهم مثل موسى، لا سيما وفي التوراة «لا يقوم في بنى إسرائيل مثل موسى».

وأيضا فليس في بنى إسرائيل من أنزل عليه توراة مثل توراة موسى إلا محمد والمسيح -عليهم الصلاة والسلام-، والمسيح كان من أنفس بنى

إسرائيل، لا من إخوانهم، بخلاف محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم -، فإنه من إخوانهم بني إسماعيل.

وأيضاً. فإن في بعض ألفاظ هذا النص «كلكم له تسمعون» وشمويل لم يأت بزيادة ولا بنسخ، لأنه إنما أرسل ليقوى أيديهم على أهل فلسطين، وليردهم إلى شرع التوراة، فلم يأت بشريعة جديدة، ولا كتاب جديد. وإنما حكمه حكم سائر الأنبياء من بني إسرائيل، فإنهم كانوا يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي قام فيهم نبي^(١).

فإن كانت هذه البشارة لشمويل، فهي بشارة بسائر الأنبياء الذين بعثوا فيهم. ويكونون كلهم مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلهم قد أنزل عليهم كتاب مثل كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

المثال الثالث:

قوله في التوراة: «جاء الله تعالى من طور سيناء، وأشرق نوره من سيعير، واستعلن من جبال فاران، ومعه ربوات المقدسين».

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل السراة، الذي يسكنه بنو العيص، الذين آمنوا بعيسى. ويعلمون أن في هذا الجبل كان مقام المسيح. ويعلمون أن

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (٤٤) (١٨٤٢) عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ حَمْسَ سِنِينَ فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ».

سيناء هو جبل الطور، وأما جبال فاران فهم يحملونها على جبال الشام، وهذا من بهتهم، وتحريف التأويل، فإن جبال فاران هي جبال مكة و«فاران» اسم من أسماء مكة. وقد دل على هذا نص التوراة: أن إسماعيل لما فارق أباه سكن برية فاران، وهي جبال مكة. ولفظ التوراة: «أن إسماعيل أقام في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر».

فثبت بنص التوراة أن جبال فاران مسكن لولد إسماعيل، وإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوة تنزل على جبال فاران، لزم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها. ومن المعلوم بالضرورة أنها لم تنزل على غير محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم- من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَام.

وهذا من أظهر الأمور بحمد الله تعالى.



فصل

ومما يدل على غلظ أفهام هذه الأمة الغضبية وقلة فقههم، وفساد رأيهم وعقولهم كما في التوراة «أنهم شعب عادم الرأي. فليس فيهم فطانة»: أنهم سمعوا في التوراة «يكون ثمار أرضك تحمل إلى بيت الله ربك، ولا ينضج الجدى بلبن أمه».

والمراد بذلك: أنهم أمروا عقيب افتراض الحج إلى بيت المقدس عليهم: أن يستصحبوا معهم إذا حجوا أبقار أغنامهم، وأبقار مستغلات أرضهم؛ لأنه كان فرض عليهم قبل ذلك أن تبقى سخولة الغنم والبقر وراء أمها سبعة أيام، وفي اليوم الثامن فصاعدا يصلح أن تكون قرباناً، فأشار في هذا النص بقوله «لا ينضج الجدى بلبن أمه» إلى أنهم لا يباليون في إطالة مكث باكور أولاد البقر والغنم وراء أمها، بل يستصحبون أبقارهم اللاتي قد عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا إلى بيت المقدس، ليتخذوا منها القرابين.

فتوهم المشايخ البله أن الشرع يريد بالإنضاج إنضاج الطبخ في القدر، وأنهم نهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن.

ولم يكفهم هذا الغلظ في تفسير هذه اللفظة حتى حرموا أكل سائر اللحمان باللبن، فألغوا لفظ «الجدى»، وألغوا لفظ «أمه» وحملوا النص ما لا يحتمله، وإذا أرادوا أن يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كلا منهما على حدة. والأمر في هذا ونحوه قريب.

فصل

ولا يستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة على المحال، واتفاقهم على أنواع الضلال. فإن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها وأخذها، انطمست معالم دينها واندرست آثارها.

فإن الدولة إنما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافات، وإخراب البلاد وإحراقها، لاتزال هذه الأمور متواترة عليها إلى أن يعود علمها جهلاً، وعزها ذلاً، وكثرتها قلة. وكلما كانت الأمة أقدم، واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالذل والصغار، كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها أوفر.

وهذه الأمة أوفر الأمم حظاً من هذا الأمر، لأنها من أقدم الأمم، ولكثرة الأمم التي استولت عليها: من الكلدانيين، والبانليين، والفرس، واليونان، والنصارى وآخر ذلك المسلمون.

وما من هذه الأمم إلا من طلب استئصالهم، وبالغ في إحراق بلادهم وكتبهم، وقطع آثارهم إلا المسلمين، فإنهم أعدل الأمم فيهم، وفي غيرهم، حفظاً لوصية الله تعالى بهم حيث قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَيْمَانِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّهُ أُولَىٰ بِيَهُمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وصادف الإسلام هذه الأمة تحت ذمة الفرس، وذمة النصارى، بحيث لم يبق لهم مدينه ولا جيش، وأعز ما صادفه الإسلام من هذه الأمة يهود خيبر والمدينة وما جاورها.

فإنهم إنما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وعدوا به من ظهور رسول الله -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم-، وكانوا يقاتلون المشركين من العرب، فيستنصرون عليهم بالإيمان برسول الله -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- قبل ظهوره، ويعدونهم بأنه سيخرج نبي نتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم^(١)، فلما بعث الله عزَّ وجلَّ نبيه -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم- سبقهم إليه من كانوا يحاربونهم من العرب، فحملهم الحسد والبغى على الكفر به وتكذيبه^(٢).

وأشد ما على هذه الأمة الغضبية من ذلك ما ناهم من ملوك العصاة وغيرهم من ملوك، الإسرائيلين الذين قتلوا الأنبياء، وبالغوا في تطلبهم،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٢٣٧، ٥/٦٥٣)، وابن كثير (١/٣٢٥).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٣٣) عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُبَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ أَبِي وَعَمِّي أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِمَا مِنِّي، لَمْ أَلْقُهَا قَطُّ مَعَ وَلَدِهَا أَهْشُ إِلَيْهِمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قُبَاءَ نَزَلَ قَرْيَةَ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا إِلَيْهِ أَبِي وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبٍ، مَغْلَسِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاءَنَا إِلَّا مَعَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فَجَاءَنَا فَاتَرَيْنِ كَسَلَتَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللَّهِ مَا نَظَرْتُ إِلَيْهِمَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا فَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ، يَقُولُ لِأَبِي: أَهْوُ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ. قَالَ: تَعْرِفُهُ بِعَيْنِهِ وَصِفَتِهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ، قَالَ: فَمَاذَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ، قَالَ: عَدَاؤُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ». وانظر: سيرة ابن هشام (١/٥١٩)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (١/٧٧)، والروض الأنف (٤/٢٠٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٩٨).

وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنتها؛ ليعلموا رسومها في العبادة، وبنوا لها البيع والهياكل، وعكفوا على عبادتها وتركوا أحكام التوراة أعصاراً متصلة.

فإذا كان هذا تواتر الآفات على دينهم من قبل ملوكهم، ومن قبل أنفسهم، فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم، وقتلهم أئمتهم، وإحراقهم كتبهم، ومنعهم من القيام بدينهم؟!

فإن الفرس كثيراً ما منعوهم عن الختان، وكثيراً ما منعوهم من الصلاة، لمعرفتهم بأن معظم صلاة هذه الطائفة دعاء على الأمم بالبور، وعلى العالم بالخراب -سوى بلادهم التي هي أرض كنعان- .

فلما رأت هذه الأمة الجِدَّ من الفرس في منعهم من الصلاة، اخترعوا أدعية -زعموا أنها فصول من صلاتهم- سموها الحزانة، وصاغوا لها ألحاناً عديدة، وصاروا يجتمعون في أوقات صلاتهم على تلحينها وتلاوتها، وسموا القائم بها الحزان.

والفرق بينها وبين الصلاة: أن الصلاة بغير لحن، والمصلى يتلو الصلاة وحده، ولا يجهر معه غيره، والحزان يشاركه غيره في الجهر بالحزانة، ويعاونونه في الألحان، فكانت الفرس إذا أنكرت ذلك منهم، قالت اليهود: إنا ننمى أحياناً، وننوح على أنفسنا، يتركونهم وذلك، فلما قام الإسلام وأقرهم على صلاتهم، استصحبوا تلك الحزانة ولم يعطلوها.

فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة، يعرف بها المسلم الحنيف قدر نعمة الله - تعالى عَزَّوَجَلَّ - عليه، وما من به عليه من نعمة العلم والإيمان، ويهتدى بها من أراد الله تعالى هدايته من طالبي الحق من هذه الأمة.

ومن الله التوفيق والإرشاد إلى سواء الطريق. والحمد لله رب العالمين.



فهرس المراجع

- ❖ الإبانة الكبرى لابن بطة، المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد ابن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة (المتوفى: ٣٨٧هـ)، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- ❖ إبطال الحيل، المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة (المتوفى: ٣٨٧هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ❖ الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ❖ إثبات صفة العلو، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- ❖ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قِيم الجوزية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

- ❖ الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم، المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الرياة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١.
- ❖ الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحيهما، المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد ابن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ❖ الأحاديث المختارة، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق عبد الملك ابن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ❖ أحكام القرآن، المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تاريخ الطبع: ١٤٠٥هـ.
- ❖ أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ❖ أحكام أهل الذمة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن فيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: يوسف بن

أحمد البكري - شاعر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادي للنشر -
الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ - ١٩٩٧.

❖ الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو الحسن سيد الدين علي بن
أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الأمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)، المحقق:
عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - لبنان.
❖ الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد
ابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق:
الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس،
الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

❖ الأحكام الوسطى من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المؤلف: عبد الحق بن
عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي
الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: ٥٨١هـ)، تحقيق: حمدي
السلفي، صبحي السامرائي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع،
الرياض - المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥.
❖ إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي
(المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

❖ اختصار علوم الحديث، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: أحمد محمد
شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية.

❖ اختلاف الفقهاء، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المُرَوَّزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد طاهر حكيم، الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الناشر: أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الطبعة الأولى الكاملة، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

❖ الاختيار لتعليق المختار، المؤلف: عبد الله بن محمود بن مودود الموصلِي البلدحي، مجد الدين أبو الفضل الحنفي (المتوفى: ٦٨٣هـ)، عليها تعليقات: الشيخ محمود أبو دقيقة (من علماء الحنفية ومدرس بكلية أصول الدين سابقاً)، الناشر: مطبعة الحلبي - القاهرة (وصورتها دار الكتب العلمية - بيروت، وغيرها)، تاريخ النشر: ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م.

❖ أخلاق العلماء، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأَجْرِيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: فضيلة الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - السعودية.

❖ الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.

❖ أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

- ❖ الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.
- ❖ الأربعون في دلائل التوحيد، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، ضبط نصه وعلق عليه وحققه أبو مالك جهاد بن السيد المرشدي، دار ابن رجب المنصورة مكتبة صنعاء الأثرية / ١٤٢٢هـ.
- ❖ إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، المحقق: صلاح الدين مقبول أحمد، الناشر: الدار السلفية - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥.
- ❖ أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ❖ أسباب نزول القرآن، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ❖ الاستغاثة في الرد على البكري، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، دراسة وتحقيق: د. عبد الله بن دجين السهلي، أصل

الكتاب: رسالة ماجستير - قسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

❖ الاستقامة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ.

❖ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

❖ أسد الغابة في معرفة الصحابة، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

❖ الأسماء والصفات للبيهقي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

❖ اشتقاق أسماء الله، المؤلف: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، المحقق: د. عبد الحسين

المبارك، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

❖ الإشراف على مذاهب العلماء، المؤلف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، المحقق: صغير أحمد الأنصاري أبو حماد، الناشر: مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

❖ الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ.

❖ الأصمعيات اختيار الأصمعي، المؤلف: الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع (المتوفى: ٢١٦هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: السابعة، ١٩٩٣م.

❖ الأصنام، المؤلف: أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الرابعة، ٢٠٠٠م.

❖ الأضداد، المؤلف: أبو بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

❖ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

❖ الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد ابن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: د. نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار البشير - عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٣.

❖ الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية، مصر.

❖ اعتقاد أئمة الحديث، المؤلف: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (المتوفى: ٣٧١هـ)، المحقق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

❖ اعتلال القلوب للخرائطي، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

❖ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

❖ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر ابن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، المحقق: علي سامي النشار، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❖ الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزُّرْكُلِيّ الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

❖ إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

❖ إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

❖ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

❖ الأغاني، المؤلف: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني (المتوفى: ٣٥٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى / ١٤١٥هـ.

❖ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد ابن عبد الحلیم ابن تیمیَّة الحرَّانی، تحقیق محمد حامد الفقی، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.

❖ أقسام التوحيد، عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

❖ الأم، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

❖ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، المؤلف: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة: الأولى، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

❖ الأمالي = شذور الأمالي = النوادر، المؤلف: أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: ٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م.

❖ الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة، الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ.

❖ الأمثال السائرة من شعر المتنبي، المؤلف: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، الناشر: مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

❖ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: الدكتور يحيى مراد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

❖ أمراض القلب وشفائها، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ.

❖ الأم، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.

❖ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، المؤلف: أبو عمر يوسف ابن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❖ الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، المؤلف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، تحقيق: أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، الناشر: دار طيبة - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.

❖ الأولياء، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

❖ الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة.

❖ الإييان، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣ م.

❖ الإييان لابن منده، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

❖ الباعث على إنكار البدع والحوادث، المؤلف: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف

بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ)، المحقق: عثمان أحمد عنبر، الناشر: دار الهدى - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٨ - ١٩٧٨.

❖ البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.
❖ البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

❖ البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
❖ بدائع التفسير، ابن القيم، دار ابن الجوزي.

❖ بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

❖ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله ابن سليمان وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

❖ البدع والنهي عنها، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (المتوفى: ٢٨٦هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم

سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة -
السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.

❖ البردة شرحاً وإعراباً وبلاغةً لطلاب المعاهد والجامعات، المؤلف: محمد
يحيى حلو، مراجعة: محمد علي حميد الله، الناشر: دار البيروتي - دمشق،
الطبعة: الثالثة - ١٤٢٦ هـ.

❖ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المؤلف: مجد الدين أبو
طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد
علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء
التراث الإسلامي، القاهرة.

❖ البصائر والذخائر، المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن
العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، المحقق: د. وداد القاضي، الناشر: دار
صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

❖ البعث والنشور، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى
الحُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الحافظ
أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، تحقيق: الشيخ
عامر أحمد حيدر، الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت،
الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

❖ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس، المؤلف:
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري
القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد مرسي الخولي، الناشر: دار
الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

❖ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

❖ البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

❖ تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبو الفيض محمد بن مرتضي الزبيدي، دار الفكر، طبعة ١٤١٤هـ.

❖ التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

❖ تاريخ أبي زرعة الدمشقي، المؤلف: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ابن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١هـ)، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب - بغداد)، الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق.

❖ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)،

المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي،
الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.

❖ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة
١٤٠٩ هـ.

❖ تاريخ الثقات، المؤلف: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي
الكوفي (المتوفى: ٢٦١ هـ)، الناشر: دار الباز، الطبعة: الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.

❖ تاريخ بغداد وذيوله، ١ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٢ - المختصر
المحتاج إليه من تاريخ ابن الديلمي، للذهبي، ٣ - ذيل تاريخ بغداد،
لابن النجار، ٤ - المستفاد من تاريخ بغداد، لابن الدمياطي، ٥ - الرد
على أبي بكر الخطيب البغدادي، لابن النجار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن
علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)،
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد
القادر عطا، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ.

❖ تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي
الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد
معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى،
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

❖ تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف:
محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري

(المتوفى: ٣١٠هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي،
المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث - بيروت، الطبعة: الثانية -
١٣٨٧ هـ.

❖ تاريخ الطبري، لأبي جعفر بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية،
بيروت.

❖ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن
غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥ م.

❖ تاريخ واسط، المؤلف: أسلم بن سهل بن أسلم بن حبيب الرزاز
الواسطي، أبو الحسن، بحسب (المتوفى: ٢٩٢هـ)، تحقيق: كوركيس
عواد، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ.

❖ تأويل مختلف الحديث، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: المكتب الاسلامي - مؤسسة
الإشراق، الطبعة: الثانية - مزیده ومنقحة ١٤١٩ هـ -
١٩٩٩ م.

❖ تأويل مشكل القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر:
دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

❖ التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن
علي بن سليمان المرادوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)،
المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح،

الناشر: مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

❖ التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

❖ تحريم الغناء والسماع. المؤلف: محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهرى الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠هـ).

❖ تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❖ التحفة العراقية في الأعمال القلبية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩.

❖ تحفة المودود بأحكام المولود، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١ - ١٩٧١.

❖ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة.

- ❖ تذكرة الحفاظ وتبصرة الأيقاظ (مطبوع ضمن مجموع رسائل ابن عبد الهادي)، المؤلف: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرّد الحنبلي (المتوفى: ٩٠٩ هـ)، عناية: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- ❖ التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢ هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ.
- ❖ تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة ويليهِ "فائت التسهيل"، المؤلف: صالح بن عبد العزيز بن علي آل عثيمين الحنبلي مذهبا، النجدي القصيمي البُردي (١٣٢٠ هـ - ١٤١٠ هـ)
- ❖ المحقق: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- ❖ التصوّف... المنشأ والمصادر، المؤلف: إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: ١٤٠٧ هـ)، الناشر: إدارة ترجمان السنة، لاهور - باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ❖ تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، المؤلف: محمد بن إسماعيل الصنعاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المحقق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

- ❖ التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ❖ التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ❖ تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ❖ تغليق التعليق على صحيح البخاري، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي ابن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان - الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥.
- ❖ تفسير القرآن العزيز، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى ابن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَيْنِ المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر / القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ❖ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.

- ❖ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ❖ تفسير أسماء الله الحسنى، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبيد ابن علي العبيد، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ - السنة ٣٣ - ١٤٢١هـ.
- ❖ التفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.
- ❖ تفسير البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، وعثمان صميرية، وسليمان الحرش. دار طيبة، الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ.
- ❖ تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.
- ❖ تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)،

تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

❖ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

❖ تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

❖ تفسير الماؤزدي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

❖ تفسير مجاهد، المؤلف: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- ❖ تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ.
- ❖ تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بدوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ❖ تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، الجزء الخامس)، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، المحقق: الدكتور محمد بلتاجي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: بدون.
- ❖ تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ❖ التقصي لما في الموطأ من حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي (٣٦٨ - ٤٦٣ هـ)، اعتنى به: فيصل يوسف أحمد العلي - الطاهر الأزهر خُدَيْرِي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [الإصدار ٥٢ من إصدارات مجلة الوعي الإسلامي]، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

❖ تلبس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

❖ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ. ١٩٨٩م.

❖ تلخيص كتاب الاستغاثة = الرد على البكري، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧، تحقيق: محمد علي عجال.

❖ التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

❖ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ.

◆ التنبيه في الفقه الشافعي، المؤلف: أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦ هـ)، إعداد: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

◆ تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤ هـ)، تحقيق: سامي بن محمد ابن جاد الله وعبد العزيز بن ناصر الحباني، دار النشر: أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

◆ التنوير شرح الجامع الصغير، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكُحْلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمر (المتوفى: ١١٨٢ هـ)، المحقق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

◆ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠ هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني - القاهرة.

◆ تهذيب التهذيب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٢٦ هـ.

- ❖ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المؤلف: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠.
- ❖ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية، مصر.
- ❖ التواضع والخمول، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.
- ❖ التوحيد ومعرفة أسماء الله عَزَّجَلَّ وصفاته على الاتفاق والتفرد. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنَدَه العبدى (المتوفى: ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهى الأستاذ المشارك في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، دار العلوم والحكم، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ❖ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المؤلف: محمد بن إسماعيل ابن صلاح بن محمد الحسيني، الكُحْلَانِي ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

- ❖ التوقيف على مهمات التعاريف، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ❖ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٣٣هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ❖ ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، رقم الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
- ❖ ثلاثة الأصول مع القواعد الأربع للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، بشرح صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.
- ❖ جامع الأصول في أحاديث الرسول، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرئووط - التتمة تحقيق بشير عيون، الناشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، الطبعة: الأولى.

❖ جامع بيان العلم وفضله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

❖ جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

❖ جامع البيان في القراءات السبع، المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، الناشر: جامعة الشارقة - الإمارات، (أصل الكتاب رسائل ماجستير من جامعة أم القرى وتم التنسيق بين الرسائل وطباعتها بجامعة الشارقة)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

❖ جامع العلوم والحكم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

❖ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: مصطفى جواد، الناشر: مطبعة المجمع العلمي، عام النشر: ١٣٧٥هـ.

- ◆ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ◆ الجامع لعلوم الإمام أحمد، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ◆ جامع المسائل - المجموعة السابعة، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ.
- ◆ جامع المسانيد، المؤلف: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥.
- ◆ جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، المؤلف: محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار العروبة - الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- ◆ جمهرة أشعار العرب، المؤلف: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

- ❖ جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
- ❖ جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، المؤلف: أبو عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر الأفغاني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار الصميعي (أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية)، الطبعة: الأولى - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ❖ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- ❖ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ❖ الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد، محمد بن صالح العثيمين.
- ❖ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، المؤلف: عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي (المتوفى: ٧٧٥هـ)، الناشر: مير محمد كتب خانة - كراتشي.

❖ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

❖ حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)، الناشر: دار الجليل - بيروت.

❖ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

❖ الحجة في القراءات السبع، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت، الناشر: دار الشروق - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

❖ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

❖ الحماسة البصرية، المؤلف: علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ)، المحقق: مختار الدين أحمد، الناشر: عالم الكتب - بيروت.

❖ الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.

❖ الحوادث والبدع، المؤلف: محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠هـ)، المحقق: علي بن حسن الحلبي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

❖ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقييل.

❖ الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

❖ خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلف: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزرازي (المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

❖ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المؤلف: محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي الحموي الأصل، الدمشقي (المتوفى: ١١١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت.

- ❖ خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقق: حقه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، الناشر: مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ❖ الدر الفريد وبيت القصيد، المؤلف: محمد بن أيذر المستعصمي (٦٣٩هـ - ٧١٠هـ)، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- ❖ الدر المثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.
- ❖ درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١هـ.
- ❖ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، المؤلف: علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ❖ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر آباد / الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- ❖ الدعاء للطبراني، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: مصطفى

عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣.

❖ الدعوات الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: غراس للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة: الأولى للنسخة الكاملة، ٢٠٠٩ م.

❖ دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، الناشر: دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

❖ دلائل النبوة، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

❖ بيان الدليل على بطلان التحليل، لشيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ). تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. الناشر: المكتب الإسلامي. سنة النشر: ١٤١٨ - ١٩٩٨.

❖ ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
❖ ديوان البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الجنوني الصنهاجي (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ).

- ❖ ديوان صفي الدين الحلي. الناشر: دار صادر- بيروت.
- ❖ ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار المعرفة بيروت.
- ❖ ديوان المعاني، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الجيل - بيروت.
- ❖ ديوان الهدليين، المؤلف: الشعراء الهدليون، ترتيب وتعليق: محمد محمود الشنقيطي، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، عام النشر: ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، (نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب في السنوات ١٩٦٤، ١٩٦٧، ١٣٦٩ هـ).
- ❖ ذم الدنيا، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ❖ ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ❖ ذم الملاهي لابن أبي الدنيا، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا

(المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.

❖ ذم الموسوسين، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: أبو الأشبال الزهيري حسن بن أمين آل مندوره، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر بالقاهرة، مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي بالجيزة، الطبعة: ١٤٠٧ هـ.

❖ ذيل طبقات الحنابلة، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

❖ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، المؤلف: جار الله الزمخشري، توفي ٥٨٣ هـ، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ.

❖ الرد على الجهمية، المؤلف: أبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، المحقق: أبو عاصم الشوامي الأثري، الناشر: المكتبة الإسلامية، القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

❖ الرد على المنطقيين، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني

الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

❖ الرسالة العرشية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.

❖ الرسالة القشيرية، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

❖ الرسائل الشخصية، اسم المؤلف: محمد بن عبد الوهاب، دار النشر: مطابع الرياض - الرياض، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.

❖ روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م.

❖ الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

❖ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

❖ روضة الطالبين وعمدة المفتين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

❖ روضة المحبين ونزهة المشتاقين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

❖ روضة الناظر، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

❖ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المؤلف: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم الزبيق، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

❖ زاد المستقنع في اختصار المقنع، المؤلف: موسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحنَّجَّاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين،

أبو النجا (المتوفى: ٩٦٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن علي بن محمد العسّكر، الناشر: دار الوطن للنشر - الرياض.

❖ زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

❖ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧ هـ.

❖ الزهد، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

❖ الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

❖ الزهد، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السّجّستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم وقدم له وراجعته: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف، الناشر: دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

- ❖ الزهد، هناد بن سري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ❖ الزهد، المؤلف: أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس ابن سفيان بن الحارث بن عمرو ابن عبيد بن رؤاس الرؤاسي (المتوفى: ١٩٧ هـ)، حققه وقدم له وخرج أحاديثه وآثاره: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ❖ الزهد والرقائق، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المروزي (المتوفى: ١٨١ هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ❖ سبل السلام، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكُحْلَانِي ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢ هـ)، الناشر: دار الحديث.
- ❖ السحر الحلال في الحكم والأمثال، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ❖ سلم الوصول إلى طبقات الفحول، المؤلف: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» وبـ «حاجي خليفة» (المتوفى ١٠٦٧ هـ)، المحقق: محمود عبد القادر الأرنؤوط، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، تدقيق: صالح سعداوي صالح، إعداد الفهارس: صلاح الدين أويغور، الناشر: مكتبة إرسیکا، إستانبول - تركيا، عام النشر: ٢٠١٠ م.

❖ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المؤلف: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: ١١١١هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

❖ السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

❖ السنة، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي (المتوفى: ٢٩٠هـ)، المحقق: د. محمد بن سعيد ابن سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

❖ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

❖ سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

❖ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

❖ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

❖ سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.

❖ السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

- ❖ السنن الصغرى للنسائي (المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.
- ❖ السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- ❖ السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُو جردى الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ❖ سنن سعيد بن منصور، المؤلف: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (المتوفى: ٢٢٧ هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: الدار السلفية - الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م.
- ❖ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.
- ❖ سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، المؤلف: محمد بن إسحاق ابن يسار المطلبى بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١ هـ)، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- ❖ السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، تحقيق:

مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

❖ السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري
المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل - بيروت،
الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ.

❖ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط
ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

❖ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المؤلف: أبو القاسم هبة الله
ابن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨ هـ)،
تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة - السعودية،
الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.

❖ شرح تنقيح الفصول، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس
ابن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤ هـ)، المحقق:
طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة:
الأولى، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

❖ شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة
موازنة في مناهجها وتطبيقاتها)، المؤلف: أبو القاسم زيد بن علي الفارسي
(المتوفى: ٤٦٧ هـ)، المحقق: د. محمد عثمان علي، الناشر: دار الأوزاعي
- بيروت، الطبعة: الأولى.

- ❖ شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت ٢٣١ هـ)، المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢ هـ)، الناشر: دار القلم - بيروت.
- ❖ شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ❖ شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ.
- ❖ شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ.
- ❖ شرح العمدة (في الفقه الحنبلي)، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية الحرّاني الدمشقي، تحقيق سعود العطيشان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
- ❖ شرح القصائد العشر، المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢ هـ)، الناشر: عنيت بتصحيحها وضبطها والتعليق عليها للمرة الثانية: إدارة الطباعة المنيرية، عام النشر: ١٣٥٢ هـ.

- ❖ شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ.
- ❖ شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢ هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ❖ شرح مشكل الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م.
- ❖ شرح معاني الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١ هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي - الباحث بمركز خدمة السنة بالمدينة النبوية، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
- ❖ شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦ هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

❖ شرح المعلقات السبع، المؤلف: حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْرَنِي، أبو عبد الله (المتوفى: ٤٨٦هـ)، الناشر: دار احياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

❖ شرح مقامات الحريري، المؤلف: أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسِي الشُّرَيْشِي (المتوفى: ٦١٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٦ م - ١٤٢٧هـ.

❖ شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، المحقق: قدم له: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، حققه وعلق عليه: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، الناشر: دار الأرقم - لبنان / بيروت.

❖ شرف أصحاب الحديث، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمد سعيد خطي أوغلي، الناشر: دار إحياء السنة النبوية - أنقرة.

❖ الشريعة، اسم المؤلف: أبي بكر محمد بن الحسين الأجرِّي، دار النشر: دار الوطن - الرياض / السعودية - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي.

❖ شُعَبُ الْإِيمَانِ، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

❖ شعر نُصَيْبِ بْنِ رَبَاحٍ، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، مطبعة الإرشاد - بغداد، ١٩٦٧ م.

- ❖ الشعر والشعراء، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣هـ.
- ❖ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ❖ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لأحمد بن حجر آل بو طامي.
- ❖ الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- ❖ الصَّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ❖ صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
- ❖ صحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمى النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

❖ صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

❖ صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

❖ صفة الجنة، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية.

❖ صفة الجنة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، المحقق: علي رضا عبد الله، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق - سوريا.

❖ صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

❖ الصفدية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

- ❖ الصمت وآداب اللسان، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن سفیان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: أبو إسحاق الحويني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠.
- ❖ الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.
- ❖ الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعطلة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ❖ صيد الخاطر، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ❖ طبقات الحفاظ، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ❖ طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي

د. عبد الفتاح محمد الحلوة، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع،
الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

❖ طبقات الصوفية، المؤلف: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (المتوفى: ٤١٢هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

❖ الطبقات الكبرى، المؤلف: محمد بن سعد بن منيع الزهري، المتوفى: ٢٣٠هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالب الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

❖ طريق المهجرتين وباب السعادتين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

❖ الظهور للقاسم بن سلام، المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، حقه وخرج أحاديثه: مشهور حسن محمود سلمان، الناشر: مكتبة الصحابة، جدة - الشرفية، مكتبة التابعين، سليم الأول - الزيتون، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- ❖ العالم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم حياته وسيرته ومؤلفاته، مؤلف الكتاب: عبد الملك القاسم.
- ❖ العبر في خبر من غير، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قَأيَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ❖ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت/ مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- ❖ العدة في أصول الفقه، المؤلف: القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نضه: د أحمد بن علي بن سير المبارك، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض - جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الناشر: بدون ناشر، الطبعة: الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- ❖ العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان بن أبي شيبة، تحقيق محمد بن حمد الحمود، مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ❖ العزلة، المؤلف: أبو سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ.

❖ العظمة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: رضاء الله ابن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.

❖ العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين، المؤلف: حسين بن غنّام (أو ابن أبي بكر بن غنّام) النجدي الأحسائي المالكي (المتوفى: ١٢٢٥هـ)، الناشر: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، المحقق: محمد بن عبد الله الهبدان.

❖ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، المؤلف: أحمد بن عبد الرحيم ابن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ (الشاه ولي الله الدهلوي) (المتوفى: ١١٧٦هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة.

❖ العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

❖ العقل وفضله، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، الناشر: مكتبة القرآن - مصر.

❖ العقوبات، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)،

المتوفى ٢٨١ هـ، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

❖ علل الترمذي الكبير، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى ابن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، رتبه على كتب الجامع: أبو طالب القاضي، المحقق: صبحي السامرائي، أبو المعاطي النوري، محمود خليل الصعيدي، الناشر: عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ.

❖ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

❖ العلل ومعرفة الرجال، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقق: وصي الله بن محمد عباس، الناشر: دار الخاني، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

❖ العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

❖ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي

(المتوفى: ٧٥٦ هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

❖ العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، المؤلف: مؤلف (العمدة في إعراب البردة) - مجهول، تحقيق: عبد الله أحمد جاجة، تقديم: محمد علي سلطاني، الناشر: دار اليمامة للطباعة والنشر - دمشق، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.

❖ عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عَزَّوَجَلَّ ومعاشرته مع العباد، المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله ابن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّينَوْرِي، المعروف بـ (ابن السُّنِّي) (المتوفى: ٣٦٤ هـ)، المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.

❖ عمل اليوم والليلة، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)، المحقق: د. فاروق حمادة، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦.

❖ عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بشير النجدي، دار الحبيب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.

❖ العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

❖ عيون الأخبار، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ.

❖ عيون الرسائل والأجوبة على المسائل، المؤلف: عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (المتوفى: ١٢٩٣هـ)، المحقق: حسين محمد بوا، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى.

❖ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المؤلف: أحمد بن القاسم بن خليفة ابن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة (المتوفى: ٦٦٨هـ)، المحقق: الدكتور نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت.

❖ غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص الفاضحة، المؤلف: أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (المتوفى: ٧١٨هـ)، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه: ابراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

❖ غريب الحديث، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر - دمشق، عام النشر: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

❖ غريب الحديث، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: د. عبد الله الجبوري، الناشر: مطبعة العاني - بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧.

❖ غريب الحديث، المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

❖ الغنية عن الكلام وأهله، المؤلف: الخطابي.

❖ فتاوى ابن الصلاح، المؤلف: عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)، المحقق: د. موفق عبد الله عبد القادر، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

❖ الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرّاني الدمشقي، قدم له وعرف به حسين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

❖ فتاوى ومسائل (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الرابع)، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، المحقق: صالح بن عبد الرحمن الأطرم، محمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

❖ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

❖ فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ.

- ❖ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (المتوفى: ١٢٨٥هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.
- ❖ الفرج بعد الشدة، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، خرجه وعلق عليه: أبو حذيفة عبيد الله بن عالية، الناشر: دار الريان للتراث، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ❖ الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه ابن فناخسرو، أبو شجاع الديلمي الهمداني (المتوفى: ٥٠٩هـ)، المحقق: السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ❖ الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
- ❖ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، المؤلف: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية، مطبوع بشرح العلامة صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان - حفظه الله - في مجلدين، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت.
- ❖ الفروق = أنوار البروق في أنواع الفروق، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، الناشر: عالم الكتب.

❖ الفصل في الملل والأهواء والنحل، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة.

❖ فضائل القرآن للقاسم بن سلام، المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام ابن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

❖ فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المؤلف: القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي (المتوفى: ٢٨٢هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة: الثالثة، ١٣٩٧هـ.

❖ فضل علم السلف على الخلف، المؤلف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)

❖ الفقيه والمتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

❖ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، المؤلف: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

❖ الفلاكة والمفلوكون، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدلّجي المصري (المتوفى: ٨٣٨هـ)، الناشر: مطبعة الشعب، مصر، عام النشر: ١٣٢٢ هـ.

❖ الفهرست، المؤلف: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفى: ٤٣٨هـ)، المحقق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

❖ فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاکر الکتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

❖ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

❖ قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر: مكتبة الفرقان - عجمان - الطبعة: الأولى (مكتبة الفرقان) ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١هـ.

❖ القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شاطيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- ❖ كتاب القدر، المؤلف: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُستَفَاض الفِرْيَابِي (المتوفى: ٣٠١هـ)، المحقق: عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ❖ القدر وما ورد في ذلك من الآثار، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (المتوفى: ١٩٧هـ)، المحقق: د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم، الناشر: دار السلطان - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- ❖ القرى لقاصد أم القرى، المؤلف: أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر محب الدين الطبري المكي أبو العباس.
- ❖ متن القصيدة النونية، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٧ هـ.
- ❖ القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية، المؤلف: ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: عبد الكريم الفضيلي، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ❖ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، المؤلف: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ)، المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

❖ القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

❖ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، المؤلف: محمد بن علي بن محمد ابن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد الخالق، الناشر: دار القلم - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦.

❖ الكافي في فقه الإمام أحمد، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

❖ الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

❖ الكامل في اللغة والأدب، المؤلف: محمد بن يزيد المبرّد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

❖ الكامل في ضعفاء الرجال، اسم المؤلف: عبد الله بن عدي بن عبد الله ابن محمد أبو أحمد الجرجاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٨، الطبعة: الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي.

❖ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزَّ وجلَّ، المؤلف: أبو بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمى النيسابوري

(المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

❖ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.

❖ كشف الأستار عن زوائد البزار، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر ابن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

❖ كشف المناهج والتناويع في تخريج أحاديث المصاييح، المؤلف: صدر الدين محمد بن إبراهيم السلمى المناوي (ت: ٨٠٣هـ)، دراسة وتحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، تقديم: الشيخ صالح بن محمد اللحيان، الناشر: الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

❖ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

❖ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب ابن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى:

١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

❖ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المؤلف: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

❖ اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، المؤلف: أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)، المحقق: محمد سعيد المولوي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

❖ لباب الآداب، المؤلف: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، المحقق: أحمد حسن لبج، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

❖ لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

❖ لسان الميزان، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: دائرة المعارف النظامية - الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م.

- ❖ اللزوميات، لأبي العلاء المعري.
- ❖ اللمع في أصول الفقه، المؤلف: أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الثانية ٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ.
- ❖ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق: بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- ❖ المبتدأ والخبر لعلماء القرن الرابع عشر، وبعض تلاميذهم، تأليف: إبراهيم بن محمد ناصر السيف، اعتنى بإخراجه: حسان بن إبراهيم السيف، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ.
- ❖ المبسوط، المؤلف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ❖ متن الرحبية = بغية الباحث عن جمل الموارث، المؤلف: موفق الدين أبو عبد الله - توفي ٥٧٩ سنة، الناشر: دار المطبوعات الحديثة، الطبعة: ١٤٠٦/١/٢١ هـ.
- ❖ متن الشاطبية = حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع، المؤلف: القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو محمد الشاطبي (المتوفى: ٥٩٠هـ)، المحقق: محمد تميم الزعبي، الناشر: مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ.

❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة.

❖ المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، المؤلف: محمد بن حبان ابن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبُد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الوعي - حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦هـ.

❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

❖ مجمل اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن

سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية -
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

❖ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد
ابن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

❖ المجموع شرح المذهب (مع تكملة السبكي والمطيعي)، المؤلف:
أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر:
دار الفكر.

❖ مجموع مؤلفات ورسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب، توزيع رئاسة
البحوث العلمية والإفتاء. الرياض السعودية.

❖ محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن
عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي
الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق: المسعتصم بالله أبي هريرة مصطفى بن
علي بن عوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى،
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

❖ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، المؤلف: أبو القاسم
الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)،
الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى،
١٤٢٠هـ.

❖ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، المؤلف:
أبو الفتح عثمان بن جني الموصلية (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: وزارة

الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ-
١٩٩٩م.

❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق
ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى:
٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب
العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

❖ المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن
سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هندراوي، الناشر: دار
الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

❖ المحلى بالآثار، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.

❖ المخارج في الحيل، المؤلف: محمد بن الحسن الشيباني (المتوفى: ١٨٩هـ)،
الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة. عام النشر: ١٤١٩هـ-
١٩٩٩م.

❖ مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر
الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة
العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة،
١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

❖ مختصر اختلاف العلماء، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة
ابن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي

(المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: د. عبد الله نذير أحمد، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ.

❖ مختصر السنن للمنزدي، ومعه معالم السنن، شرح سنن أبي داود، للحافظ أبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، ومعه تهذيب السنن، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، وأحمد محمد شاكر، دار المعرفة، طبعة ١٤٠٠هـ.

❖ مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمِاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

❖ المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: د. محمد مظهر بقا، الناشر: جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة.

❖ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

❖ المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق:

د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.

❖ المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد وتخریجات الأصحاب، المؤلف: بكر ابن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: دار العاصمة - مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ

❖ المدهش، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: الدكتور مروان قباني، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

❖ مذكرة في أصول الفقه، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م.

❖ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، المؤلف: شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن قزؤغلي بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزي (٥٨١ - ٦٥٤ هـ)، تحقيق وتعليق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

❖ مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

✽ المراسيل، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير ابن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

✽ مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، المؤلف: عبد الله بن أحمد ابن حنبل، سنة الولادة ٢١٣هـ / سنة الوفاة ٢٩٠هـ، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مكان النشر: بيروت.

✽ مسائل حرب الكرماني، المؤلف: أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني (المتوفى: ٢٨٠هـ)، إعداد: فايز بن أحمد بن حامد حابس، إشراف: فضيلة الشيخ الدكتور حسين بن خلف الجبوري، الناشر: جامعة أم القرى، عام النشر: ١٤٢٢هـ.

✽ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

✽ المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

✽ مسند إبراهيم بن أدهم الزاهد، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندّه العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: مجدي السيد إبراهيم، الناشر: مكتبة القرآن - القاهرة.

- ❖ مسند ابن الجعد، المؤلف: علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠.
- ❖ مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- ❖ مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- ❖ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ❖ مسند الإمام الشافعي، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، رتبه على الأبواب الفقهية: محمد عابد السندي، عرف للكتاب وترجم للمؤلف: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، تولى نشره وتصحيحه ومراجعة أصوله على نسختين مخطوطتين: السيد يوسف علي الزواوي الحسني، السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- ❖ مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

❖ مسند الحميدي، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (المتوفى: ٢١٩هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الداراني، الناشر: دار السقا، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦ م.

❖ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠ م.

❖ مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

❖ مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي ابن حكيمون القُضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦.

❖ مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأقواله على أبواب العلم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: عبد المعطي قلعجي، دار النشر: دار الوفاء - المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.

❖ المسودة في أصول الفقه، المؤلف: آل تيمية [بدأ بتصنيفها الحد: مجد الدين عبد السلام بن تيمية (ت: ٦٥٢هـ)، وأضاف إليها الأب: عبد الحلیم بن تيمية (ت: ٦٨٢هـ)، ثم أكملها الابن الحفيد: أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)]، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الكتاب العربي.

❖ مصارع العشاق، المؤلف: جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: ٥٠٠هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت.

❖ مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

❖ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناي الشافعي (المتوفى: ٨٤٠هـ)، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، الناشر: دار العربية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

❖ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

❖ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

❖ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

✽ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، المؤلف: مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرَّحْيَانِي مَوْلِدًا، ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ١٢٤٣هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

✽ المطلع على ألفاظ المقنع، المؤلف: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، أبو عبد الله، شمس الدين (المتوفى: ٧٠٩هـ)، المحقق: محمود الأرنؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

✽ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، المؤلف: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

✽ معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، المؤلف: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٧هـ.

✽ معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد ابن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، الناشر: المطبعة العلمية - حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

✽ معاني القرآن، المؤلف: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.

❖ معاني القرآن، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور
الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي /
محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية
للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة: الأولى.

❖ معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق
الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر:
عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

❖ معجم ابن الأعرابي، المؤلف: أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد
ابن بشر بن درهم البصري الصوفي (المتوفى: ٣٤٠هـ)، تحقيق وتخريج:
عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي،
المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

❖ المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله
وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة
١٤١٥هـ.

❖ المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب
الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

❖ معجم الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل
ابن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق:
الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر
الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

- ❖ المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
- ❖ معجم اللغة العربية المعاصرة، المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ❖ المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
- ❖ معجم المفسرين - من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر -، المؤلف: عادل نويض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، الناشر: مؤسسة نويض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- ❖ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٤٢٢هـ.
- ❖ معرفة السنن والآثار، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق - بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

❖ معرفة الصحابة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ابن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

❖ معرفة علوم الحديث، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقق: السيد معظم حسين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

❖ المُعَلِّمُ بفوائد مسلم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المالكي (المتوفى: ٥٣٦هـ)، المحقق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١م.

❖ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

❖ المغني لابن قدامة، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مكتبة القاهرة، تاريخ النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

❖ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، الناشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

❖ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

❖ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المؤلف: محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين (المتوفى: ٦٩٧هـ)، تحقيق: ج ١، ج ٢، ج ٣: الدكتور جمال الدين الشيال. ج ٤، ج ٥: الدكتور حسنين محمد ربيع - الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. الناشر: دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة - جمهورية مصر العربية.

❖ المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان

عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت،
الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ.

❖ المفضليات، المؤلف: المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (المتوفى:
نحو ١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد
هارون، الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة: السادسة.

❖ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن
عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم
له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي
- محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار
الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

❖ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، المؤلف: أبو الحسن علي بن
إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن
أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، عنى بتصحيحه:
هلموت ريتز، الناشر: دار فرانزشتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة:
الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

❖ مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، مؤلف «علوم الحديث»: عثمان
ابن الصلاح عبد الرحمن بن موسى بن أبي النصر الشافعي (٥٧٧هـ -
٦٤٣هـ)، مؤلف «محاسن الاصطلاح»: عمر بن رسلان بن نصير بن
صالح الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعي، أبو
حفص، سراج الدين (المتوفى: ٨٠٥هـ)، المحقق: د عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطيء) أستاذ الدراسات العليا، كلية الشريعة بفاس، جامعة القرويين، الناشر: دار المعارف.

❖ المقصد الأرشدي في ذكر أصحاب الإمام أحمد، المؤلف: إبراهيم بن محمد ابن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: ٨٨٤هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

❖ مكائد الشيطان، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ).

❖ الملل والنحل، للشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

❖ من أعلام المجددين، المؤلف: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر: دار المؤيد، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

❖ المنتخب من مسند عبد بن حميد، المؤلف: أبو محمد عبد الحميد بن حميد ابن نصر الكشي ويقال له: الكشي بالفتح والإعجام (المتوفى: ٢٤٩هـ)، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، الناشر: مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

❖ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- ❖ المتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال،
المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز
الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب.
- ❖ منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم،
مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ❖ منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين
يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقق: عوض قاسم أحمد
عوض، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ❖ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين
يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث
العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ❖ المهذب في فقه الإمام الشافعي، المؤلف: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن
يوسف الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية.
- ❖ الموشى = الظرف والظرفاء، المؤلف: محمد بن أحمد بن إسحاق بن
يحيى، أبو الطيب، المعروف بالوشاء (المتوفى: ٣٢٥هـ)، المحقق: كمال
مصطفى، الناشر: مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر - مطبعة
الاعتماد، الطبعة: الثانية، ١٣٧١هـ - ١٩٥٣م.
- ❖ موضح أو هام الجمع والتفريق، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت
ابن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق:
د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة:
الأولى، ١٤٠٧.

- ❖ الموضوعات، المؤلف: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر: محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ج ١، ٢: ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، ج ٣: ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- ❖ الموطأ، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.
- ❖ الموقظة في علم مصطلح الحديث، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قائماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غُدَّة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ.
- ❖ موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف: عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- ❖ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
- ❖ النسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق:

د. عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

❖ النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٦ هـ.

❖ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

❖ نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (المتوفى: ١٠٤١ هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت - لبنان.

❖ النكت على مقدمة ابن الصلاح، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (المتوفى: ٧٩٤ هـ)، المحقق: د. زين العابدين بن محمد بلا فريج، الناشر: أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

❖ نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ابن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣ هـ)، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

❖ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، الناشر المكتبة العلمية، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، بيروت.

❖ نواقض الإسلام، صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م.

❖ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

❖ هذه مفاهيمنا، المؤلف صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الناشر: إدارة المساجد والمشاريع الخيرية الرياض، الطبعة: الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

❖ الوابل الصيّب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث - القاهرة، رقم الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

❖ الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)،

تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

❖ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.

❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

❖ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.



فهرس الموضوعات

- فصل: المحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له... ٥
- كل المحابِّ باطلَةٌ مضمحلة سوى محبة الله وما والاها..... ٥
- معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]... ٧
- فصل: أصل المحبة المحمودة: هي محبة الله وحده، المتضمنة لعبادته دون ما سواه..... ٩
- العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل..... ٩
- إنما يطلق في حق الله الحب والعبادة والإنابة والإخبات، ولا يطلق العشق ولا الغرام، ولا الصبابة، ولا الشغف ولا الهوى..... ٩
- مدار كتب الله كلها على الأمر بهذه المحبة، والنهي عما يضادها..... ١١
- حديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان...» الحديث..... ١١
- حديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»..... ١١
- أصل العبادة وكما لها هو المحبة، وإفراد الرب سبحانه بها..... ١١
- الكلمة المتضمنة لهذين الأصلين لا إله إلا الله..... ١٣
- حديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»..... ١٣
- سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن..... ١٣
- حديث دعوة المكروب: «لا إله إلا الله العظيم» الحديث..... ١٤

دعوة ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٤...

حديث: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَاعَهُ أَمْرٌ قَالَ: اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ

به» الحديث..... ١٤

تعليم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسماء بنت عميس كلماتٍ تقولها عند الكرب..... ١٦

دعوة ذي النون: لم يدع بها مسلم في شيء إلا استُجيب له..... ١٦

دعوات المكروب: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكِلْنِي إِلَى نَفْسِي...» الحديث..... ١٦

التوحيد ملجأ الطالبين، ومفزع الهارين، ونجاة المكروبين، وغياث الملهوفين..... ١٦

فصل: لا بد للنفس من محبوب مراد لنفسه، وإلا لزم الدور والتسلسل في

العلل والغايات..... ٢٠

لا يُحب لذاته من كل وجه إلا الله الذي لا تصلح الإلهية إلا له..... ٢٠

فصل: كل حي فله إرادة وعمل بحسبه، وكل متحرك فله غاية يتحرك

إليها، لا صلاح له إلا أن يكون الله وحده غاية حركته، ونهاية مطلبه..... ٢٥

تقسيم المحبة والإرادة إلى نافعة وضارة باعتبار متعلقها..... ٢٧

فصل: الحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره إلا من فساد

تصوره ومعرفته بالجهل، أو فساد قصده وإرادته بالظلم..... ٢٩

أصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم..... ٢٩

قد قيل: إنَّ فساد القصد من فساد العلم..... ٣٦

فصل: العبد أحوج شيء إلى معرفة ما يضره ليجنبه، وما ينفعه ليحرص

عليه ويفعله..... ٣٨

وإلى ذلك طريقان: العقل، والشرع، والشرع أصدق من العقل..... ٣٩

أهل الشبهات والأهواء المخالفون للسنة علماء وعملا..... ٤١

- فصل: من المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت اليمين..... ٥٢
- سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ»..... ٥٥
- عَائِشَةُ الصُّدَيْقَةُ بِنْتُ الصُّدَيْقِ، الْمُبْرَأَةُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ..... ٥٥
- حديث: «حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ...» الحديث..... ٥٧
- لا عيب على الرجل في عشق زوجته إلا إذا شغله عن محبة الله ورسوله... ٥٩
- الأشياء التي كان يحبها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٦٠
- المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة لله. والضاورة
- ثلاثة أنواع: محبة مع الله، ومحبة ما يبغض الله، ومحبة ما تقطع محبته عن الله... ٦٢
- المحبة مع الله أصل الشرك..... ٦٢
- محبة الصور المحرمة من موجبات الشرك..... ٦٤
- نجاة يوسف الصديق من عشق الصور الذي وقعت فيه امرأة العزيز المشركة... ٦٤
- فصل: ومن أعظم كيد الشيطان: ما فتن به بعض المتصوفة: أنه يحب الأمر
- أو المرأة ويقول: إنه لله!..... ٦٦
- اعتقادهم أن هذا قربة لله: من أعظم الضلال والغي، وتبديل الدين..... ٧٠
- قد يبلغ الشيطان من هؤلاء أن يعتقدوا التعاون على الفاحشة تعاوناً على
- الخير والبر، وحديث: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً...» إلخ..... ٧٠
- فصل: ثم هم بعد هذه الضلال أربعة أقسام: قوم يعتقدون أن هذا لله،
- وهذا كثير في المتصوفة..... ٧٤
- وقوم يعلمون في الباطن أنه لغير الله ولكن يظهرون ذلك خداعاً..... ٧٤
- والقسم الثالث: مقصودهم الفاحشة الكبرى..... ٧٧
- تسميتهم اللواط زواجاً استهزاءً بآيات الله ودينه..... ٧٧

- حديث: «إذا أحب الله عبداً...» الحديث..... ٨٠
- ترجيح أولئك الفجرة وطء المردان على نكاح النسوان..... ٨٠
- قسمت هذه الطائفة الفاجرة الأمرد المفعول به إلى ثلاثة أقسام..... ٨٢
- صنّف بعضهم كتاباً في إتيان المردان، ونسبتهم ذلك كذباً إلى مذهب مالك..... ٨٣
- سبب الغلط في نسبة هذا إلى مالك ما نُسب إليه من إباحة وطء الزوج امرأته في دبرها..... ٨٥
- قول كثير من الفسقة إنه صغيرة في مذهب أبي حنيفة! وهذا من أعظم الكذب على الأئمة..... ٨٥
- الشبهة التي أوقعتهم في هذا الكتاب من أن أبا حنيفة لم يوجب فيه الحد جمع الله لقوم لوط من العذاب ما لم يجمعه لأمةٍ غيرهم..... ٨٨
- شبهة من أسقط فيه الحد: أن فحشه مركوز في الفِطْر..... ٨٨
- جواب الجمهور الموجين الحدّ على هذه الشبهة..... ٨٨
- حد اللوطي القتل بكل حال..... ٨٨
- ظن كثير من الجهال الفجرة جواز الفاحشة بالملوك..... ٩٠
- رُفِعَ إلى عمر امرأة تزوجت بعدها متأولةً قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، ففرّق عمرُ بينهما وأدبها..... ٩٠
- مَنْ تَأَوَّلَ هذه الآية على وطء المملوك فهو كافر باتفاق الأمة..... ٩٠
- مَنْ تَأَوَّلَ منهم ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ على ذلك..... ٩٢
- ومنهم من يجعل حل ذلك مسألة خلاف، ويقول: الاختلاف شبهة. وهذا كذب وجهل..... ٩٢
- ومنهم من يقول: هو مباح للضرورة!..... ٩٢

- ليس عدم تقدير الحد في الجريمة دليلاً على حلها، أو الخلاف فيها..... ٩٢
- تبديل الدين من أتباع الأقوال الخاطئة، والظنون الكاذبة، والأهواء الغالبة.... ٩٤
- كان بعض المماليك يتمدح بأنه لا يعرف عاشقاً له غير سيده، كما تتمدح
المرأة والجارية..... ٩٤
- ومنهم من يرى أن التحريم إنما هو إكراه الصبي على فعل الفاحشة..... ٩٤
- استهزاء النصير الطوسي بحكم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحدود..... ٩٦
- استباحة هؤلاء الفجرة الفسق لشدة العشق..... ٩٦
- استباحتهم الخمر للتداوي..... ٩٦
- الكفر والفسوق والعصيان درجات..... ٩٨
- اتخاذ الأخذان من النساء والرجال أقل شراً من المسافحات والمسافحين..... ١٠٠
- حديث: «كُلُّ أُمَّتِي مَعَايٍ إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ...» الحديث..... ١٠٢
- حديث: «من ابتلي من هذه القاذورات بشيءٍ فليستتر...» إلخ..... ١٠٤
- حديث: «إن الخطيئة إذا خفيت لم تضرَّ إلا صاحبها...» إلخ..... ١٠٤
- الزنى بذات الزوج وحليلة الجار وامرأة الغازي أعظمُ إثماً من الزنى
بغيرهن..... ١٠٤
- اختلاف درجات الإثم بحسب الزمان والمكان والفاعل..... ١٠٦
- حديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: الشيخ الزاني...» إلخ..... ١٠٦
- فصل: ينبغي أن يعلم أنه يقترن بالأيسر إثماً ما يجعله أعظمُ إثماً مما فوقه..... ١٠٨
- قد يقترن بالفاحشة من العشق ما يشغل القلب بتعظيم المعشوق
وتأليه، وتقديم طاعته على طاعة الله ورسوله..... ١٠٨
- قد أثبت الشارع في المحبوبات لغير الله اسم التعبد..... ١١٠

- حديث: «تعس عبد الدينار...» إلخ..... ١١٠
- إذا شغف القلب بمحبة غير الله كان فيه من التعبد له بقدر ذلك..... ١١٢
- مراتب الحب..... ١١٢
- القرآن إنما حكى عشق الصور عن المشركين..... ١١٤
- العشق المحرم من أعظم الغي..... ١١٩
- أصحاب السماع الشعري الشيطاني غاؤون..... ١٢١
- إصرار العاشق على محبة الزنى وتوابعه قد يكون أعظم ضرراً من فعل
الفاحشة ألف مرة..... ١٢٣
- الإصرار على الصغيرة قد يساوي الكبيرة..... ١٢٣
- تعبد القلب للمعشوق شرك، وهو أشد مفسدةً من المعصية..... ١٢٣
- سلطان الشيطان على الذين يتولونه من الغاوين أتباع الهوى والشهوات..... ١٢٣
- أصل الغي من الحب لغير الله..... ١٢٣
- حب غير الله يُضعف الإخلاص، ويقوي الشرك..... ١٢٣
- أصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك..... ١٢٥
- كثير من المتيمين يقول لمعشوقه: إنه عبده، ويذكره أكثر من ذكره لله،
ويقدم رضاه على رضاربه، ويجعل الفضلة من وقته - إن كانت - لربه..... ١٢٥
- لسان العاشق في الصلاة لربه وقلبه مع معشوقه، وجسمه إلى القبلة ووجه
قلبه إلى المعشوق؛ لذلك ينقر الصلاة ويجب طول الوقوف مع معشوقه..... ١٢٦
- العشق الشيطاني يجمع المحرمات الأربع: الفواحش الظاهرة والباطنة،
والإثم والبغى بغير الحق، والشرك، والقول على الله ما لا يعلم..... ١٢٩

كثيرًا ما يوجد من هذا العشق قتل النفوس، وأخذ المال بالباطل،

والكذب والظلم..... ١٢٩

أصل كل هذا الشر من خلو القلب من محبة الله والإخلاص له..... ١٢٩

عشاق الصور المتيمون تنطبق عليهم آية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾..... ١٣١

ليس شيءٌ يستوعب محبة القلب إلا حب الله، أو محبة بشر مثلك..... ١٣١

لا يعرف في محبة شيء ما يزيل العقل إلا محبة البشر..... ١٣١

قد يبذل العاشق نفسه للقتل والتلف..... ١٣١

حديث: «شارب الخمر كعابد وثن»..... ١٣١

قول عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلْعَبِي الشَّطْرَنْج: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها

عاكفون؟!»..... ١٣٣

قرن الله بين الخمر والأنصاب التي تُعبد من دون الله..... ١٣٣

سكرة العشق أشد من سكرة الخمر..... ١٣٥

العاشق لا يستفيق إلا عند الموت..... ١٣٥

سكرة قوم لوط حتى فاجأهم عذاب الله..... ١٣٥

العشق أعظم مما بالمجانين..... ١٣٥

العاشق أشبه بعابد الوثن من شارب الخمر..... ١٣٧

ما يوقعه الشيطان من العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله بالعشق

أشدُّ مما يوقعه بالخمر والميسر..... ١٣٧

جميع المعاصي يجتمع فيها العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله

وعن الصلاة..... ١٣٧

ما يجعل الله من الوُدِّ بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات..... ١٣٧

- قول هرم بن حيان: «ما أقبل عبد بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه...» إلخ..... ١٣٧
- انقلاب ما بين أهل المعاصي والفسوق إلى عداوة وبغضاء في الدنيا والآخرة عداوة المتخذين أو ثائناً يوم القيامة لمن اتخذوهم ولعنهم لهم..... ١٣٧
- كل المعاصي توجب العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة..... ١٣٩
- الخمر والميسر من أواخر المحرّمات..... ١٣٩
- كم وقع بين الناس من العداوة بسبب عشق الصوّر!..... ١٤٠
- فصل: في بيان أن أصل الفواحش محبة غير الله؛ لأنها في المشركين أكثر منها في المؤمنين..... ١٤١
- آيات سورة الأعراف (٢٧-٣٣) في تحذير بني آدم من الشيطان..... ١٤٣
- تحذير الله في سورة الكهف المؤمنين أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه وهم لهم عدو..... ١٤٧
- أولياء الشيطان يحتجون للفاحشة بتقليد آبائهم، وزعمهم أن الله أمرهم بها..... ١٤٩
- كثير من الصوفية والعبّاد والأمرء والأجناد والمتفلسفة والمتكلمين والعامّة يستحلون الفواحش تقليداً للأسلاف، وظناً أن الله أباحها، ويجعلون العشق ديناً يتقربون به إلى الله؛ ولهذا يجتمعون على السماع الشيطاني الذي يبيح هذا العشق..... ١٥١
- إذا وجد القلب حلاوة الإيمان بالله أغناه ذلك عن اتخاذ الأنداد..... ١٥٣
- فطر الله القلوب على حبه، وإخلاص العبادة له..... ١٥٣
- حديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه...» الحديث..... ١٥٣
- إنما بعث الله المرسلين؛ لإصلاح الفطر التي تفسدها الشياطين..... ١٥٣

- فصل: الفتنة بعشق الصوَر تنافي أن يكون الدين كله لله..... ١٥٦
- فتنة القلوب إما من الشرك، أو من أسبابه من الشبهات والشهوات... ١٥٦
- فتنة الذين عبدوا العجل..... ١٥٨
- قول الجلد بن قيس للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي» في غزوة تبوك، ومعنى ذلك زعم الجلد أنه يفر من فتنة النساء، فوقع في فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة..... ١٦١
- معنى الفتنة: الامتحان الذي خلص صاحبه من الافتتان؛ كقوله تعالى لموسى: ﴿وَفَنَّكَ فَتُونًا﴾، والامتحان الذي حصل معه افتتان؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾..... ١٦١
- معنى الفتنة في أول سورة العنكبوت وفي قول موسى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾..... ١٦٢
- معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾..... ١٦٢
- نزول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المنبر، واحتماله الحسن والحسين..... ١٦٢
- قول ابن مسعود: «أيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن»..... ١٦٣
- معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾..... ١٦٣
- امتحان الله الرسل وورثتهم والمرسلين إليهم بعضهم ببعض..... ١٦٣
- امتحان العلماء والملوك والرعية والأغنياء والفقراء والضعفاء والأقوياء والرجال والنساء ببعضهم..... ١٦٣
- قول الرؤساء والأغنياء للفقراء أتباع الرسل: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾..... ١٦٤
- قول قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾..... ١٦٤

- حمية الشريف والرئيس وأنفته أن يسلم فيساوي الفقير..... ١٦٤
- قول الكفار: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾..... ١٦٤
- افتتان المشركين بفقرء المهاجرين..... ١٦٤
- قرن الله الفتنة بالصبر في سورة الفرقان وفي سورة النمل..... ١٦٥
- بالفتنة يتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث الفتنة رحمة في حق الصابرين..... ١٦٥
- الفتنة لا بد منها في الدنيا والآخرة..... ١٦٥
- مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ فِتْنَةِ الدُّنْيَا لَهُ النَّارُ..... ١٦٥
- جعل الله شجرة الزقوم فتنة للظالمين، وما جاء في شجرة الزقوم..... ١٦٥
- جعل الله عدة ملائكة النار تسعة عَشْرَ؛ فتنةً لأهلها، وما ورد من قول أبي جهل في ذلك..... ١٦٦
- قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾..... ١٦٧
- قول أصحاب موسى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾..... ١٦٧
- فتن الله أصحاب الشهوات بالصورة الجميلة، وفتن أولئك بهم..... ١٧٢
- أنواع ما في هذه الدار من فتون من الشهوات والنفس الأمارة والشيطان والقرناء وغير ذلك، ولا نجاة منها إلا بتوفيق الله ومعونته..... ١٧٥
- فصل: الفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات..... ١٨٠
- فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم، وفساد القصد وغلبة الهوى اتباع الهوى يضل عن سبيل الله..... ١٨٠
- مآل هذه الفتنة إلى الكفر والنفاق..... ١٨٤
- جميع البدع إنما نشأت عن فتنة الشبهات..... ١٨٤

- لا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريدُ اتباع الرسول، وتحكيمه في العقائد
 والأعمال وفي الدين كله..... ١٨٧
- قد تنشأ فتنة الشبهات من فهمٍ فاسد، أو نقل كاذب، أو إخفاء حق
 ثابت، أو غرض فاسد، أو اتباع هوى..... ١٩٠
- فصل: النوع الثاني: فتنة الشهوات..... ١٩٠
- جمع الله بين فتنة الشهوات والشبهات في الآية (٦٩) من سورة التوبة... ١٩٣
- فساد القلوب والأديان من الخوض بالباطل، والاستمتاع بالخلق... ١٩٥
- احذر من فتنته هواه، ومن أعمته دنياه..... ١٩٥
- احذر العالم الفاجر، والعابد الجاهل..... ١٩٥
- أصل كل فتنة تقديم الرأي على الشرع، وتقديم الهوى على العقل..... ١٩٥
- الشبهات تُدفع باليقين، والشهوات تدفع بالصبر..... ١٩٥
- بالصبر واليقين، تُنالُ الإمامةُ في الدين..... ١٩٥
- جمع الله بينهما في آية (٣) من سورة العصر..... ١٩٩
- جمع الله بينهما في آية (٤٥) من سورة ص..... ٢٠٠
- معنى قوله: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾..... ٢٠٠
- فصل: الهدى والرحمة اللذان بهما سعادة العبد وفلاحه إنما يحصلان
 بسلامته من الشهوات والشبهات..... ٢٠٢
- جمع الله للخضر في الآية (٦٥) من سورة الكهف بين الرحمة والعلم،
 كما جمع لأصحاب الكهف بين الرحمة والرشد..... ٢٠٢
- معنى الرشد..... ٢٠٤
- قد يقابل الرشد بالضر والشر، كما في سورة الجن..... ٢٠٤

- الغبي سبب حصول الضر والشر..... ٢٠٦
- مقابلة الهدى بالضلال وبالعذاب..... ٢٠٦
- يجمع الله بين الضلال والعذاب، كما في قوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ
وَسُعِيرٍ ﴾، وكما في آية (١٢٤) من سورة طه..... ٢٠٦
- دعاء أولياء الله ربهم ألا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداها..... ٢٠٨
- جمع الله بين الهدى والرحمة في عدة آيات..... ٢٠٨
- الهدى العام والهدى الخاص بأهل اليقين والمتقين..... ٢١١
- القرآن بصائر لجميع الناس..... ٢١٦
- البصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة..... ٢١٦
- قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ ومعناها..... ٢١٦
- الإبصار يستعمل لازماً ومتعدداً..... ٢١٨
- القرآن بصيرةً وتبصرةً وهدىً وشفاءً ورحمةً بمعنى عام، ومعنى خاص..... ٢١٨
- القرآن هدى بالفعل لمن اهتدى، وبالقوة لمن لم يهتد..... ٢١٨
- الأثر: «مَنْ أزداد علماً ولم يزدد هدىً؛ لم يزدد من الله إلا بُعداً»..... ٢٢٠
- الله الهادي، وكتابه الهدى، وقلب العبد القابل للهداية..... ٢٢٢
- المحل القابل للهدى هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه..... ٢٢٢
- إذا لم يكن المحل قابلاً لم يؤثر فيه الهدى كما لا يؤثر الغذاء في غير محله..... ٢٢٢
- القرآن لا يزيد الظالمين إلا خساراً، ولا يزيد المنافقين إلا مرضاً..... ٢٢٥
- لا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع الفاعل والقابل والآلة..... ٢٢٥
- معنى قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾..... ٢٢٥

- ٢٢٨..... اتصال الهدى بالرحمة في حق المؤمنين.....
- معنى قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾.....
- ٢٢٩.....
- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية.....
- ٢٣١..... الرحمة تكون على حسب ما عند العبد من الهدى.....
- ٢٣١..... الرحمة الخاصة بالمؤمنين غير الرحمة العامة.....
- جمع الله للمؤمنين بين الرحمة والهدى والصلاة في آية (١٥٧) من
- سورة البقرة.....
- ٢٣٢..... قول عمر: «نِعَمَ الْعِدْلَانِ، وَنِعَمَتِ الْعِلَاوَةِ».....
- ٢٣٢..... أكمل المؤمنين إيماناً، أعظمهم نصيباً من الرحمة.....
- حديث: «أرحم أمتي يأتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر...» الحديث.....
- ٢٣٢..... أعلم الصحابة أبو بكر.....
- ٢٣٣..... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.....
- العبد بجهله يسعى في مضار نفسه وحرمانها من كرامتها وثوابها.....
- ٢٣٣..... فصل: الرحمة صفة تقتضي إيصال الخير إلى العبد وإن كره ذلك.....
- ٢٣٥.....
- ٢٣٧..... رحمة الوالد بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل.....
- من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد؛ لِيُمَحِّصَهُ.....
- ٢٤٢..... في الأثر: «إن المبلى إذا دُعِيَ له: اللهم ارحمه، قال الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!».....
- ٢٤٣.....
- ٢٤٣..... في الأثر: «إذا أحب الله عبداً حماه طيبات الدنيا».....

- من رحمته تعالى بالمؤمنين ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، وأن نغص عليهم
الدينا؛ لئلا يسكنوا إليها، وأن حذرهم نفسه؛ لئلا يغتروا به... ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠
فصل: ضد الهدى والرحمة: الضلال والغضب؛ ولذلك أمرنا الله أن نسأله
كل يوم مرات الهداية إلى صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجنبنا طريق
المغضوب عليهم والضالين..... ٢٥١
فصل: كل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته..... ٢٥٣
الأعمال التي يعملها ابن آدم إما أن يتخذها ديناً أو لا، والدين إما حق
وإما باطل، والنعيم التام في الدين الحق علمًا وعملاً..... ٢٥٤
ما يصيب كثيرًا من المؤمنين من المصائب وكثيرًا من الكفار والفساق من
الرياسة والمال وغير ذلك..... ٢٥٨
ظن بعض الناس أن ما وعد الله من العزة والنصرة والفلاح للمؤمنين
هو في الآخرة فقط..... ٢٥٨
من يعلل ما ينال المؤمن من المصائب في الدنيا ومن لا يعلل..... ٢٦٣
من هؤلاء من يتهم الرب سبحانه بما لا يصدر إلا من عدو..... ٢٦٤
ما كان يقول الجهم بن صفوان مما ينفي به الحكمة والرحمة عن الله..... ٢٦٤
قول بعض كبار الضلال: ما على الخلق أضر من الخالق!..... ٢٦٦
قولهم: إذا أطعته وتبت إليه نكد عليّ عيشي..... ٢٦٩
وهذا ناشئ من حسن ظن العبد بنفسه، ومن اعتقاد أن الله لا يؤيد
صاحب الحق ولا ينصره..... ٢٧١، ٢٧٤
العبد وإن آمن بالآخرة لا بد له من الدنيا..... ٢٧٦
حديث: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم...» الحديث..... ٢٧٦

- إذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل إلا بفساد الدنيا لم يقدم على طلبه.... ٢٧٩
- أصل هذه الفتنة ناشئ من جهل حقيقة الدين، و جهل حقيقة النعيم.... ٢٧٩
- كمال العبد إنما يحصل بمعرفة النعيم الذي يطلبه، والعمل الذي
يوصل إليه..... ٢٧٩
- ما يكون من جهل العبد بأمر الله ودينه وبوعده ووعيده من الفتنة.... ٢٨٤
- كثيراً ما يترك العبد واجبات لتقصيره في العلم..... ٢٨٥
- قد يترك واجبات القلوب التي هي أكد من واجبات البدن..... ٢٨٥
- ما أكثرَ مَنْ يتعبد الله بترك ما أوجب عليه! وهذا من أمقت خلق الله
إلى الله..... ٢٨٥
- ما أكثرَ من يتعبد الله بما حرّمه عليه، ويعتقد أنه طاعة! وهو شر من
يعتقده معصية ويفعله..... ٢٨٧
- ما أكثرَ من يعتقد أنه مظلوم ومحق من كل وجه، ولا يكون في الحقيقة
كذلك!..... ٢٨٧
- أكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن الآباء والأجداد..... ٢٩٢
- إنما ضمن الله نصر وليه القائم بدينه علماً وعملاً، ولم يضمن نصر الباطل
وإن اعتقد صاحبه أنه حق..... ٢٩٢
- ولاية الله ومَعِيَّتُهُ الْخَاصَّةُ ونصره الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل.... ٣٠٢
- بما تقدم يزول الإشكال الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾..... ٣٠٥
- التحقيق أن المنفي هو السبيل الكامل عن أهل الإيمان الكامل..... ٣٠٥

- فصل: المقام الثاني الذي وقع فيه الغلط: ظن كثير من الناس أن أهل الدين والحق يكونون في الدنيا أذلاء، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله، ومن سوء الفهم لكتابه..... ٣٠٩
- قد بيّن الله في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة..... ٣١٤
- ما أصاب العبد من مصيبة فبذنوبه..... ٣١٨
- قد ذم الله من يطلب النصرة والعزة من غير المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات... ٣١٨
- ونظيره قوله في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وما بعدها..... ٣٢٤
- قول عبدالله بن أبي المنافق: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ الآية..... ٣٢٤
- قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾... ٣٢٦
- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ...﴾ الآية..... ٣٢٦
- قوله في سورة الصف: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَمِ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...﴾ الآيات..... ٣٢٨
- قوله تعالى للمسيح في سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ الآية..... ٣٣٠
- لما كان للنصارى نصيبٌ من عيسى كانوا فوق اليهود..... ٣٣٠
- قوله تعالى للمؤمنين في سورة الفتح: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ...﴾ الآية..... ٣٣٢
- قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾..... ٣٣٢
- قوله في سورة آل عمران: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾..... ٣٣٥

قوله إخبارًا عن يوسف: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ...﴾ الآية..... ٣٤١

قوله في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَل

لَكُمْ فُرْقَانًا﴾..... ٣٤٥

قوله في سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾..... ٣٤٥

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوَسِعَتْهُمْ»..... ٣٤٧

الآيات الواردة في المقام الثاني، وهو أن كل مصيبة تصيب العبد بذنوبه..... ٣٤٧

قوله تعالى في قصة أحد في سورة آل عمران: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً

قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ الآية..... ٣٤٧

قوله في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾..... ٣٥٠

قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ

أَيْدِيكُمْ﴾..... ٣٥٠

قوله في سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِي النَّاسِ﴾..... ٣٥٠

قوله في سورة الشورى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ

بِهَا﴾ الآية..... ٣٥٢

قوله في سورة الروم: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ الآية..... ٣٥٢

قوله في سورة الشورى: ﴿أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ الآية..... ٣٥٣

قوله في سورة النساء: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ

فَمِنْ نَفْسِكَ﴾..... ٣٥٣

- ولهذا أمر الله رسوله وأتباعه بالتَّبَاع ما أنزل إليه وطاعته، وهو المقدمة الأولى، وأمر بانتظار وعده، وهو المقدمة الثانية، وأمر بالاستغفار والصبر... ٣٥٣
- قد ذكر الله قصص أنبيائه وكيف نجاهم بالصبر والطاعة، وجعل فيهم العبرة..... ٣٥٣
- فصل: في أصول نافعة يتبين بها هذا المقام..... ٣٥٧
- الأصل الأول: الواقع شاهد أن ما يصيب المؤمنين من المحن دون ما يصيب الكفار..... ٣٥٧
- الأصل الثاني: ما يصيب المؤمنين مقرون بالرضا والاحتساب، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب..... ٣٥٩
- الأصل الثالث: أذى المؤمن محمول عنه بحسب ما في قلبه من حقائق الإيمان..... ٣٦٣
- الأصل الرابع: كلما تمكنت المحبة في القلب كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلى..... ٣٦٤
- الأصل الخامس: باطن ما ينال الكافر والمنافق من العز والجاه: ذل وهوان.... ٣٦٥
- قول الحسن: «إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطققت بهم...» إلخ.... ٣٦٥
- الأصل السادس: ابتلاء المؤمن كالدواء له..... ٣٦٨
- حديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له...» الحديث... ٣٦٨
- الأصل السابع: ما يصيب المؤمن أمرٌ لا بدمنه؛ كالحر والبرد لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم؛ لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين..... ٣٧٣

- لو تجرّد الخير في هذا العالم عن الشر لكان عالماً غير هذا العالم..... ٣٧٣
- الأصل الثامن: في ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم: حِكْمٌ عَظِيمَةٌ
- منها: استخراج عبوديتهم لله بالذل والانكسار والسؤال..... ٣٧٦
- ومنها: لو كانوا دائماً منصورين لدخل معهم مَنْ ليس قصده الدين..... ٣٧٨
- ومنها: أن الله يجب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء،
- في العافية والبلاء..... ٣٨٠
- ومنها: أن امتحانهم يمحصهم ويهذبهم، كما حصل يوم أُحُد، وما جاء
- فيها من الآيات (١٣٩ - ١٤٤) من سورة آل عمران..... ٣٨٠
- بيان ما في هذه الآيات من مقاصد..... ٣٨٤
- الأصل التاسع: إنما خلق الله السموات والأرض والموت والحياة
- لابتلاء عباده..... ٣٨٨
- قوله تعالى في سورة هود: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
- أَيَّامٍ﴾ إلخ..... ٣٨٨
- قوله في سورة الكهف: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾..... ٣٨٨
- قوله في سورة الملك: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾..... ٣٩١
- قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾..... ٣٩١
- قوله في سورة محمد: ﴿وَلِنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ
- وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَعْبَارَكُمْ﴾..... ٣٩١
- قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية، ومعناها..... ٣٩٣

قوله في سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾..... ٣٩٣

امتحان الكافر في الآخرة بالعذاب..... ٣٩٥

المؤمنون أخف فتنةً من الكافر والفاجر..... ٣٩٥

لا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس..... ٣٩٨

الأصل العاشر: الإنسان مدنيٌّ بالطبع، لا بدله من مخالطة الناس وموافقتهم

أو مخالفتهم في أهوائهم واعتقاداتهم، ولا بد في ذلك من ألم وعذاب... ٣٩٨

اعتبر هذا بمن يطلبون موافقته على الظلم والزور..... ٤٠٠

ألم يسير يعقب لذة عظيمة أولى بالاحتمال..... ٤٠٠

الأصل الحادي عشر: البلاء الذي يصيب العبد في الله إما في نفسه أو

في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يجب..... ٤٠٢

أشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس، وغاية ذلك الاستشهاد في سبيل الله،

وتلك أشرف الموتات وأسهلها وأفضلها عُقبى..... ٤٠٥

قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾..... ٤٠٥

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾..... ٤٠٧

إذا كان هذا في مصيبة النفس؛ فمصيبة المال والعرض كذلك..... ٤٠٨

من رفةً بدنه وعرضه، وأثر راحته على التعب لله؛ أتعبه الله أضعاف ذلك..... ٤٠٨

قول أبي حازم: «لما يلقي العبد الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق...» إلخ..... ٤٠٨

امتنع إبليس عن ذل سجدة، فصار خادماً لأهل الفسوق والعصيان..... ٤١١

أنف عباد الأصنام أن يعبدوا إلهًا واحدًا، ورَضُوا أن يعبدوا آلهة

من الأحجار..... ٤١١

- كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته؛ لا بد أن يذل للحقير ويبذل ماله في مرضاته..... ٤١٣
- فصل: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والرضا عنه وبه: أصل الدين، كما أن معرفته بأسمائه وصفاته أجل علوم الدين..... ٤١٦
- قول الله لرسوله: ﴿ تَمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾..... ٤٢٠
- وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أن يقولوا عند الصباح: «أصبحنا على فطرة الإسلام...» الحديث، وهي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله..... ٤٢٢
- محبة الرسول تابعة لمحبة الله، ولا يكون الإيمان إلا بها، فما الظن بمحبة الله؟!..... ٤٢٦
- ما خلقت الجن والإنس، ولا أرسلت الرسل، ولا أسست الجنة والنار؛ إلا لأجل محبته..... ٤٢٨
- الله سبحانه كلما خفته أنست به، بخلاف المخلوق..... ٤٣٠
- محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال..... ٤٣٠
- شأن محبة الله غير شأن محبة المخلوق؛ فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح الحلاوة التي يجدها المؤمن بمحبته الله فوق كل حلاوة..... ٤٣٢
- قول بعضهم: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا...» إلخ..... ٤٣٣
- قول آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله»..... ٤٣٣
- قول آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها»..... ٤٣٣
- قول آخر: «لو علم الملوك وأبناؤهم ما نحن فيه لجالدونا بالسيوف عليه»..... ٤٣٣

- وجدان ذلك بحسب قوة المعرفة بالمحبوب وأسمائه وصفاته..... ٤٣٣
- القلب لا يفلح ولا ينعم ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحده وحبّه..... ٤٣٥
- في القلب فقرٌ ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوه، ومن حيث هو ربه وخالقه ورازقه..... ٤٣٥
- من لم يحقق المحبة لله على أتم معانيها، لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله... ٤٣٨
- من لم يستعن بالله ويتوكل عليه، فلا طريق له إلى هذه المحبة..... ٤٣٨
- لذة المعصية وشهوتها تستر لذة الحلاوة الإيمانية أو تنقصها أو تذهبها... ٤٤١
- حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...» الحديث..... ٤٤١
- المؤمن يرى استبداله بلذة المعصية من لذة حب الله، كاستبدال البعر الخسيس بالجواهر النفيس..... ٤٤٤
- في الناس الخسيس الذي لا يجب إلا الخسيس، كما أن فيهم من لا يجب إلا الصنائع الخسيسة..... ٤٤٤
- من حصل له حلاوة الإيمان عدم اقتضاء الذنب، وهو صاحب النفس المطمئنة..... ٤٤٧
- من عنده إيمان وتصديق بوعد الله ووعيده، يترك الذنب خوفاً ورجاء... ٤٤٧
- قول الله تعالى في النفس المطمئنة: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الخ..... ٤٤٩
- قول الله تعالى في النفس المجاهدة: ﴿ثُمَّ لِيَرْبِّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا﴾ الآية..... ٤٤٩
- النفوس ثلاثة: مطمئنة، أو مجاهدة صابرة، أو مفتونة بالشهوات..... ٤٤٩
- فصل: في بيان كيد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين..... ٤٥١

- ٤٥١..... كان في امتثال الشيطان أمر ربه سعادته وعزه.
- إنما قام بقلبه هوس نفسه الجاهلة، وحسده لآدم على ما أكرمه الله به من
- ٤٥٤..... أنواع الكرامة.
- كان الشيطان يطيف بآدم وهو صلصال فيقول: لئن سلط عليّ لأعصينه،
- ٤٥٤..... ولئن سلطت عليه لأهلكه.
- معارضة الشيطان وحزبه للنصوص بالعقول والرأي الفاسد، وفي ذلك
- ٤٥٨..... اعتراض العليم الحكيم.
- حجته الداخضة في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم وأصله..... ٤٦٠
- أهان الشيطان نفسه وأذلها بجهله، ومَن كان غشه لنفسه كذلك كيف
- ٤٦٠..... يسمع منه عاقل؟
- فصل: وأما كيده للأبوين فمناهما بالخلود في الجنة، وحلف أنه ناصح،
- فجرت عليهما المحنة، ثم تداركهما الله، فعلمهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا
- ٤٦٢..... وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
- ظن اللعين أن الله يتخلى عن صفيه وحببيه..... ٤٦٥
- بُلي العدو بالذنب فأصر وعارض، ولم يسأل الإقالة ولا ندم. وبلي الحبيب
- بالذنب فاعترف وندم، وتضرع، وفزع إلى التوحيد والاستغفار..... ٤٦٧
- فصل: ثم كاد أحد ولدي آدم حتى قتل أخاه..... ٤٦٩
- حديث: «ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها»..... ٤٦٩
- فصل: ثم جرى الأمر على الاستقامة والسداد..... ٤٧١
- قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾..... ٤٧٣
- قول قتادة: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الهدى..... ٤٧٧

- قول ابن عباس: كانوا على الإسلام. وهو الصحيح..... ٤٨٠
- قول الحسن وعطاء: كانوا على ملّة واحدة هي الكفر. وهو ضعيف..... ٤٨٠
- قراءة أبي بن كعب: (فاختلفوا فبعث الله النبيين)..... ٤٨٢
- المقصود أن العدو كادهم بعبادة الأصنام وإنكار البعث حتى انقسموا إلى مؤمن وكافر..... ٤٨٢
- أول ما كاد به عبّاد الأصنام من العكوف على القبور وتصوير المقبورين..... ٤٨٢
- قول الله: ﴿وَلَا تَذَرْنَهَا وَلَا سِوَاهَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾..... ٤٨٢
- رواية البخاري عن ابن عباس: «هذه أسماء رجال صالحين...»..... ٤٨٥
- رواية ابن جرير عن محمد بن قيس: «كانوا قومًا صالحين...»..... ٤٨٥
- ما روى الكلبي أن أولاد شيث كانوا يأتون جسد آدم في المغارة التي دفنوه فيها من أرض الهند ويعظمونه، وأن رجلاً من بني قاييل..... ٤٨٧
- نحت صنماً لبني قاييل..... ٤٨٧
- قول الكلبي في قصة ودّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر، وأن أول من صورهم رجل من بني قاييل..... ٤٨٨
- كانت هذه الأصنام عملت على عهد يرد بن مهلائيل، ثم بعد القرن الثالث عظمت وعُبدت، فبعث الله إليهم إدريس فكذبوه..... ٤٨٨
- بعث الله نوحًا وهو ابن أربع مئة وثمانين سنة..... ٤٩٠
- الطوفان قذف هذه الاصنام إلى ساحل جدة فوارثتها الرمال على كرّ الأيام..... ٤٩٠
- عمرو بن لحي كان كاهنًا، وكان له رثيٌّ من الجن..... ٤٩١
- عمرو بن لحي أول من كشف عن هذه الاصنام بإرشاد رثيّه من الجن..... ٤٩١
- عمرو بن لحي من فرق هذه الأصنام في الجزيرة ودعا الناس إلى عبادتها..... ٤٩١

- ٤٩٢..... كان أهل الجاهلية يبعثون باللبن إلى وُدِّ.....
- ٤٩٢..... هدم خالد بن الولد صنم وُدِّ.....
- ٤٩٣..... كان ود على صورة رجل عظيم عليه حلثان تقلد سيفاً وتكعب قوساً.....
دفع عمرو بن لحي سواعاً إلى الحارث بن تميم المَضْرِي، فكان بأرض
وهاط من بطن نخلة.....
- ٤٩٣..... دفع عمرو بن لحي يغوث إلى مذحج فكان بأكمة باليمن.....
دفع عمرو بن لحي يعوق إلى مالك بن مرثد الهُمْدَانِي، فكان بخيوان
من اليمن.....
- ٤٩٣..... دفع عمرو بن لحي نسرًا إلى معديكرب الرعيني، فكان بسبأ تبعده
جَمِيْرٌ حتى هَدَّهم ذونواس.....
- ٤٩٣..... حديث: «رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَه في النار؛ كان أوَّلَ
مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ، وَعَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ».....
- ٤٩٥..... كان أكثم بن الجون الخزاعي يشبه عمرو بن لحي، ولا يضره شبهه.....
- ٤٩٧..... قول ابن هشام: إن عمرو بن لحي أتى بهبَل من الشام من أرض البلقاء.....
قول الكلبي: إنه لم يكن أحد من ولد إسماعيل يظعن من مكة إلا حمل
معه حجرًا من الحرم يعظّمه ويطوف به حيث كان مع تعظيمهم للبيت
وحججه، ثم عبدوا ما استحسِنوا من الأوثان، ونسوا دين إبراهيم،
واستخرجوا ما كان يعبد قومُ نوح.....
- ٤٩٩..... تلبية نزار: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.....
- ٥٠٠..... كان عمرو بن لحي أول من سَيَّبَ السَّوَابِ، وبحر البهيرة، وحمى الحامي،
وهو الذي انتزع الكعبة من جرهم ونفاهم عن مكة.....

- مرض عمرو بن لحي واستشفاهه بأرض الشام، وجلبه الأصنام إلى مكة
منها..... ٥٠١.....
- أقدم ما اتخذت العرب من الأصنام مناة، كان على ساحل البحر من ناحية
المشلل بقديد..... ٥٠٢.....
- كانت الأوس والخزرج أكثر الناس تعظيمًا لمناة..... ٥٠٢.....
- كانت الأوس والخزرج لا يرون حجَّهم يتم إلا بالخلق عند مناة،
والإقامة عنده وتعظيمه..... ٥٠٢.....
- كانت مناة لهذيل وخزاعة، فهدمت عام الفتح ثم اتخذوا اللات بالطائف،
وكانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلت عندها السويق..... ٥٠٣.....
- كانت قريش وجميع العرب تُعظِّم اللات، ويُسمَّونَ تيمَّ اللات..... ٥٠٣.....
- كانت مناة في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى..... ٥٠٣.....
- بعث المغيرة بن شعبة لهدم اللات وحرقتها، ثم اتخذوا العزى، اتخذها ظالم
ابن أسعد بوادٍ من نخلة فوق ذات عرق..... ٥٠٣.....
- كانوا يسمعون الصوت من بيت العزى، وكانوا يسمون عبد العزى،
وكانت أعظم الأصنام عند قريش..... ٥٠٣.....
- كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
خالدًا فعضدها، ثم رأى عند قطع الشجرة الثالثة حبشية نافثة شعرها،
ففلق رأسها بالسيف فإذا هي حممة، وقتل سادنها دبية..... ٥٠٤.....
- قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تلك العزى، ولا عزى بعدها»..... ٥٠٤.....

- كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، أعظمها هُبَلٌ، وكان من
عقيق أحمر..... ٥٠٤
- أول من نصب هبل خزيمة بن مدركة..... ٥٠٤
- كانت الأقداح السبعة التي يستقسمون بها أمام هبل..... ٥٠٤
- كانوا يستقسمون بالأزلام عنده..... ٥٠٥
- قول أبي سفيان يوم أحد: اعْلُ هُبَلٌ..... ٥٠٥
- وكان لهم إساف ونائلة؛ رَجُلٌ من جرهم وامرأة فَسَقَا في الكعبة
فمُسِخَا، فعبدتها خزاعة ومَن حج البيت من العرب..... ٥٠٦
- كان من الأصنام ذو الخَلَصَةِ، حجر أبيض منقوش عليه كهية التاج،
على سبع ليال من مكة إلى اليمن..... ٥٠٨
- كانت خَثَعَمٌ وِبَجِيلَةٌ تعظمُ ذا الخَلَصَةِ..... ٥٠٨
- قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجرير بن عبد الله البجلي: «ألا تكفيني ذا الخلصة؟»،
فهدمه وأحرقه..... ٥٠٨
- صنم ذي الكفين لدوس حرقه الطفيل بن عمرو..... ٥٠٨
- صنم ذي الشرى لبني الحارث بن يشكر..... ٥٠٨
- صنم الأقيصر لقضاة ولخم وجذام في مشارف الشام..... ٥٠٨
- صنم نهم لمزينة..... ٥٠٨
- صنم سعير لعنزة، والفلس لطيء، هدمه على أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ..... ٥٠٨
- كان لأهل كل دار بمكة صنمٌ في دارهم يتبركون به كلما أرادوا الخروج
إلى سفر أو عادوا منه..... ٥٠٨
- صنم عم أنس لخولان يقسمون له من أنعامهم وحرثهم بينه وبين الله..... ٥١٠

- صنم سعد لبني ملكان؛ صخرة طويلة بأرض فلاة، كانوا يهرقون عليها
الدماء، ويقفون عليه الإبل، فنفرت إبل واحد منهم فقال فيه شعراً يسبه... ٥١٠
كان لعمر بن الجموح السلمي الانصاري صنم من خشب اسمه مناة،
كان يذهب به بنوه إلى الحفر ويلطخونه بالعدرات، فكان ذلك سبب
إسلام عمرو وهدايته..... ٥١٢
شعر عمرو بن الجموح في ذم صنمه مناة، وشكر الله على هدايته للإسلام... ٥١٣
اتخذت العرب بيوتاً تعظمها مع الكعبة، وتهدي لها وتسدها وتطوف بها
كما تصنع بالكعبة، وكان بعضهم يسميها كعبة..... ٥١٩
كان الرُّجُل إذا نزل منزلاً جمع أربعة أحجار، فاتخذ أحسنها رباً، والثلاثة
أثافي لِقَدْرِهِ..... ٥١٩
قول أبي رجاء العطاردي: «كنا نعبد الأحجار في الجاهلية، فإذا وجدنا
حجراً هو أحسن نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا كثة تراب
ثم حلبنا عليها، ثم طفنا بها»..... ٥١٩
قول أبي عثمان النهدي نحو قول أبي رجاء..... ٥٢٢
قول عمرو بن عبسة مثل ذلك..... ٥٢٢
تكسير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأصنام التي كانت فوق الكعبة وحوها
يوم فتح مكة..... ٥٢٢
فصل: سبب تلاعب الشيطان بعباد الأصنام طائفة دعاهم من جهة
تعظيم الموتى؛ كقوم نوح..... ٥٢٤
لعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخذين على القبور المساجد والسرج..... ٥٢٤
حديث: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»..... ٥٢٥

- أبى المشركون إلا خلاف سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور..... ٥٢٥
- خواص المشركين اتخذوا الأصنام على صور الكواكب، وجعلوا لها بيوتا وسدنة وحجًّا..... ٥٣٢
- فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان، وبيوت بصنعاء..... ٥٣٢
- بيت الشمس بقرغانة بناه قابوس، وخرَّبه المعتصم..... ٥٣٢
- وضع برهمن لشريعة الهند..... ٥٣٦
- أعظم بيوت الأصنام بالهند بيت بالملتان من السند على صورة الهيولى الأكبر..... ٥٣٦
- فتحت مدينة ملتان في أيام الحجاج..... ٥٣٦
- لم يهدم المسلمون هذا الصنم على أن يأخذوا ثلث ما يجتمع عنده من المال..... ٥٣٦
- الهند تحج إليه من أُلْفَي فرسخ، وتحمل معها الأموال العظيمة..... ٥٣٦
- أصل عبادة الكواكب من مشركي الصابئة الذين ناظرهم إبراهيم وكسر ألهتهم..... ٥٣٨
- عباد الشمس يزعمون أنها ملك، ولها نفس وعقل..... ٥٣٨
- اتخذ عباد الشمس لها صنمًا بيده جوهرة على لون النار، وجعلوا له بيتًا خاصًا يقفون عليه الوقوف..... ٥٤٢
- عبادتهم للشمس كل يوم ثلاث مرات: إذا طلعت، وإذا غربت، وإذا توسطت الفلك..... ٥٤٢
- نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحري هذه الأوقات بالصلاة..... ٥٤٢
- فصل: عباد القمر اتخذوا له صنمًا، وزعموا أن له تدبير العالم السفلي..... ٥٤٤

- واتخذوا له صنماً على شكل عجل يجره أربعة، ويده جوهرة، وبيان كيفية عبادتهم له..... ٥٤٤
- اتخاذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناماً على صورتها..... ٥٤٦
- الأصل في الصنم أنه على شكل معبود غائب لينوب منابه..... ٥٤٦
- من أسباب عبادتها أن الشيطان يكلمهم من جوفها، ويخبرهم ببعض المغيبات..... ٥٤٦
- قولهم: إن الذي يسمعون روحانيات الأصنام أو الملائكة..... ٥٤٦
- أكثر أهل الأرض مفتونٌ بالأوثان، لم يتخلص منها إلا الحنفاء..... ٥٤٧
- قول إبراهيم: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾..... ٥٤٧
- حديث: «بَعَثَ النَّارَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعُونَ»..... ٥٤٩
- قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾..... ٥٤٩
- الدليل على عِظَمِ الفتنَةِ بالأصنام أن عابديها يبذلون نفوسهم وأموالهم..... ٥٥١
- الفتنة بالأصنام أشد من فتنة عشق الصُورِ والفجور بها..... ٥٥١
- تأله القلوب للأصنام أشد من تألهها للصُور..... ٥٥٢
- القرآن وسائر الكتب الإلهية مصرحة ببطلان عبادة الأوثان، وأن أهله أعداءُ الله ورسوله، وأنهم أولياءُ الشيطان..... ٥٥٢
- أباح الله لرسوله وأتباعه دماءهم وأموالهم ونساءهم وأبنائهم..... ٥٥٢
- فصل: من أسباب عبادة الأصنام: الغلوُّ في المخلوق..... ٥٥٤
- الله تعالى ينهى أن يُجعل غيره ندّاً له ومثلاً، لا أن يشبهه هو بغيره..... ٥٥٩

- كل مشرك فهو مشبهٌ لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه..... ٥٦٢
- وصف اليهود الله سبحانه بالنقائص والعيوب..... ٥٦٢
- قول اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، و﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾..... ٥٦٢
- وصفهم الله بالاستراحة من خلق العالم وأن له صاحبة وولداً من أبطل الباطل..... ٥٦٢
- الذين يقولون من أهل الكلام: إنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب عن الله، لا يقدرّون على الرد على من اتخذ له صاحبة والولد، فاستروح بعضهم إلى دليل الإجماع، وأدلّته عندهم ظنية..... ٥٦٤
- أهل السنة يقولون: إن تنزيهه سبحانه عن النقائص والعيوب واجبٌ لذاته، كما أن صفات الحمد والكمال واجبةٌ لذاته..... ٥٦٥
- نفى أهل الكلام ما أثبتته الرسل من صفات الله، وزعموا أنه يستلزم التجسيم، وجاؤوا إلى ما علّم بالفطر والاضطرار العقلي من تنزيه الله عن النقص فقالوا: ليس في أدلة العقل ما ينفيه..... ٥٦٦
- لم يكن في الأمم من جعل المخلوق أصلاً ثم شبه الله به..... ٥٦٩
- أهل الكلام أعرضوا عن بيان أصل عبادة الأصنام، وهو تشبيه أوثانهم بالله في الإلهية..... ٥٦٩
- وهذا موضع مهم يُعرف به الفرق بين ما نزه الله عنه، وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله..... ٥٦٩
- إنما قصد القرآن إلى إبطال ما عليه المشركون العادلون بالله غيره..... ٥٧٠
- الآيات في ذلك..... ٥٧٠

- قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: ﴿أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدَاءً﴾... ٥٧١
 معنى الند: المثل والشبيهه..... ٥٧١
 قول ابن مسعود وابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾:
 «لا تجعلوا لله أكفءاً من الرجال تطيعونهم في معصية الله»..... ٥٧١
 قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ومعناه... ٥٧٤
 قول ابن عباس: «يريد: عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام...»..... ٥٧٤
 قول الزَّجَّاج ومجاهد والأحرر والكسائي في معنى العدل..... ٥٧٤
 قول الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]..... ٥٧٧
 اعترفوا بضلالهم البين إذ جعلوا لله شبهًا وعدلاً من خلقه سوؤهم به
 في العبادة والتعظيم..... ٥٧٧
 قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾..... ٥٧٧
 لم يقل تعالى: هل تعلمه سميًّا لغيره؟..... ٥٧٩
 قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]..... ٥٧٩
 لم يكن أحد من الأمم يضرب الله مثلاً لخلقه..... ٥٧٩
 المشبه الله بغيره إن قصد التعظيم لم يكن تعظيماً..... ٥٨٠
 إثبات صفات الكمال لا يتضمن التشبيه والتمثيل..... ٥٨١
 الجهمية وأتباعهم أعرضوا عن التشبيه المذموم صفحاً، وجعلوا صفات
 الكمال تشبيهاً..... ٥٨١
 قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]..... ٥٨١

- الثناء على الله ليس بكونه سبحانه لا يماثل المخلوق، وإنما يكون بنفي الند
والعدل عن الله، وإثبات صفات الكمال له ٥٨٢
- قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لم يقصد به نفي
صفات كماله وعلوه على خلقه ونحوها، وإنما قصد به نفي شريك
يستحق العبادة معه ٥٨٣
- سياق الآيات (٦-١١) من سورة الشورى لبيان موقع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ
شَيْءٌ﴾ منها، وأنه تقرير لتوحيد الإلهية ٥٨٨
- نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْجُدَ أَحَدٌ لِمَخْلُوقٍ، أَوْ يَحْلِفَ بِهِ، أَوْ يَصِلِيَ
إِلَى قَبْرِهِ، أَوْ يَتَّخِذَ قَبْرَهُ مَسْجِدًا، أَوْ يَلْقَى عَلَيْهِ قَنْدِيلًا ٥٩٦
- المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم
والخضوع، والحلف به، والنذر له، والعكوف عند قبره ونحوها،
لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبتته لنفسه، النافون عنه ما نفاه
عن نفسه، الذين لا يجعلون له ندًا من خلقه ٦٠٠
- فصل: ومن كیده ما كاد به عبَاد النار ٦٠٤
- بشار بن بُرد الشاعر كان يُرْمَى بتعظيم النار ٦٠٨
- أصناف عبَاد النار، وعبادتهم وتعظيمهم لها ٦١١
- منهم من كان يتقرب بإلقاء نفسه فيها، وهم أكثر ملوك الهند، وكيفية
ذلك ٦١١
- فصل: ومن كیده وتلاعبه تلاعبه بعبَاد الماء، وكيفية عبادتهم ٦١٣
- فصل: ومن كیده وتلاعبه تلاعبه بعبَاد الحيوان؛ الخيل والبقر ٦١٤

- عباد الإنسان حيًّا وميتًا، والشجر والجن..... ٦١٤
- الآيات في عبدة الجن واستمتاعهم بالإنس..... ٦١٤
- قول ابن عباس ومجاهد والحسن في معنى استمتاع كل من الجن
والإنس بالآخر..... ٦١٦
- هذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين يحسبهم
الجهال أولياء الرحمن..... ٦١٨
- الذي نور الله بصيرته بالعلم والإيمان لا يروج عليه زغلهم..... ٦١٩
- الفاسق يستمتع بالشیطان، والشیطان يستمتع به..... ٦١٩
- المشرك يستمتع بالشیطان، ويستمتع الشيطان به..... ٦١٩
- معنى قوله: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]..... ٦١٩
- فصل: ومن تلاعبه بهم أن زين لهم عبادة الملائكة..... ٦٢١
- الآيات في ذلك من سورة سبأ، ومن سورة الفرقان..... ٦٢١
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧]
- عامٌّ في كل عابد ومن عبده من دون الله..... ٦٢٣
- قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾
- [الفرقان: ١٧] خطاب لعيسى وعزير والملائكة في قول مجاهد..... ٦٢٣
- قال عكرمة والضحاك والكلبي: هو عامٌّ في الأوثان وعبدتها..... ٦٢٣
- قول مقاتل في معنى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾..... ٦٢٣
- جواب المعبودين: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ
أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨] إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير ومن عبدهم
المشركون من أولياء الله..... ٦٢٣

- ٦٢٤..... قول ابن جرير في ذلك.
- القراءات في قوله (تتخذ) بالبناء للفاعل وبالبناء للمفعول، وما ورد
- ٦٢٤..... على كل من القراءتين من إشكال، والجواب عن ذلك.
- ٦٢٥..... جواب من قرأها بالبناء للفاعل من وجوه.
- ٦٢٧..... قول الزجاج: قراءة (تتخذ) - بضم النون وفتح الخاء - خطأ.
- ٦٢٧..... «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه.
- قرأ (تتخذ) بضم النون: زيد بن ثابت وأبو الدرداء وجماعة ذكرهم
- ٦٢٧..... ابن جني.
- ٦٢٨..... قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود.
- وعلى القراءتين فهذا الجواب من الملائكة والأولياء الذين عبدوا من
- ٦٢٨..... دون الله، لا من الأصنام.
- ذكرُ المعبودين السبب الذي أشرك به العابدون بقولهم: ﴿وَلَكِنْ
- ٦٢٩..... مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].
- قول الله للعابدين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ
- ٦٢٩..... صَرَفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: ١٩].
- ينادي منادي يوم القيامة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ﴾
- ٦٣٠..... [الصفات: ٢٥، ٢٦].
- فصل: كيد الشيطان للشئويه، القائلين: إن الصانع اثنان: إله الخير نور،
- ٦٣١..... وإله الشر ظلمة.
- ٦٣٤..... اختلفوا في نسبة النور إلى الظلمة، هل هو فوقها أو بجانبها؟

- مذاهبهم وأقوالهم السخيفة..... ٦٣٦
- مدار مذهبهم يدور على أن خير الموجودات كفاءً لشرها وأخبثها،
 وضدُّه له ومناوئٌ، وأن النور لا يصدر منه الشر، ثم جعلوه منبع الشر..... ٦٣٩
- قول الديصانية من المجوس..... ٦٤٣
- أصل مذاهبهم إثبات القدماء الخمسة: الباري، والزمان، والخلاء،
 والهيولى، وإبليس..... ٦٤٥
- كان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب، أخذ من كل دين شرًّا
 ما فيه، وصنَّف كتابا في إبطال النبوات..... ٦٤٧
- شناعته في قوله في سبب حدوث العالم..... ٦٤٧
- حكاية هذه السخافات ليعرف المؤمن قدر نعمة الله عليه..... ٦٤٩
- فصل: المجوس تعظم الأنوار والغيران والماء والأرض، وتقر بنبوة
 زرادشت..... ٦٥١
- المزدكية والخرمية لا يقولون بحلال ولا حرام، ولا نبوات ولا معاد..... ٦٥٢
- ومن هؤلاء القرامطة والإسماعيلية والنصيرية، وسائر فروع العبيديين
 الذين كانوا يُسَمَّونَ الفاطميين..... ٦٥٢
- تلاعب الشيطان بالصابئة، وأصل دينهم وفرقهم..... ٦٥٥
- الصابئة الحنفاء، والصابئة المشركون..... ٦٥٧
- الصابئة المشركون يعظمون الكواكب السبعة، والبروج الاثني عشر،
 ويتخذون لها الصوَر والهياكل، وأنواعًا من العبادات المخصوصة..... ٦٥٧
- من الصابئة من يوافق المسلمين في صوم رمضان واستقبال الكعبة
 والحج وغير ذلك..... ٦٥٩

- ٦٥٩..... هلال بن المحسن الصابئ.
- ٦٥٩..... أصل دينهم زعمهم أنهم ياخذون بمحاسن كل دين.
- ٦٥٩..... معنى الصابئ، وقول المشركين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ تَبِعَهُ: صباة....
- ٦٦٠..... أكثر الصابئة فلاسفة.
- ٦٦٠..... فرق الصابئة وبيان مذاهبهم وآرائهم الباطلة.
- قول المشركين منهم: لا وصول لنا إلى الله لجلاله وعظمته إلا بالسائط
الروحانية القريبة منه، فهم الهتنا وأربابنا، وهو إلههم وربهم، وما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى.....
- ٦٦١..... قالوا: لا يحصل لنا غرضنا إلا بالاستمداد من جهة هذه الروحانيات؛
بالتضرع وأنواع العبادات والقربات والبخور لها.....
- ٦٦٣..... قولهم: الأنبياء بشرٌ مثلنا، يريدون أن يتفضلوا علينا.
- ٦٦٣..... ابن عربي الاتحادي وأتباعه يقولون: الولي أفضل من النبي.....
كفرهم بأصل الدين الذي جاءت به الرسل، وهو عبادة الله وحده،
وأتباع رسله فيما جاؤوا به من عند الله.....
- ٦٦٤..... رد إمام الحنفاء إبراهيم على الصابئة في عبادة الكواكب، ومحاجته لهم.....
تخويفهم له أن تصيبه آلهتهم بسوء، كما يخوف المشرك الموحد أن يتصرف
فيه معبوده ومعتقه من الموتى.....
- ٦٦٧..... قلب إبراهيم حجته عليهم، وتخويفهم من الله والشرك به ما لم ينزل به
عليهم سلطاناً.....
- ٦٧٠..... قول ابن حزم: كان الذي ينتحله الصابئة أقدم الأديان على وجه الدهر.....

- فصل: في ذكر تلاعب الشيطان بالدهرية الذين عطلوا المصنوعات عن صانعها..... ٦٧١
- فرقة منهم قالت: إن الأفلاك أحرقت إلههم بسبب سرعة حركتها، وعدم قدرته على ضبطها..... ٦٧١
- فرقة منهم قالت: إن الأشياء لا أول لها ولا مبدأ، والعالم دائم لم يزل ولا يزال..... ٦٧١
- سرى داء هؤلاء الدهرية في أكثر الناس، ولم يَنْجُ منه إلا أتباع الرسل.... ٦٧٣
- فصل: في طوائف الفلاسفة، ومعنى الفلسفة..... ٦٧٤
- الحكمة التي جاءت بها الرسل..... ٦٧٤
- أصل معنى الفلسفة: محبة الحكمة، ثم صار في عُرف الناس مختصاً بمن خرج عن الديانات السماوية..... ٦٧٤
- بل خص باتباع أرسطو المشائين الذين هذب ابن سينا طريقتهم..... ٦٧٦
- أرسطو وشيعته أول من قال بقدم العالم..... ٦٧٦
- الفلاسفة القدماء يقولون بحدوث العالم وإثبات الصانع وعلوه على خلقه.... ٦٧٧
- قول ابن رُشد في إثبات الجهة لله تعالى عقلاً ونقلاً..... ٦٧٧
- فصل: كان أساطين الفلاسفة يعظمون الأنبياء، ولا يتكلمون في الإلهيات.... ٦٨٠
- كان أرسطو مشركاً يعبد الأصنام..... ٦٨٢
- كلام أرسطو في الإلهيات كله خطأ، تعقبه بالرد عليه كل طوائف المسلمين، حتى الجهمية..... ٦٨٢
- أنكر أرسطو علم الله الأشياء..... ٦٨٢

- حقيقة ما كان عليه أرسطو الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله
 واليوم الآخر..... ٦٨٤
 أتباعه يعظّمونه أكثر من تعظيمهم للرسول، ويسمونهم المعلّم الأول؛
 لأنه أول مَنْ وضع المنطق..... ٦٨٤
 فساد ميزان المنطق وعوجه وتعويجه للعقول..... ٦٨٦
 صنّف شيخ الاسلام ابن تيميّة كتابين في الرد على المنطق، بيّن فيهما
 تناقضه وتهافته..... ٦٨٦
 صنّف أبو سعيد السيرافي في الرد على المنطق..... ٦٨٦
 الفارابي وضع التعاليم الصوتية، وبسط فلسفة أرسطو وهذبها..... ٦٨٨
 الفيلسوف عندهؤلاء لا بد أن يكون كافرًا بالله وملائكته وكتبه ورسله
 واليوم الآخر، وإلا نسبوه إلى الجهل..... ٦٨٨
 الزندقة والإلحاد عندهم جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط فيها..... ٦٨٨
 ابن سينا يقول ويقرر أن الله هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وليس
 له صفة ثبوتية تقوم به..... ٦٩٠
 الله عندهم خيال لا حقيقة له..... ٦٩٣
 أرسطو لم يثبت إلا وجودًا من جهة كونه مبدأً عقليًّا للكثرة، وعلّة غائيّة
 لحركة الفلك..... ٦٩٤
 ابن سينا قرّب مذاهب الملاحدة إلى دين الاسلام بجهدده..... ٦٩٥
 الملائكة عندهم ما يتصوره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسه من أشكال نورانية
 هي العقول المجرّدة..... ٦٩٧

- ربما تقرّب بعضهم إلى الإسلام فقال: إنها القوى الخيرة الفاضلة،
 والشياطين هي القوى الشريرة.....٦٩٩
- كفر الفلاسفة بكتب الله؛ لأنه ليس له كلام، ولا ينبغي أن يتكلم، ومن
 تقرّب منهم إلى الإسلام قال: إنها فيض من العقل الفعّال على النفس
 الفاضلة الزكية.....٦٩٩
- النبوة عندهم كسبية، ومن تحقّقت فيه قوة الحدس وقوة التخيل
 والتخيل، وقوة التأثير بالتصرف في هيولى العالم؛ فهو نبيّ.....٧٠١
- قولهم: الفلسفة نبوة الخاصّة، والنبوة فلسفة العامّة.....٧٠١
- كفرهم باليوم الآخر.....٧٠٣
- هم أشدّ كفرًا من اليهود والنصارى.....٧٠٣
- أشدّ الناس خذلانًا من يحسن الظن بالفلاسفة ويقلدهم.....٧٠٣
- جهلهم وضلالهم في سلسلة الموجودات وصدور العالم عن العقول
 والنفوس.....٧٠٤
- أرسطو معطل مشرك جاحد للنبوات.....٧٠٦
- الرازي وشيعته لا يعرفون من الفلسفة إلا قول أرسطو.....٧٠٦
- ابن رُشد يحكي مذهب أرسطو على غير ما يحكيه ابن سينا.....٧٠٦
- فصل: الفلاسفة موجودون في كل أمة.....٧٠٧
- فلاسفة اليونان.....٧٠٧
- الإسكندر بن فيلبس ليس هو ذا القرنين، ذلك مشرك ملحد، وهذا
 مؤمن موحد.....٧٠٩
- كان أرسطو وزيرًا للإسكندر المقدوني.....٧٠٩

- استيلاء الروم على اليونان بعد البطالسة، وكان اليونان والروم يعبدون
 الأصنام.....٧١٢
- سقراط أحد تلامذة فيثاغورس الذي كان من عبادهم وخالفهم في
 عبادة الأصنام.....٧١٢
- مذهب سقراط في الصفات كان قريباً من مذهب أهل الإثبات.....٧١٤
- أفلاطون كان معروفاً بالتوحيد وإنكار عبادة الأوثان وإثبات حدوث
 العالم.....٧١٧
- خالف أرسطو أستاذه أفلاطون، وتبعه ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين
 إلى المللِ حتى انتهت النبوة إلى ابن سينا.....٧١٧
- كان ابن سينا وأبوه من أهل دعوة الحاكم العبيدي من القرامطة الذين
 لا يؤمنون بمبدأ ولا بمعاد ولا رب ولا رسول.....٧١٧
- كان العبيديون زنادقةً، يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض.....٧١٩
- كان العبيديون يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الشرك
 والكفران في زمن العبيدين وُضعت رسائل إخوان الصفا.....٧١٩
- النصير الطوسي وزير هولاءكو نصير الشرك والكفر.....٧١٩
- بمشورته فعل هولاءكو ببغداد وعلمائها والخليفة الأفاعيل الشنيعة.....٧١٩
- نقل النصير الطوسي الأوقاف الإسلامية وجعلها في المنجمين والسحرة
 والطبائعيين.....٧٢١
- نصر في كتبه قَدَمَ العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب سبحانه...٧٢١

- اتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا
 ٧٢١..... مكان القرآن.....
 قال النصير الطوسي: القرآن للعوام، والإشارات قرآن الخواص..... ٧٢١
 كان النصير الطوسي ساحرًا يعبد الأصنام..... ٧٢١
 ألف الشَّهْرَسْتَانِي كتاب «المصارعة» في الرد على ابن سينا، فألف نصير
 الإلحاد كتاب «مصارعة المصارعة» في نقض كلام الشهرستاني، نفى فيه
 أن يكون الله خالقًا عليًّا، ولا فاعلاً مختارًا..... ٧٢٢
 الفلسفة التي يقرؤها الناس اليوم مأخوذة عن النصير الطوسي، وإمامه
 ابن سينا، وبعضها عن الفارابي..... ٧٢٣
 دين مشركي العرب خير من خير أقوال هؤلاء..... ٧٢٣
 الفلاسفة فَرَّقُوا شَتَّى، أحصى المؤلَّفون في المقالات منهم اثني عشرَ فرقةً..... ٧٢٤
 لا تكاد تجد من الفلاسفة اثنين متفقين على رأي واحد..... ٧٢٤
 سرى منهم التعطيل في الأمم..... ٧٢٥
 فرعون كان إمام المعطلة..... ٧٢٥
 كل جهمي فهو مقتدٍ بفرعون..... ٧٢٥
 بعد موت موسى رفع التعطيل رأسه، وقدموه على نصوص التوراة..... ٧٢٨
 انتقام الله من بني إسرائيل بتسليط مَنْ قتلهم، كما هي سُنَّتُه في كل أُمَّة
 تُعرض عن الوحي..... ٧٢٨
 سلَّط الله النصارى على المسلمين ببلاد المغرب، والتتارَ عليهم ببلاد
 المشرق لما اشتغلوا بالفلسفة والمنطق..... ٧٢٨

- جَدَّدَ عَيْسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ، فَكَذَّبُوهُ وَعَادَوْهُ، وَرَامُوا قَتْلَهُ، فَطَهَّرَهُ
الله من أيديهم واستقام الأمر بعده نحو ثلاث مئة سنة..... ٧٣١
- إفساد النصارى لدين عيسى بإدخال الفلسفة، وعبادة الصور، والقول
بالاتحاد، ثم تناسخت الشريعة فاستحلوا الخمر والخنزير، وعبدوا
الصليب، وتعبَّدوا بالنجاسات، وغيرُوا وبدَّلُوا كثيرًا..... ٧٣١
- ثم كان للنصارى عدَّةٌ مجامعَ يتفرقون منها على الاختلاف والتلاعن.... ٧٣٤
- جمع قسطنطين ثلاث مئة من البتاركة والأساقفة لبحث مقالة أريوس
في الأب والابن والكلمة..... ٧٣٤
- مناظرة أريوس مع بَتْرِكِ الإسكندرية في المجمع الثاني، وكانوا ألفين
وثمانية وأربعين أسقفًا وبَتْرَكًا..... ٧٣٥
- الخيانة الكبرى - التي يسميها النصارى الأمانة - التي وضعها مجمع
قسطنطين وجعلوها شعار النصرانية..... ٧٣٩
- المجمع الثالث للعن ريوس، وكانوا مئة وخمسين أسقفًا..... ٧٤٠
- مقالة أريوس: إن رُوح القدس مخلوق مصنوع، ليس بإله..... ٧٤٠
- مناظرة بترك الإسكندرية لأريوس، وتفرَّق المجمع على لعن بعضهم بعضًا.... ٧٤١
- زيادتهم في الأمانة التي وضعها الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفًا..... ٧٤١
- قولهم: إن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أفانيم وثلاثة وجوه وثلاثة
خواص، وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة..... ٧٤١
- زيادتهم ونقصهم، وتحليلهم ما كان محرَّمًا..... ٧٤١
- ثم كان لهم مجمع رابع بأفسييس على مناظرة نَسْطُورس، وتفرقهم على لعن
بعضهم بعضًا..... ٧٤١

- ٧٤٢.....النصارى المشاركة نستورية.....
ثم كان لهم مجمع خامس على مناظرة أوطيسوس في مقالته: إن جسد
المسيح ليس مع أجسادنا في الطبيعة، وهي مقالة اليعقوبية.....٧٤٤
انتشار مقالة أوطيسوس بمصر والإسكندرية.....٧٤٥
ثم كان لهم مجمع سادس في دولة مرقيون، وأبطلوا مقالة أوطيسوس،
وأثبتوا أنه يوجد للمسيح طبيعتان وأقنوم واحد، ولعنوا نستورس
بترك الإسكندرية.....٧٤٨
ثم كان لهم مجمع سابع في أيام أنسطاس الملك على مناظرة سورس
القسطنطيني.....٧٥١
غَضِبُ بَتْرِكِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرَهْبَانِهِ عَلَى أَنْسْطَاسِ وَسُورْسِ، وَلَعْنَهُمَا
بعث الملك أنسطاس يوحنا بتركا على بيت المقدس، فانضم إلى بترك
بيت المقدس.....٧٥١
مقالة يعقوب البرازعي.....٧٥٢
قتل بولس الملكاني في أيام قسطنطين.....٧٥٢
ثم كان لهم مجمع ثامن لمناظرة أساقفة منبج والرها والمصيصة في
مقالته: إن جسد المسيح خيال.....٧٥٢
ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية بن أبي سفيان، وفي هذا
المجمع لعنوا كل من تقدم من القديسين والباركة واحداً واحداً،
وزادوا في الأمانة ونقصوا، ووضعوا أمانة أخرى.....٧٥٧
ثم كان لهم مجمع عاشر.....٧٦٠

- اختلاف النصارى وتضاربهم واضطرابهم في آهتهم هو الذي أوجب
 للملاحدة أن يتمسكوا بما هم عليه من الالحاد..... ٧٦٢
 قول بعض ملوك الهند: الحكم العقلي يوجب محاربة النصارى؛ لأنهم
 قصدوا إلى مضادة العقل، وحلوا بيت الاستحالات..... ٧٦٤
 قول أفلاطون رئيس سدنة الهياكل بمصر: إن النصارى غيروا فِعْرَ
 بهم، وأطاعوا جهال ملوكهم فخلطوا عليهم، فأعطوا البشْر من التعظيم
 ما هو للخالق وحده..... ٧٦٥
 النصارى غلّوا في المخلوق، وتنقصوا الخالق بأنواع العيب والنقائص.... ٧٦٥
 النصارى سبوا الله بما لم يَسْبَهُ به أحد من البشر..... ٧٦٨
 حديث: «شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك...» الحديث..... ٧٦٨
 قول عمر في النصارى: «أهينوهم ولا تظلموهم؛ فلقد سبوا الله عَزَّجَلَّ...»..... ٧٦٨
 عقيدة النصارى في الفداء، وما فيها من الشناعات التي تأبأها كل العقول..... ٧٧٠
 قول بعض الملوك: إن النصارى عار على بني آدم..... ٧٧٢
 تركهم لشريعة عيسى ودينه..... ٧٧٢
 استقبالهم المشرق وتركهم استقبال بيت المقدس..... ٧٧٢
 لا يستنجون من بول ولا غائط..... ٧٧٣
 صلاتهم تصليب ومهزلة بما هو من أقبح الأعمال..... ٧٧٣
 في التوراة: «ملعون من تعلق بالصليب»..... ٧٧٤
 ما في تعظيمهم الصليب من تناقض ومخالفة للعقول والفطر..... ٧٧٤
 لو عقّلوا لكان الصليب أبغض شيء إليهم..... ٧٧٥
 قولهم: إن تعظيم الصليب كتعظيم قبور الأنبياء..... ٧٧٦

- ٧٨٢.....تبديلهم دين عيسى في الصيام.
- ٧٨٢.....اختراعهم أنواعاً من الصيام، وتحريم أكل اللحم.
- ٧٨٥.....فصل: رهبان النصارى أشد الناس احتيالاً على عقول العامة والبسطاء.
- حيلتهم في إشعال فتيلة في عيد النور، وما حكاها الطُّرُوشِي عما رآه
- ٧٨٦.....بيت المقدس.
- ٧٨٧.....حيلتهم في إدرار اللبن من ثدي تمثال لمريم كان بأرض الروم.
- ٧٨٧.....واجب ملوك المسلمين أن يمنعوهم من هذا الدجل والاحتيال.
- فصل: دين الأمة الصليبية مبنيٌّ على معاندة العقول والشرائع وتنقص الله
- ٧٨٩.....رب العالمين.
- دين النصارى من تأسيس تلك المجامع المتلاعنين على أن الواحد ثلاثة
- والثلاثة واحد.....
- ٧٨٩.....عقيدة اتحاد اللاهوت بالناسوت، وتمثيلها، والرد عليها.
- ٧٨٩.....قصيدة بديعة للمؤلف في الرد على النصارى، وتقبيح ما هم عليه من
- العقيدة السخيفة.....
- ٧٩٧.....فصل: تلاعب الشيطان بالنصارى في شأن المعبود، وفي عيسى، وفي
- الصليب وعبادته، وتصوير الصوَر في الكنائس وعبادتها.....
- ٧٩٩.....احتجاجهم للسجود للصوَر بحُجَج باطلة، ونقضها.
- فَطَرَ اللهُ العباد على استقباح معاملة عبيد الملك بما يعامل به الملك،
- فكيف من فعل ذلك بأعداء الملك؟!.....
- ٨٠٠.....زيادتهم في الصيام الكبير جمعة يصومونها لهرقل الذي استرد بيت
- المقدس من الفُرس؛ كفارةً له إذ نقض عهده مع اليهود وقتلهم.....
- ٨٠١.....

- نقلهم الصيام إلى فصل الربيع، وزيادتهم عشرة أيام..... ٨٠٢
- تلاعب الشيطان بهم في أعيادهم..... ٨٠٣
- عيد ميكائيل بالإسكندرية، وأول من ابتدعه، وأصله عيد لصنم..... ٨٠٣
- عيد الصليب، وقصة هيلانة أم قسطنطين في دعوى استخراجها للصليب
من المكان الذي كان مدفوناً به بيت المقدس بدلالة يهودي لها..... ٨٠٤
- من ميلاد المسيح إلى ظهور الصليب ثلاث مئة وثمانية وعشرون سنة..... ٨٠٥
- تقديسهم الصليب بمزاعم باطلة، والرد عليهم من عدة وجوه..... ٨٠٦
- وأما تلاعبه بهم في صلاتهم فمن وجوه..... ٨٠٧
- تغطية المطارنة والأساقفة فساد هذا الدين بما اخترعوا من الحيل والصور
في الحيطان بالألوان الجميلة والأعياد، وأنواع الموسيقى، وساعدهم
على ترويج غلظة اليهود وقسوتهم..... ٨١٢
- لما رأى النصارى الصحابة وما هم عليه آمن أكثرهم، وقالوا: ما الذين
صحبوا عيسى بأفضل من هؤلاء..... ٨١٦
- فصل: في ذكر تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية، وهم اليهود..... ٨٢٠
- الآيات والأحاديث في غضب الله على اليهود..... ٨٢٠
- حديث: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»..... ٨٢٣
- تلاعب الشيطان بهم في حياة موسى إذ قالوا له: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا
لَهُمْ إِلَهَةٌ﴾ بعد مجاوزتهم البحر وإغراق فرعون وقومه..... ٨٢٤
- حديث ذات أنواط، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قلتم كما قال قوم
موسى لموسى...» إلخ..... ٨٢٦

- فصل: ما في عبادتهم العجل من لعب الشيطان بهم بعد أن رأوا ما حل
 بالمشركين، وما في العجل من المحقرات التي تجعل عابده أحقر خلق الله.... ٨٢٧
- معنى قول الله في قصة العجل والسامري: ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
 فَانصِبْ ﴾ [طه: ٨٨]..... ٨٢٧
- رواية السدي في اتخاذ العجل وسببه..... ٨٣٣
- معنى قوله تعالى: ﴿ فَبَقِصْتُ فَبِضَّةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَبَدَّتْهَا
 وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: ٩٦]..... ٨٣٣
- رواية ابن إسحاق في قصة العجل والسامري..... ٨٣٤
- لم يعتب الله تعالى على موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إلقاء الألواح؛ لأن الذي
 حملة عليه الغضبُ لله..... ٨٣٥
- فصل: تلاعب الشيطان بهم في قولهم لموسى: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ
 جَهْرَةً ﴾، وتفسير ابن جرير لها..... ٨٣٧
- رواية ابن إسحاق في هذه القصة..... ٨٤٦
- معنى قول موسى: ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلِ وَايَاتِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا
 فَعَلَّ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]..... ٨٤٧
- فصل: من تلاعبه بهم حين قيل لهم: ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا
 حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ ﴾
 [البقرة: ٥٨]..... ٨٥١
- حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 «بَدُّوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم!»..... ٨٥٢
- الطاعون بالرصد لكل من بدّل دين الله..... ٨٥٣

- فصل: ومن تلاعبه بهم: طلبهم البصل والثوم والعدس، واستبداهم
الذي هو أدنى بالذي هو خير..... ٨٥٤
- فصل المَنْ والسلوى على غيرهما من الأغذية والأشربة..... ٨٥٧
- كانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنتا عشرة عَيْنًا من الماء..... ٨٥٧
- فصل: ومن تلاعبه بهم: أنهم لم يقبلوا التوراة حتى رفع الجبل فوق
رووسهم..... ٨٥٨
- رواية ابن زيد والسُّدِّي في هذه القصة..... ٨٦١، ٨٦٤
- فصل: ومن تلاعبه بهم أنهم حين أمرهم الله أن يدخلوا القرية التي كتب
الله لهم وبشّرهم بها قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا
هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]..... ٨٦٦
- ما في خطاب موسى لهم من التلطف والتذكير بنعم الله، وما في قولهم
من المعصية والامتناع والجن..... ٨٦٨
- الرجلان اللذان أنعم الله عليهما، ومَن كانا: أمِنُ قوم موسى، أم من
الجبارين؟..... ٨٧٠
- قول الأنصار لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة بدر: «لا نقول لك
كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا
قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن
خلفك..... ٨٧٢
- فصل: ومن تلاعبه بهم قصة القتيل الذي تدارؤوا فيه، والبقرة، وما في
هذه القصة من أنواع العِبر..... ٨٧٤

- لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة الأسئلة..... ٨٧٧
- لو أنهم ذبحوا أي بقرة لكانت إياها، ولكن شددوا فشدد عليهم..... ٨٨٠
- مقابلة أمر الله بالإنكار: نوع من الكفر..... ٨٨١
- بحث للامام ابن جرير فيما يُستفاد من قصة البقرة، وحال بني إسرائيل..... ٨٨٣
- من أقبح ظلمهم وجهلهم قولهم لموسى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ جِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾..... ٨٨٣
- فصل: ومن العبر في قصة البقرة: الإخبار عن قساوة قلوبهم وغلظها..... ٨٨٥
- الظاهر أن هذه القصة بعد قصة العجل..... ٨٨٥
- فصل: ومن تلاعبه بهم ما قص الله من صيد السمك..... ٨٨٨
- قصة أصحاب السبت الذين مسخهم قرده لما تحيلوا على استحلال ما حرم الله..... ٨٨٨
- الحرص على الشيء يوجب الحرمان منه..... ٨٨٨
- فصل: ومن تلاعبه بهم: إذابتهم الشحوم وبيعها وأكل ثمنها، وقد حرّمها الله عليهم..... ٨٩٢
- اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، ولعنهم على ذلك..... ٨٩٤
- كانوا يقتلون الأنبياء، ويتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله..... ٨٩٦
- حديث عدي بن حاتم في معنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]..... ٩٠٠
- قتلهم زكريا ويحيى حتى سلط الله عليهم بُخْتَنَصْرَ وَسَنْجَارِيْبَ..... ٩٠٢
- ما كان منهم في شان عيسى وأمّه، ورميها بالعظائم وهم يعلمون أنه رسول الله، ثم محاولتهم قتله وصلبه..... ٩٠٢

- لم يَزَلْ أَمْرُهُمْ فِي سَفَالٍ حَتَّى قَطَّعَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا، وَمَزَّقَهُمْ
 ٩٠٥..... كُلَّ مُمَزَّقٍ.....
- لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرُوا بِهِ، فَأَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَضَبَهُ،
 وَلَزِمَهُمُ الذَّلُّ وَالصَّغَارُ حَتَّى يَنْزِلَ عَيْسَى آخِرَ الزَّمَانِ فَيَطْهَرُ الْأَرْضَ
 ٩٠٥..... مِنْهُمْ.....
- فصل: ومن تلاعب الشيطان بهم: دعواهم أن الله محجور عليه
 ٩٠٧..... النسخ في الشرائع، وأن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد!.....
- ٩٠٧..... جعلهم هذه الضلالة ترسًا لهم في جحد نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.....
- ٩٠٩..... قد أكذبهم الله في نص التوراة، كما كذبهم في القرآن.....
- آيات ﴿كُلُّ الْأَطْعَامِ كَانَ حِلًّا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٩٣]
 ٩٠٩..... تضمنت بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ.....
- الاستدلال بهذه الآيات على إبطال دعوى اليهود في النسخ لم يَحْمُ
 حَوْلَهُ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ..... ٩١٢.....
- التوراة نسخت ما قبلها من الشرائع، فما يمنع أن ينسخها غيرها
 ٩١٣..... بَعْدَهَا؟!.....
- إلزامهم جواز النسخ ووقوعه بما هم عليه من أحكام في الطهارة
 والنجاسة خالفوا بها ما كان عليه موسى وخلفاؤه..... ٩١٤.....
- فصل: قالت الأمة الغضبية: لم تأتِ التوراة بإباحة محظور، والنسخ
 الذي نكروه هو ما أباح محظورًا، وجوابهم على ذلك..... ٩١٦.....
- نسخ التحريم للمصلحة كنسخ التحليل للمصلحة سواء..... ٩١٦.....
- إلزامهم نبوة المسيح و محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٩١٧.....

- لو كان الشيء يحرم لعينه لحرم على جميع الأنبياء والأمم، وليس السبت ونحوه محرماً على نوح وإبراهيم..... ٩١٧-٩١٨
- أمثلة مما غيرهُ الأَحبار من شرائع التوراة في الصلاة والصيام..... ٩١٩
- من العجب أن تحجر هذه الامة الغضبية النسخ على الله، ثم تبيح لأحبارها أن يبطلوا من شرائع التوراة ما يشاؤون!..... ٩٢٠
- ومن تلاعب الشيطان بهم: زعمهم أن الفقهاء إذا أحلوا الشيء صار حلالاً، وإذا حرّموه صار حراماً..... ٩٢٠
- فصل: ومن تلاعب الشيطان بهم: ما شدوده على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس في التوراة..... ٩٢٢
- كتبا المشنا والتلمود..... ٩٢٢
- التلمود أُلّف في عدة عصور من فتاوى الأَحبار، وهو مقدار حمل بغل..... ٩٢٢
- تحريمهم في هذين الكتابين بعض مطاعم غير اليهود وذبائحهم ومناكحتهم؛ حتى لا يختلطوا بالأمم الآخرين..... ٩٢٣
- اختلاق الأَحبار في الذبائح كتاباً سمّوه: «هلكت شحيطا»، وما فيه من شروط الذبيحة..... ٩٢٣
- إن كانت رئة الذبيحة مثقوبة، أو قلبها ملتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبيين ولو بعرق دقيق؛ كانت عندهم طريفاً، أي: نجسة..... ٩٢٣
- الطريفاً في التوراة هي ما يفترسه السبع، والدليل على ذلك من التوراة..... ٩٢٤
- سبب تحريم الفريسة على بني إسرائيل..... ٩٢٤

- تعدّي مشايخهم في هذه الطريقة إلى هذيانات تتعلق بالقلب والرئة ونحوها..... ٩٢٥
- اليهود القراءون يبرؤون من المشنا والتلمود، ويصفون مولفهم بأنهم كذابون أهل حماقات ودعاوى كاذبة، يدعون أنهم يوحى إليهم، وأن الوحي يوقفهم على الحق ويسمعونه..... ٩٢٥
- اطّراح القرائين ما افتراه الحاخاميم ونسبوه إلى التوراة..... ٩٢٦
- الفرقة الثانية: الربانون، وهم أصحاب القياس، وفيهم الحاخاميم الكذابون المفترون، وهم أشد اليهود عداوةً لغيرهم بما بثّ الحاخاميم في نفوسهم من الكراهية للأمم..... ٩٢٦
- إنما صنع الحاخاميم ذلك بهم؛ لأغراضٍ ومنافع لهم في ذلك..... ٩٢٧
- كلما كان الحاخام أكثر تكلفاً وأشدّ إصراراً قالوا: هذا العالم الرباني..... ٩٢٧
- من الأسباب التي دعتهم إلى التشديد والتضييق: أنهم مبددون في شرق الأرض وغربها، فإذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة... ٩٢٧
- يظهر لهم الخشونة والمبالغة في الدين؛ لينال الكرامة والمنزلة عندهم... ٩٢٧
- هم أبداً يعتقدون الصواب والحق مع من يشدد ويضيق..... ٩٢٨
- فصل: ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم يطلبون التخلص بأنواع الحيل مما يأمرهم الله به وينهاهم عنه..... ٩٢٩
- إلزامهم الأخ أن يتزوج امرأة أخيه الميت عنها بلا عقب، ثم احتيالهم على الخروج من ذلك بما هو أشنع الحيل وأقبحها..... ٩٢٩
- احتيالهم ومكرهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله يحفظه ويقيه شرهم..... ٩٣٠
- مكر اليهود، وخيانتهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأتباعه..... ٩٣٠
- اليهود أجبن الناس وأذلهم..... ٩٣٢

- ٩٣٣..... تمثيلهم أنفسهم بعناقيد العنب وغيرهم بالشوك.
- ٩٣٣..... انتظارهم قائماً يعيد لهم مجد إسرائيل من ولد داود.
- ٩٣٣..... هم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال.
- الأمم الثلاثة تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان، والمسلمون ينتظرون عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقتل اليهود والخنزير، ويكسر الصليب..... ٩٣٣
- ٩٣٥..... فصل: قولهم لله: كم تنام يا رب؟! استيقظ من رقدتك!..... ٩٣٥
- ٩٣٥..... نسبتهم الندم والبكاء ورمد العين إلى الله تعالى.
- قولهم: إن الله استنشق رائحة قنار شواء قربان نوح، فقال: لن أعاود لعنة الأرض..... ٩٣٦
- ٩٣٦..... قولهم: إن الله استراح بعد خلق السموات والأرض.
- قولهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو ذلك، وقول الله له: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾..... ٩٣٧
- ٩٣٧..... قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْهُ﴾!، و﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾!..... ٩٣٧
- صلاتهم في العشر الأول من الشهر الأول، ويقولون فيها: لا يكون الملك لله إلا إذا عادت الدولة لبني إسرائيل..... ٩٣٨
- فصل: ومن تلاعب الشيطان بهم قدحهم في الأنبياء، وأذيتهم لهم أذيتهم لموسى في حياته وشمته بأنه آدر، وحديث البخاري في قصة اغتساله وَعَدُوِّ الْحَجَرِ بثوبه حتى قام على بني إسرائيل عرياناً فبرأه الله..... ٩٣٩
- ٩٤١..... أذيتهم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولأمه..... ٩٤١
- ٩٤٢-٩٤١..... نسبتهم لوطاً إلى شرب الخمر والزنا بابنتيه..... ٩٤٢-٩٤١
- ٩٤٢..... نسبتهم يهوذا بن يعقوب إلى الزنى بزوجة ولده..... ٩٤٢

- ٩٤٣..... بهتانهم بجعل أولاد المسلمين أولاد زنى
- ٩٤٤..... بهتانهم بدعوى أن عبد الله بن سلام كان يعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.....
نسبتهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه حل تكة سرواله وجلس من زليخا
- ٩٤٤..... مجلس الرجل من المرأة، حتى ظهر له يعقوب في الحائط
- ٩٤٥..... زعمهم أن عيسى كان عالمًا أو طيبًا، وإقامته الحجّة عليهم في السبت
- ٩٤٦..... إلزامهم أن عيسى ابن مريم هو النبي المنتظر.....
فصل: لا يمكن ليهودي ولا نصراني أن يؤمن بنيه حتى يؤمن
بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.....
- ٩٤٨..... لم يشاهدوا شيئًا من معجزات موسى ولا عيسى، ولا يعرفون ذلك
إلا من القرآن.....
- ٩٤٨..... تقليد اليهود والنصارى لأبائهم تقليدًا أعمى لا يفيدهم شيئًا،
ولا يجعل آباءهم أصدق من غيرهم، وكلُّ منهم يكفّر الآخر.....
- ٩٤٩..... نقض ما استدلوا به من التواتر.....
- ٩٥١..... نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي التي تثبت نبوة موسى وعيسى.....
فصل: قد اختلفت أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم؛ هل هي
مبدلة، أو مؤولة؟ على ثلاثة أقوال.....
- ٩٥٣..... معنى التأويل والتحريف.....
- ٩٥٣..... قول طائفة: إن التحريف كان بالتأويل لا في التنزيل، وأدلة ذلك.....
قول الطائفة الثالثة: إن التوراة زيد فيها، وغير ألفاظ يسيرة، ولكن
أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه، والتبديل في يسيرٍ منها جدًّا، وهو اختيار
شيخ الاسلام ابن تيمية.....
- ٩٥٥..... التحقيق أن الذبيح إسماعيل من عشرة وجوه.....
- ٩٥٦.....

- حديث: «أنا ابن الذبيحين»..... ٩٥٩
 أحبار اليهود معتقدون أن ما بأيديهم ليس هو التوراة الحقيقية،
 وأدلة ذلك..... ٩٥٩
 قولهم: إن موسى منع بني إسرائيل التوراة ولم يُعْطِها إِلَّا لأولاد
 لاوي..... ٩٥٩
 ضياع التوراة بقتل بختنصر للأئمة الهارونيين يوم غزا بيت المقدس... ٩٦٠
 عُزَيْر هو الذي جمع هذه التوراة من محفوظاته ومحفوظات الكهنة..... ٩٦٠
 التوراة في الواقع كتابٌ عُزَيْرٍ، وفيها كثير من التوراة المنزلة على موسى... ٩٦١
 لحق التوراة الزيادة والنقصان، واختلاف الترجمة، واختلاف التأويل،
 وسياق أمثلة على ذلك..... ٩٦١
 المثال الأول: تحريفهم نص: «لحم فريسة في الصحراء...» إلخ..... ٩٦١
 المثال الثاني: تحريفهم نص: «نبياً أقيم لهم...» إلخ الذي فيه البشارة
 بنبوّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٩٦١
 المثال الثالث: تحريفهم نص: «جاء الله من طور سيناء، وأشرق نوره
 من سيعير، واستعلى من جبال فاران»..... ٩٦٣
 فصل: ومما يدل على غلط أفهام هذه الأمة: أنهم يجرمون طبخ
 لحم الجدي بلبن أمه؛ لعدم فهمهم للنص..... ٩٦٥
 فصل: ولا يستبعد اصطلاح هذه الأمة كافة على المحال؛
 لأن دولتهم انقرضت، وتتابع عليهم الغارات..... ٩٦٦
 لم يَلْقَ اليهودَ من أمة من العدل والرحمة ما لقوا من المسلمين..... ٩٦٦
 أعز ما صادفه الإسلام من هذه الأمة يهود خيبر والمدينة وما جاورها... ٩٦٧

- كان يهود قريظة والنضير يستفتحون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرب والأوس والخزرج، فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاءهم ما عرفوه من آياته كفرو به، وسبقهم العرب (الأوس، والخزرج) إلى الإيمان به... ٩٦٧
- أشد ما كان على اليهود من ملوكهم العصاة الذين كانوا يقتلون الأنبياء ويعبدون الأصنام..... ٩٦٧
- استعبد الفرس اليهود ومنعواهم عن أعمال دينهم؛ كالحثان وغيره..... ٩٦٨
- منع الفرس اليهود عن الصلاة؛ لأنهم يدعون فيها على الأمم بالدمار والخراب..... ٩٦٨
- ابتدعهم الحزّانة بدل الصلاة..... ٩٦٨
- الحزّانة ينوحون فيها ويبكون على أنفسهم، ويوقعونها على الموسيقى، ويجتمعون لها جماعة يترنمون بها..... ٩٦٨
- فهرس المصادر والمراجع..... ٩٧٠
- فهرس الكتاب..... ١٠٥٥